

الدُّرُوسُ وَالْعِبَرُ  
فِي

غَزَوَاتٍ وَسِرَايَا خَيْرِ الْبَشَرِ صَلَّيَ اللَّهُ  
مُسَوِّعَةً سَامِلَةً لِأَهْلِهَا وَدُرُوسَ الْغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا الْبُرَى

# غَزْوَةُ الْحُلَيْدِيَّةِ

الجزء الثاني

غَزَايَاتُ مُحَمَّدٍ قَاسِمٍ

من علماء الأزهر الشريف

الوادي  
للثقافة والإعلام

دار الوفاء

الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

## غزوة الحديبية (٢)

فهرسة أثناء النشر  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

قاسم ، غريب محمود  
الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر-صا الله عليه وسلم: موسوعة شاملة  
لاحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية /د. غريب محمود قاسم  
- ط1 - القاهرة: الوادى للثقافة والاعلام، 2020م.  
572 ص، 24 سم.  
تدمك 20 90 677 977 978  
1- السيرة النبوية-عصر الجهاد في سبيل نشر الدعوة 2-غزوة الحديبية (2)  
أ-العنوان 239.4

تاريخ الإصدار: 1441هـ - 2020م  
حقوق الطبع: محفوظة  
الطبعة: الأولى  
رقم الإيداع: 2019/23267  
الترقيم الدولي: 20-90-677-977-978 ISBN:  
تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من  
الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن  
أو ما يستجد مستقبلا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة  
أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من  
الناشر.

**الوادي**

للثقافة والإعلام

ص.ب (130) محمد هريدي القاهرة 11518  
E-mail: darannashr@hotmail.com

# الدروس والعبر في

## غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

موسوعة شاملة لأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية

### غزوة الحديبية (٢)

الأحد هلال ذي القعدة ٦هـ / ١٣ مارس (آذار) ٦٢٨م / ١٧ برمهاث ٣٤٤ قبطي

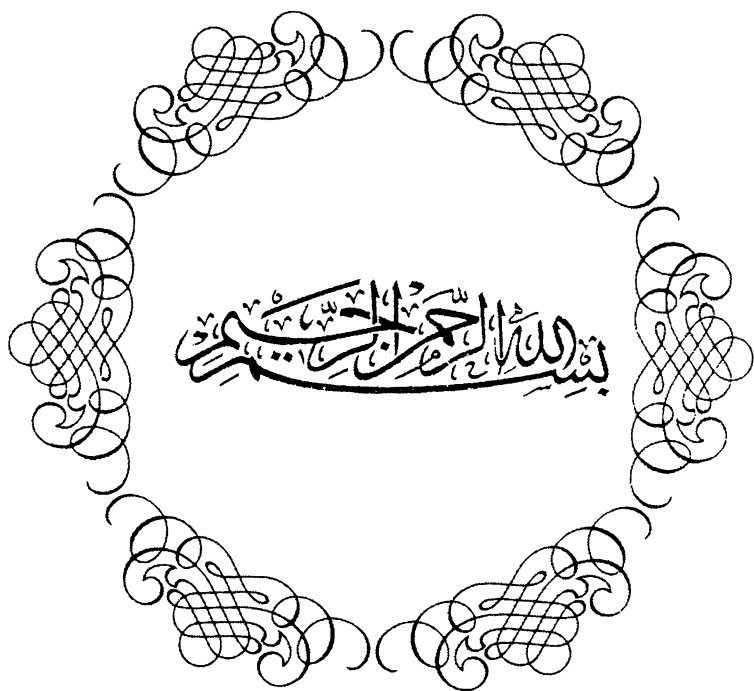
الباب الثاني: المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية)



غريب محمود قاسم

من علماء الأزهر الشريف





# الباب الثاني

## المرحلة الثانية من غزوة الحديبية

### (صلح الحديبية)

الفصل الأول: عرض المرحلة الثانية من

غزوة الحديبية (صلح الحديبية)

الفصل الثاني: الدروس والعبر المستفادة من

المرحلة الثانية من غزوة الحديبية

(صلح الحديبية)



## الفصل الأول

### عرض المرحلة الثانية من غزوة الحديبية

#### (صلح الحديبية)

#### المبحث الأول

#### صلح الحديبية

#### قريش تسعى للصلح بعد البيعة:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن تمت البيعة في الحديبية تأكد لدى سادات مكة أن ذلك يعني الاستنفار العام بين المسلمين، وأن البيعة لا تعني تصميم المسلمين على خوض الحرب ضد قريش، فخاف القرشيون خوفاً شديداً؛ لأنهم يدركون (سلفاً) أن نتيجة هذه الحرب إذا ما نشبت ستكون في غير صالحهم مستمدين هذا الإدراك من التجارب العملية القاسية التي لمسوها في بدر وأحد والخندق.

#### كيف نصح سهيل بن عمرو قريشاً بالجنوح إلى السلم؟:

ولهذا فقد سارع زعماء قريش إلى طلب الصلح من المسلمين، بناء على مشورة ونصح سهيل بن عمرو سيد بني عامر بن لؤي.

عندما شعرت قريش بحراجة الموقف وازدياد حدة التوتر إلى حد الانفجار قبل البيعة، بعثت بسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وآخرين من الزعماء إلى الحديبية ليجسوا نبض المسلمين ويطلّعو على حقيقة الموقف كما هو بين المسلمين، ثم يقدّموا تقريراً إلى نواب دار الندوة في مكة ليتخذ هؤلاء النواب القرار النهائي بشأن هذه الأزمة التي باتت تقلق المشركين - في الواقع - أكثر مما تقلق المسلمين.

ولقد اطلع سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده - الذين هم في واقعهم عيوناً وجواسيس جاؤوا في صورة وفد للتفاوض - اطلعوا على حقيقة الموقف في الحديبية وأخذوا الانطباع الصحيح عن مدى الغليان الشديد بين المسلمين ومدى استعدادهم لخوض المعركة الفاصلة إن هي نشبت.

[صلح الحديبية لباشميل ٢١٠-٢١٢].

#### إِرْسَالُ قُرَيْشٍ سُهَيْلًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ لِلصُّلْحِ:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَحُوَيْطِبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ وَمَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ مَنَازِلَ بَنِي مَارِ بْنِ النَّجَّارِ وَقَدْ نَزَلَتْ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ جَمِيعًا».

[الغازي للواقدي ٢/ ٦٠٢-٦٠٣].

يقول د/ الحكيمي: «ورد خبر إرسال قريش لسهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ في حديث المسور ومروان، لكن جاء ذكره بمفرده، وورد في بعض الأحاديث أن قريشاً أرسلت معه حويطب بن عبد العزى وحفصاً هذا، ففي حديث المسور ومروان من طريق معمر بعد أن ذكر قصة مكرز بن حفص قال: «فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا... وفي حديثها من طريق ابن إسحاق قال: فَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ: أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَقَالُوا: ائْتِ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صُلْحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنُودٌ أَبَدًا.

فَاتَّاهَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَكَلَّمَ وَأَطَالَ الْكَلَامَ وَتَرَا جَعَا، حَتَّى جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ. وفي مرسل عروة من طريق ابنه هشام أن قريشاً بعثت مكرز بن حفص مع سهيل: فبعد أن ذكر قصة عروة بن مسعود قال: «فلما سمعوا مقالته أرسلوا إليه سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص فقالوا: انطلقوا إلى محمد فقاضياه».

وقد تقدم في حديث المسور ومروان من طريق معمر أن مكرزاً ذهب قبل سهيل وفي أثناء حديثه مع النبي ﷺ قدم سهيل بن عمرو، وهذا في البخاري فالأخذ به أولى.

وجاء في حديث سلمة بن الأكوع ؓ عند ابن أبي شيبة وغيره أن قريشاً بعثت مع سهيل بن عمرو حويطب بن العزى وحفصاً، قال ابن أبي شيبة: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ عَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، عَنْ أَبِيهِ ؓ، قَالَ: بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَحُوَيْطِبَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى وَمَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُصَالِحُوهُ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: «قَدْ سَهَّلَ مِنْ أَمْرِكُمْ، الْقَوْمُ مَاتُونَ إِلَيْكُمْ بِأَرْحَامِكُمْ (أي متوسلون إليكم بقرابة)، وَسَائِلُوكُمْ الصُّلْحَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ، وَأَظْهِرُوا التَّلْيِيَةَ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُلِينُ قُلُوبَهُمْ»، فَلَبَّوْا مِنْ نَوَاحِي الْعُسْكَرِ، حَتَّى ارْتَجَّتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالتَّلْيِيَةِ، قَالَ: فَجَاؤُوا فَسَأَلُوا الصُّلْحَ. [المصنف لابن أبي شيبة ٤٠٩/٢٠ رقم ٣٨٠٠٦].

وأخرجه ابن جرير عن محمد بن عمار، ومحمد بن منصور، كلاهما عن عبيد الله بن موسى به مثله وقال فيه: «حفص بن فلان...». [تاريخ الأمم والملوك ٦٢٩/٢].

سند هذا الحديث ضعيف لضعف موسى بن عبيدة.

ووقع عند البيهقي في مرسل عروة: «بعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص». [دلائل النبوة ٤/ ١٣٤].

وهذا الأثر ضعيف لأنه مرسل، وفي سنده إلى عروة ضعف، ومكرز بن حفص لم يذهب مع سهيل بن عمرو كما سبق بيانه. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٢٣٦-٢٣٩].

### سهيل بن عمرو يشاهد بيعة الرضوان:

يقول أ/ باشميل: «ولعله من حسن طالع قريش أن يكون سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده حاضرين في الحديبية ساعة مبايعة المسلمين لنبهم ﷺ على الموت.

فقد شاهد سهيل وأصحابه إجراءات البيعة، فرأوا مظهرًا من أعظم مظاهر التفاني في خدمة العقيدة، والاستعداد للتضحية والفداء في سبيل الله، فملئت قلوبهم رعبًا وقر في أعماق نفوسهم أنه لا يمكن لقريش أن تقتصر على هؤلاء الذين يكاد بعضهم يظأ ظهر بعض وهم يتسابقون ليشدوا على يد نبيهم القائد مبايعينه على الموت، والبهجة والفرح والسرور والغبطة تعلق وجوههم».

لذلك عاد سهيل بن عمرو وأصحابه إلى قريش وقدموا إلى دار الندوة تقريرًا شاملاً عما رأوا وشهدوا في الحديبية، وقد أفصحوا لنواب دار الندوة في هذا التقرير عن مخاوفهم من نتيجة الحرب إذا ما نشبت، وضمنوا هذا التقرير نصح قريش بأن تُسارع إلى مهادنة المسلمين وعقد صلح معهم ترضع بموجبه الحرب أوزارها». [صلح الحديبية لباشميل ٢١٢].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَرَجَعَ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَمَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ إِلَى قُرَيْشٍ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِمَا رَأَوْا مِنْ سُرْعَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ، وَمَا جَعَلُوا لَهُ، فَقَالَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ: لَيْسَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نَصَالِحَ مُحَمَّدًا عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا وَيَرْجِعَ قَابِلًا، فَيَقِيمُ ثَلَاثًا وَيَنْحَرُ هَذِيهُ وَيَنْصَرِفَ، وَيُقِيمُ بِلَدِنَا، وَلَا يَدْخُلَ عَلَيْنَا». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٥].

وقد استجاب نواب برلمان قريش إلى الاقتراح الداعي إلى مصالحة المسلمين، فعيّنوا منهم وفدًا برئاسة سهيل بن عمرو ليتولى مفاوضة المسلمين من أجل إقامة الصلح.

### سهيل بن عمرو النجم اللامع:

يقول أ/ باشميل: كان سهيل بن عمرو من النجوم اللامعة بين سادات قريش في العقل والحلم والرزانة وأصالة الرأي وبُعد النظر.

ولذا كانت قريش تدخره للقضايا المعقدة وتفزع إليه لحل المضلات؛ لذلك لما تعقدت مشكلة الحديبية ووصلت إلى انفجار الحرب على أثر استنفار النبي ﷺ أصحابه وتعبثتهم للمعركة التي بات

واضحًا لدى قريش أن المسلمين سيخوضونها على إثر ما وصلهم من خبر اعتقال المشركين عثمان رضي الله عنه والعشرة من المهاجرين وقتلهم في مكة، لجأت إلى هذا السيد العامري ليكون رئيس وفدها في مفاوضات السلام التي قرر برلمان مكة (دار الندوة) إجرائها مع المسلمين لإنهاء الأزمة.

### هيئة الوفد القرشي:

وقد تم تأليف وفد المفاوضات من ثلاثة أعضاء من سادات مكة، هم:

١- سهيل بن عمرو (عامري) رئيسًا.

٢- حويطب بن عبد العزى (عامري) عضوًا.

٣- مكرز بن حفص (عامري) عضوًا.

### الخطوط العريضة للمعاهدة عند قريش:

ويظهر أن قريشًا قد وضعت في برلمانها (دار الندوة) لوفدها المفاوضات الخطوط العريضة لما يجب أن تكون عليه المفاوضات في الحديبية بين الفريقين.

ومهما يكن فإنه يمكن القول: إن البيعة في الحديبية قد كانت عامل تحوّل جذري في موقف قريش من العناد والتصلب والشطط إلى الاعتدال.

فقد كانت نقطة الخلاف الرئيسية والتي كاد الخلاف حولها بين المسلمين وقريش يؤدي إلى حرب مدمرة، هو أن قريشًا كانت تصر على منع المسلمين (كليًا) من دخول مكة ما بقي لقريش فيها من سلطان. ولكن قريشًا تراجعت أخيرًا عن فكرة منع المسلمين من دخول مكة ولكن بأسلوب يحفظ لها شيئًا من ماء الوجه بين العرب الذين شاع بينهم أن قريشًا لن تسمح للمسلمين بدخول مكة أبدًا.

فقد وافقت - في قرارها الأخير في دار الندوة - على السماح للمسلمين بدخول مكة لأداء مناسك العمرة، ولكن ليس في هذا العام وإنما في العام القادم، وهو قرار ما كانت قريش لتتخذ لولا ذلك القرار الحازم الذي اتخذته النبي القائد ﷺ والذي بموجبه أعلن أنه لن ينصرف إلى المدينة حتى يناجز قريشًا.

لذلك - ولخوف قريش الشديد من الحرب التي لم يعد أمرها مجرد كلام في الهواء، ترسله قريشًا للمزايدة - أعطت قريش رئيس وفدها إلى الحديبية سهيل بن عمرو صلاحيات مطلقة لإحلال السلام، على أن يركز أثناء المفاوضات على التمسك بمطلب واحد، لا يجيد عنه، وهو أن قريشًا لا تمانع في أن يدخل المسلمون مكة، ولكن شريطة أن يكون ذلك في العام القادم.

فقد قالوا لسهيل بن عمرو: «أَنْتَ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجَعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنُوةً أَبَدًا».



وتركت باقي التفاصيل والإجراءات في صيغة معاهدة الصلح لسهيل بن عمرو يصوغها كيف شاء، وكان سهيل رجلاً صريحاً شهماً عفا اللسان - دبلوماسياً - لبقاً في محادثاته، مع منزلة عالية في دنيا الفصاحة، حيث كان يعد في مقدمة خطباء قريش المفوهين (وقد أسلم فيما بعد، وحسن إسلامه فاستشهد في معركة اليرموك الشهيرة في الشام). [صلح الحديبية لباشميل ٢١٣-٢١٦].

### سهل الله لكم من أمركم:

توجه سهيل بن عمرو والوفد المرافق له إلى الحديبية، وقد استبشر النبي ﷺ وبشر أصحابه بالفرج عندما رأى سهيل مقبلاً.

عن عبد الله بن السائب أن النبي ﷺ عام الحديبية حين أخبره عثمان أن سهيلاً أرسله إليه قومه فصالحوه على أن يرجع عنهم هذا العام ويخلوها قابلاً ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «سَهْلٌ سَهْلٌ عَلَيْكُمُ الْأَمْرُ».

[مجمع الزوائد / ٦ / ٢١٣ في المغازي والسير (١٠١٨٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه مؤمل بن وهب المخزومي تفرد عنه ابنه عبد الله وقد وثق، وبقيته رجاله رجال الصحيح].

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «فَلَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَهْلٌ أَمْرُهُمْ!». [المغازي للواقدي ٢ / ٦٠٣].  
وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ الزُّهْرِيُّ: ثُمَّ بَعَثَ قُرَيْشُ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، أَخَا بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُنْ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا نُحَدِّثُ الْعَرَبَ عَنَّا أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنَوةً أَبَدًا».

فَأَتَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلاً، قَالَ: «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ»، فَلَمَّا انْتَهَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَكَلَّمَ فَأَطَالَ الْكَلَامَ وَتَرَجَّعَا، ثُمَّ جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٦].

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «فَأَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الصُّلْحِ وَالْمَوَادَعَةِ بَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَمَعَهُ حُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَى وَمَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، وَقَالُوا: أَنْتَ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلْيَكُنْ فِي صَلَاحِكَ: لَا يَدْخُلُ فِي عَامِهِ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا يَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّكَ دَخَلْتَ عَلَيْنَا عَنَوةً».

فَأَتَى سُهَيْلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ طَلَعَ قَالَ: «أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ»، فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَطَالَ الْكَلَامَ وَتَرَجَّعُوا، وَتَرَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَانْخَفَضَتْ». [المغازي للواقدي ٢ / ٦٠٥].

### رغبة النبي ﷺ في السلام:

يقول أ/ باشميل: ولا شك أن هذا التصرف من النبي ﷺ يدل على أنه - بالرغم من اتخاذه القرار الحاسم بمحاربة قريش - لا يزال يأمل في الوصول إلى حل عادل للمشكلة يضمن حقن الدماء ويضمن

للمسلمين مباشرة حقهم في دخول مكة للطواف بالبيت، وهو الحق الذي أصرت قريش على إهداره بقوة السلاح حين أعلنت أنها ستحول (بعد السيف) دون دخول المسلمين مكة حتى وإن كانوا جاؤوا للعمرة فقط. [صلح الحديبية لباشمیل ٢١٦-٢١٧].

### أسباب الصلح ومقدماته:

يقول د/ الحكمي: «إننا حين نستعرض الأحداث والملابسات التي سبقت الصلح ووطأت ذلك التوتر الناجم عن شوق المسلمين إلى البيت من جانب، وعن حمية قريش وحقها على المسلمين من جانب آخر - حين نستعرض تلك الأحداث والملابسات نجد أن داعي الصلح وسببه قاسم مشترك بين الفريقين، فقد عرضت للمسلمين أحداث وطلت نفوسهم لقبول الصلح، كما عرضت للمشركين أحداث أخرى وملابسات ألبأتهم لقبول الصلح والرضا به.

أ - السبب في ميل المسلمين إلى الصلح: خرج المسلمون من المدينة وهم أشد ما يكونون شوقاً إلى البيت الحرام، ولقد كانوا عازمين على دخول مكة، وأداء نسكهم مهما كلفهم ذلك من ثمن، وفي الوقت نفسه كانوا حاسبين حساب قريش - لما كانوا يعلمونه من عدائها لهم وحقها عليهم - ولذلك أخذوا أهبتهم لاجتياح كل ما من شأنه أن يعوق طريق سيرهم، ولقد تجلّى موقفهم بوضوح عندما أتاهم نبأ قريش وإعدادها لصددهم، فقد جاء في حديث المسور ومروان ما نصه: «وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ، أَتَاهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ (هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً، والتحيش التجمع، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حبشياً، فسموا بذلك. النهاية ١/ ٣٣٠)، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ.

فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرُونَ أَنَّ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَائِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مُحْرُورِينَ (مسلوبين منهوبين)».

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا هَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهَ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، قَالَ ﷺ: «امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ». [البخاري في المغازي (٤١٧٨، ٤١٧٩)، والسنن الكبرى للنسائي في السير (٨٥٢٨)، وهو جزء من حديث المسور ومروان في مسند أحمد ٣١/ ٢٤٣-٢٥٣ رقم ١٨٩٢٨].

نلاحظ من خلال هذا النص حدة موقف المسلمين، فرسول الله ﷺ يستشير أصحابه في الإغارة على أهالي أولئك الذين قاموا بتعزيز جانب قريش، ثم يستقر رأيهم أخيراً على قتال كل من حاول صددهم عن البيت.

كان هذا موقف المسلمين الذي استقر عليه رأيهم بعد المشورة، لكن رأينا بعد ذلك تصريحاً من رسول الله ﷺ يبين ذلك الموقف تماماً.

يقول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». بالمقارنة بين هذا النص والنص السابق نرى الفارق بينهما، ذلك أن النص السابق يشعر بالحزم والصرامة، أما الأخير فيوحي باللين والتسامح إلى حد بعيد.

فما الذي حوّل الموقف السابق يا ترى؟

هذه العبارة التي صدرت عن رسول الله ﷺ تحمل في غرضها الساحة واللين سبقها في الحديث ما نصه: «وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالنَّبِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتُ بِهِ رَاحِلَتُهُ - وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: بَرَكَتُ بِهَا رَاحِلَتُهُ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَلْ حَلْ»، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ رَجَرَهَا فَوَثَبَتْ بِهِ.

[البخاري في الصلح (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

فهذا النص يفسر لنا الحامل لرسول الله ﷺ على ذلك التصريح الذي حوّل موقفه الأول، فما الذي جاء في هذا النص؟

جاء فيه حادثة بروت نافته ﷺ، وإذن فبروت النافة هو السبب في تحويل موقفه، ولا أعني بروت نافته البروت ذاته، لكن أقصد ما وراء البروت، وهو ما عبّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

والذي حبس الفيل عن مكة هو الله سبحانه، وإذن فالله هو الذي حبس نافة رسول الله ﷺ في الحديبية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وحين أدرك رسول الله ﷺ ذلك الأمر أصدر التصريح الذي غيّر به موقفه الأول إلى ذلك الموقف السمع المتجاوب، فكان له الأثر الفعال في نجاح الصلح حيث كان الجانب الإيجابي في مقابل سلبيات قريش.

**ب - السبب في انصياع قريش للصلح:** أما السبب الذي ألجأ قريشاً لقبول الصلح والرضا به، فيرجع إلى بيعة الصحابة لرسول الله ﷺ مع ملابسات أخرى، وتوضيح ذلك:

لما هب الصحابة هجلاً إلى رسول الله ﷺ فبايعوه على القتال حتى يفتح الله عليهم أو يموتوا، كان قد حضر ذلك المشهد بعض رسل قريش، فأذهلهم الأمر، ثم نقلوا تلك الصورة إلى قومهم، فأحدثت في

أنفسهم هزة عنيفة جعلت منهم آذانًا صاغية لقبول الصلح، فقد جاء في مرسل عروة بن الزبير عند البيهقي ما نصه: «وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ، وَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَلَا إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِالْبَيْعَةِ، فَأَخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ فَبَايَعُوا، فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعُوهُ عَلَى أَنْ لَا يَقْرَءُوا أَبَدًا، فَرَغِبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَأَرْسَلُوا مَنْ كَانُوا ارْتَهَنُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَدَعَوْا بِالْمُؤَادَعَةِ وَالصُّلْحِ». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣٤].

فهذا النص يبرز لنا مدى تأثير البيعة في نفوس المشركين.

وقد عزز أثر تلك البيعة ملابسات أخرى من قبل رسل المشركين أنفسهم:

فعروة بن مسعود حين رجع إلى قريش عظم لهم شأن رسول الله ﷺ وذكره لهم من أفعال الصحابة ما يبرهن على أنهم لن يسلموا رسول الله ﷺ لشيء أبداً، وأنهم سيبدلون نفوسهم دونه، ثم نصح قريشاً بقبول الهدنة، وأن يخلوا بين المسلمين وما جاؤوا له.

فقد جاء في حديث المسور ومروان من رواية معمر ما نصه: «فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّيْتُ نَحَامَةً إِلَّا وَقَعْتُ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهُهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتُلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ حُطَّةً رُشِدٍ فَأَقْبَلُوهَا».

[البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

وجاء في حديثهما من طريق ابن إسحاق نحو ما تقدم في رواية معمر وزاد: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، قَرَأُوا رَأْيَكُمْ». [مسند أحمد ٣١/ ٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وعروة بن مسعود له منزلة وشهرته في أوساطهم، حتى قال أكثر المفسرين المراد بالآية: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف]: الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود.

[تفسير ابن كثير ٤/ ١٢٦-١٢٧].

لذلك كان لكلامه وقعه في نفوسهم، وقد أشار إلى ذلك مرسل عروة بن الزبير عند ابن أبي شيبة فقد جاء فيه ما نصه: «فَلَمَّا سَمِعُوا مَقَالَتَهُ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَمَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ، فَقَالُوا: انْطَلِقُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنْ أَعْطَاكُمْ مَا ذَكَرَ عُرْوَةُ، فَقَاضِيَاهُ...». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٤٠٠ رقم ٣٧٩٩٤].

وقال ابن حجر عن عروة بن مسعود: «وكانت له اليد الطولى في تقرير الصلح». [الإصابة ٦/ ٤١٦].

وكان من بين رسل قريش الذين شنوا عليها تلك الغطرسية أيضاً: الحليس بن علقمة: فقد جاء خبره في حديث المسور ومروان من طريق ابن إسحاق قال: «فَبَعَثُوا إِلَيْهِ الْحَلِيسَ بْنَ عَلْقَمَةَ الْكِنَانِيَّ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ

سَيِّدُ الْأَحَابِشِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ»، فَبَعَثُوا الْهَدْيَ، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي فَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أُوبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، رَجَعَ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ رَأَيْتُمْ مَا لَا يَحِلُّ صَدُّهُ: الْهَدْيُ فِي فَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أُوبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ.

فَقَالُوا: اجْلِسْ، إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ الْحُلَيْسَ غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا خَالِفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتُخَلَّنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا نَفَرَنَّ بِالْأَحَابِشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كُفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٢].

فهذا الموقف من رسل قريش معها - إلى جانب ما أحدثته البيعة في نفوسها من ذعر - كان السبب في انصياعها وقبولها الصلح. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٢٨٩-٢٩٥].

### بدء المفاوضات:

يقول أ/ باشميل: كان الجو أكثر صفاء والحالة أكثر هدوءاً في محيط الفريقين أكثر من أي وقت مضى، عندما وصل وفد قريش إلى الحديبية.

فقد كانت قريش جادة هذه المرة في المفاوضة، بل وراغبة كل الرغبة في حل المشكلة لتجنب الصدام المسلح الذي أربعها وشوك وقوعه، والذي لم يكن لدى سادات مكة وقادة ألويتها المؤلفة من أكثر من ثمانية آلاف مقاتل أن قريشاً ستكون هي الخاسرة إذا ما نشب الصدام، بالرغم من أن قوات قريش تقدر بثمانية آلاف مقاتل، بينما قوة المسلمين لا تزيد على ألف وأربعمائة.

وقد استمد زعماء قريش وقادتها العسكريون اعتقادهم بأنهم - مع هذا التفوق - سيخسرون المعركة، استمدوا هذا الاعتقاد من التجارب العملية التي لمسوها في المعارك التي خاضوها ضد المسلمين، والتي خرجوا منها بدرس لن ينسوه أثناء بحث أي نزاع بينهم وبين المسلمين، وهو أن التفوق البشري وكثرة السلاح وجودة التسليح ليس كافياً لإحراز النصر في المعارك، إذ أن هذا التفوق الكبير يكون في حساب اليسار في علم الحساب لا وزن ولا قيمة.

لهذا سارعت قريش - عندما جد الجد - إلى التفاوض مع المسلمين لتجنب الدخول معهم في صدام حقيقي مسلح.

### اعتذار رئيس الوفد القرشي للنبي ﷺ وإطلاق سراح عثمان:

كانت التحريات الأخيرة أثبتت أن المشركين في مكة احتجزوا سفير النبي ﷺ إليهم، عثمان ؓ والعشرة المهاجرين الذين دخلوا معه مكة فعلاً، ولكن لم يثبت أن قريشاً قد قامت بقتل هؤلاء الأحد عشر كما أُشيع وأحدث غلياً في صفوف المسلمين بالحديبية، وأدى إلى إعلان الاستنفار العام بين المسلمين في الحديبية.

ولقد كان سهيل بن عمرو - كما قلنا - لبقاً ورجل سياسة ودولة، وكان أكثر القرشيين بُعداً عن العنجهية والعناد والتهور.

ولهذا فإن أول ما افتتح به رئيس وفد قريش إلى الحديبية للمفاوضة هو الاعتذار للنبي ﷺ عن عمليات التسلل التي قامت بها بعض وحدات من جيش قريش إلى داخل المعسكر الإسلامي في الحديبية بقصد الاعتداء على المسلمين غدرًا، كما اعتذر سهيل بن عمرو عن عملية احتجاز عثمان ؓ والمهاجرين العشرة في مكة، ووصف كل هذه العمليات بأنها من عمل السفهاء؛ ولكي يبرهن على قوله هذا وكبداية طيبة من جانبه، أرسل إلى قريش في مكة بأن تسارع (فوراً) إلى إطلاق سراح عثمان بن عفان ؓ وأصحابه العشرة، وأن تبعث بهم مكرمين إلى الحديبية، وقد فعلت قريش ذلك في الحال، فوصل عثمان ؓ وأصحابه المحتجزين إلى الحديبية ففرح المسلمون بعودتهم سالمين.

### النبي ﷺ يطلق سراح المشركين المحتجزين:

كما أن النبي ﷺ من جانبه قام بإطلاق سراح المشركين الذين ألقى عليهم الحرس الإسلامي في الحديبية القبض أثناء محاولتهم التسلل إلى داخل المعسكر للاغتيال والتخريب، وكان من بين هؤلاء المعتقلين عمرو بن أبي سفيان بن حرب.

فقد ذكر الواقدي أن سهيل بن عمرو قال للنبي ﷺ لدى اجتماعه به للمفاوضة في الحديبية: مَنْ قَاتَلَكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِي دَوِي رَأَيْنَا، وَلَا دَوِي الْأَحْلَامِ مِنَّا، بَلْ كُنَّا لَهُ كَارِهِينَ حِينَ بَلَعْنَا، وَلَمْ نَعْلَمْ بِهِ، وَكَانَ مِنْ سُفَهَائِنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٤].

تقدم سهيل بن عمرو بهذا الاعتذار إلى النبي ﷺ وعثمان بن عفان ؓ والمهاجرون العشرة لا يزالون محتجزين في مكة لدى المشركين.

ولذلك فإن سهيل بن عمرو، لما طلب من النبي ﷺ (عقب هذا الاعتذار) أن يطلق سراح سفهاء قريش التسللين، وافق على طلبه ولكن بشرط أن تقوم قريش بإطلاق سراح عثمان ؓ وأصحابه، فوافق سهيل في الحال بعد أن صرح بأن المطلب النبوي مطلب عادل يجب تحقيقه.

[صلح الحديبية لباشمیل ٢١٧-٢١٩].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: مَنْ قَاتَلَكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِي ذَوِي رَأْيِنَا، وَلَا ذَوِي الْأَخْلَامِ مِنَّا، بَلْ كُنَّا لَهُ كَارِهِينَ حِينَ بَلَعْنَا، وَلَمْ نَعْلَمْ بِهِ، وَكَانَ مِنْ سَفَهَائِنَا، فَأَبْعَثَ إِلَيْنَا بِأَصْحَابِنَا الَّذِينَ أَسْرَتَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَالَّذِينَ أَسْرَتَ آخِرَ مَرَّةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي غَيْرُ مُرْسِلِهِمْ حَتَّى تُرْسِلَ أَصْحَابِي»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَنْصَفْتَنَا، فَبَعَثَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَحُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى وَمَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ إِلَى قُرَيْشِ الشَّيْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةِ التَّيْمِيِّ: إِنَّكُمْ حَبَسْتُمْ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ لَمْ تَقْتُلُوهُمْ، وَقَدْ كُنَّا لِلذَّكَاءِ كَارِهِينَ، وَقَدْ أَمَى مُحَمَّدٌ أَنْ يُرْسَلَ مَنْ أَسَرَ مِنْ أَصْحَابِكُمْ حَتَّى تُرْسِلُوا أَصْحَابَهُ، وَقَدْ أَنْصَفْنَا، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا يَطْلُقُ لَكُمْ أَصْحَابَكُمْ.

فَبَعَثُوا إِلَيْهِ بِمَنْ كَانَ عَنْدهُمْ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا، وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُمُ الَّذِينَ أُسِرُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَآخِرَ مَرَّةٍ، فَكَانَ فِيْمَنْ أُسِرَ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَمْرُؤُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٤].

### بحث بنود الصلح:

بعد عملية تبادل الأسرى بين الفريقين - إن صح هذا التعبير - شرع النبي ﷺ وسهيل بن عمرو في التفاوض حول البنود التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح التي وافق الفريقان على إقامتها من حيث المبدأ. وقد طال البحث والجدل والأخذ والرد والشد والجذب حول الاتفاق على بنود الصلح، كل فريق - دونما شك - يريد بنودًا تكون لمصلحة قومه.

يقول د/ هيكل: «فلما انتهى سهيل إلى الرسول ﷺ جرت محادثات طويلة للصلح وشروطه كانت تنقطع في بعض الأحيان، ثم يعيد اتصالها حرص الجانبين على النجاح. وكان المسلمون من حول النبي ﷺ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبرًا؛ لتشدد سهيل في مسائل يتساهل النبي ﷺ في قبولها، ولولا ثقة مسلمين المصلحة بنبيهم، ولولا إيمانهم به، لما ارتضوا ما تم الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٨١].

### النبي ﷺ في حراسة أصحابه ﷺ:

وقد تعثرت المفاوضات في كثير من مراحلها، إذ تحول النقاش في بعض الأحيان إلى صخب ولغط حيث كان رئيس الوفد القرشي كلما فشل في إتمام شرط على النبي ﷺ لا يرضاه، رفع صوته غاضبًا، إلى حد جعل قائدي حرس المسلمين (عباد بن بشر وسلمة بن سلمة) القائمين على رأس رسول الله ﷺ يلفتان نظر سهيل بن عمرو، بأن يلتزم حدود اللياقة في مخاطبة الرسول ﷺ فلا يرفع صوته أكثر من اللازم.



قالت أم عمارة رضي الله عنها تصف جانباً من المفاوضات في الحديبية فيما رواه الواقدي قال: «حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ ابْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ عَمْرَةَ رضي الله عنها تَقُولُ: إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا يَوْمِيذٍ مُتَرَبِّعًا، وَإِنَّ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، وَسَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ بْنَ حَرِيشٍ مُقْنَعَانِ بِالْحَدِيدِ قَائِمَانِ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ رَفَعَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو صَوْتَهُ قَالَا: اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ! وَسُهَيْلُ بَارِكُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ رَافِعٌ صَوْتَهُ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عِلْمٍ (الشق في الشفة العليا) فِي شَفَتِهِ وَإِلَى أَنْبَايِهِ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَحَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٥-٦٠٦].

### بنود الصلح التاريخي:

يقول أ/ باشميل: «وبعد طول الأخذ والرد بين المتفاوضين تقاربت وجهات النظر، وتم الاتفاق بين النبي ﷺ ورئيس وفد قريش سهيل بن عمرو على حل وسط، بشأن النقطة الرئيسة التي كانت مشار الخلاف وانتوترت الذي كاد يؤدي إلى الحرب.

فقد كانت قريش تصر على أن لا يدخل المسلمون مكة أبداً ما بقي لقريش فيها سلطان، ومن أجل ذلك حشدت حوالي ثمانية آلاف مقاتل وعسكرت بهم في وادي بلدح خارج مكة لتصد المسلمين بالقوة إن هم اجتازوا حدود الحرم.

ومن جهة أخرى فقد صمم النبي ﷺ على أن يدخل بأصحابه مكة لأداء مناسك العمرة، ومقاتلة القرشيين إن تعرضت قواتهم المسلحة للمسلمين وحاولت صدّهم عن البيت، بالرغم من التزام النبي ﷺ سبيل التريث والتأني في انتظار حل مرضي يكفل للمسلمين حقهم المشروع في زيارة البيت (دون إراقة دماء) فقد عمدت قريش إلى تصعيد الأزمة وتآزيم الموقف الذي بلغ حد الانفجار، عندما أقدمت قريش على احتجاز سفير النبي ﷺ إليها عثمان بن عفان رضي الله عنه وعشرة من المهاجرين في مكة، وزاد الحالة توتراً أن صاحب عملية الاحتجاز التعسفية هذا إشاعة بأن القرشيين قتلوا المسلمين الأحد عشر، فقرر النبي ﷺ على أثر ذلك مناجزة المشركين واقتحام مكة عليهم بقوة السلاح، الأمر الذي أفزع قريشاً وأرعبها وجعلها تسارع إلى طلب الصلح من المسلمين.

### الحل الوسط:

وكان الحل الوسط بشأن النزاع الرئيسية هذه هو اتفاق النبي ﷺ وقريش في هذه المفاوضات على أن يدخل المسلمون مكة للعمرة، ولكن ليس في هذه السنة، وإنما في العام القادم، وذلك كحل وسط رأت قريش أنها به خرجت من الورطة التي أوقعت نفسها فيها، مع شيء من حفظ ماء الوجه.

كما أن النبي ﷺ قد رأى أنه - بهذا الحل - قد حقق للمسلمين نصرًا عظيمًا دون أن يضطر إلى إراقة قطرة دم واحدة، وهذا النصر هو ضمان اتفاقية الصلح حقَّ المسلمين المشروع في دخول مكة لزيارة البيت، وهو ما كانت قريش تعارض فيه كل المعارضة، وتصر على عدم الاعتراف للمسلمين به.

أما مسألة إرجاء مباشرة المسلمين حق دخول مكة سنة واحدة، فلا تؤثر في جوهر الانتصار الذي حققه النبي ﷺ للمسلمين؛ لأن هذا التأخير أمر سطحي بالنسبة لجوهر القضية، ما دام أن المسلمين سيصلون إلى غايتهم التي جاؤوا من أجلها وهو الطواف بالبيت.

ويمكن القول: إن قبول النبي ﷺ الرجوع من الحديبية ليدخل مكة في العام القادم، هو ثمن لمكاسب أهمها حصول المسلمين على حقهم المشروع - وهو دخول مكة - دون أن يخسروا قطرة دم واحدة؛ لأن النبي ﷺ كان حريصًا كل الحرص على حقن الدماء وصونها عن الضياع.

### أهم بنود الصلح:

وبتوصل الفريقين إلى الاتفاق على حل أعظم مشكلة، كانت مصدر التوتر ومبعث الخلاف، تم إبرام الصلح التاريخي في الحديبية.

وقد تضمنت معاهدة الصلح هذه بنودًا أخرى غير البند الرئيسي المتعلق بدخول المسلمين مكة وفيما يلي ملخص للبنود التي تضمنتها معاهدة الصلح:

- ١ - على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام.
- ٢ - من حق المسلمين أن يأتوا في العام القادم فيدخلوا مكة ليقضوا مناسكهم.
- ٣ - تلتزم قريش بعدم التعرض للمسلمين حين يدخلون مكة، بأي نوع من أنواع التعرض.
- ٤ - على المسلمين لدى دخولهم مكة أن لا يحملوا من السلاح إلا سلاح الراكب وهو السيف.
- ٥ - يلتزم المسلمون بأن لا يشهروا سلاحهم وهم بمكة، بل عليهم أن يتركوا السيوف في أغمارها ما داموا في مكة.
- ٦ - المدة المحددة التي ليس للمسلمين أن يقيموا أكثر منها في مكة، هي ثلاثة أيام فقط، عليهم أن يغادروا مكة بعد انقضائها فورًا.
- ٧ - إنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش، بقيام هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، يأمن الناس فيها على أنفسهم.
- ٨ - يلتزم النبي ﷺ بأن يرد إلى قريش كل من جاء إليه من أبنائها بعد إبرام هذه المعاهدة، إذا كان قد جاء بغير إذن أهله، وعلى النبي ﷺ الالتزام بذلك حتى ولو كان اللاجئ مسلمًا.

٩ - ليس على قريش أن ترد إلى النبي ﷺ من جاء إليها من المسلمين حتى ولو كان مرتدًا عن دينه.  
 ١٠ - تُترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أي المعسكرين شاؤوا، ويدخلوا في عهد أي الفريقين أرادوا.

١١ - تعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي من المعسكرين جزءًا من المعسكر الذي تدخل في عهده، له ما لها، وعليه ما عليها، وعليها الالتزام بما جاء في بنود المعاهدة.

١٢ - أي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على المعسكر الداخلة في عهده، كما يعتبر هذا العدوان مُبطلًا للمعاهدة.

هذا الملخص هو ما يمكن تسميته بالخطوط العريضة للصلح التاريخي، هذا الذي أقره واتفق عليه كل من محمد بن عبد الله نبي المسلمين ﷺ، وسهيل بن عمرو ممثل قريش في المفاوضة.

[صلح الحديبية لباشميل ٢٢١-٢٢٥].

ويقول د/ الحكمي في ملخص هذه البنود:

- (١) أن يرجع المسلمون ذلك العام ولا يصلوا إلى مكة.
- (٢) يقضون عمرتهم من العام المقبل وقيمون بمكة ثلاثة أيام.
- (٣) لا يدخلون مكة بسلاح إلا سلاح الراكب، السيوف في القرب.
- (٤) من جاء النبي ﷺ من قريش بغير إذن وليه يرده عليهم، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا تردّه إليهم.

(٥) من أراد أن يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه، وله مثل شرطه، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه، وله مثل شرطها.

(٦) أن بينهم عيبة مكفوفة.

(٧) أنه لا إسلال ولا إغلال.

(٨) توضع الحرب بينهم عشر سنين.

وهذا التحديد بعشر سنين ورد في حديث المسور ومروان من طريق ابن إسحاق وإسناده حسن.

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٠٣-٣٠٥].

**الشروط التي تم عليها الصلح:**

يقول د/ الحكمي: «كانت قريش قد أُلجأت إلى الصلح إلجاءً لأنها لا تريد أن تعترف بالمسلمين كَنِدَّ لها يوافقونها جنبًا إلى جنب، فيتحدث الناس بذلك عنها.

أما رسول الله ﷺ فكان يهدف من وراء الصلح إلى تحقيق مصالح للدعوة بعيداً عن السمعة والأغراض الشخصية.

وما كانت تلك الشروط التي وقع عليها الصلح إلا صورة عاكسة لذيتك الموقفين.

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٢٩٧].

وقد جاءت روايات بهذه الشروط، فقد جاء في حديث المسور ومروان من طريق معمر ما نصه: «قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: «أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تَحْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أَخَذْنَا ضَغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكُتِبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتُهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقْضَيْتُكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فافْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلَى قَدْ أَجْرَنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ: أَيُّ مَعْشَرِ الْمُسْلِمِينَ! أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ تُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ! وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ مُحَدِّثَنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتِ فَتَطُوفُ بِهِ، قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ».

[البخاري في الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

وفي حديثهما من طريق ابن إسحاق: قَالَ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ

اللَّهُمَّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَوْ شِئْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقَاتِلْكَ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ هَذَا مَا أَصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكْفُتُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْلِهِ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ بَيْنَنَا عَيْبَةٌ مَكْفُوفَةٌ، وَإِنَّهُ لَا إِسْلَالَ، وَلَا إِغْلَالَ.

وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاتَبَتْ خُزَاعَةٌ فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ.

وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا، فَلَا تَدْخُلُ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامٌ قَابِلٌ خَرَجْنَا عَنْكَ فَتَدْخُلُهَا بِأَصْحَابِكَ، وَأَقِمْتَ فِيهِمْ ثَلَاثًا مَعَكَ سِلَاحَ الرَّاكِبِ، لَا تَدْخُلُهَا بِغَيْرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرْبِ.

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠]

وفي مرسل عروة الذي أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي أسامة: ذكر نحو رواية ابن إسحاق وبين فيه أبو أسامة معنى العيبة المكفوفة، والإسلال والإغلال، فقد جاء فيه ما نصه: «وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ: أَنْ يَبْنَتَا لِلْعَيْبَةِ الْمَكْفُوفَةِ، وَإِنَّهُ لَا إِسْلَالَ، وَلَا إِغْلَالَ، قَالَ أَبُو أُسَامَةَ: الْإِغْلَالُ: الدَّرُوعُ، وَالْإِسْلَالُ: السُّيُوفُ، وَيَعْنِي بِالْعَيْبَةِ الْمَكْفُوفَةِ: أَصْحَابَهُ يَكْفُهُمْ عَنْهُ - وَأَنَّهُ مَنْ أَتَانَا مَنَا رَدَدْنَاهُ عَلَيْنَا، وَمَنْ أَتَانَا مِنْكُمْ لَمْ نَرُدُّهُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَنْ دَخَلَ مَعِيَ فَلَهُ مِثْلُ شَرْطِي، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: وَمَنْ مَعَنَا فَهُوَ مَنَا لَهُ مِثْلُ شَرْطِنَا، فَقَالَتْ بَنُو كَعْبٍ: نَحْنُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَالَتْ بَنُو بَكْرٍ: نَحْنُ مَعَ قُرَيْشٍ...».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/٤٠٠ رقم ٣٧٩٩٤، ينظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٠٠]

وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، حَتَّى قَاصَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا: هَذَا مَا قَاصَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: لَا نُقَرُّ بِهَا، فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ [شَيْئًا]، لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «امْضِ [مُحَمَّدٌ] رَسُولُ اللَّهِ»، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أَتُحَوِّكُ [أَتُحَوِّهُ] أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ [وَلَيْسَ يُحْسِنُ أَنْ يَكْتُبَ]، فَكَتَبَ [مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]: «هَذَا مَا قَاصَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنْ لَا يَدْخُلَ مَكَّةَ سِلَاحَ [السَّلَاحِ، بِسِلَاحٍ] إِلَّا [السَّيْفُ] فِي الْقِرَابِ، وَأَنْ لَا يُخْرِجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ [إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ]، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا»، فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلَ أَتَوْا عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالُوا: قُلْ لِصَاحِبِكَ اخْرُجْ [فَلْيُخْرِجْ] عَنَّا، فَقَدْ مَضَى الْأَجَلُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ... [البخاري في الصلح (٢٦٩٩)، ومسند أحمد ٣٠/٥٩٤ رقم ١٨٦٣٦، ١٨٦٣٥].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَأْذِنُهُمْ لِيَدْخُلَ مَكَّةَ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ، وَلَا يَدْعُو مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ: فَأَخَذَ يَكْتُبُ الشَّرْطَ بَيْنَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ نَمْنَعَكَ وَلَبَّيْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَنَا وَاللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنَا وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ»، قَالَ: وَكَانَ لَا يَكْتُبُ، قَالَ: فَقَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «امْنَحْ رَسُولَ اللَّهِ»، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ لَا أَتَحَاةُ أَبَدًا، قَالَ: «فَأَرْنِيهِ»، قَالَ: فَأَرَاهُ إِيَّاهُ، فَمَحَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ وَمَضَتْ الْأَيَّامُ اتُّوا عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالُوا: مُرْ صَاحِبَكَ فَلْيَرْجِعْ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «نَعَمْ»، ثُمَّ ارْجِعْ.

[البخاري في الجزية (٣١٨٤)].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أَحْصَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الْبَيْتِ صَاحِبَهُ أَهْلَ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا فَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ السَّيْفِ وَقِرَابِهِ، وَلَا يَخْرُجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَا يَمْنَعُ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ تَابَعْنَاكَ [بَابِعْنَاكَ] وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَمَحَاهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَتَحَاةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرِنِي مَكَانَهَا»، فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا، وَكَتَبَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ قَالُوا لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَرْطِ صَاحِبِكَ فَأَمُرُهُ فليُخْرَجْ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَخَرَجَ. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٣)].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْعُوهُ يَدْخُلَ مَكَّةَ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، قَالُوا: لَا نَقْرُءُ هَذَا، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَتَعْنَاكَ شَيْئًا، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «امْنَحْ رَسُولَ اللَّهِ»، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَتَحَاةُ أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فَكَتَبَ: «هَذَا مَا قَاضَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ السَّلَاحِ، إِلَّا السَّيْفَ فِي الْقِرَابِ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا»، فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلُ اتُّوا عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالُوا قُلْ لِمَا صَاحِبِكَ اخْرُجْ عَنَّا، فَقَدْ مَضَى الْأَجَلُ. فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... [البخاري في المغازي (٤٢٥١)].

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَهُمْ كِتَابًا، فَكَتَبَ «هَذَا مَا كَاتَبَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَا تَكْتُبْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، لَوْ كُنْتُ [فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ] رَسُولًا [رَسُولَ اللَّهِ] لَمْ نُقَاتِلْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]: «امْحُوه»، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا

أَنَا بِالَّذِي أَمَحَاهُ، فَمَحَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَصَالَحَهُمْ [وَكَانَ فِيهَا اشْتَرَطُوا] عَلَى أَنْ يَدْخُلَ [يَدْخُلُوا مَكَّةَ] هُوَ وَأَصْحَابُهُ [فَيُقِيمُوا بِهَا] ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ [ثَلَاثًا]، وَلَا يَدْخُلُوهَا [يَدْخُلَهَا بِسِلَاحٍ] إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ، فَسَأَلُوهُ: مَا جُلْبَانُ السَّلَاحِ؟ فَقَالَ: الْقِرَابُ بِمَا فِيهِ.

[البخاري في الصلح (٢٦٩٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٣)، ومسند أحمد ٣٠/٥٣٥ رقم ١٨٥٦٧].

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَادَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ: مَنْ أَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ لَنْ يَرُدُّوهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْنَا مِنْهُمْ رَدُّوهُ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى أَنْ يَجِيءَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ وَأَصْحَابُهُ، فَيَدْخُلُونَ مَكَّةَ مُعْتَمِرِينَ، فَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلُونَ إِلَّا جَلَبَ السَّلَاحِ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ. [مسند أحمد ٣٠/٦١٩ رقم ١٨٦٨٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَحَالَ كُفَارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَتَحَرَ هَذِيهَ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَاضَاهُمْ [فَصَالَحَهُمْ] عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلِ، وَلَا يَحْمِلَ سِلَاحًا [السَّلَاحَ] عَلَيْهِمْ إِلَّا سِوْفًا، وَلَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا مَا أَحَبُّوا، فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحَهُمْ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا أَمَرُوهُ أَنْ يُخْرَجَ فَخَرَجَ.

[البخاري في الصلح (٢٧٠١)، وفي المغازي (٤٢٥٢)، ومسند أحمد ١٠/٢٤٦ رقم ٦٠٦٧].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «اَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: «أَمَّا بِاسْمِ اللَّهِ [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَقَالَ ﷺ: «اَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ»، قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا تَبْعُنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ»، فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ تَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّْا رَدُّوهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اأَكْتُبْ [اَكْتُبْ] هَذَا؟! قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ قَرْجًا وَنَحْرَجًا». [مسلم في الجهاد (١٧٨٤)، ومسند أحمد ٢١/٣٢٨ رقم ١٣٨٢٧].

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ [الْحُدَيْبِيَّةَ صَالَحَهُمْ] عَلَى أَنْ يُقِيمُوا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا جُلْبَانُ السَّلَاحِ؟ قَالَ: الْقِرَابُ وَمَا [بِهَا] فِيهِ. [مسند أحمد ٣٠/٥١٦ رقم ١٨٥٤٥، وأبو داود في المناسك (١٨٣٢)، وقال الشيخ الأرنؤوط والألباني: صحيح].

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ فِيهَا اشْتَرَطَ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِسِلَاحٍ إِلَّا سِلَاحٍ فِي قِرَابٍ.

[مسند أحمد ٣٠/٥٤٤ رقم ١٨٥٨٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح].



وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فَذَكَرَ مَعْنَاهُ، وَقَالَ: أَنْ لَا يُدْخَلَ مَكَّةَ السَّلَاحَ وَلَا يُخْرَجَ مِنْ أَهْلِهَا.

[مسند أحمد ٣٠/ ٥٩٥ رقم ١٨٦٣٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ حَتَّى قَاضَاهُمْ لَا يُدْخِلُ مَكَّةَ سِلَاحًا إِلَّا فِي الْقِرَابِ. [البخاري في الحج (١٨٤٤)].

وَعَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ: أَنَّهُمْ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ، وَعَلَى أَنْ يَبْنِئَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَاحَ وَلَا إِغْلَالَ.

[أبو داود في الجهاد (٢٧٦٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا خَرَجْتَ الْحُرُورِيَّةَ اعْتَزَلُوا، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحَدْيِيَّةِ صَالِحَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لِعَلِيِّ رضي الله عنه: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، قَالُوا: لَوْ تَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «امْحُ يَا عَلِيُّ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، امْحُ يَا عَلِيُّ، وَاكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، وَاللَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، وَقَدْ مَحَا نَفْسَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ ذَلِكَ يُمَحِّاهُ مِنَ النَّبُوءَةِ، أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

[مسند أحمد ٥/ ٢٦٣ رقم ٣١٨٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن].

## المبحث الثاني

موقف الصحابة رضي الله عنهم من صلح الحديبية

تألم عمر رضي الله عنه وبعض الصحابة رضي الله عنهم من شروط قريش:

يقول د/ الحكمي: «كان رسول الله ﷺ قد أخذ على نفسه ألا يرد خطة يعرضها عليه المشركون تهدف إلى تعظيم حرمان الله، ومن هذا المنطلق جعل يوافق على كل ما تمليه قريش من شروط بل كان يتنازل عما يريده هو إذا رأى تصلباً من جانب قريش، فقد جاء في حديث المسور ومروان من طريق معمر ما نصه: «قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: «أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاصَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

[البخاري في الشروط (٢٧٣١ - ٢٧٣٢)].

فهذا النص يصور لنا مدى تسامح رسول الله ﷺ مع قريش، وقد استغلت قريش ذلك اللين من رسول الله ﷺ فجعلت تملي شروطها، يظهر منها الأجحاف في حق المسلمين، الأمر الذي أثار حفيظة بعض المسلمين حتى فعل ما فعل:

ففي حديث المسور ومروان السابق: «فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَطْهَرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصَاحِكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَاَفْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلَى قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ رضي الله عنه: أَيُّ مَعْتَرٍ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتُ مُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ، قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبِرْكَ أَنَا تَأْتِيهِ الْعَامُ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَجَبَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ، قَالَ: بَلَى، فَأَخْبِرْكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. [البخاري في الشروط ٢٧٣١-٢٧٣٢].

وفي حديث المسور ومروان أيضًا من طريق ابن إسحاق: «فَأَتَاهُ سَهْلُ بْنُ عَمْرِو، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَكَلَّمَا وَأَطَالَا الْكَلَامَ وَتَرَا جَعَا، حَتَّى جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ، فَلَمَّا انْتَأَمَ الْأَمْرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكِتَابُ، وَتَبَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَاتَى أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَوَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: يَا عَمْرُ، الزَّمْ غُرْزَهُ حَيْثُ كَانَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَأَنَا أَشْهَدُ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لَنْ أَحَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأَصَلِّي وَأَعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وفي موضع آخر في رواية ابن إسحاق أيضًا: «قَالَ: وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ؛ لِزُيُوتِهَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْ الصُّلْحِ وَالرُّجُوعِ، وَمَا تَحْمَلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ، دَخَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، حَتَّى كَادُوا أَنْ يَهْلِكُوا».

فَلَمَّا رَأَى سَهْلُ بْنُ أَبِي جَنْدَلٍ رضي الله عنه قَامَ إِلَيْهِ فَضْرَبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ لُبَّجَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكَ هَذَا، قَالَ: «صَدَقْتَ»، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بِتَلْبِيئِهِ، قَالَ: وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ رضي الله عنه بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ! أَتَرُدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي، قَالَ: فَرَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﻻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ قَرَجًا وَمُخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ».

قَالَ: فَوَتَّبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ   مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ   فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: اصْبِرْ أَبَا جَنْدَلٍ، فَإِنَّمَا هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ، قَالَ: وَيُدْنِي قَائِمَ السَّيْفِ مِنْهُ، قَالَ: يَقُولُ: رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ، قَالَ: فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ وَنَفَذَتِ الْقَضِيَّةُ.

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠]. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣١٣-٣١٧].

### احتجاج عمر   ومجادلته النبي  :

يقول أ/ باشميل: وبعد الاتفاق على القواعد الكاملة لمعاهدة الصلح هذه، وقبل تسجيل وثائقها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة وقوية لهذه الاتفاقية، وخاصة البند الثامن والتاسع اللذين بموجبهما يلتزم النبي   برد من جاءها من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتداً، والبند الأول الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام.

وقد كان أشد الناس معارضة هذه الاتفاقية وانتقاداً لها، عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج  . [صلح الحديبية لباشميل ٢٢٥].

وقد تحدث عمر   - نفسه - عما قاساه من عنت قريش يوم صلح الحديبية، فعن ابن عباس   قال: قال عمر بن الخطاب  : لقد صالح رسول الله   أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئاً لو أن نبي الله أمر علي أميراً فصنع الذي صنع نبي الله ما سمعت ولا أطعت، وكان الذي جعل: أن من لحق من الكفار بالمسلمين يردون ومن لحق بالكفار لم يردوه. [الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٠١].

وقد أورده السيوطي ثم عزاه لابن سعد، وقال: سنده صحيح كما نقله صاحب كنز العمال ١٠/٤٧٣، وقال د/ الحكمي: الحديث حسن. [مرويات غزوة الحديبية ٣٢١-٣٢٢].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَلَمَّا التَّامَ الْأَمْرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكِتَابُ، وَتَبَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ  ، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ   فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَوْ لَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَوْ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَّامٌ نُعْطَى الدِّيَّةَ (الذل والأمر الخسيس) فِي دِينِنَا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ  : يَا عُمَرُ، الزَّمْ عَزْرَهُ (أي الزم أمره، والغرز الرحل، بمنزلة الركاب للسر)، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ عُمَرُ  : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ  ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَوْ لَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَوْ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَّامٌ نُعْطَى الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا؟ قَالَ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

قَالَ: فَكَانَ عُمَرُ   يَقُولُ: مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأَصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ! خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا. [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦-٣١٧].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالُوا: فَلَمَّا اضْطَلَحُوا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكِتَابُ، وَتَبَّ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، فَذَهَبَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: الزَّمْ غَرَزَهُ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ الْحَقَّ مَا أَمَرَ بِهِ، وَلَنْ تُخَالِفَ أَمْرَ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ! وَلَقِيَ عُمَرُ رضي الله عنه مِنَ الْقَضِيَّةِ أَمْرًا كَبِيرًا، وَجَعَلَ يَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْكَلَامَ، وَيَقُولُ: عَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، قَالَ: فَجَعَلَ يَرُدُّ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْكَلَامَ. قَالَ: يَقُولُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه: أَلَا تَسْمَعُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ مَا يَقُولُ؟ تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَتَمُّ رَأْيِكَ.

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَجَعَلْتُ أَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ حَيَاءً، فَمَا أَصَابَنِي قَطُّ شَيْءٌ مِثْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ يَوْمَئِذٍ. فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ لِي عُمَرُ رضي الله عنه فِي خِلَافَتِهِ وَذَكَرَ الْقَضِيَّةَ: ارْتَبْتُ ارْتِبَاءً لَمْ أَرْتَبْهُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، وَلَوْ وَجَدْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ شَيْعَةً تَخْرُجُ عَنْهُمْ رَغْبَةً عَنِ الْقَضِيَّةِ لَخَرَجْتُ، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَاقِبَتَهَا خَيْرًا وَرُشْدًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَعْلَمَ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: جَلَسْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمًا، فَذَكَرَ الْقَضِيَّةَ، فَقَالَ: لَقَدْ دَخَلَنِي يَوْمَئِذٍ مِنَ الشَّكِّ، وَرَاجَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ مُرَاجَعَةً مَا رَاجَعْتُهُ مِثْلَهَا قَطُّ، وَلَقَدْ عَتَقْتُ فِيهَا دَخَلَنِي يَوْمَئِذٍ رِقَابًا، وَصُنْتُ دَهْرًا، وَإِنِّي لَأَذْكُرُ مَا صَنَعْتُ خَالِيًا فَيَكُونُ أَكْبَرَ هَمِّي، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ عَاقِبَةَ الْقَضِيَّةِ خَيْرًا، فَيَنْبَغِي لِلْعِبَادِ أَنْ يَتَّهَمُوا الرَّأْيَ، وَاللَّهُ لَقَدْ دَخَلَنِي يَوْمَئِذٍ مِنَ الشَّكِّ حَتَّى قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ كُنَّا مِائَةً رَجُلٍ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي مَا دَخَلْنَا فِيهِ أَبَدًا، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ أَسْلَمَ فِي الْهُدَى أَكْثَرُ مَنْ كَانَ أَسْلَمَ مِنْ يَوْمٍ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى يَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَمَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ أَعْظَمَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَكْرَهُونَ الصُّلْحَ؛ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ خَلَقَ رَأْسَهُ وَأَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ، فَأَخَذَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَعَرَفَ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ، فَلَمَّا رَأَوْا الصُّلْحَ دَخَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ حَتَّى كَادُوا يَهْلِكُونَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٦-٦٠٧].

### ألسنا بالمسلمين وأليسوا بالمشركين؟

يقول أ/ باشميل: «ذكر المؤرخون أنه بينما كانت الإجراءات تتخذ لتسجيل المعاهدة التي تم الاتفاق عليها نهائيًا، إذا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنًا معارضته لهذه الاتفاقية، وهو في حالة من الكرب والانفعال يشاركه في هذه المعارضة جمهور المسلمين الموجودين في الحديبية.

ويظهر أن غضب ابن الخطاب ﷺ ومعارضته للاتفاقية وقوة اعتقاده الغبن فيها، كانت أشد من أن تترك له الفرصة ليتنهم ما قاله له النبي ﷺ فيها، ردًا على استجواباته، فذهب الفاروق — وهو على ذلك المستوى من الانفعال — إلى وزير النبي الأكبر أبي بكر الصديق ﷺ، فاحتج لديه وأبلغه معارضته للاتفاقية التي وصفها بأنها تشتمل على الدنية للمسلمين». [صلح الحديبية لباشميل ٢٢٥-٢٢٦].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَعَادَ عُمَرُ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكُنْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَكُنَّا عَلَى الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَلَيْسَ عَدُوًّا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ أَغْصِيَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

فَانْطَلَقَ عُمَرُ ﷺ حَتَّى جَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يَغْصِيَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ، وَدَغَ عَنْكَ مَا تَرَى يَا عُمَرُ». [المغازي للواقدي ٢/٦٠٨].

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ﷺ يَوْمَ صِفَيْنَ فَقَالَ <sup>(١)</sup>: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ [رَأَيْكُمْ]، لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَلَوْ تَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، وَذَلِكَ فِي الصُّلْحِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكُنَّا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَلَيْسَ قِتَالَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمْاَ يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا».

قَالَ: فَانْطَلَقَ عُمَرُ ﷺ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَعِظًا، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَكُنَّا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَلَيْسَ قِتَالَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمْاَ يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، قَالَ: فَتَزَلَّ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ ﷺ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ. [مسلم في الجهاد (١٧٨٥)، والبخاري في الجزية (٣١٨٢)، وفي تفسير القرآن (٤٨٤٤)، ومسند أحمد ٢٥/٣٤٨ رقم ١٥٩٧٥].

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ﷺ: اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرُدَّ أَمْرَهُ لَرَدَدْنَاهُ، وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَا سُيُوفَنَا عَنْ عَوَاتِقِنَا مُنْذُ أَسْلَمْنَا لِأَمْرِ يُفْطِئُ عَلَيْنَا إِلَّا أَسهَلُ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ، إِلَّا هَذَا الْأَمْرَ مَا سَدَدْنَا خَصْمًا، إِلَّا أَنْفَتَحَ لَنَا خَصْمٌ آخَرُ.

[مسند أحمد ٢٥/٣٤٦ رقم ١٥٩٧٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

(١) أراد سهل ﷺ بذلك ترغيب الناس في الصلح، وإعلامهم بما يرجو بعده من الخير، وإن كان ظاهره في الابتداء مما تكرهه النفوس، كما كان الشأن في صلح الحديبية.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّبِعُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أُرَدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا، فَوَاللَّهِ مَا أَلُو (أَقْصَرُ وَأَبْطَأ) عَنِ الْحَقِّ، وَذَلِكَ [وَذَلِكَ] يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَالْكِتَابُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: «اكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالُوا: تَرَانَا [أَتَرَانَا] قَدْ صَدَفْنَاكَ بِمَا تَقُولُ؟ وَلَكِنَّكَ تَكْتُبُ [اَكْتُبْ] بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَرَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبِيتُ [عَلَيْهِمْ]، حَتَّى قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ! تَرَانِي أَرْضَى [قَدْ رَضِيتُ] وَتَأْبَى أَنْتَ؟»، قَالَ: فَرَضِيتُ.

[المعجم الكبير للطبراني ١/ ٧٢ رقم ٨٢، وقال محققه: ورواه أبو يعلى ونسبه إليه فقط في مجمع الزوائد ١/ ١٧٩، وقال: ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة، وهو مدلس وقد عنعن، ومجمع الزوائد ١/ ٤٣١ في العلم (٨٤٣)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة، ومجمع الزوائد ٦/ ٢١٢ في المغازي والسير (١٠١٨٣)، وقال الهيثمي: قلت: حديث عمر في الصحيح بغير هذا السياق، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وينظر تعليق د/ الحكمي على روايات الحديث في: مرويَات الحديبية ٣٢٢-٣٢٦].

#### اشتداد الكرب على المسلمين:

ولم يكن ابن الخطاب ﷺ وحده مكروباً من شروط القرشين في هذا الصلح، بل كان أكثر الصحابة متألمين من هذه الشروط وغير مرتاحين للموافقة عليها، ولكن ليس كلهم كابن الخطاب ﷺ جراً في الإفصاح في هذه المواقف، لقد كان الصحابة كارهين للصلح ومشاركين لابن الخطاب ﷺ في الشعور بالامتناع والغم والهم نتيجة قيام هذا الصلح الذي لم يدركوا أبعاده كما أدركها النبي الأعظم ﷺ. فقد كانوا لا يشكون في أنهم سيدخلون مكة للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ وهو في المدينة بأنه سيدخل مكة ويأخذ مفتاح الكعبة.

ولذلك صُدموا صدمة شديدة عندما قام الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش على أساس أن يعود المسلمون دون أن يدخلوا مكة، فكادوا يهلكون لهذه الصدمة النفسية العنيفة، وقد باحثوا النبي ﷺ حول ما يختلج في صدورهم حول هذا الأمر المزعج بالنسبة لهم، وتقدموا إليه بعدة أسئلة، ولكن بغير الأسلوب الشديد الذي عبر به عمر بن الخطاب ﷺ في معارضته.

#### مَا أَهَمَّ النَّاسَ مِنَ الصُّلْحِ وَمَجِيءِ أَبِي جَنْدَلٍ ﷺ:

وبينما كان المسلمون في حالة من الضيق والكرب يراجعون رسول الله ﷺ لإعادة النظر في بنود الصلح التي اعتبروها ماسة بكرامتهم وخيبة لآمالهم - كما صرح بذلك كبير معارضيه عمر بن الخطاب ﷺ أمام الرسول الأعظم ﷺ، وبينما كان النبي الحكيم الحليم ﷺ يحاول تهدئتهم وإقناعهم بأن لا حيف ولا غمط في اتفاقية الصلح التي تم الوصول إليها بينه وبين سهيل بن عمرو، وبينما أخذ البعض من



الصحابة في تفهم أبعاد هذه الاتفاقية ومدى مكاسبها بالنسبة للمعسكر الإسلامي، إذا بحادث مؤثر يحدث فجأة، يلهب الموقف من جديد ويضاعف من ألم المسلمين ويزيد من كربهم، ويعمق في نفوسهم من الكره للصلح الذي كانوا في الأصل كارهين له، ومستعدين لإبطاله وعدم الالتزام به، لولا احترامهم الشديد المطلق لنبیهم ﷺ الذي رغب في هذا الصلح ووافق عليه.

فعندما انتهى النبي ﷺ ومندوب قريش سهيل بن عمرو، من المفاوضات التي انتهت بالاتفاق على بنود الصلح، ولم يبق سوى تسجيل وثائقه للتوقيع عليها، إذ بأحد الشباب المسلم من المضطهدين في مكة، يطلع على المسلمين يرسف في قيوده والسيوف في يده طالباً من المسلمين في الحديبية حق اللجوء ليفر بدينه من المناخ الشرقي الخانق، وقد تمكن هذا الشاب المؤمن الصابر من الاحتواء بمعسكر المسلمين حيث وصل إلى حيث يجلس رسول الله ﷺ مع الوفد القرشي المفاوض.

وقد زاد الأمر تعقيداً، وكاد يؤدي إلى نسف اتفاقية الصلح والعودة بالأزمة الخطيرة إلى أشد مما كانت عليه قبل الاتفاق، هو أن هذا الشاب اللاجئ المسلم، هو ابن رئيس وفد قريش المفاوض سهيل بن عمرو، الذي لم يكد يرى ابنه المسلم (أبا جندل) حتى استشاط غضباً، ونهض من مجلس النبي ﷺ - في عصبية جاهلية - إلى ابنه الذي فر من سجنه بمكة، فضربه على وجهه، ثم أخذ يحرقه بتلابيبه ويدفع به أمامه ليعيده إلى معسكر المشركين تمهيداً لإعادته إلى سجنه بمكة.

وعندما اعتدى سهيل بن عمرو المشرك على ابنه المسلم بالضرب، وأخذ يدفعه بعنف لإعادته إلى المعتقل صاح أبو جندل ﷺ مستغيثاً بالمسلمين: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرِّدُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ بَقْتِنُونِي فِي دِينِي؟ فَزَادَ ذَلِكَ النَّاسَ إِلَى مَا بِهِمْ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/٢].

فالتهمت عواطف المسلمين من جديد ضد اتفاقية الصلح، وساد الموقف توتراً جديداً، كاد ينسف الاتفاقية، بعد أن تدخل المسلمون - لحماية أبي جندل المسلم من أبيه المشرك، إذ انتزعه منه (على ما يظهر) ليقى معهم؛ لأن تلك رغبته الخاصة؛ ولأنه أصبح منهم، عضواً في الأسرة الإسلامية الكبرى.

ولم يحاول سهيل بن عمرو انتزاع ابنه بالقوة من أيدي المسلمين، بل لجأ إلى الاحتجاج لدى النبي ﷺ وطالب بتسليم ابنه المسلم - تطبيقاً للبند الثامن من الاتفاقية الذي ينص على التزام النبي ﷺ بإعادة كل من جاء مسلماً من أبناء المشركين إلى أهله.

فقد قال سهيل بن عمرو في احتجاجه: هذا أول ما قاضيتك عليه، ردوه (أي ابنه أبا جندل) وقد حاول النبي ﷺ الاعتذار عن تسليم أبي جندل لأبيه، بأن المعاهدة لم يجر تسجيلها والتوقيع عليها قائلاً: «إننا لم نقض الكتاب بعد».

ولكن سهيل بن عمرو أصرَّ على تسليم ابنه محتجاً بأن الاتفاقية تعتبر في حكم المنتهية، وهدد بأنه سيلغي الاتفاقية إذا لم يتسلم ابنه أبا جندل رضي الله عنه. [صلح الحديبية لاشميل ٢٢٦-٢٣٠].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْتُبُ الْكِتَابَ هُوَ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلِ ابْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرِثُفَ فِي الْحَدِيدِ، قَدْ انْفَلَتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنَ الصُّلْحِ وَالرَّجُوعِ، وَمَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفْسِهِ دَخَلَ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، حَتَّى كَادُوا يُهْلِكُونَ، فَلَمَّا رَأَى سُهَيْلُ أَبُو جَنْدَلٍ قَامَ إِلَيْهِ فَضْرَبَ وَجْهَهُ، وَأَخَذَ بِتَلْبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ لَجْتُ (نمت) الْقَضِيَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا، قَالَ: «صَدَقْتَ»، فَجَعَلَ يَنْتَرُهُ (يجذبه جذباً شديداً) بِتَلْبِيهِ، وَيَجْرُهُ لِيُرُدَّهُ إِلَى قُرَيْشٍ، وَجَعَلَ أَبُو جَنْدَلٍ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟ فَرَادَ ذَلِكَ النَّاسُ إِلَى مَا بِهِمْ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَبَيْنَا النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ قَدْ اضْطَلَحُوا وَالْكِتَابُ لَمْ يَكْتُبْ أَقْبَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، قَدْ أَفْلَتَ يَرِثُفُ فِي الْقَيْدِ مُتَوَشِّحَ السَّيْفِ خَلَا لَهُ أَشْفَلُ مَكَّةَ، فَخَرَجَ مِنْ أَشْفَلِهَا حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَكْتُبُ سُهَيْلًا، فَرَفَعَ سُهَيْلٌ رَأْسَهُ فَإِذَا بِابْنِهِ أَبِي جَنْدَلٍ، فَقَامَ إِلَيْهِ سُهَيْلٌ فَضْرَبَ وَجْهَهُ بِغَضَنِ شَوْكٍ وَأَخَذَ بِلَبِيَّتِهِ وَصَاحَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟ فَرَادَ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ سَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ، وَجَعَلُوا يَكُونُ لِكَلَامِ أَبِي جَنْدَلٍ.

قَالَ: يَقُولُ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَى لِمِكْرَزِ بْنِ حَفْصٍ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ حُبًّا لِمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لِحَمْدٍ، وَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَمَا إِنِّي أَقُولُ لَكَ: لَا تَأْخُذْ مِنْ مُحَمَّدٍ نَصْفًا أَبَدًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى يَدْخُلَهَا عَنُودٌ.

فَقَالَ مِكْرَزُ: أَنَا أَرَى ذَلِكَ.

وَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا أَوَّلُ مَا قَاصَيْتُكَ عَلَيْهِ رُدُّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا أَكَاتِبُكَ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُهَيْلًا أَنْ يَرْكُضَهُ، فَأَبَى سُهَيْلٌ، فَقَالَ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ وَحُوَيْطِبُ: يَا مُحَمَّدُ، نَحْنُ نَجِيرُهُ لَكَ، فَأَدْخَلَاهُ فُسْطَاطًا فَأَجَارَاهُ، وَكَفَّ أَبُوهُ عَنْهُ.

ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَهُ فَقَالَ: «يَا أبا جندل، اصْبِرْ وَاخْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ فَرْجًا وَخُرْجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ!». [المغازي للواقدي ٦٠٧-٦٠٨].

## تسليم أبي جندل   للمشركين:

يقول أ/ باشميل: «لَمْ يَسَعْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ   - وَهُوَ أَبْرُّ مَنْ أَوْفَى بِالْعَهْدِ - إِلَّا أَنْ يَقِفَ عِنْدَ كَلِمَتِهِ، وَيَطْبِقَ الْإِتْفَاقِيَّةَ نَصًّا وَرُوحًا وَيَسْلَمَ أَبَا جَنْدَلَ الْمُسْلِمَ إِلَى أَبِيهِ الْمَشْرِكِ، فَسَلَّمَهُ عَلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِيلَامٍ لِلنَّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ؛ لِأَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ - عِنْدَ مَنْ هُوَ فِي مَنْزِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ   - أَسْمَى مِنَ الْعَوَاطِفِ.

## النبي   يعتذر لأبي جندل  :

وقد اعتذر النبي   للشباب المسلم أبي جندل   بأنه لا يمكنه القيام بأي عمل يحول بين أبيه وبين اعتقاله؛ لأن ذلك لو فعله، يعتبر نقضاً للعهد الذي أعطاه لقريش، وغدراً لا يرضى أبو جندل   نفسه أن يُقدم عليه أحد من المسلمين العاديين فضلاً عن سيدهم وقائدهم، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، أَصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَمُخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللَّهِ وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ بِهِمْ». [السيرة لابن هشام ٢/٣١٨].

## أبو جندل   يستسلم ويطيع أمر الرسول  :

وقد اقترح أبو جندل   كل الاقتناع بما قاله النبي   فأطاع أمر الرسول   فاستسلم لأبيه المشرك وكله ثقة واطمئنان بأن الله سيجعل له ولإخوته المستضعفين من الشباب المسلم في مكة مخرجاً؛ لأن النبي   بشره بذلك، والمؤمن الثابت لا يمكن أن يكون لديه أدنى ريب في صدق ما يقوله الرسول  ؛ ولذلك عاد أبو جندل   يرسف في قيوده إلى سجنه الرهيب بمكة وهو قير العين هادئ البال للبشرى التي بشره بها نبيه: «إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَمُخْرَجًا»، وفعلاً لم تمض سنة على مأساة أبي جندل   المؤلة في الحديبية حتى كتب الخلاص له وسبعين من إخوته الشباب في مكة، إذ تمكنوا (وبصورة لا يدري أحد كيف تمت) من الهرب من سجون الشرك في مكة، وكُونُوا لَهُمْ تَجْمَعًا ثَوْرِيًّا إِسْلَامِيًّا فِي السَّاحِلِ عَلَى طَرِيقِ قَوَافِلِ الْمَشْرِكِينَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّامِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

## ازدياد الكرب على المسلمين:

وبعد أن أعاد النبي   أبا جندل   إلى أبيه سهيل بن عمرو تزايد ضغط الكرب والهم والغم على نفوس المسلمين حتى كادوا يهلكون.

وقد بلغ الألم النفسي بالمسلمين (للحالة المؤلة التي عاد عليها أبو جندل   إلى معتقل الشرك ومناخ الكفر) إلى درجة أنهم صاروا ييكون توجعاً لما حل بأبي جندل  ، الشاب الطيب المثالي المسلم، الذي أخذه أبوه المشرك الفظ يجره في وحشية وقسوة أمامهم دون أن يقوموا بأي عمل لإنقاذه، مع قدرتهم التامة على ذلك.

**سهيل بن عمرو يرفض شفاعة الرسول ﷺ في ابنه:**

وكان الرسول الأعظم ﷺ - بعد أن سلم بحق سهيل بن عمرو في اعتقال ابنه ووافق على تسليمه - طلب من سهيل أن يتركه له، ويتنازل عن حقه في اعتقاله، لا سيما أنه جاء بمحض اختياره راعباً في الالتحاق بالمسلمين، ولكن سهيلاً رفض هذا الطلب، وأصر على استعادته فكان له ما أراد؛ لأن ذلك حق له كفلته شروط الصلح.

**عضوا الوفد القرشي يجيران أبا جندل رضي الله عنه:**

غير أن العضوين في وفد قريش وهما (حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص) لما رأيا إلحاح النبي ﷺ على سهيل بن عمرو في أن يترك ابنه ويعفيه خوفاً عليه من التعذيب، ورأيا سهيلاً يرفض شفاعة النبي ﷺ استحميا، فأبلغنا النبي ﷺ بأن أبا جندل سيكون في حمايتهما من شر أبيه، فقالا: يا محمد نحن نجيره لك، وفعلًا أبلغا سهيل بن عمرو بأن ابنه أصبح في جوارهما، ثم أدخلاه فيسطاطًا، فكف أبوه عن إيذائه، وكان هذا أول فرج ينال أبا جندل رضي الله عنه مصداقاً لقول النبي ﷺ له: «فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَّكَ وَلِيْنٌ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا».

**تفجر المعارضة بين المسلمين من جديد:**

وكان استحكام حلقات محبة أبي جندل رضي الله عنه، وتعاضم مأساته بإعادته إلى أبيه رغماً عن إرادته سبباً في تفجير المعارضة للصلح من جديد داخل المعسكر الإسلامي، فقد طغى الحزن والأسى على نفوس المسلمين، واعتبروا ما نال أبا جندل رضي الله عنه من إهانة على يد أبيه المشرك دون أن يستطيع المسلمون حمايته، بسبب التزامات نبههم في الصلح، اعتبروا ذلك أول القطاف المرثا ص لصلح الحديبية، فعادوا إلى المعارضة من جديد، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ وعادوا مناقشته واستجوابه مبدلين ألهم ومعارضتهم للصلح، ومتسائلين: كيف ولماذا يعودون إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة، وقد وعدهم رسول الله ﷺ ذلك وهم بالمدينة؟

**ابن الخطاب رضي الله عنه يغري أبا جندل رضي الله عنه بقتل أبيه المشرك:**

وبالرغم من تفكير بعض الصحابة - وعلى رأسهم الفاروق عمر رضي الله عنه - في التمرد بمقاتلة المشركين رغم الاتفاق على الصلح بين النبي ﷺ وسهيل بن عمرو - كما صرح بذلك ابن الخطاب وعمران بن حصين - فقد عصمهم الله من هذا الأمر الخطير، فكظموا غيظهم وابتلعوا آلامهم، فظلوا عند أوامر النبي ﷺ القاضية بعدم محاربة المشركين، والتزموا بها.

غير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام بمحاولة لقتل رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو المشرك، دون أن يكون ذلك مخالفاً بالتزامات النبي ﷺ المنصوص عليها في معاهدة الصلح، وذلك بأن لجأ عمر إلى أبي

جندل ﷺ وأخذ يشجعه على قتل أبيه المشرك، ولكن أبا جندل ﷺ مع رغبته في ذلك أبلغ عمر ﷺ بأنه كمسلم يلتزم بما التزم به نبيه محمد ﷺ، لا يمكنه قتل سهيل؛ لأن ذلك يُعد خروجا على أوامر النبي ﷺ وهذا ما لا يرغب فيه أبو جندل ﷺ.

فقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب ﷺ - حين كان في شدة الانفعال - مش إلى جنب أبي جندل ﷺ، وأبوه يتره ويدفعه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «... قَالَ: فَوَثَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ ﷺ فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: اضْبِرْ أَبَا جَنْدَلٍ، فَإِنَّمَا هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ، قَالَ: وَيُدْنِي فَأَيْمَ السَّيْفِ مِنْهُ، قَالَ: يَقُولُ عُمَرُ: رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ، قَالَ: فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ وَنَفَذَتْ الْقَضِيَّةُ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠: رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن، السيرة لابن هشام ٢/٣١٨-٣١٩].

وَقَالَ الزَّاقِدِيُّ: «قَالَ عُمَرُ ﷺ: فَوَثَبْتُ إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ أُمْنِي إِلَى جَنْبِهِ، وَسَهَّلْتُ بَنَ عَمْرٍو يَدْفَعُهُ، وَعُمَرُ يَقُولُ: اضْبِرْ يَا أَبَا جَنْدَلٍ، فَإِنَّمَا هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ، وَمَعَكَ السَّيْفُ، فَارْجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ وَيَضْرِبَ أَبَاهُ، فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: يَا أَبَا جَنْدَلٍ، إِنَّ الرَّجُلَ يَقْتُلُ أَبَاهُ فِي اللَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا لَقَتَلْنَاهُمْ فِي اللَّهِ، فَارْجُلُ رَجُلٍ، قَالَ: وَأَقْبَلَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ عَلَى عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: مَا لَكَ لَا تَقْتُلُهُ أَنْتَ؟ قَالَ عُمَرُ ﷺ: نَهَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِهِ وَقَتْلِ غَيْرِهِ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ: مَا أَنْتَ بِأَحَقَّ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ مِنِّْي». [المغازي للواقدي ٢/٦٠٨-٦٠٩].

«يَا عُمَرُ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقُومَ فِي اللَّهِ مَقَامًا يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ»:

وعندما بلغ النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ أغرى أبا جندل بأبيه سهيل بن عمرو ليقنتله قال ﷺ: «يَا عُمَرُ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقُومَ فِي اللَّهِ مَقَامًا يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ». [جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ لابن الأثير ٨/٣٠١ رقم ٦١٠٨ من زيادة رزين، وقال محققه: (رواية رزين هذه رواها أحد في المسند ٤/٣٢٦)، وفي طبعة الرسالة ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠، ولم أجد فيها هذه المقولة، وقد وردت مثلها في غزوة بدر الكبرى].

ويقول أ/ حوى: «هذا القول من النبي ﷺ في حق سهيل بن عمرو: إشارة إلى ما كان عند وفاة النبي ﷺ، وارتداد الناس بمكة، فقام خطيباً ووعظهم، وثبتهم على الإسلام، فكان هذا هو المقام الذي يحمد عليه». [الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية ٢/٧٥٧].

**عودة المعارضة إلى مناقشة النبي ﷺ:**

وبعد حادثة أبي جندل ﷺ المؤلفة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصالح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب ﷺ لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجدداً للصالح، إلا أن

النبي الأعظم ﷺ استطاع هذه المرة - بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة - إقناع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم، لا نصرًا لأعدائهم كما يتوهمون، فسلموا نهائيًا بوجهة نظر الرسول ﷺ وأنها الحق والصواب، بمن فيهم كبير المعارضين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي - بعد أن أفاق من الصدمة النفسية - ندم ندمًا شديدًا على ما بدر منه من معارضة ومجادلة شديدة للنبي ﷺ حتى صار (كما قال): يتصدق ويعتق الرقاب تكفيرًا عن ما رد به على رسول الله ﷺ بهذا الصدد».

[صلح الحديبية لباشمیل ٢٣٨].

## المبحث الثالث

## توثيق صلح الحديبية

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن انتهت عاصفة المعارضة في صفوف الجانب الإسلامي المصلح واقتنع المعارضون بأنهم كانوا على خطأ في معارضتهم - بعد ما شرح لهم الرسول ﷺ أبعاد المكاسب العظيمة التي سيظفر بها المعسكر الإسلامي نتيجة إبرام هذا الصلح - عاد الوفدان - الإسلامي برئاسة الرسول الأعظم ﷺ، والقرشي برئاسة سهيل بن عمرو - عاداً إلى الاجتماع، لوضع الصيغة النهائية المفصلة للصلح الذي اتفق الوفدان من حيث المبدأ على وضع خطوطه العريضة وقواعده الرئيسية.

## الخلاف حول صيغة المعاهدة:

ولدى الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً، حدث خلاف بين الوفدين حول بعض النقاط، كاد يعود بالآزمة إلى ما كانت عليه، فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء الصيغة للمعاهدة المتفق على جوهرها أمر الكاتب بأن يبدأ المعاهدة بكلمة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو وقال: لا أعرف الرحمن، اكتب (باسمك اللهم)، وعندما ثارت ثائرة الصحابة فضجوا محتجين على اعتراض سهيل، وأصروا على رفض اعتراض سهيل بن عمرو، وقالوا: هو الرحمن، ولا تكتب إلا الرحمن، ولكن النبي ﷺ - تمسكاً مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم - أجاب سهيل بن عمرو وقال للكاتب: (اكتب باسمك اللهم).

[تاريخ الطبري ٢/ ٦٣٤، وسيرة ابن هشام ٢/ ٣١٧، والسيرة الحلبية ٢/ ١٤٣، ومغازي الواقدي ٢/ ٦١٠].

واستمر في الإملاء فأمر الكاتب أن يكتب: (هذا ما اصطلاح عليه رسول الله) وقبل أن يكمل الجملة نهض سهيل بن عمرو مرة أخرى واعترض على كلمة (رسول الله) وطلب شطبها من الوثيقة قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله، فقد ظلمناك إن كنت رسول، وما منعناك أن تطوف ببيت الله، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك». [سير ابن هشام ٢/ ٣١٧، وجوامع السيرة ص ٢٠٩، تاريخ الطبري ٢/ ٦٣٤].

[صلح الحديبية لباشميل ٢٤١-٢٤٢].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُرِّيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِيبَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقَعُ مِنْ أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَسُهِيلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَدِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ رضي الله عنه: «اُكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَأَخَذَ سُهِيلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَدِيهِ فَقَالَ: مَا نَعْرِفُ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، اُكْتُبْ فِي قَضِينَا مَا نَعْرِفُ، قَالَ: «اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَكُتِبَ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ»، فَأَمَسَّ سُهِيلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَدِيهِ وَقَالَ: لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ إِنْ

كُنْتُ رَسُولَهُ، اَكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ، فَقَالَ: «اَكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، فَكَتَبَ.

فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا ثَلَاثُونَ شَابًّا عَلَيْهِمُ السَّلَاحُ، فَثَارُوا فِي وُجُوهِنَا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ اللَّهُ ﷻ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَدِمْنَا إِلَيْهِمْ فَأَخَذْنَاهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدٍ أَحَدٍ، أَوْ هَلْ جَعَلْ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا؟ فَقَالُوا: لَا، فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾ [الفتح].

[مسند أحمد ٢٧/ ٣٥٤ رقم ١٦٨٠٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا حُضِرَتِ الدَّوَاةُ وَالصَّحِيفَةُ بَعْدَ طُولِ الْكَلَامِ وَالْمُرَاجَعَةِ فِيمَا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو، وَلَمَّا التَّامَ الْأَمْرُ وَتَقَارَبَ، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَكْتُبُ الْكِتَابَ بَيْنَهُمْ، وَدَعَا أَوْسَ بْنَ خُوَيْلٍ يَكْتُبُ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا يَكْتُبُ إِلَّا أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: ابْنُ عَمِّكَ عَلِيٌّ، أَوْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا يَكْتُبُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، اكْتُبْ كَمَا تَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَضَاقَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالُوا: هُوَ الرَّحْمَنُ، وَقَالُوا: لَا تَكْتُبُ إِلَّا الرَّحْمَنَ، قَالَ سُهَيْلٌ: إِذَا لَا أَقَاضِيهِ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا خَالَفْتُكَ، وَاتَّبَعْتُكَ، أَفَتَرَعْبُ عَنْ اسْمِكَ وَأَسْمِ أَبِيكَ: مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ؟ فَضَجَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا صَجَّةً هِيَ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى حَتَّى ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، وَقَامَ رَجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ: لَا نَكْتُبُ إِلَّا مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ!.

[الغازي للواقدي ٢/ ٦١٠-٦١١].

### سيد الانصار يتدخلان:

يقول أ/ باشميل: «وعندما عارض سهيل بن عمرو وطالب بشطب كلمة (رسول الله) من صلب الوثيقة هاج المسلمون هياجاً شديداً لهذا التصلف القرشي، وارتفعت أصواتهم بالاحتجاج الشديد وأصرروا على أن لا تمحى كلمة (رسول الله) وقالوا للكاتب: لا تكتب إلا محمداً رسول الله.

بل ذهب الغضب والامتناع بسيد الأوس أسيد بن حضير وسيد الخزرج سعد بن عباد إلى أن يتدخلوا (عملياً) في الأمر، فيأخذوا بيد الكاتب ليكف عن الكتابة، إلا إذا كتب في المعاهدة كلمة (رسول الله)، وهدد المعارضون باستخدام السلاح واللجوء إلى الحرب لتأديب قريش المتعجرفة؛ لأنهم اعتبروا ذلك إهانة لكرامة المسلمين حيث قالوا للكاتب - بعد أن أمسكوا بيده ومنعوه من الكتابة: لا تكتب إلا محمداً رسول الله، وإلا فالسيف بيننا! علام نعطي الدنية في ديننا.



وهكذا تلبّد الجو بالغيوم وبدت نذر الحرب تظهر في الأفق من جديد، بعد أن عاد المسلمون إلى التهديد باستخدام القوة، وأصرت قريش من جانبها - ممثلة في سهيل بن عمرو - على التمسك بموقفها من ضرورة شطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة؛ لأنها تعتبر توقيعها عليها وهي تحمل كلمة رسول الله ﷺ - اعترافاً رسمياً بأنه رسول الله ﷺ لا سيما وأن هذه الوثيقة رسمية دولية.

### الرسول ﷺ يحسم الخلاف:

غير أن الرسول الأعظم ﷺ - بحكمته وتسامحه وبُعد نظره وعدم اهتنامه بالشكليات في مثل هذه المواقف المصيرية الخطيرة - حسم الخلاف وأنهى الأزمة حين أمر أصحابه بالسكوت والنزاع الهدوء ليتصرف هو حسب ما تقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين، فأطاع الصحابة أمره فسكتوا، ثم أمر الكاتب - تحقيقاً لرغبة رئيس الوفد القرشي - أن يمحو كلمة (رسول الله) ويكتب بدلاً منها كلمة (محمد بن عبد الله) وبهذا انتهت آخر مرحلة من مراحل النزاع الخطير، وكُتبت المعاهدة من نسختين وتم التوقيع والإشهاد عليها من الجانبين. [صلح الحديبية لباشمیل ۲۴۲-۲۴۳].

### الصيغة النهائية لوثيقة الصلح:

وبعد أن تغلبت حكمة الرسول الأعظم ﷺ على كل العقبات التي اعترضت طريق إكمال المعاهدة وتوقيعها - سواء من جانب الصحابة أو من جانب قريش - وبعد أن اختفت المعارضة نهائياً بين المسلمين، ولم يعد للمشرّكين ما يعترضون به على نصوص المعاهدة بعد أن قبل النبي ﷺ الحكيم كل اعتراضاتهم، وُضعت الصيغة النهائية لهذه المعاهدة التاريخية ثم تمت كتابتها في نسختين، نسخة أخذها النبي ﷺ، ونسخة أخذها سهيل بن عمرو، وهذه هي الصيغة الحرفية لهذه المعاهدة الدولية التاريخية:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ: ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: «أُكْتُبُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ: فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ أُكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَكَتَبَهَا، ثُمَّ قَالَ: «أُكْتُبُ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو»، قَالَ: فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقَاتِلْكَ، وَلَكِنْ أُكْتُبُ اسْمَكَ واسمَ أَبِيكَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُكْتُبُ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، اضْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ، أَمَّنْ فِيهِنَّ النَّاسُ وَيَكْفَى بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيٍّ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ بَيْنَنَا عَيْنِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ (أي صدور منظوية على ما فيها، لا تبدي عداوة، وضرب العيبة مثلاً)، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ (السرقة الخفية) وَلَا إِغْلَالَ (الخيانة)، وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ».

[السيرة النبوية لابن هشام ۲/ ۳۱۷-۳۱۸].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي فَرْوَةَ عَنْ وَاقِدِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ نَظَرَ إِلَى أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ أَخَذَا بِيَدِ الْكَاتِبِ فَأَمْسَكَهَا، وَقَالَا: لَا تَكْتُبْ إِلَّا مُحَمَّدَ رَسُولِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَالْسَيْفُ بَيْنَنَا! عَلَامَ نُعْطِي هَذِهِ الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ وَيَوْمِي بِيَدِهِ إِلَيْهِمْ أَسْكُتُوا، وَجَعَلَ حُوَيْطُبٌ يَتَعَجَّبُ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَيُقْبِلُ عَلَى مَكْرَزِ بْنِ حَفْصٍ وَيَقُولُ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا أَحَاطَ لِدِينِهِمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَتَرَكْتَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي سُهَيْلٍ حِينَ أَبِي أَنْ يُقَرَّ بِالرَّحْمَنِ: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَاكْتُبْ، فَكُتِبَ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، اضْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ وَيَكْفِي بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ لَا إِسْلَالٌ وَلَا إِغْلَالٌ، وَأَنَّ بَيْنَنَا عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ (هي استعارة، وإنما يريد تكف عنا ونكف عنك)، وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَعَقْدِهِ فَعَلَّ، وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَعَقْدِهَا فَعَلَّ، وَأَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْهُمْ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيَّهِ رَدُّهُ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لَمْ تَرُدُّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا يَرْجِعُ عَنَّا عَامَهُ هَذَا بِأَصْحَابِهِ، وَيَدْخُلُ عَلَيْنَا قَابِلٌ فِي أَصْحَابِهِ فَيُقِيمُ ثَلَاثًا، لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِسِلَاحٍ إِلَّا سِلَاحَ الْمَسَافِرِ، السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ. شَهِدَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلَمَةَ وَحُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَى، وَمَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ بْنُ الْأَخْنَفِ.

وَكُتِبَ ذَلِكَ عَلَى صَدْرِ هَذَا الْكِتَابِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦١١-٦١٢].

عَلَيَّْ ﷺ يَكْتُبُ شُرُوطَ الصَّلْحِ:

يقول د/ الحكمي: «كان الذي كتب عقد الصلح بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش يوم الحديبية هو علي بن أبي طالب، كما ثبت في الأحاديث والآثار التالية:

قال عبد الرزاق الصنعاني: عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو زُمَيْلٍ سَمَاكَ الْحَنْفِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «كَاتِبُ الْكِتَابِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ». [المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٣٤٢ رقم ٩٧٢١، والحديث صحيح بهذا الإسناد، فمكرمة بن عمار وأبو زميل ثقتان أخرج لهما مسلم].

وقال عبد الرزاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ: سَأَلْتُ عَنْهُ الزُّهْرِيَّ فَضَحِكَ وَقَالَ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَلَوْ سَأَلْتُ عَنْهُ هَؤُلَاءِ قَالُوا: عُثْمَانُ ﷺ، يَعْنِي بَنِي أُمَيَّةَ. [المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٣٤٣ رقم ٩٧٢٢، هذا الأثر أرسله الزهري، لكن يشهد له حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السابق وغيره].

وما أشار إلى ذلك في الصحيح ما يلي: عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الْحَدِيثِ كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَهُمْ كِتَابًا، فَكَتَبَ «هَذَا مَا كَاتَبَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَا تَكْتُبْ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ، لَوْ كُنْتَ [فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ] رَسُولًا [رَسُولَ اللَّهِ] لَمْ نَقَاتِلْكَ، فَقَالَ [النَّبِيُّ ﷺ] لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اُحْمَهُ»، فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَنَا بِالَّذِي أُنْحَاهُ، فَمَحَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَصَالَحَهُمْ [وَكَانَ فِيهَا اشْتَرَطُوا] عَلَى أَنْ يَدْخُلَ [يَدْخُلُوا مَكَّةَ] هُوَ وَأَصْحَابُهُ [فَيَقِيمُوا بِهَا] ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ [ثَلَاثًا]، وَلَا يَدْخُلُوهَا [يَدْخُلُهَا بِسِلَاحٍ] إِلَّا بِجُلْبَانِ السِّلَاحِ، فَسَأَلُوهُ: مَا جُلْبَانُ السِّلَاحِ؟ فَقَالَ: الْقِرَابُ بِمَا فِيهِ.

[البخاري في الصلح (٢٦٩٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٣)، ومسنند أحمد ٣٠٥/٣ رقم ١٨٥٦٧].

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٠٧-٣١٠].

### شهود الصلح من الجانبين:

وبعد الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح، وكانت نسخة واحدة فقط قال سهيل بن عمرو: تكون عندي، وقال النبي ﷺ: بل عندي، وقد حُل هذا الخلاف، بأن أمر النبي ﷺ أن يكتب نسخة طبق الأصل، ففعل، فأعطاهما سهيلًا.

وهنا استدعى تسعة شهود ليضعوا شهادتهم على وثيقة الصلح، سبعة من المسلمين هم:

- ١- أبو بكر الصديق.
- ٢- عمر بن الخطاب.
- ٣- عثمان بن عفان.
- ٤- عبد الرحمن بن عوف.
- ٥- سعد بن أبي وقاص.
- ٦- أبو عبيدة بن الجراح.
- ٧- محمد بن مسلمة الأنصاري.

واثنين من المشركين وهما:

- ١- حويطب بن عبد العزى.
- ٢- مكرز بن حفص بن الأخيف.

يقول د/ الحكمي: «أما الشهود على هذا العقد فقد ساهم حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن جرير: فبعد أن ذكر الكاتب وما دار بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو وما اتفقوا عليه وقصة أبي جندل، قال: فَلَمَّا قَرَعَ مِنَ الْكِتَابِ أَشْهَدَ عَلَى الصُّلْحِ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ: أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ بْنَ عَمْرِو، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَمُكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخِيفِ - وَهُوَ مُشْرِكٌ - أَخَا بَنِي عَامِرٍ بْنِ لُؤَيٍّ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَكَتَبَ، وَكَانَ هُوَ كَاتِبَ الصَّحِيفَةِ.

[تاريخ ابن جرير الطبري ٢/٦٣٦، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٩].

سبق أن بينت ضعف هذا الحديث.

وقد ذكر الواقدي وابن سعد هؤلاء الشهود سوى عبد الله بن سهيل بن عمرو وعلي بن أبي طالب، وقالوا: محمد بن مسلمة بدل محمود بن مسلمة، وزادا: عثمان بن عفان وأبا عبيدة بن الجراح، وحويطب بن عبد العزى وكان مشركاً آنذاك. [مغازي الواقدي ٦١٢/٢، والطبقات الكبرى ٩٧/٢].  
[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣١٠-٣١١].

#### نسخ المعاهدة للمفريقين:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا كُتِبَ الْكِتَابَ قَالَ سُهَيْلٌ: يَكُونُ عِنْدِي، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ عِنْدِي، فَاخْتَلَفَا، فَكُتِبَ لَهُ نُسخةٌ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، وَأَخَذَ سُهَيْلٌ نُسخَتَهُ وَكَانَ عِنْدَهُ».  
[المغازي للواقدي ٦١٢/٢].

## المبحث الرابع

### نتائج صلح الحديبية

يقول أ/ باشميل: وبالتوقيع على معاهدة صلح الحديبية تقشعت غيوم الحرب التي كانت تغطي جو المنطقة نتيجة الأزمة الحادة الخطيرة التي افتعلتها قريش والتي كادت تؤدي إلى مصادمات دامية. كما أن هذا الصلح لم يمه أزمه الحديبية، بل تناول النزاع الجوهرى القائم بين قريش والمسلمين منذ بزغت شمس الدعوة الإسلامية، أو منذ بدأت حالة الحرب بين المعسكرين لخمس سنوات مضت، حيث كان من أهم بنود الصلح إقامة هدنة بين الفريقين وإنهاء حالة الحرب لمدة عشر سنوات، يأمن فيها الناس بعضهم من بعض.

### إنهاء حالة الحرب بين خزاعة وكنانة أيضاً:

كما لم تنحصر نتائج الصلح الإيجابية على المعسكرين، الإسلامى والقريشى، بل انعكست نتائج هذا الصلح على قبيلتين من أعظم القبائل العربية المجاورة للحرم، وهما (خزاعة وكنانة)، فأنتهى هذا الصلح حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين لمدة عشر سنوات، وذلك لالتزامهما بمقررات هذا الصلح، بعد أن رضى كل منهما الدخول فى أحد المعسكرين، كنانة فى عهد قريش، وخزاعة فى عهد المسلمين، وذلك نتيجة التخيير الذى تضمنه البند العاشر والحادى عشر من هذه المعاهدة التاريخية.

[صلح الحديبية لباشميل ٢٤٦-٢٤٧].

**دُخُولُ خُزَاعَةَ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَنِي بَكْرِ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ:**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَتَوَاتَبَتْ خُزَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/٢].  
وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَوَاتَبَتْ مِنْ هُنَاكَ خُزَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ، وَنَحْنُ عَلَى مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا.

وَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ قُرَيْشٍ فِي عَهْدِهَا وَعَهْدِهَا، وَنَحْنُ عَلَى مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا».

[المغازي للواقدي ٦١٢/٢].

### عداوة الإسلام جمعت بين كنانة وقريش:

يقول أ/ باشميل: فقد كانت قريش وبنو كنانة (ومنهم بنو بكر) <sup>(١)</sup> على نزاع دام مع قريش، فكانت بينهم معارك فى الجاهلية، وبقيت بينهم الثارات حتى ظهور الإسلام، وقد عرفنا — كما فصلناه فى كتابنا

(١) اسم (بكر) يطلق على قبائل كثيرة قحطانية وعدنانية.. (وبنو بكر هنا) هم بنو بكر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نزار بن عدنان.

الأول غزوة بدر الكبرى - كَيْفَ خافت قريش كنانة من أن تضربها من الخلف، عندما تتحرك بقواتها من مكة لملاقاة المسلمين في بدر؛ لأن القبيلتين كانتا في حالة حرب يوم ذاك، حتى تعهّد سُراقَة بن مالك بن جعشم الكناني لقريش بأن كنانة ستوقف عن القيام بأي عمل حربي ضد قريش عندما تكون غائبة في حرب مع المسلمين.

وقد ظلت العدواة قائمة بين قريش، وكنانة بالرغم من العهد المؤقت الذي أعطاه سراقَة بن مالك لقريش، بعدم التعرض لها عندما تشتبك مع المسلمين في بدر.

### خزاعة لم تكن عدوة لقريش:

أما خزاعة فلم تكن عدوة لقريش، ومنذ عصور طويلة لم يكن بينها وبين قريش أي نزاع مسلح، بل كانت خزاعة على وئام مع قريش قبل الإسلام وبعده حتى صلح الحديبية. فقد كانت خزاعة أحوال قريش، وكان بدليل بن ورقاء سيد خزاعة نفسه يقيم في مكة وله بها دار وعائلة.

إلا أن خزاعة منذ أن ظهر الإسلام كانت تبدي الولاء للنبي ﷺ، بالرغم من عدم اعتناقها للإسلام، وقد رأينا (كما في حملة حمراء الأسد بعد غزوة أحد) كيف أخلص معبد بن أبي معبد الخزاعي للمسلمين - بالرغم من بقاءه على شركه يومها.

### كيف انقلب العدو صديقاً:

وبالرغم من أن خزاعة في جمهورها صديقة للمسلمين أو بالأحرى على غير عداء معهم، فإنها لم تكن عدوة لقريش كذلك.

أما بنو بكر (من كنانة) فقد كانوا أعداء محاربين تقليديين لقريش، ولكن يظهر أن عدواة الفريقين للإسلام قد جعلتهما يجمدان نزاعاتهما المسلحة، بدليل اشتراك فصيلة من قبائل كنانة في معركة أُحُد إلى جانب قريش بقيادة الحليس بن زبان الكناني، وبدليل وجود عدة كتائب من كنانة أيضاً في التجمع القرشي المسلح أثناء أزمة الحديبية، بقيادة الحليس بن زبان أيضاً.

### خزاعة في عهد المسلمين، وكنانة في عهد قريش:

ولهذا لم يكن مفاجأة أن تدخل بنو بكر بن كنانة في عهد قريش، ويدخل بنو خزاعة في عهد النبي ﷺ. ويظهر أن بني بكر وخزاعة، كلاً منهما يعتبر نفسه ذا علاقة بالمفاوضات التي كانت جارية بين المسلمين والقرشيين في الحديبية.

ولذلك كان هناك في الحديبية مندوبون من كل من خزاعة وبني بكر حاضرين أثناء المفاوضات الجارية بين النبي ﷺ وقريش، كمراقبين فقط.

ويظهر أن هؤلاء المندوبين المراقبين: البكرين والخزاعين، قد كان لديهم التفويض الكامل كلٌّ من قبيلته، ليتخذ الإجراء الذي يراه مناسباً حيال نتائج المفاوضات الدائرة بصفة رئيسية بين قريش والمسلمين.

وبناء على ذلك قرر مندوب خزاعة الدخول في عهد المسلمين وأن تدخل خزاعة - مسلمها وكافرها - في عهد المسلمين، وأن تلتزم بمقررات الصلح كجزء من المعسكر الإسلامي.

كما قرر مندوبو بني بكر أن يدخل بنو بكر بن كنانة في عهد قريش وأن يلتزموا بها التزمت به قريش في هذه المعاهدة.

وبدخول كل من القبيلتين في هذا الصلح أصبح كل منهما ملتزماً بما يلتزم به المعسكر الذي دخل في عهده، كما صار هذا المعسكر مسؤولاً عن كل مخالفة ترتكبها القبيلة التي دخلت في عهده.

### غضب قريش على خزاعة لدخولها في عهد المسلمين:

وقد غضبت قريش على خزاعة وأضمرت لها الشر لدخولها في عهد المسلمين الذين يفصلهم عن منازلها عدة مئات من الأميال، وبينما قريش تحتلط منازلها بمنازل خزاعة لقرب تجاورهما الشديد.

وقد تجسّد هذا الغضب القرشي في تصريح أدلى به أحد أركان المفاوضات في الحديبية، وهو (حويطب بن عبد العزى) قال - مخاطباً رئيس الوفد سهيل بن عمرو - الذي خزاعة أخواله:

«فَقَالَ حُوَيْطِبٌ لِسُهَيْلٍ: بَادَأْنَا أَخَوَالَكَ بِالْعِدَاوَةِ، وَقَدْ كَانُوا يَسْتَبْرِئُونَ مِنَّا، قَدْ دَخَلُوا فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَعَقَدِهِ.

قَالَ سُهَيْلٌ: مَا هُمْ إِلَّا كَغَيْرِهِمْ، هَؤُلَاءِ أَقَارِبُنَا وَلَحْمُنَا قَدْ دَخَلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ، قَوْمٌ اخْتَارُوا لَا أَنْفُسَهُمْ أَمْرًا فَمَا نَصْنَعُ بِهِمْ؟

قَالَ حُوَيْطِبٌ: نَصْنَعُ بِهِمْ أَنْ نَنْصُرَ عَلَيْهِمْ حُلَفَاءَنَا بَنِي بَكْرٍ.

قَالَ سُهَيْلٌ: إِيَّاكَ أَنْ تَسْمَعَ هَذَا مِنْكَ بَنُو بَكْرٍ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ شُؤْمٍ فَيَقْعُوا بِخِزَاعَةٍ فَيَغْضَبُ مُحَمَّدٌ لِحُلَفَائِهِ فَيَنْقُضَ الْعَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ.

قَالَ حُوَيْطِبٌ: حَظَوْتَ وَاللَّهِ أَخَوَالَكَ بِكُلِّ وَجْهِ.

فَقَالَ سُهَيْلٌ: تَرَى أَخَوَالِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ بَنِي بَكْرٍ؟ وَلَكِنَّ وَاللَّهِ لَا تَفْعَلُ قُرَيْشٌ شَيْئًا إِلَّا فَعَلْتُهُ، فَإِذَا أَعَانَتْ بَنِي بَكْرٍ عَلَى خِزَاعَةٍ فَلَيْتَ أَنَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَبَنُو بَكْرٍ أَقْرَبُ إِلَيَّ فِي قَدَمِ النَّسَبِ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ لَخَوُولَةً وَبَنُو بَكْرٍ مَنْ قَدْ عَرَفْتُ، لَنَا مِنْهُمْ مَوَاطِنٌ كُلُّهَا لَيْسَتْ بِحَسَنَةٍ مِنْهَا يَوْمٌ عَكَازٍ». [الغازي للواقدي ٦١٢/٢].

النبي ﷺ يرفض تسليم لاجئين من العبيد والشباب القرشي:

وقد واجهت النبي ﷺ مشكلة بعد توقيع الصلح، وهي أن بعضًا من عبيد المشركين وبعضًا من المستضعفين من أبناء قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ وطلبوا حق اللجوء وذلك قبل أن يتم عقد الصلح بين الفريقين.

وقد كتب موالي هؤلاء العبيد وآباءهم الشباب القرشيين اللاجئين، كتبوا إلى النبي ﷺ يطلبون إعادتهم إلى مكة، كما أن رئيس الوفد القرشي المفاوض طالب النبي ﷺ بتسليم هؤلاء اللاجئين، ولكن النبي ﷺ أبى أن يعيدهم إليهم لأنه غير ملزم بإعادتهم، ذلك أنهم قد أعطوا حق اللجوء في الحديبية قبل عقد الصلح؛ ولذلك رفض النبي ﷺ تسليمهم إلى قريش قائلاً: (هم عتقاء الله).

[صلح الحديبية لباشمیل ۲۴۷-۲۵۰].

عَنْ رُبَيْعِ بْنِ جِرَاشٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ: خَرَجَ عَبْدَانُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - يَعْنِي يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ - قَبْلَ الصُّلْحِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ مَوَالِيَهُمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا خَرَجُوا إِلَيْكَ رَغْبَةً فِي دِينِكَ، وَإِنَّمَا خَرَجُوا هَرَبًا مِنَ الرِّقِّ، فَقَالَ نَاسٌ: صَدَقُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، رُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَقَالَ: «مَا أَرَأَيْكُمْ تَتَّهَوْنَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ يَضْرِبُ رِقَابَكُمْ عَلَى هَذَا»، وَأَبَى أَنْ يَرُدَّهُمْ وَقَالَ: «هُمْ عِتْقَاءُ اللَّهِ عز وجل». (أبو داود في الجهاد (٢٧٠٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح).

وَعَنْ رَبِيعِ بْنِ حِرَاشٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بِالرَّحِيبَةِ (تَنَسَّبَ إِلَى خَنيسِ بْنِ سَعْدٍ أَخِي النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ جَدَّ أَبِي يُونُسَ الْقَاضِي، يُقَالُ لَهَا رَجَبَةُ خَنيسٍ وَهِيَ حَمَلَةٌ بِالْكُوفَةِ) قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَّةِ خَرَجَ إِلَيْنَا نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِيهِمْ سَهْمٌ بْنُ عَمْرٍو، وَأُنَاسٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجَ إِلَيْكَ نَاسٌ مِنْ أَهْبَانِنَا وَإِخْوَانِنَا وَأَرْقَانِنَا، وَلَيْسَ لَهُمْ فِقْهٌ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا خَرَجُوا فِرَارًا مِنْ أَمْوَالِنَا وَضِيَاعِنَا، فَارْذُدْهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِقْهٌ فِي الدِّينِ سَنَفْقَهُهُمْ»، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَتَنْتَهَنَّ أَوْ لَيَعْتَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ يَضْرِبُ رِقَابَكُمْ بِالسَّيْفِ عَلَى الدِّينِ، قَدْ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبُهُ عَلَى الْإِيمَانِ»، قَالُوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالُوا: قَالَ: «هُوَ خَاصِيفُ النَّعْلِ (الَّذِي يَخْرِزُهَا، مِنَ الْخَصِيفِ وَهُوَ الضَّمُّ وَالْجَمْعُ)»، وَكَانَ أَعْطَى عَلِيًّا رضي الله عنه نَعْلَهُ يَخْصِفُهَا، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا عَلِيٌّ رضي الله عنه فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَسْبُوْا مُقَعَّدَهُ مِنَ النَّارِ».

[الترمذي في المناقب (٣٧١٥)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ رَبِيعٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: وَسَمِعْتُ الْجَارُودَ يَقُولُ: سَمِعْتُ وَكَيْعًا يَقُولُ: لَمْ يَكْذِبْ رَبِيعٌ بِنُ جَرَّاشٍ فِي الْإِسْلَامِ كَذِبًا، وَأَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْأَسَدِ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَهْدِيٍّ يَقُولُ: مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ أَكْثَبُ



أَهْلُ الْكُوفَةِ، وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِي: ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ، لَكِنِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْهُ صَحِيحَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ. وَقَالَ د/ الْحَكَمِي: وَقَدْ نَقَلَ السُّيُوطِيُّ تَصْحِيحَ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ جُرَيْرٍ. [جَمْعُ الْجَوَامِعِ ٥٣/٢]. قُلْتُ: نَعَمْ الْحَدِيثُ صَحِيحٌ، وَلَكِنْ بِمَجْمُوعِ طَرَقِهِ. مَرْوِيَّاتُ الْحَدِيثِ ٣٣٥].

وَعَنْ رَبِيعٍ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا جِيرَانُكَ وَحُلَفَاؤُكَ، وَإِنْ نَاسًا مِنْ عِبِيدِنَا قَدْ أَتَوْكَ لَيْسَ بِهِمْ رَغْبَةٌ فِي الدِّينِ، وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْفِقْهِ، إِنَّمَا قَرُّوا مِنْ ضِيَاعِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَارْزُدْهُمْ إِلَيْنَا، فَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: «مَا تَقُولُ؟»، قَالَ: صَدِّقُوا، إِنَّهُمْ جِيرَانُكَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لِعُمَرَ رضي الله عنه: «مَا تَقُولُ؟»، قَالَ: صَدِّقُوا، إِنَّهُمْ لَجِيرَانُكَ وَحُلَفَاؤُكَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ.

[مُسْنَدُ أَحْمَد ٤٤٨/٢ رَقْم ١٣٣٦، وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ].

## المبحث الخامس الإحلال من الإحرام

### النبي ﷺ يُحل الإحرام في الحديبية:

يقول أ/ باشميل: «كان النبي ﷺ منذ قرر تحاشي الصدام المسلح مع قومه وسلوك كل السبل المؤدية إلى تجنب الحرب، وهو غنيم خارج حدود الحرم، إلا أنه كان طيلة إقامته بالحديبية (عشرين يومًا) وهو يؤدي وأصحابه الصلوات المفروضة داخل الحرم؛ لأنه كان معسكرًا بأصحابه على أطراف الحرم.

### من رواسب المعارضة للصالح:

وبعد أن تمت إجراءات الصلح النهائية، فأخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية، وانصرف الوفد القرشي راجعًا إلى مكة، قرر النبي ﷺ الانصراف إلى المدينة بأصحابه؛ لذلك أمر أصحابه بأن يحلوا إحرامهم فينحروا بدنهم ويحلقوا رؤوسهم.

غير أن رواسب من المعارضة الشديدة للصالح بقيت في نفوسهم، فعز عليهم أن يعودوا دون أن يقضوا مناسكهم فيطوفوا بالبيت وينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم داخل مكة، ولذلك عصوا الرسول ﷺ أول الأمر، فلم يمثلوا أمره حيث التزموا الصمت فلم يجبه أحد إلى ما أمر به من نحر البدن وحلق الرؤوس.

### النبي ﷺ يعمل بمشورة زوجته أم سلمة ؓ:

وقد اغتم النبي ﷺ لموقف الصحابة من أوامره التي لم ينفذوها، فدخل خيمته غاضبًا، وكانت زوجته أم سلمة ؓ موجودة معه في خيمته، فرأت عليه علامات الاستياء والغضب عندما دخل عليها، وكزوجة يهملها أن تشارك زوجها همومه وأحزانه، سألته عن سبب ما هو عليه من الغضب، ف أخبرها بعدم استجابة أصحابه حين أمرهم بأن يحلوا إحرامهم فينحروا ويحلقوا.

وهنا تجلت مشاركة المرأة المسلمة بعقلها الراجح ورأيها الصائب في إبداء المشورة لحل المشكلات الكبيرة، هذه المشورة التي لم يتردد حتى من هو في مقام النبوة من قبولها والعمل بها، الأمر الذي يثبت إلى أي مدى من العمق والبعد كان روح الشورى تضرب بجذورها في أصول التعاليم الإسلامية، وكيف كانت روح تعاليم هذا الدين العظيم عندما تكون لها السيادة تجعل القائد - حتى وإن كان في أعلى مراتب القيادة والسيادة - يلتزم العمل بالمشورة الصائبة حتى وإن كانت هذه المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه قد غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف بوجود المرأة واحترام لرأيها أكثر من أن يستصوب نبي مرسل مشورتها ويعمل بتوجيهها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبه نشوؤها: وهو الذي قل أن يغضب؟

أم سلمة رضي الله عنها تشير على النبي ﷺ، فتنجح في المشورة:

فقد روى المؤرخون وأصحاب الحديث والمفسرون، أن النبي ﷺ لما دخل على زوجته أم سلمة غاضباً مغتماً، وعرفت أن مصدر غضبه وغمه هو إضراب أصحابه وامتناعهم عن النحر والحلق، وهو الأمر الذي به يحلون من إحرامهم في الحديبية، أشارت عليه بأن لا يفتحهم مرة أخرى بهذا الشأن، وإنما يسلك طريقاً آخر باتباعه يجدون أنفسهم مضطرين لتنفيذ أمره، وهو أن يبدأ نفسه (عملياً) بنحر هديه.

وقد استحسّن النبي ﷺ فكرة أم سلمة هذه فعمل بمشورتها، فشرع (فعلًا) في نحر هديه بيده الكريمة، وقد كان لعمل النبي ﷺ بمشورة أم سلمة أحسن الثمار، حيث - كما توقعت أم سلمة - لم يكد يشرع في نحر هديه بيده حتى أخذ أصحابه رضي الله عنهم يتسابقون كل إلى نحر هديه لينحره اقتداءً بالنبي ﷺ.

[صلح الحديبية لباشمیل ٢٥٣-٢٥٥].

وقد أشار إلى أمر النبي ﷺ لأصحابه بذلك وما دار بينهم حديث المسور ومروان الطويل، فقد جاء فيه من طريق معمر ما نصه: «قَالَ: فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَمْ تُحِبَّ ذَلِكَ؟ أَخْرَجَ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُذْنَكَ، وَتَدْعُو خَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحْرَ بُذْنِهِ، وَدَعَا خَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَمًّا». [البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢)].

وروى البيهقي بسنده عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور، ومروان في قصة الحديبية، قال: «لَمَّا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُومُوا فَانْحَرُوا، وَاحْلِقُوا»، فَوَاللَّهِ مَا قَامَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، فَقَالَ: «يَا أُمُّ سَلَمَةَ! أَلَا تَرَيْنِ إِلَى النَّاسِ، أَيُّ أَمْرِهِمْ بِالْأَمْرِ لَا يَفْعَلُونَهُ»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا تُلْمُهُمْ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ دَخَلَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ بَمَا رَأَوْكَ تَحَلَّتْ عَلَى نَفْسِكَ فِي الصُّلْحِ، وَرَجَعْتَكَ وَلَمْ يُفْتَحْ عَلَيْكَ، فَانْخَرُجْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، حَتَّى تَأْتِيَ هَذِيكَ فَتَنْحَرَ، وَتَحْلِقَ، فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْكَ فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَعَلُوا كَالَّذِي فَعَلْتَ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدَهَا، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا، حَتَّى أَتَى هَذِيَهُ، فَانْحَرَ، وَحَلَقَ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ، قَامُوا فَفَعَلُوا، وَانْحَرُوا، وَحَلَقَ بَعْضُهُمْ، وَقَصَرَ بَعْضٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَالْمُقَصِّرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ» ثلاثًا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالْمُقَصِّرِينَ، فَقَالَ: «وَالْمُقَصِّرِينَ». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٥٠-١٥١].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالُوا: فَلَمَّا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ وَانْطَلَقَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَأَصْحَابُهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَاَنْحَرُوا وَاحْلِقُوا»، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَأْمُرُهُمْ، فَلَمْ يَفْعَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجَتِهِ مُغْضَبًا شَدِيدَ الْغَضَبِ، وَكَانَتْ مَعَهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ، فَاضْطَجَعَ، فَقَالَتْ: مَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ مَرَّارًا لَا تُجِيبُنِي، ثُمَّ قَالَ: «عَجَبًا يَا أُمُّ سَلَمَةَ، إِنِّي قُلْتُ لِلنَّاسِ اَنْحَرُوا وَاحْلِقُوا وَحَلُّوْا مَرَّارًا، فَلَمْ يُجِيبْنِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى ذَلِكَ، وَهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامِي وَيَنْظُرُونَ فِي وَجْهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اَنْطَلِقْ أَنْتَ إِلَى هَذِيكَ فَاَنْحَرْهُ، فَإِنَّهُمْ سَيَقْتُدُونَ بِكَ.

قَالَتْ: فَاضْطَجَعَ (أي: أخذ ثوبه فجعل وسطه تحت إبطه الأيمن وألقى طرفيه على كتفه الأيسر من جهة صدره) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِثَوْبِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَأَخَذَ الْحُرْبَةَ مِنْهُمْ هَدِيَّةً.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يَهْوِي بِالْحُرْبَةِ إِلَى الْبَدَنَةِ رَافِعًا صَوْتَهُ: بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ! قَالَتْ: فَمَا هَذَا إِلَّا أَنْ رَأَوهُ نَحَرَ، فَتَوَائِبُوا إِلَى الْهَدْيِ فَارْذَعُوا عَلَيْهِ حَتَّى نَخْشِيتُ أَنْ يَغْمَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. فَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أُمِّ عِمْرَةَ قَالَتْ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا بِثَوْبِهِ وَالْحُرْبَةَ فِي يَدَيْهِ يَنْحَرُ بِهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٦١٣].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضْطَرَبًا فِي الْحُلِّ (أي أن أبنيته كانت مضروبة في الحل، وكانت صلاته في الحرم، وهذا القرب الحديبية من الحرم)، وَكَانَ يُصَلِّي فِي الْحَرَمِ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنَ الصَّلَاةِ قَدِمَ إِلَى هَذِيهِ فَنَحَرَهُ، ثُمَّ جَلَسَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَكَانَ الَّذِي حَلَقَهُ فِيمَا بَلَغَنِي، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ الْفَضْلِ الْخَزَاعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ نَحَرَ وَحَلَقَ تَوَائِبُوا يَنْحَرُونَ وَيَحْلِقُونَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٩].

### دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ لِلْمُحَلِّقِينَ ثُمَّ لِلْمَقْصِرِينَ:

يقول د/ الحكمي: «كان من جملة الشروط التي أملتها قريش وأصرت عليها، أن يرجع المسلمون عامهم ذلك ولا يصلوا إلى البيت.

وبعد أن وقع الاتفاق على الصلح، ومن ضمنه هذا الشرط قام رسول الله ﷺ وأصحابه فنحروا هديهم، وكانوا قد ساقوه معهم من المدينة وحلقوا وقصر بعضهم فدعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً، وللمقصرين مرة: عَنْ الْمُسَوِّرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَحَرَ قَبْلَ أَنْ يَحْلِقَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ.

[البخاري في الحج (١٨١١)، وأخرجه البغوي من طريق محمود به بهذا اللفظ. شرح السنة ٧/ ٢٨٥].

وَعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ قَالَا: قَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِالْعُمْرَةِ، وَحَلَقَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي عُمْرَتِهِ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، وَنَحَرَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ. [مسند أحمد ٢٣٦/٣١ رقم ١٨٩٢٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ حَلَقُوا رُؤُوسَهُمْ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ غَيْرَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَأَبِي قَتَادَةَ، فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلَاثَ مَرَارٍ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً.

[مسند أحمد ٣٦٠/١٨ رقم ١١٨٤٧، ١٧/٢٣٨ رقم ١١١٤٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد

ضعيف لجهالة أبي إبراهيم الأنصاري، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: وَالْمُقَصِّرِينَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، فَقَالَ: وَلِلْمُقَصِّرِينَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: «وَلِلْمُقَصِّرِينَ». [مسند أحمد ٨/٤٩٨ رقم ٤٨٩٧، ١٠/٤٤٧ رقم ٦٣٨٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: وَلِلْمُقَصِّرِينَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلِلْمُقَصِّرِينَ، فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ: «وَلِلْمُقَصِّرِينَ».

[مسند أحمد ٣/٣٥٥ رقم ١٨٥٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَلَقَ رِجَالُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَصَرَ آخَرُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «وَالْمُقَصِّرِينَ»، قَالُوا: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ظَاهَرَتْ لَهُمُ الرَّحْمَةُ؟ قَالَ: «لَمْ يَشْكُوا»، قَالَ: فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[مسند أحمد ٥/٣٣٧ رقم ٣٣١١، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: حَلَقَ رِجَالُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَصَرَ آخَرُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلِمَ ظَاهَرَتِ الرَّحِيمَةُ (أي قوته) وأكדתه بتكريك إياه، والمظاهرة: القوة والمعاونة) لِلْمُحَلِّقِينَ دُونَ الْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: «لَمْ يَشْكُوا». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٩، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٦٨].

هذا الإسناد حسن؛ لأن مداره على ابن إسحاق وقد صرح بالسماع لكن الحديث صحيح لشواهد، من حديث ابن عمر السابق وحديث جابر الآتي وغيرهما:

وعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: «خلق رسول الله ﷺ يوم الحديبية وحلق ناس كثير من أصحابه حين رأوه حلق، وأمسك آخرون، فقالوا: والله ما طفنا بالبيت فقصروا، فقال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، فقال رجال: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، فقال ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «وَالْمُقَصِّرِينَ». [مشكل الآثار للطحاوي ١٢٤/٢].

هذا الحديث حسن لشواهد من حديث ابن عمر وابن عباس السابقين لأن في سنده زمعة بن صالح ضعفه أحمد وابن معين وأبو داود وغيرهم.

عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ وأصحابه حلقوا رؤوسهم يوم الحديبية، إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة فاستغفر رسول الله ﷺ للمحلقيين ثلاثاً وللمقصرين مرة. [مسند أبي داود الطيالسي رقم ٢٩٥، وينظر بقية تخريج هذه الأحاديث في: مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٤٠١-٤١٦].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أُمِّ عِمْرَةَ قَالَتْ: فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَرَعَ مِنْ نَحْرِ الْبُذْنِ، فَدَخَلَ قُبَّةً لَهُ مِنْ أَدَمٍ حُمْرَاءَ، فِيهَا الْخَلَّاقُ، فَحَلَقَ رَأْسَهُ، فَأَنْظُرُ إِلَيْهِ قَدْ أَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنْ قُبَّتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ - ثَلَاثًا»، ثُمَّ قَالَ: «وَالْمُقَصِّرِينَ»... قَالَ: وَحَلَقَ يَوْمَئِذٍ نَاسٌ وَقَصَرَ آخَرُونَ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: وَقَصَرْتُ يَوْمَئِذٍ أَطْرَافَ شَعْرِي.  
وَكَانَتْ أُمُّ عِمْرَةَ تَقُولُ: قَصَرْتُ يَوْمَئِذٍ - بِمَقْصَصٍ مَعِيَ - الشَّعْرَ وَمَا شَدَّ.  
حَدَّثَنِي خِرَاشُ بْنُ هُنَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ الَّذِي حَلَقَهُ خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ ؓ.

[المغازي للواقدي ٦١٥/٢-٦١٦].

### التبرك بشعر النبي ﷺ:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ؓ قَالَ: وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ حَلَقَ رَأْسَهُ وَرَمَى بِشَعْرِهِ عَلَى شَجَرَةٍ كَانَتْ إِلَى جَنْبِهِ مِنْ سَمُرَةٍ خَضْرَاءَ.  
قَالَتْ أُمُّ عِمْرَةَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَأْخُذُونَ الشَّعْرَ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ فَيَتَحَاصُّونَ (أَيِ يَتَسَمُّونَ) فِيهِ، وَجَعَلَتْ أَزَاجُهُمْ حَتَّى أَخَذَتْ طَاقَاتٍ مِنْ شَعْرِهِ، فَكَانَتْ عِنْدَهَا حَتَّى مَاتَتْ تَغْسِلُ لِلْمَرِيضِ».

[المغازي للواقدي ٦١٥/٢].

## عدد الهدى الذي نحره المسلمون في عمرة الحديبية:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ سَبْعِينَ بَدَنَةً، الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، [فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْتَرِكُوا فِي الْهَدْيِ»]. [مسند أحمد ١١٥/٢٣، ١٨٩ رقم ١٤٨٠٨، ١٤٩٢٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان بن قيس فقد روى له الترمذي وابن ماجه وهو ثقة، والدارمي في الأضاحي (١٩٥٥)، وينظر بقية تخريجه في مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٤١٧-٤١٨].

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَاقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ سَبْعِينَ بَدَنَةً، قَالَ: فَتَحَرَ الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ.

[مسند أحمد ٢٢/٢٩٢ رقم ١٤٣٩٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي سفيان - وهو طلحة بن نافع - فمن رجال مسلم].

وأخرجه ابن سعد عن أبي معاوية الضرير ومحمد بن عبيد، كلاهما عن الأعمش به فذكر نحوه، وزاد محمد بن عبيد في حديثه: «وكنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ومن لم يضح يومئذ أكثر ممن ضحى».

[الطبقات الكبرى ١٠٢/٢]

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ [بِالْحُدَيْبِيَّةِ] الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ. [مسلم في الحج (١٣١٨)، ومسند أحمد ٢٢/٣١ رقم ١٤١٢٧، والموطأ في الضحايا (١٠٤٩)، وأبو داود في الضحايا (٢٨٠٩)، والترمذي في الأضاحي (١٥٠٢)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول سفيان الثوري، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحق، وقال إسحق: يجزي أيضاً البعير عن عشرة واحتج بحديث ابن عباس. وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٢)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، قِيلَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ: تَقُولُ بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. [الدارمي في الأضاحي (١٩٩٩)، وقال الشيخ أسد: إسناده قوي].

## قصة جمل أبي جهل:

يقول أ/ باشميل: «وكان لأبي جهل بن هشام مهري (نسبة إلى المهرة، وهم ينتسبون إلى مهرة بن حيدان من قضاة يسكنون أقصى جنوب الجزيرة العربية شرقي حضر موت، اشتهرت بلادهم بإنجاب أجود أنواع الجمال) نجيب كان معه في معركة بدر الكبرى، وقد غنمه المسلمون فيما غنموا عقب انتصارهم الحاسم في تلك المعركة التاريخية.

وقد بقي هذا الجمل النجيب ضمن السلاح العام للدولة يغزو عليه المسلمون المغازي، كما كان هذا الجمل الفحل يضرب في لقاح رسول الله ﷺ، فاستاقه (معها) عيينة بن حصن الفزاري حينما أغارت غطفان على الغابة في غزوة ذات قرد.

وإغاضة لمشركي مكة، ساق النبي ﷺ جمل أبي جهل هذا ضمن الهدى الذي تقرر نحره في مكة في عمرة الحديبية.

وفي الحديبية، وبينما كان هذا الجمل المهري النجيب يرعى مع الهدى المحصور خارج الحرم، قاده الشوق إلى موطنه الأصلي مكة، فهرب من الحديبية، وبالرغم من أن المسافة بين الحديبية ومكة لا تقل عن خمسة عشر ميلاً، وبالرغم من مضي خمس سنوات على غيابه عن دار مالكة أبي جهل في مكة فقد اهتدى تمامًا إلى دار أبي جهل حيث لم يشعر أهل مكة إلا وهو بارك أمام هذه الدار فعرفوه فتمسكوا به، وكان شروده من الحديبية قبل عقد الصلح». [صلح الحديبية لباشميل ٢٥٧-٢٥٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَى عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي هَدَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (قال صاحب عون المعبود ٧٩/٢: كان حقه أن يقول: في هداياه، فوضع المظهر موضع المضمر) جَمَلًا كَانَ لِأَبِي جَهْلٍ فِي رَأْسِهِ بُرَّةٌ فِضَّةٌ.

قَالَ ابْنُ مِنْهَالٍ: بُرَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ، زَادَ النَّفِيلُ: يَعِظُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ.

[أبو داود في المناسك (١٧٤٩)، وقال الشيخ الألباني: حسن بلفظ فضة].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ أَهْدَى جَمَلٍ أَبِي جَهْلٍ الَّذِي كَانَ اسْتَلَبَ يَوْمَ بَدْرٍ، فِي رَأْسِهِ بُرَّةٌ مِنْ فِضَّةٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي هَدْيِهِ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: لِيَعِظُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ. [مسند أحمد ١٩٣/٤ رقم ٢٣٦٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره وتصريح ابن إسحق بالتحديث هنا فيه وقفة].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: أَهْدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةَ بَدَنَةٍ، فِيهَا جَمَلٌ أَحْمَرٌ لِأَبِي جَهْلٍ، فِي أَنْفِهِ بُرَّةٌ مِنْ فِضَّةٍ. [مسند أحمد ٢٤٩/٤ رقم ٢٤٢٨، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن، وهذا إسناد ضعيف].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَى فِي بُدْنِهِ بَعِيرًا كَانَ لِأَبِي جَهْلٍ، فِي أَنْفِهِ بُرَّةٌ مِنْ فِضَّةٍ.

[مسند أحمد ٢٧٣/٤ رقم ٢٤٦٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: نَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَجِّ مِائَةَ بَدَنَةٍ، نَحَرَ بِيَدِهِ مِنْهَا سِتِينَ، وَأَمَرَ بِبَقِيَّتِهَا فُنُجِرَتْ، وَأُخِذَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بَضْعَةٌ فَجُمِعَتْ فِي قَدْرٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا وَحَسَا مِنْ مَرَقِهَا، وَنَحَرَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ سَبْعِينَ، فِيهَا جَمَلٌ أَبِي جَهْلٍ، فَلَمَّا صُدَّتْ عَنِ الْبَيْتِ حَنَّتْ كَمَا تَحْنُ إِلَى أَوْلَادِهَا.

[مسند أحمد ٦٥/٥ رقم ٢٨٨٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: سَاقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةَ بَدَنَةٍ فَذَكَرَ نَحْوَهُ.

[مسند أحمد ٦٦/٥ رقم ٢٨٨١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].



وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ: حَدَّثَنِي مُجَاهِدٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَى عَامَ الْحَدِيثِ فِي هَدَايَاهُ جَمَلًا لِأَبِي جَهْلٍ فِي رَأْسِهِ بَرَّةً (حلقة تجعل في أنف البعير ليزل ويرتاض، فإن كانت من شعر فهي خزامة، وإن كانت من خشب فهي خشاش) مِنْ فُضَّةٍ يَغِيظُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٠].

### مائة ناقة ثمنًا لجمل أبي جهل:

يقول أ/ باشميل: «إلا أن هذا الجمل ذا الذكرى المؤلة جدًا لمشركي مكة، لم يقع في أيدي أهل مكة إلا بعد أن تم عقد الصلح في الحديبية، وبعد وصول الوفد القرشي المفاوض عائداً إلى مكة.

وقد خرج في أثر الجمل عمر بن غنمة السلمي <sup>(١)</sup> يطلبه ليعيده إلى الحديبية؛ لأنه من جملة الهدى المطلوب نحره في الحديبية.

إلا أن المتعصبين من سفهاء المشركين رفضوا تسليم الجمل لابن غنمة، فاتصل الأخير بسهيل بن عمرو - بصفته المسؤول عن تنفيذ شروط صلح الحديبية، وطلب منه إعادة الجمل، فلم يتردد سهيل في إصدار الأوامر إلى المتعصبين بإعادة الجمل إلى المسلمين تنفيذًا لاتفاقية صلح الحديبية.

فلم يجد هؤلاء السفهاء المتعصبون بُدًّا من إطاعة أوامر قطب قريش في مفاوضة الصلح سهيل بن عمرو، غير أنهم عرضوا على المسلمين مائة ناقة مقابل التخلي عن هذا الجمل لقيمتة المعنوية (في نظرهم)؛ لأنه يعود لقائد عام جيشهم في معركة بدر الكبرى أبي جهل بن هشام.

وقد أبلغ النبي ﷺ بهذا العرض القرشي السخي، فأبلغهم أنه يمكنه قبول هذا العرض لولا أن الجمل المذكور قد سبق وُسِّمَ في الهدى». [صلح الحديبية لباشميل ٢٥٨-٢٥٩].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: وَأَشْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فِي الْهُدْيِ، فَنَحَرَ الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَكَانَ الْهُدْيُ سَبْعِينَ بَدَنَةً.

وَكَانَ جَمَلُ أَبِي جَهْلٍ قَدْ غَنِمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَغْزُونَ عَلَيْهِ الْمَغَازِي، وَكَانَ قَدْ ضُرِبَ فِي لِقَاحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي اسْتَأَقَّ عَيْنُهُ بْنُ حِصْنٍ وَلِقَاحِهِ الَّتِي كَانَتْ بِذِي الْجُدْرِ الَّتِي كَانَ سَاقَهَا الْعُرَيْنُونَ، وَكَانَ جَمَلُ أَبِي جَهْلٍ نَجِيًّا مَهْرِيًّا (حي من العرب تنسب إليهم الإبل المهرية) كَانَ يُرْعَى مَعَ الْهُدْيِ، فَسَرَدَ قَبْلَ الْقَضِيَّةِ فَلَمْ يَقِفْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارِ أَبِي جَهْلٍ وَعَرَفُوهُ، وَخَرَجَ فِي أَثَرِهِ عَمْرُو بْنُ عَنَمَةَ السَّلَمِيُّ، فَأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ لَهُ سَفَهَاءُ مِنْ سَفَهَاءِ مَكَّةَ، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: اذْفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَأَعْطَوْا بِهِ مِائَةَ نَاقَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ لَا أَنَا سَمِينَاهُ فِي الْهُدْيِ فَعَلْنَا»، فَنَحَرَ الْجَمْلَ عَنْ سَبْعَةٍ أَحَدُهُمْ أَبُو بَكْرٍ،

(١) قال في الإصابة: هو عمرو بن غنمة بن تاي بن عمرو، من بني سلمة (الأنصار) ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدرًا، وفي البكائين وكذا ذكره ابن إسحاق.

وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَكَانَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: كَانَ الْهُدْيُ سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعِيَّةً، وَكَانَ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشْرَةٍ.

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا أَنَّهُ سِتُّ عَشْرَةَ مِائَةً. [المغازي للواقدي ٢/ ٦١٤].

### هل نحر المسلمون الهدى في الحل أو في الحرم؟

يقول د/ الحكمي: «صرحت بعض الروايات بأن رسول الله ﷺ وأصحابه نَحَرُوا الهدى بالحديبية، لكن الحديبية منها ما هو في الحل، ومنها ما هو من الحرم، وقد ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ كان نازلاً في الحل، وأفادت بعض الروايات أيضاً أنه ﷺ نحر الهدى في المكان الذي نزل فيه، وقد جاء في حديث ناجية ؓ أن رسول الله ﷺ أرسله بالهدى فنحره في الحرم، وسوف أسرد النصوص مرتبة على هذا النحو، مع مناقشتها وبيان ما ترجح لي في ذلك إن شاء الله.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَحَالَ كُفَارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَنَجَرَ هَدْيَهُ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمَرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ، وَلَا يَحْمِلَ سِلَاحًا عَلَيْهِمْ إِلَّا سِوْفًا، وَلَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا مَا أَحَبُّوا، فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحُهُمْ، فَلَمَّا أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا أَمَرُوهُ أَنْ يَخْرُجَ فَخَرَجَ. [البخاري في الصلح (٢٧٠١)، وفي المغازي (٤٢٥٢)].

وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلْتُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ <sup>(١)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴿إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوَرَّاعًا عَظِيمًا﴾﴾ [الفتح]، مَرَّجَعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَهُمْ يُحَالِطُهُمُ الْحَزْنُ وَالْكَآبَةُ (تغير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن)، وَقَدْ نَحَرَ الْهُدْيَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٦)].

وأخرجه البيهقي من طريق الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس ثم ذكر الحديث وفيه: «وأصحاب محمد ﷺ قد خالطوا الحزن والكَآبَةَ، حيث ذبحوا هديهم في أمكنتهم...». [السنن الكبرى ٥/ ٢١٧].

وقد جاء في حديث المسور أن رسول الله ﷺ كان نازلاً في الحل: قال الطحاوي: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَاوُدَ، قَالَ: ثَنَا سُفْيَانُ بْنُ بِشْرِ الْكُوفِيُّ، قَالَ: ثَنَا يَحْيَى بْنُ زَائِدَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنِ الْمُسَوَّرِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، خَبَأُوهُ فِي الْحُلِّ، وَمُصَلَّاهُ فِي الْحَرَمِ». [شرح معاني الآثار ٢/ ٢٤٢ رقم ٤٠٨٨، وقال د/ الحكمي: وهذا الحديث حسن رجال سنده ثقات غير سفيان بن بشر ترجم له العيني ولم يذكر فيه جرْحاً ولا تعديلاً، لكن صحح له ابن الجوزي حديثاً تفرد بوصله وقال: ما علمنا أحداً طعن في سفيان بن بشر، وفي السند أيضاً ابن إسحاق لم يصرح بالساع، ولكن ورد هذا اللفظ في حديث المسور ومروان الطويل عند الإمام أحمد والبيهقي، وصرح فيه ابن إسحاق بالساع ونصه: «وكان مضطربه في الحل، وكان يصلي في الحرم». التعليق المغني على الدارقطني ٢/ ١٩٤، مع سنن الدارقطني، مسند أحمد ٤/ ٣٢٦. ٢ السنن الكبرى ٥/ ٢١٥. مرويات الحديبية للحكمي ٤٤١].

وقد ورد عن عطاء أن رسول الله ﷺ كان نازلاً في الحرم: ففي مصنف ابن أبي شيبة... عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: كَانَ مَنَزِلُ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْحَدِيبَةِ فِي الْحَرَمِ. [مصنف ابن أبي شيبة ٤٢٢/٢٠ رقم ٣٨٠١١، ولم يعلق عليه الشيخ عوامة، وقال د/ الحكمي: هذا الأثر ضعيف؛ لأنه مرسل، فلا يقوى على معارضة الحديث السابق. مرويات الحديبية ٤٤١].

وإذا تقرر أن النبي ﷺ كان نازلاً في الحل، فقد ورد في بعض النصوص أنه نحر الهدي في المكان الذي نزل فيه: جاء في حديث أنس السابق من طريق الحكم بن عبد الملك عند البيهقي «أن أصحاب رسول الله ﷺ ذبحوا هديهم في أمكتهم».

وهذا يقيد ما أطلق من طريق ابن أبي عروبة، فيكون المقصود بالحديبية منزل النبي ﷺ منها وهو في الحل، والله أعلم.

ويدل لذلك أيضاً أثر مجاهد عند البيهقي: قال: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، وَأَبُو بَكْرِ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَا: ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ، ثنا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ ذَرٍّ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ عُمَرٍ كُلُّهَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ، مِنْهَا الْعُمَرَةُ الَّتِي صَدَّ فِيهَا الْهَدْيُ، فَارْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ فِي عَامِهِ ذَلِكَ، قَالَ: فَنَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدْيَ بِالْحَدِيبَةِ، حَيْثُ حَلَّ عِنْدَ الشَّجَرَةِ وَأَنْصَرَفَ». [السنن الكبرى ٣٥٦/٥ رقم ١٠٠٨٦].

وهذا الأثر مرسل، لكن يشهد له الحديث السابق.

وقد أشار إلى أن رسول الله ﷺ نحر الهدي في الحل، أثر مجمع بن يعقوب عن أبيه، عن ابن سعد قال: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ، عَنْ مُجَمِّعَ بْنِ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا صَدَرَ (الصدر بالتحريك رجوع المسافر من مقصده) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَحَلَقُوا بِالْحَدِيبَةِ وَنَحَرُوا، بَعَثَ اللَّهُ رِجْحًا عَاصِفًا (شديد الهبوب) فَاحْتَمَلَتْ أَشْعَارُهُمْ فَأَلْقَتْهَا فِي الْحَرَمِ. [الطبقات الكبير ٩٩/٢ رقم ١٧٤٨].

هذا الأثر بهذا الإسناد ضعيف، لأنه مرسل، فوالد مجمع بن يعقوب يحكي قصة في زمن النبي ﷺ لم يشهدها ولم يذكر من حدثه بها، لكن تشهد لهذا الأثر في المعنى الروايات السابقة، فمضمونها أن النبي ﷺ نحر هديه في المكان الذي نزل فيه، وكان منزله في الحل على الصحيح، والله أعلم.

وذكر الشافعي أن الحديبية بعضها في الحل وبعضها في الحرم ثم قال: وإنا ذهبنا إلى أن النبي ﷺ نحر في الحل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، والحرم كله محله عند أهل العلم. [الأم ١٥٩/٢].

وقد أخرج النسائي حديثاً لناجية بن جندب يفيد أن النبي ﷺ أرسله بالهدي فنحره في الحرم. قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ مَجْرَّاءَ، قَالَ:

حَدَّثَنِي نَاجِيَةُ بْنُ جُنْدُبٍ الْأَسْلَمِيُّ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ حِينَ صَدَّ الْهُدْيُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْعَثْ بِهِ مَعِيَ فَأَنَا أَنْحَرُهُ، قَالَ: «وَكَيْفَ؟» قَالَ: أَخْذُ بِهِ فِي أَوْدِيَةٍ لَا يَقْدُرُ عَلَيْهِ، قَالَ: «فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ فَأَنْطَلَقَ بِهِ حَتَّى نَحَرَهُ فِي الْحَرَمِ». [السنن الكبرى للنسائي ٢٠٧/٤ كتاب الحج (٤١٢١)].

وأخرجه الطحاوي من طريق مُحَمَّدِ بْنِ رَاشِدٍ بِهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ صَدَّ الْهُدْيُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْعَثْ مَعِيَ بِالْهُدْيِ فَلَا نَحَرُهُ فِي الْحَرَمِ، قَالَ: «وَكَيْفَ تَأْخُذُ بِهِ؟» قُلْتُ: أَخْذُ بِهِ فِي أَوْدِيَةٍ، لَا يَقْدُرُونَ عَلَيَّ فِيهَا، فَبَعَثَهُ مَعِيَ حَتَّى نَحَرْتُهُ فِي الْحَرَمِ. [شرح معاني الآثار ٢/٢٤٢ رقم ٤٠٨٧].

سند هذا الحديث صحيح فرجاله رجال الصحيحين، ما عدا شيخ النسائي أحمد بن سليمان وقال عنه ابن حجر: ثقة حافظ.

وهذا الحديث يشهد للروايات السابقة من وجه ويخالفها من وجه:

فمفهوم الحديث يفيد أن رسول الله ﷺ كان نازلاً في الحل، وهذا يؤيد الروايات السابقة، ومنطوق الحديث يفيد أنهم نحروا الهدي في الحرم، وهذا يخالف الروايات السابقة ظاهراً، لكن يجمع بينها بأن الرسول ﷺ بعث مع ناجية بعض الهدي لا كله، وظاهر كلام ابن حجر [فتح الباري ١١/٤] على هذا الجمع، ويؤيده أيضاً ما روي عن جابر أن النبي ﷺ بعث من هديه بعشرين بدنة، عند المروة مع رجل من أسلم [ذكره الواقدي، المغازي ٦١٥/٢، وذكره الزرقاني وعزاه لابن سعد دون إسناد، شرح الزرقاني على المواهب ٢٠٩/٢، ولم أجده في طبقات ابن سعد]. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٤٣٩-٤٤٦].

### نحر عشرين بدنة عند المروة:

ولما كانت الحرب قد انتهت بين المسلمين وقريش نتيجة صلح الحديبية، بعث النبي ﷺ بعشرين بدنة من الهدي لتنحر في مكة لإطعام أهلها منها.

وكان الذي دخل بها مكة رجل من أسلم، نحرها عند المروة وقسم لحمها هناك حسب تعليمات

الرسول الأعظم ﷺ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ: وَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يَنْحَرُ بَدَنَاتٍ لَهُ سَاقَهَا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ أَيْضًا، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضْطَرَبًا فِي الْحُلِّ (أي: كانت أبنيته مضروبة في الحل) وَكَانَ يُصَلِّي فِي الْحَرَمِ، وَحَضَرَهُ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَسْأَلُ مِنَ لُحُومِ الْبُذْنِ مُعْتَرًّا غَيْرَ كَبِيرٍ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِيهِمْ مِنَ لُحُومِ الْبُذْنِ وَجُلُودِهَا، قَالَتْ أُمُّ كُرَيْزٍ الْكَعْبِيَّةُ: جِئْتُ أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ لُحُومِ الْهُدْيِ حِينَ نَحَرَ بِالْحَدْيِيَّةِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «عَنِ الْعَلَامِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ (متساويتان في السن) وَالْجَارِيَةُ شَاةٌ»، وَأَكَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِمُ الَّذِي نَحَرُوا يَوْمَئِذٍ، وَأَطْعَمُوا الْمَسَاكِينَ مِنْ حَضَرَهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَ بِعِشْرِينَ بَدَنَةً لِيَنْحَرَ عِنْدَ الْمَرْوَةِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَنَحَرَهَا عِنْدَ الْمَرْوَةِ وَقَسَمَ لَحْمَهَا». [المغازي للواقدي ٦١٤-٦١٥].

## المبحث السادس

### العودة إلى المدينة

#### مدة الإقامة في الحديبية:

يقول د/ هيكل: «لم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل، وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض، ولا يهونها على نفسه إلا أنها أمر الرسول ﷺ، فهم ليس لهم عادة بهزيمة ولا تسليم من غير قتال، وهم في إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبة في اقتحام مكة لو أن محمداً ﷺ أمر باقتحامها». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٨٣].

وقد أقام النبي ﷺ محصوراً في الحديبية عشرين يوماً، وبعضهم يقول: إنها خمسة عشر يوماً، بعدها حل النبي ﷺ وأصحابه إخراج الحرم ثم عادوا إلى المدينة.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالُوا: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ بَضْعَةَ عَشَرَ يَوْماً، وَيُقَالُ عَشْرِينَ لَيْلَةً».

[المغازي للواقدي ٦١٦/٢].

يقول د/ الحكمي: «كانت مدة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال عشرين ليلة على قول الواقدي وابن سعد. [مغازي الواقدي ٦١٦/٢، الطبقات الكبرى ٩٨/٢].

وعن ابن عائد: «أن رسول الله ﷺ أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً».

[نقله ابن سيد الناس، عيون الأثر ١٢٣/٢، ونقله الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب ٢١٠/٢].

والذي يبدو: أن الواقدي وابن سعد أرادا تحديد مدة إقامته ﷺ في الحديبية، أما ابن عائد فقصد الزمن الذي استغرقته غيبة النبي ﷺ منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها، والله أعلم».

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٤٤٩].

«وأقاموا بالحديبية أياماً، منهم من يتساءلون في حكمة هذا العهد الذي عقد النبي ﷺ، ومنهم من تحدته نفسه بالشك في حكمته، ثم تحمّلوا وقفلوا راجعين». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٨٣].

#### انصراف المسلمين من الحديبية ونومهم عن صلاة الصبح:

وبعد أن انتهت مشكلة الحديبية بعقد الصلح التاريخي بين المسلمين وقريش، قفل النبي ﷺ وأصحابه راجعين إلى المدينة.

يقول د/ الحكمي: «وبعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك، قفلوا راجعين إلى المدينة، فلما كان من الليل عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً ﷺ بحراستهم، فنام بلال ﷺ ولم يوقظهم إلا حر الشمس، كما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ يَكْلُونَا (يحرسنا، الكلاءة الحفظ والحراسة)»، فَقَالَ بِلَالٌ ﷺ: «أَنَا، فَأَمَّاوَا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «افْعَلُوا كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ»، قَالَ: فَفَعَلْنَا، قَالَ ﷺ: «كَذَلِكَ فَافْعَلُوا لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ».

[أبو داود في الصلاة (٤٤٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وأخرجه النسائي بأطول من هذا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ نَزَلُوا دَهَاسًا مِنَ الْأَرْضِ - يَعْنِي بِالْدَّهَاسِ الرَّمْلُ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَكْلُونَا؟»، فَقَالَ بِلَالٌ ﷺ: «أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قَالَ: «إِذَا تَنَامُوا»، فَأَمَّاوَا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَيْقَظَ نَاسٌ فِيهِمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفِيهِمْ عُمَرُ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «افْعَلُوا كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ»، فَفَعَلْنَا، قَالَ: «كَذَلِكَ فَافْعَلُوا لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ».

قَالَ: فَصَلَّتْ نَافَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَطَلَبْتُهَا، فَوَجَدْتُ حَبْلَهَا قَدْ تَعَلَّقَ بِشَجَرَةٍ، فَجِئْتُ بِهَا فَوَكَّبَ فَيَسْرَنَا. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَعَرَفْنَا ذَلِكَ فِيهِ فَتَنَحَّى مُتَبِيدًا (متنحياً، والانتباز: التنحي) خَلْفَنَا، فَجَعَلَ يُعْطِي رَأْسَهُ، فَيَسْتَدُّ عَلَيْهِ حَتَّى عَرَفْنَا أَنَّهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَتَانَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾ [الفتح]. [السنن الكبرى للنسائي ٨/ ١٣٠-١٣١ كتاب السير (٨٨٠٢)، وقال د/ الحكي ص ٤٥٢: سند هذا الحديث صحيح، رجاله رجال الصحيحين ما عدا عبد الرحمن بن أبي علقمة، ولم يطمعن فيه أحد، وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال الهيثمي عن الحديث: رجاله موثقون، وابن أبي علقمة من جهاتهم، وقال الشيخ الألباني عن الحديث: إسناده صحيح. مجمع الزوائد ١/ ٣١٩، إرواء الغليل ١/ ٢٩٣].

وقد أخرج النسائي وغيره الحديث من طريق المسعودي عن جامع بن شداد بسياق آخر:

قال النسائي: أَخْبَرَنَا سُؤَيْدُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، عَنِ الْمَسْعُودِيِّ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَادٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ زَمَانَ الْحُدَيْبِيَّةِ قَالَ: «مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَنَا، قَالَ: «إِنَّكَ تَنَامُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: «إِنَّكَ تَنَامُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: وَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: «فَأَنْتَ إِذَا»، قَالَ: فَحَرَسْتُهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ أَذْرَكْنِي مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنِمْتُ فَمَا اسْتَيْقَظْتُ إِلَّا بِحَرِّ الشَّمْسِ عَلَى أَكْتَافِنَا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا تَنَامُوا عَنْهَا لَمْ تَنَامُوا، وَلَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ سَنَةً لِمَنْ بَعْدَكُمْ لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ».

[السنن الكبرى للنسائي ٨/ ١٣١-١٣٢ كتاب السير (٨٨٠٣)].

وأخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنْ غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقُلْتُ: أَنَا، حَتَّى عَادَ مَرَارًا، قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَنْتَ إِذَا»، قَالَ: فَحَرَسْتُهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ وَجْهُ الصُّبْحِ أَذْرَكْنِي قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ تَنَامُ»، فَنِمْتُ فَمَا أَقْبَضْنَا إِلَّا

حَرُّ الشَّمْسِ فِي ظَهْرِنَا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ مِنَ الْوُضُوءِ وَرَكَعَتَيِ الْفَجْرِ، ثُمَّ صَلَّى بِنَا الصُّبْحِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَوْ أَرَادَ أَنْ لَا تَنَامُوا لَمْ تَنَامُوا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ تَكُونُوا لِمَنْ بَعْدَكُمْ، فَهَكَذَا لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ»، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِبِلَ الْقَوْمِ تَفَرَّقَتْ، فَخَرَجَ النَّاسُ فِي طَلَبِهَا، فَجَاؤُوا بِإِبِلِهِمْ إِلَّا نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ هَهْنَا»، فَأَخَذْتُ حَيْثُ قَالَ لِي فَوَجَدْتُ زِمَامَهَا قَدْ التَوَى عَلَى شَجَرَةٍ مَا كَانَتْ لِتَحُلَّهَا إِلَّا يَدٌ، قَالَ: فَجِئْتُ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَقَدْ وَجَدْتُ زِمَامَهَا مُلْتَوِيًا عَلَى شَجَرَةٍ مَا كَانَتْ لِتَحُلَّهَا إِلَّا يَدٌ، قَالَ: وَنَزَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُورَةُ الْفَتْحِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾ [الفتح].

[مسند أحمد ٦/٢٤٣-٢٤٤ رقم ٣٧١٠، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وفيه أن الذي حرسهم ابن مسعود ﷺ والذي تقدم ٣٦٥٧ أن الذي حرسهم بلال ﷺ، وهو الوارد عند البخاري ٥٩٥، ومسلم ٦٨٠، ٦٨١ وهو الصواب].

وساق أبو داود الطيالسي حديث شعبة والمسعودي معاً.

قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، وَالْمَسْعُودِيُّ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَادٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَلَقَمَةَ الْقَارِيٍّ مِنْ بَنِي قَارَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: وَحَدِيثُ الْمَسْعُودِيِّ أَحْسَنُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَرَجَعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَعَرَّسْنَا، فَقَالَ: «مَنْ يَحْرُسُنَا لِصَلَاتِنَا؟» وَقَالَ شُعْبَةُ: «مَنْ يَكْلُونَا؟» قَالَ بِلَالٌ: أَنَا قَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّكَ تَنَامُ»، قَالَ: «مَنْ يَحْرُسُنَا لِصَلَاتِنَا؟» فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ تَنَامُ»، قَالَ: فَحَرَسْتُهُمْ... الحديث بسياق المسعودي. [مسند أبي داود الطيالسي ١/٢٩٤ رقم ٣٧٥].

وأخرجه البيهقي من طريق أبي داود به مثله. [السنن الكبرى ٢/٢١٨].

وأخرجه من طريق يونس بن بكير، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَادٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَلَقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: لَمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، جَعَلَتْ نَاقَتُهُ تَنْقُلُ، فَتَقَدَّمْنَا فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾ [الفتح]، فَأَذْرَكْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبِهِ مِنَ الشُّرُورِ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَخْبَرْنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ، فَبَيْنَا نَحْنُ ذَاتُ لَيْلَةٍ إِذْ عَرَّسْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَحْرُسُنَا؟»، فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ... الحديث. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/١٥٥].

وأورد الهيثمي رواية المسعودي هذه ثم قال: وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط في آخر عمره. [مجمع الزوائد ١/٣١٩].

قلت: وقد قال عنه الذهبي سيء الحفظ [ميزان الاعتدال ٢/٥٧٤]، وقد خالف في روايته فذكر أن الذي قام بحراسة المسلمين تلك الليلة عبد الله بن مسعود ﷺ، والمحفوظ عن جامع بن شداد ما رواه شعبة أن الذي قام بحراسة المسلمين تلك الليلة إنما هو بلال ﷺ، أما ما في رواية المسعودي فهو شاذ؛ لأنه خالف من هو أوثق منه، والله أعلم.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَلَقَمَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَيْلًا، فَتَرَلْنَا دَهَاسًا مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ: «مَنْ يَكُلُونَا؟»، فَقَالَ بِلَالٌ رضي الله عنه: أَنَا، قَالَ: «إِذَا تَنَامَ (أَي: حِينَ اعْتَمَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ، أَوْ اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ، فَلَا يَتِمُّ الْأَمْرُ)»، قَالَ: لَا، فَتَنَامَ حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَيْقَظَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فِيهِمْ عُمَرُ، فَقَالَ (أَي: عُمَرُ رضي الله عنه): أَهْضِبُوا (فِي «الْنَهَايَةِ»: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه ذَلِكَ لَكِي يَتَّبِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، أَي: تَكَلِّمُوا وَامْضُوا، يُقَالُ: هَضَبَ فِي الْحَدِيثِ وَأَهْضَبَ: إِذَا اندَفَعَ فِيهِ، كَرِهُوا أَنْ يَوْقُظُوهُ، فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَيْقِظَ بِكَلَامِهِمْ)، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «افْعَلُوا مَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ»، فَلَمَّا فَعَلُوا، قَالَ: «هَكَذَا فَافْعَلُوا، لِمَنْ نَامَ مِنْكُمْ أَوْ نَسِيَ».

[مسند أحمد ١٧٠ / ٦ رقم ٣٦٥٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن].

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَلَقَمَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ نَزَلُوا دَهَاسًا مِنَ الْأَرْضِ - يَعْنِي الدَّهَاسَ: الرَّمْلَ - فَقَالَ: «مَنْ يَكُلُونَا؟»، فَقَالَ بِلَالٌ رضي الله عنه: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَنْ تَنَمَ»، قَالَ: فَتَنَامُوا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَيْقَظَ نَاسٌ، مِنْهُمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فِيهِمْ عُمَرُ، قَالَ: فَقُلْنَا: أَهْضِبُوا - يَعْنِي تَكَلَّمُوا - قَالَ: فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «افْعَلُوا كَمَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ»، قَالَ: فَفَعَلْنَا، قَالَ: وَقَالَ: «كَذَلِكَ فَافْعَلُوا، لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ»، قَالَ: وَصَلَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدْتُ حَبْلَهَا قَدْ تَعَلَّقَ بِشَجَرَةٍ، فَجِئْتُ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَكَرِبَ مَسْرُورًا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَعَرَفْنَا ذَلِكَ فِيهِ، قَالَ: فَتَنَحَّى مُتَنَبِّدًا خَلْفَنَا، قَالَ: فَجَعَلَ يُعْطِي رَأْسَهُ بِتَوْبِهِ، وَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى عَرَفْنَا أَنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَتَانَا، فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَإِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ [الفتح]. [مسند أحمد ٤٢٦ / ٧ رقم ٤٤٢١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن].

وقد أخرج البيهقي الحديث من طريق زافر بن سليمان عن شعبة به، وذكر أن القصة كانت في غزوة تبوك. [دلائل النبوة للبيهقي ١٥٦ / ٤].

وقد شد زافر بن سليمان بذلك، والمحفوظ عن شعبة ما سبق من رواية الثقات مثل يحيى بن سعيد القطان، ومحمد بن جعفر غندر وغيرهم أن ذلك كان في غزوة الحديبية، أما زافر بن سليمان فقد قال عنه ابن حبان: كثير الغلط واسع الوهم، على صدق فيه [ميزان الاعتدال ٦٣ / ٢ - ٦٤]، وقال ابن حجر: صدوق كثير الأوهام.

فلعل هذا من أوهامه، والله أعلم.

وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية أيضًا، منها حديث أبي هريرة عند مسلم أنها وقعت للمسلمين عند رجوعهم من خيبر.

[مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣٠٩)].

ومنها مرسل زيد بن أسلم عند مالك أنها وقعت لهم بطريق مكة. [الموطأ في وقوت الصلاة (٢٦)].



ومنها مرسل عطاء بن يسار أنها كانت في غزوة تبوك.

[ذكره ابن عبد البر، التمهيد ٢٠٦/٥، وابن حجر، فتح الباري ٤٤٨/١، وهو في مصنف عبد الرزاق ٥٨٨/١، وليس فيه تصريح أنها في غزوة تبوك فلعل ابن عبد البر، وابن حجر وقفوا على نسخة غير التي بين أيدينا].

وقد حاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص:

فذهب ابن عبد البر إلى أن القصة واحدة، وأن الصحيح وقوعها في غزوة خيبر.

ثم حمل بعض النصوص عليها وضعف البعض الآخر، فبعد أن ذكر مرسل زيد بن أسلم قال: «وَقَدْ جَاءَ مَعْنَاهُ مُتَّصِلًا مُسْنَدًا مِنْ وُجُوهِ صَحَاحٍ ثَابِتَةٍ فِي نَوْمِهِ ﷺ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي سَفَرِهِ، رَوَى ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَظْهَرُهَا قِصَّةُ لَمْ تَعْرِضْ لَهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَثَارُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

إِلَّا أَنْ بَعْضَهَا فِيهِ: مَرَجَعُهُ مِنْ خَيْبَرَ، كَذَا قَالَ ابْنُ شَهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا، وَهُوَ أَفْوَى مَا يُرَوَّى فِي ذَلِكَ، وَهُوَ الصَّحِيحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَقَوْلُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ حَدِيثُهُ هَذَا بِطَرِيقِ مَكَّةَ لَيْسَ بِمُخَالِفٍ، لِأَنَّ طَرِيقَ خَيْبَرَ وَطَرِيقَ مَكَّةَ مِنَ الْمَدِينَةِ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا، وَرُبَّمَا جَعَلَتْهُ التَّوَافُلُ وَاحِدًا، وَحَدِيثُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ هَذَا مُرْسَلٌ، وَلَيْسَ بِمَّا يُعَارِضُ حَدِيثَ ابْنِ شَهَابٍ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَنْ يُوقِظُنَا؟»، فَقُلْتُ: أَنَا أَوْ قِطْعُكُمْ»، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ قِصَّةِ بِلَالٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُ: أَقِظْنَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا يُجِيبُهُ إِلَى ذَلِكَ، وَيَأْمُرُ بِبِلَالٍ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: زَمَنَ الْحَدِيثِ، وَهُوَ زَمَنُ وَاحِدٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّهُ مُنْصَرَفُهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَضَى إِلَى خَيْبَرَ مِنْ عَامِهِ ذَلِكَ، فَفَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ».

[التمهيد ٢٠٤/٥-٢٠٦].

هكذا قال ابن عبد البر رحمه الله. وقد نقل ابن حجر رحمه الله بعض كلامه هذا - في محاولة الجمع - ثم قال: ولا

ينجى ما فيه من تكلف ورواية عبد الرزاق بتعيين غزوة تبوك ترد عليه. [فتح الباري ٤٤٩/١].

قلت: يعني ابن حجر برواية عبد الرزاق مرسل عطاء بن يسار. [فتح الباري ٢٨٦/١]، لكنه لا يرد على ابن عبد البر؛ لأنه قد ضعفه حيث قال: وقد قال عطاء بن يسار أنها كانت في غزوة تبوك، وهذا لا يصح والآثار الصحاح على خلاف قوله مسندة ثابتة، وقوله مرسل. [التمهيد ٢٠٦/٥].

لكن محاولة ابن عبد البر لتوحيد القصة، غير مجدية فإن كان قد أعل حديث زيد بن أسلم وحديث عطاء بن يسار بالإرسال، فإن حديث ابن مسعود صحيح لا يمكن رده بخال، وقد صرح فيه بأن الحادثة وقعت أثناء رجوعه من غزوة الحديبية، والحديبية تقع جنوب المدينة قريب من مكة، فالقادم منها إلى المدينة يتجه شمالاً، بينما تقع خيبر شمال المدينة فالقادم منها إلى المدينة يتجه جنوباً فلا يمكن أن يكون طريقهما من المدينة أو إلى المدينة واحداً، وما ذكره ابن عبد البر رحمه الله بعيداً جداً وعذره في ذلك أنه لا يعرف تلك الأماكن، لأنه لم يخرج عن الأندلس كما قال الحميدي. [جذوة المقتبس ٣٦٧].

وقد جنح ابن القيم - فيما يفهم من صنيعه - إلى كون الحادثة وقعت مرة واحدة، وترجيح كونها في خيبر: فبعد أن ذكر قصة نومهم عن الصلاة في غزوة خيبر قال: وروي أن هذه القصة كانت مرجعهم من الحديبية، وروي أنها كانت مرجعهم من غزوة تبوك...». [زاد المعاد ٣/ ٣٥٦].

هكذا حكى قصة الحديبية وتبوك بصيغة التمریض، ثم عاد مرة أخرى فذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قصة نومهم عن الصلاة في الحديبية ثم أعله بالاضطراب، فبعد أن ذكره من طريق شعبة قال: «لَكِنْ قَدْ اضْطَرَبَتِ الرُّوَاةُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ جَامِعٍ: إِنَّ الْحَارِسَ فِيهَا كَانَ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، وَقَالَ غُنْدَرٌ عَنْهُ: إِنَّ الْحَارِسَ كَانَ بَلَالًا، وَاضْطَرَبَتِ الرُّوَاةُ فِي تَارِيخِهَا، فَقَالَ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ شُعْبَةَ عَنْهُ: إِنَّهَا كَانَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَقَالَ غَيْرُهُ عَنْهُ: إِنَّهَا كَانَتْ فِي مَرْجِعِهِمْ مِنَ الْحَدِيبَةِ، فَدَلَّ عَلَى وَهْمٍ وَقَعَ فِيهَا، وَرِوَايَةُ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ سَالِمَةَ مِنْ ذَلِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. [زاد المعاد ٣/ ٣٥٦].

قلت: ما حكاه ابن القيم عن ابن مهدي والمعتمر بن سليمان وجعله سبباً في اضطراب الحديث لم يسنده ابن القيم ولم يعزه لأحد ممن سبقه، ولم أرَ أحداً - بعد بحث طويل - سوى ابن القيم يذكر أن ابن مهدي أو المعتمر بن سليمان قد روى هذا الحديث عن شعبة، وكذلك لم يذكر أحد ممن رواه عن شعبة أن ابن مسعود حرسهم تلك الليلة، ولم يرد أيضاً عن شعبة أن القصة وقعت في غزوة تبوك إلا من رواية زافر بن سليمان عنه، وقد بينا شذوذه في ذلك.

والمحفوظ عن شعبة هو ما رواه الثقات وهم محمد بن جعفر غندر، ويحيى بن سعيد القطان، وأبو داود الطيالسي، فهو لاء كلهم رويوا عنه أن الحادثة وقعت عند رجوع المسلمين من غزوة الحديبية، وأن الذي حرسهم تلك الليلة هو بلال رضي الله عنه، وعلى هذا فإن ثبت ما ذكره ابن القيم عن ابن مهدي والمعتمر يكون من قبيل الشاذ، ولا يعمل به الحديث، والله أعلم.

والتحقيق: أن ما ورد من اختلاف بين حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قصة الحديبية، وغيره محمول على تعدد القصة، كما رجح ذلك النووي، وجنح إليه ابن كثير، والزرقاني، وابن حجر، بل قال السيوطي: «ولا يجمع إلا بتعدد القصة». [ينظر: شرح صحيح مسلم ٥/ ١٨١ - ١٨٢، البداية والنهاية ٤/ ٢١٣، شرح الزرقاني على الموطأ ١/ ٤٧، فتح الباري ١/ ٤٤٩، تنوير الحوالك ١/ ٣٣]. [مرويات غزوة الحديبية للحكيمي ٤٤٩ - ٤٦١].

### طريق العودة إلى المدينة:

وقد سلك النبي ﷺ في عودته إلى المدينة نفس الطريق الذي سلكه في مجيئه إلى الحديبية، ما عدا الطريق الفرعي الذي اضطرب إلى سلوكه عندما قرر تحاشي الصدام المسلح مع فرسان خالد بن الوليد. فقد مر بمر الظهران «المسمى اليوم: وادي فاطمة» ثم عسفان حتى وصل المدينة سالكاً الطريق الرئيس المعتاد وهو الطريق الغربي.

بُشِّرَى فَتَحَ مَكَّةَ وَتَعَجَّلَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَّ بَعْضَ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ: أَلَمْ تَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَدْخُلُ مَكَّةَ أَمِنًا؟ قَالَ: «بَلَى، أَقُلْتُ لَكُمْ مِنْ عَامِي هَذَا؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهُوَ كَمَا قَالَ لِي جَبْرِيلُ ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٧].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَقَالَ عُمَرُ ﷺ وَرَجُلَانِ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْتَنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ؟ وَهَدَيْنَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ، وَلَا نَحْنُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟» قَالَ عُمَرُ ﷺ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَأَخْلِقُ رَأْسِي وَرُؤُوسَكُمْ بِطَنْ مَكَّةَ، وَأُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: «أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تُضْعِدُونَ وَلَا تُلَوِّنُونَ عَلَى أَحَدٍ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ؟ أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟»، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُهُمْ أُمُورًا: أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيهَا فَكَّرْتَ فِيهِ، لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ مِنَّا. فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْقَضِيَّةِ وَحَلَقَ رَأْسَهُ قَالَ: «هَذَا الَّذِي وَعَدْتُكُمْ».

فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ أَخَذَ الْمِفْتَاحَ، فَقَالَ: «ادْعُوا لِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ»، فَقَالَ: «هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ». فَلَمَّا كَانَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ بِعَرَفَةَ فَقَالَ: «أَيُّ عُمَرُ، هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ»، قَالَ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، مَا كَانَ فَتَحَ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مِنْ صَلَاحِ الْحَدِيثِ!

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ يَقُولُ: مَا كَانَ فَتْحُ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مِنْ فَتْحِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمِنِذٍ قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّهِ، وَالْعِبَادَ يَعْبُدُونَ وَاللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَعْبُلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللَّهُ.

لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو فِي حَجَّهِ قَاتِمًا عِنْدَ الْمَنْحَرِ يُقَرِّبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بُذْنَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْحَرُهَا بِيَدِهِ، وَدَعَا الْحَلَاقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَنْظَرُ إِلَى سَهِيلٍ يَلْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ، وَأَرَاهُ يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَذْكُرُ إِبَاءَهُ أَنْ يَقَرَّ يَوْمَ الْحَدِيثِ بِأَنْ يَكْتُبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيَأْتِي أَنْ يَكْتُبَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ الَّذِي هَدَاهُ لِلْإِسْلَامِ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي هَدَانَا بِهِ وَأَقْلَدَنَا بِهِ مِنَ الْهَلَكَةِ! . [الغازي للواقدي ٢/ ٦٠٩-٦١٠].

نُزُولُ سُورَةِ الْفَتْحِ:

عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ حَدَّثَهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ① لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﷻ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوَرَّاعًا عَظِيمًا﴾ ② [الفتح]، مَرَجَعَهُ مِنَ الْحَدِيثِ وَهُمْ يُحَالِطُهُمُ الْخُزْنُ وَالْكَأَبُ، وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٦)].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَصْحَابُهُ يُحَالِطُونَ الْحُرْنَ وَالْكَأَبَةَ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَسَاكِينِهِمْ، وَنَحَرُوا الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) إِلَى قَوْلِهِ ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢)، قَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتَانِ هُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا [أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ]»، قَالَ: فَلَمَّا تَلَاهُمَا قَالَ رَجُلٌ: هَنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ! قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَا يَفْعَلُ بِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ.

[مسند أحمد ٣٦٩/١٩، رقم ١٢٣٧٤، ٣٣٥/٢٠، ٤٥٢، رقم ١٣٠٣٥، ١٣٢٤٦، ٢١/٢٣٢، رقم ١٣٦٣٩، وقال

الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) قَالَ: الْحُدَيْبِيَّةُ، قَالَ أَصْحَابُهُ: هَنِيئًا مَرِيئًا، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

قَالَ شُعْبَةُ: فَقَدِمْتُ الْكُوفَةَ فَحَدَّثْتُ هَذَا كُلَّهُ عَنْ قَتَادَةَ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ أَمَّا ﷻ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﷻ فَعَنْ أَنَسٍ، وَأَمَّا هَنِيئًا مَرِيئًا فَعَنْ عِكْرِمَةَ.

[البخاري في المغازي (٤١٧٢)، ومسند أحمد ١٧٦/٢٠، رقم ١٢٧٧٩، ٢١/٣٦٨، رقم ١٣٩١٤].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) [الفتح]، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَنِيئًا لَكَ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، فَمَا لَنَا؟ فَتَرَلْتُ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٣) [الفتح].

[مسند أحمد ٢٥٧/١٩، رقم ١٢٢٢٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ»، ثُمَّ قَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: هَنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ! قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَاذَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَاذَا يَفْعَلُ بِنَا فَتَرَلْتُ عَلَيْهِ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حَتَّى بَلَغَ «فَوْزًا عَظِيمًا» (٤). [الترمذي في التفسير (٣٢٦٣)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَفِيهِ عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ، وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَبَانِيُّ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ لَكِنْ جَعَلَ قَوْلَهُ «فَقَالُوا هَنِيئًا...» مِنْ رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ مَرْسَلًا، وَمُسْلِمٌ دُونَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فِيهِ شَاذَةٌ].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَنْ شَيْءٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: ثُكِلَتْكَ أُمُكُ يَا عُمَرُ! نَزَرَتْ (الْحَحَّتْ عَلَيْهِ) رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،

كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَحَرَكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِي قُرْآنٍ، فَمَا نَشِيتُ (أي لبثت) أَنْ سَمِعْتُ صَارِحًا يَصْرُخُ بِي، قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزْلٌ فِي قُرْآنٍ، وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «لَقَدْ أَنْزِلْتُ عَلَى اللَّيْلَةِ سُورَةَ لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾. [البخاري في المغازي (٤١٧٧)، وفي التفسير (٤٨٣٣)، وفي فضائل

القرآن (٥٠١٢)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٦٢)، ومسنند أحمد ١/٣٣٦ رقم ٢٠٩].

وَعَنْ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ - وَكَانَ أَحَدَ الْقُرَّاءِ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ - قَالَ: شَهِدْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا عَنْهَا إِذَا النَّاسُ يَهْرُونَ (ينشطونها ويسرعون بها) [يُفَرُّونَ] الْأَبَاعِرَ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: مَا لِلنَّاسِ؟ قَالُوا: أُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَحَرَجْنَا مَعَ النَّاسِ نُوجِفُ، فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَاقِفًا عَلَى رَاحِلَتِهِ عِنْدَ كُرَاعِ الْغَمِيمِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْتَحْ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ»، فَقَسَمَتْ خَيْبَرُ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ، [لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدًا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ]، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ، فِيهِمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ فَارِسٍ، فَأَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدِيثُ أَبِي مُعَاوِيَةَ أَصَحُّ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ، وَارَى الْوَهْمَ فِي حَدِيثِ مُجَمِّعٍ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثَ مِائَةٍ فَارِسٍ، وَكَانُوا مِائَتَيْ فَارِسٍ. [أبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، ومسنند أحمد ٢٤/٢١١-٢١٢ رقم ١٥٤٧٠، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: إسناده ضعيف، يعقوب بن مجمع بن جارية والد مجمع - وإن كان حسن الحديث - انفرد به]. وَعَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، قَالَا: «أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فِي شَأْنِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا». [المستدرک ٢/٤٥٩ كتاب التفسير (٣٧١٠)، وقال الحاكم: «وهذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال د/الحكمي ص ٤٧٥: الحديث صحيح لشواهده؛ لأن مداره على ابن إسحاق وحديثه حسن على الراجح من أقوال أهل العلم، والقصة يحكيها المسور ومروان ولم يشهد أحد منهما الحديبية، فالحديث مرسل لكن المسور صحابي ومرسل الصحابي حجة، والله أعلم].

وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَصَرَحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ مِنَ الزَّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، وَأَبُو بَكْرِ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْقَاضِي قَالَا: ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ، ثنا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي الزَّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ مَرْوَانَ، وَالْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَفِيهَا مُدْرَجًا: ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَاجِعًا، فَلَمَّا أَنْ كَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْفَتْحِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾. ﴿١﴾.

[السنن الكبرى ٩/٣٧٣ رقم ١٨٨١٤، دلائل النبوة للبيهقي ٤/١٥٩].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: ثُمَّ أَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَجْهِهِ ذَلِكَ قَافِلًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ ١ لِيَغْفِرَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَهَدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ﴾ ٢ [الفتح]. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٠].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَحَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ شُعْبَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ ؓ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ: كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مُنْصَرَفِهِ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يُجِبْنِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَلَمْ يُجِبْنِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَلَمْ يُجِبْنِي. قَالَ عُمَرُ ؓ فَقُلْتُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ نَذَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُنِي.

قَالَ: فَحَرَكْتُ بَعِيرِي حَتَّى تَقَدَّمْتُ النَّاسَ، وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلٌ فِي قُرْآنٍ، فَأَخَذَنِي مَا قَرَّبَ وَمَا بَعُدَ، وَلَمَّا كُنْتُ رَاجِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَكَرَاهَتِي الْقَضِيَّةَ، فَإِنِّي لَأَسِيرُ مَهُمًّا مُتَقَدِّمًا لِلنَّاسِ، فَإِذَا مُنَادٍ يَنَادِي: يَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مَا اللَّهُ بِهِ أَعْلَمُ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَهُوَ مُسْرُورٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَنْزَلْتُ عَلَى سُورَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ بِمَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ ١، فَبَسَّرَهُ بِمَغْفِرَتِهِ وَإِتْمَامِ نِعْمَتِهِ وَنَصْرِهِ، وَطَاعَةِ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى، وَنَفَاقٍ مَنْ نَافَقَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ عَشْرَ آيَاتٍ.

وَحَدَّثَنِي مُجَمِّعُ بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَّةَ، قَالَ لَمَّا كُنَّا بِضُجَّحَانَ رَاجِعِينَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ رَأَيْتُ النَّاسَ يُرْكَضُونَ فَإِذَا هُمْ يَقُولُونَ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُرْآنٌ، فَرَكَضَتْ مَعَ النَّاسِ حَتَّى تَوَافَيْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ ١، فَلَمَّا نَزَلَ بِهَا جَبْرِيلُ ؑ قَالَ: يَنْهَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا هَنَأَ جَبْرِيلُ هَنَاءَ الْمُسْلِمُونَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦١٧-٦١٨].

يقول د/ الحكيمي: «انصرف المسلمون من الحديبية وفي نفوسهم ما فيها بسبب صد قريش لهم عن البيت، وقد علم الله ذلك منهم - وهو العليم بالسر وأخفى - أنزل على رسوله ﷺ سورة الفتح يشرهم فيها بأنهم لم يخسروا سفرتهم تلك، وأن ذلك الصلح كان فتحًا، وأنهم قد انقلبوا بمغفرة من الله ورضوان، وذلك أسمى ما تصبو إليه نفوسهم، فيالها من بشارة!». [مرويات غزوة الحديبية للحكيمي ٤٦٣].

### المجاعة في طريق العودة:

وكان المسلمون - نتيجة طول احتباسهم بالحديبية - قد نفدت أزوادهم، فلم يصلوا عسفان حتى فشت المجاعة بينهم، وكانوا ألفًا وأربعمائة.

فشكوا حالهم إلى رسول الله ﷺ من الذين هم عليه من الجوع، وكان معهم ظهر «أي جمال للركوب والنقل» فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحرها ليدفعوا بلحمها الجوع فأذن لهم.

## النبي ﷺ يعمل بمشورة ابن الخطاب ؓ:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ نَزَلَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، ثُمَّ نَزَلَ عُسْفَانَ، فَأَرْمَلُوا (أرمل القوم: إذا نفذ زادهم) مِنَ الزَّادِ، فَشَكَكَ النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا مِنَ الْجُوعِ - وَفِي النَّاسِ ظَهْرٌ - وَقَالُوا: فَتَنَحَّرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَنَدْنُ مِنْ شُحُومِهِ، وَتَتَّخِذْ مِنْ جُلُودِهِ حِذَاءً، فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ يَكُ فِي النَّاسِ بَقِيَّةُ ظَهْرٍ يَكُنْ أَمْتَلُ، وَلَكِنْ أَدْعُهُمْ بِأَزْوَادِهِمْ ثُمَّ أَدْعُ اللَّهَ فِيهَا.

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَنْطَاعِ فَبَسِطَتْ، ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِ: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ بَقِيَّةٌ مِنْ زَادٍ فَلْيُشْرِهِ عَلَى الْأَنْطَاعِ.

قَالَ أَبُو شُرَيْحٍ الْكَعْبِيُّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَأْتِي بِالْتَّمَرَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ، وَيَأْتِي بِالْكَفِّ مِنَ الدَّقِيقِ وَالْكَفِّ مِنَ السُّوَيْقِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ.

فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ أَرْوَادُهُمْ وَانْقَطَعَتْ مَوَادُّهُمْ مَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا فَدَعَا فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «قُرَّبُوا أَوْعِيَتَكُمْ»، فَجَاؤُوا بِأَوْعِيَتِهِمْ.

قَالَ أَبُو شُرَيْحٍ ؓ: فَأَنَا حَاضِرٌ، فَيَأْتِي الرَّجُلُ فَيَأْخُذُ مَا شَاءَ مِنَ الزَّادِ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ لَيَأْخُذَ مَا لَا يَحِذُ لَهُ مُحْمَلًا، ثُمَّ أَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرَّحِيلِ، فَلَمَّا ازْتَحَلُّوا مُطَرُّوا مَا شَاؤُوا وَهُمْ صَائِعُونَ، فَتَزَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلُوا مَعَهُ فَشَرِبُوا مِنَ الْمَاءِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَطَبَهُمْ، فَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَجَلَسَ اثْنَانِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ مُعْرِضًا، فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَتَابَ فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ». [المغازي للواقدي ٢/٦١٦-٦١٧، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/١١٩-١٢٠].

## معجزة النبي ﷺ في نبع الماء من أصابعه وفي تكثير الطعام:

يقول د/ الحكمي: «تكررت معجزة النبي ﷺ بتكثير الماء في غزوة الحديبية، فقد سبق ذكر المعجزة بتكاثر ماء البئر حين وضع فيها سهم النبي ﷺ، والنصوص التالية تفيد أنها قد حصلت للنبي ﷺ معجزة أخرى من هذا النوع، وذلك حيث وضع يده ﷺ في الإناء.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: عَطَشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَالنَّبِيُّ [وَرَسُولُ اللَّهِ] ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةً [إناء صغير يشرب فيه الماء والجمع ركاء]، فَتَوَضَّأَ [مِنْهَا] [يَتَوَضَّأُ مِنْهَا]، فَجَهَشَ [أَنْ يَفِرَعَ الْإِنْسَانَ إِلَى الْإِنْسَانِ وَيُلْجَأَ إِلَيْهِ] [ثُمَّ أَقْبَلَ] النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ؟ [مَا شَأْنُكُمْ؟]»، قَالُوا: [يَا رَسُولَ اللَّهِ] لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ، وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ [فِي رَكْوَتِكَ]، فَوَضَعَ [النَّبِيُّ ﷺ] يَدَهُ فِي

الرُّكُوءَ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يُتَوَرُّ (ينبع بقوة وشدة) [يَفُورُ] بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرَبْنَا وَتَوَضَّأْنَا، قُلْتُ: كَمْ كُنتُمْ [يَوْمَئِذٍ]؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَّانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً.

[البخاري في المناقب (٣٥٧٦)، وفي المغازي (٤١٥٢)، ومسند أحمد ٢٢/٣٩٨ رقم ١٤٥٢٢].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ حَصَرْتُ الْعَصْرُ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرُ فَضْلَةٍ، فَجَعَلَ فِي إِنْاءٍ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ بِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ، وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى أَهْلِ الْوُضُوءِ الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ وَشَرَبُوا، فَجَعَلْتُ لَا أَلُوَا مَا جَعَلْتُ فِي بَطْنِي مِنْهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ بَرَكَةٌ.

قُلْتُ لِجَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَمْ كُنتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعُمِائَةٍ.

تَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ، وَقَالَ حُصَيْنٌ وَعَمْرُو بْنُ مُرَّةٍ عَنْ سَالِمٍ عَنْ جَابِرٍ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَتَابَعَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [البخاري في الأشربة (٥٦٣٩)].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَصَابَنَا عَطَشٌ بِالْحَدِيثِ، فَجَهَشْنَا (أَنْ يَفْزَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَيَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرِيدُ الْبُكَاءَ، كَأَنْ يَفْزَعَ الصَّبِيُّ إِلَى أُمِّهِ. يُقَالُ: جَهَشْتُ وَأَجَهَشْتُ) إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ تَوَرُّ (إِنْاءٌ مِنْ صَفَرٍ أَوْ حِجَارَةٍ كَالْإِجَانَةِ وَقَدْ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ) فِيهِ مَاءٌ، فَقَالَ بِأَصَابِعِهِ هَكَذَا فِيهَا، وَقَالَ: «خُذُوا بِسْمِ اللَّهِ»، قَالَ: فَجَعَلَ الْمَاءُ يَتَخَلَّلُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ عُيُونٍ، فَوَسَعْنَا وَكَفَّانَا، وَقَالَ حُصَيْنٌ فِي حَدِيثِهِ: فَشَرَبْنَا وَتَوَضَّأْنَا.

[مسند أحمد ٢٣/١١٤ رقم ١٤٨٠٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ الْعَطَشَ، قَالَ: فَدَعَا بِعُسٍّ (القدح الكبير)، فَصَبَّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ يَدَهُ، وَقَالَ: «اسْقُوا»، فَاسْتَقَى النَّاسُ، قَالَ: فَكُنْتُ أَرَى الْعُيُونَ تَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. [مسند أحمد ٢٣/٤٨ رقم ١٤٦٩٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن لأجل سيار بن حاتم، وقد توبع].

وهذه القصة مغايرة للقصة الأولى كما ذكر ذلك ابن القيم [زاد المعاد ٣/٢٩٨]، وابن حجر [فتح الباري ٣٣٧/٥]، ووجه مغايرتها ظاهر: فالمعجزة في هذه وقعت في ماء كان في إناء، وسببها أن النبي ﷺ وضع يده في الإناء بينما المعجزة في تلك وقعت في البئر عندما وضع فيها سهم النبي ﷺ وصب فيه الماء الذي مج فيه رسول الله ﷺ.

وقد جمع بينهما ابن حجر فقال: «وكأن ذلك (أي ما في حديث جابر) كان قبل قصة البئر».

[فتح الباري ٣٣٧/٥].



والذي يظهر لي: أن هذه القصة وقعت بعد قصة البئر أثناء رجوع المسلمين للمدينة لما يلي:

ورد في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه عند مسلم أن قصة تكثير الماء الذي في الإناء وقعت عقب معجزة النبي ﷺ في تكثير الطعام: عَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، فَأَصَابَنَا جَهْدٌ (وهو المشقة)، حَتَّى هَمَمْنَا أَنْ نَنْحَرَ بَعْضُ ظَهْرِنَا (أي إيلنا)، فالظهر الإبل التي يحمل عليها وتركب)، فَأَمَرَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَجَمَعْنَا مَزَاوِدَنَا (جمع مزود كمنبر وهو الوعاء الذي يحمل فيه الزاد وهو ما تزوده المسافر لسفره من الطعام)، فَبَسَطْنَا لَهُ نِطْعًا (أي سفرة من أديم أو بساطًا)، فَاجْتَمَعَ زَادُ الْقَوْمِ عَلَى النَّطْعِ، قَالَ: فَطَاوَلْتُ لَأَحْزَرُهُ (أي أظهرت طولي لأحزره أي لأقدره وأخنه) كَمْ هُوَ؟ فَحَزَرْتُهُ كَرَبْصَةِ الْعَنْزِ (أي كمبركها أو كقدرها وهي رابضة، والعنز الأثني من المعز إذا أتى عليها حول)، وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: فَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ حَسَوْنَا جُرْبَنَا (الجرب جمع جراب ككتاب وكتب، وهو الوعاء من الجلد يجعل فيه الزاد)، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «فَهَلْ مِنْ وَضُوءٍ»، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ بِإِدَاوَةٍ (إناء صغير من جلد) لَهُ فِيهَا نُطْفَةٌ (أي قليل من الماء)، فَأَقْرَعَهَا فِي قَدَحٍ، فَتَوَضَّأْنَا كُلُّنَا نُدْغِفُهُ (أي نصبه صبا شديدا) دَغْفَةً أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثِيَّةٌ، فَقَالُوا: هَلْ مِنْ طَهُورٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرِغِ الْوَضُوءَ». [مسلم في اللقطة (١٧٢٩)].

فهذا الحديث قد أفاد أن قصة تكثير الماء الذي في الإناء وقعت عقب معجزته ﷺ في تكثير الطعام.

وقد صرح حديث ابن عباس رضي الله عنهما بأن حادثة تكثير الطعام كانت عند رجوع المسلمين من الحديبية: عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحَدِيبَةِ كَلَّمَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالُوا: جَهَدْنَا، وَفِي النَّاسِ ظَهْرٌ فَأَنْحَرُهُ لَنَا فَتَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِ وَلَتَنْدَهْنَ مِنْ شُحُومِهِ، وَلَتَنْحَذِي مِنْ جُلُودِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: لَا تَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِنَّ النَّاسَ إِنْ يَكُنْ مَعَهُمْ بَقِيَّةُ ظَهْرٍ أَمْتَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ابْسُطُوا أَنْطَاعَكُمْ، وَعَبَّاءَكُمْ»، فَفَعَلُوا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ بَقِيَّةٌ مِنْ زَادٍ وَطَعَامٍ فَلْيَنْثَرُهُ»، وَدَعَا هُمْ، ثُمَّ قَالَ: «قَرَّبُوا أَوْعِيَتَكُمْ»، فَأَخَذُوا مَا شَاءَ اللَّهُ. [دلائل النبوة للبيهقي ١١٩/٤].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ مَرَّ (أي مر الظهران: موضع على مرحلة من مكة) فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ انْتَحَرْنَا مِنْ ظَهْرِنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لُحُومِهَا وَشُحُومِهَا وَحَسَوْنَا مِنَ الرِّقِ أَضْبَحْنَا غَدًا إِذَا غَدَوْنَا عَلَيْهِمْ وَبَنَّا جِهَامًا، قَالَ: «لَا وَلَكِنْ أَتُونِي بِمَا فَضَّلَ مِنْ أَرْوَادِكُمْ»، فَبَسَطُوا أَنْطَاعًا، ثُمَّ صَبَّوْا عَلَيْهَا فُضُولَ مَا فَضَّلَ مِنْ أَرْوَادِهِمْ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ، فَأَكَلُوا حَتَّى تَضَلَّعُوا شَبَعًا، ثُمَّ كَفَّفُوا فُضُولَ مَا فَضَّلَ مِنْ أَرْوَادِهِمْ فِي جُرْبِهِمْ.

[دلائل النبوة للبيهقي ١٢٠/٤].

هذا الحديث صحيح بمجموع طرقه.

وقد أفاد هذا الحديث أن معجزة تكثير الطعام إنما حصلت للنبي ﷺ أثناء رجوعهم من غزوة الحديبية، ومعجزة تكثير الماء في الإناء وقعت بعد هذه المعجزة، كما هو صريح حديث سلمة السابق عند مسلم، ولا يتوهم أن العدو المشار إليه في رواية أبي الطفيل هم قريش، بل هو عدو آخر عرض للمسلمين أثناء رجوعهم كما بين ذلك حديث سلمة عند مسلم فقد جاء فيه ما نصه: «قَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَزَلْنَا مَرَّةً لَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٍ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ<sup>(١)</sup>، فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَنْ رَقِيَ هَذَا الْجَبَلَ اللَّيْلَةَ، كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ سَلَمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَقِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا.

ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ...». [مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)]. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٤٨١-٤٨٩].

[عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَأَصَابَ النَّاسَ مَحْمَصَةٌ (الجوع والمجاعة)، فَاسْتَأْذَنَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَحْرِ بَعْضِ ظُهُورِهِمْ (الإناء التي يحمل عليها وتركب)، وَقَالُوا: يُبَلِّغُنَا اللَّهُ بِهِ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ هَمَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي نَحْرِ بَعْضِ ظُهُورِهِمْ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ بِنَا إِذَا نَحْنُ لَقِينَا الْقَوْمَ غَدًا جِيعَاءَ رِجَالًا، وَلَكِنْ إِنْ رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَدْعُو النَّاسَ بَقَايَا أَزْوَادِهِمْ، فَتَجْمَعُهَا، ثُمَّ تَدْعُو اللَّهَ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - سَيَبْلِغُنَا بِدَعْوَتِكَ، أَوْ قَالَ: سَيَبَارِكُ لَنَا فِي دَعْوَتِكَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بَقَايَا أَزْوَادِهِمْ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُجِئُونَ بِالْحَنِيَّةِ (أي: اليسير من الطعام في اليد) مِنَ الطَّعَامِ وَفَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَعْلَاهُمْ مَنْ جَاءَ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَجَمَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَامَ فَدَعَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُو، ثُمَّ دَعَا الْجَيْشَ بِأَوْعِيَتِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُجْشُوا، فَمَا بَقِيَ فِي الْجَيْشِ وَعَاءٌ إِلَّا مَلُؤُوهُ، وَبَقِيَ مِثْلُهُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ بِهِ إِلَّا حَبَبَتْ عَنْهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

[مسند أحمد ٢٤/١٨٤-١٨٥ رقم ١٥٤٤٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده قوي، وجمع الزوائد ١/١٦٥-١٦٦ في

الإيمان (٢٨)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط. وزاد فيه: (ثُمَّ دَعَا بِرُكُوتِ الرُّكُوتِ: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء) فَوَضَعَتْ يَدَيْهِ، ثُمَّ دَعَا بِبَاءٍ، فَصَبَّ فِيهَا، ثُمَّ مَجَّ فِيهَا، فَتَكَلَّمَ بِمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ، ثُمَّ أَذْخَلَ خِنْصَرَهُ فِيهَا، فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصَابِعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَفَجَّرُ بِنَابِيعٍ مِنَ الْمَاءِ، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَمَلَأُوا قَرَبِهِمْ، وَأَدَاوِيَهُمْ، ثُمَّ ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهَا أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ». ورجاله ثقات. والمستدرک للحاکم ٢/٧٢٦ في تواریخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين (٤٢٩٢)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.]

(١) وهم المشركون: هذه اللفظة ضبطوها بوجهين ذكرهما القاضي عياض وغيره، أحدهما: وهُمُ المشركون على الابتداء والخبر، والثاني: وهَمَّ المشركون: أي هموا النبي ﷺ وأصحابه وخافوا غائلتهم، يقال: همني الأمر وأهمني، وقيل: همني أذاني، وأهمني أغمني، وقيل معناه: هم أمر المشركين النبي ﷺ خوف أن يبيتوهم لقربهم منهم. صحيح مسلم ٣/١٤٣٥ حاشية.

## نزول المسلمين بالأثاية:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالسُّقْيَا <sup>(١)</sup> قَالَ مُعَاذُ رضي الله عنه: «مَنْ يَسْقِينَا فِي أَسْقِينَا؟»، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ فِي فِتْيَانٍ مَعِيَ حَتَّى أَتَيْنَا الْأَثَايَةَ (موضع من طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخًا)، فَأَسْقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ عَتَمَةٍ (ثلث الليل الأول بعد غيوبة الشفق، أو وقت صلاة العشاء الآخرة) مِنَ اللَّيْلِ، إِذَا رَجُلٌ يُنَازِعُهُ بَعِيرُهُ الْمَاءَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذْتُ رَاحِلَتَهُ فَأَنخَضْتُهَا، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى الْعِشَاءَ، وَأَنَا عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً.

[المصنف لابن أبي شيبة مصنف ٥/ ٤٨٦-٤٨٧ رقم ٨٥٧٥، وقال الشيخ عوامة: وشر حبل بن سعد ضعيف، واختلط بأخرة، وإتحاف الخيرة المهرة ٢/ ٣٩٣ رقم ١٧٤٨، ٥/ ٢٣٤ رقم ٤٥٩٣، والمطالب العالية ١٧/ ٤٣٤ رقم ٤٢٩٠، وقال البوصيري وابن حجر: هذا إسناد حسن.]

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى نَزَلْنَا الشُّفَا فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: «مَنْ يَسْقِينَا فِي أَسْقِينَا؟»، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ فِي فِئَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، حَتَّى أَتَيْنَا الْمَاءَ الَّذِي بِالْأَثَايَةِ، وَبَيْنَهُمَا قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ مِيلًا، فَسَقَيْنَا فِي أَسْقِينَا، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْدَ عَتَمَةٍ، إِذَا رَجُلٌ يُنَازِعُهُ بَعِيرُهُ إِلَى الْحَوْضِ، فَقَالَ: أُوْرِدْ، فَإِذَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأُوْرِدَ، ثُمَّ أَخَذْتُ بِرِمَامٍ نَاقَتِهِ فَأَنخَضْتُهَا، فَقَامَ فَصَلَّى الْعَتَمَةَ، وَجَابِرٌ - فِيمَا ذَكَرَ - إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَجْدَةً. [مسند أحمد ٢٣/ ٢٩٨ رقم ١٥٠٦٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف شرح حبل بن سعد - وهو الخطمي المدني مولاهم الأنصاري، ومجمع الزوائد ٢/ ٥٥٥ رقم ٣٦٤٣، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري باختصار وفيه شرح حبل بن سعد وثقه ابن حبان وضعفه جماع] [وينظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٤٩١-٤٩٤].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: مَنْ يَتَقَدَّمُ فَيَسْقِي لَنَا؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا، وَذَلِكَ مَرَجِعُهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، قَالَ جَابِرٌ: فَوَرَدْتُ أَثَايَةَ فَاسْتَقَيْتُ وَمَلَأْتُ الْحَوْضَ، فَوَرَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَسْقِي؟» قُلْتُ: نَعَمْ، بِأَيِّ أَنْتَ، فَسَقَى ثُمَّ أَخَذْتُ خَطَامَهُ أَوْ زِمَامَهُ، فَعَمَدْتُ بِهِ إِلَى بَطْحَاءَ نَزَلَ بِهَا فَصَلَّى ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً وَأَنَا مَعَهُ إِلَى جَنْبِهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَلَّاهَا. [المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٣٥ رقم ٤٧٠٥].

(١) السقيا هكذا في إتحاف المهرة، وفي مصنف عبد الرزاق، وهي قرية جامعة من عمل الفرع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً. معجم البلدان ٣/ ٢٢٨، وقال حمد الجاسر: وتعرف السقيا اليوم: بأمر البركة، لكثرة ما وقع فيها، كتاب المناسك للحري: ٤٥٠ حاشية، ووقع في مصنف ابن أبي شيبة «الصهباء» ولعله تحريف فالصهباء يقول عنها ياقوت: اسم موضع بينه وبين خيبر روحه. معجم البلدان ٣/ ٤٣٥. أي أنها في شمال المدينة بينما السقيا في جنوبها على طريق مكة. وقال الشيخ عوامة: وواضح من سياق الخبر أن الصهباء موضع في تلك الديار، مع أن البكري وياقوتاً لم يذكرها إلا الصهباء التي عن خيبر شمال المدينة!

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ غَزْوٍ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الطَّرِيقِ قَالَ: «مَنْ يَمْلَأُ لَنَا حِيَاضَ الْأَثَاثَةِ؟» قَالَ جَابِرٌ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَضَيْنَا حَتَّى أَتَيْنَا الْأَثَاثَةَ، فَمَلَأْتُ الْخَوْضَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ جَاءَ رَجُلٌ فَتَزَلَّ، فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْطَلَقَ فَقَصَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ جَاءَ فَتَوَضَّأَ مِنَ الْخَوْضِ، ثُمَّ جَاءَ فَصَلَّى، عَلَيْهِ إِزَارٌ مُلْتَحِفًا بِهِ، فَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن وهب بن كيسان إلا عبد الله بن عمر.

[المعجم الأوسط للطبراني ٩/ ١٨-١٩ رقم ٩٠٠].

### نسيان الصحابة رضي الله عنهم لمكان الشجرة في العام القابل:

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: رَجَعْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا، كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ، فَسَأَلْتُ نَافِعًا: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعَهُمْ عَلَى السَّمَوَاتِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ. [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٨)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ الشَّجَرَةَ، ثُمَّ أَتَيْتُهَا بَعْدُ فَلَمْ أَعْرِفْهَا، قَالَ مُحَمَّدٌ: «ثُمَّ أَنْسَيْتُهَا بَعْدُ». [البخاري في المغازي (٤١٦٢)، ومسلم في الإمامة (١٨٥٩)].

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَنْطَلَقْتُ حَاجًّا فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ، قُلْتُ: مَا هَذَا الْمَسْجِدِ؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ سَعِيدٌ: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيْمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ، فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ.

[البخاري في المغازي (٤١٦٣)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَرَجَعْنَا إِلَيْهَا الْعَامَ الْمُقْبِلَ فَعَمِيتْ عَلَيْنَا. [البخاري في المغازي (٤١٦٤)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: كَانَ أَبِي مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [النَّبِيِّ] ﷺ عِنْدَ [تَحْتَ] الشَّجَرَةِ [بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ]، قَالَ: فَأَنْطَلَقْنَا فِي قَابِلٍ حَاجِّينَ، فَخَفِيَ [فَعُمِّي] عَلَيْنَا مَكَائِهَا، فَإِنْ كَانَتْ تَبَيَّنَتْ [بَيَّنَتْ] لَكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ. [مسلم في الإمامة (١٨٥٩)، ومسنند أحمد ٣٩/ ٨٠ رقم ٢٣٦٧٥].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَنَسَوَهَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. [مسلم في الإمامة (١٨٥٩)].

وَعَنْ طَارِقٍ قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ الشَّجَرَةُ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي: أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ الْعَامَ مَعَهُمْ، فَتَسَوَّاهَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. [مسند أحمد ٣٩/٨١ رقم ٢٣٦٧٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي].

يقول د/ الحكمي: وقد ورد في حديث سعيد بن المسيب هذا عن أبيه أن الصحابة رضوان الله عليهم قد خفي عليهم مكان الشجرة من العام التالي لعام الحديبية، لكن يرد عليه ما في حديث جابر رضي الله عنه: «وَلَوْ كُنْتُ أَبْصَرُ الْيَوْمَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَةِ (هي السمرة التي وقعت البيعة تحتها)».

[البخاري في المغازي (٤١٥٤)، ومسلم في الإمامة (١٨٥٦، ١٨٥٨)].

والظاهر أن عدم معرفة والد سعيد بن المسيب ومن كان معه لمكان الشجرة لا ينافي معرفة غيره من الصحابة لمكانها، مثل جابر بن عبد الله رضي الله عنه وغيره (قد أشار إلى هذا الجمع ابن حجر، ينظر: فتح الباري ٤٤٨/٧)، وأيضاً يشهد لذلك ما في أثر نافع: عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: شَجَرَةُ الرِّضْوَانِ فَيَصْلُونَ عِنْدَهَا، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَأَوْعَدَهُمْ فِيهَا، وَأَمَرَ بِهَا فَقُطِعَتْ.

[الطبقات الكبرى ٩٦/٢ رقم ١٧٢٧، وسند هذا الأثر صحيح كما ذكر ابن حجر. فتح الباري ٤٤٨/٧].

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٢٥٠-٢٥١].

#### غنائم خيبر لمن شهد الحديبية:

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: مَا شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَغْنَمًا قَطُّ إِلَّا قَسَمَ لِي، إِلَّا [يَوْمَ] خَيْبَرَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ لِأَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ خَاصَّةً، وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو مُوسَى جَاءَا بَيْنَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَخَيْبَرَ. [مسند أحمد ١٦/٥٣١ رقم ١٠٩١٢، والدارمي في السير (٢٥١٧)، وقال الشيخان الأرناؤوط وأسد: إسناده ضعيف].

وَعَنْ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه - وَكَانَ أَحَدَ الْفُرَّاءِ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ - قَالَ: شَهِدْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا عَنْهَا إِذَا النَّاسُ يَهْزُونَ (ينشطونها ويسرعون بها) [يَنْفَرُونَ الْأَبَاعِرَ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: مَا لِلنَّاسِ؟ قَالُوا: أَوْحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجْنَا مَعَ النَّاسِ نُوجِفُ، فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَاقِفًا عَلَى رَاحِلَتِهِ عِنْدَ كُرَاعِ الْغَمِيمِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ»، فَقَسَمْتُ خَيْبَرَ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ، [لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدًا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ]، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ، فِيهِمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ فَارِسٍ، فَأَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدِيثُ أَبِي مُعَاوِيَةَ أَصَحُّ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ، وَارَى الْوَهْمُ فِي حَدِيثِ مُجَمِّعٍ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثَ مِائَةٍ فَارِسٍ، وَكَانُوا مِائَتَيْنِ فَارِسٍ. [أبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، ومسند أحمد ٢٤/٢١١-٢١٢ رقم ١٥٤٧٠، وقال

الشيخان الألباني والأرناؤوط: إسناده ضعيف، يعقوب بن مجمع بن جارية والد مجمع - وإن كان حسن الحديث - انفرد به].

## المبحث السابع

## المستضعفون بعد صلح الحديبية

## وفاء المسلمين بالعهد:

يقول د/ الحكي: «لقد تألم المسلمون كثيرًا ووجدوا في أنفسهم من بعض الشروط التي أملت بها قريش، ووجدوا في أنفسهم أنهم رأوا أن الرضا بها يعبر عن الضعف والاستكانة أمام الكفار بل صرح عمر رضي الله عنه بذلك حين قال: «فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّيْنَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟».

لكن رسول الله ﷺ قد رضي تلك الشروط ووقع العقد مع قريش عليها، وصرح بأنه إنما يفعل ذلك بأمر الله، فليس أمام المسلمين إلا التسليم والرضا بما رضى رسول الله ﷺ: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» ﴿٣١﴾ [الأحزاب].

ولقد سلموا لأمر الله ورسوله تسليمًا يصاحبه الإيذان بأن الخير فيما اختاره الله، وقد ترجعوا ذلك بأفعالهم، فقد رأينا في قصة أبي جندل مع أبيه كيف ابتزّه من بين ظهرانيهم وهو يستغيث فلا يستجاب له، وهذا أبو بصير يلحق بهم في المدينة ثم تسترجعه قريش من ثم... فقد جاء في حديث المسور ومروان من طريق معمر ما نصه: «ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ، حَتَّى بَلَغَا ذَا الْخُلَيْفَةِ، فَتَرَوْا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه: أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ، فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْذُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ بِعَهْدِكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْقَلِبُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلٍ رضي الله عنه فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ رضي الله عنه، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ رضي الله عنه، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاسِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» حَتَّى بَلَغَ ﴿الْحَمِيةَ حَمِيةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]، وَكَانَتْ حِمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِ(نَسِ

اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) وَحَالُوا يَبْنُهُمْ وَيَبْنِي النَّبِيَّ. [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)]. [مرويات الحديبية للحكمي ٣٢٧-٣٢٨].

مَا جَرَى عَلَيْهِ أَمْرُ قَوْمٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بَعْدَ الصَّلْحِ:  
 قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ أَبُو بَصِيرٍ عُبَيْتُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ جَارِيَةَ، وَكَانَ مِنْ  
 حَيْسِ بَمَكَةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ فِيهِ أَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ زُهْرَةَ،  
 وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهَبِ الثَّقَفِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَعَثَا رَجُلًا مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ،  
 وَمَعَهُ مَوْلَى لَهُمْ، فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِكِتَابِ الْأَزْهَرِ وَالْأَخْنَسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ،  
 إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ  
 الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُرَدِّي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟  
 قَالَ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٣].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مِنَ الْحَدِيثَةِ أَتَاهُ أَبُو بَصِيرٍ - وَهُوَ عُبَيْتُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ  
 جَارِيَةَ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ - مُسْلِمًا، قَدْ انْفَلَتَ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَارَ عَلَى قَدَمَيْهِ سَعْيًا، فَكَتَبَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ،  
 وَأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا، وَبَعَثَا رَجُلًا مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، اسْتَأْجَرَاهُ بِكَرٍّ  
 ابْنِ لَبُونٍ - وَهُوَ خُنَيْسُ بْنُ جَابِرٍ - وَخَرَجَ مَعَ الْعَامِرِيِّ مَوْلَى لَهُ يُقَالُ لَهُ كَوْتَرٌ، وَحَمَلَا خُنَيْسُ بْنُ جَابِرٍ عَلَى  
 بَصِيرٍ، وَكَتَبَا يَذْكُرَانِ الصَّلْحَ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَبَا بَصِيرٍ، فَلَمَّا قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدِمَا بَعْدَ أَبِي  
 بَصِيرٍ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَقَالَ خُنَيْسٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا كِتَابُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبِي بَصِيرٍ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ  
 فَإِذَا فِيهِ: قَدْ عَرَفْتُ مَا شَارَطْنَاكَ عَلَيْهِ وَأَشْهَدُنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، مِنْ رَدِّ مَنْ قَدِمَ عَلَيْكَ مِنْ أَصْحَابِنَا، فَأَبْعَثْ  
 إِلَيْنَا بِصَاحِبِنَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَصِيرٍ أَنْ يَرْجِعَ مَعَهُمْ وَدَفَعَهُ إِلَيْهِمَا، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،  
 تُرَدِّي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ  
 عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا»، قَالَ أَبُو  
 بَصِيرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُرَدِّي إِلَى الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْطَلِقْ يَا أَبَا بَصِيرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكَ  
 مَخْرَجًا»، فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْعَامِرِيِّ وَصَاحِبِهِ، فَخَرَجَ مَعَهُمَا، وَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يُسْرُونَ إِلَى أَبِي  
 بَصِيرٍ: يَا أَبَا بَصِيرٍ، أَبَشِّرْ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ مَخْرَجًا، وَالرَّجُلُ يَكُونُ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ، فَأَفْعَلْ وَأَفْعَلْ،  
 يَأْمُرُونَهُ بِالَّذِينَ مَعَهُ». [المغازي للواقدي ٢/٦٢٤-٦٢٥].

قَتْلُ أَبِي بَصِيرٍ ﷺ لِلْعَامِرِيِّ وَمَقَالَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي ذَلِكَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَانْطَلَقَ مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ (قرية بينها وبين المدينة ستة أو سبعة أميال،  
 ومنها ميقات أهل المدينة) جَلَسَ إِلَى جِدَارٍ، وَجَلَسَ مَعَهُ صَاحِبَاهُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَصَارِمُ سَيْفَكَ هَذَا يَا أَحَا  
 بَنِي عَامِرٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْظِرْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: أَنْظِرْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: فَاسْتَلَّهُ أَبُو بَصِيرٍ، ثُمَّ عَلَاهُ بِهِ حَتَّى قَتَلَهُ،

وَخَرَجَ الْمَوْلَى سَرِيْعًا حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَالِعًا، قَالَ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ رَأَى فَرَعًا»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَيْحَكَ مَا لَكَ؟»، قَالَ: قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي، فَوَاللَّهِ مَا يَرِحُ حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرٍ مُتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُعْبَثَ بِي، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مَحْشُ حَرْبٍ» (يقال: حش الحرب إذا أسعرها وهيجهما تشبيهاً بإسعار النار) لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٣-٣٢٤].

وَقَالَ الْوَائِدِيُّ: «فَخَرَجُوا حَتَّى كَانُوا بِذِي الْخُلَيْفَةِ - انْتَهَوْا إِلَيْهَا عِنْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ - فَدَخَلَ أَبُو بَصِيرٍ مَسْجِدَ ذِي الْخُلَيْفَةِ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ صَلَاةَ الْمَسَافِرِ، وَمَعَهُ زَادٌ لَهُ يَحْمِلُهُ مِنْ تَمْرٍ، فَمَالَ إِلَى أَصْلِ جِدَارِ الْمَسْجِدِ فَوَضَعَ زَادَهُ فَجَعَلَ يَتَعَدَّى، وَقَالَ لِصَاحِبِيهِ: اذْنُبُوا فَكَلًا! فَقَالَا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، فَقَالَ: وَلَكِنْ لَوْ دَعَوْتُمُونِي إِلَى طَعَامِكُمْ لَأَجَبْتُكُمْ وَأَكَلْتُ مَعَكُمْ، فَاسْتَحْيَا، فَذَنَبُوا وَوَضَعَا أَيْدِيَهُمَا فِي التَّمْرِ مَعَهُ، وَقَدَّمَا سُفْرَةً لَهَا فِيهَا كِسْرٌ، فَأَكَلُوا جَمِيعًا، وَأَتَسَّهُمْ وَعَلَّقَ الْعَامِرِيُّ بِسَيْفِهِ عَلَى حَجَرٍ فِي الْجِدَارِ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِلْعَامِرِيِّ: يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: خُنَيْسٌ، قَالَ: ابْنُ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ جَابِرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا جَابِرٍ أَصَارِمٌ سَيْفُكَ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: نَاوِلْنِيهِ أَنْظُرْ إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ، فَنَاوَلَهُ الْعَامِرِيُّ، وَكَانَ أَقْرَبَ إِلَى السَّيْفِ مِنْ أَبِي بَصِيرٍ، فَأَخَذَ أَبُو بَصِيرٍ بِقَائِمِ السَّيْفِ وَالْعَامِرِيُّ مُمَسِّكٌ بِالْجَنْفِ، فَعَلَّاهُ بِهِ حَتَّى بَرَدَ، وَخَرَجَ كَوَثُرَ هَارِبًا يَعْذُو نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ فِي أَثَرِهِ، فَأَعْجَزَهُ حَتَّى سَبَقَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ أَبُو بَصِيرٍ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْتَهُ لَأَسْلَكْتُهُ طَرِيقَ صَاحِبِهِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ بَعْدَ الْعَصْرِ إِذْ طَلَعَ الْمَوْلَى يَعْذُو، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا رَجُلٌ قَدْ رَأَى ذُعْرًا»، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْحَكَ، مَا لَكَ؟ قَالَ: قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي، وَأَفَلْتُ مِنْهُ وَلَمْ أَكْذِبْ، وَكَانَ الَّذِي حَبَسَ أَبَا بَصِيرٍ أَحْتِمَالُ سَلْبِهِمَا عَلَى بَعِيرِهِمَا، فَلَمْ يَبْرَحْ مَكَانَهُ قَائِمًا حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرٍ، فَأَنَاحَ الْبَعِيرَ بِبَابِ الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ مُتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ - سَيْفِ الْعَامِرِيِّ - فَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ: وَفَتْ ذِمَّتُكَ وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، وَقَدْ أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْعَدُوِّ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي مِنْ أَنْ أَفْتَنَ وَتَبَعْتَنِي بِي أَنْ أَكْذِبَ بِالْحَقِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مَحْشُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ».

وَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ بِسَلْبِ الْعَامِرِيِّ خُنَيْسِ بْنِ جَابِرٍ وَرَحْلِهِ وَسَيْفِهِ، فَقَالَ: حَمْسُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي إِذَا حَمَسْتُهُ رَأَوْنِي لَمْ أُوفَ لَهُمْ بِالَّذِي عَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ شَأْنُكَ بِسَلْبِ صَاحِبِكَ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِكَوَثُرٍ: تَرْجِعْ بِهِ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ أَهْمَنِي نَفْسِي، مَا لِي بِهِ قُوَّةٌ وَلَا يَدَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَصِيرٍ: اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ، فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى أَتَى الْعِيصَ، فَتَزَلَّ مِنْهُ نَاحِيَةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى طَرِيقِ عِيرِ قُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ.



قَالَ أَبُو بَصِيرٍ عليه السلام: فَخَرَجْتُ وَمَا مَعِيَ مِنَ الزَّادِ إِلَّا كَفٌّ مِنْ تَمْرٍ فَأَكَلْتُهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَكُنْتُ آتِي السَّاحِلَ فَأُصِيبُ حَيْثَانَا قَدْ أَلْفَاهَا الْبَحْرُ فَأَكُلُهَا.

وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ قَدْ حُسِبُوا بِمَكَّةَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَلْحَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ عليه السلام قَوْلَ النَّبِيِّ عليه السلام لِأَبِي بَصِيرٍ: «وَيْلَ أُمِّهِ مَحْشُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ رَجُلٌ»، فَجَعَلُوا يَتَسَلَّلُونَ إِلَى أَبِي بَصِيرٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٦٢٥-٦٢٧].

أَرَادَ سُهَيْلٌ وَدَيَّ أَبِي بَصِيرٍ عليه السلام وَشِعْرُ مَوْهَبٍ فِي ذَلِكَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَلَمَّا بَلَغَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَتْلَ أَبِي بَصِيرٍ صَاحِبَهُمُ الْعَامِرِيُّ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أُؤَخِّرُ ظَهْرِي عَنِ الْكَعْبَةِ حَتَّى يُودِيَ هَذَا الرَّجُلُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا هُوَ السَّفَةُ، وَاللَّهِ لَا يُودَى (ثَلَاثًا)، فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَوْهَبُ بْنُ رِيَّاحٍ أَبُو أَنَيْسٍ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ: قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَبُو أَنَيْسٍ أَشْعَرِيٌّ.

|  |   |
|--|---|
| فَأَيْقَظَنِي وَمَا بِي مِنْ رُقَادٍ                   | أَتَانِي عَنْ سُهَيْلٍ ذَرَّةٌ قَوْلٍ   |
| فَعَاتِنِي فَمَا بَكَ مِنْ بَعَادِي                    | فَإِنْ تَكُنِ الْعِتَابُ تُرِيدُ مِنِّي |
| بِمَخْزُومٍ أَلْهَمًا مَنْ تُعَادِي <sup>(١)</sup>     | أَتُوْعِدُنِي وَعَبْدٌ مَنَافٍ حَوْلِي  |
| ضَعِيفَ الْعُودِ فِي الْكُرْبِ الشَّدَادِ              | فَإِنْ تَغْمِزُ قَنَاتِي لَا تَجِدُنِي  |
| إِذَا وَطِئَ الضَّعِيفُ بِهِمْ أَرَادِي <sup>(٢)</sup> | أُسَامِي الْأَكْرَمِينَ أَبَا بَقُومِي  |
| إِلَى حَيْثُ الْبَوَاطِنُ فَالْعَوَادِي <sup>(٣)</sup> | هُمْ مَنَعُوا الظَّوَاهِرَ غَيْرَ شَكٍّ |
| سَوَاهِمٌ قَدْ طَوِينُ مِنَ الطَّرَادِ <sup>(٤)</sup>  | بِكُلِّ طِمْرَةٍ وَبِكُلِّ نَهْدٍ       |
| رَوَاقِ الْمَجْدِ رُفِعَ بِالْعِمَادِ <sup>(٥)</sup>   | لَهُمْ بِالْخَيْفِ قَدْ عَلِمْتُ مَعْدً |

شِعْرُ ابْنِ الزَّيْعَرِيِّ فِي الرَّدِّ عَلَى مَوْهَبٍ:

فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْعَرِيِّ، فَقَالَ:

|   |   |
|---|---|
| أَجَارَ بَيْلَدَةً فِيهَا يُنَادِي                    | وَأَمْسَى مَوْهَبٌ كَحِمَارِ سَوْءٍ     |
| سُهَيْلًا ضَلَّ سَعْيُكَ مَنْ تُعَادِي <sup>(٦)</sup> | فَإِنَّ الْعَبْدَ مِثْلَكَ لَا يُنَاوِي |

(١) أتوعدني: أتهددني.

(٢) أسامي: أعاني. أرادي: يقال: إذا راميته.

(٣) الظواهر: ما علا من مكة. البواطن: ما انخفض منها. العوادي: جوانب الأودية.

(٤) الطمرة: الفرس الوثابة السريعة. النهْد: الغليظ. سواهم: عوابس متغيرة. طوين: ضعفن وضمرن.

(٥) الخيف: موضع بمنى. الرواق: ضرب من الأخبية.

(٦) لا يناوي: لا يعادي، وترك الهمزة لضرورة الشعر.

فَأَقْصِرْ يَا بَنَ قَيْنِ السُّوءِ عَنْهُ  
وَعَدَّ عَنِ الْمَقَالَةِ فِي السِّلَادِ<sup>(١)</sup>  
وَلَا تَذْكُرْ عِتَابَ أَبِي يَزِيدٍ  
فَهَيْهَاتَ الْبُحُورِ مِنَ التَّمَادِ<sup>(٢)</sup>

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٤-٣٢٥].

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «فَلَمَّا بَلَغَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَتْلَ أَبِي بَصِيرٍ لِلْعَامِرِيِّ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا صَاحَنَّا مُحَمَّدًا عَلَى هَذَا.

قَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ بَرِيَ مُحَمَّدٌ مِنْهُ قَدْ أَمَكْنَ صَاحِبُكُمْ فَقَتَلَهُ بِالطَّرِيقِ، فَمَا عَلَى مُحَمَّدٍ فِي هَذَا؟ فَقَالَ سُهَيْلٌ: قَدْ وَاللَّهِ عَرَفْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَوْفَى، وَمَا أُوْتِينَا إِلَّا مِنْ قِتْلِ الرُّسُولَيْنِ. قَالَ: فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُؤَخِّرُ ظَهْرِي حَتَّى يُودِيَ هَذَا الرَّجُلُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّ هَذَا هُوَ السَّفَهُ وَاللَّهُ لَا يُودِيَ ثَلَاثًا، وَأَنْتَى قُرَيْشُ تَدِيهِ وَإِنَّمَا بَعَثَهُ بَنُو زُهْرَةَ؟ فَقَالَ سُهَيْلٌ: قَدْ وَاللَّهِ صَدَقْتُ، مَا دِيَّتُهُ إِلَّا عَلَى بَنِي زُهْرَةَ وَهُمْ بَعَثُوهُ، وَلَا يُخْرِجُ دِيَّتَهُ غَيْرُهُمْ فَصَرَّةٌ (أي: دون الناس)؛ لِأَنَّ الْقَائِلَ مِنْهُمْ، فَهُمْ أَوْلَى مِنْ عَقْلِهِ.

فَقَالَ الْأَخْنَسُ: وَاللَّهِ لَا نَدِيهِ، مَا قَتَلْنَا وَلَا أَمَرْنَا بِقَتْلِهِ، قَتَلَهُ رَجُلٌ مُخَالِفٌ لِدِينِنَا مُتَّبِعٌ لِمُحَمَّدٍ، فَأَرْسَلُوا إِلَى مُحَمَّدٍ يَدِيهِ.

قَالَ: أَبُو سُفْيَانَ لَا، مَا عَلَى مُحَمَّدٍ دِيَّةٌ وَلَا غُرْمٌ، قَدْ بَرِيَ مُحَمَّدٌ، مَا كَانَ عَلَى مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا صَنَعَ، لَقَدْ أَمَكْنَ الرُّسُولَيْنِ مِنْهُ.

فَقَالَ الْأَخْنَسُ: إِنَّ وَدْنَةَ قُرَيْشٍ كُلَّهَا كَانَتْ زُهْرَةَ بَطْنًا مِنْ قُرَيْشٍ تَدِيهِ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ تَدِهِ قُرَيْشٌ فَلَا نَدِيهِ أَبَدًا.

فَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ دِيَّةً حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ.

فَقَالَ مُوَهَّبُ بْنُ رِيَّاحٍ، فِيمَا قَالَ سُهَيْلٌ فِي بَنِي زُهْرَةَ، وَمَا أَرَادَ أَنْ يَعْرِمَهُمْ مِنَ الدِّيَّةِ:

أَتَانِي عَنْ سُهَيْلٍ دَزْوُ قَوْلٍ  
لِيُوقِظَنِي وَمَا بِي مِنْ رُقَادٍ  
فَإِنْ كُنْتُ الْعِتَابَ تُرِيدُ مِنِّي  
فَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ بَعَادٍ  
مَتَى نَعْمَزُ قَتَايَ لَا تُجِدْنِي  
ضَعِيفَ الرَّأْيِ فِي الْكُرْبِ الشَّدَادِ  
يُسَامِي الْأَكْرَمِينَ بَعَزَ قَوْمُ  
هُمُ الرُّأْسُ الْمُقَدَّمُ فِي الْعِبَادِ

أَنشَدْنَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَسَمِعْتُهُمْ يُنَبِّئُونَهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٦٢٧].

(١) القين: الحداد.

(٢) الشاهد: الماء القليل.

اجْتَمَعَ الْمُحْتَبَسِينَ إِلَى أَبِي بَصِيرٍ رضي الله عنه، وَابْذَأُوهُمْ قُرَيْشًا، وَإِيَاءَ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ خَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه حَتَّى نَزَلَ الْعِصَ، مِنْ تَاحِيَةِ ذِي الْمَرْوَةِ، عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بِطَرِيقِ قُرَيْشٍ الَّتِي كَانُوا يَأْخُذُونَ عَلَيْهَا إِلَى الشَّامِ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا أُحْتُسُوا بِمَكَّةَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَصِيرٍ: «وَيْلُ أُمِّهِ مَحْشَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ»، فَخَرَجُوا إِلَى أَبِي بَصِيرٍ رضي الله عنه بِالْعِصِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا، وَكَانُوا قَدْ صَيَّقُوا عَلَى قُرَيْشٍ، لَا يَظْفَرُونَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا تَمُرُّ بِهِمْ عِيرٌ إِلَّا اقْطَعُوهَا، حَتَّى كَتَبَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُ بَارْحَامَهَا إِلَّا أَوَاهُمْ، فَلَا حَاجَةَ لَهُمْ بِهِمْ، فَأَوَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَبُو بَصِيرٍ ثَقَفِيٌّ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٤].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ الَّذِي كَتَبَ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابُ عُمَرَ رضي الله عنه فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِالسَّاحِلِ عَلَى طَرِيقِ عِيرِ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِمْ كِتَابُ عُمَرَ رضي الله عنه جَعَلُوا يَتَسَلَّلُونَ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى أَبِي بَصِيرٍ، فَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَكَانُوا قَدْ صَيَّقُوا عَلَى قُرَيْشٍ، لَا يَظْفَرُونَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا تَمُرُّ عِيرٌ إِلَّا اقْطَعُوهَا، حَتَّى أَحْرَقُوا قُرَيْشًا، لَقَدْ مَرَّ رَكْبٌ يُرِيدُونَ الشَّامَ مَعَهُمْ ثَلَاثُونَ بَعِيرًا، وَكَانَ هَذَا آخِرَ مَا اقْطَعُوهَا، لَقَدْ أَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُونَ دِينَارًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْعَثُوا بِالْخُمْسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه: لَا يَقْبَلُهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَدْ جِئْتُ بِسَلْبِ الْعَامِرِيِّ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ، وَقَالَ: «إِنِّي إِذَا فَعَلْتُ هَذَا لَمْ أَفِ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ»، وَكَانُوا قَدْ أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَبَا بَصِيرٍ رضي الله عنه، فَكَانَ يُصَلِّي بِهِمْ وَيُفَرِّضُهُمْ وَيُجَمِّعُهُمْ وَهُمْ سَامِعُونَ لَهُ مُطِيعُونَ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَبُو بَصِيرٍ رضي الله عنه مِنْ قُرَيْشٍ مَا بَلَغَ مِنَ الْغَيْظِ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ رَجُلًا، وَكَتَبَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ إِلَّا تَدْخُلَ أَبَا بَصِيرٍ وَأَصْحَابَهُ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِمْ؟ وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَصِيرٍ أَنْ يَقْدَمَ بِأَصْحَابِهِ مَعَهُ، فَجَاءَهُ الْكِتَابُ وَهُوَ يَمُوتُ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَهُوَ يَمُوتُ، فَمَاتَ وَهُوَ فِي يَدَيْهِ، فَقَبَرَهُ أَصْحَابُهُ هُنَاكَ وَصَلُّوا عَلَيْهِ وَبَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَأَقْبَلَ أَصْحَابُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فِيهِمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُعِيرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَرَّةَ عَتَرَ فَأَنْقَطَعَتْ إَصْبَعُهُ فَرَبَطَهَا وَهُوَ يَقُولُ:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتُ      وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتُ

فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فَمَاتَ بِهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَذَنِّي لِي أَبْكِي عَلَى الْوَلِيدِ، قَالَ: «ابْكِي عَلَيْهِ»، قَالَ: فَجَمَعَتِ النِّسَاءَ وَصَنَعَتْ لَهُنَّ طَعَامًا، فَكَانَ بِمَا ظَهَرَ مِنْ بُكَائِهِنَّ:

يَا عَيْنُ فَاْبْكِي لِلْوَلِيدِ      سِدِّ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُعِيرَةِ

مِثْلُ الْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ      سِدِّ أَبِي الْوَلِيدِ كَفَى الْعَشِيرَةَ

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْدَادَ الْوَلِيدِ، قَالَ: «مَا اتَّخَذُوا الْوَلِيدَ إِلَّا حَنَانًا». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٢٧-٦٢٩].

وأخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق بسياق آخر فيه شيء من التفصيل يقول فيه ما نصه: «قَالَا: وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَاطْمَأَنَّ بِهَا أَفْلَتَ إِلَيْهِ أَبُو بَصِيرٍ عُبْتَةُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ جَارِيَةَ التَّقْفِيُّ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ، وَالْأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ، وَبَعَثَا بِكِتَابَيْهِمَا مَعَ مَوْلَى لَّهُمَا وَرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ اسْتَأْجَرَاهُ لِيُرَدَّ عَلَيْهِمَا صَاحِبُهُمَا أَبُو بَصِيرٍ، فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَفَعَا إِلَيْهِ كِتَابَهُمَا، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَصِيرٍ فَقَالَ لَهُ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قَدْ صَالَحُونَا عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ فَالْحَقْ بِقَوْمِكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرُدُّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي وَيَعْبُثُونَ بِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اضْبِرْ يَا أَبَا بَصِيرٍ، وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَرَجًا وَمُخْرَجًا»، قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ وَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدِ الْخُلَيْفَةِ جَلَسُوا إِلَى سُورٍ جِدَارٍ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِلْعَامِرِيِّ: أَصَارِمُ سَيْفُكَ هَذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْظُرْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: إِنْ شِئْتُ، فَاسْتَلَّهُ فَضَرَبَ بِهِ عُنُقَهُ، وَخَرَجَ الْمَوْلَى يَشْتَدُّ، فَطَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا رَجُلٌ قَدْ رَأَى فِرْعَا»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ قَالَ: «وَيْحَكَ مَا لَكَ؟»، قَالَ: قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي.

فَمَا بَرِحَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرٍ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ فَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفَتْ ذِمَّتُكَ وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِنَفْسِي عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي وَأَنْ يَعْبُثُوا بِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ جَحْشٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ»، فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى نَزَلَ بِالْبَعْصِ...».

[السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٨٠ رقم ١٨٨٣١].

وأخرجه من طريق موسى بن عقبة عن الزهري مرسلا فذكر قدومه المدينة المنورة بنحو ما في رواية ابن إسحاق ثم قال: بَعَثَ فِي أَثَرِهِ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي مُنْقِذٍ (بطن من بني عامر بن لؤي، وهو منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي): أَحَدُهُمَا رَعَمُوا مَوْلَى، وَالْآخَرُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ اسْمُهُ جَحْشُ بْنُ جَابِرٍ، وَكَانَ ذَا جَلْدٍ، وَرَأَى فِي أَنْفُسِ الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَ لَهَا الْأَخْنَسُ فِي طَلَبِ أَبِي بَصِيرٍ جُعْلًا (الجعل الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً)، فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَفَعَ أَبَا بَصِيرٍ إِلَيْهِمَا، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى إِذَا كَانَا بِبَيْدِ الْخُلَيْفَةِ سَلَ جَحْشٌ سَيْفَهُ، ثُمَّ هَزَّهُ فَقَالَ: لَأَضْرِبَنَّ بِسَيْفِي هَذَا فِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَصِيرٍ: أَوْصَارِمُ سَيْفُكَ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: نَاولْنِيهِ أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَنَاولَهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا قَبَضَ عَلَيْهِ ضَرَبَهُ بِهِ حَتَّى بَرَدَ، وَيُقَالُ: بَلَ تَنَاولَ أَبُو بَصِيرٍ سَيْفَ الْمُنْقِذِيِّ فِيهِ، وَهُوَ نَائِمٌ فَطَقَّعَ إِسَارَهُ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِهِ حَتَّى بَرَدَ، وَطَلَبَ الْآخَرَ فَجَمَرَ (أي أسرع هارباً من القتل) مَذْعُورًا مُسْتَخْفِيًا حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ...» وذكر

نحو ما في رواية ابن إسحاق ثم زاد: «وَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، بِسَلْبِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: حَسَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِنِّي إِذَا حَسَسْتُهُ لَمْ أُؤَفِّ هُمْ بِالَّذِي عَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ شَأْنُكَ بِسَلْبِ صَاحِبِكَ، وَادْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ»، فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ...». [دلائل النبوة لليهيقي ١٧٢/٤ - ١٧٣].

وقصة أبي بصير وردت موصولة كما سبق في حديث المسور ومروان من طريق معمر وابن إسحاق وصرح ابن إسحاق بالسباع فلا يضرها الإرسال.

فقصة أبي بصير هذه مع ما سبق من قصة أبي جندل ترسم لنا صورة واقعية لوفاء المسلمين بعهودهم إذ لم يحل بينهم وبين منع إخوانهم من قريش سوى الوفاء بالعهد، والوفاء وحده، وإلا فقد لحق بالمسلمين قبيل الصلح ناس من قريش ليسوا بأعز عليهم من أبي جندل وأبي بصير، وجاء في طلبهم بعض سادة قريش فلم يمكنهم رسول الله ﷺ منهم، كما بينا ذلك عند الحديث عن «النبي ﷺ يرفض تسليم لاجئين من العبيد...». [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٢٩-٣٣١].

#### شعر أبي جندل ؓ:

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سَهْلٍ ؓ أَيَّامَ كَوْنِهِ مَعَ أَبِي بَصِيرٍ ؓ بِسَيْفِ الْبَحْرِ:

|  |  |
|--|--|
| أَبْلُغْ قُرَيْشًا عَنْ أَبِي جَنْدَلٍ | أَنَا بِذِي الْمَرْوَةِ فَالْسَّاحِلِ    |
| فِي مَعَشَرَ تَخَفُّقُ أَتْيَانُهُمْ   | بِالْبَيْضِ فِيهَا وَالْقَنَا الدَّابِلِ |
| يَأْبُونُ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ رُقَّةٌ  | مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِمُ الْوَاصِلِ     |
| أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرَجًا | وَالْحَقُّ لَا يُغْلَبُ بِالْبَاطِلِ     |
| فَيَسْلَمَ الْمَرْءُ بِإِسْلَامِهِ     | أَوْ يُقْتَلَ الْمَرْءُ وَلَمْ يَأْتَلِ  |

[الروض الأنف للسهيلى ٤٩٩/٦]

#### تخلي قريش عن أهم شروطها:

عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ وَمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحَدِيثِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ... قَالَ: وَمِنْ هَاهُنَا مُلْصَقُ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ وَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِلْعَامِرِيِّ وَمَعَهُ سَيْفُهُ: إِنِّي أَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا أَحَا بَنِي عَامِرٍ جَيْدًا، قَالَ: نَعَمْ أَجَلْ، قَالَ: أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَنْطَاهُ إِلَيْهِ، فَاسْتَلَّهُ أَبُو بَصِيرٍ ثُمَّ ضَرَبَ الْعَامِرِيَّ حَتَّى قَتَلَهُ، وَقَرَّ الْمَوَلَى يَجِيزُ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلَ - رَعْمُوا - عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، يَطْنُ الْخَصَا مِنْ شِدَّةِ سَعْيِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا» فَذَكَرَ نَحْوًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ رَكِبَ نَفَرٌ مِنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّمَا لَا تَغْنِي مُدَّتُكَ شَيْئًا وَنَحْنُ نُقْتَلُ وَتَنْهَبُ أَمْوَالُنَا وَإِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخَلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنَّا فِي صَلَاحِكَ وَتَمْنَعُهُمْ وَتَحْجَزَ عَنَّا قِتَالُهُمْ، فَفَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي

كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ﴿حَتَّىٰ بَلَغَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿الْحَمِيَّةَ حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦].

[مسند أحمد ٣١/ ٢٥٧ رقم ١٨٩٢٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

يقول د/ الحكمي: «كان الصلح في ظاهر شروطه لصالح قريش، حتى وجد المسلمون في أنفسهم من ذلك ما وجدوا، لكن رسول الله ﷺ حين قبل تلك الشروط كان يسير بتوجيه من الله العليم بما سيكون كيف يكون، فكان واثقاً كل الثقة أن كفته هي الراجحة، وإن ظهر للناس ما ظهر، وقد صرح بذلك في جوابه لعمر حين قال له عمر: «فَلِمَ نُعْطِيَ الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟» فأجابه ﷺ بقوله: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ! وَلَكَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي».

أما قريش فكان محركها في سيرها هو العُنْجُومَةُ وحب السمعة، وقد صرحوا بذلك في وصيتهم لسهيل بن عمرو حين بعثوه للمفاوضة حيث قالوا له: ائْتِ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنُوءٌ أَبَدًا.

وعلى أساس من هذه الوصية بنى سهيل بن عمرو شروطه للصلح، فعندما قال له رسول الله ﷺ: «عَلَىٰ أَنْ تُخْلَوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتُطَوَّفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ.

وهكذا كان هدف قريش هو الحفاظ على سمعتها دون نظر للعاقبة ولذلك صارت شروطها وبالأعلى عليها حتى تخلت عن أهم تلك الشروط، فطلبت من النبي ﷺ أن يؤوي من جاءه من مكة مسلماً ولا يرده إليها: ففي حديث المسور ومروان من طريق معمر بعد أن ذكر قصة أبي بصير وقته للذي جاء في طلبه من قبل قريش قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلٌ أُمَّهُ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ سَيْفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَبَيْنَ فُلْتُمْ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلٍ ﷺ فَلَحَقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحَقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ﷺ، حَتَّىٰ اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَكَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَادِيهِ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَنَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ<sup>(١)</sup> اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ

(١) قال ابن حجر: ظاهره أنها نزلت في شأن أبي بصير، وفيه نظر، والمشهور في سبب نزولها ما أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع ومن حديث أنس بن مالك أيضاً، وأخرجه أحمد والنسائي من حديث عبد الله بن مغفل بإسناد صحيح، نزلت بسبب القوم الذي أرادوا من قريش أن يأخذوا من المسلمين غرة، فظفروا بهم فعفا عنهم النبي ﷺ فنزلت الآية. فتح الباري ٥/ ٣٥٦.

عَلَيْهِمْ» حَتَّى بَلَغَ ﴿الْعَمِينَةَ حِمَیَةَ الْجَاهِلِیَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]، وَكَانَتْ حِمَیَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِ(نِسْبَةِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ. [البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢)].

وفي حديثهما من طريق ابن إسحاق عند البيهقي بعد أن ذكر قتل أبي بصير للذي جاء في طلبه قال: «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلٌ أُمِّهِ مَحْشٍ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجُلٌ»، فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى نَزَلَ بِالْعِصِصِ (هُوَ مَوْضِعٌ فِي بِلَادِ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ)، وَكَانَ طَرِيقُ أَهْلِ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ فَسَمِعَ بِهِ مَنْ كَانَ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَبِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ، فَلَحِقُوا بِهِ حَتَّى كَانَ فِي غُصَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَرِيبٍ مِنَ السَّيِّئِ أَوْ السَّعِينِ، فَكَانُوا لَا يَظْفَرُونَ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا يَمُرُّ عَلَيْهِمْ عِبْرٌ إِلَّا اقْتَطَعُوهَا حَتَّى كَتَبَتْ فِيهَا قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ لَمَّا آوَاهُمْ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِمْ، فَقَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ». [السنن الكبرى ٣٨١/٩ رقم ١٨٨٣١].

وأخرجه البيهقي أيضًا من طريق موسى بن عقبة عن الزهري مرسلًا مطولًا: فبعد أن ذكر قتل أبي بصير ﷺ للذي جاء في طلبه قال: «وَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، بِسَلْبِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: حَمْسٌ<sup>(١)</sup> يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِنِّي إِذَا حَمَسْتُهُ لَمْ أَوفِّ لَهُمْ بِالَّذِي عَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ شَأْنُكَ بِسَلْبِ صَاحِبِكَ، وَادْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ»، فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ مَعَهُ حَمْسَةً نَفَرًا كَانُوا قَدِمُوا مَعَهُ مُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ، حَيْثُ قَدِمُوا فَلَمْ يَكُنْ طَلَبُهُمْ أَحَدًا، وَلَمْ تُرْسَلِ قُرَيْشٌ كَمَا أُرْسِلُوا فِي أَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى كَانُوا بَيْنَ الْعِصِصِ، وَذِي الْمُرَّةِ (قَرْيَةُ بَوَادِي الْقَرْيِ، وَقِيلَ بَيْنَ خَشْبٍ وَوَادِي الْقَرْيِ) مِنْ أَرْضِ جُهَيْنَةَ عَلَى طَرِيقِ عِبْرَاتِ قُرَيْشٍ مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ، لَا يَمُرُّ بِهِمْ عِبْرٌ لِقُرَيْشٍ إِلَّا أَخَذُوهَا وَقَتَلُوا أَصْحَابَهَا، وَكَانَ أَبُو بَصِيرٍ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ:

اللَّهُ رَبِّي الْعَلِيُّ الْأَكْبَرُ مَنْ يُنْصِرِ اللَّهَ فَسَوْفَ يُنْصِرُ

وَيَقَعُ الْأَمْرُ عَلَى مَا يُقَدَّرُ

وَانْفَلَتَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَبْعِينَ رَاكِبًا أَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا فَلَحِقُوا بِأَبِي بَصِيرٍ، وَكَرِهُوا أَنْ يَتَقَدَّمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَنَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَرِهُوا الثَّوَاءَ بَيْنَ ظَهْرَيْ قَوْمِهِمْ، فَتَرَلُّوا مَعَ أَبِي بَصِيرٍ فِي مَنْزِلٍ كَرِيهِ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَطَّعُوا بِهِ مَادَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ الشَّامِ، وَكَانَ أَبُو بَصِيرٍ زَعَمُوا وَهُوَ فِي مَكَانِهِ ذَلِكَ

== ويؤيد ما قاله الحافظ رحمه الله أن في الآية ﴿يَبْطُلَنَّ مَكَّةُ﴾ وأبو بصير وجماعته لم يكونوا بطن مكة، قاله صاحب الصحيح

المسند من أسباب النزول: ١٤٧.

قلت: الأحاديث التي أشار إليها ابن حجر في سبب نزول الآية تقدمت في مبحث، تحريشات قريش.

مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٤٨-٣٤٩.

(١) خمس: أي اجعله خمسة أقسام وخذ الخمس لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآَتَى السَّبِيلَ﴾ الآية [الأنفال: ٤١].

يُصَلِّي لِأَصْحَابِهِ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ أَبُو جَنْدَلٍ كَانَ هُوَ يُؤْمُهُمْ، وَاجْتَمَعَ إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ حِينَ سَمِعُوا بِقُدُومِهِ نَاسٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، وَأَسْلَمَ، وَجُهِنَّةَ، وَطَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى بَلَغُوا ثَلَاثَ مِائَةِ مَقَاتِلَ، وَهُمْ مُسْلِمُونَ. قَالَ: فَأَقَامُوا مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبِي بَصِيرٍ لَا يَمُرُّ بِهِمْ عَيْرٌ قُرَيْشٍ إِلَّا أَخَذُوهَا، وَقَتَلُوا أَصْحَابَهَا، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ يَسْأَلُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَى أَبِي بَصِيرٍ، وَأَبِي جَنْدَلٍ بَنِي سُهَيْلٍ، وَمَنْ مَعَهُ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ، وَقَالُوا: مَنْ خَرَجَ مِنَّا إِلَيْكَ فَأَمْسِكْهُ غَيْرَ حَرَجٍ فِيهِ، فَإِنْ هُوَ لَاءٍ وَالرَّكْبَ قَدْ فَتَحُوا عَلَيْنَا بَابًا لَا يَصْلُحُ إِفْرَاؤُهُ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا أَشَارُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَمْنَعَ أَبَا جَنْدَلٍ مِنْ أَبِيهِ بَعْدَ الْقَضِيَّةِ أَنْ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ لَهُمْ فِيهَا أَحَبُّوا وَفِيهَا كَرِهُوا مِنْ رَأْيٍ مَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ قُوَّةً، هِيَ أَفْضَلُ مِمَّا خَصَّ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِنَ الْعَوْنِ وَالْكَرَامَةِ<sup>(١)</sup>، وَلَمْ يَزَلْ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ وَأَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهَا هُنَالِكَ حَتَّى مَرَّ بِهِمْ أَبُو الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ<sup>(٢)</sup>، وَكَانَ نَحْتَهُ زَيْنَبُ

(١) هذا الكلام فيه نظر، فالذين أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل هم بعض الصحابة، ولم يكن أحد منهم يظن أن له قوة أفضل مما خص الله بها نبيه من العون والكرامة، بل كانوا يعتقدون أن طاعة رسول الله ﷺ لهم فيها أحبوا وفيها كرهوا.

(٢) يقول د/ الحكمي: قصة أبي العاص هذه ذكرها ابن سعد في الطبقات ٨٧/٢، وابن جرير في تاريخه ٨٣/٢، وابن كثير في البداية والنهاية ١٧٨/٤، فذكر هؤلاء وغيرهم من أهل المغازي أنها كانت في سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى العيص سنة ست، وذكرها ابن القيم في سرية زيد ﷺ، ثم أورد رواية موسى بن عقبة هذه وعقب عليها بقوله: وقول موسى بن عقبة أصوب، وأبو العاص ﷺ إنما أسلم زمن الهدنة، وقرش انبسطت عيراتها إلى الشام زمن الهدنة، وسياق الزهري للقصة بين ظاهر أنها كانت في زمن الهدنة.

قلت: يظهر من كلام ابن القيم ﷺ ترجيح أن الذين أخذوا عير أبي العاص ﷺ هم أبو بصير وأصحابه ﷺ، لكن جاء في حديث عائشة ﷺ عند الحاكم أن الذي أخذ عير أبي العاص ﷺ هو زيد بن حارثة وأصحابه ﷺ.

قال الحاكم: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: ( لما بعث أهل مكة في فداء أسأراهم... ) وذكرت فداء زينب ﷺ لأبي العاص، ثم قالت: ( ولم يزل أبو العاص مقيماً على شركه حتى إذا كان قبيل فتح مكة، خرج بتجارة إلى الشام بأموال من أموال قريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ، وقيل إن رسول الله ﷺ كان هو الذي وجه السرية للعر التي فيها أبو العاص، قافلة من الشام، وكانوا سبعين ومائة راكب، أميرهم زيد بن حارثة، وذلك في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة، فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال وأسروا أناساً من العير، فأعجزهم أبو العاص هرباً... المستدرک ٢٣٦/٣. وهذا الإسناد حسن قد صرح ابن إسحاق فيه بالسماع، وقال الألباني عن هذا الحديث: وإسناده جيد، فقه السيرة للغزالي ٣٦٦ حاشية.

فالتحقيق أن الذي أخذ عير أبي العاص هو زيد بن حارثة ومن معه لهذا الحديث، أما ما ذكره موسى بن عقبة فهو من مراسيل الزهري، ومراسيل الزهري كان يحيى بن سعيد لا يراها شيئاً، ويقول: هي بمنزلة الريح. تهذيب التهذيب ٤٥١/٩. مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٥٢-٣٥٣.



بُنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّامِ فِي نَقَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَخَذُوهُمْ وَمَا مَعَهُمْ وَأَسْرَوْهُمْ وَلَمْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا لِيَصْهَرِ أَبِي الْعَاصِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو الْعَاصِ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ لِأُمِّهَا وَأَبِيهَا، وَخَلُّوا سَبِيلَ أَبِي الْعَاصِ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ عَلَى امْرَأَتِهِ وَهِيَ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ أَبِيهَا، كَانَ أَذِنَ لَهَا أَبُو الْعَاصِ حِينَ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ أَنْ تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ فَتَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهَا أَبُو الْعَاصِ فِي أَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَسَرَ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ وَمَا أَخَذُوا هُمْ، فَكَلَّمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، فَرَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «إِنَّا صَاهَرْنَا نَاسًا، وَصَاهَرْنَا أَبَا الْعَاصِ، فَنَعَمْ الصُّهُرُ وَجَدْنَاهُ، وَإِنَّهُ أَقْبَلَ مِنَ الشَّامِ فِي أَصْحَابٍ لَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَخَذَهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ، فَأَسْرَوْهُمْ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، وَإِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلَتْنِي أَنْ أُجِيرَهُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُجِيرُونَ أَبَا الْعَاصِ وَأَصْحَابَهُ؟» فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَبَا جَنْدَلٍ وَأَصْحَابَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَبِي الْعَاصِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَسْرَى رَدَّ إِلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ أَخَذَ مِنْهُمْ حَتَّى الْعِقَالِ، وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبِي بَصِيرٍ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُ مَنْ مَعَهُمَا مِمَّنِ اتَّبَعَهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَلَا يَعْتَرِضُوا لِأَحَدٍ مَرٍّ بِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَعِيرَانِهَا، فَقَدِمَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَعَمُوا عَلَى أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبِي بَصِيرٍ، وَأَبُو بَصِيرٍ يَمُوتُ، فَمَاتَ وَكِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ يَقْرُؤُهُ، فَدَفَنَهُ أَبُو جَنْدَلٍ مَكَانَهُ، وَجَعَلَ عِنْدَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا<sup>(١)</sup>، وَقَدِمَ أَبُو جَنْدَلٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَرَجَعَ سَائِرُهُمْ إِلَى أَهْلِيهِمْ، وَأَمِنْتُ عِيرَاتُ قُرَيْشٍ...». [دلائل النبوة للبيهقي ١٧٣/٤-١٧٥].

ثم ذكر فيه نبذة عن حياة أبي جندل بعد ذلك.

وأخرجه البيهقي أيضًا عن طريق أبي الأسود عن عروة مرسلًا بنحو مرسل الزهري إلا أنه لم يذكر قصة أبي العاص. [دلائل النبوة للبيهقي ١٧٥/٤-١٧٧].

رواية الزهري وغيره هذه مرسلة لكن أصل قصة أبي بصير وأبي جندل ثابت من حديث المسور ومروان السابق من طريق معمر وابن إسحاق. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٤٧-٣٥٥].

(١) هذا الفعل لم يثبت عن أبي جندل؛ لأن هذا الحديث من مراسلات الزهري، وهي ضعيفة، وعلى فرض ثبوته فهو محمول على عدم بلوغ النهي عن ذلك لأبي جندل؛ لأن قدومه للمدينة كان بعد هذه الحادثة، كما صرح بذلك هذا الحديث، وإنما شرعت الأحكام بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

## المبحث الثامن المهاجرات إلى الله

### أمر المهاجرات بعد الهدنة:

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَالْمُسَوَّرَ بْنَ مَحْرَمَةَ يُخْبِرَانِ خَبْرًا مِنْ خَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَكَانَ فِيهَا أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا كَاتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى قَضِيَّةِ الْمُدَّةِ، وَكَانَ فِيهَا اشْتَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: أَنَّهُ قَالَ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ - وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ - إِلَّا رَدَدْتُهُ إِلَيْنَا، وَخَلَيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، وَأَبَى سُهَيْلٌ أَنْ يُقَاضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، فَكَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ وَامْتَعْضُوا [امْتَعْضُوا] (أي غضبوا وشق عليهم)، فَتَكَلَّمُوا فِيهِ، فَلَمَّا أَبَى سُهَيْلٌ أَنْ يُقَاضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، كَاتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا جَنْدَلٍ ابْنَ سُهَيْلٍ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا، وَجَاءَتْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ، فَكَانَتْ أُمُّ كُلثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ عَاتِقٌ (الجارية أول ما أدركت، أو التي لم تتزوج، أو التي بين الإدراك والتعنيس)، فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُؤْمِنَاتِ مَا أَنْزَلَ.

[البخاري في المغازي (٤١٨٠، ٤١٨١)، وفي الشروط (٢٧١١، ٢٧١٢)].

وزاد في رواية: فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ؛ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قَالَ عُرْوَةُ: فَأَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ﴾ إِلَى ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة].

قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتُكَ»، كَلَامًا يُكَلِّمُهَا بِهِ، وَاللَّهُ مَا مَسَّتْ يَدُهَا امْرَأَةً قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، وَمَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ.

[البخاري في الشروط (٢٧١٣)، وفي تفسير القرآن (٤٨٩١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٦)].

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوَّجَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ: كَانَتْ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الممتحنة: ١٠].

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَرَّرَنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْطَلِقِي فَقَدْ بَايَعْتُكِ»، لَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدُ امْرَأَةٍ قَطُّ، غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعَهُنَّ بِالْكَلَامِ، وَاللَّهُ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، يَقُولُ هُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ: «قَدْ بَايَعْتُكُنَّ» كَلَامًا. [البخاري في الطلاق (٥٢٨٨)، ومسلم في الإمارة ١٨٦٦، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٥)، ومسند أحمد ٤٢/١١١، ١١٤، ١٨١ رقم ٢٥١٩٨، ٢٥٢٠٤، ٢٥٣٠٠، ٤٣/٣٤٨ رقم ٢٦٣٢٦].

وَعَنْ الزُّهْرِيِّ أَنَّ عُرْوَةَ بِنَ الزُّبَيْرِ حَدَّثَتْ أَنَّ عَائِشَةَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَدَّثَتْ عَنْ بَيْعَةِ النِّسَاءِ: مَا مَسَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ امْرَأَةٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهَا، فَإِذَا أَخَذَ عَلَيْهَا فَأَعْطَتْهُ، قَالَ: «أَذْهَبِي فَقَدْ بَايَعْتُكِ». [أبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٤١)، ومسند أحمد ٤١/٣٢٨ رقم ٢٤٨٢٩، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُبَيْةِ بْنِ رِبْعَةَ تُبَايِعُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخَذَ عَلَيْهَا: «أَنْ لَا يُتْرَكَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَتْرَفَنَّ وَلَا يَرْتَبَنَّ» [المتنحة: ١٢] الْآيَةَ، قَالَتْ: فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً، فَأَعْجَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى مِنْهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَقْرَى أَيُّهَا الْمَرْأَةُ، فَوَاللَّهِ مَا بَايَعَنَا إِلَّا عَلَى هَذَا، قَالَتْ: فَتَنَعَ إِذَا، فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ. [مسند أحمد ٤٢/٩٥ رقم ٢٥١٧٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَهَاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ، فَخَرَجَ أَخَوَاهَا عِمَارَةُ وَالْوَلِيدُ ابْنَا عُقْبَةَ، حَتَّى قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلَانِهِ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيْهَا بِالْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ فِي الْحُدُوبِ، فَلَمْ يَفْعَلْ، أَبِي اللَّهِ ذَلِكَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٥-٣٢٦].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَنَازِلَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَانُوا مُشْرِكِي أَهْلِ حَرْبٍ يُقَاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُ، وَمُشْرِكِي أَهْلِ عَهْدٍ لَا يُقَاتِلُهُمْ وَلَا يُقَاتِلُونَهُ، وَكَانَ إِذَا هَاجَرَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ لَمْ تُحْطَبْ حَتَّى تَحِيضَ وَتَطْهَرَ، فَإِذَا طَهَّرَتْ حَلَّ لَهَا النِّكَاحُ، فَإِنْ هَاجَرَ زَوْجُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْكِحَ رُدَّتْ إِلَيْهِ، وَإِنْ هَاجَرَ عَبْدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَمَةٌ فَهِيَ حُرَّانٍ وَلَهُمَا مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِثْلَ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ، وَإِنْ هَاجَرَ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ أَهْلَ الْعَهْدِ لَمْ يَرُدُّوا، وَرُدَّتْ أَتْمَانُهُمْ. [البخاري في الطلاق (٥٢٨٦)].

وَقَالَ عَطَاءٌ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَتْ قَرِيبَةُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَطَلَّقَهَا، فَتَزَوَّجَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَتْ أُمُّ الْحَكَمِ ابْنَةُ أَبِي سُفْيَانَ تَحْتَ عِيَاضِ بْنِ غَنَمٍ الْفَهْرِيِّ فَطَلَّقَهَا، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ الثَّقَفِيُّ. [البخاري في الطلاق (٥٢٨٧)].

وَقَالَ عَبْدُ الْوَارِثِ: عَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِذَا أَسْلَمَتِ النَّصْرَانِيَّةُ قَبْلَ زَوْجِهَا بِسَاعَةٍ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ».

وَقَالَ دَاوُدُ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ الصَّائِغِ، سُئِلَ عَطَاءٌ: عَنْ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ أَسْلَمَتْ، ثُمَّ أَسْلَمَ زَوْجُهَا فِي الْعِدَّةِ، أَهِيَ امْرَأَتُهُ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَشَاءَ هِيَ بِنِكَاحٍ جَدِيدٍ وَصَدَاقٍ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «إِذَا أَسْلَمَ فِي الْعِدَّةِ يَتَزَوَّجُهَا».

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ [المتحنة: ١٠]. [البخاري في الطلاق (٥٢٨٧ م)].

وَقَالَ الْحَسَنُ، وَفَتَاةٌ: فِي مَجُوسِيَّيْنِ أَسْلَمَا: هُمَا عَلَى نِكَاحِيهَا، وَإِذَا سَبَقَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ وَأَبَى الْآخَرُ

بِأَنْتَ، لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا. [البخاري في الطلاق باب (٢١)].

**سُؤَالُ ابْنِ جُرَيْجٍ لِعَطَاءٍ عَنْ آيَةِ الْمَهَاجِرَاتِ وَرَدُّهُ عَلَيْهِ:**

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: امْرَأَةٌ مِنَ الْمَشْرِكِينَ جَاءَتْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، أَبْعَاوُضْ (يعطى ما دفعه من

مهر) زَوْجَهَا مِنْهَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ [المتحنة: ١٠] قَالَ: لَا، إِنَّمَا كَانَ ذَاكَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ

أَهْلِ الْعَهْدِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا كُلُّهُ فِي صَلَاحِ بَيْنِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ. [البخاري في الطلاق باب (٢١)].

**سُؤَالُ ابْنِ هُنَيْدَةَ لِعُرْوَةَ عَنْ آيَةِ الْمَهَاجِرَاتِ وَرَدُّهُ عَلَيْهِ:**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْتُبُ كِتَابًا إِلَى ابْنِ

أَبِي هُنَيْدَةَ، صَاحِبِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ

الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا وَأَتَوْهُنَّ

مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ [المتحنة: ١٠].

قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ صَالِحَ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ

مَنْ جَاءَ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْلَةٍ، فَلَمَّا هَاجَرَ النِّسَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، أَبَى اللَّهُ أَنْ يُرَدَّنَّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ

إِذَا هُنَّ أُمْتُحَنَ بِمِخْنَةِ الْإِسْلَامِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُنَّ إِنَّمَا جِئْنَ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَمَرَ بِرَدِّ صَدَقَاتِهِنَّ إِلَيْهِمْ إِنْ

اِحْتَبَسْنَ عَنْهُمْ، إِنْ هُمْ رَدُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ صَدَاقَ مَنْ حُبِسُوا عَنْهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ، ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ

بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) [المتحنة].

فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ وَرَدَّ الرِّجَالَ، وَسَأَلَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ أَنْ يَسْأَلَ مِنْ صَدَقَاتِ نِسَاءٍ مَنْ

حُبِسُوا مِنْهُنَّ، وَأَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِنَّ مِثْلَ الَّذِي يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ، إِنْ هُمْ فَعَلُوا، وَلَوْ لَا الَّذِي حَكَمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ هَذَا

الْحُكْمِ لَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ كَمَا رَدَّ الرِّجَالَ، وَلَوْ لَا الْهُدْنَةُ وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ يَوْمَ

الْحُدَيْبِيَّةِ لَأَمْسَكَ النِّسَاءَ، وَلَمْ يَرُدُّ هُنَّ صَدَاقًا، وَكَذَلِكَ كَانَ يَصْنَعُ بِمَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ قَبْلَ الْعَهْدِ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٦-٣٢٧].

**سُؤَالُ ابْنِ إِسْحَاقَ الزُّهْرِيِّ عَنْ آيَةِ الْمَهَاجِرَاتِ:**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ ﷻ فِيهَا: ﴿وَأَنْ تَرُدُّوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ الَّذِي يَرُدُّونَ عَلَيْكُمْ﴾

الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوَا الَّذِي ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ بِمِثْلِ مَا أَنْفَقُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١١) [المتحنة]، فَقَالَ: يَقُولُ:

إِنْ فَاتَ أَحَدًا مِنْكُمْ أَهْلُهُ إِلَى الْكُفَّارِ، وَلَمْ تَأْتِكُمْ امْرَأَةٌ تَأْخُذُونَ بِهَا مِثْلَ الَّذِي يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ، فَعَوَّضُوهُمْ مِنْ فِيءٍ إِنْ أَصَبْتُمُوهُ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَارِ﴾ [المتحنة: ١٠]، كَانَ مِنْ طَلَّقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، طَلَّقَ امْرَأَتَهُ قُرَيْبَةَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُعِيرَةِ، فَتَزَوَّجَهَا بَعْدَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَهُمَا عَلَى شِرْكِهِمَا بِمَكَّةَ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ جَزُولٍ أُمُّ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْخُرَاعِيَّةُ، فَتَزَوَّجَهَا أَبُو جَهْمُ بْنُ حَذِيفَةَ بْنِ غَانِمٍ، رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ وَهُمَا عَلَى شِرْكِهِمَا». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٧].

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَا بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنة: ١٢]. وَعَنْ عَمِّهِ قَالَ: بَلَّغْنَا حِينَ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَرُدَّ إِلَى الْمُسْرِكِينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَبَلَّغْنَا أَنَّ أَبَا بَصِيرٍ فَذَكَرَهُ بِطُولِهِ. [البخاري في المغازي (٤١٨٢)].

وَقَالَ عُمَيْلٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ عُرْوَةُ: فَأَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ، وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمُسْرِكِينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَحَكَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَنْ لَا يُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَارِ، أَنَّ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ قُرَيْبَةَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَابْنَةَ جَزُولِ الْخُرَاعِيِّ، فَتَزَوَّجَ قُرَيْبَةَ مُعَاوِيَةَ، وَتَزَوَّجَ الْأُخْرَى أَبُو جَهْمُ، فَلَمَّا أَبَى الْكُفَّارُ أَنْ يَقْرَأُوا بِإِدَاءٍ مَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْكَحُوا الَّذِيْنَ دَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِنْدَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المتحنة: ١١]، وَالْعَقِبَ مَا يُودَى الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَنْ هَاجَرَ امْرَأَتَهُ مِنَ الْكُفَّارِ، فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى مَنْ دَهَبَ لَهُ زَوْجٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا أَنْفَقَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ اللَّائِي هَاجَرْنَ، وَمَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ ارْتَدَّتْ بَعْدَ إِيمَانِهَا.

وَبَلَّغْنَا أَنَّ أَبَا بَصِيرٍ بْنُ أَسِيدِ الثَّقَفِيِّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فِي الْمَدَةِ، فَكَتَبَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ أَبَا بَصِيرٍ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. [البخاري في الشروط (٢٧٣٣)].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَقَالُوا: لَا نَعْلَمُ قُرَشِيَّةً خَرَجَتْ بَيْنَ أَبَوَيْهَا مُسْلِمَةً مُهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ إِلَّا أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَتْ مُحَدَّثُ تَقُولُ: كُنْتُ أَخْرُجُ إِلَى بَادِيَةِ لَنَا بِهَا أَهْلِي فَأَقِيمُ فِيهِمْ الثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ التَّنْعِيمِ - أَوْ قَالَتْ بِالْحَضْرَاصِ - ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَلَا يُنْكِرُونَ ذَهَابِي، حَتَّى أَجْعَلَ السَّيْرَ فَخَرَجْتُ يَوْمًا مِنْ مَكَّةَ كَأَنِّي أُرِيدُ الْبَادِيَةَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا، فَلَمَّا رَجَعْتُ مِنْ تَبْعِي خَرَجْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الطَّرِيقِ، فَإِذَا رَجُلٌ مِنْ خُرَاعَةٍ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدِينَ؟ فَقُلْتُ: حَاجَتِي، فَمَا مَسْأَلَتُكَ وَمَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ خُرَاعَةٍ، فَلَمَّا ذَكَرَ خُرَاعَةً اطمأننتُ إِلَيْهِ لِدُخُولِ خُرَاعَةٍ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَقْدِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي

امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ أُرِيدُ اللُّحُوقَ بِرَسُولِ اللَّهِ وَلَا عِلْمَ لِي بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ: أَهْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (ربما أراد بذلك: نحن أهل الليل والنهار، العارفون بمسالك الطريق ليلاً ونهاراً)، أَنَا صَاحِبُكَ حَتَّى أُوْرِدَكَ الْمَدِينَةَ.

ثُمَّ جَاءَنِي بِبَعِيرٍ فَرَكِبْتُهُ، فَكَانَ يَقُودُنِي الْبَعِيرُ، لَا وَاللَّهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً، حَتَّى إِذَا أَنَاخَ الْبَعِيرَ تَنَحَّيَ عَنِّي، فَإِذَا نَزَلْتُ جَاءَ إِلَى الْبَعِيرِ فَقَبِضَهُ فِي الشَّجَرَةِ وَتَنَحَّيَ عَنِّي فِي الشَّجَرَةِ، حَتَّى إِذَا كَانَ الرِّوَا حُ جَذَعَ الْبَعِيرَ (حبسه على غير علف) فَقَرَّبَهُ وَوَلَّى عَنِّي، فَإِذَا رَكِبْتُهُ أَخَذَ بِرَأْسِهِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ وَرَاءَهُ حَتَّى نَزِلُ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ صَاحِبٍ!

فَكَانَتْ تَقُولُ: نِعْمَ الْحَيُّ خَزَاعَةُ!

قَالَتْ: فَدَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُتَعَبَةٌ، فَمَا عَرَفَنِي حَتَّى انْتَسَبْتُ، وَكَشَفْتُ النَّقَابَ فَالْتَرَمَنِي، وَقَالَتْ: هَاجَرْتَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ يُرَدَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُسْرِكِينَ كَمَا رَدَّ غَيْرِي مِنَ الرِّجَالِ: أَبَا جَنْدَلٍ بْنِ سَهْلٍ، وَأَبَا بَصِيرٍ، وَحَالَ الرِّجَالِ يَا أُمُّ سَلَمَةَ لَيْسَ كَحَالِ النِّسَاءِ، وَالْقَوْمُ مُصْبِحِي، قَدْ طَالَتْ غَيْبَتِي عَنْهُمْ الْيَوْمَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ، فَهُمْ يَبْحَثُونَ قَدْرَ مَا كُنْتُ أَغِيبُ ثُمَّ يَطْلُبُونَنِي، فَإِنْ لَمْ يَجِدُونِي رَحَلُوا إِلَيَّ فَسَارُوا ثَلَاثًا.

فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَأَخْبَرَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ خَبَرَ أُمِّ كَلثُومٍ، فَرَحَّبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَتْ أُمُّ كَلثُومٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي فَرَزْتُ بِدِينِي إِلَيْكَ فَاْمُنْعَنِي وَلَا تُرَدَّنِي إِلَيْهِمْ يَفْتِنُونِي وَيُعَذِّبُونِي، فَلَا صَبْرَ لِي عَلَى الْعَذَابِ، إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ، وَضَعَفُ النِّسَاءِ إِلَى مَا تَعْرِفُ، وَقَدْ رَأَيْتُكَ رَدَدْتَ رَجُلَيْنِ إِلَى الْمُسْرِكِينَ حَتَّى امْتَنَعَ أَحَدُهُمَا، وَأَنَا امْرَأَةٌ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ نَقَضَ الْعَهْدَ فِي النِّسَاءِ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ (الْمُمْتَحِنَةَ)، وَحَكَمَ فِي ذَلِكَ بِحُكْمِ رِضْوَةِ كُلُّهُنَّ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرَدُّ مَنْ جَاءَ مِنَ الرِّجَالِ، وَلَا يُرَدُّ مَنْ جَاءَ مِنَ النِّسَاءِ.

وَقَدِمَ أَخَوَاهَا مِنَ الْعَدِ الْوَلِيدُ وَعَمَارَةُ ابْنَا عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَقَالَا: يَا مُحَمَّدُ! فِ لَنَا بِشُرُوطِنَا وَمَا عَاهَدْتَنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «قَدْ نَقَضَ اللَّهُ» فَاَنْصَرَ فَا.

فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ يَكْتُبُ إِلَى هُبَيْدِ صَاحِبِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ كَتَبَ يَسْأَلُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهْجَرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَالِحٌ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى أَنْ يُرَدَّ إِلَيْهِمْ مَنْ جَاءَ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْلِهِ، فَكَانَ يُرَدُّ الرِّجَالُ، فَلَمَّا هَاجَرَ النِّسَاءُ أَبِي اللَّهِ ذَلِكَ أَنْ يُرَدَّ هُنَّ إِذَا امْتَحِنَ بِمِخْنَةِ الْإِسْلَامِ، فَزَعَمَتْ أَنَّهَا جَاءَتْ رَاغِبَةً فِيهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُرَدَّ صَدَقَاتِهِنَّ إِلَيْهِمْ إِنْ احْتَبَسْنَ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُرَدُّوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ الَّذِي يُرَدُّونَ عَلَيْهِمْ إِنْ فَعَلُوا، فَقَالَ: ﴿وَلَيْسَتُنَّ لَنَا أَنْفَعُوا﴾.

وَصَبَحَهَا أَخَوَاهَا مِنَ الْغَدِ فَطَلَبَاهَا، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِمْ فَرَجَعَا إِلَى مَكَّةَ، فَأَخْبَرَا قُرَيْشًا، فَلَمْ يَبْعَثُوا فِي ذَلِكَ أَحَدًا، وَرَضُوا بِأَنْ تُجْبَسَ النِّسَاءُ.

﴿وَلَيْسَتُلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ يَتْلُ مَا أَنْفَقُوا وَالَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المتحنة].

قَالَ: فَإِنْ فَاتَ أَحَدًا مِنْهُمْ أَهْلُهُ إِلَى الْكُفَّارِ، فَإِنْ أَتَتْكُمْ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ فَأَصَبْتُمْ فَعَوَّضُوهُمْ بِمَا أَصَبْتُمْ صَدَاقَ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَتَتْكُمْ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَأَقْرُوا بِحُكْمِ اللَّهِ، وَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَقْرُوا بِذَلِكَ، وَأَنْ مَا ذَابَ (وجب) لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَدَاقٍ مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِ الْمُشْرِكِينَ.

﴿فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ مِنْ مَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَيْدِيكُمْ، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاتَتْ زَوْجَهَا بِالْحُرِّ بِالْمُشْرِكِينَ بَعْدَ إِيمَانِهَا، وَلَكِنَّهُ حُكْمٌ حَكَمَ اللَّهُ بِهِ لِأَمْرِ كَانَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

﴿وَلَا تَنْسُوا بَعْضَ الْكَافِرِ﴾ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَطَلَّقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ، فَتَزَوَّجَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَطَلَّقَ عُمَرُ أَيْضًا بِنْتَ جَرُولِ الْخَزَاعِيَّةِ، فَتَزَوَّجَهَا أَبُو جَهْمُ بْنُ حَذِيفَةَ، وَطَلَّقَ عِيَّاضُ بْنُ عَنَمٍ الْفَهْرِيُّ أُمَّ الْحَكَمِ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ يَوْمَئِذٍ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ الثَّقَفِيُّ، فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ أُمِّ الْحَكَمِ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٦٢٩-٦٣٣].

## الفصل الثاني

### الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة الحديبية

#### (صلح الحديبية)

#### المبحث الأول

#### الدروس العقائدية

##### ١ - استحباب الضال وأنه مغاير للطيرة<sup>(١)</sup>:

يقول د/ الحكمي: «قال ابن القيم: «وَمِنْهَا: اسْتِحْبَابُ التَّفَاوُلِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الطَّيْرَةِ (الشَّائِوْمُ بِالشَّيْءِ) الْمَكْرُوهَةِ لِقَوْلِهِ ﷺ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلٌ: «سُهْلٌ أَمْرُكُمْ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٥].

قلت: قد وردت أحاديث تبين معنى الفأل: ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا طَيْرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأَلُ<sup>(٢)</sup>»، قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ». [البخاري في الطب (٥٧٥٥، ٥٧٥٤)].

وفيه عَنْ أَنَسٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ الصَّالِحُ، الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ».

[البخاري في الطب (٥٧٥٦)].

وفي سنن أبي داود عَنْ عُروَةَ بِنِ عَامِرٍ - قَالَ أَحْمَدُ: الْقُرْشِيُّ - قَالَ: ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأَلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ». [أبو داود في الطب (٣٩١٩)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

فهذه الأحاديث تؤيد ما ذكره ابن القيم من استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطير المذمومة، والفرق بينها: «أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء؛ فلذلك كرهت». [فتح الباري ١٠/ ٢١٥]. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٤٣-٥٤٤].

ويقول د/ العودة: «كان ﷺ يعجبه الفأل ويكره الطيرة والتشاؤم، وكان كذلك يحسن الظن بمن لا يُعهد منه السوء، وكذلك ينبغي للمسلمين أن يقتدوا بنبيهم؛ إذ الفأل يدفع للأمام، ويشحذ الهمم، والظن الحسن يُريح الصدور، وهو مؤثر إلى سلامة القلب».

أما حسن الظن فيظهر في تعامله ﷺ مع مقولة المسلمين للناقة: (حَلَّأْتُ الْقَصَوَاءَ)، وقوله - دفاعاً عنها، وتبريراً لحالها: «مَا حَلَّأْتُ الْقَصَوَاءَ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في الدروس العقائدية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى، ومن غزوة أُحُد.

(٢) قال ابن حجر: (أفعل التفضيل هنا إنما هو بين القدر المشترك بين الشئين، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ). فتح الباري ١٠/ ٢١٤.



قال العلماء: «وفي ذلك جواز الحكم على الشيء بما عُرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يُعهد منه مثلها لا يُنسب إليها، ويرد على من نسب إليها، ومعدرة من نسب إليها ممن لا يعرف صورة حاله». [السيرة من فتح الباري ٥٩١/٢].

ما أحوجنا إلى هذا الأدب في حسن الظن والتعامل مع الأخطاء مع البشر إنه لا يعني التغفيل لكنه حسن ظن، وإقالة للعترة، وتغلب للخير والمحاسن على الشرِّ والقبايح، ولو أسقط كلُّ أحدٍ بخطأ وقع فيه لما بقي أحدٌ صالحاً للاعتبار، فلنترفق بإخواننا وبأنفسنا، ولنحفظ حبل الوُدِّ بيننا، وليكن حسن الظن أصلاً راسخاً في علاقاتنا وتعاملنا؛ فذاك يسهم في وحدتنا، ولا يدع مجالاً للشيطان للتحرش بيننا، ولا يعني ذلك بحال ترك المناصحة؛ فالمؤمن مرآة أخيه، والمؤمنون نصيحة، لكن هذا شيءٌ، ومحاولة الإسقاط وتصيد الأخطاء شيء آخر. [فقه الحديبية للعودة ٨].

## ٢ - العبودية لله أرقى درجات الكمال الإنساني:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما يُفهم من قول رسول الله ﷺ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وعلى هذا فأرقى مستوى يحصله الإنسان بما فيه الرسول ﷺ أن يكون عبداً لله تعالى، نعم أن يكون عبداً ذليلاً منكسراً متخشعاً لله تعالى، وبين يديه سبحانه».

نعم لقد ظهر في هذا الصلح ذات أمرة هي الله ﷻ، وذات مأمورة هي ذات الرسول ﷺ، قد تلقت الأمر بتمام الرضا والقبول، وبذا ظهر الفرق واضحاً وجلياً بين مقام الربوبية ومقام العبودية، تأمل معي: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالَفَ أَمْرَهُ». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٤٠-١٤١].

## ٣ - أمية الرسول ﷺ:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث البراء رضي الله عنه عند البخاري: «فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فَكَتَبَ مَكَانَ «رَسُولِ اللَّهِ»: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»». فأخذ أبو الوليد الباجي بظاهر هذه الرواية، وقال: «إن رسول الله ﷺ كتب حقيقة» (حكاه القاضي عياض، وذكر أن الباجي ألف في ذلك رساله سماها بتحقيق المذهب من أن رسول الله ﷺ قد كتب. ترتيب المدارك ٨٠٥/٤)، وقد أنكر عليه ذلك علماء عصره ورموه بالزندقة.

قال ابن حجر تعليقاً على الرواية السابقة: وقد تمسك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجي فادعى أن رسول الله ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه، ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم:

بَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْيَا بآخرَةٍ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَتَبَا

[فتح الباري ٥٠٣/٧، وينظر: فتح الطيب ٦٨/٢].

بل حكى القاضي عياض: «أن الفقيه أبا بكر الصائغ قد كفره بإجازة الكتب على رسول الله ﷺ» النبي الأمي «وأنه تكذيب بالقرآن. [ترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥].

وقد بلغ خبر أبي الوليد إلى أمير وطنه، وجرت بحضرته مناظرة بين أبي الوليد وبعض العلماء الذين أنكروا عليه قوله، فذكر ابن حجر: أن الباجي تغلب عليهم بما لديه من المعرفة حيث ادعى أن كتابة النبي ﷺ في ذلك الوقت لا تنافي القرآن بل تؤخذ من مفهومه؛ لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن فقال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت ٤٨]، وبعد أن تحققت أميته وتقررت معجزته وأمن من الارتياب في ذلك، فلا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أخرى. [فتح الباري ٧/ ٥٠٣].

وقد كتب الأمير في المسألة إلى أفريقية وصقلية برغبة الباجي في ذلك، فجاءته الأجوبة من هناك، كان في بعضها تصويب لرأيه، وفي بعضها رد عليه. وعن صوّب رأيه: ابن الخزاز. وكان ممن رد عليه الزاهد أبو محمد بن مفوز ألف في ذلك جزءاً.

[ترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥-٨٠٦، تاريخ قضاة قرطبة ٢٠٢].

وقد وافق الباجي في قوله جماعة منهم: أبو ذر أحمد بن عبد الله الهروي، والسمناني، وأبو الفتح النيسابوري. [تفسير القرطبي ١٣/ ٣٥٢، فتح الباري ٧/ ٥٠٣، والخصائص الكبرى ٣/ ٢٧٢]. وقد استدلل هؤلاء لما ذهبوا إليه بما يلي:

١- ما أخرجه ابن أبي شيبة وعمر بن شبة من طريق مجاهد عن عون بن عبد الله قال: «ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ».

وقال مجاهد: «فذكرت ذلك للشعبي فقال: صدق سمعت من يذكر ذلك».

[فتح الباري ٧/ ٥٠٤، الخصائص الكبرى ٣/ ٢٧٠].

وذكر السيوطي أن سند هذا الحديث ضعيف، وحكى عنه الطبراني أنه قال: هذا حديث منكر.

[الخصائص الكبرى ٣/ ٢٧٠].

٢- واستدلوا بما ورد من طريق يونس بن ميسرة عن أبي كبشة السلولي عن ابن الحنظلية أن النبي ﷺ أمر معاوية أن يكتب للأقرع وعيينة، فقال عيينة: أتراني أذهب بصحيفة المتلمس، فأخذ رسول الله ﷺ الصحيفة فنظر فيها، فقال: «قد كتب لك بما أمر لك».

قال يونس: «فترى أن رسول الله ﷺ كتب بعدما أنزل عليه». [فتح الباري ٧/ ٥٠٤].

وحكى القرطبي عن ابن عطية: «أنه ذكر هذا الحديث والذي قبله ثم قال: هذا كله ضعيف وقول الباجي منه». [تفسير القرطبي ١٣/٣٥٢].

٣- واستدلوا أيضًا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال لكتابه: «ضع القلم على أذنك فإنه أذكر لك».

[فتح الباري ٧/٥٠٤].

٤- وربما روي أنه ﷺ قال لمعاوية: «ألق الدواة وحرف القلم وأقم الباء وفرق السين ولا تعور الميم».

[فتح الباري ٧/٥٠٤].

وقد ذكر ابن حجر هذين الحديثين مع الحديثين السابقين ثم قال: وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث. [فتح الباري ٧/٥٠٤].

وهذا نرى أن الأدلة التي استند إليها القائلون بأن رسول الله ﷺ قد كتب واهية كلها، لا يعتمد عليها، لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير.

أما حديث البراء في قصة الحديبية، فذكر ابن حجر: أن الجمهور أجابوا عنه: بأن القصة واحدة والكتاب فيها علي ﷺ، وقد صرح في حديث المسور بأن علياً ﷺ هو الذي كتب، فيحمل على أن النكتة في قوله: «فأخذ الكتاب، وليس يحسن يكتب» لبيان قوله: «أرني إياها»، أنه ما احتاج أن يريه موضع الكلمة التي امتنع علي عن محوها إلا لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك «فكتب» فيه حذف تقديره فمحاها فأعادها لعلي فكتب، وهو كثير كقوله: كتب إلى قيصر وكتب إلى كسرى.

وذكر ابن حجر جواباً ثانياً فقال: «وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة أن يصير عالماً بالكتابة عن كونه أمياً، فإن كثيراً ممن لا يحسن الكتابة يعرف تصوير بعض الكلمات ويحسن وضعها بيده، وخصوصاً الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً ككثير من الملوك». [فتح الباري ٧/٥٠٤].

وحكى عن السمناني وابن الجوزي جواباً آخر وهو: «أن تكون جرت يده بالكتابة حيثئذ، وهو لا يحسنها فخرج المكتوب على وفق المراد فيكون معجزة أخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً». [فتح الباري ٧/٥٠٤].

وقد مال ابن خلدون إلى هذا حيث قال: «ولا يقع في ذهنك من أمر هذه الكتابة ريب، فإنها قد ثبتت في الصحيح وما يعترض في الوهم من أن كتابته قاذحة في المعجزة، فهو باطل؛ لأن هذه الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع الحروف وقوانين الخط وأشكالها، بقيت الأمية على ما كانت عليه، وكانت هذه الكتابة خاصة من إحدى المعجزات». [تاريخ ابن خلدون ٢/٢٢١].

وقد تعقب السهيلي هذا الجواب فقال: «وقد ظن بعض الناس أنه كتب بيده»، وفي البخاري: «أنه كتب بيده وهو لا يحسن يكتب» فتوهم أن الله قد أطلق يده بالكتابة في تلك الساعة خاصة، قال: وهي آية. فيقال له: كانت تكون آية لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهو كونه أمياً لا يكتب وبكونه أمياً في أمة أمية، قامت الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله يده لتكون آية؟ وإنما الآية ألا يكتب والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً، وإنما معنى كتب: أي: أمر أن يكتب.

[الروض الأنف ٦/٤٨٥-٤٨٦].

وقد تعقب ابن حجر كلام السهيلي فقال: «وفي دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة تستلزم مناقضة المعجزة، وثبت كونه غير أمي نظر كبير». [فتح الباري ٧/٥٠٤].

قلت: ما قاله السهيلي وجيه لا نظر فيه، وكان يمكن أن يقال: إن كتابة اسمه الشريف على تلك الصورة لا تنافي الأمية إلا أن الله قد نفى عنه الكتابة بيده، بخصوصها وأخبر أن ذلك لو حصل لأدى إلى ريب في قلوب المبطلين، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا تَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ولو قلنا: إنه كتب حقيقة لحصل ذلك الارتباب في قلوب المبطلين بل قد حصل شيء من ذلك فعلاً وجعل بعض المتربصين هذه الرواية ذريعة للوصول إلى أهدافهم المشبوهة.

[ينظر: الرد الشافي الوافر على من نفى أمية سيد الأوائل والأواخر: ١٢٨].

فالراجح هو ما أجاب به الجمهور من أن المراد من قوله: «كتب» أي: أمر علياً ﷺ بالكتابة، والله أعلم». [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٥٣-٥٥٩].

ويقول د/ العيساوي: «من خلال عرضنا لسياق أحداث الحديبية تبين لنا، كما ورد في رواية البخاري، أن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ، بعد أن أبى سهيل بن عمرو كتابة «محمد رسول الله»، قال له: «امح رسول الله»، فقال علي ﷺ: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله». [البخاري (٢٦٩٩)].

وفي رواية أخرى، قال لعلي ﷺ: «امح رسول الله»، قال علي ﷺ: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب «هذا ما قاضى محمد بن عبد الله». [البخاري (٢٦٩٨)].

فظاهر هاتين الروایتين يوحى بأن رسول الله ﷺ قد كتب بيده اسمه واسم أبيه، ويستدل بهذا من قال: إن الرسول ﷺ يعرف القراءة والكتابة، قال بهذا أبو وليد الباجي، ووافقه بذلك جماعة من العلماء منهم: شيخه أبو ذر الهروي، وأبو الفتح النيسابوري وغيرهم.

[ينظر: فتح الباري ٧/٦٤١، وتذكرة الحفاظ ٣/١١٨١ والتراتب الإدارية ٢١/١٧٣].

وحجته في ذلك: أن هذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن؛ لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، يَمِينُكَ إِذَا لَا تَرَابَ الْأُمْبُطُورُ﴾ (٤٨) [العنكبوت]، وبعد أن تحققت أميته، وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتباب في ذلك لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أخرى. [فتح الباري ٧/ ٦٤١، وفيض القدير ٤/ ٢٥٥].  
وربما احتج له البعض بما رواه عبد الله بن عقبة قال: «ما مات النبي ﷺ حتى قرأ وكتب».  
[تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٤٢].

وهذا مخالف لرأي الجمهور والذي يقول بأمية الرسول ﷺ.  
وقد أثبت القرآن هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، يَمِينُكَ إِذَا لَا تَرَابَ الْأُمْبُطُورُ﴾ (٤٨) [العنكبوت].  
وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الذِّي أَلْمِزُوا الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].  
وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢) [الجمعة].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب، كان أمياً». [الدر المشور ٦/ ٤٧٠].  
وأما ما استدلل له أبو وليد الباجي ومن وافقه، فيُجاب عليه بما يأتي:  
أولاً: إن حديث «ما مات النبي ﷺ حتى قرأ وكتب» لا يصلح للاحتجاج، قال ابن كثير: وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة هو ضعيف لا أصل له. [تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٢].  
ثانياً: وأما عن قصة الحديبية فإن معرفة رسم هذه الكلمات أو اسمه ﷺ مما يتكرر رسمه أمامه كثيراً من قبل كتابه لا يخرج عن كونه أمياً كما أخبر القرآن الكريم، وبذلك قامت الحجة، وذهب الجمهور إلى أن المراد من قوله (كتب) أي أمر بالكتابة، وهو الأحوط منعاً للشبهات والريب.  
[ينظر: فتح الباري ٧/ ٦٤١، وعمدة القاري ٥/ ٤١٤].

وبهذا تبين رجحان قول الجمهور بأمية النبي ﷺ وهذا ما أثبتته القرآن الكريم، والله أعلم.  
[فقه الغزوات للعساوي ٣٦٨-٣٧٠].

### مصادر ومراجع للاستزادة:

- (١) أمية الرسول محمد ﷺ - د/ قحطان عبد الرحمن الدوري - دار البشير - الأردن - عمان ١٩٩٦م - ٧٩ ص، وط دار البشير - الأردن - عمان، ومؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م - ٧٩ ص.

- (٢) أمية النبي المصطفى ﷺ - د/ خليل إبراهيم ملا خاطر العزامي - ط ٢ دار القبلة - جدة، ومؤسسة علوم القرآن - دمشق ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م - ٢٠٨ ص.
- (٣) تحقيق المذهب من أن النبي ﷺ كَتَبَ - الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (٤٧٤هـ) - دراسة وتحقيق د/ أحمد ليزار - إشراف د/ محمد بن شريفة - دار الحديث الحسنية - الرباط ١٩٧٧م، وط (يتلوه أجوبة العلماء بين مؤيد ومعارض حول دعوى كتابة الرسول ﷺ لاسمه يوم صلح الحديبية) - تح أ/ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري - عالم الكتب - الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - ٣٨٠ ص.
- (٤) الرد الشافي الوافر على مَنْ نفى أمية سيد الأوائل والأواخر ﷺ - الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ) - دار البنان - بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م - ٢٥٥ ص.
- (٥) ماذا حول أمية الرسول ﷺ؟ - أ/ علي شواخ إسحاق - ط حلب ١٩٧٨م، وط دار السلام - بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م - ٩٥ ص، وط دار السلام - القاهرة ١٩٨٥م - ١١٢ ص.
- (٦) محمد رسول الله ﷺ النبي الأمي الذي علمه ربه - الشيخ عطية عبد الرحيم عطية - دار الشعب - القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م - ١٨٠ ص.
- (٧) المعنى الجلي للنبي الأمي ﷺ - المستشار كمال الدين عبد الحميد السيد الملاح - مؤسسة حورس الدولية - الإسكندرية ١٤٣٧هـ / ٢٠١٨م - ٤٧٨ ص.
- (٨) هل كان محمد ﷺ أمياً؟ الحقيقة الضائعة بين أغلاط المسلمين ومغالطات المستشرقين - أ/ خضر شايب - دار قتيبة - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م - ٢٣١ ص.

#### ٤ - اتهام العقل أمام النصوص الصريحة:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث المسور ومروان وغيره في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة ~~جف~~ كرهوا الصلح مع قريش لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ورأوا أنهم قد وقعوا في حرج، إذ كيف يكرهون شيئاً رضىه رسول الله ﷺ، وظلت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يجذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي:

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا، فَوَاللَّهِ مَا أَلُوْ (أَقْصَرُ وَأَبْطَأ) عَنِ الْحَقِّ، وَذَلِكَ [وَذَلِكَ] يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ (هو يوم الحديبية، وإنما نسبة لأبي جندل؛ لأنه لم يكن أشد على المسلمين يومئذ من قصته)، وَالكِتَابُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: «اكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالُوا: تَرَانَا [أَتَرَانَا] قَدْ صَدَقْنَاكَ بِمَا تَقُولُ؟ وَلَكِنَّكَ تَكْتُبُ [اَكْتُبُ]

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَرَضِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبَيْتُ [عَلَيْهِمْ]، حَتَّى قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ تَرَانِي أَرْضِي [قَدْ رَضِيتُ] وَتَأْتِي أَنْتَ؟» قَالَ: فَرَضِيتُ. [المعجم الكبير للطبراني ٧٢/١ رقم ٨٢، وقال محققه: ورواه أبو يعلى ونسبه إليه فقط في مجمع الزوائد ١٧٩/١ وقال: ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة، وهو مدلس وقد عنعن، ومجمع الزوائد ١/٤٣١ كتاب العلم (٨٤٣)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة، ومجمع الزوائد ٦/٢١٢ كتاب المغازي والسير (١٠١٨٣)، وقال الهيثمي: قلت: حديث عمر في الصحيح بغير هذا السياق، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وينظر تعليق د/ الحكمي على روايات الحديث في: مزيوات الحديبية ٣٢٢-٣٢٦].

وَعَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ: شَهِدْتَ صَفِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَسَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ ﷺ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ [عَلَى دِينِكُمْ]، [وَاللَّهِ لَقَدْ] رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ النَّبِيِّ [رَسُولِ اللَّهِ] ﷺ لَرَدَدْتُهُ، [وَاللَّهِ] وَمَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا لِأَمْرٍ يُفْطَعُنَا [يُوقَعُنَا فِي أَمْرٍ فَطِيعٍ، وَهُوَ الشَّدِيدُ فِي الْقَبِيحِ] [إِلَى أَمْرٍ قَطُّ] إِلَّا أَسْهَلُنَا [أَسْهَلُ] بَنَّا <sup>(١)</sup> إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ غَيْرَ أَمْرِنَا [أَمْرِكُمْ] هَذَا. [البخاري في الجزية (٣١٨١)، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٠٨)، والمعجم الكبير للطبراني ٨٨-٨٩ رقم ٥٥٩٨-٥٦٠٢].

وَعَنِ مَالِكِ بْنِ مَعْوَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَصِينٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو وَائِلٍ: لَمَّا قَدِمَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ﷺ مِنْ صَفِينَ أَتَيْنَاهُ نَسْتَحْزِرُهُ، فَقَالَ: اتَّهَمُوا الرَّأْيَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ، وَاللَّهِ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وَمَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا لِأَمْرٍ يُفْطَعُنَا إِلَّا أَسْهَلُنَا بَنَّا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ قَبْلَ هَذَا الْأَمْرِ، مَا نَسُدُّ مِنْهَا خُصْمًا (أَي جَانِبًا وَخَرَفًا) إِلَّا أَنْفَجَرَ عَلَيْنَا خُصْمٌ، مَا نَذَرِي كَيْفَ نَأْتِي لَهُ.

[البخاري في المغازي (٤١٨٩)].

وَعَنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ﷺ قَالَ: مَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا إِلَى أَمْرٍ إِلَّا أَتَيْنَا طَرِيقًا يَسْهُلُ لَنَا إِلَّا هَذَا الْأَمْرَ، وَاللَّهِ مَا فِي الْأَرْضِ خُصْمٌ، فَإِنَّا نَسُدُّهُ إِلَّا فُتِحَ خُصْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، لَوْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ بِنِ سَهْلٍ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُهُ، وَكَانَ خَيْرًا مِنِّي وَأَكْرَمَ، قَالَ: «وَكَانَ أَبُو جَنْدَلٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمًا، وَكَانَ وَالِدُهُ كَافِرًا، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِيهِ، فَقَبِلَهُ، ثُمَّ جَاءَ فَرَدَّهُ».

[المعجم الكبير للطبراني ٨٩/٦ رقم ٥٦٠٣].

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ، فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا أَخَذْنَا بِقَوَائِمِهِمْ إِلَى أَمْرٍ يَقْطَعُنَا إِلَّا أَسْهَلُ بَنَّا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ إِلَّا أَمْرَكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا شِدَّةً وَلَبْسًا، فَلَوْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَجِدُ أَعْوَانًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَنْكَرْتُ». [المعجم الكبير للطبراني ٩٠/٦ رقم ٥٦٠٥].

(١) إلا أسهلنا بنا: أي: أنزلنا في السهل من الأرض، وهو كناية عن التحول من الشدة إلى الفرج.

ومراد سهل ﷺ: أنهم كانوا إذا وقعوا في شدة يحتاجون فيها إلى القتال في المغازي والفتوح عمدوا إلى سيوفهم فوضعوها على عواتقهم، وهو كناية عن الجد في الحرب، فإذا فعلوا ذلك انتصروا، وهو المراد بالنزول إلى السهل.

ولقد ظل عمر بن الخطاب رضي الله عنه - برهة من الزمن - متخوفاً أن ينزل الله به عقاباً للذي صنع يوم الحديبية: فكان رضي الله عنه يتحدث عن قصته تلك ويقول: «مَا زِلْتُ أَصُومُ، وَأَتَصَدَّقُ، وَأُصَلِّي، وَأَعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

هذا فعل أهل الورع والتقوى والذين يقدِّرون نصوص الشريعة حق قدرها.

فليت أولئك الذي يردون النصوص الصريحة لحُدس عقولهم <sup>(١)</sup> يعتبرون بها في هذه الحادثة.

قال بحرق الحضرمي تعليقاً على هذه الحادثة: «قال العلماء لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته رضي الله عنه والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس، أو كرهته النفوس، فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وأنه جابر على أتم الوجوه وأكملها، غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره».

[حداائق الأنوار ومطالع الأسرار لبقرق ٣٢٨-٣٢٩].

وقد ذكر ابن القيم أن الرأي الباطل أنواع: فذكر منها الرأي المخالف للنص، والكلام في الدين بالخرص والظن مع التفريط في معرفة النصوص وفهمها، والرأي المتضمن تعطيل الأسماء والصفات الإلهية، ثم قال: «وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحکم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحکم هلاكه، ولا في أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله كم نفي هذه الآراء من حق، وأثبت بها من باطل، وأميت بها من هدى، وأحیی بها من ضلالة، وكم هُدم بها من معقل الإيمان، وعُمِّر بها من دين الشيطان، وأكثر أصحاب الجحيم، هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم، ولا عقل، بل هم شر من الحُمُر، وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المُلْك].

[إعلام الموقعين ١/ ٧١-٧٢ تح الشيخ عبد الرحمن الوكيل، ٢/ ١٢٧ تح الشيخ مشهور آل سلمان].

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٦٣-٥٦٥].

ويقول د/ الزيد: «فعلينا أن نحذر من معارضة نصوص الشرع بالعقل، بل علينا أن نتهم العقل ونقدّم

(١) يقولون إذا تعارض العقل والنقل، وجب تقديم العقل، حكاه ابن تيمية عن جماعة منهم: الرازي والغزالي، ثم بين فساده،

وكذلك فنده ابن القيم. ينظر: درء التعارض بين العقل والنقل ١/ ٤، ومختصر الصواعق ١/ ١٢٩.

وقد تبني تلك النظرية الفاسدة بعض الناس في هذا العصر فجعلوا عقولهم مقياساً لقبول النصوص وردّها، ولو كانت في الصحيحين، ينظر للرد عليهم: الرد على من كذب الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي ٤٤، ٤٧، ومرويات غزوة بدر ٤٧.



نصوص الشرع من الكتاب والسنة ونسلم لها ونذعن لمرادها ولو خالفت الرأي والعقل، فهي في الحقيقة لا تخالف العقل ولكن لقصور في عقولنا ظننا أحياناً أنها تخالفه». [فقه السيرة للزبد ٥٣٩-٥٤٠].

ويقول أ/ الشامي: «لم يكن الصحابة إجمالاً - باستثناء أبي بكر ؓ - راضين عن هذا الصلح، سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون.

فمن حيث الشكل: لم يقبل سهيل كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال النبي ﷺ: (اكتب باسمك اللهم) [البخاري في الشروط (٢٧٣١)]، وكذلك رفض سهيل كتابة: (محمد رسول الله)، فأمر رسول الله ﷺ علياً ؓ أن يمحوها، فقال علي: لا والله لا أحوها، فقال رسول الله ﷺ: أرني مكانها، فأراه مكانها فمحاه، وكتب ابن عبد الله. [مسلم في الجهاد (٩٢)].

ومن حيث المضمون: فقد كانت الشروط - في ظاهرها - قاسية في حق المسلمين، وكأنهم فيها هم الجانب الضعيف، وزاد الموقف حرجاً، مجيء أبي جندل ؓ أثناء كتابة العقد، ورده إلى المشركين، وهذا ما دفع عمر ؓ إلى فعل ما فعل، ولم يكن ذلك سلوك عمر ؓ وحده، فها هو سهل بن حنيف ؓ يقول يوم صفين: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ. وهذا ما جعل المسلمين في كآبة وحزن بل وذ هول، حتى إن رسول الله ﷺ أمرهم ثلاث مرات بنحر الهدي والتحلل فلم يفعلوا، حتى قام فنحر وحلق، فقاموا مسرعين حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً، وكأنهم تنبهوا للأمر الذي لم يتفادوه، واستمر هذا الغم والحزن حتى أثناء العودة.

قال أنس: «لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَرَّاعَظِيمًا﴾ ٥» مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة...». [مسلم رقم (١٧٨٦)].

كانت نظرة الصحابة ؓ محدودة بالأوضاع القائمة، وكانت نظرتهم بعيدة المرمى، ولم يتبين لهم ذلك إلا فيما بعد.

وقد أرسلت قريش تناسد الرسول ﷺ الرحم أن يبعث إلى أبي جندل ؓ وصحبه ويضمهم إليه. إنه الدرس الذي لخصه سهل بن حنيف ؓ بقوله: «اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ». (والمعنى: أن الرأي إنما يكون عند فقد النص، ولا يقف الرأي في مقابلة النص). [من معين السيرة للشامي ٣٦٧-٣٦٨].

ويقول د/ العودة: «كم نزكي أنفسنا والله يقول: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ ٣٢ [النجم]، وكم نصبح موافقنا ونخطئ غيرنا، وأحد الصحابة (سهل بن حنيف ؓ) يقول حين قدم من (صقين): اتَّهَمُوا الرَّأْيَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ (الحديبية) وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

إن حق المسلم أن يجتهد في رأيه، ولكن مع تقدير آراء الآخرين، وليس بالضرورة أن يكون اجتهاده هو الحق، بل قد يكون الحق مع مخالفه؛ ولذا ينبغي ألا يشتط المسلم على إخوانه المسلمين، إن خالفوه الرأي، بل ينبغي أن يعود إلى نفسه ويتهما، وليست القوة بالمعارضة أبدًا، ولا يعني أن المسلم الموافق لغيره ضعيفٌ جبانٌ.

وفي تباین موقف الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في شروط الصلح ما يؤكد هذا؛ فعمر رضي الله عنه تأثر للشروط وعارض، وأبو بكر رضي الله عنه سلم ورضي، وكان أقوى من غيره إيمانًا وتسليماً؛ حتى قال ابن القيم: «وَالصَّادِقُ رضي الله عنه تَلَقَّاهُ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، حَتَّى كَانَ قَلْبُهُ فِيهِ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَجَابَ عُمَرَ رضي الله عنه عَمَّا سَأَلَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ بِعَيْنِ جَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّادِقَ رضي الله عنه أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَأَكْمَلُهُمْ، وَأَعْرَفُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ، وَأَعْلَمُهُمْ بِدِينِهِ، وَأَقْوَمُهُمْ بِمَحَابِبِهِ، وَأَشَدَّهُمْ مَوَافَقَةً لَهُ».

[زاد المعاد ٣/٣٠٣].

أجل لقد انبلج الصبح، وأصبح الصلح فتحًا، والغبن في الظاهر نصرًا مبینًا، وعاد عمر رضي الله عنه إلى نفسه يؤنبها حتى كان يصوم ويتصدق ليكفر عما سلف منه، وهل كانت منك إلا غيرة على الإسلام يا ابن الخطاب؟ لكنه فهم - بعد - وفهم غيره من الصحابة أن الغيرة ينبغي أن تكون في مكانها، وأن اتهام النفس وارد، وأن التنازل إذا حقق مكاسب عليا فهو السياسة الشرعية - والسنة النبوية التي ينبغي أن تقتفى، بل لقد أكرم الله المؤمنين بالنصر العزيز والسكينة المطمئنة كما أخبر في سورة الفتح.

[فقه الحديث للعودة ٥].

قال ابن القيم: «وَتَأَمَّلْ كَيْفَ وَصَفَ النَّصْرُ بِأَنَّهُ عَزِيزٌ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ، ثُمَّ ذَكَرَ إِنْزَالَ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ الَّذِي اضْطَرَبَتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، وَقَلِقَتْ أَشَدَّ الْقَلَقِ، فَهِيَ أَحْوَجُ مَا كَانَتْ إِلَى السَّكِينَةِ، فَازْدَادُوا بِهَا إِيْمَانًا إِلَى إِيْمَانِهِمْ». [زاد المعاد ٣/٣١١].

ويقول الشيخ عرجون: «هذا الموقف الشديد الذي عبر فيه عمر رضي الله عنه عن جوه النفسي بقوله: «ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ»، يصور أصدق تصوير ما دخل على المسلمين من الغم والحيرة، بيد أن الموقف كان أفسى مما تصوره الكلمات، فقد كان فوق طاقة الاحتمال البشري، لم يثبت له بعد رسول الله ﷺ الذي كان على علم من ربه وكشفت له حجب الأسرار عن عواقبه غير الصديق أبي بكر رضي الله عنه.

وثبات أبي بكر رضي الله عنه الذي انفرده في مضائق هذا الموقف إنما كان بقدر رسوخه في الإيمان رسوخًا كان يستمدّه من آفاق شمس النبوة الذي جعله الله على نور قلبها، وله منها الكثير من خصائص آثارها الفطرية، ومن يقينه الذي قر في قلبه بصورة لا يلحقه فيها نقص الشبهات، ولا يزيدها كشف الحجاب. ولهذا ذهب إليه عمر رضي الله عنه يتلمس من يقينه وإيمانه ثلج الثبوت؛ لأنه سيد الراسخين بعد النبي ﷺ.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/٢٧٢-٢٧٣].

## ٥ - تنفيذ الأمر الإلهي وإن خفيت مصلحته:

يقول د/ الحميدي: «ما جرى في هذا الخبر من استسلام المؤمنين لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ في قضية الصلح الذي هو في الظاهر إجحاف بين المسلمين حيث رفض سهيل بن عمرو ومندوب قريش أن يكتب في الصلح (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ورفض أن يكتب (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله)، كما رفض الموافقة على دخول المسلمين مكة وطوافهم بالبيت في عامهم ذلك، وكان من البنود الجائرة في هذا الصلح ما جاء في قول سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا؛ ولذلك قال المسلمون: سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ وزاد من حرج رسول الله ﷺ مجيء أبي جندل یرسف بقبوده وإصرار أبيه سهيل بن عمرو على رده إلى مكة حيث تم الصلح.

ولهذا وقع المسلمون في حيرة عظيمة وأبت نفوس كثير منهم قبول هذا الصلح واشتاقوا إلى مناجزة أعدائهم والوصول إلى البيت ولو بالقوة، حتى قال عمر یرسف في محاوره له مع رسول الله ﷺ ما قال.

وكان أبو بكر یرسف في غاية اليقين وقمة الإيثار والاستسلام حيث كان جوابه لعمر یرسف كجواب رسول الله ﷺ.

وبعدما تبين للصحابه یرسف أن هذا هو أمر الله تعالى سلّموا جميعاً واطمأنوا لأمر لم تُدرك عقولهم كل تفاصيله والغاية منه، ولكنه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وهم يؤمنون جميعاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ۝﴾ [الأحزاب]، فسارعوا جميعاً إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بالإحلال من عمرتهم بعدما أحل من عمرته، ولم ينازعوا فيها بتّ به من أمر الصلح مع ما فيه في الظاهر من الإجحاف بالمسلمين.

وقد أثنى الله سبحانه على المؤمنين في هذا الموقف ويّين امتنانه عليهم بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يعني حينما رفضوا كتابة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) و(محمد رسول الله) ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ [الفتح]، يعني شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وهكذا امتن الله سبحانه على أوليائه بإنزال السكينة عليهم مرتين: حينما اطمأنت نفوسهم إلى القتال حتى الموت وبأيعوا على ذلك لما كان الأمر يستدعي ذلك، وحينما اطمأنت نفوسهم إلى الرضى بالصلح مع ما فيه من شروط جائرة لما استدع الأمر ذلك». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٢٠٩/٦-٢١١].

ويقول الشيخ أبو خوات: «أما ما نتعلمه من الصلح وشروطه فمنه أن شأن المؤمن بالله ورسوله إذا وقع في مشكلة أمر الله فيها لا يحقق رغبة نفسه، أن ينفذ أمر ربه معتقداً أن في ذلك المصلحة والخير وإن بدا على غير رغبته في ظاهر الأمر.

إذ حينما جلس الطرفان للصلح، وقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ؓ: اكتب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا ولكن (أكتب باسمك اللهم)، فكتبها كما قال سهيل، والمسلمون يتميزون غيظًا، وحدث مثل ذلك في وصف نفسه بـ (رسول الله) واعتراض سهيل عليه واستجابة الرسول ﷺ لطلبه أن يكتب (محمد بن عبد الله)، ثم ما كان من شروط الصلح الذي اعتبره المسلمون جائزًا بهم؛ لأنه يردهم من غير زيارة البيت هذا العام وهم يريدون الزيارة؛ ولأنه يفرض على المسلمين رد من يذهب إلى المدينة مسلمًا، ولا يفرض على المشركين رد من يذهب إلى مكة مرتدًا؛ مما جعل عمر ؓ يناقش أبا بكر ؓ مرة، ويناقش الرسول ﷺ مرة أخرى: أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ وحين يُجاب بالإيجاب يقول: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟، فيقول الرسول ﷺ في ثقة المؤمن أكمل الإيمان: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

وهذا الجواب يعطينا الدرس والعبرة: فكأن رسول الله ﷺ لا يجد جوابًا مقنعًا لعمر ؓ في الموضوع نفسه فيضمه إلى الوضع الذي يجد نفسه فيه، رغبة نفس في ناحية، وأمر الله ناحية... وليس لنا إلا أن ننفذ أمر الله معتقدين الخير كله والنفع كله مما توحى به جملة «لَنْ يُضَيِّعَنِي»، فكل الظواهر تدل على أن شروط الصلح في غيره صالح للمسلمين بادي الرأي، ولكن هنا نبينا ﷺ ينفذ أمر ربه.

وشبيه بهذا الموقف، موقف إبراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام حينما أراد السفر إلى فلسطين وحده وتركهما (المرأة والطفل) وحدهما في صحراء لا ماء فيها ولا ناس، في مكان البيت، فتعلقت بثوبه فأدار وجهه حنأًا وعطفًا، قالت له: كيف تتركنا هنا في هذا المكان الموحش؟ ولما سكنت قالت: الله أمرك بهذا؟ قال إبراهيم عليه السلام: نعم، وهناك قالت الزوج المؤمنة التي عاشت في كنف النبوة فترة قصيرة: إذن لن يضيعنا.. ثم تركت ثوبه ثوب الإنسان وتعلقت برجاء الله مؤنس الموحش وبارئ النسم. وأظنك أيها القارئ تعلم أن الله لم يضيع محمدًا ﷺ حين نفذ أمر ربه في قبول شروط صلح الحديبية ولم يضيع هاجر وإسماعيل عليه السلام في بطحاء مكة، وإنما مكن لمحمد ﷺ أن تكون أمته خير أمة أخرجت للناس تحمل دين الله إلى أهل الأرض إلى يوم الدين، وجعل من سلالة إسماعيل عليه السلام سدة بيته وأهل كرامته ومن مكة حرماً آمناً ويُتخطف الناس من حولهم.

فدرسنا الذي نأخذه من هنا أن نعالج مشاكلنا على هذا السنن المؤمن المستنير، فأبنا مشكلة تقوم في محيطنا نعرضها على دين الله، ونقضي فيها بقضاء الله ورسوله، سواء صادف ذلك هوى أنفسنا أو كان على رغمها، ولن يكمل إيماننا إلا إذا سلكننا هذه السبيل، وصدق رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». [الأربعون النووية - الحديث الحادي والأربعون، وقال الإمام النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحججة بإسناد صحيح].

اللهم لا تدخلنا في تجربة يكون قبضنا على دينك فيها كقبضنا على الجمر، وإذا أردت لنا تجربة من هذا القبيل فحبب إلينا دينك واهدنا إلى طريقك، واجعل هوانا ورغبتنا فيما تحب وترضى...

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ١٠٤-١٠٦].

ويقول د/ ياني: « وهكذا على الرغم من تألم المسلمين ووجدانهم كثيراً من هذا الاتفاق الذي أملتة قريش على الرسول ﷺ، إلا أن إرادة الله شاءت أن يمضي الرسول ﷺ الصلح مع قريش، مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يظهر للصحابة رضي الله عنهم، وقد خفي عليهم الكثير من أهدافه وفوائده، وتلك طبيعة في البشر العاديين أنهم لا يدركون بحواسهم القاصرة ما وراء الغيب، ولم يكن لهم بعد ذلك إلا الرضا والتسليم بهذا الاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فما قرره الرسول ﷺ من اتفاق مع قريش في الحديبية كان بتوجيه من الله تعالى الذي يوجه نبيه التوجيه الصائب، وجاءت نتائجه مباركة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

[صلح الحديبية وأبعاده في نشر الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها لياني ١٨٤].

## ٦ - العبرة بما تؤول إليه الأمور:

يقول د/ الزيد: «أن ندرك أن العبرة بما تؤول إليه الأمور، وعسى أن يكره المؤمن شيئاً ويكون خيراً، فقد كره بعض الصحابة رضي الله عنهم صلح الحديبية وما فيه من شروط وتبين بعد ذلك ما فيه من الخير للإسلام والمسلمين، يقول ابن حجر عن هذا الفتح: (وَكَانَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ضَمِيمًا لِلْمُسْلِمِينَ وَفِي الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ عِزًّا لَهُمْ). [فتح الباري لابن حجر ٥/ ٣٤٨، وينظر: زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣١٠].

فعلى المسلم أن لا يتعجل ويحكم على الأمور بظاهرها، وليسأل الله الخير الآجل والعاجل، ويرضى بما يكتب الله تعالى. [فقه السيرة للزيد ٥٤٢].

## ٧ - بين خوف الأخيار وتحكيم الآراء والأهواء:

يقول د/ العودة: «التأمل في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وموقفه (يوم الحديبية) يرى نموذجاً لخوف الأخيار؛ فهو حين تأثر لظاهر شروط الصلح، وراجع النبي ﷺ ثم راجع أبا بكر رضي الله عنه إنما حملته الغيرة لدين الله ومحارمه، ومع ذلك وحين تبين له أن الخير فيما اختاره الله لرسوله ﷺ، وكان هذا الصلح فتحاً مبيناً - كما أنزل القرآن - حينها تأثر عمر رضي الله عنه - مرة أخرى - وخاف أن يلحقه شيء من الإثم، فعوّض عن ذلك بعمل الصالحات كما قال: «مَا زِلْتُ أَصُومُ، وَأَتَصَدَّقُ، وَأُصَلِّي، وَأَعْتِقُ مَنْ أَلَدِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا». [مسند أحمد ٣١/ ٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وهكذا يحاسب الأخيار أنفسهم - على الدوام - ويرون الخطأ اليسير كالجلبل العظيم، ولا يزالون يستغفرون ويعملون من الطاعات ما يرونه مُكفِّرًا لأخطائهم، أما أهل السوء والغفلة فقد يعملون كالجلبال من السيئات، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، وفرق بين القلوب الحية ومن قست قلوبهم».

[فقه الحديبية للعودة ٩].

ويقول د/ أيوب: «يجب على كل مسلم أن يندم إذا ما عارض أمرًا من أمور المسلمين معتقدًا صوابه، ثم تبين له الخطأ كما فعل عمر رضي الله عنه، بل قال: (مَا زِلْتُ أَصُومُ، وَأَتَصَدَّقُ، وَأُصَلِّي، وَأَعْتِقُ) تكفيرًا عن ما صدر منه في معارضة بعض بنود الصلح، علمًا بأن من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن أصاب فله أجران، ولكن كما يقولون: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فالإنسان المسلم إذا كان على خوف وخشية من الله، فإنه يشعر بالهفوة أو الخطأ في الاجتهاد يحسبه شيئًا عظيمًا.

وهكذا خلق المؤمن دائمًا يقدمون التوبة إلى الله ويخافونه». [صلح الحديبية لأيوب ١٥١].

#### ٨ - وهل شك عمر رضي الله عنه بدينه؟

يقول د/ أبو خليل: «سؤال عمر رضي الله عنه وكلامه وموقفه لم يكن شكًا في الدين، أو في رسول الله صلى الله عليه وسلم، حاشاه رضي الله عنه، فلما قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: الزم غرزه فإنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. لقد كان سؤاله طلبًا لكشف ما خفي عليه من المصلحة، وحثًا على إذلال المشركين، وحبًا في ظهور الإسلام كما عُرف في خلقه وقوته في نصر الدين، وإذلال المبطلين، وفي ذلك دليل على جواز البحث في العلم حتى يظهر المعنى.

وسلم عمر رضي الله عنه تسليًا، عندما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا عُمَرُ! إِنِّي رَضِيتُ وَتَأَمَّنِي؟!».

قال عمر رضي الله عنه: «مَا زِلْتُ أَصُومُ، وَأَتَصَدَّقُ، وَأُصَلِّي، وَأَعْتِقُ مِنْ الَّذِي صَنَعْتُ خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا». [مسند أحمد ٣١/ ٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

فهذا الذي عمله عمر رضي الله عنه بعد موقفه من صيام وتصدق وصلاة وعتق مخافة كلامه في الحديبية، إنها عمله لتأخره وتوقفه عن المبادرة بامتنال الأمر ليس غير.

إن كل الذي أراده عمر رضي الله عنه - وهو المسلم الحق - ظهور الحكمة وتكشُّف المراد من الصلح وهو بهذه

الشروط». [صلح الحديبية لأبي خليل ١١٦-١١٧، وفي التاريخ الإسلامي لأبي خليل ١٢٧-١٢٨].

#### ٩ - تكفير الزلات:

يقول د/ الزيد: «من قول عمر رضي الله عنه: «مَا زِلْتُ أَصُومُ، وَأَتَصَدَّقُ، وَأُصَلِّي، وَأَعْتِقُ مِنْ الَّذِي صَنَعْتُ

خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا».

يتبين لنا فضل الله العظيم وسعة رحمته، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلَّذِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ [هود].

فإذا شعر المسلم أنه وقع في خطأ معين فعليه بالأعمال الصالحات بعد التوبة النصوح، فإن في هذه الأعمال تعويضًا عما فاتته من خير، وتكفيرًا لما وقع منه من زلل ولله الحمد رب العالمين.

[فقه السيرة للزبد ٥٤٠].

#### ١٠ - إثبات المعجزة النبوية في صلح الحديبية لمحمد ﷺ:

يقول أ/ وجدي: «قد يعجب القارئ لأول وهلة أن يصف الكتاب الكريم بالفتح المبين ما اعتبره جيش برمته ضعفًا واستسلامًا، ما عدا واحدًا هو أبو بكر ﷺ».

وقد رأى المؤمنون بأعينهم ثمرة هذا الصلح، وتبين أنه كان أجل أثرًا وأعظم عائدة على جماعتهم من أي فتح تقدمه، بل رأوا أنه كان يجب أن توجد هذه الهدنة لتمهد السبيل أمام الإسلام بفتح القلوب له من طريق الاقتناع العقلي، لا من طريق السيف وحده، فإن كل فتح في تاريخ البشرية اعتمد على القوة وحدها أنهار عقب قيامه مباشرة، ما دام لم يصحبه تأثير أدبي في النفوس تتألف منه عقيدة تحالط العقول والقلوب، وتصبح بذلك حاجة روحية للقائمين به.

فالحق ﷻ، الذي كتب للإسلام أن تكون له دولة تُحدث في العالم من ضروب الانتقالات الأدبية والاجتماعية ما لم تُحدثه الفتوحات الكبرى مجتمعه، أراد أن يكسر عديد الذين يصح لهم الإسلام عقيدة متغلغلة إلى أعماق ما تصل إليه عقيدة من ضمائرهم، ليقوموا به كحاجة قلبية لهم، إلى جانب ما هو عليه كحاجة اجتماعية لوجودهم، وكيف يتسنى هذا في وسط المعارك الدامية، والسخائم المستعرة؟ فكان لا بد من وجود هُدنة يُلقى فيها السلاح جانبًا مدة كافية ليتمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل والتفاهم، والأخذ والرد، والإقناع والاقتناع، حتى يكون في الجماعة رجال كثيرون انضموا إليها منقادين لأصوات ضمائرهم، لا مستسلمين لعامل المنفعة، فلا يلبثون بعد ارتفاع اليد الماسكة عنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من جاهلية وما ورثوه وألفوه من وثنية.

من أراد أن يعرف الفرق بين هاتين الحالتين بدليل محسوس، أحلناه إلى حقيقة تاريخية وهي: أنه على أثر قيام الجماعة الإسلامية على صورة دولة قُبل فتح مكة وبعدها، دخلت القبائل العربية المنتشرة في جزيرة العرب في الإسلام، وكان دخولها فيه للمحافظة على وجودها، ولاتقاء قارعة تحل بها من جراء شذوذها؛ فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى شقوا عصا الطاعة على من خلفه، وعادوا إلى وثنياتهم، ومنعوا الأتاوات التي كانت تتقاضهم إياها الدولة؛ فاضطر أبو بكر ﷺ إلى مقابلتهم وإعادةهم إلى الطاعة

بالقوة، وكان هذا العمل مما يستحيل حدوثه لو كان السواد الأعظم من مقيمي تلك الدولة على شاكلة هذه القبائل التحقوا بالإسلام طلباً للمصلحة، لا عن اقتناع راسخ بحقيقته.

ولكن الذي كان أن السواد الأعظم من أولئك الأصحاب والأنصار كانوا يعتقدون عقيدة راسخة بأنهم يمثلون ديناً هو حاجة روحية لهم، ويقومون بنظام اجتماعي وأدبي سينقذ الإنسانية من أدوائها القاتلة، وأنه سيعلو ويمتد حتى يؤتى أهله بخلافة الله في الأرض، ويعيش الناس في رعايته على أكمل ما تكون عليه الإنسانية من سعادة مادية ومعنوية، هذا العامل الأدبي دفعهم لأن يبذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيل الزيادة عن حوضه، والدفاع عن بيضته، وإعادة المنشقين عنه إلى حظيرته.

فأنت ترى أن هذا العامل الأدبي الذي أدت إليه العقيدة الراسخة ما كان ليتشر في ألوف من الناس لو اعتمد ناشروه على القوة وحدها، وكيف كانت تنهياً البيئة لتبادل الآراء فيه، وإقامة الأدلة عليه، لولا عهد طويل من السلام يحدث فيه اختلاط بين رجال القبيلين يفضي كل منهم إلى خصمه بما هو عليه؟ هذا من لباب العلوم الاجتماعية التي لم يفتح بها على الناس إلا في القرون المتأخرة؛ ناهيك أن الناس عز عليهم أن يفهموا ما سماه كتابهم فتحاً مبيناً في الوقت الذي كانوا يعتقدون فيه أنه مظهر من مظاهر الاستحذاء والتسليم لعدوهم.

ولم يطل العهد على الذين أنكروا هذا الصلح، فقد تجلبت لهم حكمته في أجلى مظاهرها بعد عقده بستين عند فتح مكة، فقد روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح] أنه قال: «لَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ أَعْظَمُ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ تَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارُهَا، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا وَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ دُوَّ عَقْلٍ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السِّتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ سِتَيْنِ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ فِي عَشْرَةِ أَلْفٍ» ١. هـ.

لا جرم أن هذا من أعظم دلائل النبوة، فإن إقدام النبي ﷺ على عمل استنكره أصحابه كلهم، والتشدد في إمضاءه إلى هذا الحد، لم يكن من عادته ﷺ؛ فقد أثر عنه أنه كان يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم ينزل فيه وحى، ودعاه الكتاب الكريم بعد إتمامه فتحاً مبيناً، خلافاً لما كان يراه فيه الناس كلهم، وقد ظهر أنه يستحق هذا الوصف بعد ظهوره بستين اثنتين.

لو كانت الأمور تجري على عادتها، لكان هذا الصلح الذي اعتبره المسلمون مذلاً لهم، قد زاد المشركين غروراً بقوتهم، وتمسكاً بوثنيتهم؛ أما وقد أنتج عكس ما كان يتظر منه، وصدق الكتاب في تسميته إياه فتحاً مبيناً، فهذا مما لا يمكن تعليله إلا إذا اعتبر وحياً إلهياً، لا تدبيراً بشرياً.



إن أمثال هذه المعجزات هي التي يعتد به العلم، ويرى فيها مظهرًا من مظاهر الاتصال بعالم أرفع من هذا العالم، يُمدُّ منه الإنسان بما لا تعطيه الطبيعة المجردة من خطط العمل، ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية التي لا يدركها إلا الذين حذقوا العلم بأحوال النفوس، وطبائع البيئات، وعوامل التطور، وأين هم من هذا كله في ذلك العهد من الظلام الدامس، وفي تلك البقعة من قرارة البداوة المنحلة؟  
[السيرة المحمدية لوجدي ٢٣٨-٢٤٠].

## ١١ - هل رفضُ النحر والحلق مخالفةٌ جماعية؟

يقول د/ أبو خليل: «نعم، إنها مخالفة جماعية، ولكن فيها أدب واحترام لعدم النطق بها، ولعدم اللجوء أو القيام بعمل إيجابى ضد تنفيذ الأمر، ويدل هذا الموقف على أن جميع المسلمين كانوا برأي عمر رضي الله عنه، ولكن عمر رضي الله عنه كان أجراً القوم على النطق عما جال في النفوس أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت مشورة المرأة الفاضلة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فعاد الجميع إلى التزام أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.  
والمخالفة لم تكن شكاً لدينهم وبرسولهم صلى الله عليه وسلم، بل كانت لرجوعهم بغير فتح، وهم الذين لم يشكوا لحظة منذ انطلاقتهم من المدينة بدخول مكة معتمرين».  
[صلح الحديبية لأبي خليل ١١٧، وفي التاريخ الإسلامي لأبي خليل ١٢٨].

## ١٢ - نظرات في رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم:

يقول الشيخ أبو خوات: «إننا إذا رجعنا إلى الرؤيا نفسها، وقد كانت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون من قريش شيئاً، فهل كان يمكن في مسيرة الحديبية أن تتحقق الرؤيا بنفسها كما رؤيت في النوم؟!  
إن القوم وقفوا في وجه المسلمين، وصار الأمر إما أن يدخلوا بالقوة، وإما أن يرجعوا بالقوة، وإما أن يتفقوا على وضع يتراضون عليه جميعاً، فكان أن وقّعهم الله للصلح الذي أعقبته مصالح وخيرات جسام - وأهمها من جهة تحقيق الرؤيا الاتفاق على تمكين المسلمين من زيارة البيت ودخول المسجد الحرام على شروط الرؤيا نفسها: آمنين... لا يخافون، وإن تأخر الوقت عامّاً عما كان يقدر المسلمون، ولو قد دخل المسلمون المسجد الحرام في أيام الحديبية فلن يكون دخولهم تحقيقاً للرؤيا لعدم تحقق شرطي الأمن وعدم الخوف، ومن هنا كانت آية الرؤيا - ضمن آيات سورة الفتح - تصور هذه المعاني بالفاظ تستوقف النظر طويلاً يخرج منها القارئ بأن الصلح والتوفيق فيه، عمل إلهي لتحقيق الرؤيا التي هي من الله تعالى أيضاً - بالصدق والحق كما رآها النبي صلى الله عليه وسلم في منامه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٧)  
[الفتح]. [دروس من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي خوات ١١٦-١١٧].

## ١٣ - العزة والثقة بنصر الله لا تفارق المؤمنين:

يقول د/ العودة: «المؤمن لا تفارقه العزة وإن استكبر واستنكف منه المجرمون، وهو واثق بنصر الله لدينه وإن كانت الغلبة في الظاهر لغير المسلمين، ورسول الله ﷺ وإن (صالح المشركين) و(هادنهم) و(لاينهم) لمصلحة وحكمة، فلم تفارقه (العزة) منذ خرج وحتى عاد إلى المدينة: أ- فهو حين خرج أهدى في جُملة هَدْيِهِ جَمَلًا لأبي جهل في أنفه بُرَّةً من فُضَّة يغیظ به المشركين. وفيه استحباب مغايظة أعداء الله مُستدلاً بقوله تعالى: ﴿لِيَغْیِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْفُوتُ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ب - وهو حين بعث عثمان رضي الله عنه إلى قريش كان من جُملة مهامه التي أوصاه بها أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساءً مؤمنات ويُسِّرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله مظهر دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان، وأن الفرج قريب، فأعلمهم عثمان بذلك.

ج - وحين أُشيع أن عثمان رضي الله عنه قُتل دعا المؤمنين معه إلى (البيعة) وكانت (بيعة الرضوان) على الجهاد والصبر وعدم الفرار، بل ورد أنها على الموت، والجمعُ وارد بين هذه العبارات. وكانت هذه البيعة منه ﷺ ومن المؤمنين نُصرة وعزة وانتصاراً لكرامة المسلم المظلوم، وإذلاً لمعاقبة للظالم المعتدي، وقد رضي الله عن البيعة والمبايعين بنص القرآن الكريم. وما أحوجنا في زمننا المعاصر إلى معرفة حق المسلم ونصرته إذا اعتدي عليه.

د - ومن قبل الصلح وبعده لم يفارق رسول الله ﷺ ثقته بنصرة الله لدينه وإظهاره على الدين كله، وتلك مهمة لا بد أن تُستحضر في نفوس المفاوضين والمحاورين؛ فالحوار شيء والثقة بنصر الله شيء آخر، لا تعارض ولا تضاد بينهما.

أجل لقد أنزل الله فيما أنزل في سورة (الفتح): ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ١٨﴾، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض، وفي هذا تقوية لقلوب المؤمنين وبشارة لهم وتثبيت، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن يُنجزه، فلا تظن أن ما وقع من الإغماض والقهر (يوم الحديبية) نصرة لعدوه، ولا تخُل عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق، ووعد أنه يُظهره على كل دين سواه؟ [زاد المعاد ٣/ ٥١٣].

[فقه الحديبية للعودة ٦-٧].

## ١٤ - البشرى بالفتح وفضل الله على رسوله:

يقول صاحب الظلال: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ٣﴾.

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبین، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه، والاستسلام الراضي لإيحائه وإشارته، والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية، والثقة العميقة بالرعاية الحانية.. يرى الرؤيا فيتحرك بوحياها، وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، فيقول ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

ويسأله عمر بن الخطاب ؓ في حمية: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟ فيجيبه ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، ذلك وحين يشاع أن عثمان ؓ قتل يقول ﷺ: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ»، ويدعو الناس إلى البيعة، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا. وكان هذا هو الفتح، إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة:

كان فتحًا في الدعوة: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْلَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ تَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَمَاقُضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْبِكَ السِّتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ».

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالذَّلِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَيْنِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص ؓ.

وكان فتحًا في الأرض: فقد أمن المسلمون شر قريش، فاتجه رسول الله ﷺ إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي - بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة - وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خبير القوة التي تهدد طريق الشام، وقد فتحها الله على المسلمين، وغنموا منها غنائم ضخمة، جعلها الرسول ﷺ فيمن حضر الحديبية دون سواهم.

وكان فتحًا في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها: يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه [سيرة الرسول ﷺ]: صور مقتبسة من القرآن الكريم ٢/ ٣٥٢-٣٥٣: «ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سباه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق، بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى

من أعظمها، فقد اعترفت قريش بالنبي ﷺ والإسلام وقوتها وكيانها، واعتبرت النبي ﷺ والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة؛ ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقُدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر، وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي ﷺ والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه.

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ﷺ فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه:

إذ قوا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوئاً وشأنهم ضآلة.



وإذ صار العرب يفدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية.

وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خير وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام.

وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء.

وإذ فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها، يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه.

وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا». ا.هـ.

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك - إلى جانب هذا كله - فتح آخر، فتح في النفوس والقلوب، تصوره بيعة الرضوان، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضا الذي وصفه القرآن، ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ... إلخ.

فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه، وله دلالاته، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ.

ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة، فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه، فرح بالفتح المبين، وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم، وفرح بالنصر العزيز الكريم، وفرح برضا الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل.

وقال في رواية: «لَقَدْ أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا جَمِيعًا». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٦)].

وفي رواية: «لَقَدْ أَنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾. [البخاري في المغازي (٤١٧٧)، وفي التفسير (٤٨٣٣)، وفي فضائل القرآن (٥٠١٢)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٦٢)].

وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته، فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَقْطَرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!». [مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٢٠)، وورد بروايات أخرى في كتب السنة الأخرى، لكنها متفقة على مقولة النبي ﷺ]. [في ظلال القرآن ٦/٣٣١٦-٣٣١٧].

#### ١٥ - بشارات الحديبية:

يقول د/ العودة: «صدق المؤمنون في الحديبية - مع ربهم - فتوالت عليهم نعمه، وتتابعت عليهم البشائر.

أجل! لقد رضي الله عن المبايعين تحت الشجرة، وأخبر عن إنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، وأنهم أحق الناس بكلمة التقوى، وأنهم أهل لها، غُفِرَ لأهل الحديبية بخبر الذي لا ينطق عن الهوى: «وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَخْمَرِ». [مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٠)].

قيل: إن صاحب الجمل الأحمر - الجدُّ بن قيس، وقيل رجل من بني ضمرة.

وشهد النبي ﷺ بأنهم: «خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ». [البخاري في المغازي (٤١٥٤)].

وبشّرهم بالنجاة من النار: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا».

[مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤٩٦)].

ووعدهم الله مغانم كثيرة يأخذونها، فعبّج لهم منها ما عبّج، وكفّ أيدي المشركين عنهم، فُتِحَتْ خيبر، وخُصِدَتْ شوكة اليهود، وامتدت الدعوة في الجزيرة، وانتشر الإسلام، ووصل صوته عاليًا إلى الأمم والملوك والرؤساء، ثم تحقق الوعد وجاءت قمة البشائر ودخل المسلمون مكة، واطوّفوا - آمنين - في البيت الحرام: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فِجَعَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَافِرُ يَأَيُّهَا ۖ﴾ [الفتح].

نعم لقد كان تأجيل دخولهم مكة لحكمة يعلمها الله «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» [الفتح: ١٨]، فلم يُرد الله أن يدخل المسلمون مكة، وسيوفهم مصلته على رؤوسهم، ولا يريد الله أن يدخلوا مكة وبعضهم يحمل السلاح وبعضهم يطوف.

لا يريد الله - في هذه المرحلة - أن تقع معركة بين المسلمين وأهل مكة، بل اقتضت حكمته سبحانه: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

ودخل المسلمون مكة في (عمرة القضاء) آمنين، وإن رغمت أنوف المشركين، واكتحلت عيونهم وقرّت قلوبهم بالبيت الحرام بعد طول صد وغياب.

وكذلك يفلح الصابرون، ويتنصر الصادقون، وكلما صدق المسلمون مع ربهم هياً لهم من أسباب النصر ما لم يحتسبوا، وأثابهم من الرحمت والبركات فوق ما تصوروا، وفتح لهم من البشائر وأنواع النصر ما به يسرون ويفرحون، كيف لا، وربنا عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويده بركات السماء والأرض، وخزائنه ملأى، وهو ذو الفضل العظيم.

ألا إن الإيذان مفتاح الخيرات والبركات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وبالإيذان يتحقق الأمن والهدى ويسود الإخاء: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فهل يا ترى يبحث المسلمون عن ضالتهم المنشودة، أم تراهم يتخبطون في الظلم والظلمات والضيايع والشتات، وأنى لهم أن ينصروا؟! [فقه الحديبية للعودة ٩].

## ١٦ - المنافقون وصلح الحديبية:

يقول د/ العودة: «هل كان مع رسول الله ﷺ في الحديبية منافقون؟ وماذا عن موقف المنافقين الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ في الحديبية؟

جاء في صحيح مسلم عن جابر ﷺ: «كنا (يوم الحديبية) أربع عشرة مائة، فبايعناه، غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره». [مسلم في الإمارة (١٥٤٣)].

وعن جابر ﷺ: «لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجد رجلاً منا يقال له: الجد بن قيس مختبئاً تحت إبط بعيره». [مسند الحميدي ٢/ ٧٣٥].

وعند ابن إسحاق عن جابر ﷺ قال: «ولم يتخلف عنه ﷺ أحدٌ من المسلمين حضرها (البيعة) إلا الجد بن قيس (أخو بني سلمة)، قال جابر: والله لكانني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس». [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٣٨].

قال الغضبان: وقد أثنى الله - تعالى - على المؤمنين يوم بايعوا، وسجل واقع هذا الصف مخالفةً واحدة للجد بن قيس الذي اختفى هارباً من البيعة، ومختبئاً في ظل بطن ناقته.

[المنهج التربوي للغضبان بتصرف ٢/ ٩٥٣].

قال ابن سعد: «أظهر (الجد بن قيس) الإسلام، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات، وكان منافقاً». [الطبقات ٣/ ١٧٥].

وقال ابن عبد البر (في ترجمة الجد بن قيس): كان ممن يغمص عليه النفاق من أصحاب رسول الله ﷺ، وساق حديث جابر: «بايعنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية على ألا نفر كلنا إلا الجد بن قيس اختبأ تحت بطن ناقته».

ثم قال (ابن عبد البر): «وفي حديث أبي قتادة عنه ما هو أسمى من هذا في الحديبية». ثم قال في آخر ترجمته: «وقد قيل: إنه تاب فحسنت توبته. والله أعلم».

[الاستيعاب - بهامش الإصابة ٢/ ١٩٤، ١٩٥].

وأياً ما كان الأمر، فقد أشارت سورة (الفتح) إلى (تعذيب) المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بعد سياق (فضله) على المؤمنين والمؤمنات، فقال ﷺ: ﴿وَيَذَّبُكَ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنَنْتُ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيضًا حَكِيمًا ٧﴾ [الفتح].

قال القرطبي: ﴿وَيَذَّبُكَ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَنَاتِ﴾ أي بإيصال المموم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين. ثم أورد الرواية التالية: «وقيل: لما جرى صلح الحديبية قال (ابن أبي): أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو؟ فأين فارس والروم؟ فبين الله ﷻ أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم». [الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٦٥].

إلا أن المنافقين شجى في حلوق المسلمين - في كل زمان ومكان - يغيظهم ما يسر المؤمنين، ويسرون لمصاب المسلمين، ويطؤون إذا حزب الأمر، ويفرحون إذا انتصر الأعداء عليهم، قاتل الله المنافقين أتى يؤفكون، ألا فليحذروا، فهم العدو كما أخبر الله، وإذا سر كل أحد بنصر المسلمين على الكافرين بقي المنافقون وحدهم - داخل الصف الإسلامي - قلقين متحسرين: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]. [فقه الحديبية للعودة ١٠-١١].

## ١٧ - نعمة الله على المؤمنين بالفتح وتعذيبه للمنافقين والمشركين:

يقول صاحب الظلال: «إن افتتاح سورة الفتح كان نصيب النبي ﷺ خاصة، ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح، ومس يده لقلوبهم بالسكينة، وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِلَى مَنَاصِعِ إِلَهُهِمْ ١﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ٣﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ٤﴾».

والسكينة لفظ مُعَبَّرٌ مصوّر ذو ظلال، والسكينة حين ينزلها الله في قلب، تكون طمأنينة وراحة، وبقينا وثقة، ووقارًا وثباتًا، واستسلامًا ورضا.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذا الواقعة تحيش بمشاعر شتى، وتنفور بانفعالات متنوعة، كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام، ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام، وبعد إشعار الهدي وتقليده، كان هذا أمرًا شاقًا على نفوسهم ما في ذلك ريب، وقد روي عن عمر ﷺ أنه جاء أبا بكر ﷺ وهو مهتاج، فكان مما قال له: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَأَيَ الْبَيْتِ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قال أبو بكر ﷺ - الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ: بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟ قال عمر ﷺ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ.

فتركه عمر ﷺ إلى النبي ﷺ فقال له فيما قال: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَأَيَ الْبَيْتِ فَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: «أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟»، قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ»، فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب.

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى، من رد من يسلم ويأتي محمدًا بغير إذن وليه، ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم، وفي رد صفة رسول الله ﷺ وقد روي أن عليًا ﷺ أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها، فمحاهها رسول الله ﷺ بنفسه وهو يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ»..

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية، ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع، فلم يكن حينًا على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه، يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق، حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثًا، وهم من هم طاعة لأمر رسول الله ﷺ وامتنالًا، كالذي حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفي، ولم ينحروا ويحلّقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ يفعل هذا بنفسه، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزم القول، وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ!

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة، لا ينوون قتالًا، ولم يستعدوا له نفسيًا ولا عمليًا، ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان ﷺ، وبارسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة، فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم، ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له، وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات، وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها، ومن خلفهم الأعراب والمشركون.



وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ويزدق طعم اللفظ وطعم العبارة، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص، ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم، ولا لجاهلية فيهم، فقد تفضل عليهم بهذه السكينة: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة، فيها الثقة التي لا تقلق، وفيها الرضا المطمئن باليقين.

ومن ثم يلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراداه المؤمنون، فإن الله جنوداً لا تحصى ولا تغلب، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾<sup>(١)</sup>، فهي حكمته وهو علمه، تسير الأمور وفقهما كما يريد.

وعن العلم والحكمة: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾؛ ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً، فهو فوز عظيم! فوز عظيم في حقيقته، وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدراً بتقديره، موزوناً بميزانه، ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم، وكانوا قد تطلّعوا بعدما سمعوا افتتاح السورة، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله، تطلّعوا إلى نصيبهم هم، وسألوا عنه، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضا والفرح واليقين.

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث، وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَيُكَفَّرُ ١ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله، وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين، وفي أنهم جميعاً ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتقع بهم، وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعد لهم من سوء المصير، ذلك أن النفاق صفة مردودة لا تقل عن الشرك سوءاً، بل إنها أخط؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه.

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً، يتوقع منه الخير في السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله، وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويننون عليها أحكامهم، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا، على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدبيره الخفي اللطيف.

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع، وبين حالهم عنده، وما أعد له لهم في النهاية، ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيظًا حَكِيمًا ۝٧﴾. فلا يعيبه من أمرهم شيء، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء، وله جنود السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم». [في ظلال القرآن لقطب ٦/٣٣١٧].

#### ١٨ - كشف وفضح المتخلفين وتهديدهم وبيان حقيقة المعذورين:

يقول صاحب الظلال: «عندما يصل الله ﷻ إلى حقيقة البيعة، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله، ولتوقعهم الشر والضرر للمؤمنين الخارجين، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين.. يلتفت إليهم لينبئ الرسول ﷺ عما سيعتدرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه، وقد هادنته قريش ولم تقاتله، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مهما كانت شروطها - التراجع من قريش، واعتبار محمد ﷺ ندّاً لها تهادنه وتتقي خصومته، ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين، كما ينبئ بما فيه البشري له وللخارجين معه، وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة، ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم، فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية، إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد، فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ، حيث يقسم الله لهم بما يريد، فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِغَيْرِ حِسَابٍ لِّمَنِ بَشَاءٌ وَإِعْدَابٌ مِّنْ بَشَاءٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَمْرِ شَيْدٍ نَقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طَبِعُوا يُوَفِّكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾.

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهو اجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها، ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك.

فالمخلفون من الأعراب - وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة - سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم: ﴿سَخَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾، وليس هذا بعذر، فللناس دائماً أهل وأموال، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها.. وسيقولون: ﴿فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبىء الله رسوله ﷺ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف، ولا يغيره إقدام، وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس وتنصرف في أقدارهم كما تشاء، وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله، والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلوؤ، فالتوقف أو التلوؤ لن يدفع ضرراً، ولا يؤخر نفعاً، وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله ﷻ، ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط، وهو توجيه تربوي في وقته وفي جوه وفي مناسبتة على طريقة القرآن.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجهاً لوجه أمام ما أضمرُوا من نية، وما سترُوا من تقدير، وما ظنُوا بالله من السوء، وقد ظنوا أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة، وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! - يشيرون إلى أحد والأحزاب - ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمائته للصادقين المتجردين من عبادته، كما أنهم -

بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة - لم يقدروا أن الواجب هو الواجب، بغض النظر عن تكاليفه كائنه ما كانت، وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون بدون النظر إلى الريح الظاهري والخسارة الشكلية، فهي واجب مفروض يؤدَّى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا في سواه، وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور، وهو تعبير عجيب موح، فالأرض البور ميتة جرداء، وكذلك قلوبهم، وكذلك هم بكل كيانهم بور، لا حياة ولا خصب ولا إثمار، وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بورًا، ميتًا أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة، الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله، البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة، هكذا يظنون دائمًا بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال، وأن المؤمنين قلة في العدد، أو قلة في العدة، أو قلة في المكان والجاه والمال، هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهلهم أبدًا إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة، ومن ثم يتجنبون المؤمنين حبًا للسلامة، ويتوقعون في كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذونهم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا، ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية، الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية، فيخفض به قومًا ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين!

إن الميزان هو ميزان الإيمان، ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه، ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله ورحمته: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْزِزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾.

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهلبيهم، فما تنفعهم أموالهم وأهلبيهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنها كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين، فإن الله الذي يوعدهم هذا الإبعاد، هو مالك السماوات والأرض وحده، فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء. والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر في القلوب، غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة. ومغفرة الله ورحمته أقرب، فليغتنمها من يريد، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين.

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين، مخالفاً لظن المخلفين، بأسلوب يوحى بأنه قريب: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لِنَأْخُذْهَا دَرُونا نَنْتَعِمَ بِرِيْدُوتٍ أَن يُسَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْشُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْهَمُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۝١٥﴾.

أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر، وقد يكون هذا، ولكن النص يظل له إيحاءة ولو لم يكن نصاً في خيبر، فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير، وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا، فيقولون: ﴿دَرُونا نَنْتَعِمَ بِرِيْدُوتٍ﴾.

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية، إذ كانت في المحرم من سنة سبع، بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية، وأنها كانت وافة الغنائم، وكانت حصون خيبر آخر ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية، وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل.

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغنم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد، ولم أجد في هذا نصاً، ولعلمهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً، فقد جعلها رسول الله ﷺ في أصحاب الحديبية، ولم يأخذ معه أحداً غيرهم.

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم المسيرة القريبة، وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله ﷻ، وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج: ﴿بَلْ نَحْشُدُونَنَا﴾، فتمنعونا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة، ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره، فجزاء المتخلفين الطامعين أن يجرموا، وجزاء الطائعين المتجربين أن يعطوا من فضل الله، وأن يختصوا بالمغنم حين يقدره الله، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد.

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء، يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَدْعُونَ آلَ قَوْمٍ أَوَّلَىٰ بِأَن يَشِيرَ فَعَتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيماً ۝١٦﴾.

وتختلف الأقوال كذلك في من هم القوم أولو البأس الشديد، وهل كانوا على عهد رسول الله ﷺ أم على عهد خلفائه، والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله ﷺ ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة.

والمهم أن نلاحظ طريقة التربية القرآنية، وطريقة علاج النفوس والقلوب، بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية، وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم.

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع، فقد بين الله أصحاب الأعدان الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد، بلا حرج ولا عقاب: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾. فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ.

والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان، هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية، فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه، ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره، ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه، وبين راحة القعود وما وراءه.. ثم يختار!.. (في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢١-٣٣٢٤).

#### ١٩ - الصلح كان وحيًا:

يقول د/ الوكيل: «لقد كانت نصوص المعاهدة موحية بضميم لحق المسلمين، وظهرها قبولها الدينية في دينهم حتى صرح بذلك عمر بن الخطاب ؓ حين قال للرسول ﷺ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟ ويجاول بعض المؤرخين استنباط عبقرية الرسول ﷺ الفذة من صياغة شروط الهدنة مستندين إلى ما أظهرته الأحداث من أن هذه الشروط كانت كلها في مصلحة المسلمين، وكأنهم بذلك يريدون إبراز صفات شخصية في الرسول ﷺ هي التي جعلته زعيمًا يستحق تلك المكانة، ولولاها لكان شخصًا عاديًا لكل الناس الذين عاصروه، وهم بذلك أيضًا يتجاهلون الوحي الذي كان يسدده، وما كان له أن يحمده عنه. وذلكم هو أسلوب كثير من المستشرقين حين يريدون إنكار الوحي، فيسترون ذلك بإبراز عظمة الرسول ﷺ ومكانته الرفيعة بنسبتها إلى صفات شخصية وعبقرية ذاتية.

والحقيقة التي نريد تقريرها هنا أن قبول هذه الاتفاقية برمتها إنما كان بوحي من الله ﷻ، ولم يكن الرسول ﷺ فيها إلا طرفًا موجَّهًا بوحي الله الذي أيده به، ودليلنا على ذلك ما يأتي:

١- أن الرسول ﷺ كان أكثر الناس استشارة لأصحابه، وكان ينزل على رأيهم بعد المداولة والاقتماع، ومن المعلوم أن ذلك كان في الأمور التي ليس فيها وحي ولا نص، فأما إذا كان الوحي والنص فلا مشورة ولا مداولة.

وهنا نرى أن الرسول ﷺ أمر بكتابة المعاهدة دون أن يستشير أصحابه، وفيهم وزيره أبو بكر وعمر، فكيف يقدم على مثل هذا الأمر الخطير من غير مشورة - وقد أمره الله بمشاورة أصحابه - إلا إذا كان الأمر بوحى من الله؟

٢- بعد أن تمت المعاهدة لم يطق عمر رضي الله عنه صبراً على ما فيها من شروط ظاهرها الإجحاف، فذهب إلى الرسول ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يُحْكَمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)].  
وفي رواية: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي». [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].  
وفي رواية: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣١٧، والمغازي للواقدي ٦٠٦/٢].

إن هذه النصوص تدل دلالة قاطعة على أن الرسول ﷺ كان مأموراً، ولم يكن يجتهد لعقله فقط، وإلا فَمَا مَعْنَى: «لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

وليس معنى هذا أننا ننفي عن الرسول ﷺ فطنته الحادة، وبصيرته النافذة، فذلك ما لا يستطيع أحد مهما كان جاحداً إنكاره، بل قد جاء في صحيح مسلم في رواية الصلح ما يثبت حدة ذكائه، ونفاذ بصيرته صراحة، فإنه لما كتب في الشروط أن من جاء من المسلمين إلى قريش لا يردونه عليهم، ومن جاء من قريش إلى المسلمين ردوه عليهم.

وهنا توقف الصحابة رضي الله عنهم وسألوا الرسول: أنكتب هذا؟ قال: نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ قَرْجًا وَنَحْرَجًا. [مسلم في الجهاد (١٧٨٤)].

ففي هذه الرواية دليل واضح على بُعد نظره ﷺ وتوقد ذهنه الذي كان يدرك به ما يخفى على العباقر من أصحابه.

ولإنما أردت أن أوضح أن الرسول ﷺ لم يكن يعتمد على عبقرية فذة، وبصيرة متقدمة فقط، ولكن كان إلى جانب ذلك، الوحي الذي يسدده، وأمر الله الذي لا يستطيع مخالفته.

ونحن لو تتبعنا شروط الاتفاقية بعد ذلك لرأينا أنها شروط مقبولة عقلاً، وعلمنا أن الرسول ﷺ كان يحرص على إبراز شرط الهدنة لأنه الشرط الذي كان يهيمه ويعنيه، حيث سيتمكن المسلمون بموجبه من نشر دعوتهم، وعرضها على الناس وهم آمنون، وشرح حقائق الإسلام التي جهد المشركون في تشويهها، وإبعاد الناس عنها؛ ولهذا كان هذا الشرط أول ما كتب من الشروط ليرز ويتأكد.

وكان هناك الشرط الذي أفلق المسلمين وأزعجهم وهو: من جاء من المسلمين إلى قريش لا يردونه إليهم، ومن جاء إلى المسلمين من قريش ردوه إليهم ولو كان مسلماً، والسبب الواضح الذي من أجله انزعج المسلمون وقلقوا هو عدم المساواة في المعاملة، فالعدالة تقتضي أن يتعامل الطرفان على حد سواء، فإذا كان المسلمون سيردون من يقدم عليهم من قِبَل قريش، فعلى قريش كذلك أن ترد من يقدم عليهم من قِبَل المسلمين، ولكن الشرط كما نرى لم يحقق هذه المساواة فالمسلمون وحدهم مضطرون بحسب الشرط أن يردوا من يأتيهم من قريش.

أدرك المسلمون هذا الغبن في المعاملة فانزعجوا ولم يطمئئوا، ولكن الرسول ﷺ فهم من الشرط فهماً لم يدركه المسلمون، وخفي عليهم مغزاه، حتى سألو الرسول ﷺ: أنكتب هذا؟ قال: نعم. ثم شرح لهم فهمه الخاص لهذا الشرط فقال: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

ومعنى هذا الكلام أن الذي سيذهب من المسلمين إلى الكفار لا يكون إلا رجلاً نكص على عقبيه، وارتكس في الضلال بعد أن ذاق حلاوة الهدى، ومثل هذا لا خير فيه، فذهابه ذهاب شر عن المسلمين؛ لأن وجوده بينهم قد يضر بوحدتهم وتماسكهم، وقد قال - تعالى - في أمثال هذا الصنف: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا لَكُمْ يَغُوثَ كُفْمَ الْفِتْنَةِ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ مُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة]. وأما من جاء إلى المسلمين من المشركين، فإن كان صادقاً في إيمانه فلن يضره فتنة القوم ومحاولة صرفه عن دينه، وسيكون للمسلمين بمثابة العين يتحسس لهم أخبار القوم، ويقف على ما يدبرون للمسلمين من الدسائس والكيد، ولن يتركه الله تحت رحمة هؤلاء الظالمين، بل سيجعل له فرجاً ومخرجاً.

أدرك المسلمون هذا المعنى العميق فهذأت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، ووقفوا على السر الذي جعل رسول الله ﷺ يقبل هذا الشرط الذي حسبه إجحافاً بحق المسلمين.

ولهذا لما نزلت سورة الفتح تؤكد صحة رأي رسول الله ﷺ في المعاهدة وتخبرهم بأنها فتح مبين، دعا رسول الله ﷺ زعيم المعارضة - عمر بن الخطاب - وتلاها عليه، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)]. تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢١٣-٢١٦.

## ٢٠ - ملامح الشخصية الإسلامية:

يقول د/ عشقي: «إن اختلاف الآراء وتنازع المصالح يشآن من عدة تناقضات، هذه التناقضات تتولد من حقائق جغرافية واجتماعية، وقد تتكون بأسباب دينية، وتاريخية، واقتصادية، وسياسية، ونفسية. كل هذه الأسباب تكون اهتماماً عميقاً لدى الإنسان لفهم الطرف الآخر، إما بدوافع الفضول، أو بدوافع المصلحة.



والتفاوض بكل أنواعه، يعتبر من أهم الوسائل للتخفيف من حدة التفاعلات، والتهدئة للكثير من الصراعات، فتنشأ من جراء ذلك علاقة تفضي إلى حالة من حالات السلام. كان الصراع بين مكة والمدينة، صراعاً بين شخصيات وليس صداماً بين أشخاص، فهو في حقيقته صراع بين شخصيتين، الشخصية القومية في مكة المكرمة، والشخصية الإسلامية في المدينة المنورة. ولأن الشخصية القومية: هي مجموع القيم والأنماط النفسية والاجتماعية والفكرية التي تتميز بها الأمة عن غيرها من الأمم.

فإن الإسلام جاء بشخصية تمتلك مفاهيم مغايرة، هذه المفاهيم لا تهدف إلى تدمير الشخصيات القومية، بل تعمل على تقويمها وتصويبها وتصحيح مسيرتها، فتضع لها منهجاً سائماً ينقلها من رق العبودية إلى حرية العبادة، وهذه الحرية تتجلى في الوجدانية.

والشخصية الإسلامية: من شأنها أن تحافظ على الشخصية القومية، ثم تربطها بباقي الشخصيات القومية المنتشرة على مساحة الكرة الأرضية بروابط إسلامية، فتوحد في إطار الشخصية الأُمّية الإسلامية التي توجهها إلى أهداف عامة وخاصة.

فالمفاوضات في الحديبية لم تنشأ بغرض التعارف بين الشخصيات القومية، فالنبي ﷺ وإن دعا إلى شخصية أُمّية إسلامية، إلا أنه كان يعرف الشخصية العربية لكفار قريش، ويعرف كافة المميزات التي تتمتع بها، والعيوب التي تعاني منها.

كان ﷺ يريد أن يُسبغ على الشخصية القومية روحاً دينية، تمكّنها من التسربل في الإطار العام للشخصية الإسلامية.

لقد عاد العالم اليوم إلى منهج الشخصيات القومية التي كانت تسود ذلك العصر، فعادت بالتالي إلى جاهليتها، فالشخصية العربية، تواجه في هذا العصر تحوُّلاً جديداً تستهدفه المفاوضات بين العرب وإسرائيل.

فهي مفاوضات تسعى إلى إذابة الشخصية العربية في شخصية جديدة هي الشخصية الشرق أوسطية، وإعطاء الشخصية الإسرائيلية ذات الحضارة الغربية والمسالك العلمانية، دوراً قيادياً يفرغ الشخصيات القومية في الشرق الأوسط من مضامينها الدينية.

إن حوار الشخصيات القومية له أثر على مجرى المفاوضات؛ لأن الشخصية القومية لها تأثير نسبي يفرض نفسه على مجرى المفاوضات، ولها ثبات جزئي من السمات النفسية والحضارية، كما أن للشخصية القومية ديناميكية تتأثر بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية.

وبما أن المفاوضات هي عبارة عن اتصال مباشر، واقتناع وإدراك للعناصر التي يجري التفاوض عليها، فإن العمليات الإدراكية المتأثرة بالمكونات الثقافية للأمة، تبقى واضحة تفرض نفسها على السلوك التفاوضي، وهذا ما لوحظ في مفاوضات الحديبية التي جرت بين الوفد القرشي والنبى ﷺ.

**أثر الشخصية القومية على المفاوضات:** كان الوفد القرشي بشخصيته الجاهلية، يريد فرض الإرادة من خلال المفاوضات على النبى ﷺ، فيعيده إلى المدينة دون عُمره، ودون الدخول إلى مكة. والنبى ﷺ من منطلقات إيمانية، يرغب في تحقيق الهدف الوجداني من خلال المفاوضات وهو جمع الناس على كلمة لا إله إلا الله.

كما كان ﷺ، يرغب التأكيد على تحييد الجانب القرشي من خلال المعاهدة؛ ليتفرغ إلى تصفية الجيوب اليهودية في الجبهة الشمالية، والمتركة في كل من خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء. فالمحلل لصلح الحديبية يستطيع أن يلاحظ الفرق بين الشخصية الإسلامية والشخصية القومية في المفاوضات، فيلاحظ أن الشخصية القومية تعتمد على المظاهر المشعة بالإعلام، والادعاء الكذاب بالتصارات الزائفة، والسعي وراء المكاسب الواهية.

بينما يجد المحلل لهذه التجربة التفاوضية الشخصية الإسلامية تتفاوض في الحديبية، من منطلقات إستراتيجية وأهداف دينية ثابتة لا تتغير، ولا تخضعها للحلول والتنازلات.

استطاع النبى ﷺ رغم إعطائه قريشاً ما شاءت، أن يحتفظ هو بما يريد، كان ﷺ يريد تحييد قريش السياسي، ويأمن غدر الجبهة الجنوبية، ليتفرغ إلى الجبهتين الشمالية والشرقية، لكنه استطاع التعامل مع الجبهة الشرقية بالهجمات المتكررة، والتشتيت لتجمعاتهم قبل وقوعها.

كان رسول الله ﷺ مدركاً أن انتصاراته في الشمال سوف تؤدي إلى تحلل الجبهة الجنوبية وتداعياها، بسبب تسرب العناصر القومية إلى المعسكر الإسلامي، وهي عناصر تدفعها نوازع قومية وقناعات فكرية، وضمانات لمصالحها، أو الحصول على مصالح بديلة لا تقل شأنًا عن المصالح التي كانت تتحقق لها من خلال الممارسات الشركية والتنازلات الأخلاقية.

لقد أفصح رسول الله ﷺ عن خطته الإستراتيجية حين قال لبديل بن ورقاء الذي جاء للتخفيف من حدة الصراع بينه وبين قريش، قال له ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا بِهِمْ قُوَّةً، فَمَاذَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأُ أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعسقي ٣٢٣-٣٢٧].

## ٢١ - صلح الحديبية الفتح المبين:

يقول الشيخ أبو زهرة: «عند قول النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية نزلت سورة الفتح، فقد قال تعالى في ذلك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ① لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ②».

فسمى الله تعالى ذلك الصلح، وما وفق الله تعالى النبي ﷺ للقيام، فتحاً وليس دنية في الدين كما خطر على عقول بعض المتقين من كبار المؤمنين، وكان فتحاً لأنه أنهى القتال بين النبي ﷺ وبين قريش، وذلك في ذاته فتح، ولأنه فتح قلوباً كانت مغلقة وعقولاً كانت عليها غشاوة حتى أنه أحصى عدد المؤمنين قبل الحديبية في مدى تسع عشرة سنة، ومن أسلم في سنتين بعد الحديبية، فكان مثل الأول أو يزيد؛ لذلك كله كانت الحديبية فتحاً، ولم تكن دنية، وفوق ذلك كانت تمهيداً لدخول مكة المكرمة بالفتح الأعظم الذي لم يمر فيه دم، ولم يكن قتال إلا في بعض المتمردين، وكانوا قليلين.

وكان فتحاً؛ لأن المؤمنين استطاعوا - تنفيذاً لأحكام الصلح - أن يدخلوا معتمرين، ثم متحللين محلقين ومقصرين.

وغفران ذنب الرسول ﷺ ليس على حقيقته معنى الغفران، إنما هو متضمن الرضا والقبول لكل ما يفعله الرسول ﷺ، سواء أكان في الماضي أم الحاضر أم القابل، فكل ما يفعله الرسول ﷺ مغفور، وتسميته ذنباً من قبل المجاز، فهو ليس إلا خطأ؛ لأن ما يعتب به عليه خطأ، كما أخطأ في الأسرى، وكما كان يقع منه، ليكون أسوة للناس، فيقروا بأن الإنسان إذا خضع لفكره وعقله ربما يخطئ ولو كان نبياً مرسلًا، ولو كان خاتم النبيين محمد ﷺ، والصراط المستقيم الذي هداه الله تعالى هو طريق الدعوة فقد صار مُعَبَّدًا لا عوج فيه بعد هذا الفتح المبين، وإنه كان من الفتح المبين تضافر أهل الإيمان بالبيعة، فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيْرُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ③ [الفتح].

ولقد كان من الفتح المبين أن نُقِيت الجماعة الإسلامية ممن لم تستقم قلوبهم وتكون خالصة للحق لا تبتغي سواه؛ لذلك لم يخرج مع النبي ﷺ في الحديبية إلا من أراد الله ﷻ وأراد الحج، لا المغانم وما وراءها؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا دَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْشَوْنَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ④ [الفتح].

ولقد أشار ﷻ إلى الذين يستقبلهم المسلمون من أولي البأس والشدة، ولقد كان الذين خرجوا للاعتمار تعرضوا لاحتمال الحرب فتضافروا وبايعوا رسول الله ﷺ على أن يبيعوا أنفسهم لله تعالى، ولا

يفروا، وقال ﷺ ما تلونا من قبل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ وَمَعَانِهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُوهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ [الفتح].

وإنه كانت الحديبية التي سماها الله تعالى الفتح المين سبيلاً لأن يتجه النبي ﷺ إلى اليهود وينفرد لهم، ثم بعد ذلك يكون الاتجاه إلى الرومان، كما قال الله ﷻ: ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ يَقْنِطُوكُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

وأولئك هم الرومان، والدخول إلى أرض الشام.

وإن الغاية توجب تحمل الوسائل، ولو كانت قاسية على النفس، وما كان للنبي ﷺ أن يتجه إلى اليهود، وخضد شوكتهم في البلاد وقد اتخذوها للأذى والإيقاع ولم ينفع عهد ولا ذمة، ما كان أن يتجه إلى أولئك، وشوكة قريش تجرح من ورائه، فلا بد أن يؤمن ظهره بعهد، ولو كان فيه ما توهمه بعض المؤمنين غبنًا فاحشًا، ولكنه الطريق لتوجيه الدعوة الإسلامية إلى مواطنها.

وإن ذلك تصديق رؤيا النبي ﷺ التي رآها، بأنه سيدخل المسجد الحرام، ولكنها لا تتحقق واقعة إلا في عام قابل، وكان ذلك الصلح، فقد قال ﷻ: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ لِتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ [الفتح].

وهكذا كان ذلك الصلح فتحاً وطريقاً للفتح، ودخل به الناس في دين الله أفواجاً، أفواجاً. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: قَمَا فَتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَآمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّتِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي الْفِ وَأَرْبَعَاءَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِينَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

ونضيف، وقضى النبي ﷺ على نفوذ اليهود قضاء كاملاً، واتجه إلى خارج الجزيرة العربية ينشر

الإسلام فيها». [خاتم النبیین ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٦٠-٨٦٢].

ويقول أ/ الشامي: «كانت الحديبية فتحًا؛ لأنها كانت مبدأ الفتح المبين؛ لما ترتب على الصلح من وضع الحرب وشيوع الأمن، حيث توفر للناس التعرف على الإسلام، وأُتيح للمسلمين عرض دعوتهم فكريًا وسلوكيًا، فدخل في دين الله الكثير ممن كان توقف، ووصل إلى المدينة من لم يكن قادرًا قبل ذلك على الوصول إليها، وكان فتح مكة نتيجة من نتائجه.

وعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ. [البخاري في المغازي (٤١٥٠)].

وجاء في حديث مسلم: «... فَتَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». [متفق عليه (خ ٣١٨٢، م ١٧٨٥)].

إن الذين دخلوا في الإسلام خلال سستي الصلح يعدل أو يزيد على أولئك الذين دخلوا من قبل، وبهذا، كانت الحديبية فتحًا». [من معين السيرة للشامي ٣٦٩-٣٧٠].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان صلح الحديبية فتحًا مبينًا كما وصفه الله ﷻ: ﴿وَأَفْتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح].

نعم إنه فتح مبين أنتج فتحًا قريبًا هو خير، وأنتج الفتح الأعظم هو فتح مكة، إن القارئ الكريم يلاحظ أن الصلح بينوده رباني، أمر الله به رسوله محمدًا ﷺ.  
لم يكن باجتهاد من رسول الله ﷺ ولا من أصحابه رضي الله عنهم، تأمل قوله: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

لقد كانت هذه البنود في ظاهرها، وكما ينظر إليها الإنسان بعقله القاصر أنها في مصلحة المشركين، ولا تحقق مصلحة للمسلمين، ولكنها في حقيقتها وآثارها كانت في مصلحة المسلمين.

نعم كانت البنود كلها بلا استثناء في مصلحة المسلمين؛ ذلك لأن الاتفاقية بينودها أمر رباني، والناس بطبيعتهم ينظرون في الغالب إلى الأمور حسب ما يحسونه ويشاهدونه، ويستتجونه من عالم الحس والشهادة ما يرون أنه يحقق المصلحة، أما القرار الرباني فهو يتعدى عالم الشهادة إلى عالم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، بيده مقاليد الأمور كلها.

إن أفكار البشر وتخطيطات البشر - تكون محدودة وقاصرة وعاجزة عن إدراك كثير من الحقائق والوصول إليها، أما التخطيط الرباني فإنه يتصف بالكمال.

إن اتفاقية الحديبية بأحداثها ودروسها تبقى معينًا ثرا لا ينضب لكل دارس؛ يستقري أحداثها ويقف عند حكمها وأحكامها ودروسها وعبرها». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١١٨-١١٩].

ويقول د/ هيكل: «وإنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحي على النبي ﷺ بسورة الفتح، فتلا النبي ﷺ على أصحابه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١] [الفتح] إلى آخر السورة.

لم يبق إذاً ريب في أن عهد الحديبية فتح مبين، وهو قد كان كذلك، وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبُعد نظر كان لهما أكبر الأثر في مستقبل الإسلام وفي مستقبل العرب كله، فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بمحمد ﷺ لا على أنه ثائر بها خارج عليها، ولكن على أنه زئذها وعِذُّها: فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها.

ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت، وإقامة شعائر الحج، اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة.

وهذنة الستين، أو السنوات العشر، قد جعلت المسلمون يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشاراً، أفليست قريش ألد أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بإذعان لما لم تكن تدعن له من قبل قط! وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع أضْعَافاً من انتشاره من قبل، كان الذين جاؤوا إلى الحديبية ألفاً وأربعمائة، فلما كان بعد عامين اثنين وجاء محمد لفتح مكة جاء في عشرة آلاف.

وأشد ما اعترض عليه من ساورتهم الشوك في حكمة عهد الحديبية ما نص عليه العهد من أن من أتى محمداً ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم ترده على محمد ﷺ، وكان رأي محمد ﷺ في هذا أن من ارتد عن الإسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين، وأن من أسلم وحاول اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجاً.

وقد صدقت الحادثات رأي محمد ﷺ في ذلك بأسرع ما كان يظن أصحابه، ودلت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب، ومهد لما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء محمد ﷺ مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية بدعوهم إلى الإسلام». [حياة محمد ﷺ هيكل ٣٨٣-٣٨٤].

ويقول د/ هيكل أيضاً: «اطمأنت العلاقات بعد الحديبية بين قريش ومحمد ﷺ أعظم الطمأنينة، وأمن كل جانب صاحبه، واتجهت قريش كلها إلى التوسع في تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها ما فقد أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سدت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرضة للضياع. أما محمد فاتجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، ووجّه نظره إلى تمهيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين في شبه الجزيرة، وهذا وذاك هو ما صنع بإرسال الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، وإجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلاء تاماً بعد غزوة خيبر».

[حياة محمد ﷺ هيكل ٣٨٦].

ويقول ابن القيم: «فَمِنْهَا: أَنَّمَا كَانَتْ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيِ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَجُنْدَهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ بِهِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَكَانَتْ هَذِهِ الْهُدْنَةُ بَابًا لَهُ، وَمِفْتَاحًا، وَمُؤْذِنًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذِهِ عَادَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ الَّتِي يَقْضِيهَا قَدْرًا وَسُرْعًا، أَنْ يُوْطَىٰ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا مُقَدِّمَاتٍ وَتَوَطَّاتٍ، تُؤْذِنُ بِهَا، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذِهِ الْهُدْنَةُ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْفُتُوحِ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْكَفَّارِ، وَبَادَوْهُمْ وَهُمْ بِالْدَّعْوَةِ وَأَسْمَعُوهُمْ الْقُرْآنَ وَنَاطَرُوهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ جَهْرَةً آمِنِينَ، وَظَهَرَ مَنْ كَانَ مُحْتَفِيًا بِالْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ فِيهِ فِي مِدَّةِ الْهُدْنَةِ مَنْ سَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلَ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ فَتْحًا مُبِينًا.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءً عَظِيمًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مَا قَضَى اللَّهُ لَهُ بِالْحَدِيثِيَّةِ.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْفَتْحَ - فِي اللَّغَةِ - فَتْحُ الْمَغْلَقِ، وَالصُّلْحُ الَّذِي حَصَلَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحَدِيثِيَّةِ كَانَ مَسْدُودًا مُغْلَقًا حَتَّى فَتَحَهُ اللَّهُ، وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ فَتْحِهِ صَدُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْبَيْتِ، وَكَانَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ضِيًّا وَهَضْمًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْبَاطِنِ عِزًّا وَفَتْحًا وَنَصْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْفَتْحِ الْعَظِيمِ، وَالْعِزِّ، وَالنَّصْرِ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ رَفِيقٍ، وَكَانَ يُعْطِي الْمُشْرِكِينَ كُلَّ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الشُّرُوطِ، الَّتِي لَمْ يَحْتَمِلْهَا أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ وَرُؤُوسِهِمْ، وَهُوَ ﷺ يَعْلَمُ مَا فِي ضَمْنِ هَذَا الْمَكْرُوهِ مِنْ مَحْبُوبٍ:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْعًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَرُبَّمَا كَانَ مَكْرُوهَ النَّفُوسِ إِلَى مَحْبُوبٍ سَبَبًا مَا مِثْلُهُ سَبَبٌ

فَكَانَ يَدْخُلُ عَلَى تِلْكَ الشُّرُوطِ دُخُولٌ وَاثِقٌ يَنْصُرِ اللَّهُ لَهُ وَتَأْيِيدُهُ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُ، وَأَنَّ تِلْكَ الشُّرُوطَ وَاحْتِمَالُهَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرَةِ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْجُنْدِ الَّذِي أَقَامَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَنَصَبُوهُ لِحَرْبِهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَدَلُّوا مِنْ حَيْثُ طَلَبُوا الْعِزَّ، وَقَهَرُوا مِنْ حَيْثُ أَظْهَرُوا الْقُدْرَةَ وَالْفَخْرَ وَالْغَلْبَةَ، وَعَزَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِ مِنْ حَيْثُ انْكَسَرُوا لِلَّهِ، وَاحْتَمَلُوا الضَّيْمَ لَهُ وَفِيهِ، فَدَارَ الدَّوْرُ، وَانْعَكَسَ الْأَمْرُ، وَانْقَلَبَ الْعِزُّ بِالْبَاطِلِ دُلًّا بِحَقِّ، وَانْقَلَبَتِ الْكُسْرَىٰ لِلَّهِ عِزًّا بِاللَّهِ، وَظَهَرَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ وَآيَاتُهُ، وَتَصَدَّقَ وَعْدُهُ، وَنُصِرَ رَسُولُهُ عَلَى أَمِّ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلَهَا الَّتِي لَا أَفْرَاحَ لِلْعُقُولِ وَرَاءَهَا». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٩-٣١٠].

٢٢ - عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً:

يقول أ/ دويدار: «لم يقف المسلمون من رسول الله ﷺ موقفاً قط كان أشبه بموقفهم منه في صلح الحديبية، ولم يعارضوا شيئاً من أعماله ﷺ قط كما عارضوا ذلك الصلح، ولم يقف رسول الله ﷺ منهم موقفاً قط كان أغبط لهم وأشد عليهم من ذلك الموقف، فقد أمضى الصلح على رغبتهم، وعدل عن مشاورتهم في ذلك الأمر الخطير، ولم يكن له في مثل ذلك سابقة، وقابل تشدد قريش وعنادها بمتهى

التساهل والملاينة، ورد أبا جندل عليه السلام إلى الفتنة والعذاب، ولم يكن عهد الصلح قد كُتب بعد، فشعر المسلمون في ذلك اليوم بكل معاني الغبن والمهانة، وفارت نفوسهم بكل ما يحسونه من عزة الإيمان وقوة الاعتصام بالحق، حتى ذهب عمر بن الخطاب عليه السلام يجادل رسول الله ﷺ في ثورة بادية وغيظ مكظوم، ويسأل في دهشة عن السبب الذي دعا رسول الله ﷺ إلى قبول هذه المهانة، فيجيبه رسول الله ﷺ في اطمئنان الواثق وثقة المطمئن: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

وهنا محور الارتكاز في القضية كلها، فقد كان رسول الله ﷺ مأمورًا بأن يفعل ما فعل، فلم يكن له أن يخالف أمر ربه، وهو الذي أيده بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، ولم يكن له أن يشاور أصحابه أو يستجيب لعواطفهم وقد صدر الأمر إليه من العليم الحكيم.

ولقد أحس ﷺ ذلك منذ بركت به ناقته عند مهبط الحديبية وقال أصحابه: خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، فَقَالَ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ومنذ هذه اللحظة أعاد تعظيم حرمة الله تعالى، وأعلن هذه العاطفة الكريمة صريحة واضحة حين قال: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

فلما بدا له من قريش رغبة في الصلح لم يتردد في قبولها، وجعل همه أن يصل إلى هذا الهدف وإن مشى له على الشوك، وكان الهدف في نظره أسمى من أن يهتم في سبيله بالصور والأشكال، وأعلى من أن يضع بسبب كلمة نابية أو مظهر جاف، ومن أجل ذلك أعرض عن كثير من جهالات قريش، وتسامح مع رسوله غاية التسامح، وتقبل بصدر رحب كل ما بدا منه من صلابة وعناد، ولم يلق بالآقط إلى ما كان من أصحابه من حمية وغضب، ومضى في القضية يعالجها بحكمته وسياسته، حتى انتهت إلى نهايتها التي كان يري جوها ويرجوها للخير للإسلام والمسلمين؛ وكأنما كان ﷺ ينظر بعين الغيب إلى ما وراء هذا الصلح من خير كثير.

ولقد أتى هذا الصلح ثمراته بأسرع مما كان ينتظر المسلمون، وبأعجب مما كانوا يتصورون، وكانت ثمراته طيبة مباركة حتى سماه الله تبارك وتعالى: ﴿فَتْحًا مَّيْمَنًا﴾ (١)، وكأنما كان بابًا يقف وراءه الخير سدًا يحبس خلفه الفيضان، فلما انفتح تدفق الخير تدفقًا وانساب انسيابًا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مَّيْمَنًا﴾ (٢)، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٣)، ﴿وَنُصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ (٤)، ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَفَانًا كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٥)، وأخرى لم تعدروا عليها فداها الله بها وكان الله على كل شيء قديرًا (٦) [الفتح].



وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين وقريش، وكانت قريش هي العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره، وكانت عداوتها له أصل البلاء ومنع الشر، وكان العرب واليهود يسرون على منهاجها في مناوأة الإسلام وعداوتها، وكأنها كانت هي الجذوة التي تشعل النار في كل ما حولها، فلما تم الصلح بينها وبين المسلمين خمدت هذه الجذوة، فخمد كل ما حولها من اللهب، وانطفأ كل ما فوقها من الشر..

لقد أخذت قريش منذ قام النبي ﷺ بدعوته تناصبه العداوة وتقيم في طريقه العقبات، وتصفه بالسحر تارة، وبالكهانة وبالجنون تارة، وبالكذب تارة، وتحذّر العرب في المواسم والأسواق من شرّه وسحره ليقاطعوه، وتحصره وآله في الشعب حتى يكادوا يهلكون جوعاً، وتصب على أصحابه ألوان العذاب حتى تخرجهم من ديارهم وأموالهم، وتتأمر على قتله حتى يفر منها مهاجراً إلى المدينة، ثم تتعقبه هناك في مهاجره فتغزوه مرة، وتتأمر مع اليهود عليه فيحاولون اغتياله، ويجمعون له الأحزاب ويؤلبون عليه القبائل... وهكذا وهكذا مما جعل حياته وحياة أصحابه جهاداً دائماً وكفاحاً مريئاً.

ثم ها هي ذي قريش بعد كبريائها وعنادها، وبعد جحودها العاتي وعدائها المر، ترغب الآن في مهادنته وسلمه، وتعترف به بعد أن أنكرته، وتقفه منها موقف النظير من النظير، وترسل إليه رسوله ليفاوضه في أمر الصلح، فأى فرصة أحسن من هذه يمكن أن ينتهزها رسول الله ﷺ؛ ليفسح الطريق أمام دعوة الإسلام التي ظل حياته يجاهد في سبيلها، والتي رصدت لها قريش كل مَرَصَد ووقفت لها بكل سبيل؟ لقد كانت فرصة ينبغي ألا تضيع، وألا يحول دونها شيء من المظاهر التي لا قيمة لها ولا غناء فيها، ولقد انتهزها رسول الله ﷺ فأمضى الصلح بينه وبين قريش، ولم يعبأ بما هنالك من غضب الأصحاب وجهالة الأعداء، فضرب بذلك أروع الأمثال في الحكمة والسياسة، وقوة البصر بالأمور ودقة النظر في العواقب.

**أصبح المسلمون قادرين على أن يتصلوا بالناس في ديارهم ليشرحوا لهم مبادئ الدعوة:**

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن انفسح أمام المسلمين مجال العمل، ومُهد للدعوة طريقها لكي تصل إلى القلوب، فبعد أن كان المسلمون محصورين في المدينة، منقطعين عن العرب في البادية والحاضرة، صار من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل في منازلها، وأن يختلطوا بالناس في ديارهم، فيشرحوا لهم مبادئ وحقيقة دعوتهم، ويطلعوهم على ما في هذه الدعوة من مبادئ سامية وأخلاق عالية، ومثل كريمة وأهداف عظيمة، فيأخذ الناس - بما يرون من أعمال المسلمين وأحوالهم، وبما يسمعون ويشهدون من سيرة الرسول ﷺ بينهم، وعظيم أخلاقه فيهم - يقبلون على الإسلام ويسارعون إلى اعتناقه، ففسح الإسلام في كثير من القبائل، وآمن به كثير من الناس، وأخذ محيطه يتسع حتى شمل مكة

نفسها، وجعل عدد المسلمين يزداد حتى صار أضعافاً مضاعفة، ولم يمض عامان بعد الحديبية حتى دخل رسول الله ﷺ مكة في عشرة آلاف، وكان جيشه يوم الحديبية لا يزيد على ألف وستائة.

وكما أخذ رسول الله ﷺ يعمل على نشر الإسلام في بلاد العرب، أخذ يعمل على نشره في الممالك والأقطار التي تحيط بها، فكتب إلى ملوكها وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رجالاً يعرفهم بحسن الأداء وقوة البلاغ، فبعث بكل كتاب رجلاً إلى ملك من الملوك، ومع أن أكثر هؤلاء الملوك والأمراء لم يؤمنوا، ولم يُحسن بعضهم تلقّي كتاب النبي ﷺ ولم يكرم وفادة رسوله، فإن صوت الإسلام دوى في هذه الأقطار، وظل صداه يرن في أرجائها حتى فتحها الله على المسلمين، ودان أهلها بالإسلام بعد زمن قليل لا يزيد على ثلاثين عاماً.

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن ألقى النبي ﷺ عن كاهله عبء التفكير في قريش، وأخذ يواجه كل قوته إلى اليهود، وكانوا هم العدو الأكبر بعد قريش، وكانوا لا يزالون يحاولون بوسائلهم الماكرة، ويعملون بأساليبهم الخبيثة؛ ليزعزعا قوة الإسلام ويقوضوا أركانه، حتى لا تقوم له دولة، أو يكون لأهله صولة، وكان اعتمادهم فيما يريدون من ذلك على قريش أولاً، وعلى من حولهم من قبائل العرب ثانياً.

فلما وقع الصلح بين المسلمين وقريش، وكان من نتائجه ما كان من هذه الهدنة، ومن جنوح القبائل بعدها إلى السلم، صار اليهود في شبه عزلة عن العرب، وضائق عليهم الدائرة فانحصروا في محيط ضيق، وتهيأت بذلك الفرصة للمسلمين للقضاء على هذا العدو الغادر، الذي لا يؤمن شره ولا يُرتجى خيره، وكان ما كان بعد ذلك من وقائع خيبر وفدك وتيما، مما أعز الله به الإسلام وأذل أعداءه.

اعترفت قريش بحق المؤمنين في زيارة البيت وأمن المستضعفون بمكة على أنفسهم:

وكان من ثمرات هذا الصلح أن اعترفت قريش بحق المسلمين في زيارة البيت، وأن تم ذلك دون قتال، وكان ذلك فوزاً عظيماً للمسلمين في المدينة، وخيراً وبركة على المستضعفين في مكة، فقد كان في مكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا يعرفهم رسول الله ﷺ ولا أصحابه ﷺ، وكانوا من المستضعفين الذين لا يستطيعون الجهر بإيمانهم، ولا يجدون السبيل إلى الفرار بدينهم، فلو كان القتال نشب بين الفريقين لذهب ضحيته عدد من هؤلاء المستضعفين، ولقتل المؤمنون إخوانهم وهم لا يعلمون بأمرهم، فيكون في ذلك ما يكون من الخسارة عليهم، ومن المعرة لهم، ومن التحرج والندم على ما كان منهم، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى متمناً على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ١١﴾ هُمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَ تَفْعَلُوهُمْ أَنْ تَطْغَوْهُمْ فَنَقِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ

اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ. مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيمَةً حِيَةً أَلْجِهِيَةً فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحِضِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٧﴾ [الفتح].

قريش تستغيث برسول الله ﷺ؛ وكان الشرط الذي تأمل له المسلمون غاية التألم، وتمسك به المشركون غاية التمسك، فرجًا ومخرجًا للمستضعفين، ونكدًا وخسارة على المشركين، حتى صاروا هم الذين يسعون إلى إلغائه، ويعلمون نزولهم عنه ولم يكن قد مضى عليه عام بعد.

حكمة الرسول ﷺ وحسن نظره في الأمور: وهكذا جعلت الأيام كلها مرت، تبين بُعد نظر الرسول ﷺ، وحسن سياسته وصواب رأيه، وتقنع أصحابه بأنهم كانوا متعجلين حين كرهوا ذلك الصلح الذي كان يُمنًا وبركة على الإسلام والمسلمين، وتظهر للذين يرموا به واستغفلوا شروطه «أن النبي ﷺ كان أصح منهم رأيًا وأبعد مدى، وأشد يقينًا بأن الله لن يضيعه ولن يخذله، وأن ما رآه هو الخير الكثير والفوز العظيم» [لواء الإسلام - أ/ محمد البنا]. [صور من حياة الرسول ﷺ للدويدار ٤٦٦-٤٧٢].

### ٢٣ - زِيَادَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِدْعَانِ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: مَا سَبَّهَ سُبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِدْعَانِ، وَالْإِنْقِيَادِ عَلَى مَا أَحْبَبُوا وَكَرَهُوا، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَتَصْدِيقِ مَوْعُودِهِ، وَانْتِظَارِ مَا وَعَدُوا بِهِ، وَشُهُودِ مَنَةِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي قُلُوبِهِمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي تَزْعُغُهَا الْجِبَالُ، فَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِ مَا أَطْمَأَنَّتَ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَقَوِيَتْ بِهِ نَفْسُهُمْ، وَازْدَادُوا بِهِ إِيْمَانًا. وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ هَذَا الْحُكْمَ الَّذِي حَكَمَ بِهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ سَبَبًا لِمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ لِرَسُولِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَلِإِتِّمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا يَتَّبِعُ الصُّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَنَصْرِهِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ، وَرِضَاهُ بِهِ، وَدُخُولِهِ تَحْتَهُ، وَانْشِرَاحَ صَدْرِهِ بِهِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الضَّمِيمِ، وَإِعْطَاءَهُ مَا سَأَلُوهُ، كَانَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي نَالَ بِهَا الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَزَاءً وَغَايَةً، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى فِعْلِ قَامٍ بِالرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ حُكْمِهِ تَعَالَى وَفَتْحِهِ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ وَصَفَ ﷺ النَّصْرَ بِأَنَّهُ عَزِيزٌ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنْزَالَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ الَّذِي اضْطَرَبَتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، وَقَلَقَتْ أَشَدَّ الْقَلَقِ، فَهِيَ أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إِلَى السَّكِينَةِ، فَازْدَادُوا بِهَا إِيْمَانًا إِلَى إِيْمَانِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ يَبْعَثُهُمْ لِرَسُولِهِ، وَأَكَّدَهَا بِكُونِهَا بَيِّنَةً لَهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ يَدَهُ تَعَالَى كَانَتْ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، إِذْ كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَذَلِكَ، وَهُوَ رَسُولُهُ وَبَيِّنُهُ، فَالْعَقْدُ مَعَهُ عَقْدٌ مَعَ مَرْسِلِهِ، وَيَبْعَثُهُ

بَيْعَتُهُ، فَمَنْ بَايَعَهُ فَكَانَتْ بَايَعِ اللَّهِ، وَبَدَّ اللَّهُ فَوْقَ يَدِهِ، وَإِذَا كَانَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>، فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبْلَهُ فَكَانَتْ بَايَعِ اللَّهِ، وَقَبْلَ يَمِينِهِ، فَيَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَىٰ بِهَذَا مِنَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ نَاكِثَ هَذِهِ الْبَيْعَةِ إِنَّمَا يَعُودُ نَكْثُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَنَّ لِلْمُوفِيِّ بِهَا أَجْرًا عَظِيمًا، فَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَقَدْ بَايَعَ اللَّهَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ بَيْعَةً عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَحَقُوقِهِ، فَكَانَتْ وَمُوفٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَظَنَّهُمْ أَسْوَأَ الظَّنِّ بِاللَّهِ: أَنَّهُ يَخْذُلُ رَسُولَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، وَجُنْدَهُ، وَيُظْفِرُ بِهِمْ عَدُوَّهُمْ، فَلَنْ يَنْقَلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ جَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَلِيْقُ بِهِ، وَجَهْلِهِمْ بِرَسُولِهِ وَمَا هُوَ أَهْلٌ أَنْ يَعَامِلَهُ بِهِ رَبُّهُ وَمَوْلَاهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ رِضَا عَنْ الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِهِمْ تَحْتَ الْبَيْعَةِ لِرَسُولِهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ عَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ حِينَئِذٍ مِنَ الصَّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَكَمَالِ الْإِنْقِيَادِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِيثارِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ وَالطَّمَأْنِينَ وَالرِّضَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَثَابَهُمْ عَلَى الرِّضَا بِحُكْمِهِ، وَالصَّبْرِ لِأَمْرِهِ فَتَحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ أَوَّلُ الْفَتْحِ وَالْمَغَانِمِ فَتْحَ خَيْبَرَ وَمَغَانِمَهَا، ثُمَّ اسْتَمَرَّتِ الْفَتْوحُ وَالْمَغَانِمُ إِلَىٰ انْقِضَاءِ الدَّهْرِ.

[زاد المعاد ٣/ ٣١١-٣١٢].

## ٢٤ - مَعْنَى فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ:

يقول ابن القيم: «وَوَعَدَهُمْ سُبْحَانَهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَجَلَ لَهُمْ هَذِهِ الْغَنِيمَةَ، وَفِيهَا قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الصَّلْحُ الَّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمَا فَتْحُ خَيْبَرَ وَغَنَائِمُهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، فَقِيلَ: أَيْدِي أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ، وَقِيلَ: أَيْدِي الْيَهُودِ حِينَ هُمَا بِأَنْ يُغْتَالُوا مِنْ بِلَدِيَّةٍ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهَا.

وَقِيلَ: هُم أَهْلُ خَيْبَرَ وَحُلَفَاؤُهُمُ الَّذِينَ أَرَادُوا نَصْرَهُمْ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ. وَالصَّحِيحُ تَنَاوُلُ الْآيَةِ لِلْجَمِيعِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قِيلَ: هَذِهِ الْفِعْلَةُ الَّتِي فَعَلَهَا بِكُمْ، وَهِيَ كَفَّ أَيْدِي أَعْدَائِكُمْ عَنْكُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَهْلُ خَيْبَرَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَسَدٌ وَغَطَفَانٌ، وَجُمْهُورُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ أَعْدَاءُ هُمْ، وَهُمْ بَيْنَهُمْ كَالشَّامَةِ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِمْ بِشُوءٍ، فَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَفَّ أَيْدِي

(١) يقول الشيخ الأرنؤوط: كان الأولى بالمؤلف رحمه الله ألا يشين كتابه بهذه الجملة المنتزعة من الحديث الموضوع الذي أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٦/ ٣٢٨ وغيره من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي ... زاد المعاد هامش ٣/ ٣١١-٣١٢.

أَعَدَّاهُمْ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِمْ بِسُوءٍ مَعَ كَثَرَتِهِمْ، وَشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ، وَتَوَلَّى حِرَاسَتِهِمْ، وَحَفِظَهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَغِيبِهِمْ.

وَقِيلَ: هِيَ فَتْحُ خَيْبَرَ، جَعَلَهَا آيَةً لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَامَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ الْفَتْوحِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَعَدَهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً، وَفَتْوْحًا عَظِيمَةً، فَعَجَّلَ لَهُمْ فَتْحَ خَيْبَرَ، وَجَعَلَهَا آيَةً لِمَا بَعْدَهَا، وَجَزَاءً لِمَنْ لَصِرَ لَهُمْ وَرِضَاهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَشُكْرًا؛ وَلِهَذَا خَصَّ بِهَا وَبِعَنَائِمِهَا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾ فَجَمَعَ لَهُمْ إِلَى النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْغَنَائِمِ الْهَدَايَةَ، فَجَعَلَهُمْ مَهْدِيِّينَ مُنْصُورِينَ غَانِمِينَ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً وَفَتْوْحًا أُخْرَى لَمْ يَكُونُوا ذَلِكَ الْوَقْتُ قَادِرِينَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هِيَ مَكَّةُ.

وَقِيلَ: هِيَ فَارِسُ وَالرُّومِ، وَقِيلَ: الْفَتْوحُ الَّتِي بَعْدَ خَيْبَرَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ قَاتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ لَوَلَّى الْكُفَّارَ الْأَذْبَارَ غَيْرَ مُنْصُورِينَ، وَأَنَّ هَذِهِ سُتَّةٌ فِي عِبَادِهِ قَبْلَهُمْ، وَلَا تَبْدِيلَ لِسُنَّتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَاتَلُوهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُولُوا الْأَذْبَارَ؟ قِيلَ: هَذَا وَعَدٌ مُعَلَّقٌ بِشَرْطٍ مَذْكُورٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى، وَقَاتَ هَذَا الشَّرْطُ يَوْمَ أُحُدٍ بِفَسْلِهِمُ الْمَنَافِيَ لِلصَّبْرِ، وَتَنَازُعِهِمْ وَعِصْيَانِهِمُ الْمَنَافِيَ لِلتَّقْوَى، فَصَرَفَهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَلَمْ يَحْصُلِ الْوَعْدُ لِانْتِفَاءِ شَرْطِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ ﷺ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِي بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ؛ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ الْبَالِغَةِ الَّتِي مِنْهَا: أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ قَدْ آمَنُوا، وَهُمْ يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ، لَمْ يَعْلَمْ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ، فَلَوْ سَلَطَهُمْ عَلَيْهِمْ لَأَصَبَتْ أُولَئِكَ بِمَعَرَّةِ الْجَيْشِ، وَكَانَ يُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةُ الْعُدْوَانِ وَالْإِيْقَاعِ بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْإِيْقَاعَ بِهِ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ حُصُولَ الْمَعَرَّةِ بِهِمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمُسْتَخْفِينَ بِهِمْ؛ لِأَنَّهَا مُوجِبُ الْمَعَرَّةِ الْوَاقِعَةِ مِنْهُمْ بِهِمْ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَوْ زَايَلُوهُمْ وَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ لَعَذَّبَ أَعْدَاءَهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا إِمَّا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَإِمَّا بِغَيْرِهِ، وَلَكِنْ دَفَعَ عَنْهُمْ هَذَا الْعَذَابَ لَوْ جُودَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، كَمَا كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْإِسْتِصَالِ وَرَسُولُهُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَمَّا جَعَلَهُ الْكُفَّارُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي مَصَدَرُهَا الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ؛ الَّتِي لَا جَلِيلًا صَدَّوْا رَسُولَهُ وَعِبَادَتَهُ عَنْ بَيْتِهِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا الْمُحَمَّدَ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ تَحْقِيقِهِمْ صِدْقَهُ وَتَبْقِيَّتِهِمْ صَحَّةَ رِسَالَتِهِ بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي شَاهَدُوهَا وَسَمِعُوهَا فِي مَدَّةٍ عَشْرِينَ سَنَةً.

وَأَصَافَ هَذَا الْجَعْلَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، كَمَا يُصَافُ إِلَيْهِمْ سَائِرُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي هِيَ بِقُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ أَنْزَلَ فِي قَلْبِ رَسُولِهِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ السَّكِينَةِ مَا هُوَ مُقَابِلٌ لِمَا فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ مِنْ حِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَتْ السَّكِينَةُ حَظَّ رَسُولِهِ وَحِزْبِهِ، وَحِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ حَظَّ الْمُشْرِكِينَ وَجُنْدِهِمْ، ثُمَّ أَلَزَمَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ كَلِمَةَ التَّقْوَى، وَهِيَ جَنْسُ يَوْمٍ كُلِّ كَلِمَةٍ يُتَقَى اللَّهُ بِهَا، وَأَعْلَى نَوْعِهَا كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ، وَقَدْ فُسِّرَتْ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَبَتْ قُرَيْشُ أَنْ تَلْتَزِمَهَا، فَأَلْزَمَهَا اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ، وَإِنَّمَا حَرَمَهَا أَعْدَاءَهُ صِيَانَةً لَهَا عَنْ غَيْرِ كُفْئِهَا، وَأَلْزَمَهَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا، فَوَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا، وَلَمْ يُضَيِّعَهَا بِوَضْعِهَا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَحَالِّ تَخْصِيصِهِ وَمَوَاضِعِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ صَدَقَ رَسُولُهُ رُؤْيَاهُ فِي دُخُولِهِمُ الْمَسْجِدَ آمِنِينَ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُونَ وَلَا بُدَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ آنَ وَقْتُ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعَامِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلِمَ مِنْ مَصْلَحَةٍ تَأْخِيرِهِ إِلَى وَقْتِهِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَبُّكُمْ اسْتِعْجَالَ ذَلِكَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَعْلَمُ مِنْ مَصْلَحَةِ التَّأْخِيرِ وَحِكْمَتِهِ مَا لَمْ تَعْلَمُوهُ، فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا، تَوَطَّئَتْ لَهُ وَتَمْهِدًا.

ثُمَّ أَخْبَرَ هُمْ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، فَقَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ بِالنِّتَامِ وَالْإِظْهَارِ عَلَى جَمِيعِ أَذْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَبَقِيَ هَذَا تَقْوِيَةً لِقُلُوبِهِمْ، وَبِشَارَةً هُمْ وَتَنَبُّؤُةٌ، وَأَنْ يَكُونُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ هَذَا الْوَعْدِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُنْجِزَهُ، فَلَا تَطْنُؤُوا أَنَّ مَا وَقَعَ مِنَ الْإِعْصَاصِ وَالْقَهْرِ يَوْمَ الْحُدْنِيَّةِ نُصْرَةٌ لِعَدُوِّهِ، وَلَا تَخْلِبُوا عَنْ رَسُولِهِ وَدِينِهِ كَيْفَ وَقَدْ أَرْسَلَهُ بِدِينِهِ الْحَقِّ، وَوَعْدِهِ أَنْ يَظْهِرَهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ سِوَاهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ ﷺ رَسُولَهُ وَحِزْبَهُ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ لَهُ، وَمَدَحَهُمْ بِأَحْسَنِ الْمَدْحِ، وَذَكَرَ صِفَاتِهِمْ فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَكَانَ فِي هَذَا أَعْظَمُ الْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِ مَنْ جَاءَ بِالتَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَشْهُورَةِ فِيهِمْ، لَا كَمَا يَقُولُ الْكُفَّارُ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ مُتَغَلَّبُونَ طَالِبُونَ مُلْكٍ وَدُنْيَا، وَهَذَا لِمَا رَأَاهُمْ نَصَارَى الشَّامِ، وَشَاهَدُوا هُدْيَهُمْ وَسِيرَتَهُمْ، وَعَدَّهُمْ وَعِلْمَهُمْ، وَرَحْمَتَهُمْ وَرُحْمَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَرَغَبَتَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، قَالُوا: مَا الَّذِينَ صَحَبُوا الْمَسِيحَ بِأَفْضَلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى أَعْرَفَ بِالصَّحَابَةِ وَفَضْلِهِمْ مِنَ الرَّافِضَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَالرَّافِضَةُ تَصِفُهُمْ بِضِدِّ مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا وَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ﴿٧﴾ [الكهف].

[زاد المعاد ٣/ ٣١٣-٣١٥].

## ٢٥ - سورة الفتح تبين أسرار الفتح:

يقول الشيخ الخولي: «إن بين كتب التاريخ ونصوص الدين فرقاً شاسعاً في فتح مكة، فكتب التاريخ تُجمع على أن مكة فُتحت في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، ونصوص القرآن تقرر أنها فُتحت في العام السادس للهجرة في ظروف الصلح الذي عُرف بصلح الحديبية.

ولكن المعروف أن صلح الحديبية لم يكن فيه فتح، بل لم يكن فيه قتال، فقد كف الله المشركين عن المسلمين، والمسلمين عن المشركين على ما قال ﷺ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبِطْنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢١﴾، فكيف يُقال: إن مكة فُتحت في ظروف هذا الصلح الذي ظلت مكة بعده في أيدي أهلها عامين كاملين حتى دخلها جنود النبي ﷺ في السنة الثامنة؟

في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ الآية، في تلك السورة التي أنزلها الله تعالى على رسوله مرجعه من الحديبية جواب ما نسأل عنه، فيها جماع أسرار الفتح التي نحاول تجلية بعضها فيما يلي:

(١) الوجود الحق للإنسان: وعجائب الفتح وغرائب الأحداث لا تُتاح للناس سدى، بل هي سنن مقدورة، لا تستجيب إلا لمن أخذها بحقها، فإذا كانت سنن الطبيعة في تسخير الماء والهواء والبخار والكهرباء - مثلاً - تتأبى على الجهل، ولا تستجيب إلا لمن عرف حقها، وراضها بالعلم والخبرة، فكذلك سنن الغيب الروحي، تتأبى على الجهل، ولا تستجيب إلا لمن عرف حقها، وراضها بالعلم والخبرة، غير أن العلم هنا هو العلم بالله والإيمان به ﷺ، لا العلم بقضاء المادة وقوانين الطبيعة، والجهل هنا هو الجهل بالله، وخلو القلب منه ﷺ، لا الجهل بقضايا العلم الآخر.

فإذا آمن المرء بالله، وعرف قدره في تصريف الكون، وأن بيده زمام كل شيء، وأنه مصدر كل خير، وحياء وقوة، صرف إليه رجاءه، وحسن فيه ظنه، وأعرض عما عداه، وهنا يتحقق للمرء (وجوده الرباني) أو وجوده الحق، وبهذا الوجود الرباني الروحي يتصرف المرء في سنن الغيب، ويكون نافذ المشيئة فيه بإذن الله، كما يتصرف أحدنا بجوارحه الحسية في كائنات العالم الطبيعي، ويكون نافذ المشيئة بإذن الله.

(٢) كيف يفسد الوجود الحق للإنسان: أما إذا كان جاهلاً بالله مطموس البصيرة، فإن ظنه بعالم الغيب، لا يتعلق منه بخير ولا شر، إذ لا يعقل أن في هذا الكون أموراً سوى الكائنات الحسية التي لا تتعلق مباشرة بمعاش الناس، وحوالها تدور مفاهيم النفع والضرر، كالمال الذي يرفع صاحبه فيقبل عليه الناس بالتمجيد، وكالسلاح الذي تفيد كثرة رجاله في منعة صاحبه وإعزاز جانبه، وكالطعام والشراب اللذين يتعلق بهما شأن البدن ضعفاً أو قوة، وموتاً أو حياة، لا يعقل مثل هذا أن في الكون غير هذه الأمور الحسية، ولا يتصور أن وراء ذلك عالماً غيبياً حافلاً بخير غير منظور، وهو مصدر الترجيح والقوة المؤثرة في كل شيء، المحركة لكل شيء، وهو مصدر الحياة لحقيقة الإنسان، أو (لكائنه الروحي) الذي يتصرف به في تلك الشؤون الغيبية بتقدير الله، لا يتصور ولا يعقل شيئاً من ذلك، فهو لا يُعَوَّل إلا على المادة، ولا يولي وجهه أو يصرف رجاءه إلى سواها، وذلك هو عين الخذلان، والبوار المحض، وإن شئت فقل: إن مثل هذا قد جنى على وجوده الروحي، إذ هو معزول عن سنن الحق العاملة في هذا الوجود.

(٣) تصديق هذه الحقيقة بسورة الفتح: ونحن نقرأ ذلك المعنى الدقيق في دقائق سورة الفتح، فإن الرسول ﷺ حين خرج بأصحابه إلى الحديبية طلب إلى بعض الأعراب الذين مر بهم أن يخرجوا معه، وهم: بنو بكر، ومزينة، وجهينة... فبباطؤوا عنه، واعتذروا بمصالح أموالهم وأهليهم في الظاهر، معتقدين باطنًا أن المسلمين لن يعودوا سالمين من تلك الرحلة؛ لقلّة عددهم وسلاحهم، فإن قريشًا لن تدعهم يعودون بخير حتى تبدهم، فلما بدأ ﷺ عودته من الحديبية، ونزلت عليه سورة الفتح، ذكر الله تعالى فيها أولئك الأعراب بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وأعلن الله ﷻ حقيقةهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَغْلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢).

فهؤلاء قد ساء ظنهم بالله لجهلهم به، إذ حسبوا أن القوة المادية وحدها هي أساس النصر، والترحيل، والغلبة، فساء ظنهم بالمصير الذي سيلقاه المسلمون لأنهم قلة لا سلاح لها، وأن قريشًا لن تلبث أن تحيط بهم، فتحصدهم في ساعة من نهار، فلا يفلت منهم أحد، وذلك هو عبرة الآية: إذ تنص على أن تلك الظنون الفاسدة الجاهلة التي سهاها القرآن: ﴿ظَنُّوا السَّوْءَ﴾، إنها تمحق (الوجود الرباني) لصاحبها، فإذا هو من الهلكى؛ لأن (القوم البور) الذين تذكرهم الآية، هم الهلكى على ما نصت كتب اللغة.

(٤) تضريع على ما تقدم: وهذه الحقيقة الكبيرة هي قطب معاني السورة الكريمة، ومنها تتفرع الأصول التي قامت بها أسرار الفتح، فإننا نستطيع أن نستخلص منها الحقائق والمبادئ الآتية: أولاً: أن الإنسان في ظاهره مخلوق مادي، وفي باطنه (حقيقة روحية) أو (وجود رباني)، وأن تقدير الأعمال الحق عند الله ﷻ منوط بإرادة ذلك الكائن، أي بما تتعلق به إرادته من خير أو شر، وأن الثواب والعقاب مترتب على ذلك كله، ورسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣)، ومسنّد أحمد (٧٨٢٧، ١٠٩٦٠).]

فحياة الإنسان في الحقيقة، هي حياة هذا الكائن الباطني، وهلاكه هو هلاك هذا الباطن؛ ولذا رأينا القرآن الكريم يصف الأعراب ذوي القلوب الميتة بأنهم: ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢) والبور جمع بائر، وهو الهالك. ثانيًا: أننا بصدق مشاعر الإقبال على الله، والاستمداد منه، إنما نستنزل ما عنده سبحانه من حياة، وقوة، وخير، ونصر، فهي بصدق رغبتها فيما عند الله تمثل (حركة الشهيق) التي نسحب بها الهواء لرتينا، فكما نشأت للإنسان إرادة في الحق، أو قامت به رغبة فيما عند الله، فقد استدرج بها لوجوده الروحي حياة، وقوة، ومددًا لا قيام للباطل بإزائها أبدًا.



أي أن قانون الاستمداد من الله وتحصيل ما عنده لا يرجع إلى جهد عضلي، وسعي بدني، إنما يرجع إلى الثقة بما عنده، وصدق الرغبة فيه، وتعلق الإرادة به، ويأتي بعد ذلك عمل الجوارح معبراً عن حقيقته، منفذاً لمشيئته في عالم الظاهر.

ثالثاً: ويقابل ذلك أن الإنسان كلما نشأت له إرادة في إثم، أو قامت به رغبة في باطل، أو أقام أمراً من أموره على الجهل بالله وسوء التقدير لشأنه، فقد استدرج لنفسه أسباب خذلانه، وعوامل هلاكه. فهؤلاء الأعراب الذين ظنوا بالله العجز عن إمداد أوليائه بالنصر جعلهم ﷺ مثلاً لكل من سلك سبيلهم، وأخذ أخذهم، وما أحكم ما يصف سبحانه حال من يقوم به هذا الظن المهلك وتحيط به بوائقه، بقوله تعالى في سورة الفتح نفسها: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَرْفٌ عَلَيْهِمْ ذَرْبُهُ السَّوْءُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٦٠﴾، أي أن ظنهم واقع عليهم، محيط بهم إحاطة الدائرة بما داخلها، فلا هو يجاوزهم ولا هم بقادرين على أن يخرجوا منه، وذلك أسوأ ما يحيق بالإنسان من خذلان وهلاك؛ ولذا كان ﷺ يوصي بقوله: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ». [مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧)].

رابعاً: أنه - بناء على ما تقدم - إذا التقى أهل الإيمان والاستمداد الدائم من الله، بأهل الباطل المخدولين، فالغلبة مقطوع بها لأهل الحق من قبل أن يلتقوا بخصومهم؛ لأن كلا منهما قد قُضي في أمره، مذ علق إرادته بما علقه به من حق أو باطل، والله سبحانه يقرر في سورة الفتح أن ذلك هو سته النافذة الباقية بقوله: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ أَلَدْتُمْ لَأَدْبَرْتُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾ وما أحسن ما يلح الإمام ابن كثير هذا المعنى، فيقول في تفسيره: أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل - أي قاطع فاصل - إلا نصر الإيمان على الكفر، ورفع الحق، ووضع الباطل.

(٥) تطبيق السنن في حال الضيقين: فإذا ردعنا نلتمس تصديق هذه السنن، أو تطبيقها فيما بين أيدينا من أنباء الفتح وسورته، رأينا المسلمين قد أخذوا بكل أسباب التأيد والنصر، ورأينا المشركين قد أخذوا بكل أسباب الخذلان والهزيمة.

فالمسلمون قد خرجوا من ديارهم راغبين في الله، يريدون النسك والعمرة، وساقوا معهم ما ساقوا الله من هدايا الهدى، وتلك رغبة في الحق يستدرجون بها لوجودهم الرباني ما يستدرجون من روح التأيد والقوة.

أما المشركون فقد خرجوا يصدون عن بيت الله من جاءه معظماً لحرمة، وذلك إثم من رغب فيه وحى له فقد استدرج لوجوده الباطني ما استدرج من عوامل الهزيمة والتهلكة، والله ﷻ يصف ذلك من

حاله بقلوبهم: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَعْمِيَّةَ الْحَيَّةِ الْخَمِيَّةِ﴾، والجهل بالله تهلكة والحمية له إمعان في البوار.

ذلك مقصد المسلمين، وذاك مقصد المشركين: ذلك أن بيعة الرضوان كانت رغبة فيما عند الله واسعة المدى، استنزلوا بها ما لا يقدره من أسباب التشريف وطاقات القوة.

وأي تشريف أجل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

وأي قوة أقدر وأقوى مما أنزل الله على قلوبهم في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨)، والسكينة في مواطن البأس روح من الله يقدره للتأييد والغلبة.

هذا وقد أثمرت البيعة ثمراً آخر غير ما أنزل الله من سكينة، فإن البيعة — كما قدمنا — من البيع، أي معاوضة بين المؤمن وربيه، في صفقة يبذل فيها حياته لله على أن له بها وجوداً آخر في الجنة، وأي بيعة على هذا المعنى إنما هي عقد يستطيع من يرغب أن يوثقه مع الله في أي وقت طموحاً إلى العوض النفيس (الجنة) دون أن يكون في ذهنه شيء من خواطر الاستيلاء على المدن أو فتح الأقاليم، ولكن بيعتنا هذه — بالذات — اقترنت برغبة عزيزة على أصحابها، فإنهم قد خرجوا لله ووجهتهم مكة، فاعترضهم القوم، فدعاهم الرسول ﷺ إلى البيعة على القتال وعدم الفرار، ولم يكن هناك من داعية للقتال في أذهانهم سوى دخول مكة عنوة، أي فتحها، فاضطرم الشوق في أفئدتهم، واقترنت البيعة برغبة حارة في فتح المعقل الخالد. ومن القوانين الروحية التي أسلفناها: أن رغبات أهل الصدق قدر نافذ لا محالة، والله سبحانه يقول:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٢٢) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢١) [الزمر]، وقد قدمنا أن الوجود الروحي للمرء إذ يتصرف في سنن الغيب لنيل أشواقه، لا يتصرف بجهد عضلي، ولا سعي بدني، بل بصدق الرغبة، ومحض التوجيه، فأی صدق في الله أنصع وأروع من قوم أقبلوا على سفير الله ورسوله ﷺ يضعون أيديهم في يده في موقف كانوا فيه قلة عزلاء: لا حراب، ولا دروع، ولا درق، أمام كثرة قد لبست لأمة الحرب كاملة؟! لا جرم أنه إذا لم تكن هناك سوى مشيئة واحدة ذات تصرف في سنن الغيب، فهؤلاء هم ذوو تلك المشيئة، ففي اللحظة التي كانت فيها الرغبة تتمثل شوقاً في قلوبهم، كانت تسجل نفسها — بأمر الله — في سجل القدر النافذ، وفي وثائق الغيب المعجلة رصد لهم فتحهم المرموق، ولم يبق إلا إجراءات التنفيذ، وذلك ما تضمنته آخر آية البيعة في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨)، أي حاضرًا عتيديًا، فمن معاني القرب: الحضور المعنوي، كقول الله

تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦]، أي حاضرة مرصدة، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل، ١٢٨]، فهو معهم برحمته الحاضرة العتيدة.

فإذا كنا بصدد تطبيق السنن الروحية على ما بين أيدينا من أنباء الفتح، فللمسلمين مقصدهم الذي بيّنّا، وللمشركين مقصدهم الآخر، ولو لم يكن للمسلمين سوى ما يمدّهم به مقصدهم لكفاهم نصراً وغلبة، فكيف وقد جاءتهم البيعة بالسكينة والفتح؟

(٦) في ميدان الفتح: ونحن الآن في ساحة الحديبية، قد جمع الله بين فريقين: أحدهما مقطوع له بالهزيمة لا محالة، فقد جاء وأسبابها تعتمل في قلبه.

والآخر مقطوع له بالغلبة لا محالة، فقد جاء وجند الله من حوله، وعجائب الطاقات تملأ فؤاده.

والله سبحانه يفصل تلك التعبئة الروحية بين الفريقين بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [١٢].

ولا يفوتنا أن نلمح في تلك التعبئة ذلك التدبير الإيجابي الذي تولى الله به أمر المسلمين، فإنه لا إيجاب أبرز من قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، فهذا الإلزام مع إنزال السكينة معنى نرى فيه زمام المسلمين مصرقاً بيد الله سبحانه، فهو وليهم وكلهم إلى فضله وكفايته، أما الآخرون فقد وكلهم إلى أنفسهم وباطلهم: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

فقارن ما بين التبعيتين: أن الفعل في جانب المشركين قد أسنده الله إليهم، وأنه في جانب المسلمين قد أسنده سبحانه إلى ذاته، وذلك غاية ما يجتمع من ذروة التأيد، وحضيض الهزيمة في موقف واحد: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد ﷺ، ١١].

وبعد، فذلك أمر الفريقين، وشأن تعبئة كل منهم، ولم يعد شك في النتيجة المحتومة، ولم يبق إلا أن تقع الأحداث التي تترجم معاني هذا الموقف معركة دموية، يلتحم فيها الجمعان وتنتهي بالفتح، فتح مكة في عالم الحس، بعد أن قضى فتحها في وثائق القدر الناجز.

(٧) هل تغير منطق الموقف؟ ذلك منطق الموقف: لم يبق إلا أن يلتحم الجيشان، ويتحقق الفتح، فهل مضت الأحداث في هذا الخط المفترض؟

إن التاريخ يطالعنا بأن تياره مضى إلى غير هذا الاتجاه، ليجري صلح عجيب بين الفريقين: يطلب فيه المشركون أن يعود المسلمون فلا يدخلوا مكة عامهم هذا، ويرجعوا من قابل إذا أرادوا، فيجيئهم الرسول ﷺ إلى ما سألوا.

ويشترط المشركون: أن مَنْ جاءه من عندهم وهو على غير دينه يُرد إليهم، وأن مَنْ جاءهم من عنده لا يردونه إليه، فيقر لهم ﷺ ما شرطوا.

ويفاجأ المسلمون من ذلك بغير ما ينتظرون، فيدخلهم منه أمر عظيم، ولكن موافقة الرسول ﷺ تردهم إلى سمت أدبهم معه، فيحبسون مشاعرهم على مضض.

ويرفضون أن يكتب في غرة كتاب الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم)، بل (باسمك اللهم)، فيضج المسلمون ضجة كبيرة، ولكنه ﷺ يقبل ما عرضوا.

ويأبون أن يكتب في وثيقة الصلح أن (محمدًا رسول الله) صالحهم على كذا، بل (محمد بن عبد الله)، فيضج المسلمون ضجة أشد من الأولى، وارتفعت الأصوات، وقام رجال يقولون للكاتب: لا تكتب إلا (محمد رسول الله)، وأمسك أسيد بن حضير، وسعد بن عباد يد الكاتب، وقالوا: لا تكتب إلا (محمد رسول الله)، وإلا فالسيف بيننا، علام نعطي الدنيا في ديننا؟!

ولكنه ﷺ يخفض الثائرين، ويشير إليهم بيده أن اسكنوا واهدؤوا، ويوافق القوم على ما أرادوا، ويقول: (أنا محمد بن عبد الله).

وقلب ذلك الصلح حسابان كل من في المعسكر، فعارضوه إلا أبا بكر ؓ.

فهل تغير منطق الموقف؟ أو أن الرجال لم يصيبوا حكمة التقدير؟

(٨) حين يَقصر البشر عن تبين مرامي القدر: لا نستطيع أن نقول: إن منطق القوة تغير، إذ لم يكن للموقف منطق محتوم فيغيره، فقد كان تحت تقديرات أربعة، كلها جائزة الاحتمال، لا يحتمل المنطق وقوع أحدها:

الأول: القتال. والثاني: الصلح. والثالث: العودة بلا صلح ولا قتال.

والرابع: دخول مكة في سلم كما يدخلها أي عربي معتمر.

ولكن الإنسان قد يمضي - أحيانًا - مع دفع الحوادث في حركة ذهنية وجدانية، كتلك التي يسمونها في عالم الحركات الآلية (القصور الذاتي)، يندفع المرء في جريه، حتى إذا طلب إليه أن يقف عند حد واجب، تعذر عليه ذلك، وانطلق إلى ما وراءه بضع خطوات، فتلك الخطوات التي زادت على تحكم الإرادة، هي حركة القصور الذاتي.

وقد يكون راكبًا قطارًا، أو سيارة، فإذا وقفت فجأة اندفع جسمه - بحركة القصور الذاتي - إلى الأمام، حتى لقد يصطدم بمن أمامه، أو بحاجز ما.

ولهذا القصور حُكمه في حركات الفكر والوجدان مع دفع الحوادث، ولا سيما حين يكون المرء في جماعة، فقد يقدر أحداً لا امتداد الحوادث خطأً مجانساً لمنطقها الحاضر، مجانسة النتيجة للمقدمة، وهو غافل عن اعتبار آخر، أو اعتبارات كان يجب أن يدخلها في حسابه حتى لا يفاجئه الواقع بغير ما قدر. وذلك تفسير موقف المسلمين في معارضة الصلح، فقد خرجوا إلى مكة لرؤيا رآها ﷺ أنه دخل المسجد الحرام، وطاف بالبيت، وأخذ مفتاحه، ورؤيا الأنبياء حق، فخرجوا وهو لا يشكون في دخول مكة، وقد دعاهم ﷺ بالحديبية إلى بيعة الموت، أو على القتال بين يديه لا يفرون، فبايعوا وهم لا يشكون في القتال.

كان هذا هو الخط الذي رسمته مقدمات الحوادث، ولكن فاتهم أن الرؤيا لم تحدد ميقاتاً لدخول مكة، فقد يدخلونها هذا العام، وقد يدخلونها الذي يليه، أو الذي بعده، ولكنهم عجلوا يدفع الشوق وطبيعة الظرف إلى تحديد هذا العام لتحقيق الرؤيا، وتولى دفع الحوادث امتدادها في الذهن والضمير، فلم يجد نهاية سعيدة لها دون دخول مكة. وكذلك فاتهم أن البيعة على الموت أو القتال لا تعني نشوب الحرب ولا بد، ولكنهم في دفع الظروف وجدة المنطق جزموا بوقوع الحرب لا محالة.

وكذلك فاتهم حسابان الإرادة العليا الذي قد يجري بغير ما يحتسب الناس، وقد كان في بروك الناقة القصواء، إذ حبسها حابس الفيل ما هو جدير بتعديل منطق الحوادث في أذهانهم.

(٩) وثيقة صلح أو وثيقة فتح: فاتهم ذلك وغيره إلا دفع الحوادث الذي انطلق بالوجدان والذهن في خطر الغاية المرتجاة، فلما وقف سير الحوادث فجأة دون المنتهى كان لابد للذهن والوجدان من حركة قصور ذاتي، هي التي تمثلت إجماعياً - باستثناء أبي بكر ﷺ - في معارضة الصلح وعدم الرضا به، حتى أن عمر ﷺ - الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه - كان على رأس تلك المعارضة.

لقد كان في هذا الصلح من الخير، والمغانم، والفتح - في عالم الروح - ما قدمنا بعضه، ولكن حكمة الرجال قصرت يومئذ عن تبين مرامي القدر، حتى ليقول أبو بكر ﷺ: «مَا كَانَ فَتْحٌ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مِنْ فَتْحِ الْحَدِيبَةِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمَئِذٍ قَصَرُوا عَنْهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّهِ، وَالْعِبَادُ يَعْبُدُونَ وَاللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَعْبُدُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ، حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللَّهُ».

وعاد الناس وهو يغالبون في نفوسهم معارضة الصلح، أو عدم الرضا به، وبينما هم عائدون نزلت سورة الفتح تقرر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١، فيفرح لها رسول الله ﷺ وأيا فرح، فيجيء رجل فيسأله: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَتَحَّ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ». [من أسرار الفتح للخولي ٦٩-٨٠].

## ٢٦ - تحقيق الإيمان بالله ﷻ:

يقول د/ عشقي: «إن القلق اليوم يتاب كل مسلم وكل عربي من وضع الأمة العربية والإسلامية، والسؤال الذي يتقلب على كل لسان: لماذا تعاني الأمة من التمزق؟ ولماذا تُوجَّه الأسلحة من الأصدقاء والأعداء على السواء إلى صدور المسلمين؟ وإلام تظل هذه الأوضاع بهذا الترددي؟ إن من يريد الجواب، فإن في تجربة الحديدية ما يكفي لذلك.

لقد جعل النبي ﷺ من نفسه منذ نشأته، قدوة في الأمانة ومثلاً للإخلاص والصدق، وعندما بُئى في الأربعين من عمره ظل ثلاثة عشر عاماً يعلم المسلمين الصبر على الأذى، ويلقنهم أسلوب الدعوة إلى التوحيد وأسس الإيمان بالله.

لم يؤذن لرسول الله ﷺ بالقتال لرفع الظلم إلا بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وخلال هذه المرحلة نزل القرآن الكريم بالحكام، واكتمل المنهج، وترسخت العقيدة. الحديدية والخطاب القرآني: إن قراءة متأنية لغزوة الحديدية وأبعادها يكفي للرد على كل هذه التساؤلات.

لو تأملنا سورة الفتح، لوجدنا أن الآيات التي تخص الحديدية كانت تحاطب أصحابها بكلمة المؤمنين، وليس بكلمة المسلمين، وفرق بين المسلم والمؤمن. لقد أنزل الله ﷻ السكينة في قلوب المؤمنين بسبب إيمان الصحابة رضوان الله عليهم، وإكثارهم من ذكر الله؛ لأن القلوب تطمئن بذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد].

لقد أشار الله ﷻ إلى ذلك في الآية الرابعة من سورة الفتح فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤) [الفتح]. فالعلم بالخطر، والتيقن من حدوده، والإدراك لحدوده، يورث السكينة، وهو شأن المؤمنين في الحديدية، كان ذلك أدعى لزيادة إيمانهم.

بينما نجد أن الله ﷻ قذف الرعب في قلوب المشركين لعدم إيمانهم بالله، وعدم القناعة بالنصر. وليس من شك في أن الله ﷻ جنود السماوات والأرض، فهو القادر على هلاكهم، لكن الله من رحمته وحكمته، جعل الهلاك على أيدي المؤمنين؛ ليزيد بذلك من إيمانهم، وليمنحهم الله المثوبة، فيدخلهم الجنة، ويحل عليهم رضوانه.

وقد بين الله ﷻ في الآية التالية فقال: ﴿يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُمْكَرَّمُونَ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٥) [الفتح].

لقد أنزل الله السكينة على المؤمنين من أهل الحديبية ليزدادوا إيماناً، وبسبب السكينة والإيمان يدخلهم جنات تجري من تحتها.

كان الله ﷻ قادراً على حسم الموقف مع المشركين، إما بالهلاك أو بالهداية، لكن الله ﷻ جعل لسنة الكون التي بينها، ولحقائق الأشياء التي أنشأها، أن تسير كما شاء الله؛ ليُدخل المؤمنين الجنة، وليكفر عنهم سيئاتهم، ويعذب المنافقين والمشركين.

ثم قال ﷻ في الآية التالية: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُرُوبًا السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١﴾ وَلِلَّهِ جُثُودُ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيظًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح].

لقد قدّم الله المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في العذاب، رغم تغلغلهم في صفوف المؤمنين؛ لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، مع أنهم أكثر من المشركين رؤية للآيات وأقرب معايشة لها. فالمنافقون ليس كالعدو الظاهر الذي يستطيع أن يحذر المؤمن، فالمنافق كالشيطان، يأتي في ثياب الصديق الناصح فيخدع المؤمن.

ومن آيات المنافق أنه إذا حدث وكذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا خاصم فجر فجر، وإذا عاهد غدر.

ومن مبادئ النفاق التقية لخداع المسلمين، فالمنافقون إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزؤون.

ومن سمات النفاق مخالفة السنة، وإتباع البدعة، وكرهية الصحابة رضوان الله عليهم، أو بعضهم. ... لقد كشفت الآية الثانية عشر من سورة الفتح، موقف الأعراب الذين لم يشأ الله أن يشاركوا في عمرة الحديبية، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ، فهم وإن كانوا مسلمين إلا أنهم لم يبلغوا مرحلة الإيمان الكامل وهو اليقين بنصر الله.

لقد كشفهم الله ﷻ وقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾ [الفتح].

ومن ضعف الإيمان انشغالهم بأموالهم وأهلهم، ومن ضعف الإيمان خوفهم من المشركين. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِحَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظُرُوبَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾ [الفتح].

في هذه الآية أكد الله ﷻ صفة أهل الحديبية الإيمانية، وبَيَّنَ ﷻ أن الشيطان يأتي لضعاف النفوس وضعاف الإيمان، فيزيِّن لهم التردد في تلبية الأوامر الإلهية، كما يزين لهم الشبهة، ثم يضم إليها بعض المخايل والتخييلات التي يقطع بها الغافل.

فظنهم الذي أرداهم هو الظن الثاني؛ لأن الظن الأول هو من طبيعة البشر، وهو ما قد يعتري المسلم ضعيف الإيمان، لكن الظن الثاني هو ظن سوء بالله، وهو الظن الذي تبلور بعد أن زين الشيطان في قلوبهم. كان الظن هو الاعتقاد بأن الله سوف يخلف وعده، وهو ترجيح الظن بعدم صدق الرسول ﷺ فيما بَشَّرَ به، وأن ما بَشَّرَ به كان أمراً مُبَالِغاً فيه، فإذا كان الظن الأول يؤدي إلى المعصية، فإن الظن الثاني قد يؤدي إلى الكفر.

لقد أكدت الآية على أنه من لم يؤمن بالله، وظن أن الله سوف يخلف وعده، وكذلك من لم يؤمن بصدق الرسول ﷺ، فإنه سيكون كافراً ومأواه سعيراً، لكن الأعراب لم يصلوا إلى الكفر، بل توقفوا عند حد المعصية بظنهم السيء، فأنذرهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣) [الفتح].

لقد ظهر الصدق في المقابل لدى المؤمنين، وتجلى في أرقى معانيه حين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت، وتدافعوا لتقديم البيعة، فحل عليهم رضوان الله، وُسِّمِت بيعة الرضوان. فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨) [الفتح].

لقد كان فتح خيبر وما فيه من غنائم، وفتح مكة وما فيه من مغام، والانتصارات المتلاحقة، نتيجة لهذا العمل الإيماني العظيم الذي تجلّى، في البيعة الصادقة، والصبر والطاعة في الحديبية. إن كل بيعة مؤمنة صادقة لله ورسوله وأولي الأمر ضمن إطار المنهج الإسلامي، تنم عن عمق إيماني، وسوف تؤدي إلى النصر والفتح والمغانم؛ لأن الإيمان مرتبط بالصبر والطاعة والتقوى ودرء الفتن، وفي ذلك صيانة للإسلام وحقوق المسلمين، وأداء للعبادة، وإتاحة لنشر الدعوة.

إن رضا الله ﷻ يُدخل الجنة، ودخول الجنة دليل على رضا الله، فقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢) [المجادلة]. إن دخول الجنة والخلود فيها يُتَوَجَّح برضا الله ﷻ الدائم، وقد جاء في البخاري أن الله يقول لأهل الجنة بعد أن يتجلى لهم: «أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

[البخاري في الرقاق (٦٥٤٩)، وفي التوحيد (٧٥١٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٩)، والترمذي في



لقد قال ﷺ: «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ». [مجمع الزوائد ١/ ٢٢٠ كتاب الإيمان (١٨٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤ رقم ٨٥٤٤) ورجاله رجال الصحيح].

فصبرُ المسلمين كان في مواجهة استفزازات المشركين، الذين وطَّنوا في أنفسهم حمية الجاهلية، لكن الله أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، فكانوا أحق بها وأهلها.

لقد تجلّت حمية الكفار في صد المؤمنين عن بيت الله الحرام، مع أنهم أتاحوا ذلك للمشركين، وتركوا المؤمنين في العراء مسربلين في إحرامهم طوال مدة المكث، حتى شعثوا وقملوا، ولم تكتف قريش بذلك بل هاجتهم في مناوشات استفزازية فاشلة، وقتلت منهم أحد المؤمنين.

فقال ﷺ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح].

لقد جعل الله ما للكافرين من الحمية بفعل أنفسهم، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾، وجعل ما للمؤمنين بفعل الله ﷻ فقال: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فكانت الحمية للكافرين، كما كانت السكينة للمؤمنين، فأصبح مع الكافرين حميتهم، ومع المؤمنين سكينة الله، وغدا المشركون يحاربون الله وأصبح المؤمنون ينصرون الله.

لقد وصف الله الحمية في قلوب المشركين بالجعل، والمجعلول سرعان ما يتبدد، بينما أنزل الله سكينته على المؤمنين، وسكينة الله حافظة محفوظة لا تتبدد.

لقد نسب الله قُبْح الإضافة في حمية الكفار إلى الجاهلية، كما نسب حسن الإضافة في سكينته على المسلمين إلى الله ﷻ، فما نُسب إلى الجاهلية مذموم، وما نُسب إلى الله هو المحمود كله.

فالسكينة التي أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين، منعتهم من الغضب، كما حالت بينهم وبين الهزيمة وزادت في صبرهم؛ لهذا أجاب ﷺ الكافرين على الصلح، فكان الصلح بأمر من الله ﷻ.

فعندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب (محمد رسول الله)، غضب المؤمنون وأصرّوا على كتابتها، ولما سكن الرسول ﷺ سكن المؤمنون، وما سكنوا إلا بتقواهم، لهذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي كلمة الشهادة.

فآليات الكريمة وصفت أهل الحديبية بالمؤمنين، مع أنه كان من بينهم اثنان من المنافقين، هما عبد الله بن أبي، والجد بن عبد قيس، وكانا معروفين بناقتهما، فلم يشاركا في بيعه الرضوان ولا المفاوضات، كما حُرّما من غنائم خيبر، ومن كافة المغانم.

والله ﷻ لم يكن لينذر المؤمنين ون أن يشير إلى هذه الحكمة، فقد أوردتها ﷻ في نفس السورة، فقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ [الفتح].

فالله ﷻ لم يشأ للقيام بهذا العمل العظيم وهو الحديبية، أن يشارك فيه إلا المؤمنون؛ لهذا أنزل الله الوهن في قلوب الأعراب الذين لم يتجاوزوا خط الإسلام ويرتقوا إلى مصاف الإيمان، فتخاذلوا عن مشاركة المؤمنين في الخروج إلى عمرة الحديبية، التي عرض عليهم النبي ﷺ.

حقيقة الإيمان: الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، والإيمان في تعريفه هو التصديق الجازم الذي لا يرقى إلى الذهن فيناقش من جديد، وأركان الإيمان ستة، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.

والمؤمن هو الذي جعل هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، والمؤمن هو الذي لم يجعل لذاته خياراً إذا قضى الله ورسوله أمراً.

فحينها عدل النبي ﷺ عن القتال إلى المفاوضات إثر بيعة الرضوان، انصاع المؤمنون لذلك. وعندما تمت المفاوضات ورأى المؤمنون أن الله ﷻ قد قضى بما جاء فيها من شروط تبدو مذلة للمسلمين، رضي الصحابة بذلك فكفوا عن الجدال المباح، وحلوا إحرامهم بحل رسول الله ﷺ إحرامه ونحروا هديهم بنحر هديه.

فلو كان من بين المؤمنين فئة لم ترتق إلى مصاف الإيمان لتصدع الموقف الإسلامي؛ لأن معاناة الحديبية كانت عظيمة، ولا يحتملها إلا مؤمن قوي الإيمان.

لقد وصف الله ﷻ المؤمنين في كتابه العزيز بأنهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون.

وليس وجل القلب هو الصعقة التي تصيب البعض عند قراءة القرآن، فقد قيل لعائشة رضي الله عنها عنها إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال.

وعندما سئل ابن سيرين التابعي الجليل عن أقوام يصعقون عن سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم فإن صعقوا وسقطوا فهو كما قالوا.

وقد حدد الله صفات المؤمنين بأنهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لَا مُنْتَهَىٰ لَهُمْ

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴿[المؤمنون].

ولا يبلغ مرتبة الإيمان إلا من يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولا يؤمن الإنسان حتى يحب الرسول ﷺ أكثر من والده وولده والناس أجمعين.

والإيمان يزيد وينقص، فهو يزيد بالتقوى وتلاوة القرآن والعمل الصالح.

لقد تضافرت النصوص على تأكيد عصمة المسلم: دمه، وماله وعرضه، واليوم أصبحت حرمة المسلم تنتهك حتى من أخيه المسلم.

فإذا كانت كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله هي المبدأ الذي تدور حوله القضية الإيمانية، فقال النبي ﷺ قال فيما رواه عنه أبو هريرة ؓ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». [البخاري في الإيمان (٢٥)...، ومسلم في الإيمان (٢٠-٢٢)...، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)...، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)...، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)...، وابن ماجه في المقدمة (٧١، ٧٢)...، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، ومسنند أحمد عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وأوس بن أبي أوس الثقفى ومعاذ بن جبل ؓ].

وَعَنِ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيٍّ حَدَّثَهُ أَنَّ الْمِقْدَادَ بْنَ عَمْرِو الْكِنْدِيَّ حَلِيفَ بَنِي زُهْرَةَ ؓ حَدَّثَهُ - وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لَقِيتُ كَافِرًا فَاقْتَلْنَاهُ، فَضَرَبَ يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَادَ بِشَجَرَةٍ وَقَالَ: أَسْلَمْتُ لَكَ، أَقْتُلْهُ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ طَرَحَ إِحْدَى يَدَيْ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا، أَقْتُلْهُ؟ قَالَ: «لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَأَنْتَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ».

[البخاري في الديات (٦٨٦٥)، وفي المغازي (٤٠١٩)].

أرأيتم الإيمان كيف يفني ذات الإنسان في طاعة الله ورسوله ﷺ فهل نجد في عالمنا اليوم من يقبل ذلك أو يتقبله، إن عدم القبول دلالة على ضعف الإيمان، فكيف يستطيع المسلم أن ينتصر على الشر وهو لم يحجر نفسه من هواها.

لقد أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؓ، في وقت واحد بعد عمرة القضاء.

جاء خالد مسلماً، وجاء عمرو بن العاص مؤمناً، فبعث رسول الله ﷺ خالداً إلى مؤتة كجندي تحت قيادة زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبي طالب ومن بعده عبد الله بن رواحة، وهو أكثر منهم دراية بالقتال والفروسة.

وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص، قائداً على ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار إلى قضاة، وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وألحق به قوة فيها أبو عبيدة عامر بن الجراح، وعمر بن الخطاب، وأبو بكر، فكانت القيادة له وهو دونهم في الفضل، ولكنه كان مؤمناً ولم يكن مسلماً، كما كان أكثر دراية بالحرب، وجدته لأبيه من قبائل بلي فلقى المعونة منهم.

ولم يتسلم خالد زمام القيادة إلا بعد أن ازداد إيمانه، فقال وهو في أوج ذلك الإيمان: (إني لم أؤمر أن أثقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم).

إن لكلمة لا إله إلا الله أثراً في الآخرة، فهي تُخرج من قالها من النار إذا عززها إيمان ولو في حجم الذرة، فهي تحول دون الخلود في النار.

إننا في حاجة إلى مزيد من الإيمان حتى نستطيع أن نواجه ظلم أنفسنا وظلم أعدائنا.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٢٩١-٣٠٢].

## ٢٧ - وعدُ الله للمبايعين وحفظه لهم وترتيبه الأحداث لمصلحتهم:

يقول صاحب الظلال: «وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين ﷺ عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم، الحديث عن هذا الصلح، أو عن هذا الفتح، الذي تلقوه صابرين مستسلمين: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا فَدَاحَظَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٣)».

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها، وعلموا أن الله أعد لهم مغامم كثيرة، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف، وهنا يقول لهم: إنه قد عجل لهم هذه، وهذه قد تكون صلح الحديبية - كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه - لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم، وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ﷺ ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار، كما أنها قد تكون فتح خير - كما روي عن مجاهد - باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية. والأول أقرب وأرجح.

ويمن الله عليهم بأنه كف أيدي الناس عنهم، وقد كف الله عنهم أيدي المشركين من قريش كما كف أيدي سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر، وهم قلة على كل حال، والناس كثرة، ولكنهم وفوا ببيعتهم، ونهضوا بتكاليفهم، فكف الله أيدي الناس عنهم، وأمنهم.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا الواقعة التي كرهوها في أول الأمر، وثقلت على نفوسهم، فالله ينبتهم أنها ستكون آية لهم، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم، مما يثبت في نفوسهم أنها شيء عظيم، وخير جزيل، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضا واليقين.

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ١٠﴾، جزاء طاعتكم وامثالكم وصدق سريرتكم، وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها، فيتم لهم الخير من كل جانب، في الأمر الذي كرهوه واستعظموه، وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار، ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامثال.

كذلك يمن عليهم ويشهرهم بأخرى غير هذه، لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ١١﴾.

وتختلف الروايات في هذه الأخرى: أهى فتح مكة؟ أهى فتح خيبر؟ أهى فتوح مملكتي كسرى وقيصر؟ أهى فتوح المسلمين التي تلت هذه الواقعة جميعاً؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة، بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح، الذي لم يدم سوى عامين، ثم نقضه المشركون، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً، وهي التي استعصت عليهم من قبل، وهاجتهم في عقر دارهم، وردتهم عام الحديبية، ثم أحاط الله بها، وسلمها لهم بلا قتال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ١١﴾، فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله، أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضا والتطلع والاستبشار.

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التي قد أحاط الله بها، وهم في انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون، وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف، أو لأن المشركين أقوياء، ولكنه تم لحكمة يريدها، ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا، فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَاكُمْ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْوَلَاؤُا لَدَبَرْتُمْ لَابَحُّثُوا وَلِيَا وَلَا نَبْصِيرًا ١٢﴾.

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنة الكونية الثابتة التي لا تتبدل، فأية سكينه؟ وأية ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سنته الجارية في هذا الوجود؟

وهي سنة دائمة لا تتبدل، ولكنها قد تتأخر إلى أجل، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم، أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره، أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله، ولكن السنة لا تتخلف، والله أصدق القائلين: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَتَةً مَّا يُلَاقُونَهُمْ يَكْفُرُونَ ١٣﴾.

كذلك يمن عليهم بكف أيدي المشركين عنهم، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على من هاجمهم، مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر

المسلمين، فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١١).

وهو حادث وقع، يعرفه السامعون، والله يذكره لهم في هذا الأسلوب، ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر، وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهي تدبر لهم كل شيء، وتقود خطاهم، كما تقود خواطرهم، ليسلموا أنفسهم كلها لله، بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا في السلم كافة، بكل مشاعرهم وخواطرهم، واتجاههم ونشاطهم، موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخيرة ما اختاره الله، وأنهم مسيرون بقدره ومشيتته فيما يختارون وفيما يرفضون، وأنه يريد بهم الخير، فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق، وهو بصير بهم، ظاهرهم وخافيتهم، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر، ولن يضيعهم، ولن يضيع عليهم شيئاً يستحقونه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١٢).

[في ظلال القرآن لقطب ٦/ ٣٣٢٦-٣٣٢٨].

## ٢٨ - كلمة وجيزة عن حكمة هذا الصلح:

يقول د/ البوطي: «قبل أن نخوض في تفصيل ما ينبغي أن نقف عليه من دروس صلح الحديبية وعظاتها وأحكامها، نقول في كلمة وجيزة: إن أمر هذا الصلح كان مظهرًا لتدبير إلهي محض تجلّى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر، فقد كان نجاحه سرًا مرتبطًا بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده؛ ولذلك انتزع - كما قد رأيت - دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتدبيرهم، ومن هنا، فإننا نعتبر أمر هذا الصلح، بمقدماته ومضمونه ونتائجه، من الأسس الهامة في تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها.

ولنتحدث أولاً عن طرف من الحكم الإلهية العظيمة التي تضمنها هذا الصلح، والتي تجلّت للعيان فيما بعد، حتى أضحت آية من آيات الله الباهرة، ثم نتحدث بعد ذلك عن الأحكام الشرعية التي تضمنتها وقائع هذا الصلح.

فمن الحكم الباهرة: أن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدي فتح مكة، فقد كانت هذه الهدنة - كما يقول ابن القيم - بابًا له ومفتاحًا، وتلك هي عادة الله ﷻ، يوطئ بين يدي الأمور التي تعلق إرادته إنجازها، مقدمات تؤذن بها وتدل عليها.

ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا في حينه؛ فذلك لأن المستقبل غائب عنهم، فأتى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذي رأوه بالغيب الذي لم يتصوروه بعد؟

ولكن ما إن مضت فترة من الزمن، حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما قد انطوت عليه من خير، فالناس قد آمن بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان متخفياً بالإسلام.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتَحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ (أي من صلح الحديبية)، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْبِكَ السِّتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدَيْلِيلٌ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَيْنِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٢].

ولذلك أطلق القرآن اسم الفتح على هذا الصلح، وذلك في قوله تعالى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٧﴾» [الفتح].

ومن الحكم الجليلة أيضاً: أن الله ﷻ أراد بذلك أن يبرز الفرق واضحاً بين وحي النبوة وتدبير الفكر البشري، بين توفيق النبي المرسل وتصرف العبقري المفكر، بين الإلهام الإلهي الذي يأتي من فوق دنيا الأسباب ومظاهرها، والانسحاق وراء إشارة هذه الأسباب وحكمها، أراد الله ﷻ أن ينصر نبوة نبيه محمد ﷺ، أمام بصيرة كل متأمل عاقل، ولعل هذا من بعض تفسير قوله تعالى: «وَيُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾» [الفتح]. أي نصرًا فريداً في باب، من شأنه أن ينبه الأفكار السادرة والعقول الغافلة.

فمن هنا أعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط، وتساهل معهم في أمور لم يجد أحد من الصحابة ما يسوِّغ التساهل فيها، ولقد رأيت كيف استبد الضيق والقلق بعمر بن الخطاب ﷺ، حتى إنه قال عن نفسه فيما بعد - فيما رواه أحمد وغيره -: مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأَعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ خَافَةً كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا.

ولقد رأيت كيف ساد الوجوم القوم حينما أمرهم الرسول ﷺ بالحلوق والنحر؛ ليعودوا إلى المدينة، رغم أنه كرَّر عليهم ثلاث مرات الأمر، لقد كان السر في ذلك أن الصحابة ﷺ إنما كانوا يتأملون في تصرفات النبي ﷺ، وهم يقفون على أرض من البشرية العادية، فلا يتبصرونها إلا بمقدار، ولا يفهمون منها إلا ما تفهمه عقولهم البشرية القائمة على الخبرات المحسوسة، على حين كان النبي ﷺ واقفاً من تصرفاته

هذه فوق مستوى البشرية وخبراتها وأسبابها، كانت النبوة المطلقة هي التي توجهه وتلهمه وتوحي إليه، وكان تنفيذ الأمر الإلهي هو وحده المائل أمام عينيه.

يتضح لك هذا من جوابه ﷺ لعمر بن الخطاب ؓ حينما أقبل إليه سائلاً ومتعجباً، بل وربما مستنكراً، فقد قال له: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ! وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي».

ويتضح لك هذا أيضاً من وصيته ﷺ لعثمان ؓ حينما أرسله إلى مكة ليكلم قريشاً فيما جاء له النبي ﷺ، فقد أمره أيضاً أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويشهرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله ﷻ مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان.

فلا غرو أن يدهش المسلمون لموقف رسول الله ﷺ الذي تمخض عن المفاهيم البشرية ومقاييسها في تلك الآونة.

ولكن سرعان ما انتهت الدهشة وزال الغم واتضح المبهم، حينما تلى رسول الله ﷺ عليهم سورة الفتح التي تنزلت عليه عقب الفراغ من أمر الصلح، وتجلي للصحابة ﷺ أن احتلامهم لتلك الشروط كان عين النصر لهم، وأن المشركين ذلوا من حيث من حيث تأملوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والغلبة، وظهر من وراء ذلك كله النصر - العظيم لرسوله والمؤمنين دون أن يكون في ذلك أي اقتراح للعقول والأفكار.

فهل في أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد ﷺ أبلغ من هذا الدليل وأظهر؟

ولقد تضايق المسلمون بادئ الأمر من موافقة النبي ﷺ على الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو: مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْتَهُ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وازداد ضيقهم لما أقبل أبو جندل (ابن سهيل ابن عمرو) فاراً من المشركين يرسف في الحديد، فقام إليه أبوه آخذاً بتلابيه وهو يقول: يَا مُحَمَّدُ قَدْ لُجِبَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا، قَالَ: «صَدَقْتُ»، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بِتَلَابِيهِ، قَالَ: وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتُرَدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشُّرْكِ فَيَقْتُلُونِي فِي دِينِي، قَالَ: فَرَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اضْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَخَرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صَلَاحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ».

ولقد أخذ الصحابة ﷺ ينظرون إلى هذا الأمر، وقد داخلهم من ذلك همٌ عظيم، ولكن، فما الذي تم بعد ذلك؟ لقد جاء إلى النبي ﷺ بعد ذهابه إلى المدينة رجل آخر قد أسلم من قريش اسمه: أبو بصير ؓ، فأرسلوا في طلبه رجلين من المشركين ليستردوه، فسلمه الرسول ﷺ إليهما، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة،



فغافل أبو بصير ﷺ أحد حارسيه وأخذ منه سيفه فقتله، ففر الآخر، ثم عاد أبو بصير ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ، وَقَدْ اِمْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُعْبَتَ بِي، ثم إنه خرج حتى أتى سيف البحر، وتفلت أبو جندل ﷺ، فلحق به هناك، وأصبح ذلك المكان مثابة للمسلمين من أهل مكة، فلا يخرج من قريش رجل أسلم إلا لحق بأبي بصير ﷺ وإخوانه، فما كانوا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوا المشركين وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تناسده الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه فجاؤوا إلى المدينة. ولما كان فتح مكة، كان أبو جندل ﷺ هذا هو الذي استأمن لأبيه وعاش ﷺ حتى استشهد في وقعة البماة.

وهكذا صحا أصحاب النبي ﷺ من همهم ذاك، على مزيد من الإيمان والحكمة الإلهية ونبوة محمد ﷺ، روى في الصحيح أن سهل بن سعد ﷺ قال يوم صفين: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتِّمُّوا رَأْيَكُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْدَأَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ.

ومرة أخرى نكرر القول: هل في أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد ﷺ أبغ من هذا الدليل وأظهر؟ ومن الحكم الجليلة: أن الله جلت قدرته إنما أراد أن يجعل فتح مكة لنبية فتح مرحمة وسلم، لا فتح ملحمة وقتال، فتحاً يتسارع الناس فيه إلى دين الله أفواجا، ويقبل فيه أولئك الذين آذوه وأخرجوه، يلقون إليه السلم ويخضعون له الجانب مؤمنين آيين موحدين، فجعل من دون ذلك هذا التمهيد، تؤوب فيه قريش إلى صحوها وتحاسب فيه نفسها وضميرها، وتشترك هي الأخرى مع أصحاب رسول الله ﷺ في أخذ العبرة من أمر هذا الصلح ومقدماته ونتائجه، فتتضح الآراء في الرؤوس وتتهيا لقبول الحق الذي لا ثاني له.

وهكذا كان الأمر، كما ستعلم تفصيله في مكانه إن شاء الله تعالى. [فقه السيرة للبوطي ٢٤٨-٢٥١].

## ٢٩ - حكمة صلح الحديبية والسكينة من الله للمؤمنين:

يقول صاحب الظلال: «ثم يحدثهم عن خصومهم، من هم في ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصددهم للمؤمنين عن بيته الحرام، وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيُضَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ يُدْخِلُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، مَنْ شَاءَ لَوْ تَرَكْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾».

هم في ميزان الله واعتباره، الكافرون حقاً، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يسجله عليهم كأنهم متفردون به، عريقون في النسبة إليه، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر، وهو صددهم للمؤمنين عن المسجد الحرام، وصد الهدي وتركه محبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع: ﴿وَصَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾.

وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام، كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم عليه السلام، كريمة في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين، فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقياً عليهم لأن جرمهم صغير، كلا! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوكُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين، ولو دارت الحرب، وهاجم المسلمون مكة، وهم لا يعرفون أشخاصهم، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم، فيقال: إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون.

ثم هنالك حكمة أخرى وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام، من قسمت له الهداية، ومن قدر له الله الدخول في رحمته، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته، ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال، ولعذب الكافرين العذاب الأليم: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتديره.

ويمضي في وصف الذين كفروا، وصف نفوسهم من الداخل، بعد تسجيل صفاتهم وعملهم الظاهر: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّعِينَةَ حِمَّةَ الْجَهَنَّمَ﴾.

حمية لا لعقيدة ولا لمنهج، إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت، الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذي ساقوه، أن يبلغ محله الذي ينحرف فيه، مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة؛ كي لا تقول العرب، إنه دخلها عليهم عنوة، ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين، ويتهكون حرمة البيت

الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته، ويتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام! وهي الحمية التي بدت في تجبيهم لكل من أشار عليهم - أول الأمر - بخطة مسالمة، وعاب عليهم صد محمد ﷺ ومن معه عن بيت الله الحرام، وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم، ولصفة رسول الله ﷺ في أثناء الكتابة، وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق.

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له، فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية، وأحل محلها السكينة، والتقوى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

والسكينة الوقورة الهادئة، كالقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة، المطمئن بما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يتبطر ولا يطغى، ولا يغضب لذاته، إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع في رضا وطمأنينة.

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها، وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم، إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة، وما أودع فيها من تقوى، فهم قد استحقوها في ميزان الله، وبشهادته، وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١٦).

[في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٨-٣٣٢٩].

### ٣٠ - صدق وعد الله لرسوله والمؤمنين:

يقول صاحب الظلال: «مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ﷺ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام، وأن يردوا عن المسجد الحرام، فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا، وينبئهم أنها منه، وأنها واقعة ولا بد، وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضًا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۚ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ وَبِهِ الْوَحْيُ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾ [الفتح].

فأما البشرى الأولى، بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمين، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة، لا يخافون، فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد، ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية، إذ تم لهم فتح مكة، وغلبة دين الله عليها.

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان، وهو يقول لهم: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾، فالدخول واقع حتم؛ لأن الله أخبر به، ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة

لا يقيد شئ، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية، والقرآن يتكئ على هذا المعنى، ويقرر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله، ووعد الله لا يخلف، ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق، إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور.

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد، فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع - أي العام التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي - كما أحرم وساق الهدي في العام قبله - وسار أصحابه يلبون، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيول والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه، فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح، فقال ﷺ: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى ياجج» فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء!

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاث ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام الناقة يقودها.

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ﷺ وتحقق وعد الله، ثم كان الفتح في العام الذي يليه، وظهر دين الله في مكة، ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد، ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح].

فلقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان، ظهر في امبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من امبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله - حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها، وبخاصة في أوروبا وجزر البحر الأبيض، وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله، من حيث هو دين، فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نوااميس الوجود الأصلية، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب!

وما من صاحب دين غير الإسلام، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة.. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨).

فوعده الله قد تحقّق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية، ووعد الله ما يزال متحققًا في الصورة الموضوعية الثابتة، وما يزال هذا الدين ظاهرًا على الدين كله في حقيقته، بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادرًا على العمل، والقيادة، في جميع الأحوال. ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! غير أهله يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب!». [في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٩-٣٣٣١].

### ٣١ - صورة وضيئة للرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم:

يقول د/ الغضبان: «ونصل بعد إلى ختام السورة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، ولكننا قبل هذا الختام، نقف مع القائد الأعظم محمد ﷺ، ومع قول الله تعالى له في السورة نفسها، بعد أن جاءه أحب مما طلعت عليه الشمس، نقف مع قول الله تعالى له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨)، نرى تفسيرها كما روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه من خلال التوراة التي بشرت، قبل أكثر من ألف عام بهذا النبي، وبشرت بأمته.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: أَجَلُ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٥) [الأحزاب]، وَحِزْرًا (حَصْنًا) لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَيْسَ بِفَطْرٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَابٍ (صَبَاحٍ) فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَأَدَانَا صَمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا.

تَابَعَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ هَلَالٍ، وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ هَلَالٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ سَلَامٍ: غُلْفُ كُلِّ شَيْءٍ فِي غِلَافٍ، سَيْفٌ أَغْلَفَ، وَقَوْسٌ غُلَفَاءُ، وَرَجُلٌ أَغْلَفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْتُونًا.

[البخاري في البيوع (٢١٢٥)، وفي التفسير (٤٨٣٨)، وأحمد ١٩٣/١١ رقم ٦٦٢٢].

فهو الذي اختاره الله تعالى وصنعه على عينه؛ ليكون نور البشرية حين تعوج وتضيع في متهاتات الظلم، أعطاه الله تعالى من الخلق العظيم ما لم يعطه أحدًا من خلقه، وذكر بعض جوانب من خلقه في سفر البشرية الأولى في التوراة التي أنزلت على موسى كليم الله ﷺ: ليس بفظ ولا غليظ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْنَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، لكنه الرؤوف الرحيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة].

وهو الرحمة المهداة للبشرية كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

ولا سخَّاب في الأسواق، فهو الداعية إلى الله في هذا الوجود، وهو إمام الدعاة إلى الله تعالى، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح حتى عن ألد أعدائه، يأمل لهم الهدى والنور، أو لذرياتهم: ﴿بَلْ أَرْجُوا أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ [البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)]، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٥)، ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا، وَاللَّهُ لَا تَذْعُونِي فَرِّشُ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَوةَ الرَّحِمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ.

وها هي قريش بعد حرب قرابة عشرين عامًا تلقي سلاحها، وتفتح طريقها أمام محمد ﷺ، حيث تُوقَّع على إيقاف الحرب لعشر سنين، وتفتح الطريق أمام النور لتفتح الأعين العمي، والأذان الصم، والقلوب الغُلف.

ها نحن على قارعة الطريق الذي سنشهد من خلاله انتشار هذا النور في الآفاق، ومعه حزب الله الذي جهد على تكوينه عشرين عامًا خلت، يحدثنا الله تعالى عنه في كل كتبه ورسالاته: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَفَازَهُ، فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح].

[التربية القيادية للغضب ٤/ ٢٨٨-٢٨٩].

يقول صاحب الظلال: «والآن نجيء إلى ختام السورة.. ختامها بهذه الصورة الوضیئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ، وبذلك الشاء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي

الله عنها فرداً فرداً: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْجٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝١٣﴾.

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة.

فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، ولقطة تصور هياتهم في عبادتهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويحيش بها: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سماتهم وسحتهم وسماتهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل: ﴿كَزَرْجٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ﴾، ﴿فَآزَرَهُ﴾، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

وتبدأ الآيات بإثبات صفة محمد ﷺ - صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو، ومن وراءه من المشركين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ - ثم ترسم الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصلية في هذه الحياة، وتبرزها وتصور منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها، التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في:

اللقطة الأولى: أنهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً، رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله، وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشندون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها، وقد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

اللقطة الثانية: وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: ﴿تَرْتَهُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾، والتعبير يوحي كأنها هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبّر عنها تعبيرًا يشتملها كذلك في زمانهم، حتى لكانهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجدًا.

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه، ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويستغلون به.

واللقطة الرابعة: تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملاحظهم، ونضحها على سماتهم: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، سيماهم في وجوههم من الوضاعة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيام هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاعة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاعة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ﷺ، وبشّر الأرض بها قبل أن يجيؤوا إليها.

﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ وصفتهم في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه، أنهم: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعُهُ﴾، فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده: ﴿فَتَأْزُرُهُ﴾، أو أن العود آزر فرخه فشده ﴿فَاسْتَقْلَطَ﴾ الزرع وضخمت ساقه وامتلاأت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ﴾ لا معوجاً ومنحنياً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً.

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ الزُّرْعَ﴾، وفي قراءة يعجب (الزارع)، وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج، وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس، فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿لَيَغِيظَهُمُ الْكُفَّارُ﴾، وتعتمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله ﷻ، أوزرعة رسوله ﷺ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله!



وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثمَّ ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يحيون. وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، صحابة رسول الله ﷺ، فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من باري الوجود، وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها؛ لتحقيق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢١﴾، وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.

مغفرة وأجر عظيم، وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضا وحده أجر عظيم، ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم، وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضا والتكريم والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم، وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه، ولكن أتى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه، إلا من بعيد؟!

اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم: فيقرب له البعيد؟!

فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!». [في ظلال القرآن ٦/ ٣٣١-٣٣٣].

ويقول د/ الغضبان: «ونعيش بجوار سيد قطب لحظات ولقطات في هذا المهرجان الفريد:

(١) ﴿ثُمَّ خَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران].

فقد أخذ الله تعالى ميثاق النبيين جميعاً على الإيمان بمحمد ﷺ، وإن كان هو خاتمهم في الترتيب الزمني؛ ليكون مصداقاً لما معهم، وتكون الكلمات في الرسائل كلها في رسالته، والكلمات البشرية كلها في شخصه ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ».

[مسلم في الفضائل (٢٢٧٨)].

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ لَا تَرْهَبُهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: أَجَلُ، وَآلَهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [١٥] [الأحزاب]، وَحِرْزًا (حَصْنًا) لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَابٍ (صَيَّاحٍ) فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَذْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوَجَاءَ بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا. [البخاري في البيوع (٢١٢٥)، وفي التفسير (٤٨٣٨)، وأحمد ١٩٣/١١ رقم ٦٦٢٢].

(٢) وإذا بهذه الأعين العمي، والآذان الصم، والقلوب الغلف تفتتح، وتستقيم الملة العوجاء، ويتحقق بمن معه الأوصاف الأخرى التي وردت في التوراة والإنجيل والقرآن. عَنْ ذُكْوَانَ أَبِي صَالِحٍ عَنْ كَعْبٍ قَالَ: فِي السَّطْرِ الْأَوَّلِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَبْدِي الْمُخْتَارُ؛ لَا فَظٌّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَخَّابٌ (الصخب الصياح والجلبة وشدة الصوت واختلاطه) فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي السَّيِّئَةَ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجَرْتُهُ بِطَبِيعَةٍ، وَمَلَكُهُ بِالشَّامِ.

وَفِي السَّطْرِ الثَّانِي: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ، يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ، وَيُكَبِّرُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ (المرتفع من الأرض)، رُعَاةُ الشَّمْسِ، يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ إِذَا جَاءَ وَقْتُهَا، وَلَوْ كَانُوا عَلَى رَأْسِ كُنَاسَةٍ (ما كنس، وهي أيضًا ملقى القمام) - وَيَأْتِرُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، وَيُوضُّوْنَ أَطْرَافَهُمْ، وَأَصْوَاتُهُمْ بِاللَّيْلِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ كَأَصْوَاتِ النَّحْلِ. [الدارمي في المقدمة (٧)، وقال الشيخ أسد: إسناده فيه زيد بن عوف وهو متروك وقد اتهمه أبو زرعة بالسرقه. وهو موقوف على كعب].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِفَتِي أَحْمَدُ الْمُتَوَكَّلِ، لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا غَلِيظٍ، يَجْزِي بِالْحَسَنِ الْحَسَنَةَ، وَلَا يَكْفِيءُ السَّيِّئَةَ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجَرَتُهُ طَبِيعَةً، وَأُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ، يَأْتِرُونَ عَلَى أَنْصَافِهِمْ، وَيُوضُّونَ أَطْرَافَهُمْ، أَنَا جِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، يَصْفُونَ لِلصَّلَاةِ كَمَا يَصْفُونَ لِلْقِتَالِ، قُرْبَانُهُمُ الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَيَّ دِمَاؤُهُمْ، رُهْبَانُ اللَّيْلِ، لِيُوثَّ بِالنَّهَارِ».

[مجمع الزوائد ٨/ ٤٨٥ في علامات النبوة (١٤٠١٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٠/ ٨٩ رقم ١٠٤٦]، وفيه من لم أعرفهم. والخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ١٠-١١، والدر المنثور سورة الأعراف ٧٥].

فعبادتهم وجهادهم وتقواهم وسلامة صدورهم هي أوصافهم التي ضربها الله تعالى مثلاً في التوراة والإنجيل؛ والحديث عنهم جاء بعد الحديبية، وقد تحققت بهم هذه الأوصاف التي مر عليها عشرات القرون، فبرزت الآن على حقيقتها، وذُكرت في سورة الفتح.

(٣) ﴿كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ، فَازَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾: أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿رَحْمَاءُ يَنْتَهَمُ﴾، قال: جعل الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض، ﴿سَيِّمَاءُهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال: علامتهم الصلاة، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، قال: هذا المثل في التوراة، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾، قال: هذا مثل آخر، ﴿كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾، قال: هذا نعت أصحاب محمد في الإنجيل. قيل له: إنه سيخرج قوم ينتنون نبات الزرع، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿سَيِّمَاءُهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾، قال: سنبله حين يبلغ نباته عن حباته ﴿فَازَرَهُ﴾، يقول: نباته مع التفافه حين يسنبل، فهذا مثل ضربه الله لأهل الكتاب إذا خرج قوم ينتنون كما ينبت الزرع فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم يغلظ فيهم الذين كانوا معهم، وهو مثل ضربه لمحمد صلى الله عليه وسلم يقول: يبعث الله النبي وحده، ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به، ثم يكون القليل كثيرًا وسيغلظون، ويغليظ الله بهم الكفار، يعجب الزراع من كثرتهم وحسن نباته.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾، قال: يقول حب بر متفرقًا فأثبتت كل حبة واحدة، ثم أثبتت من حولها مثلها حتى استغلظ واستوى على سوقه يقول: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قليلًا ثم كثروا واستغلظوا. [الدر المنثور للسيوطي ٥٤٤/٧].

(٤) هذا الجيل الذي أنزل الله تعالى وصفه على مدار البشرية، وفي أقدس الكتب، التوراة والإنجيل والقرآن، هذا الجيل الذي تنزل عليه الآيات، وقد انبثق إلى الوجود بعد التبشير به من عشرات القرون، وهو حي يتحرك الآن، قد تمثل وتشرب تربية زراعة محمد صلى الله عليه وسلم وبعد مرور عشرين عامًا تقريبًا على بعثته؛ ليكون خلاصة البشرية وعصارة الخيرية فيها، ننظر إليه بعد خمسة عشرين قرنًا من الزمان، فيبقى هو الأنموذج الحي للبشرية، وتنتظر إليه الأمم قبل عشرات القرون، وتتطلع إلى انبثاقه إلى الوجود مع سيد ولد آدم الذي أخذت بيعة الأنبياء له، وقد رأينا كيف نمت ولادة هذا الجيل فردًا فردًا، يرعاهم صلى الله عليه وسلم كما يرعى الزارع البصير غرسه ويتعهد بالسقاية والعناية، ويخوض بهذه الأعداد القليلة للجهج المواجهة للأعاصير: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [الأنعام].

فينمو عودهم بهذه المواجهة، لقد كان أغلبهم فتيةً تراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، وها هم يعدون على عين الله خطوة خطوة، فيحال بينهم وبين القتال قرابة ثلاثة عشر عامًا،

حتى يشتد ساعدهم، ويستقيم صلبهم، ويغلظ ساقهم، وعندما أذن لهم بالقتال كان الوحي يتنزل عليهم، فيعرضهم لأشق الدورات التربوية من خلال الواقع الحي، يصف أخطاءهم، ويتحدث إلى قلوبهم وعن قلوبهم، ويثني على الحوارين منهم، ويقوم المعوج فيهم، وبعد كل غزوة فاصلة آيات تترى تتابع البناء: ﴿فَنَازَرَهُ، فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ ويطمئن ﷺ إلى هذا البناء، فيواجه به عتاة قريش حرباً وصلحاً وسليماً، فكانوا نعم النصير لنبيلهم، وكانوا خير العون لقائدهم ﷺ، ويتميز عدوهم غيظاً منهم، فقد أصبحوا ملء السمع والبصر، وصاروا أصحاب الكلمة العليا في الأرض العربية، واعترف بهم الطغاة والعتاة، فما أحد يجرو أن يقترب من عرينهم، وتسابت خزاعة لتدخل في حلفهم، وأصبح عرينهم حمى لا يُضام.

(٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: فلا يحسب بعض الأفراد الذين انطوا على خبث في طويتهم، وملأ الغل صدورهم، وجعلوا النفاق ديدنهم، لا يحسب هؤلاء أنهم يضيعون في صفوفهم، ويخفون في ثناياهم! أبداً، فالوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات، أما الذين كانوا يسلقون النبي ﷺ والمؤمنين بألسنتهم الحداد، هؤلاء سوف يقصم ظهرهم هذا التحديد، فليسوا داخلين في هذه الخيرية، كما أن بعض النباتات المتسلقة الغريبة سوف تجث حين يحين الحصاد، وحين يحضر موسم القطاف.

(٦) ونقف مع الآية في ختام الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال].

والآية في ختام فتح الحديبية: ﴿ثُمَّ حَمْدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ دَخَلُوا عَلَى الْكَفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ شَطَقَهُ. فَتَازَرَهُ، فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكَفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح].

شهد جيل بدر وقد نجح في محنته خلال أربع سنوات، وأضاف تحت رعاية النبي ﷺ أربعة أضعافه أو أكثر على أعلى المستويات من التربية والقوامة، فشكّل مجتمع الحديبية؛ ليتأهب هذا المجتمع الجديد إلى استضافة الآلاف الجديدة، ويتابع معهم عملية التربية الهائلة، ويستعد ليدخل بهم مكة. والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار مجتمع بذاته لا مولى لهم إلا الله ورسوله، فقد خلصوا من الانتباء لقبائلهم وعشائريهم، وانصهروا لحمة واحدة، وكوّنوا أرفع جيل على مدار تاريخ البشرية الطويل. [عن المنهج التربوي للسيرة النبوية، التربية الجهادية ص ٤٦٦-٤٧٠ للمؤلف [د/ الغضبان].

(٧) بقي أهل الحديبية هم القاعدة الصلبة للمستقبل، فقد حضروا جميعاً خيبر فيما بعد، وحضروا جميعاً عمرة القضاء، وكان هؤلاء الأربعة والألف ونيف هم الرصيد المذخور والركيزة الأساسية للجيش الإسلامي، وكان عليهم أن يستوعبوا الجليل الرافد مادياً ومعنوياً، يستوعبوه مادياً فينتهي له نفقته، كما ذكر حاضرو المدينة من الأعراب: يا رسول الله، والله ما لنا من زاد، وما لنا أحد يطعمنا، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله وأن يتصدقوا، فقالوا: يا رسول الله، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً؟ فقال: «ما كان ولو بشق تمرة»، وعليهم أن يستوعبوه معنوياً، فيقوموا بتربيته التربية المطلوبة؛ ليتمثلوا الإسلام بهذه السرعة، ويرتفعوا إلى المستوى الإسلامي المطلوب.

(٨) وأصبح أهل مكة منذ الحديبية في وضع نفسي لا يُحسدون عليه، فقد انهمزوا معنوياً، ودبَّ بهم اليأس أن يكونوا قادرين على مواجهة الرسول ﷺ، ورسخ في ذهن قياداتهم أن محمداً ﷺ لا يُغلب، فعمرو بن العاص بفراسته ودهائه أدرك هذا الأمر منذ غزوة الخندق قائلاً: «كَمْ أَوْضِعُ؟ (أوضع البعير راكبه: إذا حمّله على سرعة السير) وَاللَّهِ لَيُظْهِرَنَّ مُحَمَّدٌ عَلَى قُرَيْشٍ! فَخَلَفْتُ مَالِي بِالرُّهْطِ وَأَفَلْتُ - يَعْنِي مَنْ النَّاسِ - فَلَمْ أَحْضِرِ الْحَدِيثَةَ وَلَا صَلَحَهَا». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٤٢].

وخالد بن الوليد يُغزى بأعماقه منذ الحديبية: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ، وَحَضَرَني رُشْدِي، وَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرَفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مُوضَعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، وَأَنْ مُحَمَّدًا سَيُظْهِرُ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَدِيثَةِ خَرَجْتُ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَقِيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ بِعُسْفَانَ، فَقُمْتُ بِإِزَائِهِ وَتَعَرَّضْتُ لَهُ فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ آمِنًا مَنًّا، فَهَمَمْنَا أَنْ نَغْيِرَ عَلَيْهِ ثُمَّ لَمْ نَعِزْمْ لَنَا - وَكَانَتْ فِيهِ خَيْرَةٌ - فَاطَّلَعَ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنَ الْهُمُومِ فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنِّي مَوْعِياً وَقُلْتُ: الرَّجُلُ مُمْتَوِعٌ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٤٦].

وأبو سفيان بن حرب القائد العام، كان في تجارته أثناء الحديبية، ومضى - في تجارته بعدها، وساقته الأقدار إلى قبصر الروم، وسمع مقالته بمحمد ﷺ، فقال: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملوك بني الصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر، حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

والذين بقوا مقتنعين بالمواجهة وجربوا حظهم فيها يوم فتح مكة أمثال سهيل وصفوان وعكرمة، انهاروا وفروا بعد ساعات من هذه المواجهة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٩٢-٢٩٧].

### ٣٢ - عمر ؓ وحماية التوحيد:

يقول الصالح: «الحكمة في قطع عمر ؓ الشجرة وفي إخفاء مكانها أنه لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أَمِنَ من تعظيم الجهال لها حتى ربا أفضى بهم أن لها قوة نفع وضرر كما نراها

الآن شاهداً فيما دونها، وإلى ذلك أشار عمر رضي الله عنه بقوله: «كانت رحمة من الله»، أي كان إخفاؤها بعد ذلك رحمة من الله تعالى، ويُحتمل أن يكون معنى قوله: «رحمة من الله» أي كانت الشجرة موضع رحمته ومحل رضوانه لإنزاله الرضى على المؤمنين عندها.

وقول المسيب والد سعيد: أنسيناها، وفي لفظ نسيناها، أي نسينا موضعها بدليل قوله: فلم نقدر عليها. وفي رواية عند الإسماعيلي: فعمي علينا مكانها.

وقول المسيب وابن عمر: أنها لم يعلمها مكانها، لا يدل على عدم معرفتها أصلاً، فقد قال جابر رضي الله عنه كما في الصحيح: «وَلَوْ كُنْتُ أَبْصِرُ الْيَوْمَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَةِ»، فهذا يدل على أنه كان يضبط مكانها بعينه، وإذا كان في آخر عمره بعد الزمان الطويل يضبط موضعها، ففيه دلالة على أنه كان يعرفه بعينها، قبل أن يقطعها عمر رضي الله عنه. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ١٢١/٥ - ١٢٢].

ويقول د/ أبو فارس: «تروي بعض كتب السيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أمر بقطع الشجرة التي بايع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحتها. [ينظر: عيون الأثر ١٢٤/٢، والطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٠/٢، والفتوحات الإلهية ١٦٥/٤، وتفسير القاسمي ١٥/٥٤١٧].

وهذا الصنع من عمر رضي الله عنه كان في غاية الأهمية وأقصى درجات الحكمة؛ ذلك لأن بقاء الشجرة قد يؤدي بعد تعاقب أجيال إلى تعظيمها وتقديسها لا سيما إذا خف الوازع الديني الحقيقي عند الناس، وفترت همهم وتقاعست عن طلب العلم فرضوا بالجهل، وشاع عندهم الخرافات والأوهام. وسداً لهذه الذريعة فقد قطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الشجرة.

قال ابن سعد: أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا عبد بن عون عن نافع قال: كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها، قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت. [الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٠/٢].

قال ابن حجر في الفتح، عن هذا الإسناد: صحيح. [فتح الباري ٨/٤٥٣].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٣].

ويقول د/ أبو خليل: «وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته أن ناساً يُصلُّون عند الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان، ويطوفون بها، فتوعدهم، ثم خاف من اتساع الأمر والمغالاة في تعظيمها لبركة ما جرى تحتها، فأمر بقطعها.

لقد كان رضي الله عنه حريصاً على التوحيد المطلق في النفوس، وألا تشوبه شائبة». [صلح الحديبية لأبي خليل ١١٩].

ويقول الشيخ الغزالي: «وقد قُطعت الشجرة ونسي مكانها، وذلك خير، فلو بقيت لُصِرت عليها قُبّة وشدّت إليها الرحال، فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم عن الله».

[فقه السيرة للغزالي ٣٤٣].

ويقول د/ العوا: «وقد علل العلماء قطع عمر رضي الله عنه للشجرة، كما عللوا خفاءها على بعض أصحاب النبي ﷺ من أهل البيعة أنفسهم، بأن ذلك كان لئلا يفتتن بها الجهال من عوام المسلمين، بسبب ما وقع تحتها للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم من الخير، فيظنوا أن لها قوة وتأثيرًا تنفع بهما وتضر، وهو ما لم يكن واقعًا قطعًا في زمن الصحابة والتابعين.

وقد اتخذ بعض التابعين مسجدًا بسيطًا في الموضع الذي كان متعارفًا عليه بينهم أنه موضع الشجرة، وقد تهدم هذا المسجد وُجِّد بناءؤه مرات، كان آخرها في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله على ما أخبرني الأخ الجليل الشيخ أحمد زكي يمان، وقال لي إن لدى موسوعة الحرمين الشريفين، التي يشرف عليها ويعمل لإصدارها قريبًا، صورة من الجوِّ لقواعد المسجد كما كانت في آخر بناء له قبل أن يهدم ذلك البناء للسبب نفسه: خشية افتتان الناس به!

والفقه في هذه المسألة يدور على قاعدة «سد الذرائع»، فكل سبيل يخاف منها على العقيدة الصحيحة، أو يخشى أن تفضي إلى اختراع عبادة لا أصل لها، أو نحو ذلك، فمن الواجب سدها، ويوازن دائمًا - لزومًا - بين المصلحة التي تتحقق بترك الأمر على حاله، وبين المفسدة التي يخشى من وقوعها، على نحو ما فعل رسول الله ﷺ عندما ترك بيت الله الحرام على حاله ولم يُعِد بناءه على قواعد إبراهيم عليه السلام، وعُلِّل ذلك بأن الناس حديثو عهد بالكفر، أو بالجاهلية، أو بشرك. [متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، البخاري ١٥٨٣-١٥٨٦، ومسلم ١٣٣٣، والألفاظ الثلاثة فيها، وقد جمع روايته الشيخ الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم ٤٣].

فإذا أردنا أن نطبق ذلك على مسألة مسجد الحديبية، وعلى مسألة الشجرة التي أمر عمر رضي الله عنه بقطعها، وجدنا أن عمر رضي الله عنه على أصل صحيح حين خشي - والناس قريبو عهد بشرك - أن تقدس الشجرة، ويظن بها ما لا يجوز اعتقاده من النفع والضرر.

ولكن المسجد - عند المسلمين كافة - هو لله وحده، لا يعبد فيه إلا الله سبحانه، وليس ثمة خوف من أن يكون المسجد وسيلة إلى الشرك بالله أو عبادة الشجر أو الحجر معه، كيف والقرآن يتلى كل يوم فيكرر القارئون: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الجن]، فلعله كان من الأولى ترك المسجد لا هدمه، وفي توعية المسلمين وتثقيفهم ما يحول بينهم وبين المفسدة التي قد يخشى بعض الخائفين على إيمان الناس منها. والله تعالى أعلم». [الحديبية للعوا ٩١-٩٣].

### ٣٣ - الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام <sup>(١)</sup>:

يقول د/ أبو فارس: «الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام هي طريق الخلاص من الفتنة التي يتعرض لها أبو بصير عليه السلام ومن معه من المسلمين؛ ذلك لأن دار الإسلام هي دار الأمن والأمان والاستقرار لكل مسلم، هي دار الحرية في العبادة والسياسة والتنقل.

وفي الوقت ذاته فإن دار الكفر هي سجن للمؤمن، لا يملك أن يعيش فيها بحرية، فإنه لا يملك أن يجهز بعقيدته دون أذى، ولا يملك أن يدعو الناس إلى دعوته دون أن يلاقي من أهل الكفر العنت والمشقة، والمؤمن قد تمر به ظروف يضطر معها إلى الإسهام في هذا المجتمع وتقويته مما يكون له آثار سلبية على المجتمع الإسلامي.

وما دام الأمر كذلك فإن على المسلم أن يهجر دار الكفر - إن استطاع - إلى دار الإسلام، حتى يكثر سواد المسلمين، وحتى يضم جهوده إلى جهود المسلمين، في بناء المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية، التي تحمي حريته وتدافع عنه في الداخل والخارج.

لقد صمم أبو بصير عليه السلام على الهجرة من مكة دار الكفر إلى المدينة دار الإسلام لينجو من الفتنة، ويسهم في بناء المجتمع والدولة، بناء على أمر الله القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝١٨﴾ [النساء].

والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مطلوبة من النساء كما هي مطلوبة من الرجال: ومن هنا انطلقت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها مهاجرة إلى المدينة فارة بدينها إليها، تأرز إلى المجتمع الإسلامي الذي يحميها ويدفع عنها نار الفتنة وأذاها». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٥٢، ١٧٢].

### ٣٤ - قصة العقيدة المكافحة:

يقول الشيخ الغزالي: «وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانها لها دلالة مثيرة، فهي قصة العقيدة المكافحة في لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب! وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شيء إلا سلامة جوهره، إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تهيئهم من مخالطة الرسول ﷺ والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح، بيد أنهم عوّضوا عنها من الاتصال بكتابه والاقتراس من آدابه، فكانوا - في اهتدائهم للحق وإبائهم للضيم وإشارهم للمغامرة - مثلاً حسناً للإسلام المكافح العزيز». [فقه السيرة للغزالي ٣٥٠].

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في سرية عبيدة بن الحارث عليه السلام إلى رابع في شوال ١ هـ.



## المبحث الثاني الدروس التربوية والأخلاقية

### ١ - تيسير الأمور ورفع الحرج:

يقول د/ أيوب: «إني أرى ساحة الإسلام وحسن التفاوض من رسولنا ﷺ، فحين رأى ﷺ سهيل بن عمرو قال: سَهِّلْ أَمْرَكُمْ، وأمر المسلمين بالتلبية.

ولقد رأينا النبي ﷺ يتساهل فيما أراده سهيل، ويأمر علياً ﷺ أن يكتب ما يُرضي سهيل في عزة الإسلام، وفي غير متقصة، فسهيل لا يوافق على بدء شروط الصلح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، بل يريد أن ينص (باسمك اللهم)، فيوافق الرسول ﷺ حيث لا ضرر، فلفظ اللهم هو معنى يا الله، وكذلك لا يوافق سهيل على لفظة (محمد رسول الله) بل يريد أن ينص (محمد بن عبد الله)، ومحمد بن عبد الله هو محمد رسول الله ﷺ، فلم ير في كتابتها بأساً ﷺ، فهل لنا نحن المسلمين ودعاة الإسلام أن نأخذ من هذا الذي حدث من النبي ﷺ لسهيل أسوة حسنة في أرضاء من يمدون إلينا يد المصالحة ويمنح لسلام كما أمر الله ﷻ فقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَحَوُّهُ لَلْإِسْلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال].

إن هذا يفتح باباً للمسلمين في تيسير أمورهم وعدم الحرج في أمور لا ضرر فيها ولا ضرار، وعملاً بسنة ﷺ وهي أنه ما خُير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، وصدق الله العظيم: ﴿وَيُسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى]، أي للطريقة السهلة السمحة.

يقول ابن كثير ما نصه: «أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر». [تفسير ابن كثير لسورة الأعلى].

[صلح الحديبية لأيوب ٤٧-٤٨].

### ٢ - الأدب المستحب من الإمام علي عليه السلام:

يقول الصالح: «امتناع علي عليه السلام من محو لفظ: «رسول الله ﷺ» من باب الأدب المستحب؛ لأنه لم يفهم من النبي ﷺ تخميم محو علي عليه السلام بنفسه؛ ولهذا لم ينكر عليه، ولو تحتم محوه بنفسه لم يجوز لعلي عليه السلام تركه، ولما أقره النبي ﷺ على المخالفة.

وفي قوله ﷺ: «فإن لك مثلها - تعظيماً - وأنت مضطهد»: أي مقهور، معجزة ظاهرة لما وقع لعلي عليه السلام في التحكيم». [سبل الهدى والرشاد للصالح ١٢٣/٥].

ويقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من هذا أن المسلم قد يضطر أحياناً القيام بفعل من الأفعال وهو ليس مقتنعاً به، بل هو كاره له، ولكن يترتب على فعله مصلحة.

فقد أمر رسول الله ﷺ علياً ﷺ بأن يمحو كلمة (رسول الله ﷺ)، وهو يقول: (والله إني لرسول الله وإن كذبتوني).

وهذا ما حدث لعلي بن أبي طالب ﷺ في التحكيم، فهو الإمام الشرعي وليس لأي إنسان منازعته الأمر، وطاعته واجبة فقد جاء من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: «بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الْحَرْبِ، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي السُّرِّ وَالنَّهْزِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا (أي الإيثار) وَعَلَى أَلَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ إِيَّتَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً».

[البخاري في الأحكام (٧١٩٩)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩، ٤١٥١، ٤١٥٢، ٤١٥٣، ٤١٥٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٦)، والموطأ في الجهاد (٩٧٧)، وأحمد عن عبادة بن الصامت ﷺ].

وفي رواية: «بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ». [البخاري في الفتن (٥٦: ٧)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١١٧-١١٨].

### ٣- أسباب عدم قبول الصحابة ﷺ لشروط الصلح في بادئ الأمر:

يقول د/ أبو فارس: «لم تسترح نفوس المسلمين في بداية الأمر لبنود الصلح، أعلنوا ذلك بصراحة ووضوح، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ﷺ وقد مر معك موقفه مفصلاً.

نعم لقد قامت عدة أسباب في نفوس الصحابة ﷺ حملتهم على عدم استراحتهم لبنود الاتفاقية:

(أ) لقد ساروا إلى مكة تواقين إلى البيت الحرام، قلوبهم تهفو إليه ونفوسهم تتحرق شوقاً إليه، وألستهم تحددوا لتسرع إليه، لقد جاؤوا وهم على يقين أكيد من زيارته والطواف به ونحر هديهم عنده، وإذا بهذه الاتفاقية تحول دون تحقيق أمنيتههم وغايتهم، فيعودون جميعاً بلا عمرة حتى ولا رؤية لبيت الله الحرام. لقد كانوا مطمئنين إلى زيارة بيت الله الحرام بناء على ما فهموه من رؤيا رسول الله ﷺ التي قصها عليهم فرقصت قلوبهم فرحاً لسماعها.

(ب) لقد لاحظت لهم فرصة ثمينة، وقد لا تعوض، إنها فرصة القضاء على هذا العدو اللثيم، الذي يصددهم عن البيت، إذ تخلى عنه النصارى، أنكر عليه فعله الأصدقاء والحلفاء، والوقت مناسب لدخول مكة عنوة وإذلال الشرك وأهله، وتحرير البيت وتطهيره من المشركين ورجسهم وأوثانهم وجميع مظاهر الانحراف والفساد.

إنهم بايعوا الرسول ﷺ على قتال قريش والثبات على ذلك حتى النصر أو الشهادة، والنصر منهم قاب قوسين أو أدنى، وإذا بهذه الاتفاقية تحول بينهم وبين تحقيق هذه الفرصة الثمينة.

(ج) أن البنود في ظاهرها يستنبط منها أنها كانت لمصلحة المشركين ولم تكن في صالح المسلمين، وهذا أيضًا قد غاظهم غيظًا شديدًا فضجروا منه وتألوا ألمًا شديدًا.

(د) وزاد من غيظهم ما حدث لأبي جندل رضي الله عنه، إذ جاء فارًا بدينه متلججًا إليهم يرسف في الأغلال، وإذا بسهيل بن عمرو قد انهال عليه ضربًا وأخذه وأعاده للمشركين، وهو يقول: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!

فألهب مشاعر المسلمين هذا المنظر فهاجت نفوسهم واشتعل غضبهم.

وبعد هذا نزلت آيات سورة الفتح تخبر أن الصلح كان فتحًا، لم يدرك المسلمون أثناء عقده آثاره ونعمه وفضله عليهم، ولكن هذه الآيات من هذه السورة قد طمأنتهم، وسكنت نائرتهم حين ذكرت لهم ذلك؛ لأن الله يعلم الغيب وما أخبر به سيقع لا محالة.

لقد كان لهذه الآيات وقع حسن في نفوس المؤمنين، وقلوبهم المضطربة الحزينة التي ظنت في بنود هذه الاتفاقية ظنًا غير حسن، من غمط لحقوقها، وتساهل في معاملة أعدائها.

حقًا إن هذه الآيات تسكن النفوس الهائجة، وتسكب في قلوب أصحابها الرضا والراحة والاطمئنان والسكينة، وهكذا كان». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٣٢-١٣٤].

#### ٤٠ - إيضاح أهم نقطة إشكال:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان البند الذي يتضمن تعهد النبي ﷺ بأن يرد إلى المشركين من جاءه من أبنائهم حتى ولو كان مسلمًا، ولا تعهد قريش برد من جاءها من المسلمين إليهم.

كان هذا البند - على وجه الخصوص - مصدر تضايق للمسلمين؛ لأنهم لم يهضموه ولم يستسيغوه كبشر، حتى قال قائلهم - عندما سمعوا موافقة النبي ﷺ: **سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟!.**

وقد أصاب المسلمون (لقبول هذا الشرط) همٌّ عظيم.

غير أن النبي ﷺ بأسلوبه الحكيم وبمنطق واقعي سليم بدد كل غيوم الهم تلك التي خيمت على نفوس المسلمين، فأجابهم بصدد هذا الشرط الذي استنكروا قبوله بقوله ﷺ: **«نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ (أي مرتدًا) فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ (أي مسلمًا) وتعهدنا بعدم السماح له بالإقامة بيننا) سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا».** [مسلم في الجهاد (١٧٨٤)، ومسنَد أحمد ٣٢٨/٢١ رقم ١٣٨٢٧].

وكان التفسير النبوي تفسيرًا واقعيًا ومعقولًا أعاد للنفس القلقة طمأنيتها، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو أشد الصحابة معارضة لقبول هذا الشرط - اقتنع بهذا القول النبوي وأدرك أن فعل الرسول ﷺ هو الصواب.

وهذا درس مهم ألقاه النبي ﷺ على أصحابه يجب الاستضاءة بنوره في التآني وعدم التسرع في تفسير الأمور واستخراج النتائج أثناء الانفعال وفورة العاطفة؛ لأن استخلاص النتائج (حينئذ) يكون مغلوطاً كما حدث حينما تسرع بعض المسلمين في تفسير قبول النبي ﷺ بهذا الشرط بأنه يحمل المساس بكرامة المسلمين ودينهم، ثم بان لهم خطأ هذا التفسير عندما أكد لهم النبي ﷺ بلغة العقل لا (العاطفة) عدم وجود أية دنية عليهم في قبول هذا الشرط الذي كادوا يهلكون غمًا لدى سماعهم موافقة النبي ﷺ على قبوله». [صلح الحديبية لابشميل ٢٨٠-٢٨١].

ويقول الشيخ القرني: «أما موافقة النبي ﷺ على البند الخاص بأن من جاء من المشركين إلى المسلمين يردونه ولو كان قد أسلم، وأما من ذهب من المسلمين إلى المشركين لا يردونه، فقد أشار النبي ﷺ إلى حكمة موافقته قائلاً: «إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَخُرْجًا». أجل، فما حاجة المسلمين برجل لم يتعمق الإيمان في داخله، بل هو أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان؟ أما الذي يأتي مسلماً ويرد فتلك التي تركت أثرها في نفوس المسلمين، وظهر هذا الأثر قوياً حين أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو - وسهيل إذ ذاك سفير قريش في كتابة الصلح - جاء أبو جندل يرسف في أغلاله يريد أن يلحق بالمسلمين، ولكن النبي ﷺ يسمح لأبيه سهيل أن يسترده، فقال أبو جندل: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتُرْذُونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَقْتُلُونِي فِي دِينِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَخُرْجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ».

وابتلع المسلمون المرارة وسكتوا، وجاء بعد ذلك إلى المدينة رجل آخر من قريش اسمه أبو بصير، فأرسلت قريش في طلبه رجلين يستردانه، فسلمه النبي ﷺ إليهما، ولكن المرارة في هذه المرة أصبحت غصة. إلا أن الله أراد أن يجلي للمسلمين الحكمة العالية في تصرف رسوله الحكيم، فقد غافل أبو بصير أحد حارسيه في الطريق إلى مكة وأخذ منه سيفه وقتله، وفر الآخر، وكان ذلك في مكان اسمه «ذو الحليفة».

وعاد أبو بصير إلى النبي ﷺ ليقول له: يا نبي الله، والله أوفى ذمتك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم، ولحق أبو بصير بساحل البحر، ولم يلبث أن لحق به أبو جندل أيضاً، وأصبح المكان الذي لجأ إليه مثابة للمسلمين من أهل مكة، ثم أخذوا يترصدون بعير قريش يقطعون عليها الطريق، ويقتلون مَنْ فيها ويغنمون ما فيها، فاشتد الأمر بقريش حتى أرسلت إلى النبي ﷺ من يناشده الله والرحم أن يقبل هؤلاء الفارين عنده حتى تسلم لها تجارتها وأهلها، وبذلك أعطت قريش بيدها وتنازلت مرغمة عن ذلك الشرط الذي نغص المسلمين.

وبذلك تنبه المسلمون إلى أن نظر النبي ﷺ أسبق من نظرهم وأبعد، وأن تصرفه إنما هو محروس بالعناية الإلهية التي تسدده وتوجهه». [هدي السيرة للقرني ١٨٤-١٨٥].

#### ٥ - الحكمة في قبول شروط سهيل:

يقول د/ أبو خليل: «والحكمة في كونه ﷺ وافق سهيلاً على شروط الصلح عامة، وشروط رد من جاءه مسلماً إلى قريش خاصة، المصلحة المترتبة على هذا الصلح.

يقول الإمام النووي: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْمَصْلَحَةُ الْمُرْتَبَةُ عَلَى إِتْمَامِ هَذَا الصُّلْحِ مَا ظَهَرَ مِنْ ثَمَرَاتِهِ الْبَاهِرَةِ، وَفَوَائِدِهِ الْمُتَّظَّاهِرَةِ، الَّتِي كَانَتْ عَاقِبَتُهَا فَتْحُ مَكَّةَ، وَإِسْلَامُ أَهْلِهَا كُلِّهَا، وَدُخُولُ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَبْلَ الصُّلْحِ لَمْ يَكُونُوا يَخْتَلِطُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّظَاهَرُ عَنْدهُمْ أُمُورُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا هِيَ، وَلَا يَحِلُّونَ بِمَنْ يَعْلَمُهُمْ بِهَا مُفَصَّلَةً، فَلَمَّا حَصَلَ صُلْحُ الْحَدِيثِ اخْتَلَطُوا بِالْمُسْلِمِينَ، وَجَاؤُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَكَّةَ، وَحَلُّوا بِأَهْلِهَا وَأَصْدِقَائِهِمْ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَسْتَنْصِحُونَهُ، وَسَمِعُوا مِنْهُمْ أَحْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ مُفَصَّلَةً بِجُرْئِيَّاتِهَا، وَمُعْجَزَاتِهِ الظَّاهِرَةِ، وَأَعْلَامَ ثُبُوتِهِ الْمُتَّظَّاهِرَةِ، وَحُسْنَ سِيرَتِهِ، وَجَمِيلِ طَرِيقَتِهِ، وَعَانُوا بِأَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ، فَمَا زَلَّتْ نَفُوسُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ حَتَّى بَادَرَ خَلْقٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَأَسْلَمُوا بَيْنَ صُلْحِ الْحَدِيثِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَازْدَادَ الْآخَرُونَ مَيْلًا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ أَسْلَمُوا كُلُّهُمْ لِمَا كَانَ قَدْ تَمَّهَدَ لَهُمْ مِنَ الْمَيْلِ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ فِي الْبَوَادِي يَنْتَظِرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ إِسْلَامَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ أَسْلَمَتِ الْعَرَبُ فِي الْبَوَادِي، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ [النصر].

[شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٤٠ في الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية].

لقد جاءه ﷺ العرب بعد فتح مكة من أرجاء الجزيرة طائعين، وكان هذا الصلح هو سبب فتح مكة.

فالله ورسوله أعلم بالحكمة البالغة، فإن صد المسلمين عن البيت كان في الظاهر هضماً للمسلمين، وفي الحقيقة عزاً وقوة، فأذل الله ﷻ المشركين من حيث أرادوا العزة لأنفسهم، وقهرهم من حيث أرادوا الغلبة، والله العزة ورسوله وللمؤمنين، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

[صلح الحديبية لأبي خليل ١١٥-١١٦].

#### ٦ - الصبر والاحتمال لمصلحة الإسلام والمسلمين:

يقول د/ أبو شهبه: «وإن لنا هنا لوقفة ترينا مبلغ صبر الرسول ﷺ واحتماله، وتنازله عن بعض حقوقه في سبيل إتمام الصلح، ولو أن النبي ﷺ استجاب لرغبات بعض المسلمين أو لهوى في نفسه لما تم الصلح، وهذا يدل على أنه نبي يوحى إليه، كما يدل على سمو نفسه سموً يعلو على الجاه وعن هوى

النفس وعن الألقاب، وكل ذلك كان حرصاً على الوفاء بما وعد به حيثما قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

وإن ما حدث في صلح الحديبية ليعتبر مثلاً يحتذى في المساهلة في الشروط طلباً للأمن والسلام، فهل يكون فيما صنعه رسول الله ﷺ قدوة للقواد والزعماء والرؤساء في عالمنا المضطرب الخائف، الذي يشاهد كل يوم مؤتمرات واجتماعات في سبيل السلام والحد من التسابق المجنون في سبيل التسليح ثم تنتهي إلى لا شيء؟!». [السيرة النبوية لأبي شعبة ٣٣٦/٢].

ويقول د/ أيوب تحت عنوان «الحلم إلى أقصى درجاته»: «ويظهر ذلك في حلمه ﷺ أمام المسلمين من ناحية وأمام المشركين من ناحية أخرى، فمن جهة المسلمين حيث قام عمر رضي الله عنه وقال ما قال.

ثم جاءت الأيام، وصدق رسول الله ﷺ، وقال عمر رضي الله عنه: مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأَعْتِقُ مِنْ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا.

إنه نور النبوة، وحلم الرسول ﷺ، إنه عقل القائد المؤمن والداعية الأول، ليرسم للدعاة وللقيادة الطريق.

إنه رافع الشراع للسفينة - سفينة النجاة - إنه يقول للقادة والدعاة هذا هو الطريق وتلكم هي سفينة النجاة، محمد ﷺ رُبانها، والمؤمنون معه ركايبها، والله ﷻ باعثها، فهل من عيون واعية تنظرها، وهل من أعناق تشرب إليها، وهل من رجال يشمرون العزم ليبحروا في هذه السفينة قبل أن يدرتهم الموج العاتي فيندمون؟ إنها سفينة الله تسير بالسلام والحكمة والأناة، إنها تتخطى الأمواج بما فيها من شرور وهلكة حتى ولو كانت هذه الأمواج أمواج مشركي مكة.

ومن الناحية الأخرى، فإن هذا الصلح يثبت لدعاة الإسلام كيف كان حلم الداعية الأول وصبره على تعنت المشركين، قائد وزعيم ورسول جاء وأصحابه الكرام ليعتصروا ويطوفوا بالبيت الحرام، فتقول قريش الغارقة في الكبر والثنية والتي أخذت من عبادتها للأصنام الغلظة الصياء التي قتلها الكبر ونأى بها إلى الخصام والعدوان، إنه الحقد الذي قتل قلوبهم وتلفظت به ألسنتهم: «لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَنُوءٌ أَبَدًا، وَلَا تَحْدُثُ بِذَلِكَ عَنَّا الْعَرَبُ»، وعلى ذلك يتحمل الرسول الزعيم القائد ﷺ كل شرط من شروطهم المجحفة والتي كان منها ما يثير غضب الحليم مثل هذا الشرط (من جاءك مسلماً رددته علينا ومن جاءنا من المسلمين لا نرده إليك)، وبالظلم والشرك بالله وسفاهة الأحلام، كل هذا والرسول ﷺ يوافق، وغير هذا الشرط مثل قول سهيل ابن عمرو حين كتب علي رضي الله عنه: (هذه ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)، متوجاً شروط الصلح ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فقال: سهيل لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم أمحها

واكتب باسمك اللهم، فيقول علي عليه السلام: لن أمحوها، فيضع الرسول النبي الأمي ﷺ يده الشريفة ليمحوها ويقول له: (اكتب باسمك اللهم)، وامحوا الاسم الشريف (رسول الله) واكتب محمد بن عبد الله، ويمتنع علي عليه السلام، ويمحوه الرسول ﷺ.

إن هذا لبلاغاً لقوم عابدين، إنه لنور للسالكين، إنه القدوة الحسنة في فض كل خصام وإزالة كل نزاع، مهما كانت الأمواج عاتية والعقول متحجرة والأفئدة هواء». [صلح الحديبية لأيوب ٧-٨].

## ٧- ضبط النفس:

يقول د/ أيوب: «يجب على كل مسلم أن يضبط نفسه وأن يهدي من أعصابه عند استثارة أي شيء من شأنه يحدث الغضب، وخاصة من مصادر السفهاء والجهال والمتعنتين، ويجب أن يقابل كل ذلك بالحلم والتبصرة في الأمور، وخاصة القادة والرواد والرؤساء ومن لهم أدنى ولاية على غيرهم. وعلينا أن نأخذ هذا الدرس من حلمه ﷺ على قريش في صلح الحديبية، رغم أن لديه قوة من الأسود والضواري الذين شهدتهم قريش في حروبها المهزومة في بدر وفي أحد، وهم فرسان المسلمين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم واشتروا الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْرَأُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيَقْتُلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

بالرغم من أن القائد الصادق الأمين ﷺ يمتلك هذه القوة فكان يقابل استعلاء قريش بتواضعه الجمل، ويقابل التعنت في شروط الصلح بالموافقة السلمية، فإذا فعل التعنت مع ضبط النفس؟

كانت في النهاية مكة كلها والحرم في يد المسلمين حتى تقوم الساعة، وانزوى عنها الشرك إلى غير رجعة كما يزول الدخان الذي يتصاعد من المداخل العالية، فإذا به يذوب ويذهب.

أما كلمة الحق والنفس الراضية المرضية فقد بقيت وستبقى إلى يوم القيامة؛ لأنها تصعد من الفم الطاهر فلا تحجبها الأفلاك بل ترتفع فوق السماوات، وصدق الله العظيم: ﴿لِيَهِيَ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

لله ما أحسن التواضع والحلم وضبط النفس من المسلمين، وخاصة من ولاهم الله الأمور من دعاة الإسلام ورؤساء المسلمين وملوك الإسلام، فهل من مجيب إلى هذا الدرس بله الدروس من صلح الحديبية. اللهم آمين». [صلح الحديبية لأيوب ١٤٩-١٥٠].

## ٨- الرد على افتراءات المستشرقين:

يقول د/ أبو خليل: «يقول فردريك دينسون موريس: «من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحًا

إلا عندما كان يهدف إلى الغزو». [الدعوة إلى الإسلام ص ٦٩ عن: The Religions of the World, p28 «Cambridge» 1852].

وصلح الحديدية يقوّض كل دعائم هذا الافتراء - إن وجدت له دعائم - فمن الثابت أن الإسلام كان يصادف النجاح والانتشار في الجو الهادئ، بعد أن تضع الحرب أوزارها، وهذا صلح الحديدية أكبر دليل على نجاح الإسلام عندما توقف القتال، فدخل فيه في سنتين اثنتين فقط، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

وهذا ما حدث مع التتار، الذين آبوا بسيف الكلمة الطيبة، التي حملها دعاة الإسلام، مسلمون يدعون أبناء جلدتهم إلى الإسلام.

وهذا ما حدث أيضًا في انتشار الإسلام في الهند وسيلان والتبت والصين والفلبين وإندونيسيا وشبه جزيرة الملايو، وكما حدث ويحدث في إفريقيا الوسطى والجنوبية، وكما يحدث اليوم في أمريكا وأوروبا غربًا، واليابان شرقًا.

وقال «سيدو» في كتابه: «تاريخ العرب العام» [تاريخ العرب العام، ل.أ. سيدو، ط ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م، ص ٦٥، ٦٦]: «أدرك محمد أن دينه ينهار إذا ما تبددت حرارة أصحابه بسبب البطالة، وكانت الحرب أفضل وسيلة لإمداد نار الحماسة التي أوقدها، وكان يجب أن يوجّه إليه الأنظار، ما يتم له من الانتصارات الحربية يعده دليلًا معجزًا على حماية الله له، فعقد نيته على سلوك سبيل الجهاد».

لم يكن فرض الجهاد على المسلمين إلهاء لهم، ولا شغلًا لأوقات فراغهم، ولا دفعًا لبطالة صاروا إليها، فقد كان عند المسلمين من المهام في بناء دولتهم، وإقامة مجتمعهم ما يستغرق وقتهم، ويستنفذ طاقاتهم، فالجهاد للدفاع عن العقيدة وحمايتها، لا تشقيًا ولا انتقامًا، ولا طلبًا لمغنم مادي.

ففي الفترة المكية لا حرب ولا قتال، فكيف حافظ رسول الله ﷺ على نار الحماسة التي أوقدها؟

وكان رسول الله ﷺ المدافع دائمًا، وقريش المهاجمة في بدر وأُحُد والخندق.

والدليل المعجز على حماية الله لرسوله، كانت ظاهرة للعيان في كل مرحلة من مراحل حياة رسول الله ﷺ حتى قبل ولادته كانت البشائر التي رأتها أمّة بنت وهب، دليلًا على عناية الله سبحانه، وهذا ما كان أيضًا في ولادته ورضاعه وطفولته وشبابه، وفي بدء الدعوة والهجرة حتى وفاته ﷺ، كانت عناية الله ورعايته تظلله.



والدليل المعجز لحماية الله ورعايته لرسوله، لا يأتي من نصر في معركة فقط، بل يتجلى ذلك في نجاح دعوته، وانتشار الإسلام وتوحيد القبائل العربية، والتفافها لأول مرة في التاريخ حول راية واحدة، كُتب عليها: الله أكبر، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، حقاً وصدقاً.

ولو رأى رسول الله ﷺ أن استمالة الناس إلى الإسلام لا يتم إلا بالجهاد، لما وقَّع صلح الحديبية، حيث هادن قريشاً عشر سنوات، فدخل في الإسلام خلال فترة وجيزة - دون جهاد وسيف - ما دخل فيه خلال سنوات عديدة.

وصلح الحديبية، وتفاصيل توقيعه، دليل دامغ على افتراء (فردريك دينسون موريس) و(سيديو)، لقد قَبِلَ رسول الله ﷺ شروط قريش، على ما في ظاهرها من تعالٍ، ليحقق هدنة تنتشر فيها المبادئ، وتُعرض خلالها البضاعة الأجود.

ولئن ثَبَّت بدر الكبرى قواعد الدولة الناشئة، فلقد فتحت الحديبية المجال أمامها لتصل إلى الهدف الذي كان رسول الله ﷺ يُبعد نظره، ودقة تقديراته يرمي إليه، ألا وهو وحدة العرب في وحدة عقيدتهم، وفي وحدة صفهم؛ ليتابعوا بعدها تبليغ الرسالة للناس أجمع: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا، ﴿٢٨﴾]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] [الفرقان].

ولم يعبأ رسول الله ﷺ عندما سار إلى الحديبية بيهود خيبر؛ لأنهم لن يُقدِّموا على عمل عسكري ضد المسلمين في المدينة، إلا بعد حسابات دقيقة، فمصير بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة على التسلسل، ليس عن البال ببعيد، بل إنه ماثل أمام ناظرهم.

وسنرى في صلح الحديبية، على الرغم من أن موقف الصحابة كان في موضع تساؤل:

- قبول النبي ﷺ العودة دون عمرة.

- وقبوله شروط قريش كما أملاها سهيل بن عمرو.

- وعدم خلق وذبح المسلمين لهديم فور صدور الأمر.

رغم ذلك، سنرى السيطرة التامة لرسول الله ﷺ على الموقف؛ لأنه أدرك بما يعمل، وأعلم بما يخطط:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ٢ ﴿وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ٣ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ٤ [الفتح]. [صلح الحديبية لأبي خليل ١٠-١٤].

## ٩ - الجراءة في الحق:

يقول د/ أبو خليل: «يَا عُمَرُ! تَرَانِي أَرْضَى [قَدْ رَضِيتُ] وَتَأْبَى أَنْتَ؟!»: موقف عمر رضي الله عنه في الحديبية، هو موقف كل مسلم شهد الحديبية، ولم يكن في الجيش أحد راض بكل ما جرى، إلا أن عمر رضي الله عنه كان جريئاً فأفصح عما في نفسه، فظاهر الشروط، وللوهلة الأولى، جاءت ضد عزة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وإيمانهم الكامل بأن النصر لهم حتماً، وأنهم لا شك سيدخلون مكة، ويطوفون بالبيت الحرام.

وموقف الصديق رضي الله عنه، موقف «إِنْ قَالَهَا فَقَدْ صَدَقَ»، التسليم الكامل، والتصديق التام المطلق.

والنقاش الذي جرى «فَعَلَامُ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا؟» سببه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال إن الذي جرى، جرى بوحي، والصحابة كانوا في مواقف كثيرة يقولون: أوحى يا رسول الله؟ كما هي الحال في بدر عندما أبدى الحُباب بن المنذر رضي الله عنه رأيه، وفي الخندق عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة، فإن كان وحياً سكتوا وقبلوا وسلموا تسليمًا، وإن لم يكن وحياً ناقشوا وأبدوا آراءهم، وفي الحديبية إبداء رأي لعدم وجود وحي إلهي في الموضوع، والأمر بعد نظر سياسي كبير عظيم من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرف نتائجه مسبقًا، فكانت ظاهر بنود الصلح لصالح قريش - كما ظنت - وجوهرها لصالح المسلمين، ودعم لمسيرتهم ودعوتهم.

ومما أثر في نفوس المسلمين أيضًا أن سهيل بن عمرو، هو الذي أملى بنود الصلح كما أراد وشاء، ولم يدع لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرصة تعديل أو تغيير أو تشاور في إنشاء البنود وصيغتها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل النص الذي يمليه سهيل ليضمن كتابة وثيقة رسمية موقَّعة مهور، فيها اعتراف خطي من قريش - زعيمة العرب - بقوة جديدة في الجزيرة العربية، هي القوة المنافسة التي وقفت قريش والأحزاب في وجهها، بل أرادت استئصالها قبل زمن ليس بعيدًا.

في الحديبية، جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام ناظره هدفًا واضحًا يريد تحقيقه، ألا وهو إيقاف الحرب، وحقن الدماء للفرغ للدعوة وتبليغ الإسلام، ونشر التوحيد بين القبائل بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الاعتراف الرسمي الخطي من قريش بهذا الحق.

وقد حقق صلى الله عليه وسلم ذلك، ولو جاءت بنود الصلح في ظاهرها كما أملها سهيل بن عمرو، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم حقق من خلال مضمونها ولُبَّابها الهدف الذي أراد، فالهدنة مع قريش تفسح له المجال لتحقيق هذا الغرض داخل الجزيرة العربية وخارجها، وجاءت الوقائع مؤيدة، والنتائج محققة صحة وجهة نظره صلى الله عليه وسلم. وأثرها كبير حتى على قريش ذاتها؛ لأنه دخل مكة في عمرة القضاء مما جعل أفرادًا كثرًا من قريش يعيدون حساباتهم كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، ولاسيما وأن المسلمين دخلوا مكة مضطبعين في

طوافهم، مظهرين زودهم وجزءاً من صدرهم؛ لتعلم قريش أن دعاواها التي أشاعتها بين أبنائها غير صحيحة، وأن حمى يثرب لم توهن قواهم، ولم تضعف أجسامهم، فها هم في صحة وبينة سليمة، وأجسام قوية، ودحض هذه الفرية، يعني الشك في افتراءات أخرى، جعلت شباب مكة يُحْكَمون العقل في الإسلام وبالمسلمين، ويشكون فيما سمعوا من قريش، وبما تخطط له.

قال رسول الله ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

فأنا يا عمر عبد الله، وهذه صفة أشترك فيها معك ومع المسلمين كافة، إلا أني رسول الله أيضاً، فرسول الله ﷺ لو قام بصلح أو معاهدة أو أمر فيه إضرار أو إذلال أو ما يسيء إلى المسلمين أو إلى روح الجماعة الإسلامية لأنزل الله وحيه مُحْذِراً مِنْهَا، فرسول الله ﷺ مطمئن قلباً وروحاً، فليس في الأمر إلا عزة المسلمين وخير مستقبلهم، وهذه طمأنينة تامة كاملة، لا يشوبها شك في قلب رسول الله ﷺ، فهو يرى أموراً وأهدافاً غابت عن عمر رضي الله عنه وعن بقية المسلمين، إنه يريد ما بعد الحديبية، وما يحققه هذا الصلح من هدنة وطمأنينة بين المسلمين وقريش، منها:

- (١) تطهير الصف الداخلي، والتفرغ إلى اليهود الذين كانوا وراء المؤامرات التي تُحَاك ضد المسلمين.
- (٢) والتفرغ لنشر الإسلام بين القبائل في جزيرة العرب.
- (٣) وتبليغ الدعوة إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية.
- (٤) وكسر عداوة قريش لينفذ الإسلام إلى قلوب أبنائها في جو من حقن الدماء والهدنة والاعتراف المتبادل.

(٥) وأن يشعر العرب جميعاً بنديّة المسلمين لقريش صاحبة المكانة الرفيعة بين العرب».

[صلح الحديبية لأبي خليل ١١١-١١٤، وفي التاريخ الإسلامي لأبي خليل ١٢٥-١٢٧].

#### ١٠ - الحكمة من حوار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومكانة أبي بكر رضي الله عنه:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حاور عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله ﷺ في شأن الصلح، واعترض علي بنوده كما مر معك، فهل هناك حكمة من وراء هذا الحوار؟

يحدثنا عن هذه الحكمة الإمام النووي رحمه الله فيقول: (لم يكن سؤال عمر رضي الله عنه وكلامه المذكور شكاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار وظهور الإسلام كما عرف من خلقه رضي الله عنه، وقوته في نصرة الدين وإذلال المبطلين). [صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٤١].

أقول: إن الروايات تشعر بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أساء في اعتراضه، فما موطن الإساءة؟ إني أحسب - والله أعلم - أن إساءة عمر رضي الله عنه كانت في الأسلوب الذي اعتراض به، فأعتق من أجل ذلك رقاباً.

ونحن مع الإمام النووي رحمته أن اعتراضه لم يكن شكًا في الرسول ﷺ، فلعمرو ﷺ أن يجتهد حين لا يعلم أن الأمر وحي، وقد يخالف في اجتهاده رأي الرسول ﷺ وهو بذلك مأجور على اجتهاده، وقد حدث هذا أكثر من مرة ولم ينكر عليه بل جاء الوحي موافقًا على اجتهاده مقررًا له. ولا يظن عاقل عنده أثره من عقل أو دين أن عمر ﷺ كان يعلم أن الأمر وحي ثم اعترض عليه، أقول: لعل كلمة (فلم نعطي الدنية في ديننا؟) كانت غير مناسبة، ثم عدم الاكتفاء بإجابة رسول الله ﷺ والذهاب إلى أبي بكر ﷺ وإلقاء نفس الأسئلة عليه والاعتراض.

لقد اختار عمر بن الخطاب ﷺ أبا بكر ﷺ ليحاوره في شأن الصلح وبنوده من دون المسلمين، (وذلك لجلالة قدره وسعة علمه عنده، وفي إجابة أبي بكر ﷺ لعمر ﷺ بنفس إجابة الرسول ﷺ دلالة على أنه كان أكمل الصحابة، وأعرفهم بأحوال رسول الله ﷺ، وأعلمهم بأمور الدين، وأشدّهم موافقة لأمر الله تعالى). [ينظر: فتح الباري ٦/١٧٣، وشرح النووي على مسلم ١٢/١٤١، وسمط النجوم العوالي ٢/١٥١]. هذا ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من المسلمين قد اعترض على بنود الاتفاقية كما ذكرت كتب السيرة، ولكن أبا بكر ﷺ رضي بها لم يعترض عليها، بل كان قلبه على قلب رسول الله ﷺ.

أقول: لقد كان أبو بكر ﷺ مراقبًا للأحداث بدقة، واستشف من خلالها أن هذا الصلح من عند الله فينبغي أن يسلم به وألا يعترض عليه، وهذا كان قبل أن يخبرهم الرسول ﷺ بذلك، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فراسة أبي بكر ﷺ وبُعد نظره، فتأمل!

ويؤخذ من سؤال عمر ﷺ لرسول الله ﷺ جواز الاستفسار والسؤال في العلم حتى يزال الإشكال». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٣٩-١٤٠].

## ١١ - تأويل قصة أبي جندل ﷺ:

يقول الصالح: «قال الخطابي رحمته: تأول العلماء ما وقع في قصة أبي جندل ﷺ على وجهين: أحدهما: أن الله - تعالى - قد أباح «التَّيَقُّة» إذا خاف الهلاك، ورخص له أن يتكلم بالكفر مع إضمار الإيذان إن (كان) يمكنه التورية، فلم يكن رده إليهم إسلامًا لأبي جندل ﷺ إلى الهلاك مع وجود السبيل إلى الخلاص من الموت بالتَّيَقُّة.

والوجه الثاني: أنه إنما رده إلى أبيه، والغالب أن أباه لا يبلغ به الهلاك، وإن عذبه أو سجنه فله مندوحة بالتَّيَقُّة أيضًا، وأما ما يخاف عليه من الفتنة فان ذلك امتحان من الله - تعالى - يبتلي به صبر عباده المؤمنين». [سبل الهدى والرشاد للصالح ٥/١٢٤].

## ١٢ - ما يستفاد من قصة أبي جندل ؓ:

يقول د/ أبو فارس:

(١) طاعة أبي جندل ؓ وانضباطه: ظهر هذا والرسول ﷺ يأمره بالعودة إلى مكة واعتذاره بعدم قبوله، وقد قاسى من العذاب الشديد، ولا زال يرسف في الأغلال.

(٢) انضباط المسلمين: لقد تأثر المسلمون تأثراً شديداً لما حل بأبي جندل ؓ فبكوا لحاله واستعطافه، وفي نفس الوقت لم يرضوا بالصلح، ومع هذا يجد القارئ الكريم منهم الصبر والانضباط، فلم يندفعوا ويقوموا بعمل أو يتصرفوا تصرفاً يخالف سياسة الرسول ﷺ ويخرج عنها، رغم أن الأحوال قد تكون سائغة حيث العواطف متأججة والنفوس ثائرة، لكنهم سيطروا سيطرة تامة على عواطفهم ونفوسهم وتحلوا بالصبر فكانوا في غاية الانضباط.

(٣) عطف النبي ﷺ على أبي جندل ؓ: لقد حاول الرسول ﷺ أن ينقذ أبا جندل ؓ مما هو فيه من العذاب والشدة والعنت، ولم يأل جهداً في ذلك، فقد رجا أباه سهيلاً أن يميزه له وألح عليه في ذلك فلا أقل من أن يكف عن جذبه وضربه على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ، إنه منظر ينبغي ألا يسكت عنه.

(٤) المحافظة على العهد: لا يشك مسلم أن الرسول ﷺ والمسلمين قد تألموا ألماً شديداً لما حدث لأبي جندل ؓ وتمنوا نصرته وإنقاذه، ولكن الذي منعهم من هذا العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع مشركي مكة، والمسلم لا يخيس بالعهد، ولا يخون؛ لأن الإسلام قد أوجب عليه أن يكون وافياً بعهده، وهكذا وفى النبي ﷺ وأرجع أبا جندل ؓ.

(٥) الحب في الله: تأمل هذا الحب الشديد الذي يكنه المسلمون لأخيهم أبي جندل ؓ، ومن أمارات هذا الحب أن يسر المسلم لسرور أخيه المسلم، وأن يحزن لحزنه، امثالاً لقوله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

[البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم (واللفظ له) في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)، ومسنند أحمد ٣٠/٣٢٣، ٣٣٠]

رقم ١٨٣٧٣، ١٨٣٨٠ عن النعمان بن بشير ؓ.

ولقد أدرك الأعداء قبل الأصدقاء هذا الحب الأخوي واندeshوا منه، تأمل معي قول حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص وهما على شرکہما: (ما رأيت قوماً قط أشد حُباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد بعضهم لبعض).

(٦) النصر بعد الصبر: هذا ما نستفيدة من قول الرسول ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ قَرْجًا وَخَرْجًا».

(٧) جواز الفرار من الفتنة والعذاب: وهذا ما فعله أبو جندل رضي الله عنه إذ فر من المشركين ولجأ إلى المسلمين، ولم ينكر عليه الرسول ﷺ فراره وحاول أخذه؛ لأن الكتاب لم يرم نهائياً، لولا تعنت سهيل بن عمرو والد أبي جندل رضي الله عنه وإصراره على أخذه أو نقض الصلح وعدم إبرامه، إنسا رده الرسول ﷺ وفاء للعهد الذي قطعه معهم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٤٧-١٤٩].

### ١٣ - وَفُتِحَ بَابُ الْمُدَّةِ عَلَى مُصْرَاعِيهِ:

يقول د/ أبو خليل: «وبعث رسول الله ﷺ إلى مكة من الحديبية عشرين بدنة مع ناجية بن جندب الأسلمي رضي الله عنه، حيث نحرها بالمروة، وقسم لحمها على فقراء مكة، ففتح بذلك باب مودة، وكسب شعور الفقراء المكيين.

لقد قطعت العلاقات بين المسلمين وقريش أثناء الحرب، أما في الهدنة والصلح، فقد رعى رسول الله ﷺ فقراء قريش وحلفاءها، ففتح باباً من المودة معهم، فكسر بذلك الحواجز النفسية التي أوجدتها الزعامة القرشية، وهباً النفوس لقبول الحوار، وبالتالي اعتناق الإسلام، والإيمان برسالة محمد ﷺ عبد الله ﷺ». [صلح الحديبية لأبي خليل ١١٨، وفي التاريخ الإسلامي لأبي خليل ١٢٨].

### ١٤ - الصلح خير:

يقول د/ فيض الله: «سمى الله تعالى في القرآن الكريم صلح الحديبية فتحاً، وأنزل سورة الفتح، في منصرف النبي ﷺ من الحديبية عائداً إلى المدينة، تلك السورة التي افْتُحَتْ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ٢ ﴿وَيُبْصِرْكَ اللَّهُ تَصْرًا عَزِيزًا﴾ ٣ [الفتح].

نعم كانت فتحاً، ولم تكن ذللاً ولا دنيةً، كما تراءى لبعض كبار الأصحاب، وذلك لأمر:

١- أن هذا الصلح أنهى الحرب المستمرة التي كانت بين النبي ﷺ وبين قريش؛ ولا شك أن هذا فتح عظيم؛ لأنه سيوفر الجهد الذي كانت تستنفذه قريش من المسلمين، ويدخره للدعوة إلى الإسلام خارج الجزيرة.

٢- أن هذا الصلح كان وثيقة اعتراف قريش بوجود النبي ﷺ وبدولته وأمته، وقوته وسلطانه، وما يستتبع ذلك من حقه في نشر دعوته، وثبات مركزه، وسلامة موقفه، ونفاذ أمره.

٣- أنه كان تمهيداً للفتح الأعظم، فتح مكة، فيما بعد؛ ذلك الذي مكن للإسلام في مكة، وكسر شوكة الشرك، وقضى على عبدة الأصنام إلى يوم الدين.

٤ - وإنه قرَّغ النبي ﷺ لليهود الذين كانوا يتألبون عليه مع المنافقين أحياناً ومع المشركين أحياناً أخرى، واستطاع أن يطهرَّهم منهم المدينة وما حولها، فيستأصل شأفتهم، ويضطرهم إلى النزوح، أو يحصرهم في خيبر، ويوثقهم بعقد خاص.

٥ - كما أنه أيضاً اعترف بحق المسلمين في قصد البيت الحرام للنسك والطواف، وأداء الشعائر الدينية وفي الحج والعمرة، على النحو الإسلامي الخاص الذي جاء به دينهم الجديد، وهو يخالف طواف المشركين حول البيت إلى حد كبير.

٦ - وترتب على ذلك، اعتراف قريش بوجود دين جديد، له تصورات ومفاهيمه التي تختلف تماماً عن تصوراتهم ومفاهيمهم ومعتقداتهم، وبحق هذا الدين في ممارسة شعائره حول البيت، مع وجود أصنامهم وتماثيلهم فيه، وهي من أول ما يحقره هذا الدين، ويسفهه ويضلله، ويدعو إلى نبذه وطرحه قبل كل شيء، وهذا الاعتراف يعني تراجع قريش، وتخاذلها عن نصره مبادئها العقدية، وتساهلها نسبياً في شؤون دينها العتيق المتوارث، وبمقدار هذا التراجع يكون تقدم المد الإسلامي، ورسوخ مبادئه وأفكاره، وإن هذا التراجع هو أول النهاية الحتمية التي خطتها قريش في هذا الصلح لنفسها وللمستقبل آلتها.

٧ - ولقد قرر هذا الصلح الفارق العظيم بين الفكر حين يسترسل في تدبير الأمور وبين الوحي الإلهي في توجيه الفكر نفسه إلى عين الصواب الذي لا يعدو الحق، وإلى الحق الذي لا يعدو الصواب.

وفي موقف عمر رضي الله عنه وتساؤلاته واستفهاماته المتكررة، في مواجهة الصديق ﷺ وفي مواجهة الرسول ﷺ نفسه، ثم اعتذاره أخيراً وندمه على ما فعل، وتصدقه المستمر استغفاراً منه، ما يجلي هذا الفارق، ويفرض الإذعان المطلق للتصرفات والتدابير الإلهية.

استمع إلى قول الرسول ﷺ في جوابه عن تساؤلات عمر: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

وقول عمر رضي الله عنه لما انكشفت له النتائج العجيبة البعيدة عن هذا الصلح: «مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ! خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦-٣١٧].

٨ - وربما عدَّ صلح الحديبية بعض الكاتبين فتحاً، فقد قال فيه الزهري، وهو من شيوخ المحدثين وأساطين العلم: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: فَمَا فَتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ (أي من صلح الحديبية)، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدَنَةُ وَوُضِعَتِ الْحُرْبُ، وَأَمَّنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّيِّئِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ».

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدَلِيلِ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعٍ مِئَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٢].

وشاهد هذا كله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۖ (٣)﴾ [الفتح].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۖ (٧)﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ (٢٨)﴾ [الفتح].

وأشرنا من قبل إلى أن هذه الآيات نزلت والمسلمون منصرفون من الحديبية إلى المدينة.

فصدق الله، وتمت كلمته الحق، في قوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٩٠-٢٩٣].

## ١٥ - المنهج الإسلامي في الوفاء بالعهود:

يقول أ/ باشميل: «ولعل من أبلغ الدروس في صلح الحديبية درس ألقاه النبي القائد والحاكم ﷺ في الوفاء بالعهد والتقييد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يعطيها المسؤول الشريف في كلمته مهما ترتب على هذا الوفاء من خسائر وآلام تصيب الموفي بالعهد. هذا الدرس الرائع نستخرجه من حادثة أبي جندل ؓ التاريخية المؤثرة. لقد كان لرئيس وفد الشرك في مفاوضة الحديبية (سهيل بن عمرو) ابن شاب كان قد هداه الله للإسلام في مكة، فاعتقله أبوه وأودعه السجن، وقام بتعذيبه لحمله على العودة إلى دين الوثنية، ولكنه صبر وتحمل وظل على دينه الصحيح مسلماً.

وصادف أن أبا جندل هذا (كما تقدم) تمكن من الفرار من سجن أبيه ووصل إلى معسكر المسلمين وهو يرسف في قيوده فرمى بنفسه فاراً بدينه بين أظهرهم طالباً حمايتهم؛ لأنه أصبح مسلماً منهم وإليهم. فرحّب به المسلمون وهنأوه، غير أن أباه سهيل بن عمرو لم يكد يراه بين المسلمين حتى صرخ في وجهه وانهال ضرباً على وجهه ثم أخذ يحجره بتلابيبه ويدفع به أمامه ليعود به إلى معسكر الشرك، حتى صاح أبو جندل ؓ (مستغيثاً بالمسلمين): يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرِّدُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟.

ويظهر أن المسلمين سارعوا بالتدخل لحماة أبي جندل وانتزعوه من يد أبيه المشرك ليبقى معهم؛ لأن تلك هي رغبته؛ ولأنه أصبح منهم عضواً في أسرة الإسلام.



لم يلجأ سهيل بن عمرو إلى القوة لإلقاء القبض على ابنه المسلم بل لجأ إلى الاحتجاج لدى النبي القائد ﷺ وطالبه بأن يسلم إليه ابنه أبا جندل وفقاً لاتفاقية الصلح التي ينص البند الثامن منها على التزام النبي ﷺ بأن يرد من جاء إليه من قريش بغير أذن أهله.

فقد قال سهيل في احتجاجه هذا - أي موضوع ابنه -: أول ما أقاضيك عليه، لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتي هذا - يعني ابنه.

ولم يسع النبي القائد ﷺ - وهو أبر من أوفى بالعهد - إلا أن يقف عند كلمته ويطبق الاتفاقية نصاً وروحاً، فقال لسهيل بن عمرو: صدقت، وسمح لسهيل بن عمرو المشرك باعتقال ابنه المسلم وإعادةه إلى مكة، رغم علمه بما في هذا التصرف من إيذاء شديد لعواطف المسلمين.

إلا أن النبي ﷺ مع ذلك طلب من سهيل بن عمرو أن يسمح لابنه بالبقاء مع المسلمين قائلاً: فأجره لي، أي أتركه في جوارِي وأماني، وهي عادة متبعة عند العرب.

فقال سهيل: ما أنا مجير لك ذلك.

فكرر النبي الطلب قائلاً: بلى، فافعل.

كرر سهيل الرفض قائلاً: ما أنا بفاعل.

وهنا تدخل عضوا الوفد القرشي (حويطب بن عبد العزى ومكرز بن عمرو) فأجارا أبا جندل، وتعهدا بأن لا يمسه العذاب في مكة، حيث قالا للنبي ﷺ، قد أجرناه لك (يا محمد) لا نعذبه.

وقد استلم سهيل بن عمرو ابنه الشاب المسلم ليزج به في السجن مع أمثاله من شباب قريش المسلمين الذين حال طغيان أهلهم بينهم وبين اللحاق بالنبي ﷺ مهاجرين.

النبي ﷺ يعتذر لأبي جندل ﷺ: وقد اعتذر النبي الأعظم ﷺ لأبي جندل ﷺ عندما صاح بأعلى صوته - وأبوه يحرقه بتلابيبه - يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرِّدُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونِي فِي دِينِي؟ اعتذر النبي ﷺ لهذا الشاب المسلم بأنه لا يستطيع أن يقوم بأي عمل يخلصه من أسر أبيه المشرك؛ لأن ذلك يعني النقض للعهد الذي أعطاه النبي ﷺ لقريش قبل قليل.

فقد قال ﷺ لأبي جندل: «إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ!».

غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل ﷺ المسلم، طمأن أبا جندل ﷺ وبشّره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من الشباب المسلم الذي تضيق بهم سجون أهلهم المشركين في مكة، فقد قال ﷺ لأبي جندل - وهو يواسيه -: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ فَرَجًا وَنَحْرَجًا».

فاقتنع أبو جندل رضي الله عنه بالبيان النبوي واطمأن إلى البشرى التي بشره بها، فاستسلم لأبيه المشرك الذي عاد به إلى مكة، حتى جعل الله له فرجاً ومخرجاً - كما بشره الرسول ﷺ - بعد أقل من سنة، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله. [صلح الحديبية لباشميل ٢٨٢-٢٨٤].

ويقول الشيخ عرجون: «قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَعُدُّرُ!«.

وفي هذه الكلمات النبوية المشرفة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس.

فهو ﷺ يرى أحد المسلمين الذين عذبوا عذاباً شديداً ليفتن عن دينه يرمي بنفسه بين أظهر المسلمين وهو في قيوده وأغلاله، وأبو هذا المسلم المضطهد هو الذي يعقد الصلح مع النبي ﷺ فيستجيزه رسول الله ﷺ منه فيأبى ويهدد بالتحلل من المعاهدة، فلم يزد رسول الله ﷺ على أن أوصى المسلم المعذب بالصبر والاحتساب، فيصرخ هذا المسلم في إخوانه المسلمين يستدر عطفهم ويثير حماسهم بعرض حاله عليهم وهم يرونه ويرون ما فيه وما لقيه من المشركين، وما ينتظر أن يلقاه منهم بعد رده إليهم، ويخشى رسول الله ﷺ أن يحرك هذا الموقف كوا من النفوس في المسلمين وتأخذهم الحمية الإيانية فيصنعون ما يعوق عقد المعاهدة ويحسم الأمر بقوله: «إِنَّا لَا نَعُدُّرُ»، ويبشر أبا جندل ليثبتته على الإيمان بأن الله جاعل له فرجاً ومخرجاً، ثم يقول ﷺ كلمة جامعة لتقر في أسماع كافة المسلمين وتعيها قلوبهم: «إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَعُدُّرُ!»، حتى يكون كل مسلم شهد أو غاب على بيئته من أمر منهج رسالة النور والخلود وتمسك الإسلام به، فلا تثيره عاطفة ولا تميل به حمية.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٢٧٥/٤-٢٧٦].

ويقول د/ الزيد: «في تسليم أبي جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنه للمشركين بعد مجيئه فاراً إلى المسلمين بسبب الصلح ندرك أمرين:

- ١- ما كان عليه الرسول ﷺ من المحافظة على العهد والوفاء به مهما كان قاسياً على النفس.
  - ٢- أهمية وفاء المسلم بالعهد الذي يقطعه على نفسه رخاء أو شدة، له أو عليه وقد امتدح الله المؤمنين بوفائهم بالعهد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الرعد].
- ونقارن هذا بما عليه كثير من الناس اليوم من وفائهم بعهودهم متى كان الحق لهم، وسرعان ما ينكثون إذا كان الحق عليهم، وهذا على المستوى الفردي أو الدولي». [السيرة للزيد ٥٤٠-٥٤١].

عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: «إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَخِيسُ الْبَرَّ، وَأَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ فَارْجِعْ»، قَالَ بُكَيْرٌ: وَأَخْبَرَنِي الْحَسَنُ أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ قَبْطِيًّا. [مسند أحمد ٣٩ / ٢٨٢ - ٢٨٣ رقم ٢٣٨٥٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح].

ويقول د/ الحميدي: «نموذج عال للوفاء بالعهد والالتزام ببند الصلح من رسول الله ﷺ، وفي ذلك مراعاة للقواعد الأخلاقية العامة التي ترتب عليها مصلحة المجتمع الإسلامي والدعوة الإسلامية، وذلك أمر مُقدَّم على مراعاة المصالح الفردية التي يترتب عليها إنقاذ فرد أو أفراد من المسلمين.

فإن خيانة العهود وإن كان الدافع إليها تحقيق مصلحة لبعض المسلمين مما يثلم سمعه المسلمين الأخلاقية، الأمر الذي يترتب عليه الصد عن دين الله تعالى، بإحجام بعض الكفار عن الدخول فيه لهذا السبب، فحرص النبي ﷺ على الوفاء للكفار بما عاهدهم عليه، ورد أبا بصير ؓ ردًا جميلًا فتح له الأمل ما بشره به من قرب فرج الله تعالى وخروجه هو وأمثاله من الواقع السيء الذي هم فيه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٨/٧].

ويقول د/ عشقي: «إن للإسلام منهجًا في الوفاء بالعهود واضحًا وثابتًا، فإذا كانت العقود تمثل الالتزام، فإن العهود تمثل الإلزام و الفرق بين الالتزام والإلزام.

فالعقود تعني الارتباط، ولم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في أول سورة المائدة، وبشكل حاسم يدل على الوفاء، فقال ﷺ: «يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [المائدة: ١]، فالعقود هي الأساس.

أما العهود فإنها المنهج المفصل، وقد ترددت في القرآن الكريم ست وأربعين مرة، لقد ألزم الله ﷻ المسلم أن يكون وفياً إذا عاهد، سواء كان ذلك العهد مع المسلمين أو مع غيرهم.

[وهذا رد على الذين قالوا بأن الرسول ﷺ لم يأمر بالوفاء بالعهد مع المشركين في الحديبية، لكن هذه الدعوى التي ظهرت في الولايات المتحدة عام ١٩٩٥م، قد أبرى لها مَنْ رد عليها، واعتذرت الصحيفة التي نشرتها علناً، وقال بها رئيس وزراء إسرائيل فرددنا عليه بمقال في (المسلمون). د/ عشقي].

فالالتزام بالوفاء، ليس لشروط المعاهدة وليس للطرف الآخر، بل إن الالتزام لله الذي أمر بالوفاء؛ ليكون الوفاء من صفات المؤمنين؛ لأن أساس المعاهدة هي بين الله ﷻ وبين عبده، فقال تعالى في سورة الأحزاب: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»؛ لهذا نجد أن الإسلام وضع شرطاً على العهود، وهو أن لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً.

فالمعاهدات متعلقة بالعهد الأكبر بين المسلمين وبين ربهم، فقال ﷺ في سورة النحل آية ٩١: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، وقال في سورة البقرة حيث يصف المؤمنين بالوفاء: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

إن القاعدة الأساسية، أن لا عهد مع المشركين لأنهم لا وفاء لهم مع الله ﷻ، ولا مع رسوله ﷺ، فكيف يكون لهم وفاء مع المسلمين أو غير المسلمين؟

لقد قال الله ﷻ في سورة التوبة في الآية السابعة: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُتْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾، لكن التعاهد معهم يجب أن يكون من خلال دفع الشر وجلب المنفعة، والوفاء بالعهد معهم هو الوفاء بها أمر الله ﷻ وتأكيد لسلوك المسلم، فالقاعدة عدم شرعية العهود مع المشركين، والاستثناء هو في الحدود التي سمح الله بها، فالعهد مع المشركين والكفار ليس وفاءً لهم لأنهم لا يستحقون ذلك لكنه وفاء مع الله ﷻ الذي أمر بذلك.

إن الإسلام وصف عدم الوفاء بالعهد وشروطه حتى لو كان مع غير المسلمين بالفسوق؛ لأنه خروج على المنهج الإسلامي، وإخلال بمبدأ الوفاء مع الله ﷻ، أما إذا أخل المشرك بالعهد وغدر بالمسلمين فإن ذلك مدعاة لقتالهم، وهذا ما قام به الرسول ﷺ من قتال لليهود وإخراجهم من المدينة، وقتال قريش حينما نقضوا عهد الحديبية، وكانت النتيجة فتح مكة.

لقد كانت الحديبية درسًا في الوفاء، وإيضاحًا للمنهج الإسلامي، لقد جرت حادثتان، الأولى: قبل تسجيل المعاهدة وتوثيقها، والثانية: بعد تسجيل المعاهدة وتوثيقها.

لقد فوجئ المسلمون في الأولى بأبي جندل ؓ هاربًا من ظلم قومه، يرسف في قيوده، لاجئًا إلى إخوانه في الدين، فخفف إليه أخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو محتضنه ويقبله، وهرع المسلمون يرحبون به ويهنؤونه.

لم يكن الاتفاق بين الرسول ﷺ وسهيل بن عمرو في الحديبية قد سُجِّلَ، ولم توثَّق المعاهدة، لكن الاتفاق على شروط المعاهدة قد تم.

قفز رئيس الوفد المكي وقد التقط غصنًا من الشوك، أخذ يضرب به وجه ابنه حتى أدماه، كما أخذ يدفع به بعيدًا عن المسلمين.

أخذ أبو جندل ؓ يستنجد بالمسلمين، فهرعوا إليه وانتزعوه من أبيه، فما كان من سهيل إلا أن التفت إلى رسول الله ﷺ محتجًا، ومطالبًا بتسليم ابنه، بناء على المعاهدة.

لم تكن حجة سهيل أقوى من حجة النبي ﷺ، بل إن رسول الله ﷺ أراد من خلال الحوار القانوني أن يتأكد من التزام سهيل بما اتفقا عليه، وأن يلزمه بما يقول، فلما تأكد من ذلك التفت ﷺ إلى الصحابة رضي الله عنهم وأمرهم بتسليم أبي جندل رضي الله عنه.

وعاد أبو جندل رضي الله عنه في ظل جوار عضوي الوفد القرشي: مكرز بن حفص، وحويطب بن عبد العزى، بعد أن رفض سهيل جوار رسول الله ﷺ.

بهذه الكلمات العظيمة كان رسول الله ﷺ يرسم قواعد الإسلام، ويسطر خطوط التعامل مع الخصوم، ويؤسس منهجاً للتفاوض والوفاء الإسلامي.

بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة تخلص أبو بصير رضي الله عنه من أسره في مكة وقدم إلى المدينة، وما إن استقر به المقام بين المسلمين حتى أرسل أزهر بن عوف، والأحنس بن شريك، إلى النبي ﷺ بكتاب يطالبانه بتسليم (أبي بصير رضي الله عنه) إلى مندوبيهما.

وعاد أبو بصير رضي الله عنه، وقلوب المسلمين تنفطر عليه، لكن الصحابة رضي الله عنهم قالوا: «الرجل يكون خيراً من ألف رجل»، لقد أدرك أبو بصير رضي الله عنه ما يعنيه المسلمون، لقد أغروه بقتل صاحبيه.

لقد كان ﷺ دقيقاً في الوفاء بالشروط، فأبو بصير رضي الله عنه جاء في الأولى هارباً يطلب اللجوء، وفي المرة الثانية جاء مطارداً للمولى وقد سلب العامري، لكن الرسول ﷺ أبا أن يكون قد آمن حياة أبي بصير ولو آمن بقاء أبي بصير لخالف شرط المعاهدة.

خرج أبو بصير رضي الله عنه وتبعه خمسة نفر من قريش، قد قدموا إلى المدينة مسلمين ولم يطلبهم أحد، فقال ﷺ وهو ينظر إلى أبي بصير: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلُ أُمِّهِ مُحَشٌّ حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجَالٌ!».

نزل أبو بصير رضي الله عنه ومن معه بأرض جهينة، بين العيص وذوي المروة قريباً من سيف البحر، وجاءت قافلة، فانقضوا عليها وسلبوا ما فيها فقتل مَنْ قُتِلَ وهرب من هرب.

التحق بأبي بصير، أبو جندل بن سهيل بن عمرو بعد أن بلغه عدم معارضة الرسول ﷺ لخطوات أبي بصير، وأخذ معه بعض المستضعفين بمكة، فاتفق معه سبعون رجلاً على الخروج.

تجمع المنشقون حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، وأخذوا يعترضون القوافل يقتلون رجالها ويسلبونها.

اجتمع سادة قريش في دار الندوة لمعالجة هذه المحنة، قررت قريش اللجوء إلى النبي ﷺ فناشدته

الرحم أن يطلب من ثوار العيص إنهاء ثورتهم ضد قريش، وأن يسمح لهم باستيطان المدينة والسيطرة عليهم لتنجوا قوافل قريش من هجماتهم.

استجاب النبي ﷺ لرجاء قومه فكان وفاء في الطبع، لا وفاء للمعاهدة، فدعا ﷺ ثوار العيص فاستجابوا وانضموا إلى قافلة الإيوان.

وفي حادثة ثالثة، كانت بطلتها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، كانت قد أسلمت قبل أن يهاجر ﷺ سمعت بالمسلمين في الحديبية فهزها الشوق إلى ركب الإيوان فخرجت من مكة إلى الحديبية، فرأت أن رسول الله ﷺ قد تركها فسارت إلى المدينة المنورة حتى تفطرت قدمها.

ما إن وصلت إلى المدينة حتى اتجهت إلى دور النبي ﷺ ودخلت على أم سلمة وبثت مخاوفها أن يردها ﷺ، لكن أم سلمة أخبرت الرسول ﷺ فرحب بها.

لحق بها أخوها عمارة والوليد ليرداها إلى مكة، قالوا للرسول ﷺ: (يا محمد، أوف لنا بما عاهدتنا عليه). ولما أخبرها رسول الله ﷺ بذلك قالت: (يا رسول الله، أنا امرأة وحال النساء الضعف أفتردني إلى الكفار يفتنونني ولا صبر لي؟).

بينما كان رسول الله ﷺ في حيرة من أمره إذ نزل الروح الأمين بتلوا الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمَحْجُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يمتحن أم كلثوم، فاستحلفها بالله ما خرجت لالتباس دنيا ولا رجل من المسلمين، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله.

فحلفت، ورفض ﷺ ردها، وبهذا يكون النبي ﷺ قد أخذ الوفاء بالشروط من الله ﷻ وليس من المعاهدة؛ لأن العهد مع الله هو الأساس الذي يجب أن تُبنى عليه المعاهدة، وكل معاهدة لا تنطلق من كتاب الله ولا سنة رسوله فإنها معاهدة لا تحمل روح الإسلام ولن تلقى النصر من الله». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٨٦-١٩٤].

## ١٦ - درس رائع واختبار قاس:

يقول أ/ باشميل: «حقاً إنه لا اختبار قاس وامتحان شديد! شاب مسلم قرّ يدينه إلى المسلمين ثم يُتزع انتزاعاً ليُرْمى به مرة أخرى في جحيم الشرك بعد أن خرج منه والتجأ إلى أسرة الإسلام في الحديبية. لقد تأذى المسلمون لهذا المنظر وتألموا أشد الألم حتى إن الكثير منهم بكى إشفافاً على هذا الشاب الطيب المسلم، وهم يرون أباه المشرِك يحبسه في جلافة الوثني الفظ.

لقد كانت الرغبة ملحّة في نفوسهم - بل وفي مقدورهم - أن يخلصوا هذا الشاب الصادق الإيمان من وحشية أبيه الوثني الفظ، فقد كانت قلوبهم وكأنها تتمزق وهم يرون سهيل بن عمرو المشرِك يسحب - في وحشية وقسوة من بين أيديهم - ابنه المؤمن والدماء تسيل من شدة ضغط مقابض السلاسل على قدميه.

حقاً لقد كان منظرًا تبكي له القلوب قبل العيون، ولكن ماذا عسى أن يصنع المسلمون القادرون على تخليص هذا الفتى المسلم؟ ماذا عسى أن يصنعوا؟!

إنهم أمام هذا المنظر الذي بكت له قلوبهم قبل عيونهم يشعرون وكأن أيديهم مشدودة إلى الوراء، شدها الوفاء بالعهد الذي أعطاه النبي ﷺ قريباً، وشرف الكلمة التي التزم تنفيذها ضمن نصوص معاهدة الصلح، الذي جعلهم يقفون مكتوفي الأيدي لا يجروئون على التعرض لسهيل بن عمرو الذي صادر حرية ابنه الشاب المسلم، وأجبره على العودة ليعيش في مجتمع الوثنية الذي لا يريد العيش فيه.

وقد أشار ابن إسحاق إلى أن ما حدث لأبي جندل قد ثقل على المسلمين ودخل عليهم منه أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا غمًا، حتى بلغ الأمر بالكثير منهم إلى أن يستفسروا في ألم وحرقة - لعدم إحاطتهم بما أحاط به علم النبي ﷺ - ولقصر إدراكهم للأبعاد والمرامي العميقة التي يدركها النبي ﷺ وهو يقبل ذلك الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو أثناء كتابة المعاهدة والذي بموجبه أعاد النبي ﷺ إلى سهيل المشرك ابنه اللاجئ المسلم - استفسروا: لماذا يردون إلى قريش من جاء إليهم مسلماً ولا ترد قريش إليهم من هرب إليها منهم مرتدًا؟

وجاء الجواب من الذات النبوية على هذا الاستفسار حكيماً منطقيًا وواقعيًا، فلامس القلوب المؤمنة، فصار لها كالبلسم، شفاها من الغم الذي ألم بها وخاصة بعد الذي حدث لأبي جندل ﷺ، جاء الجواب من النبي الحكيم الحليم ﷺ بأن من ذهب من المسلمين إلى قريش مرتدًا، فلا رده الله، إذ لا خير فيه، وماذا يستفيد المسلمون من إنسان فارق دينهم؟

أما المستضعفون من المسلمين الذين قد يطلبون حق اللجوء عند المسلمين فيعيدهم النبي ﷺ إلى كفار مكة، فسيجعل الله لهم مخرجًا - ما في ذلك شك - ما داموا ثابتين على دينهم.

وماذا عليهم لو دفعوا ضريبة الإيوان في سجون مكة؟ لقد سبق لهم أخوة ذاقوا - في سبيل التمسك بعقيدتهم - أشد مما يذوقون هم، من التعذيب، حتى إن بعضهم مات تحت التعذيب الوحشي الرهيب فصاروا في الذروة بين السابقين الأولين، أمثال: عمار، وأم عمار، وبلال، ومصعب بن عمير، الذين لم يكن ما تعرضوا له من قسوة الإرهاب والتجويع ووحشية التعذيب في سجون المشركين بمكة إلا أوسمة - إن صح هذا التعبير - جعلتهم حديث الدنيا وملء سمعها وبصرها، يلهج التاريخ بذكرهم العطرة في التضحية والفداء في سبيل العقيدة أبد الأبدن.

فكان لسان حال النبي الأعظم ﷺ - وهو يعيد أبا جندل ﷺ إلى أبيه المشرك وفاء بالعهد - يقول: فليثبت إذن أبو جندل وأخوة أبي جندل، وليحتسبوا ما ينالهم في سجون مكة من بلاء وتكليل في سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم، فالله منجيهم وجاعل لهم من محنتهم مخرجًا.

أليس الله سبحانه هو القائل في حق المؤمنين الصادقين المتقين: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

ولقد صدق الله وعده، فقد جعل لأبي جندل وإخوته من المسلمين المستضعفين في سجون أهلهم بمكة مخرجًا، فلم تمر أقل من سنة حتى تمكنوا من الإفلات من سجون مكة وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها بعد أن سيطرت على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام. [صلح الحديبية لباشمیل ٢٨٥-٢٨٧].

#### ١٧ - حسن التصرف في المواقف الصعبة وتكريم المرأة:

يقول الشيخ القرني: «ولقد برز دور المرأة واضحًا حين أشارت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها على النبي ﷺ بأن ينحر هديه ويحلق رأسه؛ ليفعل المسلمون فعله ويحذوا حذوه، وكان رأيها خيرًا وبركة فأذهب عن المسلمين الضراء المتوقعة لهم لإغضابهم رسول الله ﷺ، ولم تكن إشارتها رضي الله عنها افتياتًا على رأي الرسول ﷺ، ولكنه إفساح منه للفرصة أمام المرأة لتقول كلمتها في ظل دولة مساح كريمة تعترف بجناحيها معًا، وقد عرف الإسلام للمرأة حقها وأنصفها وكان أول من يعتز بمشورتها في عظام الأمور، تلك هي سماحة الدين وعظمته.

أفسح الإسلام صدره للمرأة وأشركها في الغزو، إلى درجة أن النبي ﷺ كان يقرع بين نسائه حين يغزو، فأيتهن أصابها القرعة خرجت معه، ولم يكن خروج المرأة في الغزو سلبياً ولكن كانت تقوم بعمل إيجابي، يدل عليه موقف نسبية بنت كعب في غزوة أحد، وما يرويه الأستاذ محمود شليبي في كتابه حياة رسول الله ﷺ: من أن امرأة من بني عفان قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من غفار، فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بها استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه. [هدي السيرة للقرني ١٨٥].

ويقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام ينظر إلى المرأة كنظرة للرجل في التكريم والتكليف والكسب: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]، ويفسح المجال للمرأة لتعبر عن رأيها، وتدلي دلوها في قضايا المسلمين، ويحضها على ذلك.

ويسن أن يستشير الرجل زوجه إن أمن جانبها واطمأن إليها في ألا تذيع له سرًا، أو تفشي له خبرًا، ولا بأس أن يأخذ برأيها إن استصوبه ورجحه، إذ الحكمة ضالة المؤمن، أتى وجدها التقطها، وهو أحق الناس بها. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٦٥-١٦٦].

ويقول د/ العوات تحت عنوان (مشورة امرأة أنقذت الصحابة!): «ولولا نصيحة أم سلمة رضي الله عنها لأصاب من تباطؤوا في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ما لا يعلمه إلا الله ﻋﻠﻤﻪ، ولكن مشورتها أنقذت أمة



الإسلام «يومئذ» مما سماه النبي ﷺ «هلاكا»، وفي ذلك من الدليل على جواز مشاوره المرأة في الأمور العامة، مما يقطع حجة القائلين: إنها تشاور في شؤونها الخاصة فحسب، وفيه دليل على فضل أم سلمة رضي الله عنها ووفور عقلها، وكمال نفسها، وفهمها ما كان يجول بنفوس أصحاب النبي ﷺ، حتى طابت بذلك نفسه، ولم توغر على أصحابه صدره!

ولا يلتفتن عاقل إلى قول من قال: لم تصب امرأة في مشورة إلا أم سلمة وبنت شبيب<sup>(١)</sup>، فإن هذا تضيق رحمة الله وفضله، الذي يؤتاه من يشاء من الرجال والنساء، وهو ظلم للمرأة لا يليق بأهل العلم ولا ذوي الرأي أن يقعوا فيه». [الحديبية للعوا ١١٨-١١٩].

#### ١٨ - اهتمام المرأة بزوجها:

يقول د/ أبو فارس: «لم تترك أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ يواجه الهموم وحيداً، حيناً لم يمثل المسلمون لأمره لأول وهلة، لقد حرصت أم سلمة رضي الله عنها أن تشاركه ﷺ فيما يواجهه، وحاولت التخفيف عنه، وتسكين غضبه، بالإشارة عليه لتحقيق ما يجب من نحر الهدي والحلق». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٦٥].

#### ١٩ - أهمية القدوة العملية وتأثيرها على الآخرين:

يقول د/ أبو فارس: «إن نحر الرسول ﷺ هديه ثم حلقه قد قطع كل أمل للمسلمين من الطواف بالبيت العتيق في عام الحديبية، إذ أيقن الصحابة رضي الله عنهم بهذا، فاستجابوا واقتدوا برسول الله ﷺ فنحروا وحلقوا حين سمعوه يأمرهم وحين رأوه يتقدمهم في النحر والحلق».

وما أجمل وأبدع ما قاله ابن حجر رحمه الله في هذا المقام: «وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا - أي أم سلمة رضي الله عنها - فَهَمَّتْ عَنِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ إِحْتَمَلَ عِنْدَهُمْ أَنَّ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَرَهُمْ بِالتَّحَلُّلِ أَخْذًا بِالرُّخْصَةِ فِي حَقِّهِمْ، وَأَنَّهُ هُوَ يَسْتَمِرُّ عَلَى الْإِحْرَامِ أَخْذًا بِالْعَزِيمَةِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَلَّلَ لِيَسْتَفِي عَنْهُمْ هَذَا الْإِحْتِمَالُ، وَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ صَوَابَ مَا أَشَارَتْ بِهِ فَفَعَلَهُ، فَلَمَّا رَأَى الصَّحَابَةُ ذَلِكَ بَادَرُوا إِلَى فِعْلٍ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ إِذْ لَمْ يَنْتَقِ بَعْدَ ذَلِكَ غَايَةَ تَنْتَظَرُ».

وفيه فضل المشورة، وأنَّ الفعل إذا انضمَّ إلى القول كان أبلغ من القول المجرد، وليس فيه أنَّ الفعل مطلقاً أبلغ من القول، وجواز مشاوره المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة رضي الله عنها ووفور عقلها حتى قال إمام الحرمين: لا نعلم امرأة أشارت برأي فأصابت إلا أم سلمة رضي الله عنها، كذا قال، وقد استندرك بعضهم عليه بنت شبيب في أمر موسى عليه السلام، ونظير هذا ما وقع لهم في غزوة الفتح كما سيأتي هناك من أمره لهم بالفطر

(١) ينظر كتابنا [د/ العوا]: الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء ٢٠٠٠م، (المرأة وممارسة العمل السياسي)، ص ٢٦ وما بعدها، ومحمد هيثم الخياط، المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ١٦ وما بعدها.

فِي رَمَضَانَ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا عَلَى الْإِمْتِنَاعِ تَنَازَلَ الْقَدَحَ فَشَرِبَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ شَرِبَ شَرِبُوا». [فتح الباري ٦/ ٢٧٥].  
[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٦٦].

ويقول د/ الزيد: «عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه بالحلوق والنحر فلم يأثمروا، فقام ودخل على أم سلمة ؓ فقالت له: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ أَخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرُ بُذْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ تَسَابَقَ الصَّحَابَةُ ﷺ إِلَى حَلْقِ رُؤُوسِهِمْ وَنَحَرَ هَدْيِهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّنَا عَلَى أَهْمِيَةِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ وَأَنَّهَا تَوْثِّرُ أَكْثَرَ مِنْ تَأْثِيرِ الْقَوْلِ، فَلَا بُدَّ فِي مَنْزِلِهِ قُدْوَةٌ لِأَوْلَادِهِ يَتَأَثَّرُونَ بِسُلُوكِهِ وَبِمَا يَرُونَهُ يَفْعَلُهُ، وَإِنْ لَمْ يَدْعُهُمْ إِلَى هَذَا السُّلُوكِ، وَكَذَلِكَ الْمَدْرَسُ مُؤَثِّرٌ بِسُلُوكِهِ أَمَامَ تِلْكَ أَكْثَرَ مِنْ تَأْثِيرِ أَقْوَالِهِ.

ولذلك على الداعية إلى الله أن يلاحظ ذلك، وأن يهتم بسُلُوكِهِ، وأن يجعل سُلُوكَهُ دَعْوَةً وَقُدْوَةً حَسَنَةً لِمَنْ حَوْلَهُ». [فقه السيرة للزيد ٥٤١].

ويقول د/ الوكيل: «ومن هذا الموقف الحرج، يتعلم المسلمون درسًا هامًا في حياتهم، ينبغي أن يكون دائمًا نصب أعينهم، ويضعونه دائمًا في حساباتهم، ذلكم هو القدوة العملية، إن الرسول ﷺ دعا الناس إلى أمر وكرره ثلاث مرات وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، أغلب الظن أن الأمر قد أذهلهم كما سبق وقلت، وأن فهمهم السطحي لشروط المعاهدة قد سيطر على عقولهم فلم يتبينوا ما وراءها من فوائد للمسلمين، فشغلهم ذلك عن الاستماع لقول الرسول ﷺ، وفي مثل تلك الحال لا يُنتظر من وراء الكلام فائدة؛ لهذا أشارت السيدة أم سلمة ؓ بالخطوة العملية التي حققت المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢١١].

## ٢٠ - أسباب تردد الصحابة ﷺ في تنفيذ الأمر النبوي:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تردد الصحابة ﷺ في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بنحر هديهم، بل امتنعوا وهو يكرر عليهم ذلك ثلاث مرات، ليس من قبيل التمرد على النبي ﷺ وعصيان أمره، إنما يعود لأسباب محتملة نذكرها فيما يأتي:

- (أ) لقد فهموا أن أمر رسول الله ﷺ لهم بالنحر ثم الحلق ليس للوجوب لقرينة، وهي أنهم رأوه لم ينحر ولم يحلق ولم يقصر، إذ لا يعقل أن يرفض الصحابة ﷺ أمراً طلبه النبي ﷺ طلباً جازماً.
- (ب) لعل مفاجأتهم بالاتفاقية وبنودها التي لم تكن في حساباتهم، ولم يتوقعوها، وخاصة حرمانهم من أداء النسك، وقد جاؤوا تواقين إليه راغبين في تأديته.

لعل هذه المفاجأة قد أشغلت المسلمين، فذهلت عقولهم عن الامتثال إلى أمر الرسول ﷺ.

قال ابن حجر رحمته: «قيل: كَانَتْهُمْ تَوَقُّفُوا لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ لِلنَّدْبِ، أَوْ لِرَجَاءِ نُزُولِ الْوَحْيِ بِإِبْطَالِ الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ، أَوْ تَخْصِيصِهِ بِالْإِذْنِ بِدُخُولِهِمْ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامِ؛ لِإِتِّمَامِ نُسُكِهِمْ، وَسَوْغَ لَهُمْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ زَمَانٌ وَقُوعِ النَّسَخِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا أَهْلَهُمْ صُورَةَ الْحَالِ، فَاسْتَعَرُّوا فِي الْفِكْرِ لِمَا لِحَقَّهُمْ مِنَ الدَّلِّ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ ظُهُورِ قُوَّتَيْهَا وَاقْتِدَارِهِمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ عَلَى بُلُوغِ غَرَضِهِمْ وَقَضَاءِ نُسُكِهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ.

أَوْ آخَرُوا الْإِمْتِنَالَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْأَمْرَ الْمَطْلُوقَ لَا يَقْتَضِي الْفُورَ.

وَيَحْتَمِلُ مَجْمُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ لِمَجْمُوعِهِمْ.

«قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُكَلِّمُهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِمَّا أَذْخَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي أَمْرِ الصُّلْحِ وَرُجُوعِهِمْ بِغَيْرِ فَتْحٍ». [فتح الباري في الجهاد (٢٥٢٩)].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٦٤-١٦٥].

## ٢١ - دلالات سوق جمل أبي جهل في الهدى:

يقول د/ أبو فارس: «إِنَّ سَوْقَ النَّبِيِّ ﷺ جَمَلَ أَبِي جَهْلٍ فِي الْهَدْيِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ دَلَالَةٍ:

(أ) إنه يشعر بذكر نعمة الله ﷻ على رسوله ﷺ والمسلمين بأن أهلك عدوهم، وأغنهم أموالهم، وفي

مقدمة ذلك جمل قائدهم وفرعونهم أبي جهل الذي حمله إلى بدر بطراً ورثاء الناس.

(ب) إن شكر الله ﷻ في هذا المقام يقتضي أن ينحر هذا الجمل هدية إلى بيت الله الحرام، حتى يُراق

دمه باسم الله لا باسم غيره.

(ج) إن أخذ جمل أبي جهل إلى البيت العتيق ليُهدى إليه فيه إغاظة للمشركين، وتذكير لهم بما فعل

المسلمون بهم يوم الفرقان حين التقى الجمعان.

ويؤخذ من هذا استحباب إغاظة المشركين وإذلالهم بإنفاق أموالهم المغنومة في وجوه العبادة».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٤].

## ٢٢ - مُغَايَظَةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: اسْتِحْبَابُ مُغَايَظَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَهْدَى فِي جُمْلَةِ هَدْيِهِ جَمَلًا لِأَبِي جَهْلٍ

فِي أَنْفِهِ بَرَّةٌ مِنْ فُضَّةٍ يَغِيظُ بِهِ الْمَشْرِكِينَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ

فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ شَطَنَهُ فَفَازَهُ، فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَقَالَ

ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ

وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة].

[زاد المعاد ٣/ ٣٠١].

## ٢٣ - تقديم المصلحة العامة:

يقول د/ أبو فارس: «أما حديث تكثير الطعام ببركة دعاء الرسول ﷺ فيمكن أن نستنبط منه ما يلي:  
أ- بُعد نظر عمر وصوابه: لقد كان عمر ﷺ مشغولاً بالمصلحة العامة، والعمل على تحقيقها، فحين طلب أحد المسلمين نحر بعض الإبل أبي عمر ﷺ ذلك وأشار على الرسول ﷺ ألا يستجيب لطلب الطالب؛ لأن نحرها في ذلك الوقت إضعاف للمسلمين، فقد يشتبكون مع عدوهم في أي لحظة من اللحظات، وهم بحاجة إلى هذه الإبل في أمور القتال.

إن على المسلم دائماً أن يعيش للمسلمين ولا يعيش لنفسه، ويجهد جسمه وعقله لتحصيل الخير لهم، وكف الشر والأذى عنهم.

ب- الرسول ﷺ أخذ برأي عمر ﷺ في هذه القضية؛ لأنه الصواب: والذي يلفت النظر أن عمر بن الخطاب ﷺ، قد أشار على الرسول ﷺ برأيه قبل أن يطلب النبي ﷺ من عمر ﷺ أو من غيره ذلك؛ ذلك لأن الرسول ﷺ قد عودهم على الحرية في الرأي، وعودهم أن يشيروا عليه بما يرونه ولا ينتظرون طلبه. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٥٩-٦٠].

(ج) دعاء الرسول ﷺ مستجاب: إن المرء يلاحظ أن الله أكرم رسوله بأن جعله مجاب الدعوة، فهذا هو ذا يدعو فيستجيب الله دعاءه، ويحقق له مراده، تأمل معي كيف كثر الله الطعام القليل حتى كفى الجيش الكثير كله فأكل الجميع وشبعوا وادخروا.

(د) اعتقاد الصحابة ببركة دعاء النبي ﷺ: ومن هنا طلب عمر ﷺ الدعاء.

(هـ) يرتكب الضرر الأخف في سبيل دفع الضرر الأشد: ولا شك أن الجوع مؤلم ويلحق الضرر، وإذا قورن بالضرر الناجم عن نحر الإبل التي يحتاجها المسلمون في القتال مع العدو نجده يسيراً خفيفاً، ومن هنا كان رأي عمر بن الخطاب ﷺ وفقهه أن يتحمل الضرر الأخف في سبيل دفع الضرر الأشد، وأقره رسول الله ﷺ على اجتهاده هذا.

وهذه القاعدة جليلة في هذا الدين يجدر بالدعاة أن يستوعبوا جيداً، وأن يطبقوها وقد فقهوها تطبيقاً سليماً وهم يتحركون بدعوة الله في مجتمعات وظروف متباينة ومتغيرة.

(و) يجوز عند الحاجة ولمصلحة الجماعة العامة أن يجمع طعام الأفراد مع حاجتهم إليه، ثم يوزع على الجميع فينال منه ويتنفع به أصحابه وغيرهم ممن لا يملكون لهم طعاماً.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التضامن الاجتماعي في الإسلام إذ يتضامن الغني مع الفقير، ويتضامن من عنده طعام كثير مع من عنده طعام قليل، ويتضامن من عنده طعام قليل مع من ليس عنده شيء من الطعام، فيشارك الجميع في هذا.

أقول: هذا حكم شرعي يطبق في مثل هذه الحالة التي مرت بالمسلمين».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٥٩-٦٠].

ويقول د/ العوا: «وتأمل قبول رسول الله ﷺ، نصيحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الذي كان منه وقت إبرام الصلح مع المشركين تعلم صدق عمر رضي الله عنه وإخلاصه، ويقين النبي ﷺ بذلك؛ فهو لم يؤنبه، ولم يعاتبه، ولم يستغرب منه الكلام، عندما جاء ناصحاً، ولكنه ﷺ عقل عنه، وقبل منه، وكأن شيئاً مما وقع منه عند التفاوض على الصلح لم يكن، وهذا الموقف النبوي معلّم هادٍ للمربين والآباء والأمهات والمسؤولين والحكام جميعاً: إن الخطأ ليس مؤبداً على أحد، وأن الحق يُقبل ممن جاء به، وأن من أخلص القول والعمل - ولو خالف رأيه رأينا - فأمره كله محمول على الخير». [الحديبية للعوا ١٢١-١٢٢].

## ٢٤ - نظرة على بنود الصلح:

يقول عميد/ فرج: «اشتمل الاتفاق على عدة بنود:

(١) وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض: وهذا يعني بأسلوب العصر الحديث اصطلاح «عدم الاعتداء»، وقد حفل تاريخ الأمم بمعاهدات عدم الاعتداء، ولعل من أهم معاهدات العصر الحديث هذه المعاهدة التي عقدت بين روسيا وألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة.

(٢) مَنْ أتى محمداً ﷺ من قريش ممن هو على دينه بغير إذن وليه رد إليه: وقد قبل رسول الله ﷺ هذا البند؛ لأن المسلم الحق هو مَنْ دخل في الإسلام وآمن به صدقاً وعقيدة، وإن وجوده بين أهله وهم على غير دينه لا يؤثر في إيمانه، بل قد يزيده تمسكاً بالدين، وولاءً له، وإذا تعرّض لإيذاء وصبر عليه زادت مكانته عند الله، ورسخت في قلبه ووجدانه عقيدته، أما إذا عاد إلى كفره ورجع عن إسلامه إلى دين آبائه وأجداده، فإن إسلامه يكون ضعيفاً غير عميق أو راسخ، والإسلام لا يرحب بالمؤمن الضعيف الذي لا يقوى على تحمل التعذيب أو مواجهة الإغراء.

(٣) مَنْ أتى قريشاً ممن كان مع محمد ﷺ لا ترده إليه: وهذا شرط واضح، فإن المسلم الذي يعود إلى أهله بعد إسلامه ويرتد عن دينه، ليس بالذي يحتفظ به المسلمون بين صفوفهم، فهم ليسوا في حاجة إليه؛ لأنه سيكون نقطة ضعف بينهم، ولقد سأل المسلمون رسول الله ﷺ: «كيف نرد إلى الكفار من جاءنا مسلماً، ولا يردون إلينا من جاءهم مرتدّاً؟»، فقال لهم: «من ذهب منا إليهم فلا رده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم، فإن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

ولقد عاد عمر رضي الله عنه وسأل: «يا رسول الله، أترضى بهذا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه في شيء، وليس منا، بل هو أولى بهم».

(٤) ليس بين الطرفين عيبة مكفوفة (أي صدور منظوية على ما فيها لا تبدي عداوة، وقيل: صدور نقية من الغل والخداع، منظوية على الوفاء وعدم الغدر) وأنه لا إسلال ولا إغلal (أي لا سرقة ولا خيانة): وهذا يعني التزام كل طرف بالمعاهدة خلال مدتها المقررة، التزامًا يمنع من الغدر والخيانة وشن الحرب ونقض الاتفاق. (٥) من أحب أن يدخل في عهد محمد ﷺ دخل فيه، من أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه: وهذا البند يبيح للطرفين الدخول في قوى أخرى دون اعتراض أي منهما، فالتحالف وتجميع القوى مباح خلال مدة التعاقد، ولقد كان هذا البند في صالح المسلمين، إذ أصبح من حقهم الاتصال بالقبائل في مواطنها وعرض الإسلام عليهم وشرح مبادئه، ولم يعد المسلمون محصورين في داخل المدينة، بل نشطوا خارجها، دون أن يجدوا مقاومة، فانتشرت دعوتهم وآمن بها كثيرون، وامتد نشاطهم حتى شمل مكة ذاتها، وازداد عدد المسلمين، وصاروا أضعافًا مضاعفة، حتى أن جيشهم يوم الفتح كان عشرة آلاف، بينما كان في الحديبية ألفًا وخمسائة فقط أو يزيد قليلًا.

ولقد كانت خزاعة أسبق القبائل في الدخول في عقد المسلمين، وقد رأينا رد فعل حويطب بن عبد العزى تجاه هذا الفعل من خزاعة.

(٦) يرجع المسلمون عامهم هذا إلى المدينة فلا يؤدون الزيارة على أن يعدوا في عامهم المقبل: على أن يدخلوا مكة ويبقوا بها ثلاثة أيام على أن تغادرها قريش خلال هذه الأيام، وكان هذا البند مثار جدل بين المسلمين، وسأل بعضهم رسول الله ﷺ عما بشرهم به من دخول المسجد الحرام وهم لم يدخلوه، بل صُدوا عنه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أكنت حدثكم أنكم تدخلونه هذا العام؟»، فقالوا: لا، فقال: «ستدخلونه، وتطوفون به إن شاء الله». [العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٣٣-٣٣٥].

## ٢٥ - رعاية الله ﷻ للجماعة المؤمنة:

يقول د/ الحكمي: «يشعر القارئ لهذه الغزوة أن عناية الله ورعايته كانت تحوط المؤمنين وتلازمهم ملازمة ظاهرة، فحينما قدم المسلمون لهذه الغزوة - وكانوا عازمين على دخول مكة لأداء عمرتهم - حبس الله ناقة رسول الله ﷺ بالحديبية، فكان ذلك الصلح العظيم.

ولما وجد الصحابة رضي الله عنهم في نفوسهم من الصلح - بسبب شروط قريش - أنزل الله سورة الفتح، فسرى بها عن أنفسهم وبشرهم بأن الصلح فتح مبين.

وعندما قدم بعض المهاجرات فراراً بدينهن من فتنة قريش أرسلت قريش في ردهن، فأنزل الله آية الامتحان، تنهى المؤمنين عن ردهن إلى الكفار.

وقد أبرزت سورة الفتح جوانب كثيرة من مظاهر رعاية الله للمؤمنين في تلك الغزوة. فهل يا ترى هذه الرعاية - التي أولاها الله رسوله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم - كانت خاصة بهم، أم أن هناك أسباباً بذلوها فأهلتهم لتلك الرعاية من الله سبحانه؟

إن الله ﷻ قد بين في كتابه المؤهلات لرعايته وعنايته فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل].

وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ ۖ فَدَجَّلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت].

فهذه الصفات قد توافرت في الصحابة رضي الله عنهم فنالوا تلك الرعاية والعناية من الله، ومتى توافرت في شخص أو أمة في كل زمان ومكان فإن رعاية الله سوف تنزل عليهم؛ لأن الله قد وعد بذلك ووعدته الحق». [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٧٧-٥٧٨].

## ٢٦ - ولتكون آية للمؤمنين:

يقول د/ العودة: «لا شك أن الله كان يحوط المؤمنين ويدافع عنهم، وهو الذي نصرهم ومكّن لهم، وجعل لهم من (عقد الحديبية) فتحاً مبيناً، وإلا فقد تعرضوا لخطر الأعداء، وكانت آية من الله؛ إذ كفّ الناس عنهم كما قال ﷻ: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح].

فقليل: أيدي (أهل مكة) أن يقاتلوهم، وقيل أيدي اليهود حتى همّوا بأن يغتالوا من (بالمدينة) بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها، وقيل: هم أهل (خير) وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان.

قال ابن القيم: «والصحيح تناول الآية للجميع». [زاد المعاد ٣/ ٣١٣].

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي ولتكون هزيمتهم وسلامتهم آية للمؤمنين، فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومغيبهم - قاله القرطبي. [الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٩٧٢].

وقال ابن القيم: «قِيلَ: هَذِهِ الْفِعْلَةُ الَّتِي فَعَلَهَا بِكُمْ، وَهِيَ كَفَّ أَيْدِيَ أَعْدَائِكُمْ عَنْكُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ، فَلِئَلَّاهُمْ حَيْثُ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَهْلُ خَيْرَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَسَدُ وَغُطَفَانُ، وَجُمْهُورُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ أَعْدَاءَ

لَهُمْ، وَهُمْ بَيْنَهُمْ كَالسَّامَةِ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِمْ بِسُوءٍ، فَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَفَّ أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِمْ بِسُوءٍ مَعَ كَثَرَتِهِمْ، وَشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ، وَتَوَلَّى حِرَاسَتِهِمْ، وَحَفِظَهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَعِيَّتِهِمْ.

[زاد المعاد ٣/ ٣١٣].

وفي المقابل كانت آية؛ إذ حبس الناقة حابس الفيل، ولو دخل الصحابة - حينها - مكة، ثم صدّتهم قريش عن ذلك لوقع بينهم قتال قد يُفْضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، لكن سبق في علم الله ﷺ أنه سيدخل في الإسلام خلقٌ منهم، ويستخرج من أصلابهم ناس يُسلمون ويجاهدون؛ هذا فضلاً عن أنهم لو دخلوا مكة حينها لما أُن أن يُصاب أناسٌ من المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان بغير قصد، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَآتَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطُوتُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

إنها حكم باهرات وآيات بينات، والله يحكم ما يشاء وهو العليم الحكيم، وكما يكون في القتال من حِكم ومصالح يكون في السّلم أحياناً حِكم ومصالح». [فقه الحديبية للعودة ٨].

## ٢٧ - الصف الداخلي القوي من خلال صلح الحديبية:

يقول د/ الغضبان: «ونحن نعرض للصف الداخلي القوي لأبداً أن نعرض للصلح نفسه كما تعرضه كتب السير.

فإن هذا العرض المسهب يعطينا صورة بيّنة عن طبيعة هذا الصف العظيم بكل شعابه ومشاعره، فنحن أمام وضع جديد كل الجدة، وقد انتقل من التقيض إلى التقيض، وبعد أن ارتفعت موجة المد الشعوري الحماسي إلى أقصاه بالبيعة على الموت، وبعد ذلك التراحم والتلاحم، نجد الآن صورة معاكسة تتجه إلى المصالحة في شروط تبدو ظاهر الأمر مجحفة بحق المسلمين أياً! إجحاف وأضخم هذه الشروط وأثقلها على أعصاب المسلمين هي أن يرجعوا هذا العام عن مكة خاصة وهم على أعتاب مكة وقلوبهم تتلظى شوقاً للمسجد الحرام، وها نحن نرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفقد أعصابه، ولم يجرؤ أحد على إبداء هذا الانفعال غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إن عمر رضي الله عنه الذي لم تحتمل أعصابه في أول لحظة من لحظات إسلامه التخفي في دار الأرقم واستأذن رسول الله ﷺ بنفس الصبيغة التي يتحدث بها اليوم (ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ فقيم التخفي إذن؟) وها هو يقول الآن: فلم نعط الدنية في ديننا.

وراح عمر رضي الله عنه يتنقل بين رسول الله ﷺ وأبي بكر وأبي عبيدة رضي الله عنهم، والجواب يأتيه أن الوحي قد أمر بذلك.



والضغط الثاني على أعصاب المسلمين كان من خلال رؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل الكعبة وأخذ مفتاحها وعرف مع المعرفين وهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء حق.

والضغط الثالث على أعصاب المسلمين كان من خلال بروز أبي جندل على الساحة وهو يصرخ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَرَدُّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟، وأبوه يضربه بغصن الشوك، والمسلمون عليهم أن لا يحركوا ساكنًا أمام هذا التحدي لمشاعرهم أمام نص المعاهدة.

والضغط الرابع على أعصاب المسلمين حين رفض سهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ولم لا تثور الدماء في العروق؟ وتشتعل الحرب الضروس للحفاظ على الرحمن الرحيم؟ ولم كانت هذه الحروب في السنوات التي خلت؟ إلا لإعلان الرحمن الرحيم في الأرض؟

والضغط الخامس على أعصاب المسلمين حين كتب اسم رسول الله ﷺ على الصحيفة، ورفض سهيل بن عمرو اسم رسول الله، وأعلن عن إلغاء المعاهدة لو ذكر.

والضغط السادس على أعصاب المسلمين كان بنود المعاهدة المجحفة في ظاهر الأمر، حيث إن عليهم أن يعودوا عن مكة هذا العام، وأنه من جاء من أهل مكة مسلمًا رده رسول الله ﷺ، ومن جاء من المسلمين إلى مكة مشركًا لم يرده المشركون.

هذه الضغوط جميعًا جعلت المسلمين في حالة نفسية صعبة لا يعلم مداها إلا الله، خاصة وهم يتحولون من المد الشعوري العالي بالبيعة على الموت، ونصر الله المقرب بدخول مكة والذي لا يشكون فيه طالما أن رسول الله ﷺ قد حدثهم عنه.

حتى إن وفدًا جاء منهم - كما مر - لم يتمالك أن ذكر رسول الله ﷺ برؤياه، وكان على رأس هذا الوفد عمر رضي الله عنه الذي لم يفقد أعصابه كما فقدتها اليوم، فأجابهم ﷺ: «قُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟»، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَآخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَأَحْلِقُ رَأْسِي وَرُؤُوسَكُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ، وَأَعْرِفُ مَعَ الْمَعْرِفِينَ».

والدرس الذي نود أن تدركه القاعدة من هذه الأمور جميعًا هو أنه ليس بإمكان القيادة دائمًا أن تعطي المبررات لتصرفاتها وأوامرها، والمطلوب من جنود الدعوة أن تكون ثقتهم بقيادتهم أكبر من ثقتهم بأرائهم وقناعاتهم، وليس بإمكان القيادة أن تفشي أسرار تصرفاتها للمستويات العامة.

وحق جنود الدعوة هو إبداء الرأي والمشورة وبذل النصيحة وعليهم من طرف آخر السمع والطاعة فيما يحبون ويكرهون وفي العسر واليسر وفي المنشط والمكره.

وما برز من صحابة النبي ﷺ يعطي صورة واضحة عن هذا التصرف، فرغم أن عمر رضي الله عنه فقد أعصابه، وأكثر من التساؤل لكنه لم يقم بأي تصرف أو مخالفة تحول دون تنفيذ أوامر قائده رضي الله عنه، ولم يكن أصلاً يبيع لنفسه أكثر من إبداء الرأي قبل أن يسمع قول ﷺ.

ولا شك أنه كان متوتر الأعصاب من هذه المعاهدة، وطمع في قرارة نفسه لو فشل الصلح وانفض القوم بدونه، لكن ما كان له أن يتصرف أي تصرف يحقق هذا الغرض، وحين عرض على أبي جندل أن يقتل أباه وسأله أبو جندل: ما لك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهاني رسول الله ﷺ أن أقتل أحداً، فأجابته أبو جندل: ما أنت أحق بطاعة رسول الله مني.

وكلمته التي كررها مراراً هي التذكير بالبنود المجحفة كما ظهر له من خلال قوله: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيْنَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟.

وإذا وقفنا عند تصرف الصحابة أثناء كتابة الصحيفة عند الحديث عن البسملة، والرسالة نلاحظ أن رسول الله ﷺ ترك لهم إبداء الرأي قبل أن يعلن رأيه فأظهروا احتجاجهم وأعلنوا رفضهم، وأمسكوا بيد الكاتب، لكن إشارة واحدة منه ﷺ كانت كفيلاً بالصمت التام والقبول. ولهذه القضية أثران اثنان:

الأول: إشعار قريش قوة المسلمين واندفاعهم واستعدادهم للمواجهة والحرب، فليست المعاهدة عن ضعف أو تحاذل من الصف.

الثاني: إشعار العدو كذلك مدى السمع والطاعة في هذا الصف المسلم الذي يتراجع عن رأيه أمام رأي رسول الله ﷺ أو قوله.

ولا بد من بروز هذين المعنيين أمام العدو ليعرف حقيقة هؤلاء الجنود، وقوة شكيمتهم، فلا تسول له نفسه نقض العهد.

إن السمع والطاعة في المكره والعسر هو أعظم أثراً منه في حالة المنشط واليسر، والذي يلتزم في المكره والعسر لا شك أنه ملتزم عندما يتجاوب الأمر مع حبه وقناعته واستعداده، وهو المعنى الحقيقي للسمع والطاعة.

والدرس الذي نود أن نتوجه به إلى القيادات الإسلامية والمسؤولين في الحركة هو أن يرحموا أعصاب جنودهم حين لا يستطيعون تفسير الأوامر لهم.

ففي صلح الحديبية، وقائدهم رسول الله ﷺ الموحى إليه من عند الله ﷻ ومع ذلك لم تحتمل أعصابهم هذه الضغوط، وانتهى الأمر بهم أن توقفوا عن تلبية نداء الرسول ﷺ لهم بالإحلال.

انفض القوم، ووقعت المعاهدة، وانتهى الأمر الذي أصبح حقيقة واقعة فلا دخول للحرم اليوم ولا حرب ولا مواجهة.

ولعلنا نقول: إن الموقف الأخير هو الموقف الوحيد الذي يصدر فيه أمر نبوي ولا يُنفذ للتو، ومن أجل ذلك كان همُّ النبي ﷺ عظيمًا على جنده الذين يهلكون إن خالفوا أمره ورفضوا تنفيذ توجيهاته. ونؤكد أنه لا يوجد في الأرض قيادة معصومة أو قيادة يوحي إليها، وبالتالي فعلى القيادة أن تعذر الصف حين يتلكأ في أمر هو عكس قناعته، أو يتباطأ في تنفيذ قرار يناقض هواه.

فإذا كان مجتمع الصحابة الذي هو خير مجتمعات الأرض لم يتمكن من الطاعة التامة بنفس الاندفاع السابق وقائده رسول الله ﷺ فلا غرابة أن يظهر مثل هذا التصرف في أي صف مسلم قيادته منه تحطى وتصيب.

كما نشير كذلك في موطن استفادة قيادة الحركة الإسلامية من هذا الدرس إلى أهمية القوة العملية من القيادة.

إن الأمر النظري حين لا تكون القيادة أسرع الناس لتنفيذه لن تستجيب القاعدة له، ولقد أدركت أم سلمة رضي الله عنها هذا المعنى حين ذكرت لرسول الله ﷺ ضرورة الإحلال والحلق منه، واستجاب ﷺ لاستشارة أم المؤمنين وخرج دون أن يتكلم بشيء فنحر بدنه، وتسارع المسلمون للنحر، وحلق رأسه وتسارع المسلمون للحلق.

فلم يعد لديهم عذر في احتمال تغير الرأي.

إن القيادة التي تريد طاعة جنودها لا بد أن تكون أسرع الناس في تنفيذ ما تأمر به، أما إذا كان واقعها يخالف أوامرها فقد تستجيب القواعد مرة أو مرتين، لكنها سترفض الأوامر في المرة الثالثة وتتخلى عن قيادتها وتدير لها ظهرها غير عابئة بالأمر، وتكون المسؤولية في مثل هذه الظروف على القيادة نفسها لا على الجنود.

لقد شهدت الحركة الإسلامية في إحدى فصائلها صورة شبيهة بهذه الصورة حين استنفرت جنودها لمواجهة الطاغية، وتسارع الشباب من أقصى الأرض ملين النداء، وإذا بهم يشهدون انصرافاً عن المعركة في ظاهر الأمر إلى حلف سياسي مع خصوم تاريخيين لهذه الحركة، وانسحب هذا التراجع الظاهري على الصف الداخلي فزلزل الصف وبقيت الحركة تعاني منه شهوياً طويلاً وسنين كذلك ولما تمح آثاره بعد.

والحقيقة أن الانضباط في كف اليد عن المعركة هو أصعب بكثير من التوجيه والدفع للمعركة، فنفسية الجندي المسلم هي نفسية شجاعة ترغب في مصارعة العدو وحربه لتحقيق موعود الله، وحين تأتي

الأوامر إليه بكف اليد يحس أن الأمر كَبُتَّ وحق له فيتذمر، وكثيراً ما تفقد الحركة الإسلامية النصر في معاركها حين لا تملك السيطرة على جنودها وتحدد هي موعد المعركة، ويلتزم شبابها بوضع اليد على الزناد فترة طويلة دون إطلاق.

نحن بحاجة أن نعيش هذه السيرة المطهرة جنوداً وقيادات ونعرف من خلالها الذي يجب علينا فنؤديه، والذي يحق لنا فنطالب به.

وإذا كان تاريخ الدعوة لم يشهد اندفاعاً أعظم من الاندفاع نحو بيعة الرضوان، فهو كذلك لم يشهد تلكؤاً وتأزماً كما شهد يوم صلح الحديبية.

ولم يترك الله تعالى هذا الصف المسلم في قلقه بعد أن أدى امتحانه العسير العسير، واستجاب لأوامر نبيه ﷺ، بل جاء القرآن بعد ذلك ليهدئ النفوس الثائرة، ويشرح أبعاد المعاهدة، ويؤكد للصف المسلم أنها كانت الفتح المبين في تاريخ الدعوة، بل كانت بداية عهد جديد فتحت أمامه آفاق وآفاق، وكان نقلة هائلة للدعوة غيرت مجرى التاريخ وبقي الصف القوي الملتزم هو العدة الحقيقية للاستفادة من هذه الظروف.

وندع الحديث عن هذا الصف المسلم القوي للشهيد سيد قطب رحمه الله في الظلال ومن خلال حديثه عن سورة الفتح [٦/ ٣٣٢٥-٣٣٢٦]: «هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين، وحديث مع المؤمنين، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها، ويده فوق أيديهم فيها، تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨)، وسمعت رسول الله ﷺ يقول لها: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ».

حديث عنها من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ وحديث معها من الله ﷻ: يبشرها بما أعد لها من مغنم كثيرة وفتوح، وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه الرحلة، وفيما سيتلوها، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبداً، ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديداً شديداً، ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح والمهادنة في هذا العام، ويؤكد لها صدق الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ عن دخول المسجد الحرام، وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون، وأن دينه سيظهر على الدين كله في الأرض جميعاً.

ويختتم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله ﷺ وصفتها في التوراة وصفتها في الإنجيل، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم.

ثناء على أصحاب بيعة الرضوان: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨) وَمَغْنَمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا.

وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين.

أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود، وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بأذانهم، أنهم هم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم: لقد رضي عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهبة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضا: ﴿إِذْ يَبْيُحُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يسمعون هذا من نبهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل.

يا لله! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟! التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت، أنت بذاتك، يبلغك الله، لقد رضي عنك وأنت تباع تحت الشجرة! وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فيسعد، يقول في نفسه: أأستطيع أن أكون داخلياً في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فيطمئن، يقول في نفسه: أأستطيع أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون، واحداً واحداً، أن الله يقصده بعينه وبذاته، ويبلغه: لقد رضي عنه! وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه!

يا لله! إنه أمر مهول!، [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ٢٤-٣١].

## ٢٨ - آثار معاهدة الحديبية في إبراز معالم منهج الرسالة:

يقول الشيخ عرجون: «لما كانت معاهدة الحديبية هي أجل معاهدات الإسلام وأخطرها لما احتف بها من أحوال وشؤون، ولما اشتملت عليه من شروط، ولما برز فيها من السياسة الحكيمة الخازمة التي عالج بها رسول الله ﷺ الموقف من جانبيه، جانب عتو المشركين طغياناً وكفراً، وجانب ما أصاب المسلمين من الشدة والحيرة، ولما تجلّى فيها من مواقف الحرص البالغ على الوفاء بعقدها على ما كان فيه من القسوة على المسلمين، ولما أعقب ذلك كله من الخير والبركة للإسلام والمسلمين، بما كشف ستر الغيب عنه في تتابع الأحداث.

وكان أعظم ذلك وأجله الفتح المبين، فتح مكة الذي مهّد للمد الإسلامي وفتوحاته التي نشرت العدالة والرحمة في أرجاء الأرض.

واقضت الحكمة الإلهية أن يعقب هذا الفتح فترة الحديبية التي انتهت بغدر أهل مكة وخيانتهم لله ورسوله في نقض هذه المعاهدة والعبث بشروطها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

لذلك كله جعل علماء الإسلام وأئمة معاهدة الحديبية منذ عقدها والتزام المسلمين الوفاء بعهددها — نصب أعينهم في مواقفهم الصارمة لحماية أهل الذمة والمعاهدين أن يُظلموا، أو يُضاموا، وهم في ظل الإسلام يراعون ذمامه وعهده.

وجعلها الخلفاء والأمراء والولاة وصالحو ملوك الإسلام أصلاً يثلون إليه في بناء علاقة المسلمين بغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وظلاً ظليلاً يفيء إليه المعاهدون إذا أصابهم في ظل الإسلام ضيم، أو هضم لهم حق، أو وقع عليهم ظلم.

ولذلك جاءت السنة النبوية بما تضمنته هذه المعاهدة المباركة من أصول وقواعد وجاءت الوقائع والحوادث التطبيقية في تاريخ العدالة الإسلامية قائمة على دعائم من مبادئ هذه المعاهدة التي نبعت من الهداية القرآنية، ومن إشراق أنوار النبوة المحمدية الخاتمة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٨٢-٢٨٤].

## ٢٩ - مدرسة الحديبية:



يقول د/ العودة: «وخلاصة القول أن الحديبية بوقفاتها وفقهها:

تُعلمنا أن النصر مع الصبر، وأن العاقبة للمتقوى والمتقين، وأن عروش الظالمين تنهار، وحمة الجاهلية تبطل وتحيب وأن المستضعفين يتقوون - إذا صبروا واتقوا - وأن الأقوياء يضعفون إذا طغوا وتجبروا.

تعلمنا الحديبية كيف نبادر ونغتني الفرص وننشر دين الله.

وتؤكد لنا أن جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة.

وتعلمنا الحديبية أن على المسلمين أن يوحّدوا صفهم ويتشاوروا بينهم، وأن لا تكون المعركة بينهم؛

فتلك هي المصيبة والخالقة، والمستفيد الوحيد أعداؤهم.

تعلمنا الحديبية ألا نياس وننقط، بل نفاءل ونستبشر، وألا تحجبنا اللحظة الحاضرة عن المستقبل

المشرق.

وتعلمنا كيف نقاد للشرع ونتهم الرأي.

كما ترشدنا إلى الثبات على الحق، وكيف يكون خوف الأختار.

تعلمنا كيف نوازن بين المصالح والمفاسد، ومتى وكيف نتحمل وبأي ثمن ضيم الأعداء، وكيف

نُحيّدُهم ونفرق جمعهم، ونستثمر الفرص، ونخطط ونحتاط ونستفيد من كل طاقة دون هدر واختراق».

[فقه الحديبية للعودة ١٢].

### ٣٠- صلح الحديبية شامة في جبين الدهر:

يقول د/ أيوب: «حقاً إن صلح الحديبية شامة وعلامة في جبين الدهر وهاتف يهتف في أذن الدنيا كلها أن هذا الإسلام، هو الذي يأمن الخائف في رحابه، وهو الدين الحق وغيره الباطل، والناس كلهم مهما فكروا لقيادة البشر سلمياً واقتصادياً وعسكرياً فلن يجدوا أبداً بديلاً عن هذا الإسلام، فكل النظم أمام نظام الإسلام وشريعته وقرآنه ورسوله ﷺ صاغرة، وأن مثلها كما قال فضيلة الشيخ عبد القادر المغربي في تفسير جزء تبارك: مثلها كمثل الديدان في باطن الأرض ماذا تعرف هذه عن الدنيا وعن السياسة وعن الحرب وعن العلم والاقتصاد وكل أمور الحياة أو كلام هذا معناه.

أيها الناس ألا إن دين الله هو الحق وإنه النجاة لمن أراد النجاة وإنه القانون لمن أراد إصابة الحق والأخذ بالعدل، وإنه الإخاء والرحمة لمن أراد القوة والوحدة الحققة القائمة على الإسلام — والإسلام وحده — إن الإسلام يمس في أذن المولود ساعة نزوله من بطن أمه بالأذان: «الله أكبر الله أكبر الله، أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله».

بله لم يكتف بهذا الأذان في أذن الطفل اليمنى الذي خرج من بطن أمه في هذه اللحظة الأولى من وجوده على أرض الإسلام، بل يقيم الصلاة أيضاً في أذن الطفل اليسرى: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله».

ألا ما أحلى هذا الإسلام وما أشرف المتسبين إليه، وما أعز دولته، وما أقواها دولة تلقن الطفل من أول ساعة ينزل من بطن أمه تلقنه الإسلام علماً في يمينه وتلقنه الإسلام سلوكاً وعملاً في يساره في الجهة التي فيها القلب، التي فيها الحياة، الجهة النابضة، الجهة الحاسبة لذبذبات السنين والأشهر والأيام والساعات والدقائق والثواني والخطرات وغيرها وأدق منها.

دَقَّتْ قَلْبَ الْمَرْءِ قَائِلَةً لَهُ: إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِي

يا ليت الدنيا كلها تشعر بحلاوة هذا الإسلام وبتعاليمه العجيبة، إن الشخص البعيد عن الإسلام قد يقول: وما يفقه هذا المولود الآن عن الأذان في الإسلام وعن إقامة الصلاة في الإسلام، لكنه الله مشرع الإسلام، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، إن الطب يعتني بالمولود وهو في بطن أمه وحين نزوله بالنصائح والإرشادات والعنايات والوقايات من تسرب عدوى الأمراض، فإذا كان الطب تولى الجنين لحفظ

### ٣١ - بعض فوائد صلح الحديبية لابن عبد الوهاب:

يقول ابن القيم رحمه الله عن الحكم التي تضمنتها الغزوة: «وَهِيَ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي أَحْكَمَ أَسْبَابَهَا، فَوَقَعَتْ الْغَايَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٩].

ويقول د/ الزيد: «ذلك أن غزوة الحديبية مليئة بالحكم والفوائد، ولقد كتب عنها الإمام ابن القيم وأطال فيها في زاد المعاد، وكتب عنها الإمام محمد بن عبد الوهاب مبحثاً مستقلاً<sup>(١)</sup> أوصل فيه الفوائد إلى مائة وتسع وثلاثين<sup>(٢)</sup> فائدة». [فقه السيرة للزيد ٥٣٢-٥٣٣].

وأثبت هنا ما كتبه الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ لأنه رغم ما فصلناه من معظمها، فإن الباقي يحتاج إلى تفصيل كثير، ولكن تكفي هذه الإشارات من الإمام رحمه الله.

١ - منها وهي أعظمها: تسمية الله تعالى (لا إله إلا الله) كلمة التقوى، وجعلها أعداء الله كلمة الفجور.

٢ - تفسير شيء من شهادة أن محمداً رسول الله؛ لاستدلال أبي بكر على عمر رضي الله عنه لما أشكل عليه مسألة من أشكل المسائل.

٣ - عظمة أعمال القلوب عند الله؛ لأن أهل الشجرة لم يبلغوا ذلك إلا بأعمال الله في قلوبهم.

٤ - الخطر العظيم في أعمال القلوب، لقوله: «كادوا أن يهلكوا».

٥ - أنهم مع ذلك مجاهدون في الدين على زعمهم لم يغضبوا إلا الله فلم تنفعهم النية الخالصة.

٦ - حاجتهم إلى المدد الجديد، فلولا أن الله أنزل السكينة عليهم لم يقو إيمانهم على تلك الفتنة.

٧ - أن هذا من أعظم ما يعرفك حاجتك إلى الله في تثبيت القلب على الإيمان كل وقت، بل تعرفك حاجة الكمال إلى ذلك.

٨ - الثامنة: أن ذلك الكلام محسوب من السيئات العظيمة لقوله: «فعملت لذلك أعمالاً».

٩ - اجتماع الأضداد حتى في قلوب الكمل بعض الأحيان لقوله: «وأنا أشهد أنه رسول الله».

١٠ - أن أعلم الناس قد يفهم من النص ما لا يدل عليه لقوله: «تحدثنا أنا نأتي البيت».

١١ - معرفة أنه يتصور أن أعلم الناس وأتقاهم قد يعصي النص الصريح ديانة لقوله: «قوموا فانحروا»، فلم يفعلوا.

١٢ - معرفة قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(١) ملحق المصنفات ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٢) عند التدقيق في العددي مائة وثاني وثلاثون، فهناك نقص الفائدة مائة وعشرة.



الجسم وهو في بطن أمه وساعة نزوله، فإن الإسلام ورب الإسلام أنزل الشريعة والقرآن على نبي الإسلام لا ليتولى النشء وهو في بطن أمه وحين نزوله إلى الدنيا فحسب، لا بل تولاه من قبل زواج أمه بأبيه فقال للأب: عليك أن تختار الزوجة الصالحة، عليك أن تختار التربة الطيبة لتبث الإسلام للنشء الجديد، قَالَ ﷺ: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِأَهْلِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَأَقْفَرِ بَدَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ».

[البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)].

فالإسلام يختار للنشء الأم الصالحة، ويتولاه ساعة نزوله، ويتعهد طفلاً وشاباً حتى النهاية، وحتى في مقره الأخير أمر بقبره إكراماً له: ﴿ثُمَّ أَمَّا نُهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (١١) ﴿عبس﴾، أي أمر بقبره ودفنه احتراماً وتكريماً للإنسان، وأمر بغسله، والصلاة عليه، وتشيع جنازته، ثم قبره وتذكيره حين دفنه بسم الله وعلى ملة رسول الله.

خبروني أيها الناس هل هناك في الدنيا كلها أسس أو نظم أو تشريعات أو قوانين ولوائح تتولى النشء من قبل وجوده إلى حين نزوله وهبوطه على أرض الدنيا واختيار أحب الأشياء له، لقد أخرج مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ».

[مسلم في الآداب (٢١٣٢)].

وتوليته بالإرشاد والتعليم في جميع ظروف حياته (هذا حلال وهذا حرام) إلى أن يلحق بالرفيق الأعلى ويخرج من الدنيا.

هل هناك نظام مثل الإسلام في الدنيا كلها؟ لا وربك ليس للإسلام بديل بين النظم كلها. فيا أيها الناس جميعاً ادخلوا في رحاب الإسلام قبل الفوات، وقبل الموت، وقبل التحسر، ألا إنه الإسلام، وصدق الصحابي الجليل حين قال:

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَحَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ نَعِيمٍ  
ولقد صدَّق الرسول ﷺ لبيد حين قال: «خَيْرُ كَلِمَةٍ قَالَهَا لَبِيدٌ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

إِلَّا نَعِيمُ الْجَنَّةِ فَإِنَّهُ سَرْمَدِيٌّ. [جاء بلفظ: «أُصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ، وَكَادَ أُمِّيَةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ». البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١)، وفي الأدب (٦١٤٧)، وفي الرقاق (٦٤٨٩)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٩)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٨٩)، ومسنند أحمد ٣٣٩/١٢ رقم ٧٣٨٣، و١٥/٤٠، ٥٤، ٤٦٠ رقم ٩٨٣، ٩١١٠، ٩٧٣٧، و١٦/٨، ٩٨، ١٦٩ رقم ٩٩٠٥، ١٠٠٧٤، ١٠٢٣٠].

[صلح الحديبية لأيوب ١٥٤-١٥٦].

- ١٣ - معرفة قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].
- ١٤ - أن ذلك الذي يُحِبُّ قد تصير عاقبته بالعكس في نفس القضية.
- ١٥ - أن المكروه قد تصير عاقبته كذلك في القضية.
- ١٦ - أن الله يبتلي بما تعجز عنه عقول كبار العلماء.
- ١٧ - معرفة رفع الله من تواضع لأجله.
- ١٨ - معرفة إذلال الله من تعزز بمعصيته.
- ١٩ - معرفة فضيلة التسليم للشارع فيما لم يدرك العقل.
- ٢٠ - اختلاف علم أكابر العلماء في ذلك.
- ٢١ - أنهم لم يصلوا إلى السلامة فضلاً عن الفضائل إلا بعفو الله.
- ٢٢ - رأفته ﷺ ورحمته حيث لم يغضب.
- ٢٣ - الفرق بين ذلك وبين غضبه في فسخ العمرة.
- ٢٤ - ما أعطوا من قوة إيمان وصبر أبي جندل واحتسابه.
- ٢٥ - ما أعطوا من غزارة العلم والأدب لقصة عثمان ؓ.
- ٢٦ - أن قول عمر: «أخافهم على نفسي» ليس من الخوف المذموم.
- ٢٧ - قوله: «ليس فيها من بني عدي ما يمنعي» ليس من ترك التوكل على الله.
- ٢٨ - قيام المغيرة على رأسه ليس من القيام المكروه.
- ٢٩ - فعله بعروة بالسيف ليس مما يكره.
- ٣٠ - قول أبي بكر لعروة ليس من الفحش المذموم.
- ٣١ - قولهم: «خلأت القصواء» ليس الخطأ [الخطأ] المذموم.
- ٣٢ - مراعاتهم الكفاني في التلبية والهدى ليس من الرياء.
- ٣٣ - فعلهم في النخامة والوضوء والشعر ليس من الغلو المذموم.
- ٣٤ - شكواهم قلة الماء ليس من الشكوى المذمومة.
- ٣٥ - الإشارة على رسول الله ﷺ بغير رأيه ليس من التقدم المذموم.
- ٣٦ - الانتفاع بالكفار في بعض أمور الدين ليس مذموماً لقصة الخزاعي.
- ٣٧ - الوثوق بخبر الكافر في بعض أمور المسلمين ليس مذموماً.
- ٣٨ - إخبار الكافر وأمره ببعض مصالحه في مثل قوله: «نهكتهم الحرب» ليس مذموماً.

- ٣٩ - إشارة عمر لأبي جندل في قتل أبيه ليس من الخيانة.
- ٤٠ - الإشارة إلى الفرار لمثل أبي بصير لقوله: «وَيْلُ أُمَّهِ» ليس من الخيانة [ليس مذموماً].
- ٤١ - محاربتة ومن معه لقريش مع كونهم في الذمة لا بأس به، وليس من الإخفار المذموم.
- ٤٢ - حكم الله في عدم رد النساء وإعطاء الزوج الصداق لا نقص فيه.
- ٤٣ - مراجعته ﷺ في بعض المسائل لا نقص فيه، لقول عمر: «أفتح هو!».
- ٤٤ - قبول رأي المرأة بعض الأحيان لا نقص فيه.
- ٤٥ - قد يكون رأيها هو الصواب.
- ٤٦ - شدة الحاجة إلى المشاورة.
- ٤٧ - الصلاة في آثار الأنبياء إذا مر بها (ولم يكن منه) ليس من الغلو المذموم.
- ٤٨ - كون الصحابة لا يكثرثون بحفظها.
- ٤٩ - إظهار الهيبة عند رسول الكفار ليس من الرياء المذموم.
- ٥٠ - أن إظهار العمل الصالح بعض الأحيان للناس ليس مذموماً كقول عثمان رضي الله عنه: «لا أطوف به».
- ٥١ - ما أعطي الصحابة من الشدة في أمر الله حين حرصوا على قتالهم على هذه الحالة وصعب عليهم تركه.
- ٥٢ - شدة كراحتهم لما ظنوا أن فيه على الملة غضباً [غضاضة].
- ٥٣ - مبايعتهم على الموت والحالة هذه.
- ٥٤ - شدة تعظيمهم لتبليغهم وأدبهم معه.
- ٥٥ - ما أعطوا من دقة الفهم وغزارة العلم في فهم أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.
- ٥٦ - ما فيهم من خشية الله؛ لقول عمر رضي الله عنه: «فعملت لذلك أعمالاً».
- ٥٧ - ما أعطوا من الرجاء لقول عمر لأبي جندل: «إن الله جاعل لك فرجاً».
- ٥٨ - ما أعطوا من المحبة كما يفهم من غير موضع.
- ٥٩ - ما أعطوا من اليقين.
- ٦٠ - ما أعطوا من السكينة والثبات.
- ٦١ - إكرامهم إياهم بإلزامهم بالكلمة.
- ٦٢ - الثناء عليهم بكونهم أحق بها.
- ٦٣ - ثناؤه بكونهم أهلها.

- ٦٤ - صدور ذلك عن علم وحكمة.
- ٦٥ - ما فيها من علامات النبوة التي يطول تعدادها، ومن أراد ذلك فليتأمل سورة الفتح.
- ٦٦ - بيان كمال صدّيقية أبي بكر رضي الله عنه.
- ٦٧ - كمال قوة عمر رضي الله عنه.
- ٦٨ - فهم علي رضي الله عنه وأدبه.
- ٦٩ - فضائل ناس منهم كابن عمر وأبي سنان وسلمة والمغيرة رضي الله عنهم.
- ٧٠ - فضيلة هذه البيعة لقوله: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».
- ٧١ - كون خير لهم خاصة.
- ٧٢ - فيها شاهد لمذهب أهل السنة في السكوت عما شجر بينهم.
- ٧٣ - فيها شاهد لمذهبهم أيضًا في جميعهم [وفي موالاتهم] والترضي عنهم.
- ٧٤ - فيها شاهد أنه يُغفر لهم ما لا يغفر لغيرهم.
- ٧٥ - أن أعظم ما كرهوا صار عاقبة تكفير السيئات والخلود في الجنات وغناهم وغنى عيلاتهم بعد الفقر، والكفر الذي لم يخطر ببال.
- ٧٦ - أن صلة الرحم تعم المسلم والكافر.
- ٧٧ - أن الكافر قد يسأل المسلم ما يعظم به حرّامات الله.
- ٧٨ - استحباب اليمين عند الحاجة لإقسامه ﷺ في هذه في غير موضع.
- ٧٩ - أن الرفق بالرعية والإحسان إليهم لا ينافي تحميلهم ما يكرهون عند الحاجة.
- ٨٠ - أن موافقة الكفار على شيء من هديهم يجوز عند الحاجة.
- ٨١ - العبرة في كون الكفار ولادة البيت، ورسول الله ﷺ وأصحابه مطرودون عنه [ممنوعون عنه].
- ٨٢ - العبرة في كونهم ما يحجون وما يعتمرون والرسول ﷺ وأصحابه ممنوعون [العبرة في كون الكفار الذين يحجون ويعتمرون والرسول ﷺ وأصحابه ممنوعون عنه].
- ٨٣ - الإجماع على ذم الجهل وشرف العلم لقولهم: «اجلس إنما أنت أعرابي».
- ٨٤ - الإجماع على كون أهل القرى خيرًا من البادية.
- ٨٥ - هديهم في بدء الكتاب: «باسمك اللهم» خلاف أكثر الناس اليوم.
- ٨٦ - قولهم: «لو نعلم أنك رسول الله ما صدّدناك».
- ٨٧ - امتناعهم من كتابة هدي المسلمين واسم رسول الله في الكتاب.

- ٨٨ - كون منهم قوم يتأهلون.
- ٨٩ - حرب الرجل لما رأى الهدي إعظامًا للمعصية.
- ٩٠ - إنكاره عليهم وقوله: «ما على هذا وافقناكم [حالفناكم]» أن يصد عن البيت.
- ٩١ - أن من دينهم ألا يصد عن البيت أعدى العدو.
- ٩٢ - أن عداوة الدين فوق كل عداوة.
- ٩٣ - ما أعطوا من العقول والنهي يفهم من كلام عروة لهم وللنبي ﷺ.
- ٩٤ - استقباحهم القطعية لقوله: «هل سمعت أن أحدًا إلخ»، وفعل بني أمية مع عثمان ؓ.
- ٩٥ - ترك المسلم قتل قريبه الكافر لا يُنكر لفعل أبي جندل ؓ.
- ٩٦ - أن قتل المسلم أباه الكافر لا نقص فيه لفعل عمر ؓ.
- ٩٧ - فهمه ﷺ من بروكها ما لا يفهمون.
- ٩٨ - استسلامه ﷺ للأمر والثوق بالله.
- ٩٩ - كونه ﷺ أحسنهم ظنًا في عثمان ؓ.
- ١٠٠ - حلمه ﷺ على أصحابه ؓ لما جرى منهم ما جرى.
- ١٠١ - استعمال الفأل لقوله ﷺ لما جاء سهيل بن عمرو: «لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».
- ١٠٢ - حسن سياسته ﷺ مع المسلم والكافر يفهم من جوابه لعمر ؓ ومن قوله: «ابعثوا الهدي في وجهه».
- ١٠٣ - ما كرمه الله به وشرفه على الأنبياء بنزول سورة الفتح التي فيها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢]... إلخ.
- ١٠٤ - هوان الدنيا عنده ﷺ.
- ١٠٥ - تغنيه بالقرآن ﷺ.
- ١٠٦ - حاجته لإنزال السكينة ﷺ.
- ١٠٧ - إلزام الله له كلمة التقوى ﷺ.
- ١٠٨ - إزالته ﷺ المشكلات عن أصحابه ؓ.
- ١٠٩ - سؤالهم إياه ﷺ ما أشكل عليهم من كلام الله أو كلامه.
- ١١٠ - صبره على أذى عروة الذي لم يصبر عليه المغيرة، وأبو بكر ؓ.
- ١١١ - قوله ﷺ: «دعوهم يكون لهم بدء الغدر وثناؤه».
- ١١٢ - حلمه ﷺ عمن أراد اغتياله غدراً.

- ١١٣ - عمرته ﷺ في أشهر الحج.
- ١١٤ - جواز فسخ نيتها إلى الجهاد.
- ١١٥ - حسن خلقه ﷺ مع أصحابه ﷺ حتى يدع رأيه لرأيهم.
- ١١٦ - ليس ذلك من التقدم بين يديه.
- ١١٧ - إهداء البدن في العمرة.
- ١١٨ - تقليده ﷺ.
- ١١٩ - إشعاره ﷺ.
- ١٢٠ - الاشتراك فيه.
- ١٢١ - ما يفعل المحصر.
- ١٢٢ - كون الهدي أكل أو باره بأمره ﷺ.
- ١٢٣ - إهداؤه ﷺ حمل أبي جهل مغايضة لهم.
- ١٢٤ - جواز المصالحة عشر سنين للحاجة.
- ١٢٥ - كون هذا الصلح فتحاً مبيحاً.
- ١٢٦ - أنه عند السلف وفي القرآن لا فتح مكة.
- ١٢٧ - نفي التسوية بين من أنفق وقاتل قبله وبين غيره.
- ١٢٨ - كون موضع الشجرة خفي عليهم العام الآتي.
- ١٢٩ - الصلاة في الحرم للنازل في الحل.
- ١٣٠ - سرعة فرج الله للمستضعفين.
- ١٣١ - كون قریش سألوه أن يؤدبهم.
- ١٣٢ - العجب العجيب دفع عن قریش أبغض البغضاء إليهم وهم المسلمون بمكة.
- ١٣٣ - كبر أذى المسلم عند الله ﷻ.
- ١٣٤ - لزوم الدية في قتل الخطأ.
- ١٣٥ - دخول الناس الجنة بسبب أبغض الناس إليهم.
- ١٣٦ - التنبيه على عدم احتقار الضعفاء.
- ١٣٧ - لعل الله يعطيك الخير ويصرف عنك سوء بسببهم.
- ١٣٨ - بركة الطاعة وإن كرهت، والله أعلم. تمت.

### ٣٢ - ثمرة الغزوة:

يقول د/ الوكيل: «يتساءل كثير من الناس عن مدى ما حققته تلك الغزوة من النتائج، ويرون أن الجهد الذي بُذل فيها أكبر من فائدتها، لقد قطع المسلمون قرابة خمسمائة كيلو متر، وبذلوا من وقتهم وجهدهم وأموالهم ما هم في أمس الحاجة إليه، ثم عادوا دون أن يحققوا الحلم الذي طالما حلموا به، فهم لم يروا المسجد الحرام، وقد وُعدوا أن يطوفوا حوله.

وقد يتبادر إلى الذهن أن المسلمين لو بذلوا هذا الجهد، واستعدوا هذا الاستعداد، وأتوا إلى مكة فاتحين ما كانت تستغرق منهم أكثر من هذا الوقت ولا تتطلب منهم أوفر من هذا الجهد، ولدانت لهم مكة في زمن أقل من هذا الزمن، فدخلوها من عامهم فاتحين.

وقد يكون ذلك صحيحًا، ولكن ماذا لو حدث ذلك؟ هل كانت العرب ستسكت على اقتحام مكة وترضى بانتهاك حرمتها؟ وهل كانوا سيرضون بدخول المسلمين عنوة وهم ينظرون؟ وهل كان المسلمون بذلك التصرف يستطيعون إنهاء حالة الحرب في الجزيرة، ويفتزعون لمهمتهم الكبرى التي تنتظرهم؟

إن معاهدة الصلح التي ظفر بها المسلمون أعظم فائدة من فتح مكة هذا العام، وإن السلام الذي حققته الهدنة في جزيرة العرب أكثر بركة من خضوع مكة بالقوة لجيش المسلمين.

لقد كانت ثمرة تلك الغزوة معاهدة حققت السلام بين الناس جميعًا في جزيرة العرب ولو لمدة وجيزة ومكنت من النقاء الناس، وتبادل الأفكار، وعرض الإسلام في صورته الوضيئة من غير تشويش ولا إرهاب حتى دخل الناس فيه مع قصر الفترة أكثر مما دخلوا في فترة الحرب.

كذلك كانت ثمرة تلك الغزوة المباركة اعتراف قريش بدولة الإسلام، وأذعنت للمسلمين أندادًا لها، وليسوا أفرادًا متمردين، وأظهرت قوة المسلمين التي اضطرت قريشًا إلى مهادنتهم.

ولقد كان من أهم ثمراتها تفرغ المسلمين لألد أعدائهم اليهود الذين حرضوا على المسلمين، وحزبوا الأحزاب ضدهم، كما أسفرت في النهاية عن فتح مكة، ذلك الفتح العظيم الذي كان بداية طيبة لتوحيد الجزيرة العربية كلها تحت راية الإسلام». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢١٢-٢١٣].

ويقول د/ العوا: «كانت الحديبية - والصلح الذي تم فيها - مبدأ الفتح للإسلام والمسلمين، فقد ترتب على هذا الصلح أن آمن الناس - المسلمون والمشركون جميعًا - وتمكن من أراد الدخول في الإسلام - وكان يخشى سطوة قومه - أن يظهر دينه، وأن يهاجر إلى المدينة، بل فعل ذلك بعض رؤوس قريش نفسها، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وغيرهما، ثم توالى الأسباب حتى فُتحت مكة نفسها، ودانت للإسلام أرض العرب كلها؛ فكان ظاهر الصلح أن المسلمين ظلموا وهُزموا، وكان باطنه أنهم انتصروا وعزوا». [الحديبية للعوا ١٢٥].

### ٣٣ - كيفية تربية جيل الدعوة:

يقول د/ الغضبان: «لم يكن الهدف فقط الانتصار في معركة، ولكن الهدف الأبعد هو انتصار هذا الجيل على نفسه في أن يكون جيلاً داعياً إلى الله ورسوله فيفتح مغاليق الأمة، التي كان يمكن أن تصيخ إلى الإسلام بعد أن استسلمت قريش في معركة المواجهة، وسنشهد هذه المعاني عملياً على الساحة في الحديبية. فقد استشار ﷺ أصحابه هل يخالف الذين نصرؤا قريشاً إلى مواضعهم فيسبي أهلهم، فإن جاؤوا إلى نصرهم، اشتغلوا بهم وانفرد هو وأصحابه بقريش وذلك المراد بقوله: «تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ»، فأشار عليه أبو بكر ﷺ بترك القتال والاستمرار على ما خرج له من العمرة حتى يكون بدء القتال منهم. فرجع إلى رأيهِ». [فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٣٤/٥. والعنق: الجماعة من الناس أو الكبراء والأشراف منهم. وغدير الأشطاط: على ثلاثة أميال من عسفان مما يلي مكة].

لقد كان هذا هو الدرس الأول العام في التربية، إذ أن القيادات الكبرى في المدينة اقترحت حمل السلاح والتجهز للمواجهة.

وعمر بن الخطاب ﷺ الذي يعيش بقلبه وأعصابه المعركة مع قريش، وهو الرجل الثاني في الأمة، أشار بأدب التساؤل الجم إلى احتمال المواجهة مع أبي سفيان بن حرب، بينما كان سعد بن عبادة ﷺ سيد الأنصار الذي كان يعيش المعركة مع قريش مثل عمر ﷺ يشير صراحة إلى ضرورة حمل السلاح خوفاً من المفاجآت المحتملة، واستمع رسول الله ﷺ إلى رأي أركان حربه، وكان جوابه صريحاً وحاسماً: «لَسْتُ أَحْمِلُ السَّلَاحَ، إِنَّمَا خَرَجْتُ مُعْتَمِراً».

وإذا المفاجأة الرعية الرهيبة - كما نقل بسر بن سفيان الكعبي، قلم مخابرات النبي ﷺ: «إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ<sup>(١)</sup>، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ».

فالمعركة على أشدها، وليست متوقفة على قريش وحدها، إنما كل حلفائها المجاورين قد صمموا على منع النبي ﷺ عن دخول البيت وتأدية مناسك العمرة.

كان لمثل هذا الحدث في غير هذه الأمة المسلمة أن ينتهي بانقلاب عسكري يطيح بالقائد الأول، الذي فرط وغامر ولم يرض أن يُعد العدة المطلوبة، لكن هذا الجيل السعيد الذي تربى على القناعة الكاملة بأن رأي القائد الأعظم ﷺ أوسع أفقاً وأبعد آماداً وأعمق غوراً من رأيهِ، ما كان لمثل هذا الخاطر أن يرد على رأيهِ.

(١) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً، والتجش التجمع، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حبشياً، فسموا بذلك. النهاية ٣٣٠ / ١.



وتعرض المحنة الأولى لهذا الجليل بأعنف ما يكون، حيث يعرض الرسول ﷺ الانقضاض على حلفاء قريش وغزو ذراريهم ونسائهم؛ لتحطيم هذا التحالف، والمغامرة في المعركة والمواجهة، دون أن يرتفع قول واحد من أركان حرب المصطفى ﷺ أنهم ذكروه بضرورة إعداد العدة، وحمل السلاح، وأنه لم يقبل ذلك، وها هي المواجهة أمامهم قائمة، إنما اكتفى الرجل الأول في الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ. وحيث لم يرد رأي آخر من خلال هذه الاستشارة الحربية، ونزل ﷺ عند رأي الصديق رضي الله عنه قائلاً: «امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

لقد كانت عملية الاستشارة قائمة مستمرة، سواء طلبها ﷺ من قادته الكبار أو جنوده الصغار، أم لم يطلبها فيتقدم بها المشيرون ابتداء من عند أنفسهم، ويشعر كل فرد في هذه الأمة أن كلمته مسموعة، ولا حائل أبداً يحول بين إبداء الرأي، وحرية وعرضه، فكل فرد يشعر من جهة باستقلال شخصه وكيانه، وأنه أمة بذاته، ومن جهة ثانية يشعر كل فرد أنه الأمة كلها انضباطاً وسمعاً وطاعة، فقد انصهروا في بوتقة واحدة، ولاؤها لله ولرسوله أعطوا كل فرد حقه في التعبير عن رأيه أولاً، ووجوب الالتزام بالرأي التي تمت عليه العزيمة بعد ذلك: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران].

وهذا ما حدا بأبي هريرة رضي الله عنه أن يقول تعقيباً على هذه الرواية: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وبعد كل ما اعتمل في النفوس، فقد توجهت النفوس كلها للتعبئة باحتمال المواجهة، ومضوا على اسم الله تحت شعار: «مَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ».

وتلك قريش والأحابيش أمامهم قد صمموا على صد محمد ﷺ وصحبه عن البيت الحرام. ثم كانت الدورة العنيفة الثانية: لقد أعدت قريش عدتها للحرب، وكانت رأياً واحداً في المواجهة. وكانت الخطة الحربية من المصطفى ﷺ الالتفاف على جيش العدو، وتجنب المواجهة ابتداء حتى يبعث القوم، فدعا إلى هذا الالتفاف بقوله: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ»<sup>(١)</sup> فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ (من يبعث ليطلع، طلع العدو، وجمعها طلائع)، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَرَّةِ الْجَيْشِ، فَأَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ.

(١) حكى ابن حجر عن المحب الطبري أنه قال: يظهر أن المراد كراع الغميم، فتح الباري ٣٣٥/٥، قلت: قد صرح بذلك ابن إسحاق في روايته للحديث.

ورغم كل عبقرية الحربية ويقظته الدؤوبة، فقد تجاوزته القيادة النبوية في خطة الالتفاف هذه، وبمبادرة جزئية سريعة دفعته إلى أن يلهث راکضاً لقريش بخيله منذراً سوء العاقبة بنزول محمد عليهم. ولم يكن هذا الالتفاف بالأمر السهل، بل كان فيه من المشقة والعسر والشدة، ما جعل رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَجُوزُ هَذِهِ الشَّيْءَ أَحَدٌ إِلَّا عَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

وحارت بها الأدلاء المهرة من بني أسلم: بريدة بن الحصيبي، وحزة بن عمرو، ولم يجزها من وعورتها والتفاف شجرها وضيقها غير الدليل الثالث عمرو بن عبد نهم، والجيش ماضٍ في عزمته مستجيب لقيادته، يتطلع إلى لحظة الحرب، ويتحمل كل هذه الأهوال، ينتظر لحظة الحرب الحاسمة وتجاوز أعنف اختبار له، فجازها الجيش كله، ضمن الوقت المحدد إلا ما لا يؤبه له، وكان طمعه في مغفرة الله له، هو الحافز الأكبر في التغلب على هذه العقبة الكؤود، والنزول على مياه الحديبية، وأثبت الجيش كفاءة قتالية عالية.

هذا الجيش بهذه النفسية العالية، وهذا التأهب الأقصى يفاعاً باتجاه جديد يكاد يحطم كل حماسه، ويقضي على كل اندفاعه.

لقد بركت الناقة، وكان من الطبيعي أن يحثها المسلمون على السير في قلب هذا الاندفاع الكبير نحو الهدف، لكن الناقة لم تتحرك، فقالوا: خلأت الناقة، أي: حرنت عن المسير، والحل أن تُترك ويتم الانتقال إلى ناقة أخرى حتى لا يعيق هذا البروك المسير، وتُتابع الوتيرة العالية.

وهنا قال ﷺ كلمته التي أحبطت كل هذا الاندفاع: «مَا خَلَأْتُ الْقُصُوءَ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

وما من عربي إلا ويدرك أبعاد هذه الكلمة، التي غيّرت الاتجاه مائة وثمانين درجة، من الرؤيا، ثم التفكير في الانقضااض على ذراري حلفاء قريش، ثم التصميم على مواجهة كل من يقف في طريقه، إلى جواب يوحى أن حابس الفيل الذي منعه من دخول مكة بأمر الله، هو الذي يجبس هذه الناقة عن دخولها.

ماذا اعتمل في هذه النفوس من غليان، وماذا جرى فيها من أسى؟! ثم تبين الأمر حين أُنبعت الكلمة بما يوضح هذا الاتجاه ويؤكد: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

فمن الممكن إذن التفاوض، ومن الممكن التراجع عن دخول مكة، ومن الممكن المهادنة والمصالحة. لقد أعلن هذا الاتجاه هكذا دون مقدمات، ودون استشارة ودون تهيئة، وتُركت هذه النفوس لتخوض هذا الامتحان العنيف الرهيب، في تغير المنحنى كله من دخول مكة، رغم كل من يقف في

الطريق إلى العودة مرغمين عنها كما عاد أصحاب الفيل، ومن خلال مفاوضات ومراوضات، ولكنهم فقهوا مع هذا كله أنها إرادة ربانية في صرفهم عن مكة كما صُرف أصحاب الفيل، وبتعظيم لحرمات الله لا انتهاك لها كما هو لدى أصحاب الفيل.

إنه انتقال كامل، جعل القوم في حالة من الضياع لا يعرفون المنحى الحقيقي إلى أين، وها هم ينزلون على الماء القليل الظنون كما أمرهم ﷺ ويشكون العطش، ولكنهم بهذا الثبات، وهذا الانضباط، وهذا الالتزام دون أن يندب منهم اعتراض واحد، كانوا أهلاً لهذه المعجزة، التي تحققت بسهم النبي ﷺ، فإذا الماء الظنون يجيش بالرواء، ويصدر الناس عنه بعبطن، ويغترفون من شفير البئر ما يشاؤون.

إنهم مع رسول رب العالمين، وهل عاد لهم ذات بين يديه إلا كما يصوغهم الله رب العالمين، ويصنعهم على عينه؟!

ونجحوا في الاختبار العنيف الثاني في تجاوز الثانية، وفي الاختبار الأعنف الثالث، في الصبر على حابس الفيل، والمراوضة على العودة عن مكة، فهي المشيئة الربانية، وليرضوا إذن بما شاء الله وكان الاختبار الرابع.

لقد جاء بديل بن ورقاء الخزاعي ووصف إصرار قريش على منعها لرسول الله ﷺ لدخول مكة. وانطلاقاً من التوجيه الجديد «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ» جاء العرض النبوي مباشرة على إيقاف الحرب بين الفريقين، وانتقل دخول مكة إلى الأهمية في الدرجة الثانية، وأصبحت الهدنة هدفاً مرحلياً مؤقتاً؛ لتحقيق الهدف الأبعد وهو حرية العقيدة «وَيُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ» بينما كان اتجاه الجيش كله ماضياً نحو مكة وقتال قريش، التي تصد المؤمنين عن دخوله، وكما قلنا: فلم يتم هذا الأمر نتيجة استشارات، وفقه المسلمون أن الوحي قد جاء بهذا الاتجاه للنبي ﷺ، وعليهم أن يصوغوا عواطفهم، ومشاعرهم، وعقولهم وفق هذا الاتجاه، وهنا تبدو أهمية هذا الامتحان في لحظاته الحاسمة.

ونعود إلى قريش، التي بلغها هذا الاتجاه، والتي لا تزال عقلية الحرب هي التي تسيطر عليها، وعقلية الإرهاب والمنع للفكرة والدعوة، وإن كانت قد انتقلت الآن إلى طور الدفاع بعد طور الهجوم، ففي العام الماضي وقبل أقل من سنة جيّشت الجزيرة العربية لاستئصال شأفة الإسلام في المدينة، وها هي الآن تفكر في الدفاع عن مكة، وصد الهجوم النبوي عنها، حيث تحقق هذا الشعار في أقل من سنة: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/٢٤٠-٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ١٨٤/٤٥، ١٨٤/٢٧٢٠٦].

وإن كان هذا القدوم عبادة وطاعة، وليس قدوم قتال ومعركة؛ حيث رفض ﷺ حمل السلاح وهو متلبس بثياب الإحرام: «وَلَكُنْتُ أَحَبُّ أَجْمَلِ السَّلَاحِ مُعْتَمِرًا» اللهم إلا سلاح المسافر السيوف في القُرب.

وتلقى بديل بن ورقاء الصدمة حين عرض على قريش فكرة الهدنة، وهو متهم بولائه لرسول الله ﷺ وحبه له، وهو لا ينكر ذلك ولكنه لا ينفي ولاه الأول لمكة، وكان الرد عنيفاً أولاً من سفهاء مكة حيث رفضوا السماع له، ثم كان الرد عنيفاً ثانية من أشرافها حيث قالوا: أَخْبِرُوهُ عَنَّا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَامَهُ هَذَا أَبَدًا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنَّا رَجُلٌ.

وفي تحليل الموقف النبوي من بديل ﷺ خاصة وخزاعة عامة، يقول الحافظ ابن حجر: «وَكَانَ الْأَصْلُ فِي مُوَالَاةِ خُزَاعَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا تَحَالَفُوا مَعَ خُزَاعَةَ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ.

وَفِيهِ جَوَازُ اسْتِنصَاحِ بَعْضِ الْمُعَاهِدِينَ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا دَلَّتِ الْقَرَائِنُ عَلَى نُصْحِهِمْ، وَشَهِدَتْ التَّجَرُّبَةُ بِإِيثَارِهِمْ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَأَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ جَوَازُ اسْتِنصَاحِ بَعْضِ مُلُوكِ الْعَدُوِّ اسْتِظْهَارًا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَلَا مُوَادَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، بَلْ مِنْ قَبِيلِ اسْتِخْدَامِهِمْ وَتَقْلِيلِ شَوْكَةِ جَمْعِهِمْ وَإِنْكَاءِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ جَوَازُ الْإِسْتِعَانَةِ بِالنَّسَرِيِّينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ». [فتح الباري ٥/ ٣٣٨].

وإجماع مكة على الحرب وإصرارها عليها يفهم من قول بديل «إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ» إِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ هَذَيْنِ لِكُونَ قُرَيْشٍ الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ أَجْمَعَ تَرْجِعُ أُنْسَابُهُمْ إِلَيْهِنَّ، وَبَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنُو سَامَةَ بْنِ لُؤَيٍّ وَبَنُو عَوْفٍ بْنِ لُؤَيٍّ وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

[فتح الباري ٥/ ٣٣٨].

وأمام تأزم الموقف وسيطرة تيار الحرب والمواجهة جاء دور عروة بن مسعود الثقفي، الذي كان يملك عبقرية وحكمة ودهاء ثقيف، حيث أخذ زمام المبادرة من هؤلاء المشهورين، وما كان يمكن أن يأخذه لولا تلك المقدمات المتعددة: أَيُّ قَوْمٍ، أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهَمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ (الاستنفار: الاستنجد والاستنصار) أَهْلَ عَكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَغُوا (أي أبوا) عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى.

ولولا هذه المقدمات لسفّه رأيه كما سفّه رأي بديل، مع أن بديلاً بذكائه لم يشر بالأخذ بالرأي (الهدنة) إنما عرضه بصفته ناقلاً ورسولاً، ومع هذا فلم تستطع أعصاب قيادات مكة أن تسمع هذا العرض بله أن تأخذ به، غير أن عبقرية عروة التي أخذ بها اعترافهم الكامل بولائه الكامل لهم، ونصرتهم لهم على محمد ﷺ، لينتقل بعدها إلى قبول هذا العرض: «فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةٌ رُشِدٌ أَقْبَلُوهَا».

وقبل أن تصحوا قريش من صدمة هذا العرض أردف بقوله: (وَدَعُونِي أَتِيهِ، قَالُوا: أَتِيهِ).

وهو ليس مُتهماً كاتهام بديل بن ورقاء الخزاعي، بل خالص الولاء والحب والود لقريش، فوافقوا على إرساله موفداً مُطلعاً وليس له صلاحيات البت في أي أمر إلا الاطلاع والتعرف على ما لدى محمد ﷺ. وفي قوله: أُلستم بالوالد؟ يعني أن أمة سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وقد ولدته قرشية صميمة. وعروة ليس نكرة على الساحة العربية، فهو أحد العظيمين اللذين عناهما القرآن عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [الزُّحُرْف].

وقد استطاع بحكمته وعبقريته أن يجبب قومه ثقيفاً حرباً شعواء تفنيهم عن آخرهم من جراء قتل ابن أخيه المغيرة للمالكيين الثلاثة عشرة.

وها هو الآن يريد أن يمضي بمجد آخر، يحاول فيه أن يجبب قريشاً ومحمداً ﷺ حرباً جديدة تُفني الفريقين، خاصة ورسول الله ﷺ على أبواب مكة.

فأتاه - أي رسول الله ﷺ - فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتُ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِّنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَىٰ وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَىٰ أَوْشَابًا (أخلاقاً) مِّنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ.

وأحسن الجيش الإسلامي كله بالإهانة من عروة، وهو يصفهم بأنهم يفرون عن رسول الله ﷺ، وهم أخلاط من قبائل شتى، فكان لابد من موقف حاسم يكافئ هذا التجرؤ على مقام النبوة.

وكان الجواب من الصديق ﷺ الذي وصفه عمر ﷺ بقوله: «وَقَدْ زَوَّرتُ فِي نَفْسِي مَقَالََةً قَدْ أَعْجَبَتْنِي، أُرِيدُ أَنْ أَقْدِمَهَا بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي بَكْرٍ، وَكُنْتُ أَدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَلَى رِسْلِكَ يَا عُمَرُ فَكَّرِهْتُ أَنْ أَغْضِبُهُ، فَتَكَلَّمْتُ وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ، فَوَاللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي مِنْ تَرْوِيرِي إِلَّا قَالَهَا فِي بَدِينِهِ أَوْ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٥٩].

كان ذلك الرد الذي صفع عروة على وجهه، وشفى صدور قوم مؤمنين.

قال له: اْمُصْصُ بَطْرَ اللَّاتِ، نَحْنُ نَفَرٌ عَنْهُ وَنَدْعُهُ!

والبظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها - وكانت في الطائف عند ثقيف - وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر ﷺ المبالغة في سب عروة، بإقامة من كان يعبد مقام أمه وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.

قال ابن حجر: «وَفِيهِ جَوَازُ التَّنْقِيحِ بِمَا يُسْتَبَشَعُ مِنَ الْأَلْفَازِ لِإِرَادَةِ رَجْرٍ مِنْ بَدَأَ مِنْهُ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ ذَلِكَ.

وَقَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: فِي قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ تَحْسِيسٌ لِلْعَدُوِّ وَتَكْذِيرٌ لَهُمْ، وَتَعْرِضٌ بِالزَّامِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّ اللَّاتِ بِنْتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ بِنْتُ لَكَانَ لَهَا مَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ».

[فتح الباري ٥/ ٣٤٠].

واهتز كيانه عروة لهذا الجواب المفحم، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ كَانَ مِثْلًا إِذْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَعَرَفَهُ، حَيْثُ قَالَ لَهُ: قَالَ: أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَتِكَ.

فهو مدين بالفضل والمعروف للصديق الذي ساعده في تحمّل بعض الديات، كما يقول الزهري: «أَنَّ الْيَدَ الْمَذْكُورَةَ أَنَّ عُرْوَةَ كَانَ تَحْمَلُ بِيَدِهِ فَأَعَانَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِيهَا بِعَوْنٍ حَسَنٍ، وَفِي رِوَايَةِ الْوَاقِدِيِّ عَشْرُ قَلَائِصَ». [فتح الباري ٥/ ٣٤٠].

وكان الاحتكاك الثاني بين عروة بن مسعود وابن أخيه المغيرة بن شعبة ﷺ.

لقد تلقى المغيرة ﷺ درسه البليغ الأول في الإسلام حين رفض رسول الله ﷺ أن يستلم منه المال الذي حازه بالغدر في إخوانه وقتلهم.

وفقه في أول درس تربوي تلقاه في مدرسة النبوة أن الإسلام لا يحل الغدر ولا يقره، ثم كان عليه في الدرس التربوي الثاني أن يلتحم مع الصف المسلم؛ بحيث يغدو رسول الله ﷺ أحب إليه من ولده وولده ونفسه التي بين جنبيه ومن الناس أجمعين، وهذا أعسر امتحان يمر فيه الآن فهذا عمه عروة وأحب الناس إليه والذي تحمّل من أجله دية ثلاثة عشر قتيلاً ذبحهم بيده، فلا بد أن يدوس على قلبه وحبه المشرك الآن، والذي جاء مثلاً لأعدى العدو من المشركين، لا بد أن يرتفع في هذه اللحظات إلى المستوى الأعلى من الإيمان، فيجعل حب رسول الله ﷺ وفداءه أغلى عليه من كل شيء في حياته.

فما أن رأى عمه عروة قادمًا حتى لبس لأمته، وجعل على رأسه المغفر ليستخفي عن عروة عمه، وقام فوق رأس رسول الله ﷺ بفضده بنفسه ويزود عنه بحياته أمام أحب الناس في الدنيا على قلبه عمه عروة بن مسعود، وهو ليس مكلفًا بذلك، ولم يكن هو صاحب هذه المهمة، ولكنه أراد أن يعيش إسلامه مباشرة، ويطبّقه واقعًا حيًّا لا كلامًا مجردًا، فتقدّم للمواجهة؛ وليعرف عروة بالذات من هم أصحاب محمد ﷺ الذين جاؤوا معه؛ ولينقل عروة إلى قريش أقصى درس يتلقاه من ابن أخيه الذي استعد لمواجهة حماية لرسول الله ﷺ.

وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم بكلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له:

أخّر يدك عن حلية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبه، فقال: أي غدر! ألسنت أسعى في غدرتك؟ «زاد ابن إسحاق في روايته: قبل ألا تصل إليك، وزاد عروة بن الزبير: فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه، وفي رواية ابن إسحاق يقول عروة: ويحك ما أفضلك وأغلظك!» وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل حلية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة، وفي الغالب إنما ذلك يصنع ذلك النظير بالنظير، لكن كان النبي ﷺ يفضي لعروة عن ذلك استماله له وتأليفاً، والمغيرة يمنعه إجلالاً للنبي ﷺ وتعظيماً له.

يقول ابن حجر: قوله: «فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: الْمُغِيرَةُ» وفي رواية أبي الأسود عن عروة «فَلَمَّا أَكْثَرَ الْمُغِيرَةُ بِمَا يَفْرَعُ يَدَهُ غَضِبَ، وَقَالَ: لَيْتَ شِعْرِي! مَنْ هَذَا الَّذِي قَدْ آذَانِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ؟ وَاللَّهِ لَا أَحْسَبُ فِيكُمْ أَلَا مِمَّنْ وَلَا أَشَرَّ مَنْزِلَةً»، وفي رواية ابن إسحاق «فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ»، وكذا أخرجه ابن أبي سبيبة من حديث المغيرة بن شعبه نفسه بإسناد صحيح، وأخرجه ابن حبان.

قوله: «الْكُتُّ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ» أي أَلَسْتُ أَسْعَى فِي دَفْعِ شَرِّ غَدْرَتِكَ؟ وفي معازي عروة «وَاللَّهِ مَا غَسَلْتُ يَدَيَّ مِنْ غَدْرَتِكَ، لَقَدْ أَوْرَثْنَا الْعَدَاوَةَ فِي نَقِيفٍ» وفي رواية ابن إسحاق «وَهَلْ غَسَلْتُ سَوَاتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ». [فتح الباري ٥/ ٣٤١].

ونجح المسلمون في امتحانهم الرابع أعظم امتحان وأبلغه، فإن ما سمعه عروة من الرد العنيف عليه من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين وصم المسلمين بالفرار عن رسول الله ﷺ كان أقل بكثير مما رآه في معسكر المسلمين، حتى غزاه في أعماقه، وأيقن في ضميره أنه يستحيل الانتصار على محمد ﷺ وهؤلاء جنده، وهؤلاء حزبه، فقد كان بدعائه وحنكته السياسية المخضمة يراقب بحذر كل حركة وكل تصرف في الجيش الإسلامي، بل كل نامة أو همهمة ليكتشف من ورائها هذه الأخطا من القبائل، ومدى التحامها مع قائدها ﷺ ولندع له وصف هذا الالتحام، وهذا الحب، وهذا الولاء، وهذا التفاني، يقول لقريش بعد عودته من معسكر المسلمين «أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَبِيصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا: - وَاللَّهِ إِنْ بَنَيْتُمْ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعْتُ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَّكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ.

- وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ.

- وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتَبِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ.

- وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ.

وَمَا يُحِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ. [فتح الباري ٥/ ٣٣٠ رقم ٢٧٣١-٢٧٣٢].

هذه المظاهر التي أذهلت عروة، وسلبت عقله إعجاباً بمحمد ﷺ وعظمة تربيته، ويكفيه شاهداً على ذلك ما لاقاه من ابن أخيه المغيرة.

لقد غزى عروة في أعماقه، ونجح في تهيئة الأجواء للهدنة في صف قريش. وكان الاختبار الخامس أو المحنة العنيفة الخامسة:

فقد أرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان إلى مكة، ثم أشيع أنه قُتل، وكانت بيعة الرضوان. لقد كانت الأمور كلها تجري على غير ما يحبون، فهم حريصون على المواجهة والحرب، وليسوا حريصين على المفاوضة والصلح، ولكنهم يدوسون على قلوبهم وعواطفهم، ويلتزمون أمر قائدهم الحبيب ﷺ.

وجاء الوفد من قريش ليراض ويصالح، فمضوا بهمهم وألمهم، واختلط الفريقان: المشركون والمسلمون ببعضهم أثناء فترة المفاوضة والحوار، ولا يعطينا صورة دقيقة عن نفسية هذه الأمة خيراً مما يعطيناها بطلنا سلمة بن الأكوع ؓ؛ إذ يقول: فَلَمَّا اضْطَلَعْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ الشَّجَرَةَ فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا وَاضْطَجَعْتُ فِي ظِلِّهَا، فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا وَهُمْ مُشْرِكُونَ يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَحَوَّلْتُ عَنْهُمْ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا آلَ الْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ رُتَيْمٍ، فَأَخْرَجْتُ سَيْفِي فَشَدَدْتُ عَلَى الْأَرْبَعَةِ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِعْثًا، ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي أَكْرَمَ مُحَمَّدًا لَا يَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي يَعْنِي فِيهِ عَيْنَاهُ. [مسلم ١٤٣٤ / ٣ برقم ١٨٠٧].

فها هو سلمة ؓ يمتلئ قلبه غماً، وهو يري الأربعة الذين يقعون بمحمد ﷺ فيضطر لأن يغير موقعه كله في ظل الشجرة التي تعب في اقتلاع شوكها إلى مكان آخر، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً معهم في حالة الهدنة والمصالحة إلا أن يتعد عنهم كي لا يؤذي سمعه بسفاهتهم، أما وقد نقضوا العهد، ونكثوا به، وقتلوا ابن زنيم فقد عاد الأسد إلى عرينه، وانقض على فريسته، وأخذ المشركين الأربعة أسرى أذلاء وأقسم قائلاً: والذي كرم وجه محمد «هذا الذي كانوا يسبونني قبل قليل» لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه.

واستفز المسلمون ووقعت المعركة، وأخذ كل فريق أسرى رهائن، وعادت أجواء المعركة من جديد تخيم على الساحة، وعادت آمال المسلمين تنتعش بحرب المشركين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، والهدي معكوفاً أن يبلغ محله... وبلغت هذه المشاعر ذروتها عند وصول خبر مقتل عثمان ؓ، ودعا رسول الله ﷺ للبيعة في قلب مضارب بني النجار، كما سبق وان وصفت أم عمارة ؓ هذه اللحظات السعيدة.



وتخلف عن البيعة رجل واحد هو: الجد بن قيس الذي كان مرشحاً لزعامة بني سلمة، والذي نجم نفاقه وصار من كبار أصحاب ابن أبي.

لقد عاد المسلمون مرة ثانية إلى أجواء الحرب بعد أن كيّفوا أنفسهم على المروضة والصلح. والله تعالى هو الذي يربي هذا الجيل، ويدعه يتصرف في قلب المحنة، فقد كان من الممكن أن يخبر جبريل ﷺ أن خبر مقتل عثمان باطل، ولا تكون البيعة، بينما تشير الروايات الصحيحة إلى أن البيعة كانت بأمر من الله تعالى.

«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ وَأَمَرَ بِالْبَيْعَةِ».

لا بد أن يُمتحن في استعداده للموت، وفي استعداده للمصالحة، وفي استعداده للمواجهة خلال لحظات متقاربة.

ونجح هذا الجيل أروع نجاح وأثبت أعظم كفاءة يوم استجاب كله للمبايعة، وكانت نسبة الرسوب فيه واحد إلى أربع مائة ألف، رغم أنه لا يملك السلاح المناسب، إلا السيوف في القرب، وقائده ﷺ هو الذي حال بينه وبين حمل السلاح، وها هو هذا القائد يدعو الآن إلى أن يقاتل حتى آخر لحظة من حياته، وآخر قطرة من دمه، فكان الالتزام التام والاستجابة الهائلة الكاملة.

وكان الاختبار السادس الأعنف والأصعب:

وهو ما كان من تغت سهيل بن عمرو في شروط وكتابة صلح الحديبية.

ونظر المسلمون إلى هذا التحدي السافر لهم من سهيل بن عمرو ولو كان الأمر بيدهم لقطعوا المفاوضات وقالوا لسهيل بن عمرو: ليس لك عندنا إلا السيف، وهم واثقون بنصر الله تعالى، وهم بايعوا على الموت، وبايعوا على ألا يفروا ولو استشهدوا جميعاً، ورأوا أن هذا التحدي فيه مساس مباشر بعقيدتهم، فشعارهم حين يبدوون بكل عمل هو: بسم الله الرحمن الرحيم، فكيف يكتب الكتاب بتحية الجاهلية: باسمك اللهم بعد أن هداهم الله تعالى للإسلام، وأكرمهم بمحمد ﷺ؟! فكان موقفهم العفوي الواضح حين ابتداء التحدي من سهيل «ولكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب»، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وليس من عادة المسلمين أبداً أن يقدموا بين يدي الله ورسوله، ولكنه إشعار لهذا الخصم أنهم أعزاء بدينهم، وأنهم على استعداد للمواجهة، وأنهم إنما يقبلون هذا الصلح كارهين له.

وكما حدثنا أم عمارة رضي الله عنها عن البيعة والتنافس فيها والتراحم عليها هي تحدثنا عن المفاوضة:

عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ عَمْرَةَ تَقُولُ: إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا

لقد كانت القيادات الكبرى كلها تشتعل غضبًا لهذا التطاول من سهيل بن عمرو، وهي على استعداد أن تُشعل الحرب وتغني عن آخرها فداء لرسالة محمد ﷺ، وما قدّموا حياتهم وحياة أمّتهم وقبائلهم، إلا من أجل الوحدة والرسالة، لكن إشارة واحدة من القائد الحبيب والرسول المفدى، وإيلاء واحدة أوقفت هذه النار المتّقدة والأتون اللاهب، سمعًا وطاعة لله ورسوله، حتى ليذهل حو طب ومركز لهذه

الطاعة، وهم يعلمون السعار الذي يشتعل بداخل هذه القلوب غضباً لمحمد ﷺ ورسالته، ولكنهم مع هذه الإيلاء يستجيبون جميعاً تنفيذاً لأمر الله ورسوله.

لقد أدرك المشركون بالتأكيد أن جيش النبوة غير راض عن الصلح، وأنه من القوة والمنعة والاستعداد للمواجهة في أي لحظة - وهو الأحب إليه - ما يجعل قريباً تحرص على الوفاء بهذا العهد، وإلا فهي الخاسرة الوحيدة.

وأدركت قريش كذلك، أن الموافقة على الصلح من القائد المصطفى ﷺ ليس عن ضعف أو عن عجز، إنما هو عن حلم وحكمة، وعفو عند المقدرة، حرصاً على تعظيم شعائر الله، وصلة الرحم كما قال ﷺ فيما نقله عنه الزهري، فذلك لقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

وإن إبداء مشاعر السخط بالصلح أمام العدو يرضاه الله تعالى ورسوله لإشعار قريش بقوة المسلمين؛ ومن أجل هذا وبعد إبداء هذه المشاعر، كانت الإيلاء كفيلاً لهذا الجيل السعيد أن يستجيب لله ولرسوله، ويظفر وينجح في امتحانه، وذلك منبعث من قناعتهم التامة في عقولهم - على الأقل - أن النبي ﷺ يؤحي إليه، فهم لا يلامون على مشاعرهم ولا يحاسبون عليها؛ لأنهم بشر خصوصاً بعد ذلك التصعيد في البيعة، ثم هذا التفرغ في الصلح، ثم التنازل فيه عن اسم الرحمن واسم رسول الله من النبي المصطفى ﷺ، فهو شيء لم يعهده في حياتهم من قبل، إنما شهده الجيل الأول من السابقين الأولين من المهاجرين في مكة، من الصبر على الأذى، وتحمل البلاء مع الأوامر الصارمة بكف اليد، لكن حتى هذه، لم يقدم ﷺ على مثل لها في العهد المكي، رغم كثير من العروض المغرية في المصالحة في منتصف الطريق، وبقيت المفاصلة قائمة بين الفريقين، حتى انتهت بالهجرة إلى المدينة وإقامة الدولة الجديدة.

وكان الامتحان الأعسر السابع: «فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّبِيِّ فَتَطُوفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: «وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أَخَذْنَا ضُغْطَةً (أي عصراً وقهراً، يقال: أخذت فلاناً ضغطة بالضم إذا ضيقت عليه لتكرهه على الشيء)، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ». [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

وكاد المسلمون أن يفقدوا أعصابهم، وتنفجر قلوبهم من الألم، فهم قادمون لا يشكون أبداً بدخول مكة لرؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل مكة، وطاف بالبيت وعرف مع المعرفين.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَاتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتُ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟! قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتُ مُخَدَّنًا أَنَا سَنَائِي النَّبِيِّ فَتَطُوفَ بِهِ، قَالَ: «بَلَى»، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَاتِيهِ الْعَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نَعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ، قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطُوفٌ بِهِ. قَالَ الرَّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

لقد كان عمر رضي الله عنه ينطق بلسان كل مسلم، شدة المسلمون وهم يرون رسول الله ﷺ يوافق على عودته عن البيت هذا العام، وهو الذي وعدهم برؤياه بدخول مكة، ورؤياه وحي، وخرج الرجل الثاني في الأمة عن طوره وفقد أعصابه حقًا لأول مرة في تاريخ حياته كلها، ولم يكتف بالألم، إنما جاء إلى قائده ﷺ يسأله في استنكار ما وقع مثله أبدًا: «أَلَسْتُ نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟! أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ فَلِمَ نَعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ أَوَلَيْسَ كُنْتُ مُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ».

أسئلة لو سمعها عمر رضي الله عنه من غيره وفي غير هذه الظروف لاستل سيفه يطلب الإذن من قائده أحبيب ﷺ بقتله.

ولم يكتف بذلك، فهو لم يصح بعد من هول الصدمة، حتى ليمضي إلى الصديق رضي الله عنه، ويسأل الأسئلة نفسها، ويسمع الإجابة المطابقة الموافقة نفسها مع تبكيت وتقريع من الصديق رضي الله عنه له. وفي رواية البزار بسند صحيح عن عمر مختصر قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا، فَوَاللَّهِ مَا أَلُو (أَقْصَرُ وَأَبْطَأ) عَنِ الْحَقِّ... فَرَضِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبَيْتُ [عَلَيْهِمْ]، حَتَّى قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «[يَا عُمَرُ] تَرَانِي أَرْضَى [قَدْ رَضِيتُ] وَنَأْبَى أَنْتَ؟»، قَالَ: فَرَضِيتُ.

ويكاد يكون الصديق رضي الله عنه هو الذي انفرد عن الأمة كلها باستيعاب هذا الأمر وأبعاده.

ويحدثنا الحافظ ابن حجر رحمته الله حول هذا الأمر شارحًا للحديث فيقول: «قَوْلُهُ: (أَوَلَيْسَ كُنْتُ حَدَّثْتُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ) فِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ: «كَانَ الصَّحَابَةُ لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ، فَلَمَّا رَأَوْا الصُّلْحَ دَخَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ حَتَّى كَادُوا يَهْلِكُونَ»، وَعِنْدَ الْوَأْقِدِيِّ: «وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ رَأَى فِي مَنَامِهِ قَبْلَ أَنْ يَغْتَمِرَ أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْبَيْتَ، فَلَمَّا رَأَوْا تَأْخِيرَ ذَلِكَ شَقَّ عَلَيْهِمْ».

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ جَوَازُ الْبَحْثِ فِي الْعِلْمِ حَتَّى يَظْهَرَ الْمَعْنَى...

قَوْلُهُ: (فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ) لَمْ يَذْكُرْ عُمَرُ رضي الله عنه أَنَّهُ رَاجَعَ أَحَدًا فِي ذَلِكَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رضي الله عنه، وَذَلِكَ لِجَلَالَةِ قُدْرِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ عِنْدَهُ، وَفِي جَوَابِ أَبِي بَكْرٍ لِعُمَرَ بِنَظِيرِ مَا أَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ سِوَاءَ، دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَكْمَلَ الصَّحَابَةِ وَأَعْرَفَهُمْ بِأَحْوَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَعْلَمَهُمْ بِأُمُورِ الدِّينِ وَأَشَدَّهُمْ

مُؤَافَقَةً لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ وَقَعَ النَّصْرُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ اسْتَنْكَرُوا الصُّلْحَ الْمَذْكُورَ، وَكَانُوا عَلَى رَأْيِ عُمَرَ رضي الله عنه فِي ذَلِكَ، وَظَهَرَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ: أَنَّ الصَّدِيقَ رضي الله عنه لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مُوَافِقًا لَهُمْ، بَلْ كَانَ قَلْبُهُ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَوَاءً، وَسَيَأْتِي فِي الْهَجْرَةِ أَنَّ ابْنَ الدُّغْنَةَ وَصَفَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ رضي الله عنه بِنَظِيرِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَةُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، سَوَاءً مِنْ كَوْنِهِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَتْ صِفَاتُهَا مُتَشَابِهَةً مِنَ الْإِنْتِدَاءِ، اسْتَمَرَّ ذَلِكَ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ. [فتح الباري ٥/٣٤٦].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه وَرِجَالٌ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْتَنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتَعْرِفُ مَعَ الْمَعْرِفِينَ؟ وَهَدَيْنَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ، وَلَا نَحْنُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «قُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟» قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَأَخْلِقُ رَأْسِي وَرُؤُوسَكُمْ بِطَنْ مَكَّةَ، وَأَعْرِفُ مَعَ الْمَعْرِفِينَ».

[المغازي للواقدي ٢/٦٠٩].

وعلى الغالب أن هذا الأمر لم يتم في هذه اللحظات. وأثناء توقيع الهدنة، إنما كان بعد ذلك.

لكن كل ما رأيناه من مظاهر الغضب لم يتجاوز حديث النفس، ويحدثنا عمر رضي الله عنه عن ذات نفسه فيقول فيها رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: جَلَسْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمًا، فَذَكَرَ الْقَضِيَّةَ، فَقَالَ: «لَقَدْ دَخَلَنِي يَوْمَئِذٍ مِنَ الشَّكِّ، وَرَاجَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ مُرَاجَعَةً مَا رَاجَعْتُهُ مِنْهَا قَطُّ، وَلَقَدْ عَتَقْتُ فِيهَا دَخَلَنِي يَوْمَئِذٍ رِقَابًا، وَصُمْتُ دَهْرًا، وَإِنِّي لَأَذْكُرُ مَا صَنَعْتُ خَالِيًا فَيَكُونُ أَكْبَرَ هَمِّي، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ عَاقِبَةَ الْقَضِيَّةِ خَيْرًا، فَيَنْبَغِي لِلْعِبَادِ أَنْ يَتَّهَمُوا الرَّأْيَ، وَاللَّهُ لَقَدْ دَخَلَنِي يَوْمَئِذٍ مِنَ الشَّكِّ حَتَّى قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ كُنَّا مِائَةَ رَجُلٍ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي مَا دَخَلْنَا فِيهِ أَبَدًا، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ أَسْلَمَ فِي الْهُدْنَةِ أَكْثَرُ مَنْ كَانَ أَسْلَمَ مِنْ يَوْمٍ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى يَوْمِ الْحَدِيبَةِ، وَمَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ أَعْظَمَ مِنَ الْحَدِيبَةِ».

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَكْرَهُونَ الصُّلْحَ؛ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ حَلَقَ رَأْسَهُ وَأَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ، فَأَخَذَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَعَرَفَ مَعَ الْمَعْرِفِينَ، فَلَمَّا رَأَوْا الصُّلْحَ دَخَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ حَتَّى كَادُوا يَهْلِكُونَ». [المغازي للواقدي ٢/٦٠٧].

ونجاهم الله تعالى من الهلاك ليدخلوا في الامتحان الثامن بعده.

«فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا». [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

وعند ابن إسحاق: وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٨].

وفي رواية: فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ تَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ كُمْ مِنَّا رَدَدْنَاهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُكْتَبُ [أَتُكْتَبُ] هَذَا؟! قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ قَرْجًا وَنَحْرَجًا». [مسلم في الجهاد (١٧٨٤)، ومسنند أحمد ٢١/٣٢٨ رقم ١٣٨٢٧].

إن مجرد الصلح عند المسلمين ولو كان بشروط قوية مجحفة في قريش كل الإجحاف، هو مكروه عند جيل البيعة الذي استعد للموت والمواجهة في سبيل الله، فكيف بهذه الشروط الصاعقة لهم، والمجحفة بحقهم، والتي تسهم في أعز ما لديهم في دينهم وفي كرامتهم، والله تعالى يدعهم إلى إيمانهم دون أن يعلمهم بشيء يختبرهم في مواقفهم جميعاً بامتحان تلو امتحان، وفي مواقف متعارضة متضاربة؛ ليكونوا أهلاً بعد هذا كله لما أعده لهم من تكريم وثناء وفضل، فقد كان مستغرباً أشد الاستغراب عندهم أن يقبل رسول الله ﷺ إعادة ما يأتيه مسلماً إلى المشركين، سبحانه الله! كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! وبالمقابل لا يرد الفار من المسلمين إليهم إذا فر إلى المشركين.

وحتى تأخذ المحنة أقصاها، وتأخذ أبعادها جاء الامتحان التاسع الرهيب.  
وهو ما كان في قصة أبي جندل ؓ ورده إلى المشركين.

لم يعد الأمر مجرد تصور ذهني، والتصور الذهني لم يتحملة المسلمون، إنها هي صورة واقعية لشباب مسلم قطع الجبال، وألتجأ إلى رسول الله ﷺ معلناً إسلامه، والجيش الإسلامي كله يشهد هذا المنظر المؤلم القاتل، وسهيل بن عمرو أخذته حمية الجاهلية، وخانته حكمته، واعتبر إسلام ابنه إهانة موجّهة لشخصه، وطعنًا في ذاته فأوقف المباحثات كلها على رواية أبي جندل إليه، ولم يكتف بذلك فقام يضرب بكل ما يحمل من حقد ابنه، وابنه أبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين يفتنونني في ديني وأبوء يضرب وجهه بغصن شوك يأخذ بلبته (اللبة: مجامع الصدر والعنق).

فزاد المسلمين ذلك شراً إلى ما بهم، وجعلوا ييكون لكلام أبي جندل.

ولا يزال الأسد الجريح عمر بن الخطاب ؓ يئن في وثاقه من تطاول سهيل ومكرز بن حفص، وحويطب بن عبد العزى، فأراد أن يشعلها ناراً تحرق هؤلاء المتطاولين، وراح يُدني قائم السيف من أبي جندل يحضه على قتل أبيه، وبذلك يسقط الصلح وتقع المعركة.

لم يكن عمر ؓ في حياته كلها أضعف منه ذلك اليوم، ولم يذكر في حياته ذنباً أعظم من هذا الذنب في الإسلام، وحين نذكر خطأ الكبار، لا نجد في صفحة عمر ؓ غير هذه الخطيئة التي كانت دون مستواه والتزامه بكثير، حتى ولا موقفه يوم وفاة رسول الله ﷺ حين كانت المصيبة أكبر منه، فهو هناك لم يخرج على كلام رسوله محمد ﷺ، أو يشك في حسن تصرفه، أما هنا فقد وقعت المحنة، وكانت أكبر منه، وكما روى ابن عباس ؓ عن عمر ؓ، وذكر القضية في خلافته فقال: ارتبت ارتياباً لم منذ أسلمت إلا يومئذ، ولو وجدت ذلك اليوم شيعة تخرج عنهم رغبة في القضية لخرجت، ثم جعل الله تبارك وتعالى عاقبتها خيراً ورشداً، وكان رسول الله ﷺ أعلم.

لقد جاءت قضية أبي جندل فأججت النار من جديد، ولكن هذه النار تآكل القلب، لكنها لا تمتد أبداً إلى السلوك، فعندما سأل أبو جندل ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ: (ما لك لا تقتله أنت؟) قال: نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره، فأجابته الملتزم العظيم أبو جندل الذي لا يزال يرسف في قيوده: ما أنت بأحق من طاعة رسول الله ﷺ مني.

فقد صدر الأمر بكف اليد لكليهما، وصدر الأمر لأبي جندل الآن يدعوه إلى الصبر والاحتساب حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، وكلما اشتد الضيق والكرب، وأمكن الالتزام والانضباط من خلاله، كلما اعتبر النجاح أرفع وأروع لهذه الأمة الفتية.

ولئن كان قوم طالوت قد امتحنوا بالنهر، فهذه عشرة أنهر وعشرة محن ممن يمتحن الله بها هؤلاء الخالص من جنده؛ لأنهم هم خيرة أهل الأرض بعد أنبيائه ورسله.

وهذا هو الامتحان العاشر والأخير، قبل إعلان النتيجة التي تلقاها هذا الجيل السعيد وهو عائذ من الحديبية إلى المدينة...

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قِصَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ اخْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ فَذَكَرَ هَذَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ أَخْرَجْتُ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُذْنَكَ، وَتَدْعُو خَالِقَكَ فَيُحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُذْنَهُ وَدَعَا خَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَمًا.

[البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

ولأول مرة في تاريخ هذه الأمة منذ تسعة عشر عامًا، يصدر أمر من رسول الله ﷺ ولا ينفذ على الفور، ولا يقم أحد بتنفيذه، فالانتقال من التصور النظري عن قبول المعاهدة والعودة إلى المدينة دون عمرة، إلى الممارسة العملية أمر من المشقة والهول ما لا يستطيعه أحد، فإذا حلقوا ونحروا فهذا يعني: أنهم حقاً لن يدخلوا مكة ولن يعتمروا، ولا تزال تعتمل في قلوبهم احتمالات تفجّر الموقف، من معركة جانبية، أو اختلاف في جزئية فتسقط الاتفاق، ويدخل المسلمون المسجد الحرام ويؤدوا المناسك.

أما وقد صدر الأمر بالنحر والحلق، فهذا يعني: سقوط كل الأمان والعودة بدون عمرة، ونجاح قريش التي تحاد الله ورسوله في صد محمد ﷺ عن هذا البيت، ويكاد يكون القوم جميعاً قد فقدوا وعيهم، وكل امرئ منهم ينتظر أخاه أن يقوم؛ ليكون آخر من ينفذ على كُره منه الحلق والذبح دون نسك.

وثلاث مرات يتم النداء، ويتم التلكؤ، حتى دخل ﷺ على زوجه العظيم - أم سلمة - وشكا لها ما لقي من الناس، وكانت أم سلمة من الحكمة والعبقريّة، وهي جزء من هذه الأمة تحس بأحاسيسها

وتشعر بمشاعرها، وتعاني كما يعانون بحيث أدركت أبعاد الموقف كله، وعلمت أن الأمة قد لا تستجيب للنداء النظري، فهم يرون قائدهم ﷺ لا يزال مُحَرَّمًا، فإذا قد تتم العمرة بعدها، فلم العجلة، وخرج الرسول ﷺ ولم يكلم أحدًا فنحر ثم حلق، وتسارع المسلمون بعدها للحلق والذبح، حتى كادوا يقتلون بعضهم من الغم، ونفذوا الأمر النبوي كما صدر لهم، ونجحوا في امتحاناتهم العشرة.

وما ظهر أثناء هذه الامتحانات من تلكؤ حينًا أو كلام يندُّ أحيانًا أخرى، لكن التنفيذ يتم في النهاية ضد رغباتهم، وضد ذاتهم، وضد أهوائهم، وضد قناعاتهم، كل هذا لم يأت عبثًا أبدًا، إنما هو امتحان رباني فقط، ليس لرسول الله ﷺ دور إلا تنفيذ ما يوحي له ربه في هذا المجال، إنها دورة رئاسة أركان عليا، خاضها جيل الحديبية؛ لتعطيهما أعلى الأوسمة في تاريخ البشرية، وترفعهم إلى مصاف أولياء الله الذين تتحدث عنهم البشرية قاطبة في التوراة والإنجيل والقرآن، وعند الأمم السابقة المختارة مثلهم أنهم الأولى، وأنهم الأرفع، وأنهم الأعلى.

ها نحن شهدنا ولادتهم منذ تسع عشرة عامًا خطوة خطوة، وفردًا فردًا، حتى استووا واقعًا حيًا يسير على الأرض، بعد أن كانوا مثلاً حيًا في الكتب، وضميرًا في عالم الغيب المكنون.

وأعلنت نتيجة الامتحانات الكاملة على طريق العودة إلى المدينة، حيث تم تغيير كامل في تكوينهم، وسُحبت منهم الحمية ليتحولوا إلى جيل الدعوة الخالصة، فإن عليهم قيادة الأجيال الجديدة التي تغد بعد الحديبية، وعليهم مسؤولية صياغتها، ومسؤولية تربيتها، وستدقق أمواج المسلمين كالأنهار عليهم من كل صوب، وعليهم أن يستوعبوا هذا التدفق، فكان استبدال السكينة بالحمية هو عنصر البناء الجديد، وعنصر الصياغة التي تلقوها على الطريق، بعد إعلان الفتح المبين لمحمد رسول الله ﷺ، وإعلان الرضا التام عن رسوله الذي لم ينله مخلوق على مستواه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ <sup>(١)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ <sup>(٢)</sup> إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ <sup>(٣)</sup> [الفتح]، مَرْجِعُهُ مِنَ الْحَدِيثِ وَهُمْ يُحَالِطُهُمُ الْحُزْنُ وَالْكَأَبُ، وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا».

[مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٦)].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهُمَا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحَدِيثِ، وَأَصْحَابُهُ يُحَالِطُونَ الْحُزْنَ وَالْكَأَبَ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَسَاكِينِهِمْ، وَنَحَرُوا الْهَدْيَ بِالْحَدِيثِ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» <sup>(١)</sup> إِلَى قَوْلِهِ ﴿صَرَفًا مُسْتَقِيمًا﴾ <sup>(٢)</sup> [الفتح]، قَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَتَانِ هُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا»، قَالَ: فَلَمَّا تَلَاهُمَا قَالَ رَجُلٌ: هَنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ! قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَا يَفْعَلُ بِنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٥] حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ. [مسند أحمد ٣٦٩/١٩ رقم

١٢٣٧٤، ٢١/٢٣٢ رقم ١٣٦٣٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].



فقد أكرم الله تعالى هذا الجيل بالسكينة والرضوان والجنة وهو الفوز العظيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٢﴾ [الفتح].

ثم كرر ذلك عليهم في السورة مرة ثانية، حيث خصَّ هؤلاء المؤمنين بأنهم هم الذين بايعوا تحت الشجرة فقال ﷺ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٣﴾ [الفتح].

فأضاف إليهم ﷺ إضافة إلى الفتح المبين في الحديبية، الفتح القريب مع العدو، ثم يعود ثالثة فيمنَّ عليهم في السورة نفسها بالسكينة التي حلت محل الحمية، والتي انتزعت من النفوس: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْأَمِيَّةَ حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ۖ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤﴾ [الفتح]، وكان هذا كله ثمرة الامتحانات جميعاً، وإعلان نتائج الفور العظيم فيها.

ويسوق لنا الحافظ البيهقي رحمه الله في الدلائل شرحاً مستفيضاً لهذا الفتح الذي قصرت أفهام المؤمنين عنه ابتداءً، وخالطهم الحزن والكآبة بعد الغضب والثورة وأثناء كتابة هدنة الحديبية، واستشرف رسول الله ﷺ آفاق هذا الفتح، فحدّثهم عنه بعد أن التزموا بأمر الله ورسوله خلاف فناعتهم وخلاف أهوائهم وخلاف عواطفهم ومشاعرهم.

قال البيهقي: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَدِّي، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بنِ الْحَافِظُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الْبَغْدَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ هُبَيْعَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ قَالُوا: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحَدِيثِ رَاجِعًا، فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذَا يَفْتَحُ، لَقَدْ صُدِدْنَا عَنِ الْبَيْتِ وَصُدَّ هَدْيُنَا، وَعَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِيثِ، وَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَرَجَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلَ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِفَتْحٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَسَّسَ الْكَلَامُ! هَذَا أَعْظَمُ الْفَتْحِ، لَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوا كُمْ بِالرَّاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَيَسْأَلُوا كُمْ الْقَضِيَّةَ، وَيَرْعُبُونَ إِلَيْكُمْ فِي الْأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا وَقَدْ أَظْفَرَكُمْ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ، وَرَدَّكُمْ سَالِينَ غَانِمِينَ مَأْجُورِينَ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، أَنْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تَضَعُدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ؟ أَنْتُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا؟».

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، هُوَ أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، وَاللَّهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ، وَلَا نَتَّعْلَمُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَّا مَوْرٍ مِنَّا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ الْفَتْحِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)﴾، فَبَشَّرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِمَغْفِرَتِهِ، وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ، وَفِي طَاعَةِ مَنْ أَطَاعَ، وَنِفَاقِ مَنْ نَافَقَ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا الْمُنَافِقُونَ مُعْتَلُونَ بِهِ إِذَا اتُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا مَنَعَهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ لَنْ يَرْجِعَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَظَنُّوا السُّوءَ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ إِذَا انْطَلَقُوا إِلَى مَغَانِمَ لِيَأْخُذُوا بِهَا، التَّمَسُّوا الْخُرُوجَ مَعَهُمْ لِعَرَضِ الدُّنْيَا، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ سَيُذْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، يُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ مَا يَبْتَغِيهِمْ، فَإِنْ أَطَاعُوا، أَثَابَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ، وَإِنْ تَوَلَّوْا كَفَعْلَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، عَذَّبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا أَثَابَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَتْحِ، وَالْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ، «وَعَجَّلَ لَهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً».

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِكَفِّ أَيْدِي الْعَدُوِّ عَنْهُمْ، ثُمَّ بَشَّرَهُ ﷺ بِمَكَّةَ أَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ «لَوْ قَاتَلَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَلَا عَظِيمَتُكُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَيْهِمْ».

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُسْرِكِينَ وَصَدَّهُمُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حَجَّهٗ، وَأَخْبَرَ أَنْ: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَ تَفَعَّلُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لَوْ كَانَ قِتَالٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٥) [الفتح].

ثُمَّ ذَكَرَ الْحِمِيَّةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَقْرَأُوا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِاسْمِهِ، وَلِلرَّسُولِ بِاسْمِهِ، وَذَكَرَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السَّكِينَةِ حَتَّى لَا يَحْمُوا كَمَا حَمَى الْمُسْرِكُونَ لَوْ قَعِ الْقِتَالِ، فَيَكُونُ فِيهِ مَعَرَّةٌ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ «صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّءُفُ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّفِينَ رُءُوسَكُمْ دُمُوعِينَ لَا تَخَافُونَ قُلُوبَكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» (٣٦) [الفتح].

هَذَا لَفْظُ حَدِيثِ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ، وَحَدِيثُ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ بِمَعْنَاهُ.

قَالَ: وَالْفَتْحُ الْقَرِيبُ، الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ مِنَ الظَّفَرِ عَلَى عَدُوِّهِ فِي الْقَضِيَّةِ الَّتِي قَاضَاهُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، عَلَى أَنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ الَّذِي صُدَّ فِيهِ أَمْنًا هُوَ فِي أَصْحَابِهِ، وَيَقُولُ نَاسٌ: الْفَتْحُ الْقَرِيبُ: خَيْرٌ، وَمَا ذُكِرَ فِيهَا. وَقَدْ سَمَى اللَّهُ فَتْحَ خَيْبَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى فَتْحًا قَرِيبًا، قَالَ: ﴿فَأَنْزَلَ

السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٣٨) [الفتح]

فَكَانَ الصَّلْحُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ سَتَيْنِ، يَأْمَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

هَذَا لَفْظُ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ، وَحَدِيثُ عُرْوَةَ بِمَعْنَاهُ. [دلائل 'نبوة للبيهقي ٤/ ١٦٠-١٦٢].

لقد كانت مهمة هذه الامتحانات العشرة أن تُحوّل جيلَ الثأر من الكافرين بعد أن أظفر الله هذا الجيل عليهم إلى جيل الدعوة في صفوفهم وصفوف العرب قاطبة، وهذا الجيل يجب أن تكون أولى مواصفاته الاستجابة لداعي الجهاد والقتال في التو عندما يطلب منه ذلك.

وقد نفّذ هذه المهمة بنجاح، وسارع كله إلى البيعة كما تقول أم عارة: (فلما بقي لنا متاع إلا وطئ) وأن يكون جاهزاً لإلقاء السلاح على التو عندما يُطلب منه ذلك، وقد نفّذ هذه المهمة بنجاح، حتى يستجيبون بالإيابة لذلك (فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ وَيُؤَمِّمُ بِيَدِهِ إِلَيْهِمْ أَسْكُتُوا، وَجَعَلَ حُوَيْطُبٌ يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَصْنَعُونَ) وأن تكون الدعوة إلى الله هي محور حياته، حتى مع قريش فإيمانهم أكبر بكثير من الثأر منهم وقاتلهم وجهادهم: ﴿يَتَخَلَّجُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥]، وأن يكون ظهور الدين وانتشاره في الأفاق هو الهدف الرئيسي بعد رضوان الله، وليس فقط قتل المشركين وإبادتهم، ليس ظهور أشخاص هذا الدين، إنما ظهور هذا الدين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨) [الفتح]، وهذا لا يتم إلا في جو الحرية المطلقة للدعوة، حيث يكون الحديث للهدى لا للسيف، والاحتكام للحق لا للقوة. معاهدة الحديبية هي التي كوّنت هذا الجو، وما كان لها أن تكونه بدون هذه القوة.

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٥٧-٢٨٦].

### ٣٤ - الشرط الظالم !!:

يقول عميد/ فرج: «اشترطت قريش أن يرد رسول الله ﷺ من يأتيه من أهلها دون إذن وليه، وقبل رسول الله ﷺ هذا الشرط مع ما فيه من تشدد أغضب أصحابه، ورأت قريش في هذا الشرط نصراً لها وامتيازاً وفرصة لها لتفرض على رجالها الذين يؤمنون بمحمد ﷺ أن يعودوا إلى دين الآباء والأجداد بالحنسنى أو بالقهر، ولم يكن يخطر ببالها وهي تركز على هذا الشرط أنه سيكون سوطاً يلهب ظهرها، ويشير المتاعب لها، ويصيبها في رزقها، ويعطل لها تجارتها، فتضطر آخر الأمر أن تنازل عنه وتطلب إلغاءه.

فما أن تم عقد الصلح حتى اتجهت قريش إلى التوسع في تجارتها لعلها تستعيد ما فقدته أيام اتصال الحرب بينها وبين المسلمين، حين سدت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرضة للضياع، فقد ضمن لها الصلح عدم تعرضها لعدوان من قبل المسلمين لسنوات قادمة، وأصبح الطريق إلى الشام مفتوحاً أمامها وآمناً.

ولكن حدث ما لم يكن في تقديرها.

فقد قدم إلى المدينة أبو بصير عتبة بن أسيد رضي الله عنه، وكان قد أسلم وهو بمكة فحبس بها، واستطاع أن يخرج من محبسه ويأتي رسول الله ﷺ، فإمره الرسول ﷺ، ولكن يقتل الرجل العامري ويعود ثانية إلى رسول الله ﷺ، ولكنه ﷺ يرده مرة ثانية.

ولكن إلى أين يذهب أبو بصير رضي الله عنه وقد أصبح مقامه في المدينة مخالفاً لشرط الصلح وليس مقبولا أن يعود إلى مكة؟

إنه قد دخل الإسلام بإيمان عميق بعد أن امتلأ قلبه ووجدانه بهذا الدين، وقد وهب نفسه للجهاد في سبيل الله، ومن خلال هذا المعنى كانت انطلاقته ضد قريش، فقد انطلق حتى نزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر على طريق الشام الذي كانت تسلكه قوافل قريش في ذهابها وإيابها.

وخرج إليه عدد من المسلمين كانوا يعيشون في مكة محبوسين، منهم أبو جندل بن سهيل رضي الله عنه الذي رده رسول الله ﷺ يوم عقد الصلح، وتسلسل كثيرون إليه منهم سبعون فارساً، وانضم إليه كثيرون من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم، وتجمع لديه ثلاثمائة مقاتل، شكّلوا قوة ضاربة وجعلوا مهمتهم مهاجمة قوافل قريش، وقتل حراسها، والاستيلاء على غيرها.

وضاقت قريش بهم، ورأت أن تجارتها تبور، وأن خسارتها بحرصها على حبس المسلمين في مكة ومنعهم من أداء شعائر دينهم تفوق مكسبها، وأدركت أن حبس الرجل الصادق الإيمان شر من إطلاقه، وأن المحبوس يبحث عن فرصة للفرار بدينه والانضمام إلى قوة أبي بصير رضي الله عنه، ولم تجد قريش بُدّاً من أن تكتب إلى رسول الله ﷺ ترجوه أن يقبل من يأتيه من مكة ولا يرده، وتناشده بأرحامها إلا آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً، وبعث أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ قائلاً: «إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط، من جاء منهم إليك فأمسكه من غير حرج، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره».

واستجاب رسول الله ﷺ لهم وبعث إلى أبي بصير رضي الله عنه أن يقدم عليه، ولكنه كان قد مات ودفنه أبو جندل، الذي رجع إلى المدينة مع ناس من أصحابه، وأمنت قريش على قوافلها وعيها. ودعا رسول الله ﷺ المسلمين المقيمين في مكة المستضعفين في أرض الشرك إلى الهجرة إلى المدينة، ونهى ﷺ عن إقامة المسلم بين المشركين ما دامت عنده القدرة على الخروج من بين ظهرانهم.

ودعوة رسول الله ﷺ هذه تحمل معنيين:

أولهما: أن يخرج المسلم من حال استضعاف إلى حيث العزة والمنعة.

وثانيهما: أن الهجرة تعني تجمع المسلمين وتمركزهم، وفي الجماعة قوة وهيبة».

[العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٣٨-٣٤١].

### ٣٥ - ثوار العيص، وحكومة المستضعفين في الساحل:

يقول أ/ باشميل: «في حديثنا عن قضية الحديبية أشرنا إلى أن هناك الكثير من الشباب المسلم يعانون أشد أنواع الإذلال والتعذيب والإرهاب في سجون أهاليهم بمكة ومنهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو صاحب القصة المشهورة في الحديبية.

وكان النبي ﷺ - كما أشرنا في معالجتنا لقضية الحديبية - قد تعهد لقريش في المعاهدة بأن يمتنع من إعطاء حق اللجوء لمن جاء إليه من أبناء مكة وأن يرده ولا يسمح له بالإقامة في المدينة حتى وإن كان مسلماً، وهو الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو فقبل النبي ﷺ وتضايق المسلمون من قبوله أشد التضايق. ولم يكن حادث أبي جندل ومأساته في الحديبية الامتحان الأول الذي اجتازه المسلمون فوفوا بالعهد حين أعادوا أبا جندل المسلم إلى أبيه المشرك تنفيذاً لبنود المعاهدة كما تقدم.

ثورة المستضعفين ضد قريش: من آثار صلح الحديبية العائدة على الجانب الإسلامي بأعظم المكاسب، وعلى الجانب القرشي بأشد الأضرار، هو أن مندوب قريش في معاهدة الصلح سهيل بن عمرو العامري أملى - أثناء المفاوضة - شرطاً قاسياً قبل به النبي ﷺ وكان مثار معارضة شديد بين جماهير أصحابه في الحديبية، وهو أن يتعهد النبي ﷺ بأن يعيد إلى قريش من أبنائها إليها كل من جاء إلى المسلمين بغير إذن أهله، يعيده إلى المشركين حتى ولو كان مسلماً.

العمل بهذا الشرط الذي أمّله قريش سبب لها أعظم النكبات وأفدح الخسائر إلى درجة اضطرت قريش معها إلى أن تلجأ إلى النبي ﷺ وتناشده الرحم بأن يقبل بإسقاط هذا الشرط من بنود المعاهدة فيقبل كل من جاءه من أبناء قريش ولا يرده.

وذلك بعد أن تسبب قيام النبي ﷺ بتنفيذ هذا الشرط في التجاء أبناء قريش المسلمين المتمردين عليها والفارين من سجونها إلى منطقة العيص في الساحل، حيث تجمع منهم ومن أبناء القبائل الأخرى ثلاثمائة مقاتل، قاموا بالثورة ضد مشركي قريش، وصاروا - بقيادة أبي بصير ؓ - يهاجمون القوافل التجارية العائدة لها، والتي تحمل السلع دائماً من الشام إلى مكة، ويقومون بقتل الذين يصاحبون هذه القوافل من القرشيين.

الأمر الذي أنزل بقريش أفدح الخسائر في الأموال والأرواح، ولما كان هؤلاء الثوار المسلمون هم - بحكم رابطة العقيدة - موالين للنبي ﷺ وأصحابه في المدينة، ولا يستطيع السماح لهم بالإقامة فيه، تنفيذاً

لذلك الشرط الذي أملته قريش وأدرج ضمن بنود المعاهدة، فقد لجأت قريش إلى النبي ﷺ وبعثت إليه تناشده الرحم أن يطلب ثوار العيص المسلمين إنهاء ثورتهم ضد قريش، ويسمح لهم ولكل من جاءه من أبناء قريش باستيطان المدينة، وذلك لتنجو قوافل قريش التجارية - والتجارة عمود قريش الفقري - من هجمات هؤلاء الثوار الشباب.

وقد استجاب النبي ﷺ لرجاء قومه - بالرغم من كونهم مشركين - وبعث إلى قائد الثوار أبي بصير ونائبه أبي جندل بأن يقدموا وإخوانهم الثوار إلى المدينة ويتركوا مواقعهم في العيص، فاستجاب الثوار لأوامر النبي ﷺ وعادوا إلى المدينة». [صلح الحديبية لابن كثير ٣١٣-٣١٥].

### ٣٦ - المستضعفون الأقوياء:

يقول د/ العودة: «لا ينبغي لأحد أن يغتر بقوته، ولا ينبغي لمستضعف حيناً أن يظن أن استضعافه إلى الأبد، وفي قصة الحديبية استقوى الضعفاء، بل كانوا سبباً لتراجع قريش عن شروطها، ولقد كان أبو بصير ؓ (عُتبة بن أسيد الثقفي) وأبو جندل ؓ (ابن سهيل بن عمرو) والوليد بن الوليد بن المغيرة ؓ نفراً من هؤلاء المستضعفين بمكة.

فماذا كان من خبر قائدهم (أبي بصير ؓ)؟ لقد فرّ إلى النبي ﷺ في المدينة بعد توقيع الصلح مع قريش، فأرسلت قريش في طلبه، وما كان للنبي ﷺ بدٌّ من إرجاعه، وإن أبدى للنبي ﷺ تحوُّفه من فتنة المشركين وعذابهم، واكتفى الرسول ﷺ بالقول له: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَخَرْجًا».

وخرج أبو بصير ؓ مع صاحبيه ليعود إلى مكة، فما جاوز المدينة بقليل - قيل: عند ذي الحليفة - حتى قَتَلَ أحدَ الرجلين، وقرَّ الآخر هائماً على وجهه مستصرحاً بالنبي ﷺ فرعاً، إلى حد أنه كان يعدو عاصباً على أسفل ثوبه، وقد بدا طرف ذكِّره، والحصا يطير من تحت قدميه من شدة عدوه، وأبو بصير ؓ يتبعه. وحينها قال النبي ﷺ لأبي بصير ؓ: «وَيْلُ أُمِّهِ مَسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، ففهم أبو بصير ؓ هذه الرسالة، وانطلق إلى الساحل حتى نزل إلى (العيص) على طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام، ثم انضمَّ إليه كل من فرَّ من قريش من مستضعفي المسلمين بمكة، وشكّلوا هناك قوةً وخطرًا على تجارة قريش، وهم خارج إطار الصلح حتى ضاقت قريش بهم، وطلبت من النبي ﷺ أن يُلغي الشرط الخاص بمن قدم إليه من المسلمين وأن يستقبل هؤلاء.

وهكذا تقوى هؤلاء الضعفاء بصدقهم وتضحياتهم وصبرهم وجهادهم، حتى كتب الرسول ﷺ لهم بالقدوم عليه في المدينة ففرحوا، ولكن قائد المجاهدين أبا بصير ؓ لم تكتمل فرحته ولم يُقدِّر له أن يلتقي

بالنبي ﷺ بعد أن خرج من المدينة، إذ جاءه كتاب النبي ﷺ وأبو بصير ﷺ يموت كما تقول الرواية، فبات وكتاب رسول الله ﷺ في يده، فدفنه أبو جندل ﷺ في مكانه، وقدم أصحابه الآخرون إلى المدينة. وكذلك يقوى الضعفاء، ويضعف الأقوياء، والله غالب على أمره.

قال الزهري: فعلم الذين كانوا أشاروا بألا يسلم أبو جندل إلى أبيه أن طاعة رسول الله ﷺ خير مما كرهوا. [السيرة النبوية من الفتح ٢٣٠ - ٢٣١، الإصابة ٦/ ٥٧٣].

قال ابن القيم: «وَمِنْهَا: جَوَّازُ صَلَاحِ الْكُفَّارِ عَلَى رَدِّ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا يُرَدُّ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، هَذَا فِي غَيْرِ النِّسَاءِ، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَلَا يَجُوزُ اشْتِرَاطُ رَدِّهِنَّ إِلَى الْكُفَّارِ، وَهَذَا مَوْضِعُ النَّسْخِ خَاصَّةً فِي هَذَا الْعَقْدِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى دَعْوَى النَّسْخِ فِي غَيْرِهِ بِغَيْرِ مُوجِبٍ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٨]. [فتحه الحديبية للعودة ٦].

### ٣٧ - صروح الكفر والطغيان تتهاوى أمام عزمات الإيمان:

يقول د/ الحكيمي: «أسلم رسول الله ﷺ أبا بصير ﷺ إلى رسولي قريش - وفاء بشرطها الذي أصررت عليه - فخرجه إلى مكة حيث الفتنة والتعذيب.

لكن أبا بصير ﷺ استطاع التخلص من الرجلين فقتل أحدهما وفر الآخر إلى المدينة، ورجع أبو بصير مرة أخرى إلى المدينة، يبشر المسلمين بخلاصة من قبضة المشركين.

ولم ينكر رسول الله ﷺ صنيع أبي بصير، ولكن أشعره بعدم البقاء في المدينة حيث قال له ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مَسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلُ أُمِّهِ مَحْشٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!». ولم ينكر رسول الله ﷺ صنيع أبي بصير، ولكن أشعره بعدم البقاء في المدينة حيث قال له ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مَسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلُ أُمِّهِ مَحْشٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!».

وفد فطن أبو بصير بكلام رسول الله ﷺ فخرج حتى أتى ساحل البحر - حيث تمر عير قريش إلى الشام - فأقام هناك يهدد تجارة قريش، وتسامع المسلمون في مكة بخبر أبي بصير فخرجوا إليه حتى اجتمع معه نحو السبعين، فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وقد استطاعوا أن يقطعوا على قريش طريق تجارتها إلى الشام.

ولما رأت قريش أنها قد حرمت مصدرًا يدر عليها الأموال الطائلة، هرع سيدها أبو سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ يخبره أن قريشًا قد تحلت عن شرطها وأن له أن يؤوي من جاء من قبل قريش، ويستعطفه ويضرع إليه في استقدام أبي بصير وأصحابه، فلبى رسول الله ﷺ طلب قريش وكتب إلى أبي بصير وأصحابه في القدوم إلى المدينة، وبذلك فتح باب الهجرة إلى المدينة على مصراعيه أمام المستضعفين في مكة.

وفي هذه القصة دروس وعبر جليلة، جديرة بالتأمل والتدبر، وأهمها ما يلي:

أولاً: تضحية المؤمن بكل شيء في سبيل عقيدته: فأبو بصير ﷺ ترك أهله وعشيرته ووطنه - حين أردادوا النبل من عقيدته - وهاجر يلتمس جَوْاً ملائماً لعقيدته ودعوته.

ثانيًا: غيرة المؤمن على عقيدته وانتصاره لها: فأبو بصير رضي الله عنه حين تخلص من قبضة المشركين لم يبحث لنفسه عن مأمّن يلجأ إليه - ولو بحث لوجد - لكنه أراد الانتقام لعقيدته من قريش التي ناصبتها العداء.

ثالثًا: في خروج سيد قريش - أبي سفيان - من مكة وتجشمه مشاق الطريق حتى يصل إلى المدينة ليستعطف رسول الله ﷺ في إقالة قريش من شرطها الذي أصرت عليه، وظنت أنه سيحول بين الناس وبين الدخول في الإسلام - عبرة لكل طاغية يقف في طريق الإسلام ليصد الناس عنه».

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٧٥-٥٧٦].

### ٣٨ - مثل رائع لوفاء المسلم وثباته على عقيدته:

يقول د/ الحكمي: «كان من جملة الشروط التي أخذتها قريش على المسلمين في صلح الحديبية: أن على المسلمين أن يردوا من جاءهم من قبل قريش، ولا ترد قريش من جاءها من قبل المسلمين.

وقد كره المسلمون هذا الشرط إلا أن سهيل بن عمرو قد أصر عليه، وما أن وقع الاتفاق بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو على عقد الصلح حتى طلع عليهما أبو جندل بن سهيل بن عمرو يترسّف في الحديد، وكان قد خرج فارًّا بدينه إلى المسلمين.

فلما رآه والده قام إليه فضرب وجهه وأخذ يحرقه بثيابه ليرده إلى مكة، وأبو جندل يستنجد برسول الله ﷺ وبالمسلمين ليحولوا بينه وبين أبيه، لكن ماذا يملك رسول الله ﷺ والمسلمون؟ إنهم قد أعطوا قريشًا عهدًا على رد من جاء من قبلها، فالأمر أصبح بيد قريش، وسهيل بن عمرو هو الناطق باسمها.

وحين رأى رسول الله ﷺ إصرار سهيل بن عمرو على رد أبي جندل تركه وشأنه، ثم أوصى أبا جندل بكلمات قال فيها: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَخُرْجًا».

ورجع سهيل بن عمرو بأبي جندل رضي الله عنه إلى مكة حيث الفتنة والتعذيب.

وليست قصة أبي جندل هذه بأعجب من قصة أبي بصير رضي الله عنه، فأبو بصير ترك مكة فرارًا بدينه من الفتنة، وقدم المدينة، لكنه لم يكد يستعيد أنفاسه حتى قدم في طلبه رجلان من قبل قريش.

فما الذي سيحدث يا ترى؟

هل خوف أبي بصير على دينه من الفتنة سيشفع له في عدم إسلامه لرسولي قريش؟

إن رسول الله ﷺ كان يدرك حال أبي بصير تمامًا ويشفق عليه أيما إشفاق، كيف لا! والله ﷻ يقول في حقه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) [التوبة].



لكن كان يحول بين رسول الله ﷺ وبين حماية أبي بصير من قريش العهد الذي أخذته قريش على رسول الله ﷺ.

فلذلك أسلم رسول الله ﷺ أبا بصير إلى رسولي قريش بعد أن زوده بنحو الوصية التي زود بها أبا جندل.

وخرج الرجالان بأبي بصير ﷺ يريدان مكة، حيث الفتنة والتعذيب.

ففي هاتين القصتين دروس عظيمة أهمها درسان:

الأول: وفاء المسلم بعهده، فقد رأينا كيف أسلم المؤمنون إخوانهم إلى الكفار وهم يعلمون أن مصيرهم ثم هو التعذيب، وما فعلوا ذلك إلا وفاء بالعهد، فالوفاء صفة أصيلة في المؤمن، وقد امتدح الله المؤمنين بذلك في قوله: ﴿أَمَنَ بَعَارُ أَتَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿١٠١﴾ [الرعد]، كما ذم الكفار بنقض ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿١٠٢﴾ [الرعد].

الثاني: ثبات المؤمن على عقيدته مهما كلفه من ثمن، فأبو بصير وأبو جندل يعلم كل منهما ما ينتظره في مكة من الفتنة والتعذيب، لكن لم يعبأ واحد منهما لذلك إنما كان خوفهما على دينهما لأن العقيدة هي أعلى ما يملكه المؤمن، ولقد شهدت مكة نذاج كثيرة من ذلك الثبات، فقد شهدت قبل ذلك خبيب بن عدي ﷺ تناوشه رماح قريش وهو يقول:

فَوَاللَّهِ مَا أَرْجُو إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي  
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَيَّ أَوْ صَالٍ شَلَوُ مُنْزَعٍ<sup>(١)</sup>

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٧١-٥٧٤].

ويقول د/ أيوب: «أما وقد حصل الضرر والخسارة لقريش في الأموال والرجال، فعلى رسول الله ﷺ أن يقبل كل من جاءه مسلماً من مكة، وهنا يطيب لي أن أقول: كيف استبد أبو بصير ﷺ بقوة إيمانه وجمع حوله الرجال الأشداء بعقيدتهم، واستطاعوا أن ينزلوا بتجارة قريش ورجالها أفدح الخسائر، تلك هي الرجولة والبطولة في الحق، وشق الطريق بالقوة حتى أرغم الأعداء الكافرين أن يتنازلوا - صاغرين - عن شرط من شروط الصلح قد نص عليه إبرام المعاهدة، وراحوا يناشدون الرسول ﷺ بالرحم أن يتقبل كل من جاءه من مكة مسلماً.

(١) قال ذلك حين أرادت قريش قتله، وتنظر قصته في مجموعة غزوة أحد.

ألا فليسمع المسلمون والدعاة إلى الإسلام في هذا العصر!! كيف يكون للجهد في سبيل الله وللقوة العادلة المكان الأسمى في فض النزاع وإرغام الخصم على خضوعه لقواعد الحق وشروط الصلح العادلة. تلك وقفة من أبي بصير عليه السلام يحبها الله ورسوله، وقد يكون معنا الدليل على ذلك من قول رسول الله ﷺ عن أبي بصير عليه السلام حين قتل أحد الرسولين الذين جاء من مكة لأخذه: «وَيْلٌ أُمَّهُ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلٌ أُمَّهُ مِحْسَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ»، فعجز هذه العبارة (لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ) يفيد أن وجود رجال مع أبي بصير عليه السلام يؤيدونه ويشدون أزره في موقفه، فأبو بصير هذا - انتصر للحق - لأنه مظلوم - كيف يتبغى الإسلام ديناً ويريد أن يلتحق بكتيبة النور والسلام وقائدها رسول الله ﷺ وتقف له قريش بشرطها المجحف لترده إلى بؤرة الفساد وموطن الظلم والشرك، موقفه أشبه برجل غريق لا في الماء ولكن في محيط من نار الشرك، يريد أن يتنفس الصعداء ويسعى إلى النجاة فإذا هو بشبح مخيف لشرط باطل يثنيه ويقصبه عن الحياة: حياة الإسلام، فإذا عليه لو انتصر لنفسه بعد ظلمه، إن الحق من فوق سبع سموات معه، إن الله ﻻ يقول: ﴿وَلَمَّا أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ۚ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٢﴾ [الشورى]. أي ليس عليهم جناح في الانتصار من ظلمهم.

هكذا سرت روح الإسلام في نفوس معتقديه لا بالباطل ولكن بالحق.

ليت المسلمين الآن يكون شعارهم القوة - لا للبغي والعدوان - ولكن لحفظ الحق والدفاع عن الإسلام، ليت المسلمين في كل مكان يأخذون من أبي بصير عليه السلام عنصر القوة وحماية الحق والإسلام، فيحمون بلاد الإسلام في كل مكان من الاعتداء عليها وقتل المسلمين الآمنين وسلب أموالهم وتشريد أطفالهم، رحمك الله يا أبا بصير، وبصّر المسلمين في كل مكان بما ينفعهم ويعزهم في الدين والدنيا والآخرة. [صلح الحديبية لأبواب ٥٧-٥٨].

٣٩ - الوفاء بالعهد يورث القوة، ويمنح البر، ويؤتي أفضل النتائج، وأعظم

البركات:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كان النبي ﷺ حريصاً كل الحرص على الوفاء بالعهد؛ لأن الوفاء بالعهد في ذاته قوة؛ ولأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝١١﴾ [النحل].

ولقد شك بعض المؤمنين في وفاء المشركين في عهدهم هذا، فقال النبي ﷺ: «وفوا لهم، واستعينوا الله تعالى عليهم».

ولذلك اتجه النبي ﷺ إلى الوفاء.

ولقد كان بعض المؤمنين ينظر إلى الأمر في هذا الاتفاق غير مطمئنين إلا طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، فقد شق عليهم أمران:

أحدهما: ألا يتمكنوا من دخول البيت الحرام وقد أحرموا، ومعهم القوة التي يستطيعون أن يدخلوها، وليس عند قريش القوة الكافية لردهم؛ ولذلك تباطأوا في الاستجابة للتحلل من الإحرام بالحلقة أو التقصير، على ما قصصنا من قبل.

الأمر الثاني: الشطط في شروط قريش، وفي إملاء العقد، وأشد شطط وغبن أن مَنْ خرج مسلماً لا يقبله النبي ﷺ، بل يرده إلى وليه، ومن عاد إلى مكة المكرمة مرتدّاً لا يردونه، فقد كان ظاهر الشرط أن فيه غبناً على النبي ﷺ، إذ فيه عدم المساواة، ولكن إن نظرنا إلى الشطر الثاني، وهو عدم رد مَنْ يخرج من الإسلام إلى الشرك، فإنه عند التأمل لا نجد فيه ضرراً على المسلمين، فما حاجة الإسلام إلى مرتد حائر، فليذهب إلى حيث يشاء، بدلاً من أن يكون شوكة في المسلمين، وقد يرضى أن يبقى منافقاً، وينضم إلى صفوف أهل النفاق، فيكون عيناً على المسلمين، وعلى النبي ﷺ.

وأما بالنسبة للجزء الأول من الشرط، وهو أن مَنْ خرج من مكة مسلماً يُرد إلى وليه، فقد كان بلا شك شاقاً في ذاته، وخصوصاً عندما دخل عليهم أبو جندل ؓ يرسف في قيوده.

وإن هذا الجزء من الشرط وإن كان شاقاً في مظهره صعب التحمل إلا لمن كان قوي الإيمان، فإن تطبيقه أدى في نتائجه إلى الضرر على المشركين، ولم يضار به النبي ﷺ والمؤمنون، حتى إن المشركين الذين كان الشرط من جانبهم ولمصلحتهم هم الذين طلبوا إلغاءه». [خاتم النبیین ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٦٨٢-٦٨٣].

ويقول د/ فيض الله: «ضاق المسلمون ذرعاً بالشروط التي أملاها كفار قريش في صلح الحديبية، ولم يكن لهم شيء من الأمر حيال تصرف النبوة، وكان من أهم ما أغاظهم، اشتراط قريش أن يرد المسلمون مَنْ خرج من مكة إلى المدينة مسلماً، وألا يرد المشركون من خرج من المدينة عائداً إلى مكة، فقد وجدوا الحيف فيه ظاهراً، والغبن جلياً، ومما زاد في الضيق وجوب تحللهم من الإحرام، دون أن يؤدوا العمرة التي خرجوا لها؛ مما جعلهم يتلکؤون في التحلل، بعد خيبة الأمل.

أما فيما يتصل بوجوب التحلل، فقد يبدو فيه الغبن والإجحاف عند مقابله بنقيضه بالنسبة إلى المسلمين، وهو أن يردوا على المشركين من خرج من مكة مسلماً قاصداً المدينة، غير أنه بالنظر الدقيق في شأن المسلم الذي يغادر جماعة المسلمين، ملتحقاً بصفوف المشركين، يتبدى أن المسلمين في غنى عن أمثال هذا؛ لأنه لا يخرج إليهم إلا مرتدّاً، فلا خير في بقاءه فيهم، ليكون عيناً للعدو، أو عوناً له، أو منافقاً يندس بين المؤمنين.

وأما اشتراط أن يرد المسلمون على أهل مكة من خرج منها مسلماً قاصداً المدينة، فهذا هو - فعلاً - موضع الحيف، وثقل الوطأة، وخرج الشرط، ويحتاج تطبيقه إلى إيمان راسخ، وعهد ملتزم، وتسليم مطلق للغيب، وللمخبر عنه.

ولهذا أمر النبي ﷺ صحابته رضي الله عنهم بالوفاء بهذا الشرط لأهل الشرك، وقال: «وفوا لهم، واستعينوا بالله - تعالى - عليهم».

إن هذا هو موضع الابتلاء، وسر التسليم للقيادة المؤمنة المتصلة بالغيب، المعتمدة على الوحي، إن هذا هو المحك لمبلّغ صدق المسلمين في وفائهم بالعهد، ولو كان مر المذاق، ثقل الوطأة، عسير التقبل.

وهذا أمر الله به في غير موضع من كتابه، ونهيه عن نقضه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل].

وأمر رسوله ﷺ به في أحاديث كثيرة، منها: «حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ». [رواه الحاكم في المستدرک].

لقد وفى المسلمون بعهدهم، وطبقوه في الأيام التي تلت عقد الصلح، تطبيقاً عجيباً، بلغت النظر، ويستثير السمع، ويستوقف تاريخ العهود والمواثيق.

وعلى ما كان في هذا التطبيق من شدة ظاهرة، ومشقة مرهقة، فقد أدى إلى أطيب النتائج، ورفع ضرره عن المسلمين، وأنزل الضرر كله بالمشرّكين أنفسهم، الذين كان الشرط في جانبهم، ولمصلحتهم، فطالبوا المسلمين في تلهف ومبادرة بالغائه.

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء].

فذكر الرواة قصة أبي بصير رضي الله عنه وعصبته، حتى إذا ذقت قريش بلاء هذه العصبه، كتبت إلى النبي ﷺ تناشده الرحم أن يؤوي إليه هؤلاء، فلا حاجة لها بهم، وليتركوا لها الطريق آمناً، وبذلك تنازلت قريش عن الشرط الذي أملتة الغطرسه الجاهلية المتعنتة، فارتدت أضراره عليها، ودفعت ثمنه من رجالها وأموالها.

وكذلك يورث الوفاء بالعهد الخير الكثير، والنتائج الطيبة.

وإن الأعجوبة الحقّة، أن يأتي الفرج من حيث ظن المسلمون الضيم والغبن، وأن يكون سبيله حيث يطبق الشرط، ويوفى العهد في شخص أبي بصير رضي الله عنه الذي أسلم إلى المشركين.

لكن أولم يقل له الرسول ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، أَنْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا»، فهذا هو الفرج العظيم، والمخرج العريض المتسع، له ولمن معه.

لهذا كان المؤمنون دائماً عند شروطهم وعهودهم، وإن المؤمن الحق، الصادق الإيوان، لا تُكَبُّتُ عقيدته وراء القضبان، وجدران السجون؛ لأن عقيدته ستطلق من وراء الحصون، وسترده ناراً محرقة، وسهاماً راثشة، وحرباً مدمرة للذين كبّلوه بالأغلال والقيود.

ألا إن الوفاء بالعهد من إشعاعات العقيدة الصلبة، وآثار اليقين الراسخ، الذي لا يهدي إلا إلى البر، ولا يؤتي إلا أطيب الجنى.

أوى النبي ﷺ - الذي كان دائماً أول من وفى بعهده - تلك العصبية المؤمنة التي أفضت مضاجع قريش، وأرغمتها على إسقاط شرطها التعسفي، فزادت بهم قوة المسلمين، وقويت بهم شوكتهم، واشتد بأسهم. غير أن أبا بصير، رأس تلك العصبية ومؤسسها، لم يُقدَّر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النبي ﷺ بالعودة إلى المدينة، وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثغر، وهواه في قلب المجتمع النبوي في المدينة، فرحمه الله تعالى، ورضي عنه، في رجال الصدق، وأبطال الجهاد، ونماذج الإيمان الثابت المؤثل». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٩٣-٢٩٦].

#### ٤٠ - روائع الثبات على الحق، ونموذج لخدلان الباطل:

يقول د/ العودة: «إنهما نموذجان مختلفان: نموذج الثبات على الحق رغم المكاره، ونموذج السقوط للباطل رغم الكبرياء.

يمثل النموذج الأول أولئك الصحابة الذين أودوا وعُذبوا بمكة، فلما حانت فرصة (الحديبية) خرجوا ليتنفسوا الحرية مع المسلمين، ولكن شروط الحديبية حالت بينهم وبين ما يشتهون، ولو كان عندهم أدنى شك في الدين لقال قائلهم: ها قد فعلنا الأسباب وصبرنا حتى عجزنا عن العذاب، أفترد مرة أخرى إلى الفتنة والأذى؟ ولكن الثبات على الحق والعزيمة على الرشد جعلت أمثال (أبي جندل، وأبي بصير) يفكرون تفكيراً آخر لا يخلصهم مما هم فيه من محنة، لا، بل يجبر قريشاً على أن تعيد حساباتها - وقد كان كما في تفصيل قصتهما -.

أما النموذج المقابل فسيدته قريش ممثلة بزعيمها آنذاك (أبي سفيان) الذي هرع إلى المدينة يستعطف رسول الله ﷺ في استقدام أبي بصير والمؤمنين معه؛ حيث أحقوا بتجارة قريش الأذى، وهزؤا اقتصادها، وأخافوا أتباعها.

ألا إن في مسارعة قريش لنقض شرط رد من جاء إليه مسلماً من مكة عبرة لكل طاغية يقف في طريق الإسلام، وهو يحسب أنه قادر على الصدد عن دين الله، ونور الله نافذ وشريعته ماضية إلى يوم القيامة. إنهما نموذجان مختلفان كاختلاف الحق عن الباطل، وتباين المسلم عن الكافر.

ورغم شجاعة العرب في الجاهلية؛ فما شهدت هذا اللون من الشجاعة إلا بعد أن شَعَّ نورُ الإسلام؛ حيث تجاوز رابطة القبيلة وحدود الوطن إلى فضاء أرحب وقيم أعلى». [فقه الحديبية للعودة ٧].

ويقول د/ الحميدي: «كان أبو بصير عتبة بن أسيد ؓ رجل حرب من الدرجة الأولى، ظهرت شجاعته ومهارته الحربية حينما تغلب على رجلين مسلحين وهو أعزل من السلاح، ثم في استيعابه إشارة النبي ﷺ الحربية وتطبيقها أكمل تطبيق، مع ما في ذلك من مغامرات تحتاج إلى قدر كبير من الجسارة والشجاعة.

وهكذا ترفع أبو بصير ؓ عن أن يبقى خاضعاً ذليلاً تحت الكفار حتى كَوَّن من جماعته عصابة قوية تتعامل مع المشركين معاملة الند للند، حتى اضطروا إلى الاستشفاع بالنبي ﷺ كي يؤوي أفراد تلك العصابة ليستفيدوا من الصلح الذي عقده مع المسلمين.

وهنا وقفة تدل على عظمة الإسلام وقوة تمسك معتقيه به، فلو أن هذه المصيبة التي حصلت لأبي بصير ؓ من رده إلى المشركين بعدما وصل دار المسلمين حصلت مع رجل من أهل الدنيا وقامت به حكومة من حكوماتها فماذا سيكون موقف هذا الرجل؟! ﷺ

إنه سيكفر بمبادئ هذه الدولة وسيصفها بالعجز والضعف وستحول حالاً إلى عدو لها بعدما جاء محباً ومناصرها.

لكن أبا بصير ؓ زاد إيماناً بالله تعالى وبرسوله ﷺ وتحول من جندي عادي في جيش المسلمين لو آووه إلى قائد كتيبة أقضت مضاجع المشركين وأرغمتهم على تغيير سياستهم، ثم ظل على الولاء الكامل لرسول الله ﷺ والمسلمين.

إنه الإيمان بهذا الدين العظيم إذا قر في القلب لا تزيده المحن إلا رسوخاً وتمحيصاً. إن الإيمان الصلب لا تؤثر عليه العواصف العاتية، بل تزيده صلابة وقوة، وتفجر في نفس صاحبه الطاقات الكامنة فينطلق بقوة نحو تعميم الحق وتدمير الباطل». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٩/٧-١٠]

#### ٤١ - أن يكون المسلم صاحب إرادة قوية:

يقول د/ الغضبان: «لقد بقي القلق يساور المسلمين على المستضعفين في مكة، ومنظر أبي جندل بن سهيل ؓ فت أكبادهم، غير أن قدوم أبي بصير ؓ قلب الموازين كلها لصالح دولة الإسلام الجديدة، ولنشهد مفهوم العهود الدولية، ومفهوم حرب العصابات من خلال هذه السمة.

إننا نشهد مبادئ حرب العصابات من خلال حادثة أبي بصير ؓ.

فلا بد لمن يفكر بهذه الحرب أن يكون ذا إرادة قوية وعزيمة فولاذية، وتفكير أبي بصير بالهروب من سجن قريش وتنفيذ ذلك والهجرة إلى المدينة يعني أنه يملك التصميم على المقاومة، إنها النفسية الحية التي ترفض الذل وتأبى الهوان، وهذه هي نقطة الانطلاق الأولى في أية مقاومة مسلحة للطغاة في الأرض.

وكان من الممكن أن ينتهي أبو بصير ﷺ لو اكتفى بنزوحه إلى المدينة وعودته إلى مكة مع صاحبيه اللذين جاء لاستلامه، غير أن هذه الإرادة برزت في الإلحاح على قيادته أن لا يعود إلى الذل، وكان جواب النبي ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْعُدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا».

وها هو يتلقى مبادئ ثلاثة من قيادة الدعوة:

المبدأ الأول: الوفاء بالعهود والمواثيق، ولو مع المشركين المجرمين المعتدين.

المبدأ الثاني: إن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد؛ ولهذا الأمر كان هذا الشرط المجحف.

المبدأ الثالث: الثقة بالله وبموعده أنه لا بد من فرج ومخرج بعون الله ﷻ.

ولكنه لم يكن يدري أنه هو صاحب الفرج والمخرج إذ أعدّه الله تعالى لذلك.

ولعل اتياءات إخوته في المدينة كانت أن لا يدع سبيلاً للمقاومة إلا ويسلكها، ومن أجل ذلك بيّت في نفسه أمراً وهو القضاء على هذين الصاحبين اللذين جاء لإعادته إلى ربة الذل والعبودية، وإعادته إلى قريش يفتنونه في دينه، ونفذ ما عزم عليه في حيلة بارعة توصل بها إلى سيف العامري وقتله به، ولحق بمولاه إلى المدينة.

وكانت الخطوة الثالثة من التصميم عندما جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفَتْ ذِمَّتِكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ، وَقَدْ أَمْتَنْتُ بِدِينِي أَنْ أُفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُعَبَثَ بِي.

وكانت هذه القوة الفتية من أبي بصير ﷺ منطلقاً للتوجه إلى الحرب الواسعة من خلال تخطيط محكم ومدد بالرجال بدلا أن تكون مبادرة فردية أو نزوة طارئة.

وحتى تبرؤ الذمة تماماً قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِكُوْثَرِ (المولى الذي نجا): تَرْجِعْ بِهِ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ أَهْمَنِي نَفْسِي، مَا لِي بِهِ قُوَّةٌ وَلَا يَدَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَصِيرٍ: «أَذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ».

لا بد من اختيار المكان واختيار الرجال والتخطيط لحرب طويلة الأمد، لكن المدينة ليست هي الأرض المناسبة لهذه الحرب، فالمدينة ملتزمة بمواثيق دولية مع مكة، ولا بد من اختيار أرض مناسبة لهذه الحرب، والرجال ليسوا من المدينة، الرجال هم من رعايا مكة نفسها، والمكان لا بد أن يقض مضجع مكة، فكان ذا المروة بالساحل.

ومن تمام الوفاء بالعهود والمواثيق الدولية من رسول الله ﷺ أنه رفض تخميس سلب العامري؛ لأن هذا يعني الاعتراف بشرعية انتزاعه للمدينة، وهذا الانتهاء غير شرعي، فلا بد من البحث عن أرض أخرى، ورجال آخرين، ومضى أبو بصير ﷺ بهذا الخط العام الذي رسمه له رسول الله ﷺ.

ومضى ﷺ بكفٍّ تمرَّ أكله خلال ثلاثة أيام، والثائر الحقيقي لابد أن يوطِّن نفسه على الجوع والعري والفاقة، وأن يتجلد على القسوة والشدة والمحنة، ثم لجأ بعد انتهاء كف التمر إلى حيتان البحر، ورجل الثورة بحاجة إلى أن ينمي الإمكانات الذاتية للثورة، لا أن يكون اعتماده على المعونات الخارجية؛ لأن هذه المعونات من المحتمل أن تنضب في كل لحظة أو تنقطع وبالتالي يهلك بذلك.

لقد كان أبو بصير ﷺ بحق قائد ثورة، ومبادئ الثورة تبيح المواجهة المباشرة وغير المباشرة، وما احتال به على العامري لقتله وأخذ سيفه خط إسلامي أصيل حين يُجمع العدو على القضاء على الحركة الإسلامية، وذلك بأن تلجأ إلى التعمية والتغريب بالخصم لقتله وأخذ سلاحه.

والثورة الإسلامية حين تنطلق تستطيع أن تتبع الأساليب المناسبة الناجعة مع أزام الطغاة وزبانياتهم؛ لأنهم يعلمون الجريمة التي يساهمون بها.

والثورة الإسلامية التي شهدنا أبا بصير ﷺ على رأسها تعذر الدول المرتبطة بمواثيق ومعاهدات ولا تخرجها حين تتحرك على أرضها وتتقيد تقيداً تاماً بمبادئ هذه الدولة وقوانينها.

لقد رأينا أبا بصير ﷺ وارتباطه بالإسلام ارتباط عقيدة، وارتباطه برسول الله ارتباط عقيدة وإيمان، ومع ذلك لم يخرج رسول الله ﷺ بالتحرك على أرضه أو طلب المدد منه، وقد تعلم هذا الدرس حين رفض رسول الله ﷺ حتى أن يُجمَّس له سلبه.

وما أحوج الثورة الإسلامية إلى أن تدرك هذه المعاني، وخاصة عندما لا يكون ارتباطها بعقيدة مع الدولة التي تتحرك في أرضها.

كما أن على شباب الحركة الإسلامية أن يدركوا الظروف الصعبة التي تمر بها قيادتهم، وتضطر إلى التخلي عن معونتهم ومددهم لمصلحة الدولة ذاتها، فلقد وقَّع ﷺ ميثاقاً من صلب نصوصه عدم حماية الثوار المسلمين ومددهم وإعادتهم وتسليمهم للدولة العدو لو جاؤوا إليه.

وكان الرصيد الحقيقي للثورة هم رجال مكة المسلمون المستضعفون الذين انضموا إلى أبي بصير ﷺ واحداً تلو الآخر حتى بلغ عددهم سبعين رجلاً من المجاهدين، والدرس الذي تستفيده الثورة الإسلامية من هذا الحدث هو أن الرصيد الحقيقي للثورة هو من أبناء البلد الثائر، هذا هو الرصيد الحقيقي؛ ومن أجل ذلك لم ينضم لجيش الثورة رجل واحد من المسلمين في المدينة؛ لأنه جندي نظامي في دولة رسمية، أما المستضعفون المسلمون في مكة فقد انضموا إلى أبي بصير ﷺ عن بكرة أبيهم، وكانوا هم أصحاب القضية وأبناءؤها الأصليين، والثورة التي تقوم وتعتمد في رصيدها على الرديف من الدول الأخرى لن يكتب لها النجاح.



واختيار المكان المناسب للثورة ذو أهمية قصوى في نجاحها، فعصب قريش هو التجارة وتجارها إلى الشام هي المحور الأول، ولم يرتفع الاختناق عنها إلا بعد صلح الحديبية، فإذا بها تفاجأ من جديد بعودة الإرهاب إلى الطريق، والقافلة إثر القافلة يباد رجالها وتمضي أموالها، فالموقع الإستراتيجي المناسب الذي يمكن الثورة من قطع شريان الحياة عن أعدائها هو الذي يجعل هذا العدو يلين ويرضخ، أما إذا لم يشعر العدو أنه مهدد بحياته ووجوده وأمنه فسوف يسحق هذه الثورة ويبيدها عن آخر رجل فيها.

وكل ثورة لا تجد منطلقاً تنطلق منه إلى حدود العدو ستنتهي في النهاية إلى لاجئين سياسيين يعيشون على موائد الآخرين، وكل ما من شأنه أن يقصم ظهر العدو ويفل مقاومته هو من حق الشائرين، سيان كان أهدافاً مدنية أو عسكرية، وهدف الثورة هو رفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين، ولن يتراجع الطغاة عن طغيانهم ما لم يُصابوا بأرواحهم وحياتهم وأموالهم وأمنهم، عندئذ يسقط في يدهم ويشعرون أنه قد أحيط بهم فيستسلمون.

وليس هدف الثورة الإرهاب والفتك للإرهاب والفتك، إن هدفها رفع الظلم والاضطهاد عن المسحوقين الملاحقين بعقائدهم وفكرهم ومقدساتهم، وحين يتحقق الغدق تنتهي الثورة؛ ومن أجل ذلك عندما استفحل أمر الثوار المسلمين في الساحل، وعرفت مكة أنها على وشك الاختناق، وأن جبهة جديدة فُتحت عليها تقض مضجعها وأمنها راحت إلى رسول الله ﷺ تتفاوض معه وترجوه وتسترحمه أن ينهي هذه الثورة ويضم هؤلاء المسلمين إلى جيشه النظامي، فيسري عليهم ما يسري على جيشه بالتزام الهدنة والصلح (وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل إليه أبا بصير ﷺ) ومن معه، وتحقق هدف الثورة وانضم الثوار إلى دولة الإسلام وهم سبعون من المجاهدين الذين تزيلوا من صفوف العدو وتميزوا).

ولا بد أن نلاحظ حدود الثورة وطاقاتها وإمكاناتها، فلم يكن هدف ثورة أبي بصير ﷺ هو إسقاط نظام مكة والسيطرة عليه بمقدار ما كان هدفه هو ضم قوات المستضعفين إلى قيادتهم في المدينة، وحققت الثورة أهدافها، وقائدها على فراش الموت وكتاب رسول الله ﷺ بيده أن يقدم بأصحابه معه، فمات قرير العين بتحقيق موعود الله تعالى له بالنصر والشهادة.

لكننا نرى تصرفاً آخر قامت به أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أعدى أعداء الله، لا يقل بطولة عن أبي بصير إذا رُوِعت النسبة بين طاقات الرجال والنساء.

فأم كلثوم رضي الله عنها وقد خالطت بشاشة الإسلام قلبها وهي في بؤرة العداوة للمسلمين، خططت وغافلت أهلها حتى استطاعت أن تجد رجلاً من خزاعة فسافرت معه مهاجرة إلى المدينة.

ويبدو فقهها رحمتهما في جانبين:

الجانب الأول: في التخطيط للهجرة حتى تخلص من جحيم أهلها ونار عداوتهم للإسلام.

الجانب الثاني: بحسن اختيارها لمن تتقل معه، فهي تعلم من بنود المعاهدة أن خزاعة هم حلفاء محمد

ﷺ بعد الحديبية، ومن أجل ذلك انتظرت حتى لقيت الرجل الحليف لمحمد ﷺ وانطلقت معه.

ويبدو فقهها رحمتهما كذلك حين نزلت عند أم سلمة رحمتهما، فهي تعلم من بنود المعاهدة أن على رسول

الله ﷺ أن يعيد من يأتيه مسلمًا من المدينة، فاختبأت عندها، وكانت الأقدار العجيبة، أن تنزل عند

المهاجرة الأولى أم سلمة رحمتهما، والتي قامت بالمغامرة نفسها قبل ست سنين أو سبع وفي الطريق نفسه

وحيدة فارة بدنها من مكة إلى زوجها في المدينة، والتقت المهاجرتان في بيت واحد، وفي بيت رسول الله

ﷺ، وأعلم ﷺ بالأمر فرحب بأمر كلثوم، وجاء أمر الله تعالى ألا تعود إلى مكة.

ونلاحظ من هذه المغامرة الجريئة أمورًا تحتاجها الحركة الإسلامية حين تكون في مرحلة الثورة، فالأصل

ألا تسافر المرأة إلا مع محرم، وها نحن نجد أم كلثوم رحمتهما تسافر مسيرة ثمان ليال بدون محرم؛ لأن محارمها

أعداء الله؛ ولأن وجودها في محضنها الطبيعي بعيدًا عن محارمها وتحت ظل دولة الإسلام هو الأصل.

وليس الأخ المسلم فقط هو الذي يؤمن على عرض المرأة المسلمة، بل كذلك الحليف المشرك، ولو رافقها

في سفر طويل؛ لأن هذه الضرورة تُقدر بقدرها، والحركة الإسلامية وقيادتها لها الولاية على كل امرأة

مسلمة تقع في براثن العدو، ولو كان هذا العدو أباه أو أخاه أو زوجها، لقد قرر الإسلام هذا المبدأ في

هذا الظرف، واعتبر رابطة الإسلام فوق رابطة الزوجية وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ

الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهُنَّ مُهَاجِرَاتٌ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّ عِلْمَهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَحَرِّجُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنَّهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ

مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُنْفِقُوا فِي عَصَمِكُمْ ۚ يُعْصِمُ الْكَافِرُ وَلَسْتُ لَكُمْ بِحَكِيمٍ ۚ

وَأَنفَقُوا ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّنْ مَا أَنفَقُوا

وَأَنفَقُوا ۚ وَاللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [الممتحنة].

وكان رسول الله ﷺ على استعداد أن ينقض الاتفاق كله بأمر الله ﷻ لحماية المرأة المسلمة المهاجرة.

وما أروع هذا المعنى أن تفقه المرأة المسلمة.

فقيادة الإسلام على استعداد أن تشن حربًا كاملة وتحسر أضخم الامتيازات لحماية امرأة مسلمة

مهاجرة مجاهدة.

وما كتبه عروة بن الزبير رحمتهما للزهري حول هذه الآية ما يزيد الآية وضوحًا وجللاء، قال: إِنَّ رَسُولَ

الله ﷺ كَانَ صَالِحَ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحَدِيثِ عَلَى أَنْ يَرَدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ جَاءَ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْهِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النِّسَاءُ إِلَى

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، أَيْبَى اللَّهِ أَنْ يُرَدَّدَنَّ إِلَى الْمُسْرِكِينَ إِذَا هُنَّ أُمْتُحِنَ بِمُحَنَّةِ الْإِسْلَامِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُنَّ إِنَّمَا جِئْنَ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَمْرٌ بِرَدِّ صَدَقَاتِنَّ إِلَيْهِمْ إِنْ اخْتَبَسْنَ عَنْهُمْ، إِنْ هُمْ رَدُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ صَدَاقَ مَنْ حُبِسُوا عَنْهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ، ﴿ذَلِكَ حَكْمُ اللَّهِ يُعْطِيكُمْ يَنْتَكُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحنة].

فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ وَرَدَّ الرِّجَالَ، وَسَأَلَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ أَنْ يَسْأَلَ مِنْ صَدَقَاتِ نِسَاءٍ مَنْ حُبِسُوا مِنْهُنَّ، وَأَنْ يُرَدُّوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ الَّذِي يُرَدُّونَ عَلَيْهِمْ، إِنْ هُمْ فَعَلُوا، وَلَوْ لَا الَّذِي حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ هَذَا الْحُكْمِ لَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ كَمَا رَدَّ الرِّجَالَ، وَلَوْ لَا الْهُدْنَةُ وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَأَمْسَكَ النِّسَاءَ، وَلَمْ يُرَدِّ هُنَّ صَدَاقًا، وَكَذَلِكَ كَانَ يَصْنَعُ بِمَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ قَبْلَ الْعَهْدِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٢٦-٣٢٧].

لقد انتهت رابطة الزوجية بين المسلم والكافرة وبين المسلمة والكافر، وأصبحت العلاقة علاقة عقيدة فحسب، لكن هذا لا يلغي الحقوق المالية بين الطرفين ويمكن استيفاؤها بين الدولتين. وهكذا نلاحظ طبيعة الظروف التي تضطر الحركة الإسلامية أحياناً أن تتخلى عن بعض البنود، وطبيعة الظروف التي تضطر المرأة لمسلمة أحياناً أن تتخلى عن بعض الأحكام الجزئية تلافياً لخطر أكبر مثل قضية السفر مع محرم، ومثل قضية الهرب من الزوج الكافر والأولياء الكافرين إلى أرض الإسلام والمسلمين». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣ / ٤١-٤٧].

#### ٤٢ - أبو بصير ؓ وثيقة اتهام!:

يقول م/ أبو راس: «إن النظرة الأولى لشروط الحديبية لتوحي بأنها مجحفة في حقوق المسلمين، مرضية لكبرياء قريش، ولكنها كانت في حقيقتها غير ذلك، فلقد كانت - كما أسلفنا - نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً، أخذ المسلمون خلاله ينشطون في تبليغ دعوتهم إلى الناس كافة، بأمن واطمئنان، ويتصلون بغيرهم، يعرضون عليهم دين الفطرة دين الحق بعيداً عن التوتر والتشنج، فما عرض الإسلام في هذه الفترة على ذي فطرة سليمة، ومنطق مستقيم إلا دخل في دين الله لا يشرك به ﷻ أحداً، كما أن قريشاً خذلت - من حيث لا تدري - أعوانها وأنصارها ومن كانوا يسировن في ركايبها، من يهود ومنافقين وأعراب بادية، عندما رأى هؤلاء قريشاً تتفرع لتجارها ولحياتها الناعسة، وتتخلى عن قيادة الكفر في حربه لمحمد ﷺ ولدينه الجديد.

ولم يكن أبو جندل ؓ الذي رده رسول الله ﷺ إلى قريش بعد أن قال له: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اضْطِرُّ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ فَرَجًا وَخُرْجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ!»، لم يكن أبو جندل ؓ الوحيد في مكة، ولكن عصابة كبيرة من المؤمنين أمثاله كانوا يخفون إسلامهم في مكة، وكانوا ينتظرون الفرج والمخرج.

وحدث أن فر أبو بصير عتبة بن أسيد ؓ من مكة وهاجر إلى المدينة يبغى المقام فيها مع المسلمين، فأرسلت قريش وراءه اثنتين من رجالها يرجعان به إليها تنفيذًا لنصوص المعاهدة، فقال الصادق الأمين محمد ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرْجًا وَخَرْجًا، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ».

فحزن أبو بصير ؓ وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُرَدِّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟ فلم يزد النبي ﷺ عن تكرار رجائه بالفرج القريب، ثم أرسل أبا بصير ؓ مع القرشيين ليعودوا جميعًا إلى مكة، ولكن أبا بصير ؓ أثبت أن المؤمن لا يذل أبدًا، ولا يستسلم أبدًا، فما كان منه إلا أن احتال على أحد أسريه فقتله بسيفه ليفر الآخر مذعورًا، وعاد أبو بصير ؓ إلى المدينة يخبر رسول الله ﷺ بها حدث قائلًا له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أُفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُعَبَثَ بِي. فقال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ أُمِّهِ مِسْعَرٍ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلٌ أُمِّهِ مَحْشٍ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجَالٌ!».

وانطلق بعدها أبو بصير ؓ إلى ساحل البحر في ناحية تدعى (العيص) وشرع يهدد القوافل التجارية المارة بطريق الساحل، وما إن سمع المسلمون المستضعفون المضطهدون في مكة، ما إن سمعوا كلمة رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجَالٌ»، وما إن علموا بموقعه منه ﷺ حتى التحقوا به وشكلوا جيشًا ضيق الخناق على قريش وعلى تجارتها، الأمر الذي دفع قريشًا أن ترسل إلى رسول الله ﷺ طالبة موافقته أن يضم هؤلاء النفر إليه في مدينته، إذ إنها لا حاجة بها إليهم، وكان من بين هؤلاء -رضوان الله عليهم- «أبو جندل» ؓ.

إن قصة «أبي بصير ؓ» لتعد وثيقة اتهام إلى الألف مليون مسلم المنتشرين من المحيط إلى المحيط في هذه المعمورة.

فعلى الرغم من أن «أبا بصير ؓ» كان يعيش في دولة كافرة تعبد الأصنام وتضطهد عبدة الرحمن. وعلى الرغم من رد رسول الله ﷺ لأبي جندل ؓ ورده لأبي بصير ؓ إيفاء لدمته ﷺ وحفاظًا لوعده ولعهده.

وعلى الرغم من انقطاع الصلة ما بين مركز قوة المسلمين في المدينة، وبين أتباعها المستضعفين المجهولين في مكة، على الرغم من كل هذا فإن إسلام أبي بصير وإسلام أبي جندل وإسلام من انضم إليهما من المسلمين فيما بعد أبى على أصحاب الإيمان الصادق الواعي، الرضوخ للواقع الأليم، فثاروا على هذا الواقع ليشكلوا جبهة جديدة تقض من مضجع قريش.

إن قصة أبي بصير ؓ هذه، وما نتج عنها، لتعد وثيقة اتهام لكل مسلم خذل دينه، وتخلّى عن المهمات الملقاة على عاتقه بحجج واهية، للمسلمون اليوم لا يقومون بدورهم ولا يؤدون رسالتهم؛ لأنهم يفتقرون إلى قائد يقودهم!

والمسلمون اليوم لا يؤدون ضريبة نشر نور الله في الأرض؛ لأنهم قلة مستضعفون لا يملكون ما ينافحون به أعداءهم! والمسلمون اليوم يرضخون للظلم والبهتان؛ لأنهم لم يلتقوا بمحمد ؐ وصحبه الكرام.

حجج كثيرة واهية... لقد كان المسلمون في مكة لا قائد لهم، ولا عتاد عندهم، وكانوا قبل هذا وبعده لا اتصال لهم برسول الله ﷺ، فالمعاهدة تحظر هذا وتمنعه، ولكن هؤلاء المؤمنين الذين كانوا مجردين من كل شيء إلا من الإيمان بالله العظيم، هذا الإيمان الذي جعل منهم قادة وراة، هذا الإيمان الذي جعلهم يستغلون الإمكانات القليلة المتوافرة بين أيديهم ليُقَضُّوا من مضاجع الكفر وأهله، هذا الإيمان الذي جعلهم يستعلون على الظلم والظالمين والكفر والكافرين، الذي جعلهم يستشعرون أنهم ما داموا مع الله فإنهم أكبر من كل ظالم ومن كل طاغوت.

تُرى لماذا لا يحذوا المسلمون في الممالك الإسلامية المستعمرة في روسيا والصين وسائر أوروبا الشرقية والفلبين وفي غيرها من الأمصار الإسلامية حذو أبي بصير وصحبه إن كانوا حقاً مسلمين على مستوى إسلامهم وعالمهم وعصرهم الذي يعيشون فيه؟! . [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٦٧-٢٦٩].

#### ٤٣ - أبو بصير ؓ قمة في العزة الإسلامية:

تحت هذا العنوان كتب د/ محمد حسن بريغش كتيباً رائعاً عن أبي بصير ؓ، عرض فيه قصة أبي بصير ؓ بأسلوب أدبي رفيع، وختمه بـ «تعقيب لا بد منه» نبّته هنا بنصه لمزيد الفائدة.

مقدمات أساسية: لا بد من معرفة شيء عن مفهوم الإسلام عند ذلك الرعيل من المجتمع الإسلامي الأول لفهم أحداثه؛ ولتكون قصة أبي بصير - قصة طريقه وجهاده - محاطة بإطارها الطبيعي الذي عاشت فيه، ولإدراك كثير من الحقائق الواقعية لطبيعة هذه الدعوة وطبيعة منهجها، وبنية الفرد ضمن الجماعة فيها.

فمفهوم الإسلام - ببساطة - لم يكن لفظاً يُقال، ولا شعائر تُقام، ولا شعارات تُرفع، ولا ولاءات من أي نوع كانت.

إنه نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق، وتصوّر قاصر، ومفاهيم قليلة، وعبودية للمال وللعبيد، إلى حياة رحبة فسيحة، وعالم يملؤه نور الله، وتصوّر كامل شامل واستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله ﷻ.

والفرد المسلم - من أجل ذلك - كان يخلع حياة الجاهلية - كلها: بتصوراتها، وقيمها، وشعاراتها وتقاليدها، وولائها، وكل أمورها، إلى حياة الإسلام بتصوراته وقيمها وشعاراتها وتقاليده.

ويقوم هذا على أساس المسؤولية الكبيرة التي أنيطت بالإنسان المسلم في هذه الحياة: مسؤولية خلافة الله في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

والمؤمن مسؤول عن هذا الاستخلاف، ومؤتمن على هذه الرسالة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكذلك فهو محاسب عن هذه الرحلة القصيرة - في حساب الله ﷻ - ثم يأتي بعدها الحساب، لتبدأ الحياة الحقيقية، والمسلم يدرك ذلك حقاً، ويسلك في حياته ما يدل على هذا الإدراك فيأخذ ويدع، ويصبر ويجاهد، كي يظفر بمروضة الله ﷻ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَرُ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْ ثَرَمًا مِنْ هَذَا؟! فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا! مَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ سَارِقٍ يَوْمَ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

[مسند أحمد ٤/ ٤٧٣ - ٤٨٤ رقم ٢٧٤٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح].

والمؤمن يعرف أن الله سبحانه خالق هذا الكون، وهو المهيمن عليه، وهو قادر عليم سميع بصير، وله وحده حق الطاعة والعبادة والخضوع، وليس لأحد سواه أن يخضع الناس بمنهج أو قانون أو تقليد؛ لأن الناس - جميعاً - عبيد مخلوقون، ضعفاء قاصرون أمام قدرة الله ﷻ.

وهم لا يملكون معرفة الخير لأنفسهم أو لغيرهم؛ لأنهم محكومون بذواتهم وولائهم وعواطفهم، وقصر نظرهم، وجهلهم وعجزهم.

والمسلم حين يسلم لله ﷻ، ويؤمن به خالقاً ورباً وإلهاً، يخلع الجاهلية لأن مصيره محكوم بهذا التصور الجديد والإيمان الصحيح.

ومن أجل الظفر برضاء الله - وحده - يؤمن صادقاً، ويظل ثابتاً، ويضحى راضياً.

وفي المجتمع الإسلامي الأول برزت جميع الإمكانيات الفردية والجماعية، وانصبت هذه الجهود المؤمنة الواعية لتحقيق منهج الله في الأرض: عملاً وسلوكاً، وشرعية ودولة.

فالفرد لبنة في بناء شامخ متين، وجدول ينصب في نهايته بالنهر الرائق العظيم، الذي يسقي البشرية جميعاً ماء الحياة ذاتها، وينقذها من البوار، مع هذا لم يكن عمل الفرد عشوائياً، وإنما كان منضبطاً بحدود ومعالم ثابتة، تحدد له الغاية والطريق وترسم المستقبل والاتجاه، وتمنعه من النكوص أو التوقف والضياع،

وتوفر له الرشد والاستقامة أثناء المسير، وتجعل خطواته متوائمة ومتفقة مع خطوات مجتمعه الإسلامي ودعوته الربانية.

وقصة أبي بصير نموذج من هذه النماذج وحالة من الحالات التي تعطينا صورة لنوع من الرجال والظروف ولكنها ليست النموذج الوحيد أو النوع المنفرد، ودراستها مع غيرها تبين جوانب وظروفاً تمر بها دعوة الله في ظروف وحالات متشابهة على وجه هذه الأرض.

**ماذا في صلح الحديبية:** عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش، كانت مرحلة خطيرة وظرفاً دقيقاً وظهرت فيها رعاية الله لعباده المؤمنين، ولرسوله ﷺ من خلال حكمة رسول الله ﷺ وقوة بصيرته وقدرته على استكشاف الحقائق وفهم طبيعة الأمور؛ ولهذا قبل شروط قريش التي بدت - في ظاهرها - بحجة بحق المسلمين؛ لأنها تمنعهم من دخول مكة ذلك العام، وتضمن عودة من يأتي من قريش مسلماً إليها، وقبول من يرتد عن دينه في صفوفها.

كان موقف المسلمين موقف الضائق بهذه الشروط، لكنهم أذعنوا للأمر لأنه صدر عن رسول الله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى، وحسبت قريش أن هذا الصلح ضمن لها الحفاظ على قوتها وإيقاف الناس عن دخول الإسلام، مع الطمع بعودة بعضهم إلى صفوفها.

لكنها كانت قاصرة الحس والتفكير، والتصور والإدراك جاهلة ظلومة، فأنى لها أن تفهم حقيقة الفطرة الإلهية؟

**أبو بصير وفئة المستضعفين:** كان أبو بصير رضي الله عنه وكثير غيره من المسلمين ممن أمسكت بهم جاهلية قريش، ومنتهم من الانضمام إلى صفوف المسلمين، ثم ضمنت - بالمعاهدة - عدم قبول الرسول ﷺ لهم، وجاء أبو بصير رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ هارباً من ظلم الكفر وتعذيب الجاهليين.

ولكن رسول الله ﷺ يلتزم بالعهد؛ لأنه ميثاق الله ﷻ، ولن يغدر بعهد عاهد عليه أمام الله ﷻ، ولكنه أيضاً لن يترك هؤلاء المسلمين حيارى لا يعرفون الطريق.

فإذا استجاب إلى نداء القلب والمشاعر وقيل هؤلاء المستضعفين من المؤمنين أحدث ثغرة بالعقيدة، ينفذ من خلالها الفشل، ويستغلها أعداء الدعوة، ثم لا تلبث الدعوة كلها أن توصم بالخداع والكذب والتناقض والنفاق، وما دام قائد الدعوة الذي يسن السنن ويضع المعالم يستبجح مبادئ العقيدة، فكيف يكون الأتباع؟!

وكيف يكون حال هذه العقيدة إذا حدثت الفجوة والجفوة بين المبدأ والتطبيق، بين التصور والسلوك، بين الشعار والالتزام، بين العقيدة والعمل؟

وكيف يكون حال المسلمين، إذا استباح القدوة بينهم التغاضي عن مسألة فيها حق، والمس بالمس بالعقيدة في سبيل رجل أو رجال مهما عظمت أقدارهم وغلت دماؤهم؟ بل أكثر من هذا وذاك، أي معنى لإيمان المسلم بالله سبحانه - وهو الخير اللطيف البصير، الذي بيده الأمر من قبل ومن بعد - إذا لم يأمن صاحب العقيدة على رجل يوكل أمره الله سبحانه، مع اتخاذ كافة الأسباب ولو كان بين يدي أعدائه؟

كان الأمر واضحاً لرسول الله ﷺ لهذا قال لأبي بصير رضي الله عنه: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ».

البيان أولاً، ثم الأمر ثانياً.

ذكره بالعهد والميثاق والوفاء به وأخلاق المسلم النابعة من عقيدته ثم نبهه إلى خطورة الغدر، وأمره بالعودة إلى مكة.

الإيمان والوعي والعمل: أبو بصير رضي الله عنه يتلقى الرشد والهدى والبيان والأمر، يذهب بصره إلى مكة حيث التنكيل والتعذيب والإهانة والفتنة.

وينظر إلى عقيدته حيث الاستعلاء والجهد والثبات والصبر والعزة الإسلامية.

ويفكر في قول رسول الله ﷺ، فيقول له: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُرَدِّنِي إِلَى الْمَشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟». أول الثمار إذن.

لم يكن خوفاً ولا ضعفاً، إنه استعلاء وسمو لا يطاوله أي استعلاء؟

إنه صدق وثبات وإعتزاز دونه كل ثبات أو صدق أو اعتزاز، لم يطلب النجاة، ولم يسأل عن الحياة وإنما خاف الفتنة، الموت في سبيل الله شهادة: تلك الرحاب والمنزلة والسمو.

والعذاب في سبيل الله سمو ورفعة ودرجات، ولكن الفتنة والنكوص إلى حماة الكفر هو الخسران والخزي والنيران والموقف المزدول.

ثم ألا يدل ذلك على قساوة التعذيب الوحشي الذي فعلته الجاهلية بدعاة الإسلام؟

أليس في هذا القول إشارة إلى ظلمة الأضغان والأحقاد التي تحملها الجاهلية للمسلمين.

هل كان أبو بصير ضعيفاً حتى يخاف الفتنة؟

أم أن الجاهلية بلغت درجة من الحماقة والطيش والحقده جعلته يخشى الانكباب في نيران الفتنة؟

الأمل وانطريق: لكن رسول الله ﷺ عاد ليزرع الثقة والأمل في قلبه من جديد، ويستحث صلابة

الإيمان في قلبه، ويفتح أمام بصيرته معالم الطريق الجديد.



«يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَخَرْجًا».

الصبر أولاً: ومع الصبر الأناة والثبات والاطمئنان معاً، حيث ينتفي النزق والتسرع والتهور والضعف.

الصبر أولاً: ومع الصبر زاد من الإيمان راسخ لا ينفد، يحث الخطى، ويكون زاد الطريق، ووقود الاستمرار، وروح الثبات.

الصبر أولاً: ومع الصبر عمق التفكير، وإعداد الخطة وحساب الخطوات.

الصبر أولاً: ومع الصبر ثقة بالله وتطبيق لمقتضيات الإيمان، وارتباط بالله، وثقة بوعده واطمئنان لقدره؛ لهذا احتسب كل خطوة، وكلمة، وفكرة، وخطرة، ونية، فهي عند الله ذخيرة، وفيها يكون النجاة. ألا تعرف - أبا بصير - أنك تعمل لمرضاته ﷻ، وأنه عليم بك، خبير بحالك، رحيم رؤوف قادر، فاحتسب ذلك عنده وامض.

أبا بصير: تبصر طريقك: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَخَرْجًا».

بهذه الثقة بالله، التي بلغت حد التقرير أجابه رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَخَرْجًا».

وأبو بصير هذا - الداعية والمجاهد - عقل ووعي وذكاء، أذن وعين وقلب وحس، إنه قبل ذلك وبعده إيمان يتفاعل بالكون كله، يجمل النص فيتحول قدراً على يديه، بل يتحول بالنص إلى عمل ونتيجة قدر. لا تخش مكروهاً أبا بصير، فإنها أنت بين يدي الله، ولست في قبضة المشركين، هل عرفت؟ امض معهم إذن.

أبو بصير: ساء زرقاء ضاحكة، صافية، مليئة بالنجوم والأقمار، والحبور والاطمئنان.

إنه أرض خضراء مزهرة، تحتضن الحب لتخرجه أشجاراً باسقة خضراء مثمرة.

ها هو القطر قد سقاها أعذب الشراب، فانتشت، واحتضنت البذار، وستعطي إن شاء الله الثمار.

فلتمض أيها المؤمن: شهاباً ثاقباً مشرقاً، تهدي السارين خلفك في ليالي الظلمات.

وأبو بصير - الذي شعر بالغبطة - كانت تفوح منه أنداء وعبير:

لا تظنوا أيها الناس أنني فرحت بالنجاة، وإنما فرحت لأنني اكتشفت ينبوعاً جديداً للإيمان لم أتذوقه

من قبل.

إنني أرى يد الله ترعاني، ورحمته تكلؤني، ونوره يكشف لي خطوات الطريق، وعزة الإسلام تملؤني

حماساً، فأنا عقيدة ورسالة، أمة ومجتمع منذ اليوم.

أنا عالم - وحدي والمستضعفين معي - يثور على الجاهلية وأنا بين برائتها.  
لا تعجبوا! ربي القادر معي.

فها أنذا قادم يا مكة، فانتظروني يا إخوتي عند مطلع الفجر.

استشفاف ونص: هل هناك أكثر من جواب رسول الله ﷺ دقة وإحياء؟ ألم يرسم لأبي بصير ؓ وأمثاله معالم درب تنقذه من اليأس أولاً، ومن الضعف ثانياً، ثم تضع أقدامه على خطوات درب ظافر في مسيرة الدعوة، وتبين له سبيل الاستمرار في الدعوة والجهاد؟

وكان ذلك فمشى أبو بصير ؓ مع المشركين حتى قتل أحدهما وفر الآخر ينجو بنفسه.

وذهب يشكو لرسول الله ﷺ، ويعتصم به من القتل؟!

وكانت السماء والأرض تسخر من الجاهلية: من تعاضمها وغبائها، وعجزها وطيشها.

وأتى أبو بصير ؓ ليقف موقف التلميذ النجيب: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ، وَقَدْ أَمْتَعْتُ بِدِينِي أَنْ أُفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُعَبِّثَ بِي»، حفاظاً على العقيدة والمبدأ، ووفاء بالعهد، ثم رجولة وظفر، وفَتْ ذِمَّتُكَ، وامتنعت بنفسي.

دون إحراج لموقف رسول الله ﷺ أو تفريط بالمبدأ، أو ثلم للأخلاق، فالجاهلية تعلن الحرب بحقد على المسلمين - على المستضعفين الذين لا يملكون ما يدفعون به عن أنفسهم إلا الصبر والثبات - فلماذا لا ينتهز المسلم فرضته حين تأتي، ويعلنها حرباً على الجاهلية؟

ومع هذا، فإن أبا بصير محظور عليه أن يظل في المدينة فلينظر في أرض الله الواسعة.

«وَيْلُ أُمِّهِ مَسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلُ أُمِّهِ مَحْشُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!».

شهادة على الشجاعة والرجولة من رسول الله ﷺ، ودعوة للمستضعفين المعزين من المسلمين للتجمع والإعداد، وسلوك سبيل الجهاد مع أبي بصير «لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ» والرجال هناك بين يدي الجاهلية، فليلتمسوا الطريق حيث موطن الجهاد.

وذهب أبو بصير ؓ حتى نزل بالعيص على طريق أهل مكة إلى الشام، ولحق به من كان بمكة من المستضعفين، حتى بلغوا سبعين رجلاً (وفي رواية: أنهم بلغوا ثلاثمائة رجل)، وهددوا تجارة قريش، واستولوا على قوافلها، وقتلوا رجالها، وأقاموا شريعة الله في تلك الذرى الشاخنة، فكانوا أمناء على الرسالة، وكانت هذه أنضح الثمار.

موقف فريد: ويبدو هنا موقف فريد يواجه مسلماً صادق الإيمان، تحيطه ظروف من التعذيب والقسوة والتسفيه والمطاردة، وأنواع العنف الجاهلي، وحين يظفر بالنجاة من سعي الجاهلية يواجه أمراً من أمور العقيدة.

ولكننا حين نذكر هذا لا بد أنم نتذكر أيضًا إيمان أبي بصير رضي الله عنه واستسلامه لإرادة الله، ووعيه لمعنى هذه الإرادة، التي تتحول لديه إلى طاقة فاعلة واعية، واثقة بربها، متوكلة عليه، تقبل راضية مواجهة التحديات وتصمد أمامها، واليوم بعد خلاصه من محنة الفتنة بدأ يبحث عن موطن، وهذا الموطن ينبغي أن يحقق له عدة أمور:

(١) ينبغي أن يضمن له طريقًا يمكنه من مواجهة العنف الجاهلي، والنجاة منه ما أمكن لاستمراره في الدعوة.

(٢) ينبغي أن يضمن له حفاظ رسول الله ﷺ على نصوص المعاهدة، وعدم الغدر بها؛ التزامًا بأمر الله ﻋَﻠَﻴْﻬِ.

(٣) يضمن له استمراره بالجهاد والدعوة معًا في الظروف الجديدة الصعبة.

ورسول الله ﷺ كان يدرك هذا الموقف الذي أحاط بأبي بصير رضي الله عنه وإخوانه من المستضعفين، وكان توجيهه غاية في الدقة والعظمة؛ لأنه رسم معالم الطريق لهذه الفئة من خلال كلماته لأبي بصير رضي الله عنه، وكانت الفئة المؤمنة واعية فاستشفت ما يبتغيه رسول الله ﷺ لهم، وكان توجيهه يتضمن ما يلي:

- بث العزم والثبات في نفوس هذه الفئة المستضعفة.

- إعادة توثيق الصلة بين إيمانهم وبين رب العالمين.

- إشاعة الثقة والطمأنينة بينهم، وتبشيرهم بالخرج والفرج القريب من رب العالمين.

«يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَخُرْجًا».

وعلى هدى هذه المعالم، وهذا التوجيه الدقيق الحكيم مضى أبو بصير رضي الله عنه مواصلة الجهاد، مصممًا على الثبات والدعوة ومواجهة الجاهلية.

ولم يكن أبو بصير رضي الله عنه - وهو يسمع رسول الله ﷺ - محدد الأفق، أو مغلق التفكير، أو قاصر النظر، أو ضيق التفكير، ولم يربط مصيره ومصير دعوته بالعاطفة الشخصية أو النتيجة الدانية، أو المصلحة الخاصة، وإنما كانت العقيدة حياة ترتبط بخالق الكون، وتلتزم بسنن هذا الدين ومعالم الطريق.

هذه الأمور امتزجت في كيان واحد: كيان المسلم المؤمن الواعي، الإيمان الصادق، والثقة المطلقة بالله، والجهاد المتواصل، والبصيرة المتفتحة، والالتزام الكامل لهذا كله، وخط بذلك طريق هذه الفئة التي أتت مسرعة لتكون قوة جديدة ترفد قوة الدعوة وجماعة المسلمين.

وأمر آخر ينبغي ألا نغفل الإشارة إليه: حين قرر أبو بصير رضي الله عنه مواصلة جهاده، لم يدع أي أمر عارض يحول دون ذلك، محتسبًا ذلك عند الله، مؤمنًا أن عمله محاسب عليه من الله وحده.

لهذا لم يتوقف عن الدعوة والجهاد، ولم يقعد عن ذلك مبرراً عمله بأن الفئة المسلمة لم تقبله بين صفوفها، وأن قائدها أمره أن يعود إلى مكة أو يذهب إلى مكان آخر، فالدعوة ليست مرهونة بشخص أو ظرف أو بلد أو حالة من الحالات.

- فلو قبلته الجماعة المسلمة واحداً بين صفوفها لواصل الدعوة والجهاد بصدق وإيمان.

- وعندما لم تقبله الجماعة المسلمة تنفيذاً لأمر الله ﷻ واصل الجهاد بصدق وإيمان.

- وفي كل حالة ومكان سيواصل الدعوة والجهاد في سبيل الله للظفر بمرضاته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰ تَحَرُّوْهُنَّ يُجِزُّكُمْ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝ (١٠) تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجُتْهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (١١)﴾ [الصف].

والثواب والظفر الحقيقي عند الله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ

ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ (١٢) وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۖ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٣)﴾ [الصف].

وعناء الطريق، وتبعات الجهاد، يدفعها المسلم راضياً، ويقبلها صابراً محتسباً قوياً ثابتاً، يزداد إيمانه

اشتعالاً، ويقينه رسوخاً، وصبره ثباتاً، وأمله إشراقاً؛ لأن قانون الجهاد بين واضح: ﴿الَّذِي أَحْسَبَ

النَّاسَ أَن يُبْرِكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ (٢)﴾ [العنكبوت].

وواصل أبو بصير ؓ طريقه، تخطى العقبة الأولى، وحافظ على التوازن الضروري كي لا تكون

الغاية - مهما جلّت - مدعاة لسلوك الطريق الخاطئ أو الوسيلة الشاذة كما يفعل بعض الناس، وسارت

أنباء بطولته إلى مكة، وانتشرت بين المسلمين المستضعفين، فزادتهم ثقة وأملاً، حتى بدؤوا بسلوك الطريق

الموصل إليه.

بينما أشاع الذعر والقلق في نفوس الجاهلين.

الفرج والطريق: سمع المسلمون المستضعفون في مكة بأمر أبي بصير ؓ، وها هو يحدد لهم طريق

الظفر لمواصلة الجهاد والدعوة، وها هي معالم الطريق واضحة في حديث رسولهم الكريم ﷺ لأبي بصير

ؓ: «وَيْلٌ أُمَّهُ مَسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية: «وَيْلٌ أُمَّهُ مَحْشٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!». .

وبدأ المستضعفون من المؤمنين ينفرون وافدين للانضمام إلى الفئة الإسلامية المنتصرة.

أبو جندل ؓ وصحبه يبلغون سبعين من الرجال، يهددون تجارة قريش، يغدون أداة لتهديم ما تبقى

لجاهلية قريش من حياة وكيان، وزعزعة صورة الطمأنينة التي حلمت بها بعد الصلح.

لهذا جاءت قريش إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يؤوي هذه الفئة المؤمنة التي لا تلتزم

بالمعاهدة.

عجزت قريش عن محاربتها، وجاءت ذليلة خاضعة لتقبل بها فئة مؤمنة مع الفئة المؤمنة الأولى، ولتعترف لها بالوجود وتسلم لها بالظفر الذي أحرزته.

فأي شرط مححف كان ذلك الشرط الذي ثار من أجله المسلمون يوم صلح الحديبية؟!  
 ألم يكن هو الشرط الذي حطم أمل الطمأنينة بين صفوف الجاهلين وقضى على آخر أحلامهم؟  
 أليس هو الشرط الذي أتاح لهؤلاء المستضعفين من المؤمنين التماس السبيل الظافر، ومواصلة الجهاد تحقيقاً لمعنى إيمانهم وثقتهم بالله؟  
 ألم يكن رأي رسول الله ﷺ موافقاً لحقائق الإيمان والحياة والفطرة الإنسانية معاً، وموائماً للصورة الحقيقية للمسلم الصادق في الجاهلية؟

نعم:

- إذ لا يمكن أن يستكين مؤمن لطغيان الجاهلية وعنفوان الشرك مهما بلغ مداه.
  - ولا يمكن لمؤمن أن يرضى بالقعود والسلبية استجابة لظروف أو رضوخاً لعذاب وصعاب.
  - ولا يمكن لمؤمن أن يبرر لنفسه النكوص، فضلاً عن القعود في أية صورة من الصور.
  - ولا يمكن لمؤمن أن يقبل الذلة في دينه مهما نزل به من صنوف العذاب.
- لهذا وافق رسول الله ﷺ على الشرط تحقيقاً لهذه المعاني..
- لأن المؤمن مرتبط بالله ﷻ تهديه العقيدة، ويدفعه الإيمان، ولا تحده ظروف أو مناسبة أو أشخاص عن مواصلة الدعوة.

وانفتح الطريق أمام أبي بصير وصحبه، وكان معه رجال، فانتصروا وعادوا إلى الصف الإسلامي ظافرين بعد أن خطوا في الحياة معالم طريق يتناسب مع هذه الظروف، وكانوا أصدق الناس إيماناً وأحرصهم على مرضاة الله ﷻ.

ولعل وفاته هناك قبل أن يعود إلى المدينة ليكون معلماً من معالم هذا الطراز من الرجال، الذين لا تمنعهم الظروف والصعاب عن الجهاد ومواصلة الدعوة، بل يظل الهدف الأسمى: الظفر بمرضاة الله ﷻ، وفي أي طريق يرضاه الله، ويوائم الظروف والإمكانات، ما عدا الاستسلام للضعف والانهزام الداخلي، وتبرير ذلك بحجج هي أدعى أن تكون دعائم لحياة المنافقين.

رحم الله أبا بصير الذي أضاء شعلة بين من أضاء من أسلافنا العظام في رسم السير، لإنشاء مجتمع إسلامي مشهود، وضرب بسيرته مثلاً لأروع آيات العزة الإسلامية.

[أبو بصير ﷺ: قمة في العزة الإسلامية لبريغش ٤٧-٦٨].

## ٤٤ - ما يستفاد من قصة أبي بصير ؓ:

يقول د/ أبو فارس:

(١) الوفاء بالعهود والمواثيق: يؤخذ هذا من إرجاع أبي بصير ؓ مع من جاء يطلبه من أهل مكة تطبيقاً لبنود الاتفاقية برد المسلمين الفارين إلى الرسول ﷺ من تعذيب المشركين واضطهادهم.

(٢) جواز التعريض في الكلام: يؤخذ هذا مما حدث لأبي بصير ؓ حينما أمره رسول الله ﷺ أن يعود إلى مكة فقال: أتردني إلى المشركين يفتنونني عن ديني ويعذبونني، فقال له عمر: أنت رجل وهو رجل. قال ابن حجر: وهذا أوضح في التعريض بقتله. [فتح الباري ٦/ ٢٧٧، وشرح المواهب ٢/ ٢٠٣].

(٣) ويؤخذ من قصة أبي بصير ؓ أنه يرد على المشركين من جاء مسلماً فاراً بدينه إلا بناء على طلب منهم، فقد رد النبي ﷺ أبا بصير ؓ حين جاء رسولان من قريش يطلبانه، ولم يرده قبل ذلك، وحين قتل أبو بصير ؓ الرجل العامري لم يرسل أبا بصير ؓ إلى قريش لعدم وجود انطلب.

(٤) الإصرار على المبدأ والجهاد عليه حتى النصر أو الشهادة: إن أبا بصير ؓ حين قتل العامري، ونجا من كيد المشركين، لم يرض بالنجاة، ولم يركن إلى الراحة، بل انطلق يجاهد من أجل الحق الذي حمّله، يأرز إليه المستضعفون في الأرض من مكة وجهينة وغفار ليلتفوا حوله، ويقارعوا جميعاً الطواغيت الصغار والكبار.

(٥) الحرب خدعة: هذا ما فعله أبو بصير ؓ حيث تحايل على العامري حين أعطاه سيفه فضربه حتى مات، ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ، بل امتدحه على ما صنع.

(٦) جواز قتل العدو المحارب ودمه هدر: يؤخذ هذا من قتل أبي بصير ؓ للرجل العامري؛ لأنه عدو محارب، وإقرار النبي ﷺ له على ذلك دل على مشروعيته، ولما طالب أهله بالمال لم يدفع الرسول ﷺ دية العامري لهم.

(٧) ويستنبط من هذا أيضاً أنه قد تكون فئة من المسلمين بينها وبين قوم من المشركين عهد، فلا تلزم بالعقد الفئة الأخرى، والأخرى في حلٍّ من جميع البنود ويبقى الحكم على أصله هدر دماء الكافرين، ومن هنا نجد الرسول ﷺ لم يعوّض أهل العامري الذي قتله أبو بصير ؓ بدية أو غيرها؛ لأن أبا بصير ؓ ليس ملزماً بالاتفاقية وينودها، إنما الملزمون الذين عقدوها دون غيرهم.

قال ابن حجر رحمه الله: واستنبط منه بعض المتأخرين أن بعض سلوك المسلمين مثلاً لو هادن بعض ملوك الشرك، فغزاهم ملك آخر من المسلمين فقتلهم وغنم أموالهم جاز له ذلك؛ لأن عهد الذين هادتهم لم يتناول من لم يهادنهم. [فتح الباري ٦/ ٢٨٠].

(٨) إن إصرار أبي بصير رضي الله عنه على عدم العودة إلى المجتمع الجاهلي حتى لا يعود إلى القهر والاستعباد بعد أن تنسم جو الحرية، فشعر بكرامته كإنسان يريك مدى ما ينبغي أن يحرص الدعاة إلى الله على وجود جوٍّ حرٍّ يتحركون فيه.

ويرينا أيضًا كيف ينبغي أن تكون إرادة المؤمن قوية لا تلين وعزيمته لا تهون، ولا تستسلم لأحد من الكافرين.

(٩) الحرص على سمعة الرسول ﷺ: لقد حرص أبو بصير رضي الله عنه على بقاء سمعة الرسول ﷺ طيبة، فلا يُشاع عنهم أنهم غادرون ناقضون لعهودهم وعقودهم، ولقد تحمل في سبيل ذلك العنت والمشقة، وعاد مع المشركين الذين جاء في طلبه، وحين قتل أحدهما وفر الآخر جاء رسول الله ﷺ وأخبره بأن ذمته قد وفّت وسار معها ثم صار ما صار بعد ذلك، وهو في أيديهما قد تسلماه من الرسول ﷺ.

(١٠) طاعة أبي بصير رضي الله عنه: لقد كان أبو بصير رضي الله عنه يكره أن يعود مع سفيري قريش، ولكن النبي ﷺ حين أمره بذلك سمع وأطاع وإن كان في شيء يكرهه، وهل الطاعة الحقيقية إلا في المَكْرَه، أما المشط فإن النفس تحبه وتهفو إليه وتريد تحقيقه، بخلاف المَكْرَه، فإنها تعزف عنه ولا تريده ومع هذا تلتزم به. وهكذا نفهم بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المشط والمَكْرَه.

(١١) أمانة القيادة تظهر في أبي بصير رضي الله عنه: إن للقيادة أمارات، ومن هذه الأمارات: الصبر، والشجاعة، والذكاء، والإدارة، وسعة الحيلة في التخلص من المآزق الحرجة.

ولقد كان أبو بصير رضي الله عنه متحليًا بهذه الصفات جميعها، لقد كان شجاعًا ذكيًا واسع الحيلة، قادرًا على الخروج من المآزق الحرجة.

ولكن نقول: إن هذه الأمارات والمؤهلات لا وزن لها إذا لم يلتف حول أبي بصير رضي الله عنه رجال من المؤمنين يؤازرونه ويقفون بجانبه ويساعدونه في التخطيط والتنفيذ، وهذا ما نفهمه من قول الرسول ﷺ في حقه بعد ما رأى ما رأى من شجاعته: «وَيْلُ أُمَّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

ونفهم من هذا القول الذي قاله رسول الله ﷺ أنه حض لكل مسلم في مكة وخارجها ممن لم يلتزم بالعهد الذي تم في الحديبية - على سبيل التعريض والتورية - أن يلتف حول أبي بصير رضي الله عنه.

ولما وصلت عبارة الرسول ﷺ السابقة إلى أسمع المسلمين المستضعفين أدركوا هذا المعنى، فهاجر إلى أبي بصير رضي الله عنه فورًا من استطاع أن يفر من المشركين، وانضموا جميعًا تحت قيادته، ومن هؤلاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنه.

(١٢) نصره المؤمن: هذا يؤخذ من صنيع أبي جندل رضي الله عنه، إذ لما سمع بنزول أبي بصير رضي الله عنه بالعيص على الساحل يقارع المشركين، لم تطاوعه نفسه أن يبقى في المجتمع الجاهلي يكتبون بناره، وفي نفس الوقت يقعد عن نصره أخيه أبي بصير رضي الله عنه وهو يقدر، بل صمم أن يشاطره شرف الجهاد والتصدي للمشركين.

(١٣) ثقة أبي بصير رضي الله عنه بالنصر: لقد اختار أبو بصير رضي الله عنه طريق الجهاد، والتصدي لأعداء الله وأعداء الحرية وأعداء الإنسانية؛ لأنهم يريدون حرمانها من نور الهدى نور الإيمان.

نعم لقد اختار هذا الطريق الشاق ولكنه طريق الجنة، لقد اختار هذا الطريق وهو واثق من نصر الله تعالى وفرجه، كيف لا؟ وهو يسمع كلام الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى: «سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَخُرْجًا».

هذه العبارة نقشت في قلبه رضي الله عنه نقشاً، وأشعت نور الأمل في جنبات نفسه؛ وانطلق يقاتل مؤكداً قرب الفرج والنصر بقوله ﷺ: (اللَّهُ رَبِّي الْعَلِيُّ الْأَكْبَرُ... مَنْ يَنْصُرِ اللَّهَ فَسَوْفَ يُنْصَرُ).

[الروض الأنف ٤/ ٣٨]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٥٢-١٥٨].

#### ٤٥ - ما يستفاد من هجرة أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها:

يقول د/ أبو فارس:

(١) الأسلوب الموفق في التمويه وتغطية الحركة: وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب، تأمل معي كيف أن أم كلثوم تغطي خطتها في الهجرة، بأن تغيب ثلاثة أيام في بادية لهم عن أهلها، حتى تعودهم ألا يسألوا عنها إن هي غابت في هجرتها فلا يسألون عنها إلا وقد وصلت سالمة إلى رسول الله ﷺ.

(٢) السرية في الحركة: ونأخذ درساً من خروج أم كلثوم هو درس السرية، فلقد تكتمت على الخزاعي حين سألها قبل أن تعرف هويته، ولما اطمأنت إليه أفصحت عن غايتها ومرادها.

(٣) فضل خزاعة وتعاونها مع الرسول ﷺ ومساعدتها للمسلمين ذكوراً وإناثاً، فهذا هو ذا الرجل الخزاعي يساعد أم كلثوم في هجرتها حتى يوصلها إلى المدينة، ويقدم لها بعيراً يركبها عليه.

(٤) السفر بلا محرم للمرأة جائز لحاجة أو ضرورة: فقد سافرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وحدها دون محرم من مكة إلى المدينة فارة بدينها، ولم يرد أن النبي ﷺ أنكر عليها، بل رحب بها واستقبلها.

(٥) الذوق الرفيع في تصرف الخزاعي: لقد كان الخزاعي يقود الجمل الذي تركبه المرأة أم كلثوم، وهذا أسلم لها وله، أما لها فتطمئن، فقد يبدو عفواً شيء من جسمها فلا ينكشف أمام الخزاعي، وتطمئن أيضاً إذا سار وراءها فتطرد الوسواس تجاه هذا الرجل من الاعتداء أو الأذى وهذا الخلق حدث مع موسى عليه السلام مع بنت الرجل الصالح إذ كان يمشي أمامها وهي تمشي خلفه. [تفسير ابن كثير ٥/ ٢٧٣].



(٦) حياء الخزاعي وأدبه حيث كان كما وصفت: لا والله ما يكلمني كلمة، ويؤخذ من هذا تجنب الحديث مع النساء بلا موجب أو سبب يدعو لذلك، أما كثرة الحديث مع النساء دون سبب فلا تليق برجولة الرجال ولا بأثوثة النساء القائمة على الحياء والخجل.

(٧) الانتقاب مشروع: لقد كانت أم كلثوم منتقبة يوم دخلت على أم سلمة.

(٨) جواز التزام المرأة المرأة: أخذ هذا من التزام أم كلثوم لأم سلمة رضي الله عنها.

(٩) حرمة الجمع بين المسلمة وزوجها الكافر: وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «فَلَا تَجْمَعُونَّ إِلَى الْكَافِرِ لَأَهْنُ

حَلْ لَّهُمْ» [المتحنة: ١٠].

(١٠) حرمة الجمع بين المسلم والزوجة الكافرة: وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَافِرِ»

[المتحنة: ١٠]، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طلق زوجته الكافرتين.

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٧٢-١٧٤].

#### ٤٦- هجرة المستضعفين<sup>(١)</sup>:

يقول الشيخ أبو زهرة: «وبعد أن فتح لمن يسلم بدار الشرك الباب للذهاب إلى المسلمين وألغى ذلك الشرط كان يحث النبي ﷺ الذين يسلمون ألا يبقوا مستضعفين في أرض الشرك، بل عليهم أن يهاجروا وإن ذلك مبدأ الإسلام أن يتجمع المسلمون، ولا يستمروا متفرقين في الأرض.

ومنع رسول الله ﷺ من إقامة المسلم بين المشركين ما دامت عنده قدرة على الخروج من بين ظهرائهم، وقال ﷺ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَأَى نَارَهُمَا [نَارَهُمَا]». [أبو داود في الجهاد (٢٦٤٥)، والترمذي في السير (١٦٠٤)]، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وقال ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ، فَإِنَّهُ مِثْلُهُ».

[أبو داود في الجهاد (٢٧٨٧)]، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وقال ﷺ: «لَا تَنْقَطِعِ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعِ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

[أبو داود في الجهاد (٢٤٧٩)]، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومسنده أحمد ١١١/٢٨ رقم ١٦٩٠٦، وقال الشيخ

الأرناؤوط: حسن لغیره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي هند البجلي فقد تفرد بالرواية عنه عبد الرحمن بن أبي عوف الجريسي.

وقال ﷺ: «سَتَكُونُ هَجْرَةٌ بَعْدَ هَجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلَزَمُهُمْ مُهَاجَرَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا، تَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ، تَقْدَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْفَرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ».

[أبو داود في الجهاد (٢٤٨٢)]، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، وبنحوه مسند أحمد ١١/٤٥٥، ٥٤١ رقم ٦٨٧١،

٦٩٥٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: ضعيف.

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في الدروس العقائدية، وفي سرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى رابغ في شوال ١ هـ.

وبذلك طلب النبي ﷺ من كل مستضعف أن يهاجر إلى حيث يتجمع المسلمون ما دام قادرًا على ذلك؛ لأنه بهجرته إلى المسلمين يتحقق أمران:

أحدهما: أنه يخرج من حال استضعاف، وذلك بالخروج من ولاية الكفر أو الشرك إلى حيث العزة والمنعة وولاية المؤمنين فهم أهل ولاية الله وولاية الحق، وهي القوة والأمن والقرار، ولقد أوجب القرآن الكريم ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكِيَّةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ كُنَّا نَعْلَمُ مَا نَصْنَعُ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ۝١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝١٨ قَالُوا لَيْتَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ۝١٩ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٢٠﴾ [النساء].

وأن نصوص النبي ﷺ عامة، ونص القرآن الكريم ملزم لا مناص من تنفيذه. الأمر الثاني: أن في الهجرة تجميع المسلمين، وفي الجماعة قوة ليست في الفرد، وأن ذلك أمكن للوحدة، وأحفظ لهية أهل الإسلام.

وأنه قد يتعرض على جعل الهجرة بالانتقال من أرض الاستضعاف إلى حيث القوة الإسلامية مبدأ دائماً ومطلباً مستمراً.

قد يعترض على ذلك بقول النبي ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ».

[البخاري في الجهاد (٢٧٨٣) ومواضع أخرى، ومسلم في الإمامة (١٨٦٤)، والترمذي في السير (١٥٩٠)].

ونقول في الجواب: إن الحديث مخصوص بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، أو الهجرة من مكة المكرمة إلى غيرها، وأن الهجرة مطلوبة قبل الفتح؛ لأن المسلمين فيها كانوا يفتنون عن دينهم، وكانوا في ذلة، ولا يستطيعون القيام بشعائر دينهم، فلما فتح الله تعالى على المسلمين مكة المكرمة، وصارت فيها الأحكام الإسلامية وصارت ولاية من ولايات الإسلام، لم يعد للهجرة سبب يوجبها، بل إنها أصبحت غير مطلوبة، وربما تضر ولا تنفع لأنها لو استمرت لخلا البيت الحرام من سكان حوله يقومون بسدائنه، وهي أحب أرض الله إلى النبي ﷺ وإلى ربه، وهي التي جعلها أرضاً مباركة.

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٦٥-٨٦٦].

## المبحث الثالث الدروس الفقهية

### ١ - تقرير مبدأ المصالحة:

يقول د/ الفيتوري: «لا ريب أن المصالحة، والصلح، والهدنة، والمودعة، تعتبر من نتاج الحوار والتفاوض والتشاور وإحلاله محل المواجهة والاشتباك، وفق دبلوماسية ذكية تستطيع أن تحفز هذه القوى على أن تعمل في إطار من التعاون أو التنسيق المشترك لحفظ السلام الثنائي، خاصة إذا كانت قوة دولة الإسلام ضعيفة مقارنة بقوة الأعداء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) حُطَّةً (الخطئة) الأمر والحال والخطب) يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْنَهُمْ إِيَّاهَا»،

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: مالوا، ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْتَحِ لَهَا﴾ أي: فعمل إليها، وأقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر...

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضاً؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم». [تفسير ابن كثير ٨٣/٤]

ولا ريب أن في ذلك إشارات سياسية باهرة عظيمة النفع، منها: تقرير مشروعية مبدأ المصالحة مع أي عدو كائناً من كان بشرط تحقيق مصلحة المسلمين، وعدم الاستهانة بدين رب العالمين، وإن كان في هذه المصالحة احتمال مفسدة يسيرة مقابل درء مفسدة عظيمة، أو قد يكون لتحصيل خير الخيرين ودفع شر الشرين، كما هو مقرر في فقه الموازنات والمقاصد.

وليس من شروط مشروعية المصالحة أن تظهر فوائدها جليلة لكل أفراد الأمة أو الجماعة المسلمة، وكذلك ليس من شروط مشروعية المصالحة أن يبدأ العدو بطلب المصالحة والصلح، بل على القيادة المسلمة متى رأت مصلحة الأمة أو الجماعة بادرت بطلب الصلح والمصالحة من خلال إستراتيجية أمينة محكمة، وأطر سياسية اختراقية هادفة تراعي الحضور وعدم الغياب السياسي من خلال الخط الإقليمي والدولي.

يقر ذلك الإمام ابن القيم رحمته في معرض حديثه عن فوائد صلح الحديبية حيث يقول: «وَمِنْهَا: جَوَازُ ابْتِدَاءِ الْإِمَامِ بِطَلَبِ صُلْحِ الْعَدُوِّ، إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ الطَّلَبِ مِنْهُمْ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٤].

ولا ريب أن هذا المبدأ كان قد تقرر على الجماعة الإسلامية عندما وصلت درجة عالية من النضج والإدراك السياسي، وتجانست مستوياتها الإيمانية والحركية، واستقرت في أذهانها أهدافها الاستراتيجية والتكتيكية، حيث تجاوزت مرحلة الدعوة والتأسيس إلى طور الدولة والتمكين.

لذلك كلما كان أعضاء المشروع الحضاري المعاصر أقرب شبهاً بمستوى الجماعة الإسلامية الأولى على صعيد النضج السياسي، والتجانس الإيماني والحركي، وتحمل المسؤولية القيادية للبشرية كافة، كانت أكثر تفاعلاً وانفعلاً مع هذه المبادئ، مبادئ المصالحة، والتفاوض، والهدنة ونحوها، على الأصعدة والمستويات كافة، السياسية والحياتية.

يقول أ/ سيد قطب رحمته في ذلك: «لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَبَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [محمد]... ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة، ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد إذ يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ تَشَاءَ اللَّهُ لَأُنْصِرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [٤] سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ [٥] وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهاهُمْ [٦]» [محمد].

إنما صار الحديث عن السكنية التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم، والمقصود بها تهدئة قوتهم، وتخفيض حميتهم، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ﷺ في المهادة والملاينة.

[في ظلال القرآن ٦/ ٣٣١٥]. ولا يخفى أن مبدأ المصالحة كان من أبرز معالم فقه سياسة العلاقات الخارجية لدولة النبي ﷺ، إذ أنه منذ وصوله إلى دار السلام، المدينة المنورة، صالح قبيلة بني ضمرة، وكان سيدهم عمرو بن مخشي الضمري، على أن لا يغزوهم ولا يغزوه، ولا أن يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عليه عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً. [زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٨٢].

ثم أبرم صلحاً مع بني مدلج حلفاء بني ضمرة، وكذلك وادع عيينة بن حصن، وتعاهد مع كعب بن أسد سيد بني قريظة، الذي نقض عهده في غزوة الخندق، ثم أرسل سعد بن معاذ رضي الله عنه إليهم يدعوهم إلى تجديد العهد حين أخبر أنهم نقضوا العهد.

ومن قبل ذلك وادع رسول الله ﷺ بالمدينة يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن وعهد وصلح.

يقول ابن القيم رحمه الله في معرض تحليله السياسي لصلح الحديبية: «ومن فوائد الفتح الأعظم: جَوَازُ صَلَاحِ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى وَضْعِ الْقِتَالِ عَشْرَ سِنِينَ، وَهَلْ يَجُوزُ فَوْقَ ذَلِكَ؟ الصَّوَابُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، كَمَا إِذَا كَانَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَعَدُوُّهُمْ أَقْوَى مِنْهُمْ، وَفِي الْعَقْدِ لِمَا زَادَ عَنِ الْعَشْرِ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ... وَجَوَازُ ابْتِدَاءِ الْإِمَامِ بِطَلَبِ صَلَاحِ الْعَدُوِّ، إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ الطَّلَبِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ مَصْلَحَةَ الْمُشْرِكِينَ يَبْغِضُ مَا فِيهِ ضَيْمٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَائِزَةٌ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، وَدَفْعُ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، فَفِيهِ دَفْعٌ أَعْلَى الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاخْتِيَالِ أَذْنَاهُمَا... وَكَانَ - صلح الحديبية - فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ضَيْمًا وَهَضْمًا لِلْمُسْلِمِينَ». [زاد المعاد ٣/ ١٧٠، ١٢٨، ٣٠٦].

وهذا الذي قرره ابن القيم في هذا النص أظنه هو مجمل الأسباب والعلل التي تمهد لجواز الصلح مع دولة الكفر، سواء على مستوى جماعة أو دولة ولا فرق، وهذا باستقراء كامل لمواطن مرويات صلح الحديبية، حيث كانت جل أحكام الصلح تدور مع أسبابها وعللها وجودًا وعدمًا، ومن تلك الأسباب والعلل التي إن وجدت جاز للجماعة أو الدولة الإسلامية إبرام عقد صلح مع دول الكفر بنوعيه الأصلي والطارئ:

أولاً: أن يكون هناك ضعف وقلة بالجماعة أو الدولة الإسلامية عن مقاتلة دولة الكفر، وهو ما يُعرف بفقء الضرورات، والنظر في المآلات، واعتبار السنن.

ثانياً: أو يكون في ذلك الصلح مصلحة راجحة للمسلمين، وإن كان في طياتها مفسدة يسيرة مرجوحة، وهذه المصلحة قد تكون مادية أو معنوية، سواء على مستوى تأمين الدعوة ونشرها، أو تنشيط اقتصاد العباد والبلاد تصديراً واستيراداً.

ثالثاً: وقد يكون الصلح من باب المحافظة على حسن جوار، وصلة أرحام، وتعظيم شعائر الإسلام، والعيش في سلام ووثام، ونحو ذلك من الأغراض المشروعة التي تدور في فلك فقه الموازنات، والمصالح المرسلة، وقواعد التمكين، وما لا يُدرك كله لا يُترك جله، والميسور لا يسقط بالمعسور.

رابعاً: وقد يكون الصلح لتأمين نشر الدعوة، أو حماية المستضعفين من المسلمين الذين يكتمون إيمانهم داخل إطار سيادة دولة الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّكَ تَعْلَمُونَهُمْ بِآيَاتِهِمْ فَقَصْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ بَعِيرٌ عَلِيمٌ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ نُوَزِّلُهَا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٢﴾ [الفتح]. [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفتوري ٤٣-٤٨].

## ٢ - مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم:

الهدنة: هي مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره، سواء فيهم من يقر على دينه ومن لم يقر دون أن يكون تحت حكم الإسلام.

[ينظر: البدائع ١٠٨/٧، والمغني ٤٥٩/٨، ومغني المحتاج ٢٦٠/٤، وآثار الحرب ٦٤٠].

يقول د/ البوطي: «استدل العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، سواء كان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض، أما بدون عوض فلأن هدنة الحديبية كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى؛ لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه.

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون، فهذا غير جائز عند جمهور العلماء لما فيه من الصغار لهم؛ ولأنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله تعالى، قالوا: إلا أن دعت إليه ضرورة لا يحصى عنها، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك والأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال».

[فقه السيرة للبوطي ٢٥٥].

ويقول د/ العيساوي: «تنتهي الحرب بين المتحاربين عادة في بعض الأحيان بمعامدة صلح تعقد بين المتحاربين، يتقرر فيها انتهاء حالة الحرب والعودة إلى العلاقات السلمية بين الطرفين، ويسبق معامدة الصلح عادة اتفاق الهدنة وإبرام ما يسمى بمقدمات الصلح. [قانون الحرب والحياد - حافظ غانم ص ٦٥٤].

وقد أجمع علماءنا على جواز مصالحة أو مهادنة الكفار على شروط معينة [شرح السير الكبير ١٦٨٩/٥، والمغني ٤٥٩/٨، وشرائع الإسلام ٣٣٢/١، والبحر الزخار ٤٤٦/٥]، كأن يكون في حالة ضعف، والكفار أقوياء؛ لأن المودعة ترك القتال، فلا يجوز إلا في حال يقع وسيلة إلى القتال.

[الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد ٤٧٢/٢].

واستدل العلماء على جوازه بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

أولاً: أدلتهم من الكتاب:

قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة].

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال].

ويقول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة].

فهذه الآيات تحكي براءة الله ورسوله من كل المشركين ووجوب قتالهم إلا من كان لنا معه عهد، فإننا مطالبون بالاستقامة له ما استقام لنا.

ثانيًا: أدلتهم من السنة: أما أدلتهم من السنة فمنها القولي ومنها العملي:  
فمن السنة القولية، قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَلَا يُشَدُّ عُقْدَةٌ وَلَا يَحْلُلُهَا [فَلَا يَحْلُلَنَّ عَهْدًا وَلَا يُشَدَّنَّهُ] حَتَّى يَنْقُضِيَ [يَمْضِيَ] أَمْدُهَا [أَمْدُهُ]، أَوْ يَنْبَذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ».

[أبو داود في الجهاد (٢٧٥٩)، والترمذي في السير (١٥٨٠)، وقال الشيخ الألباني عنهما: صحيح].  
وقوله ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدَّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ وَمُسْتَسْرِبِهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ، لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ».  
[أبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٣، ٢٦٨٥)، وصححه الشيخ الألباني، ومسنده أحمد عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه].

ومن السنة العملية، استدلوها بوقائع السيرة المشرفة ومنها:

- ١- صالح رسول الله ﷺ قريشًا عام الحديبية، والمسمى بصلح الحديبية.
  - ٢- مصالحة الرسول ﷺ لليهود حين قدم المدينة المنورة، فقد كتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.
  - ٣- وادع ﷺ مخشي بن عمرو الضمري في غزوة الأبواء.
  - ٤- وادع النبي ﷺ بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة في غزوة العشيرة.
  - ٥- وفي غزوة دومة الجندل وادع ﷺ عيينة بن حصن.
  - ٦- وفي غزوة خيبر صالح رسول الله ﷺ يهود خيبر.
- ومن هذه الأدلة يتضح لنا مشروعية عقد الهدنة بين المسلمين وبين الحربين.  
ولذا أجمع المسلمون على جواز الصلح؛ لأن دفع الشر والفتنة حاصل به».

[ينظر: فتح القدير ٤/ ٢٩٣، بداية المجتهد ١/ ٣٧٥، ومغني المحتاج ٤/ ٢٦٠، وزاد المعاد ٢/ ٧٦].

[فقه الغزوات للعيسوي ٣٧١-٣٧٢، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبنو قريظة لبربر ٢٨٨-٢٨٩، وصلح الحديبية وأثره في تسليم المظلومين للصليحي ٤٤-٥١، ١٣٠-١٥١، وإستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجًا للبلي ١١٠-١١٣].

وللتفصيل في موضوع المعاهدات والتحالفات السياسية، ينظر:

- (١) الأحكام الفقهية في المعاهدات النبوية: نموذج في التطبيق (ماجستير) - د/ هاجر محمود عبد المجيد النوباني - إشراف د/ أحمد العوضي - عمادة الدراسات العليا - جامعة مؤتة - الأردن ٢٠٠٦م - ١٧١ ص.
- (٢) أحكام المعاهدات في الشريعة الإسلامية - د/ محمد طلعت الغنيمي - منشأة المعارف - الإسكندرية ١٩٨٩م.

- (٣) أحكام المعاهدات في الشريعة الإسلامية: تحليل المعاهدات المبرمة في عصر الرسول ﷺ - د/ خالد رشيد الجميلي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - ديوان الوقف السني - العراق ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م - ٢٠٨ ص.
- (٤) أحكام المعاهدات في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة - د/ إسماعيل كاظم العيساوي - دار عمار - الأردن ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م - ٢٥٥ ص.
- (٥) الإسلام والمعاهدات الدولية - د/ محمد الصادق عفيفي - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٥م.
- (٦) الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام وقت السلم - د/ أحمد عبد الونيس شتا - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٩٤م.
- (٧) أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني - د/ عثمان جمعة ضميرية - دار المعالي - عمان - الأردن ١٤١٩هـ.
- (٨) التحالف السياسي في الإسلام - د/ منير محمد الغصبان - ط ٣ دار السلام - القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م - ١٧٦ ص.
- (٩) التحفظ على المعاهدات الدولية في ضوء قواعد القانون الدولي العام (ماجستير) - د/ سمير محمد سالم الطراونة - إشراف د/ نخلد إرخيص الطراونة - كلية الحقوق - جامعة مؤتة - الأردن ٢٠١٣م - ١٨٣ ص.
- (١٠) دور المعاهدات في حكم العلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية (دكتوراه) - د/ عيسى صالح أحمد العمري - إشراف د/ محمود علي أحمد، ود/ جعفر عبد السلام - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م - ٣٥٦ ص.
- (١١) السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في عهد النبوة (ماجستير) - د/ عبد الله بن ناصر بن سلطان السحبياني - إشراف د/ محمد الحسيني حنفي - المعهد العالي للقضاء - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م - ٣٠١ ص.
- (١٢) العلاقات الخارجية لدولة الإسلام بالحجاز في عهد النبي ﷺ - د/ أحمد عبد الوهاب فتيح - دار القاهرة - القاهرة ٢٠٠٦م - ٢٣٤ ص.
- (١٣) علاقة القبائل العربية المقيمة حول المدينة بالدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ (١-١١هـ / ٦٢٢-٦٣٢م) (دكتوراه) - د/ محمد بن صالح بن محمد العسكر - ط مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - السعودية ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م - ٥٣٨ ص.
- (١٤) الفقه السياسي للوثائق النبوية: المعاهدات، الأحلاف، الدبلوماسية الإسلامية (ماجستير) - د/ خالد سليمان الفهداوي - دار عمار - الأردن ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م - ٣٠٢ ص.
- (١٥) مبدأ إلزامية المعاهدات الدولية لأطرافها والاستثناءات الواردة عليه: دراسة فقهية مقارنة (ماجستير) - د/ أحمد محمد أحمد عبد الله - إشراف د/ أسامة الأمير إبراهيم - كلية الشريعة والقانون - جامعة أم درمان الإسلامية - أم درمان - السودان ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م - ١٩٥ ص.
- (١٦) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (دكتوراه) - د/ محمد حميد الله - ط ٧ دار النفائس - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م - ٧٥٧ ص.



- (١٧) مرويّات مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه: جمعاً ودراسة (دكتوراه) - د/ محمد بن عبد الله غبان الصبحي - إشراف د/ أكرم ضياء العمري - الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - ط عمادة البحث العلمي - الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م - ٢ مج ١٠٨٧ ص.
- (١٨) المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية - د/ أحمد أبو الوفا محمد - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٩٠ م.
- (١٩) المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية - د/ أياد هلال - دار النهضة الإسلامية - بيروت ١٤١٢ هـ.
- (٢٠) المعاهدات الدولية في الفقه الإسلامي (ماجستير) - د/ مصطفى إسماعيل إبراهيم التل - إشراف د/ محمد نوح علي سلمان القضاة - كلية الدراسات الفقهية والقانونية - جامعة آل البيت - المفرق - الأردن ٢٠٠٥ م - ١٧٣ ص.
- (٢١) المعاهدات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني: دراسة فقهية مقارنة - د/ عثمان جمعة ضُميرية - سلسلة دعوة الحق ١٧٧ - رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة ١٤١٧ هـ - ٢١٥ ص.
- (٢٢) المعاهدات النبوية (ماجستير) - د/ عبد السميع عبد الباري الصائغ - إشراف د/ مصطفى أمين التازي - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الملك عبد العزيز (أم القرى) - مكة المكرمة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م - ٢٢٢ ص.
- (٢٣) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام - د/ محمود إبراهيم الديك - دار الفرقان - عمان - الأردن ١٤١٨ هـ.
- (٢٤) المعاهدات والمحالقات في عهد الرسول ﷺ - أ/ حسن خطاب الوكيل - المطبعة المصرية بالقاهرة ١٩٣٠ م - ٩٩ ص.
- (٢٥) المعاهدات والمواثيق الدولية في الشريعة الإسلامية مقارنة بالقانون الدولي العام: دراسة مقارنة (دكتوراه) - د/ التاج إبراهيم دفع الله - إشراف د/ محمد سر الختم محمد أحمد - كلية الشريعة والقانون - جامعة أم درمان الإسلامية - الخرطوم - السودان ١٩٩٧ م - ٣١١ ص.
- (٢٦) المعاهدات: دراسة فقهية مقارنة (ماجستير) - د/ حسن محمود أحمد عبد الغفار - إشراف د/ محمد سر الختم محمد أحمد - كلية الشريعة والعلوم الاجتماعية - جامعة أم درمان الإسلامية - أم درمان - السودان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م - ٧٩ ص.
- (٢٧) المفاوضات في المعاهدات الدولية: دراسة مقارنة (ماجستير) - د/ جعفر إبراهيم محمد موسى - إشراف د/ أسامة الأمير إبراهيم الفكي - كلية الشريعة والقانون - جامعة أم درمان الإسلامية - أم درمان - السودان ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م - ٢٢٣ ص.
- (٢٨) وسائل التسوية السلمية لفض النزاعات المسلحة الدولية: دراسة مقارنة (دكتوراه) - د/ أحمد إسحق شنب محمد - إشراف د/ أبو بكر محمد أحمد أبو بكر - كلية الشريعة والقانون - جامعة أم درمان الإسلامية - الخرطوم ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م - ٢٩٩ ص.

### ٣ - مبادئ المفاوضات في الإسلام:

تحدثت د/ البيلي عن أهم هذه المبادئ في النقاط التالية:

«١- المفاوضات الإسلامية غير ملزمة ما لم يتم الاتفاق النهائي: إذا كانت المفاوضات كوسيلة سلمية للتفاهم والحوار وتسوية الخلافات، تجد لها أساساً شرعياً في الأصول الإسلامية، فإنها تتسم بالطبيعة الرضائية، بمعنى أن الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول في مفاوضات ثنائية أو جماعية، لا يكون إلا بمقتضى اتفاق الأطراف المعنية على ذلك وانصراف إرادتهم إليه، ويترتب على ذلك أن تظل الدولة الإسلامية شأنها في ذلك شأن غيرها من الأطراف المتفاوضة، غير ملتزمة بما يصدر من مفاوضاتها من أقوال أو أفعال، تحدد الموقف التفاوضي للدولة الإسلامية أثناء سير العملية التفاوضية، طالما لم تتوصل الأطراف المتفاوضة إلى اتفاق تلتزم به في علاقاتها المتبادلة.

مؤدى ذلك أنه توجد عدة طرق لانتهاء التفاوض، وتحديد مدى الالتزام بما تقطعه من مراحل، وما تتمخض عنه من نتائج، فقد تنتهي المفاوضات بتحقيق الهدف من ورائها، وذلك حال توصل الدولة الإسلامية مع الجهة المتفاوضة إلى اتفاق بشأن موضوع التفاوض، وتحرير ما تم الاتفاق عليه في معاهدة دولية تحدد الحقوق والالتزامات المتبادلة بين الطرفين، وقد تنشأ ظروف أو تقع أحداث غير عادية تعتري علاقات الدولة الإسلامية بالجهة المتفاوضة، كما هو الشأن عند نشوب الحرب أو توتر العلاقات بين الطرفين لدرجة يصعب معها الاستمرار في التفاوض، وفي هذه الحالة قد تتوقف المفاوضات، دون أن يترتب على ذلك أية آثار أو نتائج ملزمة في حق الطرفين.

الأصل في تأثير الحرب على العملية التفاوضية، أنها تؤدي بصفة عامة إلى إنهاء كافة علاقات السلم القائمة بين الدولتين المتحاربتين، إلا ما كان من هذه العلاقات لازماً بطبيعته للاتفاق على تنظيم سير أعمال القتال، وإبرام الاتفاقات المتعلقة بالهدنة وتبادل الجرحى والأسرى بين الجانبين، وبعبارة أخرى، فقد يترتب على نشوب الحرب بين الدولة الإسلامية وأخرى غير إسلامية، أن يدخل الطرفان في مفاوضات من أجل الاتفاق على كيفية تبادل الأسرى والجرحى، أو عقد هدنة مؤقتة لإيقاف القتال بين الجانبين، ومن المنطقي والطبيعي كذلك أن تنتهي المفاوضات، إذا تعذر على الجانبين التوصل إلى تفاهم أو اتفاق بشأن القضية أو المسألة التي من أجلها بدأ التفاوض، وقد يكون انتهاء التفاوض على هذه الصورة مدعاة إما لاتفاق الدولتين على إرجاء التفاوض لأجل معلوم أو غير معلوم، وإما لارتضاءها اللجوء إلى وسيلة سلمية أخرى، كالتحكيم مثلاً من أجل حل الخلافات القائمة.

قد تنتهي المفاوضات أيضاً إذا قررت الدولة الإسلامية الانسحاب منها، لقناعتها بعدم جدوى الاستمرار فيها، أو كنتيجة لما قد تسفر عنه المشاورات في الجانب الإسلامي، من تقرير عدم ملائمة

التنازلات المقدمة من الدولة الإسلامية، لحقيقة ما يكون عليه المسلمون من قوة وما أمدتهم به الإسلام من عزة وكرامة.

في كل هذه الحالات التي تنتهي فيها المفاوضات، دون أن يتوصل الطرفان المتفاوضان إلى اتفاق محدد بشأن موضوع التفاوض، فإن الأصل في علاقات الطرفين المتفاوضين بالنسبة لهذا الموضوع يظل كما كان عليه الحال قبل بدء العملية التفاوضية، من حيث براءة ذمة الطرفين من أية التزامات أو حقوق فيما يختص بالمسألة محل التفاوض، آية ذلك أنه حينما اجتمعت قريش ويهود بني قريظة والأحزاب لمحاربة المسلمين في غزوة الأحزاب، رأى رسول الله ﷺ عزل قبيلة غطفان عن الدخول في حرب مع أعداء المسلمين ضدهم، فدخل في مفاوضات مع غطفان؛ بغرض تحييدهم مقابل حصولهم على ثلث ثمار المدينة، وكاد الاتفاق أن يتم بين الطرفين على هذا الأساس حتى دعا رسول الله ﷺ أصحابه وأطلعهم على ما دار من مفاوضات مع غطفان، وحدد التنازلات المتبادلة، ولما علم الصحابة أن ذلك ليس بوحى من الله ﷻ بل اجتهد النبي ﷺ لما رآه من أن «العرب قد رمت المسلمين عن قوس واحدة، وكالبوهم من كل جانب، فأراد أن يكسر منهم شوكتهم».

كان رأيهم خلاف رأي النبي ﷺ، فقد رأوا ألا يعطوا غطفان شيئاً؛ ذلك لأنهم لم يكونوا يحظون بشيء من ثمار المدينة، وقت أن كانوا هم والأنصار على الشرك وعبادة الأوثان، فلا يستقيم إعطاؤهم شيئاً من ذلك وقت أن أكرم الله فيه الأنصار بالإسلام وأعزهم به وبرسوله، فأرسل ﷺ إلى زعماء غطفان بانسحابه من المفاوضات واعتبارها كأن لم تكن.

٢- ارتباط الوسائل بالغايات: ثمة حقيقة أساسية وهامة، ألا وهي ضرورة ارتباط الوسيلة التي يستخدمها المفاوض المسلم في تفاوضه بالغاية من هذا التفاوض، فالغاية لا تبرر الوسيلة، وهو مبدأ عام وقاعدة ثابتة في التشريع الإسلامي، ذلك أن الوسائل التي يلجأ إليها المفاوض المسلم تأخذ حكم المقاصد والغايات التي ينشد تحقيقها من وراء المفاوضات، وكما يجب أن تكون المقاصد متفقة وأحكام الشريعة الإسلامية فإنه يتعين وبالقدر ذاته، أن تكون البدائل والخيارات المطروحة والوسائل المستخدمة في حدود ما هو جائز شرعاً ومتصورًا عملاً، ومعنى ذلك أنه إذا كانت اعتبارات المصلحة والسياسة الشرعية، تقتضي بأن يكون للمفاوض المسلم الحرية بالنسبة للوسائل التي يستخدمها في مفاوضاته، بما يتفق وطبيعة العملية في ذاتها، فإن هذه الحرية مقيدة بوجوب أن تكون تلك الوسائل في نطاق ما هو جائز ومباح شرعاً.

يؤكد ذلك أن العروض المغربية التي عرضتها قريش على الرسول ﷺ مقابل تخليه عن الدعوة كانت - بحسب المألوف آنذاك - كفيفة بأن يقبل هذا العرض، حتى إذا ما دانت له الزعامة والجاه والملك، اتخذ ذلك وسيلة لنشر الدعوة وفرضها على الناس، وهو ما لم يقبله الرسول ﷺ.

كذلك فإنه لما أعرض الرسول ﷺ عن الصحابي الضريير عبد الله بن أم مكتوم ؓ، وقت أن كان يفاوض زعماء قريش ويدلهم على حقائق الإسلام، وقد رأى في إقبالهم عليه فرصة سانحة لا ينبغي تفويتها، لما حدث ذلك نزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْنَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ [عبس]، مما دلل على أنه وإن كانت الغاية مشروعة ونييلة، إلا أن الوسيلة في بلوغها قد انطوت على الإعراض عن مسلم، وعدم الالتفات إليه، مما أضفى عليها عدم المشروعية وعدم القبول، وهكذا يتأكد لدينا وجوب تطابق الوسائل مع الغايات في الحل والمشروعية.

٣- مراعاة حسن النية: عند الحديث عن سمات المفاوضات الإسلامية، يجب التنويه عن حقيقة أساسية ومهمة ألا وهي وجوب مراعاة حسن النية من قبل المفاوض، والتعويل على الظاهر سواء فيما يتصل بتقرير الانسحاب منها أو إنهاؤها ما لم يثبت من الطرف الآخر في التفاوض ما يقتضي العدول عن ذلك، ويأتي قوله تعالى في سورة النساء مؤكداً على ذلك، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَبَّلُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن ءَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَسْتُمْ مَوْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَكَانٌ كَثِيرٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ ءَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿٩٤﴾ [النساء]، وقوله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ أَن أَقْنَبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشَقَّ بِطُورِهِمْ» [مسلم في الزكاة (١٠٦٤)].

ومن روائع قصص الحضارة الإسلامية قصة فتح سمرقند، وذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ؓ.

حيث إنه من القواعد الإسلامية في الحرب إعطاء مهلة للعدو ثلاثة أيام، وأن يعرض عليهم إما الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال، وفي أثناء المهلة وجد الجيش المسلم أن العدو اتخذ هذه المهلة للاستعداد للحرب، وليس في نيته الدخول في الإسلام، أو القبول بدفع الجزية، فما كان من جيش المسلمين إلا بدء الحرب قبل انتهاء مدة الثلاثة أيام، وانتصر الجيش المسلم وفتح سمرقند، فما لبث حاكم سمرقند أن أرسل للخليفة يشكي، من أن الجيش المسلم دخل المدينة قبل انتهاء مدة الثلاثة أيام، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه أمراً أن يخرج بجيوشه خارج المدينة، وأن يعطيهم مهلة جديدة، ففوجئ المسلمون بعد عودتهم بإسلام أهل سمرقند على بكرة أبيهم لشدة إعجابهم بصنع هذه الأمة الفريدة. الشاهد في هذا المثال أن تصرف قائد الجيش المسلم ابتداءً كان بناءً على ظنه بسوء استغلال العدو للمهلة، وإن كان ظنه مبنيًا على معلومات حقيقية مؤكدة، إلا أن القاعدة الإسلامية واجبة التنفيذ، وتطبيقها أولى.

يبقى أن نقول: إن هذه الأصول تشير إلى أن سلوك الناس محمول على الظاهر، وأنه يتعين قبول ما يعلنه الخصم، كما تفيد بوجوب تغليب حسن النية، والتعويل على الظاهر في المفاوضات التي تتم بين المسلمين وغيرهم، ما لم يثبت ما يقتضي خلاف ذلك». [إستراتيجيات التفاوض الدولي للبيلي ١٢٢-١٢٦].

#### ٤ - حكم الشروط في عقد الهدنة:

يقول د/ البوطي: «الشروط في عقد الهدنة تنقسم الى صحيحة وباطلة، فالصحيح: كل شرط لا يخالف نصاً في كتاب الله ﷻ، أو سنة رسول الله ﷺ، مثل أن يشترط عليهم مالا أو معونة للمسلمين عند الحاجة، أو أن يشترط لهم أن يرد من جاءه من الرجال مسلماً أو بأمان، ولقد أطلق الأئمة صحة هذا الشرط الأخير، ما عدا الشافعي رحمه الله، فقد شرط لذلك أن تكون له عشيرة تحميه بين الكافرين، وحمل على ذلك موافقة النبي ﷺ على هذا الشرط لقريش. [ينظر للتوسع في موضوع الهدنة: مغني المحتاج ٤/ ٢٦٠، والمغني لابن قدامة ٩/ ٢٩٠، والهداية ٢/ ١٠٣، وبداية المجتهد ١/ ٣٧٤].

والباطل: كل شرط فيه معارضة لحكم شرعي ثابت، ومنه أن يشترط رد النساء المسلمات أو مهورهن إليهم، أو إعطائهم شيئاً من سلاح المسلمين أو أموالهم، وأساس الاستدلال على هذا عدم رد النبي ﷺ النساء اللاتي جئن هاربات بدينهن، ونهي القرآن صراحة عن ذلك، كما مرّ بيانه في حينه. ولعلك تقول: أفلم يخالف رسول الله ﷺ بذلك عهداً قطعه على نفسه، وذلك إذ وافق على رد كل ما أتاه مسلماً من مكة؟

والجواب: أن ذلك ليس نصاً في خصوص النساء، بل يحتمل أنه لا ينحط إلا على الرجال وحدهم، ومهما يكن فقد علمت فيما سبق أن تصرفات النبي ﷺ لا تكتسب قوة الحكم الشرعي إلا إذا أقرها الكتاب بالسكوت عليها أو التأكيد لها، ولقد أقر الكتاب كل بنود المصالحة، إلا ما يتعلق برد النساء الى بلد الكفر، فلم يقره - وذلك على فرض دخوله في بنود الاتفاقية وشروطها. [فقه السيرة للبوطي ٢٥٥-٢٥٦].

#### ٥ - مقدار المدة التي تجوز مهادنة الكفار عليها:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث المسور ومروان من طريق ابن إسحاق «أن النبي ﷺ صالح قريشاً على وضع الحرب عشر سنين». وقد أخذ جماعة بظاهر هذا الحديث.

قال الشافعي: «لا تتجاوز المهادنة عشر سنين، وعند الضرورة يجدد العقد بعد انتهاء العشر».

[الأم ٤/ ١٨٩].

وحكى ابن قدامة عن القاضي أن ظاهر كلام أحمد يقتضيه. [المغني ٨/ ٤٦٠].

وحكاه ابن حجر عن الجمهور ورجحه. [فتح الباري ٥/ ٣٤٣].

وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٥]، عام وقد خص منه الحديث هذه

المدة، ففياً زاد يبقى على مقتضى العموم. [فتح الباري ٥/ ٣٤٣].

وذهب قوم إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة، وهو قول أبي حنيفة.  
[فتح القدير ٤٥٦/٥].

وحكى ابن قدامة عن أبي الخطاب أنه ظاهر كلام أحمد. [المغني ٨/٤٦٠].  
وقالوا: «إن العام مخصوص بالعشر بمعنى موجود فيما زاد عليها، وهو أن المصلحة قد تكون في  
الصلح أكثر منها في الحرب». [المغني ٨/٤٦٠].

وقيل: لا تتجاوز الهدنة أربع سنين. [شرح السنة ١١/١٦١].  
ولعل هؤلاء تمسكوا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن مدة الصلح كانت أربع سنين، وهو ضعيف.  
وقيل: لا تتجاوز ثلاث سنين. [شرح السنة ١١/١٦١].  
وهؤلاء نظروا إلى المدة التي استمر فيها الصلح مع قریش.  
والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر  
جدد العقد، كما قال الشافعي، والله أعلم.

وقال بعض المتأخرين: يجوز عقد الصلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة.  
[آثار الحرب في الفقه الإسلامي - د/ وهبه الزحيلي ٦٨٠].  
واستدل بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا فَعَلَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُّوهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ  
تَفَقَّصْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٩١].

وهذا القول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب [آثار الحرب في الفقه  
الإسلامي ٦٨٠]، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب. [المصدر السابق: ٦٧٥ حاشية (٢)].  
وهذا القول مردود لما يلي:

١- أن صاحب هذا القول قد خرق الاتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: (اتفق الفقهاء على أن عقد  
الصلح مع العدو لا بد من أن يكون مقدورًا بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير  
بمدة). [آثار الحرب في الفقه الإسلامي ٦٧٥].

٢ - الآية التي استدل بها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ  
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

فقد نقل ذلك ابن جرير عن عكرمة والحسن وقتادة وابن زيد. [تفسير ابن جرير ٢٤/٢٦-٢٧].

وحكاه ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما. [تفسير ابن كثير ١/٥٣١].

وحكاه القرطبي عن مجاهد، ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية. [تفسير القرطبي ٥/٣٠٨].

٣ - الأصل الذي انبنى عليه هذا القول: مردود بأية براءة السابقة، وبواقع سيرة الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين من أعدائهم.

٤ - أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة، وقد تصدى لها سيد قطب رحمه الله ففندها [في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٣، وما بعدها]، وبين أن سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلة الدعوة<sup>(١)</sup>. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٢٥-٥٢٨].

ويقول د/ البوطي: «ذهب الشافعي وأحمد وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا تجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت؛ لأنها هي المدة التي صالح النبي ﷺ قريش عليها عام الحديبية». [فقه السيرة للبوطي ٢٥٥].

ويقول د/ العيساوي: «اتفق العلماء على تحديد مدة معينة للصلح لكنهم اختلفوا في تحديد المدة التي يجوز بها على آراء:

أولاً: ذهب الخنفة والمالكية إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنوات، وقالوا إنه لا حد لمدها بطول أو قصر بل حسب اجتهاد الإمام وقدر الحاجة، لكن الأفضل ألا يطيل الإمام لما قد يحدث من قوة المسلمين [الهداية ٢/ ١٣٨]، وحثهم أن المهادنة عقد جاز لمدة عشر سنين، فتجوز الزيادة عليها كعقد الإجارة.

[آثار الحرب ٦٣٤].

ثانياً: ذهب الشافعية والحنابلة والزيدية والإمامية إلى أنه لا يجوز أن تزيد على عشر سنوات [الأم ٨/ ٢٧٩، ومغني المحتاج ٨/ ٤٦٠، والروضة البهية ١/ ٢٢١، والبحر الزخار ٥/ ٤٤٧]، وحثهم أن قوله تعالى: ﴿وَأَقْلَوْهُمُ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] عام خص منه مدة العشرة؛ لمصالحة النبي ﷺ قريشاً يوم الحديبية عشرًا، ففما زاد يبقى على مقتضى العموم، فعلى هذا إن زادت المدة على عشر سنوات بطلت الزيادة.

ومع هذا فإن الشافعية قد ذهبوا إلى جواز عدم تحديد عقد الهدنة بل إطلاقه إذا اشترط الإمام نقضها متى شاء. [المجموع ١٨/ ٢٤٢].

وجوز الزيدية عدم تحديدها بوقت، بل جعلها على التأييد إذا دفع العدو معها الجزية.

[البحر الزخار ٥/ ٤٤٧].

والذي يبدو - والله أعلم - رجحان مذهب القائلين بجواز عقد الهدنة أكثر من عشر سنوات ما دامت المصلحة متحققة للمسلمين، وانتفاء الضرر عنهم حاصل بها.

(١) يعني بمرحلة الدعوة الأطوار التي مرت بها دعوة رسول الله ﷺ فقد أمر بالكف، ثم أذن لهم في قتال من قاتلهم، ثم أمروا بقتال المشركين كافة، وقد لخصها ابن القيم في الزاد ٣/ ١٥٨ فليراجع.

قال ابن القيم: «جَوَازُ صَلَاحِ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى وَضْعِ الْقِتَالِ عَشْرَ سِنِينَ، وَهَلْ يَجُوزُ فَوْقَ ذَلِكَ؟ الصَّوَابُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، كَمَا إِذَا كَانَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَعَدُوُّهُمْ أَقْوَى مِنْهُمْ، وَفِي الْعَقْدِ لِمَا زَادَ عَنِ الْعَشْرِ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ». [زاد المعاد ٣/ ٤٢١]. [فقه الغزوات للعيسوي ٣٧٣].

#### ٦ - تنفيذ المعاهدة ونطاق سريانها:

يقول د/ عشقي: «لكل معاهدة دولية آثار قانونية، ومن هذه الآثار: الالتزامات القانونية التي تقع على عاتق أطرافها؛ ولهذا يتعين أن تنصرف هذه الالتزامات إلى الدول نفسها، وليس إلى أشخاص المفاوضين. وإذا لم يتحقق لم يتحقق هذا الأثر، فإننا نجد أنفسنا أمام اتفاق دولي محدود الأهمية، ولا يرقى إلى مقام المعاهدات بالمعنى القانوني، بل يظل كذلك حتى يستكمل الاتفاق أركانه. إن بقاء هذا النوع من المعاهدات يصبح مرهوناً ببقاء الأشخاص في السلطة، وتظل هذه الاتفاقات في حلتها السياسية، وليس في ميزانها القانوني.

وعلى هذا فلن يتولد عن هذا النوع من الاتفاقات مسؤولية دولية؛ لأن موضوع الاتفاق يجب أن يكون متعلقاً بالعلاقات الدولية الواسعة المعترف بها.

لقد ذكر بنسون لي جريسون في كتابه العلاقات السعودية الأمريكية (Saudi American Relation) إن الملك عبد العزيز رحمته، قد أخذ عهداً على الرئيس الأمريكي روزفلت، وهما على متن السفينة الأمريكية كوينسي، في البحيرات المرة بمصر، بتاريخ ١٤ فبراير عام ١٩٤٥ م بأن الرئيس الأمريكي (لن يفعل شيئاً، لمساعدة اليهود ضد ضرب العرب، ولن يقوم بأي تحرك معادٍ للشعب العربي، بالإضافة إلى تطمينات بالنسبة لسوريا ولبنان، خشية إخلال فرنسا بعهداها في الانسحاب منهما).

لقد قُيدَ ذلك في الخارجية الأمريكية، وبعد عودة الرئيس روزفلت بعث بخطاب إلى الملك عبد العزيز رحمته بتاريخ ٥ أبريل ١٩٤٥ م يعلن فيه، أنه لا يزال ملتزماً بالوعد الذي قطعه للملك، وإن الولايات المتحدة لن تقوم بأي عمل معاد للعرب.

بعد أسبوع من توقيع الخطاب، توفي روزفلت، وكان ذلك في أبريل عام ١٩٤٥ م، وخلفه نائبه هاري ترومان في البيت الأبيض، لكن (جوزيف جرو) وزير الخارجية الأمريكية، لفت انتباه ترومان إلى التأكيدات التي قدمها سلفه للملك عبد العزيز، وفي ١٦ أغسطس ١٩٤٥ م أعلن ترومان في مؤتمر صحفي تأييده للسلاح بدخول أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين، ورد على أحد الصحفيين قائلاً: (إنه لم يجد في السجلات الرسمية للدولة الأمريكية، ما يدل على أن الرئيس روزفلت قد قَدَّم تعهداً للملك). أبلغ وزير الخارجية السعودي السفير الأمريكي المفوض بجدة، (وليام إدي) (وهو الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة من الذين حضروا اجتماع الملك عبد العزيز مع روزفلت) إنه في حالة فشل البحث في



سجلات وزارة الخارجية الأمريكية في الكشف عن أي تعهد من هذا النوع، فإن الملك عبد العزيز مستعد لنشر الخطاب المؤرخ في ٥ أبريل ١٩٤٥ م، لكن (دين أتشيسون) وزير الخارجية الأمريكية، حذر الرئيس ترومان في مذكرة رسمية من أن نكوص الولايات المتحدة عن عهودها، سيكون أقسى ضربة للمكانة الأمريكية في العالم، وهذا ما يهدد مصالحها.

عندئذ عدل الرئيس الأمريكي ترومان عن موقفه، وبعث ب خطاب إلى الملك عبد العزيز <sup>رحمه الله</sup> في ١٣ أكتوبر ١٩٤٥ م يخبره فيه أنه سيذكر علناً أن الرئيس روزفلت قد أعطى تأكيدات للملك، وإنه سيوفر للصحافة نص خطاب الملك عبد العزيز.

وهذا يوضح أهمية الآثار القانونية للمعاهدات والتعهدات، والتأكيد على الإجراءات الشكلية والقانونية، من حيث الكتابة، والتسجيل والإشهار.

إن عدم توفر هذه الإجراءات، قد يُحوّل التعهد والمعاهدة إلى عمل سياسي خال من الآثار القانونية الملزمة، فتنتهي المسألة القانونية بانتهاك رئيس الدولة أو من وقعّ التعهد.

لقد أصبحت الترانين الدولية الحديثة تُعنى بالمعاهدات المكتوبة، ذات التسجيل والإشهار؛ لأن مؤتمر فيينا المنعقد في ٢٦ مايو ١٩٦٩ م رفض قبول المعاهدات الشفوية؛ لأنه يرى فيها عدم اكتمال النضج كي تصبح صالحة للتقنين.

لقد أصبح القانون الدولي المعاصر ينظر بعين الريبة إلى المعاهدات السرية والشفوية على أنها معاهدات مشبوهة؛ لأنها قد تحمل في طياتها انتهاكات للأخلاق الدولية.

لقد أصبحت المعاهدة المعاصرة عقدًا من عقود الإشهار، شأنها شأن الزواج الشرعي لأنها تتطلب التسجيل والإعلان.

وتعتبر المعاهدات الدولية من العقود الشكلية التي تستلزم شكلاً حدده القانون الدولي، وإلا فقدت حُجيتها في مواجهة الغير، ومع هذا فإن العنصر الشكلي في المعاهدات الحديثة، لم يتعرض لنصوص أمرة، سواء في القانون الاتفاقي أو العُرفي.

لقد اعتقد البعض أن عدم تسجيل المعاهدات لدى المنظمات الدولية العالمية، بدءاً بعصبة الأمم قبل الحرب العالمية الثانية، وانتهاء بميثاق الأمم المتحدة بعد الحرب، يصبح سبباً في إبطال المعاهدات.

لقد تبين لفقهاء القانون أن دواعي التسجيل هو القضاء على ظاهرة المعاهدات السرية، التي سادت العلاقات الدولية في العصور التي سبقت على التنظيم الدولي، فأدت إلى حروب عالمية، كما أدت إلى انتشار الاستعمار وقهر الأمم والشعوب، لكن ميثاق الأمم المتحدة اكتفى بعدم النظر في الدعوة المقامة أمام المحكمة الدولية إذا فقدت عنصر التسجيل.

وإذا كانت معاهدة الحديبية، قد تضافرت لها عناصر الشكل والإشهار والتسجيل، إلا أن التسجيل لم يكن لدى منظمة دولية؛ لأن المنظمات الدولية لم تكن من متطلبات ذلك العصر، ولم يكن في حاجة إليها. لقد ثبت في صفحات التاريخ والسير أن بعض المعاهدات الهامة في ذلك العصر، كانت تُعلّق في الكعبة كعنصر من عناصر الإشهار، وشكل من أشكال التسجيل، وكلون من ألوان القداسة. لقد عرف العرب المعاهدات بأنواعها، وخاصة الدولية، فكانوا يطلقون عليها (العصم)، والعصم هي الحبال التي تربط الدول ببعضها البعض.

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه: (أن أول من أوفد العصم، فانتشروا في الحرم، هو هاشم بن عبد مناف، لقد أخذ لهم هاشم حبلاً (أي عهداً) من ملوك الشام والشرق وغسان، وأخذ لهم عبد شمس ابن عبد مناف حبلاً من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل بن عبد مناف حبلاً من الأكاسرة، فاختلفوا بذلك إلى اليمن، فحبر الله بهم قريشاً فسموا بالمجبرين).<sup>١٠</sup> لقد عرف العرب أنواع المعاهدات الدولية وميزوا بينهما بأسماء خاصة، كانوا يطلقون على المعاهدات التجارية الدولية اسم الإيلاف، وهو ما ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة قريش.

عرف العرب الأحلاف، وهي المعاهدات المتعددة الأطراف، والتي تحمل الطابع التشريعي، فكان آخر هذه الأحلاف قبل الإسلام، هو حلف الفضول.

كان هذا الحلف قد ضم بعض القبائل المتمدنة، ضم كلاً من بني هاشم وبني تيم وبني زهرة، وعقد هذا الحلف في بيت عبد الله بن جدعان، لقد تحالفوا على رد المظالم، وأخذ الحق من الظالم. وقد سُمي بحلف الفضول؛ لأن أطرافه تحالفوا على أن لا يتركوا عند أحد فضلاً بظلمه أحد إلا أخذوه منه، ويقال إنه سُمي فضلاً؛ لأن مثل هذه المعاهدات بُنيت على خطى حلف قام به رجال من جرهم، كل منهم كان يُسمى الفضل.

لقد شهد النبي ﷺ حلف الفضول، قبل البعثة النبوية فقال فيما بعد: «شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً، لو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت»، وهذا يؤكد مندوبية الدخول في الأحلاف الدولية مع غير المسلمين، طالما لا تتعارض مع أسس الشريعة الإسلامية.

لقد تحدث الشاعر العربي المعروف صلاء بن عمرو، المشهور بالأفوه الأودي، تحدث عن أحد الأحلاف، وأشاد بها وسماها سياسة الخيمة، وجمع في قصيدته قواعد وأسس المعاهدة فقال:

وَالْبَيْتُ لَا يُبْنَى إِلَّا لَهُ عَمَدٌ      وَلَا عِمَادٌ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْدَادُ  
فَإِنْ مُجْمَعٌ أَوْتَادٌ وَأَعْمَدَةٌ      وَسَاكِنٌ بَلَّغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ      وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهِلَهُمْ سَادُوا  
تُهْدَى الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ      فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

لقد كانت مكة المكرمة عند ظهور الإسلام تشكل دولة بالمعنى الحديث، إذ تتوفر فيها عنصر: السكان، والأرض، والسلطة، ولم يبالغ لامنسي اليسوعي حينما أثبت في كتابه (مكة ليلة الهجرة) كافة الأسس والمقومات المطلوبة للدولة، ويبيّن أن لها سجلات ومحفوفات.

كانت دار الندوة التي شيدها قصي بن كلاب عام ٤٤٠م في الاتجاه الجنوبي الغربي من الكعبة، بمثابة برلمان بالمعنى السياسي الحديث، كما كانت مجلساً من مجالس الشورى بالمفهوم الإسلامي، وكان لها شروط للعضوية، منها ألا يقل سن العضو عن أربعين سنة.

كانت لا تتخذ قرارات هامة على المستوى الداخلي في مكة، أو على الصعيد الخارجي إلا بعد موافقة دار الندوة، كقرار الحرب، وقرار المعاهدات الدولية.

لقد اتخذ القرار بالمفاوضات في الحديبية وإرسال وفد يمثل قريشاً بعد أخذ الموافقة دار الندوة فأعطت إقرارها به.

أما عن الدولة الإسلامية في المدينة المنورة فقد كانت دولة متكاملة العناصر، وكان لها دستور وضعه الرسول ﷺ حال وصوله إليها مهاجراً، لكنه كان دستوراً مؤقتاً؛ لأن القرآن لم يكتمل نزوله بعد، بينما لم تصدر الولايات المتحدة الأمريكية دستورها إلا بعد مائتي عام من الهجرة إلى القارة الأمريكية، وبعدها صاغت دول العالم دساتيرها.

أما معاهدة الحديبية فلم تكن من المعاهدات الشارعة، بل كانت من المعاهدات الثنائية العقدية، كما لم تكن من المعاهدات المغلقة، بل كانت من المعاهدات المفتوحة، إذا أتاحت الفرصة أمام القبائل التي ترغب في الانضمام إليها.

ولا ينطبق على معاهدة الحديبية صفة المعاهدات شبه المغلقة (Semi-Ferme) التي لا يتم الانضمام إليها، إلا عن طريق المفاوضات والتصديق، مثل اتفاقية الجماعة الأوروبية الاقتصادية، وذلك بإبرام المعاهدة مع الدول المنضمة، وقد سارت الدول الست المؤسسة لهذه الجماعة على هذا النهج مع كافة الدول التي انضمت إليها.

أما معاهدة الحديبية فلكونها من المعاهدات المفتوحة، فإنها نصت صراحة على فتح الباب لمن يرغب في الانضمام إليها من القبائل، فأتاحت بذلك الفرصة أمام الغير، بمجرد التعبير عن إرادتها المنفردة، ودون شروط مفروضة من قبل الأطراف الأصلية في المعاهدة.

إن الطابع الملزم للمعاهدة هو ضرورة تنفيذها، وهذا التنفيذ له نطاق زماني وآخر مكاني، فالنطاق الزمني يبدأ فيه سريان المعاهدة من تاريخ المصادقة عليها، إلا إذا ورد نص في المعاهدة يحدد بداية تنفيذها، وقد يحدد نهاية العمل بها في المعاهدات المؤقتة.

والمعاهدة تلزم أطرفها في إطار إقليم كل طرف من أطراف المعاهدة، ما لم يتعرض قصد الأطراف إلى غير ذلك صراحة أو ضمناً.

وقد يقتصر سريان المعاهدة المكاني على منطقة معينة خصوصاً إذا كانت تنشئ نظاماً خاصاً للمرور في المناطق الحدودية.

وتتعدّد الأمور، حينما ينشأ ما يُعرف باسم شرط المستعمرات، والشرط الفيدرالي، وهو ما يُقصد به استبعاد الدويلات الأعضاء في اتحاد فيدرالي من سريان المعاهدات التي تُبرم باسم الدولة الفيدرالية، في محاولة للمحافظة على الاستقلال الذاتي للولايات، وعندما تتوثق عوامل الوحدة الفيدرالية، فإن الدويلات تفقد أهليتها في إبرام المعاهدات.

فمعاهدة الحديبية كان سريانها المكاني ينصب على الدخول في مكة المكرمة والطواف بالبيت، ونحر الهدى والمكث في مكة لمدة لا تزيد على ثلاثة أيام، ثم مغادرة مكة والخروج من نطاق الحرم الذي كان معروفاً منذ إبراهيم عليه السلام.

أما السريان الزمني، فتبدأ فعالياته في المعاهدات الدولية طبقاً لما جاء في الاتفاق؛ لأن العقد شريعة المتعاقدين (Servanda Pacta Sunt) وإذا ما نص عليها، فيكون سريان المعاهدة بدءاً من تاريخ المصادقة عليها وإبرامها.

ومعاهدة الحديبية لم تنص على بداية سريان المعاهدة الزمني؛ لهذا فقد بدأ سريانها الزمني من نهاية التوقيع عليها، أما سريانها الأدبي فقد كان بدءاً من الاتفاق الشفهي على المعاهدة.

لهذا التزم النبي ﷺ بالاتفاق في قضية أبي جندل رضي الله عنه بشكل أدبي فرضته الأخلاق الإسلامية.

إن تنفيذ المعاهدات يتطلب توفر عدة ضوابط، منها حسن النية عند الاتفاق، وعدم سريان المعاهدات بأثر رجعي.

لقد تجلّى حسن النية في الحديبية بين الطرفين، حينما بدأ سهيل بن عمرو رئيس الوفد القرشي بتقديم اعتذاره للرسول ﷺ على ما فعله سفهاء قريش.

كما تجلّى حسن النية حينما أطلق الرسول ﷺ أسرى قريش، وبعد سريان الاتفاق، ضبط المسلمون أنفسهم أمام تحرشات بعض العناصر القرشية، والتي عرضت بالنبي ﷺ بغية استفزاز المسلمين كي تنسف الاتفاقية.

إن حسن النية يتطلب عدم الرد على السفهاء الذين تضرروا من المعاهدة، والذين ملئت قلوبهم من الحقد، وفاضت أنفسهم بالغل والتخريب.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ رضي الله عنه: فَلَمَّا اضْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً، فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا (أي كنس شوكة)، فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ الْأَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ، قَالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ سَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةَ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِعْفًا (أي حزمة) فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لَا يَزِفُّ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوفُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ (بنو أمية الأصغر بن عبد شمس) يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى فَرَسٍ مُجْتَفٍ (أي عليه تحفاف، وهو شيء من سلاح يترك على الفرس يقيه الأذى، وقد يلبسه الإنسان أيضًا، وجمعه: تجافيف) فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثَنَاهُ»، فَعَمَّا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الْآيَةَ كُلَّهَا. [مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)].

لقد أصبح حسن النية مبدأ عامًا للعلاقات الدولية، وعرفته المادة الثامنة عشرة من اتفاقية المعاهدات الدولية، بأنه (الامتناع عن كل تصرف يؤدي إلى إهدار موضوع وهدف المعاهدة) إن تنفيذ المعاهدات بحسن النية، يقتضي البعد عن الغش والخداع.

فحكم محكمة التحكيم الدائم بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩١٠م في الصيد في الأطلنطي حيث كان الأمر يتعلق بتطبيق المعاهدة التي تنظم حق الصيد لرعايا الولايات المتحدة الأمريكية في المياه الكندية. لقد أشارت المحكمة إلى مبدأ القانون الدولي القاضي بضرورة التنفيذ للالتزامات الواردة في الاتفاقية بحسن النية، وقررت أن المعاهدة تنشئ التزامًا يقضي بأن بريطانيا في مباشرتها لسيادتها عند وضعها لوائح الصيد قد باشرت الاختصاص بحسن النية.

أما عدم سرية المعاهدة بأثر رجعي، فإن المبدأ العام الذي يحكم سائر التصرفات القانونية الدولية يحكم سرية المعاهدة بغير رجعي، ولا يكون السريان بأثر رجعي.

فبعد المصادقة على معاهدة الحديبية، واجهت النبي صلى الله عليه وسلم مشكلة، وهي أن بعضًا من العبيد، وبعضًا من المستضعفين من أبناء قريش، طلبوا حق اللجوء قبل تمام عقد الصلح.

طالب سهيل بن عمرو بإعادتهم متذرعاً بالمعاهدة، لكن النبي ﷺ رفض ذلك وقال: (هم عتقاء الله) لأنهم التجؤوا قبل عقد الصلح.

لم تكن معاهدة الحديبية إلا درساً للأجيال، ليس في العلاقات الدولية أو القانون الدولي، بل أيضاً في الأخلاقيات السياسية والقانونية، والأمة الإسلامية في حاجة إلى متابعة هذه القيم الإسلامية، حتى تتمكن من التعامل مع الواقع المعاصر، وإثراء الفكر الحديث بما ينقذه من التناقضات التي انطوت على الغش أحياناً، وسوء النية أحياناً أخرى». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٢٣-١٣٤].

## ٧- فقه التنازلات، أم فقه الموازنات؟

يقول د/ العودة: «ليس كل تنازل للأعداء مرفوضاً، وليست كل استجابة لمطالبهم أمراً منكراً؛ والفقه في ذلك تحقيق أعلى المكاسب بأدنى التنازلات، والوصول إلى الخير المحبوب وإن مرَّ ببوابة المبعُض المكروه، والموازنة بين المصالح والمفاسد.

والمأمل في شروط الحديبية يرى فيها الغبن والحيف ظاهرين على المستلمين من الكافرين في إملاء الشروط؛ ألم يمنعوا المسلمين من كتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقالوا: لا نعرف إلا رحمان اليامة، ولكن اكتب: (باسمك اللهم)، فرفض المسلمون وأقرها النبي ﷺ، ثم رفضوا كتابة (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله)، وقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: (محمد بن عبد الله)، فقال النبي ﷺ: إني رسول الله وإن كذبتوني، اكتب محمد بن عبد الله، وكانت هذه الاعتراضات منهم (حمية جاهلية) كما أخبر الله عنهم في كتابه، وإلا فقد تحققوا صدقه ﷺ، وأيقنوا صحة رسالته بالبراهين التي رأوها وسمعوها بها.

حتى إذا وصلوا إلى شرط: على ألا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ وفي تلك الأثناء قدم (أبو جندل بن سهيل) يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال أبوه (سهيل): هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبي ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ، فقال سهيل: إِذَا وَاللَّهِ لَا أَصْلَحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، فقال النبي ﷺ: فَأَجْزِهِ لِي! فرفض سهيل، ثم استصرخ أبو جندل (المسلمين) وحرَّك عواطفهم قائلاً: يا معشر المسلمين! أُرِّدُّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ فِي اللَّهِ عَذَابًا شَدِيدًا، فَتَأَثَّرَ الْمُسْلِمُونَ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَدَسِ مِنْ أَشَدِّهِمْ تَأَثَّرًا حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ: أَلَسْتُ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيْنَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي». [البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢)].

قال ابن القيم: «إِنَّ مُصَالَحَةَ الْمُشْرِكِينَ بَعْضُ مَا فِيهِ ضَيْمٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَائِزَةٌ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، وَدَفْعُ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، فَفِيهِ دَفْعٌ أَعْلَى الْمَفْسَدَتَيْنِ بِإِحْتِمَالِ أَذْنَاهُمَا». [زاد المعاد ٣/٣٠٦].

وهكذا يكون الفقه في التنازلات تحقيق المصلحة الكبرى، وإن وقع مفسدة أقل.

وما أحوجنا إلى هذا الفقه! وهو الذي قال عنه ابن القيم: «وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفْسِ». [زاد المعاد ٣/٣٠٣].

نعم! إن رفض الآخر سهل، والقطع بعدم التفاهم والتعاون مع المخالفين لا يحتاج مزيد فقه، ولكن هل يحقق الخير المطلوب، وهل ينكأ العدو، وماذا يترتب عليه من المفاسد؟

تلك قضايا لا بد من إعادة النظر فيها في تعاملنا مع أعدائنا وتحقيق المكاسب لإسلامنا على هدي السيرة النبوية.

أما رسول الله محمد ﷺ؛ فقد استسهل ما استصعبه غيره من المسلمين، وكان ينظر بنور الله إلى ما وراءه من الفتح العظيم، وقد كان، فحصل له العز حين صدق وانكسر لله، وذُلَّ غيره وقهر حيث طغى واستكبر. [فقه الحديبية للعودة ٤-٥].

ويقول د/ العوا: «وإذا كان صلح الحديبية قد أبرم بوحي الله لنبيه، كما دلت عليه عباراته ﷺ:

﴿مَا خَلَأْتُ [الْقَصَوَاءَ]، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ﴾.

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي﴾. [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

وفي رواية: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣١٧، والمغازي للواقدي ٢/٦٠٦].

﴿وَاللَّهُ لَا تَدْعُونِي فُرْيَشُ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا﴾.

بل كما يقرر القرآن الكريم نفسه، في قوله تعالى، يصف ذلك الصلح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾

[الفتح]، فإن ذلك يؤكد ما سبق أن بيناه [في النظام السياسي للدولة الإسلامية - د/ محمد سليم العوا - ط ٨ دار الشروق -

القاهرة ٢٠٠٦م، ص ١٨٨]، من أن هذا الصلح لا يُقاس عليه ما أبرمته بعض الدول العربية - كانت أولها

مصر ثم تلتها الأردن - وما قد تبرمه غيرها، من معاهدات سلام أو هدنة أو صلح - سمَّها ما شئت - مع

العدو الصهيوني، إنما يرجع في مسألة مدى مشروعية هذه المعاهدات، أو عدم مشروعيتها، إلى المصلحة

العامة للأمة، فما حقق هذه المصلحة فإبرامه جائز أو واجب - بحسب الأحوال - وما أهدرها أو ضيع

أهم عناصرها فهو غير جائز بلا خلاف بين أحد من العلماء.

ونحن وإن كنا نقدر ما ظنته تلك الحكومات ضرورة ألجأتها إلى عقد معاهدات الصلح المذكورة، فإننا لا نقبل التخلي عن حقيقة أن للشعوب خياراتها إزاء هذه العلاقة مع عدوها، وهو خيار مفتوح والمستقبل أمامه بغير حدود.

والقاعدة في ذلك الشأن كله - ماضيه وحاضره ومستقبله - أن تقرير المصلحة والمفسدة يكون برأي أهل الشورى (أو ممثلي الشعب أيًا كانت تسميتهم) المنتخبين انتخاباً حراً مباشراً، لا المعينين من قبل الحكام، ولا الذين أتى بهم إلى مقاعدهم العتب بأصوات الناخبين وتزوير نتائج الانتخابات!

والإجراءات التي اتخذها رسول الله ﷺ بين يدي إبرام صلح الحديبية - وهو مرده إلى الوحي - درس للحكام المسلمين - وللاُمة كلها - أنه لا يجوز لحاكم أن ينفرد بالرأي، وأن يكون له القول الفصل - وحده - فيما يمس مصالح شعبه أو أمته.

وليس هناك تناقض بين النظرتين: النظرة إلى الموضوع، والنظرة إلى الإجراءات.

فرسول الله ﷺ بين لأصحابه، منذ البدء، أنه في الموضوع متبع لأمر الله تعالى، ولن يخالف مَنًا يوحى إليه، وحاشا أن يفعل، وهو في الإجراءات حفظ لأصحابه حقهم في إبداء الرأي، وفي إظهار القوة لقريش، وفي الرد على رسلها بما ساءهم وأثبت لهم التفاف أصحاب محمد ﷺ حوله، ثم أمضى، رضي من رضي وغضب مؤقتاً من غضب - ما أمره به الله ﷻ منذ خرج من المدينة المنورة يريد مكة المكرمة.

أما حكام الدنيا، بعد النبي ﷺ، فليس أمامهم إلا التزول على رأي أغلبية شعوبهم، والإذعان لما تراه هذه الأغلبية محققاً لمصالحها - أي مصالح الشعوب - ومن أفتى بغير ذلك من الناس فقوله مردود عليه، كائناً من كان». [الحديبية للعوا ١١٢-١١٤].

#### ٨ - يُغْنِي فِي الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ إِذَا عُرِفَ بِاسْمِهِ وَاسْمُ أَبِيهِ عَنْ ذِكْرِ الْجَدِّ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَشْهُودَ عَلَيْهِ إِذَا عُرِفَ بِاسْمِهِ وَاسْمُ أَبِيهِ أَغْنَى ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ الْجَدِّ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَزِدْ عَلَى (مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ) وَقَنِعَ مِنْ سَهْلٍ بِذِكْرِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ خَاصَّةً، وَاشْتَرَاطُ ذِكْرِ الْجَدِّ لَا أَصْلَ لَهُ، وَلَكِنَّا اشْتَرَى الْعَدَاءُ بْنُ خَالِدٍ مِنْهُ ﷺ الْعَلَامَ فَكَتَبَ لَهُ: (هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَاءُ بْنُ خَالِدٍ بْنُ هُوْدَةَ) [الترمذي في البيوع (١٢١٦)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٥١)]، فَذَكَرَ جَدَّهُ فَهُوَ زِيَادَةٌ بَيَانٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا تَدُلُّ عَلَى اشْتِرَاطِهِ، وَلَكِنَّا لَمْ يَكُنْ فِي الشُّهُورَةِ بِحَيْثُ يُكْتَفَى بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ ذَكَرَ جَدَّهُ، فَيَسْتَرُطُ ذِكْرَ الْجَدِّ عِنْدَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْإِسْمِ وَاسْمِ الْأَبِ، وَعِنْدَ عَدَمِ الْإِشْتِرَاكِ أَكْثَفِي بِذِكْرِ الْإِسْمِ وَاسْمِ الْأَبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٥].



## ٩ - الآثار القانونية للمعاهدة:

يقول د/ عشقي: «عزَّ على المسلمين أن يعودوا إلى المدينة المنورة، دون أن يطوفوا بالبيت العتيق، وينحروا هديهم، ويقضوا مناسكهم، لقد وُقِّعت وصُدِّقت وثيقة الحديبية، وعاد الوفد القرشي بوثيقته إلى مكة المكرمة، واحتفظ ﷺ بالنسخة الأساسية، واستعد للعودة إلى المدينة المنورة.

كان الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، يؤدون صلاتهم خلال مكثهم في الحديبية، في طرف الوادي داخل الحرم، فالنفوس تشرب للدخول إلى مكة، والقلوب تهفو إلى البيت العتيق. أمر النبي ﷺ أصحابه بنحر هديهم وحلق رؤوسهم داخل الحرم من طرف الوادي، ولم يبادر الصحابة بل أمسكوا، فكررها ثلاثاً.

لم يعص الصحابة أمر رسول الله ﷺ ولم يعترضوا عليه، وما هو لهم بخلق، بل كظموا غيظهم من قریش، والتزموا الصمت لعل الله أن يجعل لهم مخرجاً.

لكن عندما رأى الصحابة رسول الله ﷺ ينحر هديه، ويحلق رأسه، ويحل إحرامه أدركوا أن الأمر الإلهي أصبح نهائياً لا رجعة فيه، ولا جدوى من التخلف عن رسول الله ﷺ، فبادروا ينحرون ويحلقون ويقصرون.

لقد استبقى رسول الله ﷺ عشرين بدنة من الهدي، وبعث بها رجلاً من أسلم، فدخل بها إلى مكة، ونحرها عند المروة، وقسم لحمها كما علمه رسول الله ﷺ.

قد تقصّر النصوص في التعبير عن الدلالة على ما قصده النص في المعاهدة، إما لغموض فيه، أو لتناقض بين الظاهر والنص يعتريه، حيثئذ تصبح المعاهدة في حاجة إلى تفسير.

أما إذا رغبت المعاهدات عن تفسير بعض الغوامض، فإنه يراعى عندئذ في تفسيرها الرجوع إلى قواعد العدالة، وحسن النية، وروح المعاهدة، خصوصاً إذا كان الالتباس حول حرفية النص.

لقد درج بعض المفاوضين عند صياغة نص المعاهدة، على عرض كل نزاع ينشأ حول تنفيذها، أو تفسير أحد نصوصها على التحكيم الدولي، أو القضاء الدولي، أو على هيئة أخرى تحددها المعاهدة.

ولأن هذه الإشكالات، قد تصبح سبباً في نسف المعاهدات من أساسها، فإن القانون الدولي بادر فوضع الحلول، فجاءت المادة الثالثة عشرة من عصبة الأمم، وفرضت على الدول تسوية المشكلات بالطرق الدبلوماسية، أو أن يُعرض الأمر على التحكيم والقضاء الدوليين.

أما محكمة العدل الدولية، فقد أشارت في مادتها السادسة والثلاثين، إلى اختصاص المحكمة في النظر في المنازعات الدولية الناشئة عن تفسير المعاهدات.

لقد تعهدت الدول المشتركة في ميثاق الأمم المتحدة، بأن تخضع لحكم المحكمة الدولية في كافة القضايا الدولية التي تكون طرفاً فيها.

أما اتفاقية فيينا الموقعة في ٢٣ مايو ١٩٦٩م فقد أقرت ثلاث مواد لتفسير المعاهدات الدولية:

فاختصت المادة (٣١) بوضع القاعدة العامة للتفسير.

واختصت المادة (٣٢) بإيضاح الوسائل المكتملة للتفسير.

وتناولت المادة (٣٣) تفسير المعاهدات المعتمدة بلغتين أو أكثر.

لقد استوفت معاهدة الحديبية كافة الشروط الحديثة من حيث المفاوضات الشفوية، ثم الصياغة والتدوين، كما توفرت فيها شروط الصحة، من حيث الأهلية والرضا والمحل.

وفي مرحلة التدوين.. جاءت الدياجة مشمولة بإيضاح الطرفين وأسماء الممثلين في المعاهدة، فذكر النبي ﷺ ولم يأت ذكر للمسلمين، فالأنبياء أمة في ذاتهم، كما أن النظام الإسلامي نظام رئاسي يتوحد الجميع فيه ممثلين في شخصية القائد، كما أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا شهوداً على المفاوضات وتدوينها، وكانوا يعبرون عن آرائهم ويعترضون، وإذا تدخل ﷺ أمسكوا، فكانوا ماثراً إعجاب المفاوضين من قريش، وكانوا قدوة للبشرية.

كان كل صحابي، له أن يبدي رأيه، وعندما يأتي صوت رسول الله ﷺ فلا صوت إلا صوته، لم يعرف المسلمون الفرقة والفتنة إلا عندما تركوا نظامهم الإسلامي الصحيح، الذي يقوم على الحرية والطاعة. كانت المشورة سلوكاً عاماً يتحل به كل مسلم، وكانت التزاماً لكل من يتعدى قراره حدود نفسه، فالمشورة عند القرارات التزام وليست إلزاماً، التزام بطرحها، وليست إلزاماً بالأخذ بها.

كانت الوحدة الوطنية معدومة في قريش؛ لهذا جاءت الإشارة عند ذكر الطرف الآخر منصباً على قريش، فأشارت المعاهدة بالنص: «مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْلَهُ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرْدُّوهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ»؛ لهذا لم تأت الإشارة باسم سهيل بن عمرو، ولا باسم أبي سفيان، فأصبح لكل قريشي أن يأتي إلى الرسول ﷺ مطالباً، فيتم الاتصال وتبلغ الرسالة السامية.

لم تكن معاهدة الحديبية في حاجة إلى تبادل وثيقة التفويض بالمفاوضات، فالنبي ﷺ هو قائد المسلمين وإمامهم، وسهيل بن عمرو، وهو مبعوث قريش الدائم لإجراء المفاوضات الرسمية، فكان بمثابة وزير للخارجية.

وهذا يتفق مع ما نصت عليه معاهدة فيينا بعد أربعة عشر قرناً حين أشارت إلى عدم إلزام رؤساء الدول، ووزراء خارجيتها، ورؤساء البعثات الدبلوماسية بوثيقة المفاوضات.

وفي صلب المعاهدة، جاءت المسائل التي تم الاتفاق عليها محددة، ومكتملة، ومختصرة، كانت مرتبة على فقرات بحيث يمكن توزيعها على مواد مرقمة.

لم يكن من الضروري الإشارة إلى بداية السريان الزمني للمعاهدة فالالتزام الأدبي في عرف العرب يبدأ بالاتفاق قبل التدوين، أما الالتزام القانوني فإنه يبدأ بالتوقيع على المعاهدة، وتصبح وقتها نافذة. إن القانون الدولي الحديث، لا يعتبر المعاهدة الدولية قد استوفت إجراءاتها بمجرد التوقيع عليها، بل يشترط أن يتبع ذلك التصديق عليها؛ لأن التصديق هو الذي يعبر عن الرضا النهائي بالمعاهدة من قبل الدولة.

ولأنه يترتب على عدم التصديق، عدم التزام الدولة بها ورد في المعاهدة؛ لهذا جاءت الدساتير محددة للسلطة المخولة بالتصديق على المعاهدات، وأصبحت المصادقة تختلف باختلاف الدساتير.

لقد جرت العادة أن يكون التصديق على المعاهدات من اختصاص رؤساء الدول، لكن الدساتير الوضعية قد تشير إلى الرجوع إلى السلطة التشريعية للحصول على موافقتها، والموافقة لا تعني المصادقة. فالقانون الإنجليزي، يجعل المصادقة من اختصاص السلطة التنفيذية، لكنه يصبح في حاجة إلى تأييد البرلمان، إذا كانت المعاهدة تتطلب تغييراً لقانون من القوانين البريطانية.

أما الدولة الفرنسية فإن التصديق فيها على المعاهدات، هو من قبل السلطة التنفيذية إلا في المعاهدات الهامة، عندها لابد من عرض الأمر على الجمعية الوطنية.

ويتبع فرنسا في ذلك كل من سوريا ومصر ولبنان، إلا أن مصر قد نصت في المادة (١٥١) من دستورها على أن رئيس الجمهورية يبرم المعاهدات ويبلغها مجلس الشعب مشفوعة بما يناسب من البيان، وتكون له قوة القانون بعد إبرامها، والتصديق عليها ونشرها وفقاً للأوضاع المقررة.

على أن معاهدات الصلح، والتحالف، والتجارة، والملاحة، وجميع المعاهدات التي يترتب عليها تعديل في أراضي الدولة، أو التي تتعلق بحقوق السيادة، أو التي تُحمّل خزنة الدولة شيئاً من النفقات غير الواردة في الموازنة، فإنه يجب الحصول على موافقة مجلس الشعب.

لقد كان الاتحاد السوفيتي البائد، يجعل المصادقة من اختصاص مجلس السوفييت الأعلى، ويحل محله أثناء غيابه اللجنة المركزية العليا، وهو ما تأخذ به روسيا الاتحادية اليوم.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فإن لها نظاماً خاصاً، حيث تجعل إبرام المعاهدات من اختصاص رئيس الجمهورية، ولكن بمشورة وموافقة ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي.

إن إجراءات السلطة التشريعية، مسألة داخلية لا شأن لها بالمعاهدة، ولا تلتزم بها الدول الأخرى.

فالمعاهدة تصبح نافذة في نطاق العلاقات الدولية، حتى لو خالف التصديق عليها قواعد الدستور؛ لأن رئيس الدولة له سلطة الإعلان عن إرادة الدولة، فإذا تجاوز حقه في التعبير عن تلك الإرادة، فإن الدولة تتحمل عبء المسؤولية عن تصرفه.

لهذا فإن تصديق رئيس الدولة على المعاهدة دون مراعاة للشروط الدستورية، لا يؤثر في صحة المعاهدة ونفاذها في إطار العلاقات الدولية.

والقانون الدولي لا يشترط مدة محددة للتصديق على المعاهدة، لكن المعاهدة قد تشترط مدة معينة للتصديق عليها، وإذا لم تكن في المعاهدة إشارة إلى ذلك، فإنه يجب أن لا يتأخر التصديق دون مبرر، وفترة التصديق تعتبر من الأمور التي تتطلب حسماً دولياً لها، وهو عجز تعاني منه القوانين الوضعية. إن أكبر ما يواجه السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة الأمريكية، هو ببطء الكونجرس، في إصدار موافقته على المعاهدات أو القوانين.

ففي الاتفاقية بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا حول فراء الفقمة، قد تم الاتفاق عليها عام ١٩٤٢ م، بينما لم تتم الموافقة من مجلس الشيوخ عليها إلا في ٢٦ فبراير عام ١٩٤٤ م. لهذا عملت السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى تقليص الاتفاقات التي يتطلب عرضها على مجلس الشيوخ، فأضفت على معظم المعاهدات صبغة الاتفاقات التنفيذية، حتى لا يصبح من الضروري عرضها على مجلس الشيوخ.

ففي ١٩٥٦ م لم تعرض على مجلس الشيوخ سوى ست معاهدات من بين ١٩٨ اتفاقية؛ لهذا فإن المدرسة الأمريكية، أصبحت تفرق بين المعاهدات والاتفاقات، وهو ما أشار إليه (شارل روسو) في كتابه «المعاهدات الدولية» وما أشار إليه أيضاً (جيرهارد فان غلان) في كتابه «القانون بين الأمم».

لم يرد في معاهدة الحديبية أي نوع من التحفظات (Reservation) لأنها كانت معاهدة متكاملة، خصوصاً وأن رسول الله ﷺ هو الذي أملى صياغتها، فكانت درة على رأس المعاهدات، ورغم اختصارها إلا أنها أوفت بما صيغت من أجله، فلا قصور، ولا غموض، ولا تناقض؛ لهذا لم تكن في حاجة إلى تفسير أو تحفظ ولا إلحاق.

ومع أن معاهدة الحديبية معاهدة ثنائية، لكنها كانت مشرعة الأبواب لمن أراد أن ينضم إليها من القبائل، مما يتيح فرص التحفظ، ومع هذا فإنها كانت جامعة مانعة.

فالدول التي ترغب الارتباط بمعاهدة دولية، قد تتحفظ على نص من النصوص، كما أن التحفظ قد يرد أثناء التوقيع على أطراف المعاهدة أو يأتي لاحقاً عليها.

والتحفظ: (هو إجراء تستثني الدولة نفسها بمقتضاه عن الارتباط ببند من بنود الاتفاق)، ومع هذا فإن المادة الثانية تقسيم واحد فقرة (د) من اتفاقية فيينا الصادرة في ٢٣ مايو سنة ١٩٦٩م قد أصدرت تعريفاً رسمياً للتحفظات وبينت أسسها وأبعادها.

ساق النبي ﷺ ضمن الهدى جملاً لأبي جهل، فقرّر نحره في مكة المكرمة، في عمرة الحديبية، وشاء الله أن يشاق هذا الجمل إلى موطنه الأصلي في مكة، فسار خمسة عشر ميلاً حتى برك أمام دار أبي جهل، فعرفوه بعد خمس سنوات.

لقد هرب الجمل بعد عقد الصلح، كان من أشهر جمال مكة، وكان أبو جهل يتباهى به على أقرانه، وكان من جمال المهرة النجبية، والمهرة على الشرق من حضر موت، معروفة بظبائها وجمالها الجياد.

جاء به أبو جهل إلى بدر ليخوض بهذا الجمل المعركة، غنمه المسلمون فيما غنموا عقب انتصارهم الحاسم، وبقي الجمل ضمن الأموال العامة للدولة، يغزو عليه المسلمون وشارك في غزوة ذات قرد.

لقد وصل الجمل إلى مكة، يحمل ذكرى أليسة لقريش، ويذكّرهم بيوم بدر، تعقب الجمل عمرو بن غنمة السلمي ﷺ ليعيده إلى الحديبية؛ لأنه من جمال الهدى، وعزّ على المشركين تسليمه ونحره.

اتصل ابن غنمة بسهيل بن عمرو، وطلب منه إعادة الجمل، فأصدر أوامره، وأعاد الجمل، لقد عرض المشركون مائة ناقة في مقابل الجمل، وأبلغ رسول الله ﷺ بذلك، لكنه ﷺ اعتذر لأنه من جمال الهدى، وقال ﷺ: «لَوْ لَا أَنَا سَمَّيْنَاهُ فِي الْهَدْيِ فَعَلْنَا».

ونحر الجمل عن سبعة من المسلمين، ذكر الطبري أن منهم أبا بكر وعمر بن الخطاب.

لقد كان المفاوض، هو الأولى بتفسير المعاهدة؛ لهذا تدخل سهيل بن عمرو، كما أن سهيلاً كان هو المسؤول الأول عن تنفيذها.

إن الذين شاركوا في الحديبية هم الصفوة من أصحاب الرسول ﷺ فهم المهاجرون والأنصار، وهم الذين شاركوا في بدر وأحد والخندق، وهم الذين شربوا من منهل النبوة.

لقد قادوا المسيرة الحضارية للإسلام، فلم يواجهوا مشكلة قانونية، فالقرآن في قلوبهم والسنة بين أيديهم، ولم يكونوا في حاجة إلى تدوين وتحليل لما جاء في الحديبية، لكننا اليوم بعد أن تقطعت بأمتنا السبل، وعرض الغرب بضاعته في سوق الحضارة، علينا كأمة أن نراجع تراثنا وقيمنا ونستلهمها في حوارنا مع العصر». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٣٩-١٤٩].

١٠ - هل تجوز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلماً؟

يقول د/ الحكمي: «كان من جملة الشروط التي وقع عليها صلح الحديبية أن يردّ النبي ﷺ إلى قريش من جاءه من قبلها، وألا ترد قريش من جاءها من المسلمين.

وقد وقع خلاف بين العلماء في جواز هذا الشرط:

فعند أبي حنيفة أنه غير جائز؛ لأن ما فعله النبي ﷺ في الحديبية منسوخ عنده بحديث سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه حين وجهه النبي ﷺ إلى خثعم وفيهم ناس مسلمون فاعتصموا بالسجود، فقتلهم خالد رضي الله عنه، فوداهم النبي ﷺ نصف الدية، وقال: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ».

[الروض الأنف ٦/ ٣٨٤، فتح القدير ٥/ ٤٦٠].

وذهب الحنابلة [المغني لابن قدامة ٨/ ٤٦٥]، وهو ظاهر كلام الشافعي [الأم ٤/ ١٩١]، إلى جواز هذا الشرط لقصة الحديبية.

وقال أصحاب الشافعي: لا يصح شرط رد المسلم إلا أن يكون له عشيرة تحميه وتمنعه.

[شرح السنة ١١/ ١٦٣].

وحكى السهيلي عن العراقيين أنهم قالوا: «ما فعله النبي ﷺ بالحديبية يختص بالنبي ﷺ وبمكة؛ لأن النبي ﷺ ما رد المسلمين إلى قريش إلا لقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا»، قالوا: وفي رد المسلم إلى مكة عمارة البيت وزيادة خير له في الصلاة بالمسجد الحرام، والطواف بالبيت، فكان هذا من تعظيم حرمة الله تعالى». [الروض الأنف ٦/ ٣٨٤].

والتحقيق: جواز الصلح على رد الرجال؛ لأنه قد ثبت من فعل النبي ﷺ ولم يرد ما ينسخه أو يخصه، والحديث الذي استدل به من قال بالنسخ لم يكن في محل النزاع، إنما هو في خصوص من أقام بين الكفار عن طوعية واختيار، أما الذي يرده الإمام فهو مكره على الرجوع إليهم.

وما ذكره أصحاب الشافعي من اشتراط الأهل والعشيرة لا دليل عليه، فرسول الله ﷺ حين رد أبا جندل رضي الله عنه لم يقل له: إن أباك سيمنعك، بل قال له: «إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِيًّا مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَتَحَرُّجًا» وقال نحو ذلك لأبي بصير رضي الله عنه.

وكذلك دعوى تخصيص ما وقع في صلح الحديبية بمكة وبالنبي ﷺ لا دليل عليها وما ذكر من مسوغات لا تكفي للتخصيص. والله أعلم. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٢٩-٥٣٠].

## ١١ - صلح الحديبية وأثره في تسليم المطلوبين:

يقول د/ الصيحي: «لقد حرصت الشريعة الإسلامية على كل ما فيه خير للأمة، فأمرت بأشياء تعلم أن فيه صلاحها، ونهت عن أمور تعلم أن فيه شرًا لها، فالله ﷻ أكمل لنا الدين وأتم لنا الشرائع فلا نحتاج بعد ذلك إلى رأي أو هوى متبع.

إن الشريعة الإسلامية فيها الغنية عن القوانين الوضعية، بل إن فيها الفلاح لمن قام بها وخاصة الملوك ورؤساء الدول، فمن ذلك توفير الأمن والأمان للمجتمع، ومن الأمور التي تحقق الأمن والأمان

للمجتمعات هو تسليم المطلوبين الذين ارتكبوا أو اتهموا في جرائم، فلقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما يدل على التعاون على البر والتقوى، والنهي عن كل منكر، والأخذ على يد كل من أراد المساس بأمن المجتمع، وفيما يلي نورد أدلة تدل على حرص الشريعة الإسلامية على التعاون لحفظ المجتمع.

**المصدر الأول القرآن الكريم:** القرآن الكريم هو الدليل والمرشد إلى أمور الدنيا والآخرة، فهو الشريعة المنظمة لحياة الناس، فما لم يفصل بالقرآن فإن السنة النبوية تفصل ذلك وتوضحه، وقد يكون في حياة الناس أمور مستجدة، لم ترد في القرآن ولا في السنة النبوية، فإن الشريعة الإسلامية أتاحت لذوي العلم والبصائر الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص وفق القواعد والأصول التي قررها القرآن والسنة.

والقرآن الكريم حذر من المساس بالأمن، ووضع عقوبات رادعة لكل الجرائم، وما دام القرآن الكريم حذر من الجريمة والمجرمين والإجرام في إحدى وستين موضعاً، فإنه لا يناع في ملاحقة المطلوبين في هذه القضايا والقبض عليهم، وتسليمهم، ومحاکمتهم على ما اقترفوه من أعمال؛ منعاً للفساد والنوضى، وللمحد من انتشار الجريمة، تمثيلاً مع مصلحة الفرد والجماعة، وتطهيراً للمجتمع الإنساني من أضرارها، ولعل من الأدلة على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ولا شك أن تسليم المطلوبين ومحاربة الجرائم ومكافحتها، هو من التعاون على البر والتقوى، فالعدوان لابد وأن يكافح، وخير وسيلة للمكافحة هي ملاحقة المطلوبين وردعهم على جرائمهم لحماية المجتمع من الشرور، والتعاون على كف الإثم والعدوان هو علاج ذلك.

٢- إن تسليم المطلوبين، والتعاون على اتفاقية ذلك هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمر الله ﷻ به، يقول ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١).

فلأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على إقامتهما هو سبب التمكين في الأرض، وتسليم المطلوبين وصدهم عن جرائمهم من إنكار المنكر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

يقول ابن تيمية رحمته الله: «ولو كان رجلاً يعرف مكان المال المطلوب بحق، أو الرجل المطلوب بحق، وهو الذي يمنعه، فإنه يجب عليه الإعلام به والدلالة عليه، ولا يجوز كتمانها، فإن هذا من باب التعاون على البر والتقوى». [السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١١٨].

المصدر الثاني السنة النبوية: عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يُسِرُّ إِلَيْكَ، قَالَ: فَعَضَبْتُ، وَقَالَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يُسِرُّ إِلَيَّ شَيْئًا يَكْتُمُهُ النَّاسُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ حَدَّثَنِي بِكَلِمَاتٍ أَرْبَعٍ، قَالَ: فَقَالَ: مَا هُنَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ».

[مسلم في الأضاحي (١٩٧٨)].

والشاهد من هذا الحديث، هو قول النبي «وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحَدِّثًا»، والمحدث هو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه حق الله، فيلتجئ إلى من يحيره من ذلك، وقال في فتح المجيد: «عن أبي السعادات أنه قال: المحدث: من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتض منه».

[فتح المجيد شرح كتاب التوحيد- آل الشيخ ص ١٥٧].

يقول ابن تيمية رحمته الله: «ومن آوى محارباً أو سارقاً، أو قاتلاً ونحوهم ممن وجب عليه حد أو حق لله تعالى، أو لآدمي، ومنعه أن يستوفي منه الواجب بلا عدوان، فهو شريك في الجرم، وقد لعنه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم». [السياسة الشرعية ص ١١٧].

والسلطة المختصة في الدولة يحق لها أن تتخذ من الإجراءات ما هو كفيل لإحضار الجاني والقبض عليه، سواء بالضغط على المؤوي أو جسده أو حتى ضربه، يقول ابن تيمية رحمته الله: «وإذا ظفر بهذا الذي آوى المحدث، فإنه يطلب منه إحضاره، أو الإعلام به، فإن امتنع عوقب بالحبس والضرب مرة بعد مرة حتى يمكن من ذلك المحدث». [السياسة الشرعية ص ١١٧].

المعاملة بالمثل: يعد مبدأ المعاملة بالمثل هو الموجّه للمعاهدات عمومًا، ولمعاهدات تسليم المطلوبين خصوصًا، حيث تفرض عادة التزامات متماثلة بين الأطراف المتعاقدة، إلا أنه يمكن الاستناد إلى المعاملة بالمثل كأساس كاف في حد ذاته للتسليم حتى بدون وجود معاهدة.

والمعاملة بالمثل تعد عنصرًا أساسيًا وحيويًا للتسليم في حالة عدم وجود معاهدة خاصة بذلك، والاستناد إليه يستغني عن النصوص المكتوبة، فلا يوجد نص لما اتفق عليه الأطراف كما لا يمكن وضعها في معاهدة.

إن الاستناد إلى مبدأ المعاملة بالمثل لتسليم المطلوبين يتميز بمزايا، منها: معاملة الدول على قدم المساواة وكونه يخلو من العوائق والصعوبات المتعلقة بنظم المعاهدات، والتي تتضمن صعوبات في التفاوض، وتأخذ وقتًا طويلاً إلى حين الموافقة عليها والعمل بها، كما أنه يترتب عليه التزام متبادل كالالتزام في المعاهدات، كما يساعد على سرعة إتمام إجراءات التسليم، والتسليم المستند إلى مبدأ المعاملة بالمثل ليس



إجبارياً كالتسليم المستند إلى المعاهدة المتعلقة بالتسليم.

[تسليم المظلومين بين الدول وأحكامه في الفقه الإسلامي - د/ زياد بن عابد المشوخي ص ١٣٧].

[صلح الحديبية وأثره في تسليم المظلومين للصبيحي ٦٩-٧١، وقد فصل د/ الصبيحي الحديث عن المقصد الأمني

لتسليم المظلومين، وأصناف المظلومين، وأنواع الجرائم، وأحكامها، ينظر ص ٧٨-١٢٨ من المرجع السابق].

## ١٢ - حكم الإحصار في العمرة والحج:

يقول د/ البوطي: «ودل عمل الرسول ﷺ بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحر والحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهل به، سواء كان حجاً أو عمرة.

كما دل ذلك على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً، وخالف الحنفية فأروا أن القضاء بعد المباشرة واجب، على أن جميع الذين خرجوا معه ﷺ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي واستشهد منهم في غزوة خيبر». [فقه السيرة للبوطي ٢٥٦].

ويقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُحْصَرَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ أَمَرَهُمْ بِالْحَلْقِ وَالنَّحْرِ، وَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْقَضَاءِ، وَالْعُمْرَةُ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ لَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً، وَلَا قَضَاءً عَنْ عُمْرَةِ الْإِحْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي عُمْرَةِ الْإِحْصَارِ أَلْفًا وَأَرْبَعًا، وَكَانُوا فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ دُونَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ عُمْرَةُ الْقَضِيَّةِ وَالْقَضَاءُ؛ لِأَنَّهَا الْعُمْرَةُ الَّتِي قَاضَاهُمْ عَلَيْهَا، فَأُضِيفَتْ الْعُمْرَةُ إِلَى مُصَدَّرِ فِعْلِهِ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٧].

وهناك أحاديث أخرى أشارت أيضاً إلى تحلل النبي ﷺ وأصحابه - في الحديبية - بالنحر والحلق.

عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَرَادَ الْحَجَّ عَامَ نَزَلِ الْحُجَّاجُ بِابْنِ الزُّبَيْرِ [عَامَ حَجَّةِ الْخُرُوبَةِ<sup>(١)</sup>] فِي عَهْدِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بَيْنَهُمْ قِتَالًا، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَصُدُّوكَ، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، إِذَا أَصْنَعَ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ عُمْرَةً، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِظَاهِرِ [بِظَهْرِ] الْبَيْدَاءِ قَالَ: مَا شَأْنُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ إِلَّا وَاحِدٌ [وَاحِدًا]، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ حَجًّا [حَجَّةً] مَعَ عُمْرَتِي [عُمْرَةً]، وَأَهْدَى هَدِيًّا [مُقَلَّدًا] اشْتَرَاهُ بِقُدَيْدٍ، [فَانْطَلَقَ] حَتَّى قَدِمَ [مَكَّةَ] فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا [وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ]، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمْ يَنْحَرْ وَلَمْ يَحْلِلْ

(١) ذكر ابن حجر أن بين هذه الرواية وبين رواية جويرية (اليالي نزل الحجاج بابن الزبير) تغاير، قال: لأن حجة الخروبية كانت في السنة التي مات فيها يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، وذلك قبل أن يتسمى ابن الزبير بالخلافة، ونزل الحجاج بابن الزبير كان في سنة ثلاث وسبعين وذلك في آخر أيام ابن الزبير، إما أن يحمل على أن الراوي أطلق على الحجاج وأتباعه خروبية لجامع ما بينهم من الخروج على أئمة الحق، وإما أن يحمل على تعدد القصة. فتح الباري ٥٥٠/٣.

[يَحِلُّ] مِنْ شَيْءٍ حَرَّمَ مِنْهُ، وَلَمْ يَحْلُقْ وَلَمْ يَقْصُرْ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ فَخَرَّ وَحَلَّقَ، وَرَأَى أَنْ قَدْ قَضَى طَوَافَ [طَوَافِهِ] الْحُجَّ وَالْعُمْرَةَ [لِلْحُجِّ وَالْعُمْرَةِ] بِطَوَافِهِ [وَلِطَوَافِهِ] الْأَوَّلِ.  
وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: كَذَلِكَ فَعَلَ [صَنَعَ] رَسُولُ اللَّهِ [النَّبِيُّ] ﷺ.

[البخاري في الحج (١٦٤٠، ١٧٠٨)، ومسنند أحمد ١٠/٤٤٩ - ٤٥٠ رقم ٦٣٩١].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَسَلَامَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهَا كَلَّمَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما لَيْلَى نَزَلَ الْجَيْشُ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: لَا يَصْرُكَ أَنْ لَا تَحُجَّ الْعَامَ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يُحَالِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَقَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ دُونَ الْبَيْتِ، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ هَدْيَهُ، وَحَلَّقَ رَأْسَهُ، وَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ الْعُمْرَةَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْطَلِقُ، فَإِنْ خُلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ طُفْتُ، وَإِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَعَلْتُ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَهْلَ بِالْعُمْرَةِ مِنْ ذِي الْخُلَيْفَةِ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا سَأَلْتُهَا وَاحِدًا، أُشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ حَجَّةَ مَعَ عُمْرَتِي، فَلَمْ يَحِلْ مِنْهُمَا حَتَّى حَلَّ يَوْمَ النَّحْرِ وَأَهْدَى، وَكَانَ يَقُولُ: لَا يَحِلُّ حَتَّى يَطُوفَ طَوَافًا وَاحِدًا يَوْمَ يَدْخُلُ مَكَّةَ.

حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا جُوَيْرِيَّةُ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ بَعْضَ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَهُ: لَوْ أَقَمْتُ هَذَا.

[البخاري في الحج (١٨٠٧، ١٨٠٨)].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَسَلَامَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ كَلَّمَا عَبْدَ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَ الْحَجَّاجُ ابْنَ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَا يَصْرُكَ أَنْ لَا تَحُجَّ الْعَامَ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَ النَّاسِ قِتَالٌ [وَأَنْ] يُحَالِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، قَالَ: فَإِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَعَلْتُ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ حِينَ حَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، أُشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ عُمْرَةً، فَاَنْطَلِقُ حَتَّى آتَى ذَا الْخُلَيْفَةِ فَلَبَّى بِالْعُمْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ خُلِّيَ سَبِيلِي فَصَيْتُ عُمْرَتِي، وَإِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَعَلْتُ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ، ثُمَّ تَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ثُمَّ سَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِظَهْرِ الْيَدَاءِ، قَالَ: مَا أَمْرُهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ، إِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعُمْرَةِ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُجَّ، أُشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ حَجَّةَ مَعَ عُمْرَةٍ [عُمْرَتِي]، فَاَنْطَلِقُ حَتَّى ابْتِغَاءَ بِقَدِيدٍ هَدْيًا، ثُمَّ طَافَ لَهَا طَوَافًا وَاحِدًا بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ لَمْ يَحِلْ مِنْهُمَا حَتَّى حَلَّ مِنْهُمَا بِحَجَّةِ يَوْمَ النَّحْرِ [ثُمَّ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ النَّحْرِ].

وَحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: أَرَادَ ابْنُ عُمَرَ الْحُجَّ حِينَ نَزَلَ الْحَجَّاجُ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، وَاقْتَصَّ الْحَدِيثَ بِمَثَلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَقَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْحُجَّ وَالْعُمْرَةِ كَفَاهُ طَوَافٌ وَاحِدٌ، وَلَمْ يَحِلَّ حَتَّى يَحِلَّ مِنْهُمَا جَمِيعًا.

[مسلم في الحج (١٢٣٠)، ومسنند أحمد ٩/١٥٤ - ١٥٥ رقم ٥١٦٥].

وَعَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَسَلَامُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَخْبَرَاهُ أَنَّهَا كَلَّمَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه، لَمَّا نَزَلَ الْجَيْشُ [الْحُجَّاجُ] بِابْنِ الزُّبَيْرِ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَالَا: لَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تُحْجَ الْعَامَ، إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُحَالَ بَيْنَنَا [بَيْنَنَا] وَبَيْنَ الْبَيْتِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ دُونَ الْبَيْتِ، فَتَحَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَدْيُهُ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَشْهَدَكُمْ أَنِّي قَدْ أُوجِبْتُ عُمْرَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَنْطَلِقُ فَإِنْ خُلِيَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ طُفْتُ، وَإِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَعَلْتُ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ، [فَأَهْلَ بِالْعُمْرَةِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ]، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: فَإِنَّمَا شَأْنُهَا وَاحِدٌ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أُوجِبْتُ حَجَّةَ [حَجًّا] مَعَ عُمْرَتِي، فَلَمْ يَحِلَّ مِنْهَا حَتَّى أَهَلَ يَوْمَ النَّحْرِ وَأَهْدَى.

[قَالَ نَافِعٌ: فَطَافَ لَهَا طَوَافًا وَاحِدًا، وَسَعَى لَهَا سَعْيًا وَاحِدًا، ثُمَّ لَمْ يَحِلَّ حَتَّى جَاءَ يَوْمَ النَّحْرِ فَأَهْدَى، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ جَمَعَ الْعُمْرَةَ وَالْحَجَّ فَأَهَلَ بِهِمَا جَمِيعًا فَلَا يَحِلُّ حَتَّى يَحِلَّ مِنْهُمَا جَمِيعًا يَوْمَ النَّحْرِ].

[النسائي في الحج (٢٨٥٩)، الدارمي في المناسك (١٩٣٥)]، وقال الشيخان الألباني وأسد: صحيح.

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه دَخَلَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَظَهَرَهُ فِي الدَّارِ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ يَكُونَ الْعَامَ بَيْنَ النَّاسِ قِتَالٌ، فَيُصَدُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَلَوْ أَقَمْتُ، فَقَالَ: قَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَإِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَفْعَلُ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أُوجِبْتُ مَعَ عُمْرَتِي حَجًّا، قَالَ: ثُمَّ قَدِمَ فَطَافَ لَهَا طَوَافًا وَاحِدًا.

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه لِأَبْنَيْهِ: أَقِمْ، فَإِنِّي لَا أَمْنُهَا أَنْ سَتُصَدَّ عَنِ الْبَيْتِ، قَالَ: إِذَا أَفْعَلْتُ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فَأَنَا أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أُوجِبْتُ عَلَى نَفْسِي الْعُمْرَةَ، فَأَهْلَ بِالْعُمْرَةِ مِنَ الدَّارِ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْبَيْدَاءِ أَهَلَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَقَالَ: مَا شَأْنُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ إِلَّا وَاحِدٌ، ثُمَّ اشْتَرَى الْهَدْيَ مِنْ قُدَيْدٍ، ثُمَّ قَدِمَ فَطَافَ لَهَا طَوَافًا وَاحِدًا، فَلَمْ يَحِلَّ حَتَّى حَلَّ مِنْهُمَا جَمِيعًا. [البخاري في الحج (١٦٣٩)].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَسَلَامُ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهَا كَلَّمَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ح وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا جُوَيْرِيَّةُ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ بَعْضَ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَهُ: لَوْ أَقَمْتُ الْعَامَ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا تَصِلَ إِلَى الْبَيْتِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ دُونَ الْبَيْتِ، فَتَحَرَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذَايَا وَحَلَقَ وَقَصَّرَ أَصْحَابُهُ، وَقَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أُوجِبْتُ عُمْرَةً، فَإِنْ خُلِيَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ طُفْتُ، وَإِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ صَنَعْتُ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا أَرَى شَأْنَهَا إِلَّا وَاحِدًا، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أُوجِبْتُ حَجَّةَ مَعَ عُمْرَتِي، فَطَافَ طَوَافًا وَاحِدًا وَسَعَى وَاحِدًا، حَتَّى حَلَّ مِنْهُمَا جَمِيعًا. [البخاري في المغازي (٤١٨٥)].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَسَالِمًا كَلَّمَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُعْتَمِرِينَ، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ دُونَ الْبَيْتِ، فَخَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَنَّهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ. [البخاري في الحج (١٨١٢)].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَدْعُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ دَخَلَ عَلَيْهِ [وَوَظَّهَرُهُ فِي الدَّارِ]، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ يَكُونَ الْعَامَ بَيْنَ النَّاسِ قِتَالٌ، [فَتَصَدَّ عَنْ الْبَيْتِ]، فَلَوْ أَقَمْتُ، فَقَالَ قَدْ حَجَّ [خَرَجَ] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَإِنْ يُحِلُّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ثُمَّ قَالَ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ عُمْرَةَ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْبَيْدَاءِ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَى سَبِيلَهُمَا [أَمْرُهُمَا] إِلَّا وَاحِدًا، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ مَعَ عُمْرَتِي حَجًّا، ثُمَّ [قَدِمَ] طَافَ طَوَافًا وَاحِدًا. [مسند أحمد ٩/ ٢٣١ رقم ٥٨/ ٨، ٥٣٢٢، ٥٨/ ٨ رقم ٤٤٨٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ حِينَ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا فِي الْفِتْنَةِ: إِنْ صُدِّدْتُ عَنِ الْبَيْتِ صَنَعْنَا كَمَا صَنَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَهْلَ بِعُمْرَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَهْلَ بِعُمْرَةٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ فَقَالَ: مَا أَمْرُهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ، فَالْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَا أَمْرُهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ الْحَجَّ مَعَ الْعُمْرَةِ، ثُمَّ طَافَ لَهُمَا طَوَافًا وَاحِدًا، وَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ مُجْزِيًا عَنْهُ وَأَهْدَى.

[البخاري في المحصر (١٨١٣)].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: أَنَّهُ قَالَ حِينَ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا فِي الْفِتْنَةِ: إِنْ صُدِّدْتُ عَنِ الْبَيْتِ صَنَعْنَا كَمَا صَنَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَهْلَ بِعُمْرَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ بِعُمْرَةٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ فَقَالَ: مَا أَمْرُهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ ثُمَّ تَلَفَّتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَا أَمْرُهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ الْحَجَّ مَعَ الْعُمْرَةِ، ثُمَّ نَفَذَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ، فَطَافَ طَوَافًا وَاحِدًا، وَرَأَى ذَلِكَ مُجْزِيًا عَنْهُ وَأَهْدَى.

قَالَ مَالِكٌ: فَهَذَا الْأَمْرُ عِنْدَنَا فِيمَنْ أَحْصَرَ بَعْدُو كَمَا أَحْصَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَأَمَّا مَنْ أَحْصَرَ بَعِيرٌ عَدُوًّا فَإِنَّهُ لَا يُحِلُّ دُونَ الْبَيْتِ. [الموطأ في الحج (٨٠٨)].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه حِينَ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا فِي الْفِتْنَةِ قَالَ: إِنْ صُدِّدْتُ عَنِ الْبَيْتِ صَنَعْتُ [صَنَعْنَا] كَمَا صَنَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَهْلَ بِعُمْرَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَهْلَ بِعُمْرَةٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ. [البخاري في الحج (١٨٠٦)، وفي المغازي (٤١٨٣)، ومسند أحمد ١٠/ ٣٥٢-٣٥٣ رقم ٦٢٢٢٧].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: إِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَعَلْنَا كَمَا فَعَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَحَلَقَ وَرَجَعَ، وَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ عُمْرَةَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

[مسند أحمد ١٠/ ٣٧٦ رقم ٦٢٦٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما : أَنَّهُ أَهْلٌ، وَقَالَ: إِنَّ حِيلَ بَنِي وَبَيْنَهُ لَفَعَلْتُ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ حَالَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَتَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

[البخاري في المغازي (٤١٨٤)].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما خَرَجَ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَقَالَ: إِنْ نُصِدَّ عَنِ الْبَيْتِ صَنَعْنَا كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ. [مسند أحمد ٩/ ٢٢٠ رقم ٥٢٩٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].  
وَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَنَحَرَ هَدْيَهُ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحَدْيِيَّةِ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرُوا الْعَامَ الْمُقْبِلَ، وَلَا يَحْمِلَ السِّلَاحَ عَلَيْهِمْ.  
وَقَالَ سُرَيْجٌ: وَلَا يَحْمِلُ سِلَاحًا إِلَّا سُيُوفًا، وَلَا يَقِيمُ بِهَا إِلَّا مَا أَحْبَبُوا، فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحُهُمْ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ ثَلَاثًا أَمَرُوهُ أَنْ يَخْرُجَ، فَخَرَجَ.

[مسند أحمد ١٠/ ٢٤٦ رقم ٦٠٦٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: إِنْ حِيلَ بَنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَعَلْنَا كَمَا فَعَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَالَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَحَلَقَ وَرَجَعَ، وَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَوْجَبْتُ عُمْرَةً، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

[مسند أحمد ١٠/ ٣٧٥ رقم ٦٢٦٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَدْ أُحْصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَجَامَعَ نِسَاءَهُ، وَنَحَرَ هَدْيَهُ حَتَّى اعْتَمَرَ عَامًا قَابِلًا. [البخاري في المحصر (١٨٠٩)].

وَعَنْ عُمَرُو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَاضِرٍ الْحِمَيرِيَّ يُحَدِّثُ أَبِي مَيْمُونٍ بْنَ مِهْرَانَ قَالَ: خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا عَامَ حَاصِرِ أَهْلِ الشَّامِ ابْنَ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، وَبَعَثَ مَعِيَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي يَهْدِي، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى أَهْلِ الشَّامِ مَنْعُونَا أَنْ نَدْخُلَ الْحَرَمَ، فَنَحَرْتُ الْهَدْيَ مَكَانِي، ثُمَّ أَحْلَلْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ خَرَجْتُ لِأَقْضِيَ عُمْرَتِي، فَأَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: أَبْدِلْ الْهَدْيَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُبَدِّلُوا الْهَدْيَ الَّذِي نَحَرُوا عَامَ الْحَدْيِيَّةِ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ.

[أبو داود في المناسك (١٨٦٤)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

### ١٣ - مُضَاعَفَةُ الصَّلَاةِ بِمَكَّةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْحَرَمِ لَا يُخَصُّ بِهَا الْمَسْجِدُ:

يقول ابن القيم: «وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي فِي الْحَرَمِ، وَهُوَ مُضْطَرَبٌّ فِي الْحُلِّ، وَفِي هَذَا كَالِدَلَالَةِ عَلَى أَنَّ مُضَاعَفَةَ الصَّلَاةِ بِمَكَّةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْحَرَمِ لَا يُخَصُّ بِهَا الْمَسْجِدُ الَّذِي هُوَ مَكَانُ الطَّوَافِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: «صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي» [متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: ٢٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنعام: ١]، وَكَانَ الْإِسْرَاءُ مِنْ بَيْتِ أُمِّ هَانِيٍّ. [زاد المعاد ٣/ ٣٠٣-٣٠٤].

ويقول د/ أبو فارس: «إن النزول في الحل يوسع على صاحبه؛ لأن المقام في الحرم يقيد الإنسان بعدة قيود، فلا ينفر صيد الحرم، ولا يختلي خلاله، أما في غير الحرم فيمكنه أن يصطاد وأن يستفيد من الحشائش والأشجار بخلاف الحرم كما علمت.

أما الصلاة فيه فلما لها من جزيل الأجر والثواب والفضل عند الله ﷻ، فقد أخبر النبي ﷺ بأن الصلاة في الحرم بمائة ألف صلاة.

ولقد مر معك آنفاً أن الصلاة في الحرم أفضل من مائة ألف صلاة في مسجد الرسول ﷺ، والصلاة في مسجد الرسول ﷺ تعدل ألف صلاة فيما سواه، فالصلاة في الحرم المكي تعدل ألف صلاة فيما سواه.. (إلا الحرم المدني للحديث)». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٧-٤٨].

#### ١٤ - الوقوف على رُخص الحديبية:

يقول د/ العودة: «الله - تعالى - أرحم بعباده من أنفسهم، ومن رحمته بالمسلمين تشريع أحكام فيها تخفيف ورحمة ورفع للحرج والمشقة عنهم، وفي الحديبية شرع كثيرٌ من الأحكام التي كانت رحمةً للمسلمين في الحديبية وللمسلمين من بعدهم عامة، ومن ذلك:

١- صلاة الخوف: فقد ثبت صلاة المسلمين لها في (عُسفان) زمن الحديبية، بل جزم بعض أهل العلم - كابن القيم - أن أول صلاة للخوف كانت في (عُسفان).

[ينظر: زاد المعاد ٣/ ٢٥٢، مرويات غزوة الحديبية للحكمي ١٢٩-١٦٢].

٢ - الفدية: وشرعت في الحديبية (الفدية) لمن ارتكب شيئاً من محظورات الإحرام، كما في قصة كعب بن عجرة ؓ، وأنزل الله الرخصة له وللمسلمين من بعده في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، فَعِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكٌّ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وحديث كعب ؓ متفق عليه.

٣ - التحلل للمُحَصِّر: كما شرع فيها التحلل للمُحَصِّر، وأنه لا يلزمه القضاء.

٤ - الصلاة في الرحال في حال المطر: وفي الحديبية شرعت رخصة الصلاة في الرحال في حال المطر، عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ قَالَ: خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ، فَلَمَّا رَجَعْتُ اسْتَفْتَحْتُ، فَقَالَ أَبِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَبُو الْمَلِيحِ، قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَصَابَتْنا سَمَاءٌ لَمْ تَبُلْ أَسْفَلَ نِعَالِنَا، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ». [ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٣٦)]، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

٥ - قضاء الصلاة الفائتة: وفي الحديبية - وقيل تكرر في غيرها - شرع قضاء الصلاة الفائتة بالنوم أو النسيان عند ذكرها، فَعَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَكُلُونَا (يحرسنا، الكلاءة الحفظ والحراسة)»، فَقَالَ بِلَالٌ ؓ: أَنَا، فَتَأَمَّوْا حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ،

فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «افْعَلُوا كَمَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ»، قَالَ: فَفَعَلْنَا، قَالَ ﷺ: «فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ». [أبو داود في الصلاة (٤٤٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وهذه الحادثة فيها رخصة لمن اجتهد واحتاط للصلاة، ثم غلبه النوم، أو أدركه النسيان، وليس فيها حجة للكسالى والمفرطين والذين هم عن صلاتهم ساهون.

هذه بعض رخص الله للمسلمين في الحديبية، واستمرت من بعدهم، وهي سمة من سمات هذا الدين العظيم كما قال ربنا - تبارك وتعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]. [فقه الحديبية للعودة ٩-١٠].

### ١٥ - الأَمْرُ الْمُطْلَقُ عَلَى النَّصْرِ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الأَمْرَ الْمُطْلَقَ عَلَى النَّصْرِ وَإِلَّا لَمْ يَغْضَبْ لِتَأْخِيرِهِمُ الْإِمْتِثَالَ عَنْ وَقْتِ الأَمْرِ، وَقَدْ اعْتَدَرَ عَنْ تَأْخِيرِهِمُ الْإِمْتِثَالَ بِأَتَمِّهِمْ كَانُوا يَرْجُونَ النَّسْخَ، فَأَخْرَجُوا مُتَأَوِّلِينَ لِذَلِكَ، وَهَذَا الْإِعْتِدَارُ أَوَّلَى أَنْ يَنْتَدِرَ عَنْهُ، وَهُوَ بَاطِلٌ، فَإِنَّهُ ﷺ لَوْ فَهِمَ مِنْهُمْ ذَلِكَ لَمْ يَشْتَدَّ غَضَبُهُ لِتَأْخِيرِ أَمْرِهِ، وَيَقُولُ: «مَا لِي لَا أَغْضِبُ، وَأَنَا أَمْرٌ بِالْأَمْرِ فَلَا أَتَّبِعُ»، وَإِنَّمَا كَانَ تَأْخِيرُهُمْ مِنَ السَّعْيِ الْمَغْفُورِ لَا الْمَشْكُورِ، وَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَغَفَرَ لَهُمْ، وَأَوْجَبَ لَهُمُ الْجَنَّةَ». [زاد المعاد ٣/٣٠٧].

### ١٦ - مُشَارَكَةُ أُمَّتِهِ لَهُ ﷺ فِي الْأَحْكَامِ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْأَصْلَ مُشَارَكَةُ أُمَّتِهِ لَهُ فِي الْأَحْكَامِ، إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ؛ وَلِذَلِكَ قَالَتْ أُمَّ سَلَمَةَ: «أُخْرِجْ وَلَا تُكَلِّمْ أَحَدًا حَتَّى تَخْلُقَ رَأْسَكَ وَتَنْحَرِ هَذِيكَ»، وَعَلِمَتْ أَنَّ النَّاسَ سَيِّئَابِعُونَهُ. فَإِنْ قِيلَ فَكَيْفَ فَعَلُوا ذَلِكَ اقْتِدَاءً بِفِعْلِهِ، وَلَمْ يَمْتَثِلُوهُ حِينَ أَمَرَهُمْ بِهِ؟

قِيلَ: هَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الْإِمْتِثَالَ طَمَعًا فِي النَّسْخِ، فَلَمَّا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ عَلِمُوا حَيْثُ ذَلِكَ أَنَّهُ حُكْمٌ مُسْتَقَرٌّ غَيْرُ مَنْسُوخٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فَسَادُ هَذَا الظَّنِّ، وَلَكِنْ لَمَّا تَغَيَّظَ عَلَيْهِمْ، وَخَرَجَ وَلَمْ يَكَلِّمْهُمْ، وَأَرَاهُمْ أَنَّهُ بَادَرَ إِلَى امْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤَخَّرْ كَتَأْخِيرِهِمْ، وَأَنَّ اتِّبَاعَهُمْ لَهُ وَطَاعَتَهُمْ تُوجِبُ اقْتِدَاءَهُمْ بِهِ، بَادَرُوا حَيْثُ ذَلِكَ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ». [زاد المعاد ٣/٣٠٧-٣٠٨].

### ١٧ - المطلق يُجْرَى عَلَى إِطْلَاقِهِ:

يقول د/ فيض الله: «نذكر في هذا الصدد، تأييداً لهذه القاعدة الأصولية، وختماً لصلح الحديبية، ما رواه ابن هشام: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَّ بَعْضَ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ: أَلَمْ تَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَدْخُلُ مَكَّةَ آمِنًا؟ قَالَ: «بَلَى، أَقُلْتُ لَكُمْ مِنْ عَامِي هَذَا؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهُوَ كَمَا قَالَ لِي جَبْرِيلُ ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٧].

وفي هذا الأثر تبشير المؤمنين بفتح مكة، في المستقبل، وإيحاءً بالوحي الصادق إلى ذلك النصر المؤزر المحتّم - بإذن الله - وفيه تأديب ضمني لتعجل بعض المسلمين النصر، ولفت لهم إلى وجوب التسليم لأمره، بإطلاق، كلما ورد مطلقاً، دون تحمّله زياداتٍ وقيوداً، تصرفه عن إطلاقه».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٩٧].

## ١٨ - إذا عاهد الإمام قوماً فخرجت عليهم طائفة من المسلمين غير متحيزة إلى

الإمام، لم يجب على الإمام دفعها عنهم:

قال ابن القيم: «إِنَّ الْمُعَاهِدِينَ إِذَا عَاهَدُوا الْإِمَامَ، فَخَرَجَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، فَحَارَبَتْهُمْ، وَغَنِمَتْ أَمْوَالَهُمْ، وَلَمْ يَتَحَيَّزُوا إِلَى الْإِمَامِ، لَمْ يَجِبْ عَلَى الْإِمَامِ دَفْعُهُمْ عَنْهُمْ، وَمَنْعُهُمْ مِنْهُمْ، وَسَوَاءٌ دَخَلُوا فِي عَقْدِ الْإِمَامِ وَعَهْدِهِ وَدِينِهِ، أَوْ لَمْ يَدْخُلُوا، وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُنْ عَهْداً بَيْنَ أَبِي بَصِيرٍ وَأَصْحَابِهِ وَبَيْنَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَإِذَا كَانَ بَيْنَ بَعْضِ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ عَهْدٌ، جَازَ لِمَلِكٍ آخَرَ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغْزَوْهُمْ، وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ، كَمَا أَفْتَى بِهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي نَصَارَى مَلَطِيَّةَ وَسَبِيهِمْ، مُسْتَدِلًّا بِقِصَّةِ أَبِي بَصِيرٍ ﷺ مَعَ الْمُشْرِكِينَ».

[زاد المعاد ٣/٣٠٩].

## ١٩ - إذا رد الإمام إلى المعاهدين من جاء من قبلهم فأحدث جنائية فيهم، فليس

على الإمام ضمان:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث المسور ومروان أن أبا بصير ﷺ حين دفعه رسول الله ﷺ إلى رسول قريش، قتل واحداً منها، ولم يضمن النبي ﷺ ذلك، ولا ضمنه أبو بصير. ولذلك قال ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُعَاهِدِينَ إِذَا تَسَلَّمُوهُ وَتَمَكَّنُوا مِنْهُ فَقَتَلَ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَضْمَنْهُ بِدِيَّةٍ وَلَا قَوْدٍ، وَلَمْ يَضْمَنْهُ الْإِمَامُ، بَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ فِي ذَلِكَ حُكْمَ قَتْلِهِ لَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ، حَيْثُ لَا حُكْمَ لِلْإِمَامِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ أَبَا بَصِيرٍ ﷺ قَتَلَ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ الْمُعَاهِدَيْنِ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، وَهِيَ مِنْ حُكْمِ الْمَدِينَةِ، وَلَكِنْ كَانَ قَدْ تَسَلَّمُوهُ، وَفُصِّلَ عَنْ يَدِ الْإِمَامِ وَحُكِّمَهُ». [زاد المعاد ٣/٣٠٨].

قلت: هذه المسألة فيها قضيتان:

الأولى: ضمان الجاني.

الثانية: ضمان الإمام.

فبالنسبة للجاني يرى ابن القيم أنه لا ضمان عليه، ولم يذكر تعليلاً لذلك.

وأما السهيلي: فيرى ارتفاع الحرج عنه فقط، ويعلل ذلك بأمرين هما:



١- أن النبي ﷺ لم يثرب على أبي بصير بل مدحه حيث قال: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية «وَيْلُ أُمِّهِ مِحْشٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجَالٌ!».

٢- أنه دافع عن نفسه ودينه: قال: «ومن قتل دون دينه فهو شهيد» اهـ.

أما الضمان فإنه يلزمه عند السهيلي كما هو مفهوم كلامه حيث قال: «وإنما لم يطالبه رسول الله ﷺ بدية؛ لأن أولياء المقتول لم يطالبوه إما لأنهم قد أسلموا، وإما لأن الله شغلهم عن ذلك حتى انتكث العهد وجاء الفتح». [الروض الأنف ٦/ ٤٩٤].

قلت: بل طالب أولياء المشرك الذي قتله أبو بصير بدية صاحبهم.

قال ابن إسحاق: «فَلَمَّا بَلَغَ سَهْلٌ بْنُ عَمْرِو قَتْلَ أَبِي بَصِيرٍ صَاحِبِهِمُ الْعَامِرِيِّ أَشَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى الْكُعْبَةِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَؤَخِّرُ ظَهْرِي عَنِ الْكُعْبَةِ حَتَّى يُودِيَ هَذَا الرَّجُلُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا هُوَ السَّفِينُ، وَاللَّهِ لَا يُودَى (ثَلَاثًا)». [سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٤].

ونقله ابن حجر عن ابن إسحاق وفيه: فقال أبو سفيان: ليس على محمد مطالبة بذلك؛ لأنه وفي بما عليه وأسلمه لرسولكم، ولم يقتله بأمره ولا على آل أبي بصير شيء أيضًا؛ لأنه ليس على دينهم.

[فتح الباري ٥/ ٣٥١].

فالتحقيق: أنه لا ضمان على القاتل في هذه الحالة بدية، ولا قود؛ لأنهم أهل حرب بالنسبة له لا أهل عهد وذمة.

قال ابن حجر: ولا يعد ما وقع من أبي بصير غدرًا لأنه لم يكن في جملة من دخل في المعاهدة التي بين النبي ﷺ وبين قريش؛ لأنه إذ ذاك كان محبوسًا بمكة. [فتح الباري ٥/ ٣٥١].  
والقضية الثانية من المسألة:

هل على الإمام ضمان في مثل ما فعل أبو بصير؟

ذكر ابن القيم أنه لا ضمان عليه وعلل ذلك: بأنه سلمه لهم ولم يعد تحت يده وحكمه.

وظاهر كلام السهيلي أيضًا أنه لا ضمان على الإمام. [الروض الأنف ٦/ ٤٩٤].

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٣١-٥٣٣].

## ٢٠- يَسْعُ الْفَرْدَ مَا لَا يَسْعُ الْجَمَاعَةُ:

يقول د/ العمري: «وقصة أبي جندل وأبي بصير <sup>هبط</sup> وما احتملاه في سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد حتى مرَّ غوا رؤوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشتراطه عليهم في الحديبية.

هذه القصة نموذج يُقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها، وفيها ما يشير إلى مبدأ (قد يسهل الفرد ما لا يسهل الجماعة)، فقد ألحق أبو بصير عليه السلام وجماعته الضرر بالمشركون في وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاء بالصلح، لكن أبا بصير عليه السلام وأصحابه خارج سلطة الدولة - ولو في الظاهر - ولم يكن ما قام به أبو بصير عليه السلام والمستضعفون بمكة مجرد اجتهد فردي لم يحظ بإقرار الرسول ﷺ ورضاه، بل كان بوسع الرسول ﷺ أن يأمر أبا بصير عليه السلام بالكف عن قوافل المشركين ابتداءً، أو بالعودة إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث فكان إقراراً له، إذ كان موقف أبي بصير عليه السلام وأصحابه في غاية الحكمة حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنهم عن دينهم ويمنعونهم من اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفاً فيه خلاصهم وإسناد دولتهم بأعمال تُضعف اقتصاد مكة وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح.

بل يمكن القول بأن اتخاذ هذا الموقف كان بإشارة وتشجيع من النبي ﷺ حين وصف أبا بصير عليه السلام بأنه: «مُسْعَرٌّ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ!!». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٤٥٢/٢].

## ٢١ - امتحان النساء المسلمات المهاجرات من مجتمع مشرك:

يقول عميد/ فرج: «لم يكن بمكة رجال مسلمون فقط حبستهم قريش، ولكن كانت بها أيضاً نساء مسلمات، وكن يصبرن على ما هن فيه انتظاراً للحظة يخرجن فيها إلى حيث رسول الله ﷺ، فيجدن في رفقته أماناً، ويقمن بجواره شعائر الدين دون خوف أو رهبة.

وكانت أول المهاجرات أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت قد أسلمت وبقيت في مكة، فلما لاحت لها فرصة الخروج انطلقت بصحبة رجل من خزاعة حتى قدمت المدينة، ودخلت على أم سلمة، وهى تخشى أن يردها رسول الله ﷺ إعمالاً بشروط الصلح، وخرج وراءها أخوها عمارة والوليد يطلبان ردها، وقالوا لرسول الله ﷺ: (يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه).

ورفض رسول الله ﷺ وأبى أن يرد النساء المهاجرات لأن العهد لم يشملهن.

وقال الحافظ ابن كثير إن نسوة مؤمنات جئن إلى رسول الله ﷺ فلم يردهن ونزل قول الله تبارك وتعالى في أمرهن في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وفي هذه الآية الكريمة بيان لحكم من جاء من مجتمع المشركين من النساء مؤمنات مهاجرات، فهذا الحكم يقضي بأن يمتحن المؤمنون هؤلاء المؤمنات في إيمانهن، حتى يتبين لهم صدق إيمانهن، وإنهن قد هاجرن فراراً بدينهن من أن يفتن فيهن، لا فراراً من زوج، ولا رغبة في زواج، ولا طمعاً في مأرب من

مأرب الحياة، فإذا تبين أنهم على الإيمان كان لزاماً على المؤمنين أن يؤوهم إليهم وأن يمسكوا بهم في مجتمع المؤمنين وألا يرجعوهن الكفار.

وتنفيذاً لهذا الحكم الإلهي فإن رسول الله ﷺ كان يدعو المرأة المسلمة المهاجرة من مكة ويستحلفها - وكان عمر ﷺ يقوم بهذا المهمة - بالله أنها ما خرجت رغبة في أرض عن أرض، وما خرجت من بغض زوج، وما خرجت لالتباس دنيا أو لرجل من المسلمين، وما خرجت إلا حباً لله ورسوله، فإذا حلفت المرأة لا ترد، ويُرد صداقها إلى زوجها إن كان لها زوج.

كانت سبيعة بنت الحارث إحداهن وحلفت لرسول الله ﷺ، فلما جاء زوجها مسافر المخزومي مطالباً بها رفض رسول الله، وأعطى زوجها ما أنفق عليها وتزوجها عمر ﷺ. أما أم كلثوم بنت عقبة فلم يكن لها زوج وتزوجها زيد بن حارثة ﷺ.

[العقبية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٤١-٣٤٢].

ويقول د/ فيض الله: «هاجرت إلى المدينة بعد الحديبية أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ﷺ، فتبعها أخوها، وسألا رسول الله ﷺ أن يردها تنفيذاً للعهد، فلم يفعل، إذ نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهُنَّ جَرَتْ فَأَمْسِكُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ لَهُنَّ جُلُوهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآثُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ [المتحة: ١٠]، ولو حظ في هذا الاستثناء الشرعي:

١ - أن الظاهر في العهد المذكور تخصيصه بالرجال.

٢ - أنه يخشى من أن تتعرض المرأة المسلمة إذا ردت إلى الكفار، أن تتعرض للعسف والتعذيب وشرو لا قبل لها، ولا صبر لها عليها.

٣ - أنها لا تستطيع أن تقلت من يدي الكفار، وتتقلب في الأرض، وتتفرد بالكيد والمواجهة، كما فعل أبو بصير ﷺ وغيره.

٤ - أن الغرض من العهد تقييد حرية المؤمنين، وكسرهم عن مناوأة قريش والتصدي لها، وما كانت المرأة بسبب من ذلك - على وجه الاستقلال.

٥ - أن المرأة إذا أسلمت لا تحل لزوجها المشرك، ويجب التفريق بينهما، كما نطقت بذلك آية المتحة المذكورة: وعلى المسلمين - وهذا من فيض ساحة الإسلام - أن يردوا على الزوج المشرك صداقاً يستعين به على زواج آخر، إن بقي بعدها على شركه. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٩٦-٢٩٧].

٢٢ - بيان أن امتناع النبي ﷺ عن رد المهاجرات ليس إخلالاً بالصلح:

يقول د/ الحكمي: «ورد في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق عقيل أن النبي ﷺ امتنع عن رد المهاجرات في الهدنة إلى قريش.

وقد جاء في هذا الحديث أن النبي ﷺ امتنع عن رد النساء اللاتي هاجرن إلى المدينة أثناء الهدنة، فهل يعد هذا الفعل نقضاً للعهد أم لا؟

الواقع أنه ليس في امتناعه ﷺ عن رد المهاجرات خروجاً عن المعاهدة للآتي:

(أ) إما لأنهن غير داخلات في العهد أصلاً فقد ورد في حديث المسور ومروان من طريق معمر ما نصه: «فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا...»، فقد نص هنا على الرجال دون النساء.

وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حيان: «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: رد علينا من هاجر من نساتنا، فإن شَرَطْنَا أن من أتاك منا أن ترده علينا، فقال: «كان الشرط في الرجال، ولم يكن في النساء». ذكر هذا الأثر ابن حجر ثم عقب عليه بقوله: وهذا لو ثبت كان قاطعاً للنزاع. [فتح الباري ٩/٤١٩].

(ب) وإما أن يكون العهد قد شملهن ثم نسخته في حقهن آية الامتحان وخصته بالرجال، فقد جاء في حديث المسور ومروان من طريق عقيل ما نصه: «فَكَانَتْ أُمُّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ عَاتِقٌ (الجارية أول ما أدركت، أو التي لم تتزوج، أو التي بين الإدراك والتغليس)، فَجَاءَ أَهْلُهَا يُسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُؤْمِنَاتِ مَا أَنْزَلَ.

[البخاري في المغازي (٤١٨٠، ٤١٨١)].

وزاد في رواية: فَجَاءَ أَهْلُهَا يُسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ، لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠]. [البخاري في الشروط (٢٧١٣)، وفي تفسير القرآن (٤٨٩١)].

وقد أشار أيضاً إلى نسخ المعاهدة في حق النساء حديث عبد الله بن أبي أحمد قال: هَاجَرَتْ أُمُّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فِي الْهُدْنَةِ، فَخَرَجَ أَخَوَاهَا عِمَارَةُ وَالْوَلِيدُ ابْنَا عُقْبَةَ حَتَّى قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَلَّمَاهُ فِي أُمِّ كَلْثُومٍ أَنْ يَرْدَهَا إِلَيْهِمَا، فَتَقَضَّى اللَّهُ الْعَهْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، خَاصَّةً فِي النِّسَاءِ، وَمَنْعَهُنَّ أَنْ يُرَدَّنَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ آيَةَ الْإِمْتِحَانِ.

[مجمع الزوائد ٧/٢٦٣ رقم ١١٤١٣، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف، ومعرفة الصحابة رحمه الله لأبي نعيم ٣/١٥٩١ رقم ٤٠١١، والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم ١/٤٣٣ رقم ٦٠٩].

وأورده ابن كثير، وكذلك ابن حجر، وعزواه لابن أبي عاصم. [تفسير ابن كثير ٤/٣٥٠، الإصابة ٧/٢٠٠].

وذكره السيوطي وقال: أخرجه الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف. [الدر المنثور ٦/٢٠٦].

قلت: نعم الحديث بهذا الإسناد ضعيف جداً؛ لأن فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك، وشيخ ابن أبي عاصم «الباهلي» لم أجد ترجمته.

وأخرجه عمر بن شبة من حديث أم كلثوم مطوَّلاً.

قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى أَبُو غَسَّانَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عِمْرَانَ، عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ يَعْقُوبَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ السَّائِبِ بْنِ أَبِي لُبَابَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ كُلْثُومَ بِنْتُ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ: أُنْزِلَ فِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ هَاجَرَ فِي الْهُدْنَةِ حِينَ صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا عَلَى أَنَّهُ مَنْ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعِيرٍ إِذْنٌ وَلِيَّهِ رَدُّهُ إِلَيْهِ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ قَدِمَ عَلَيَّ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ، قَالَتْ: فَفَسَخَ اللَّهُ الْعَقْدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَأْنِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْ هُنَا فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنُ جُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠]، قَالَتْ: ثُمَّ أَتَنَكَّحَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ نَكَحَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَوَّجْتَ بِنْتَ عَمِّكَ مَوْلَاكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ لِقِضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... الحديث. [تاريخ المدينة لابن شبة ٤٩٢/٢ - ٤٩٣].

وهذا الإسناد أيضاً ضعيف؛ لأن فيه عبد العزيز بن عمران، لكن أصل الحديث ثابت في صحيح البخاري من حديث المسور ومروان من طريق عقيل بن خالد الأيلي. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٣٣٧-٣٤٥، وينظر للتفصيل: صلح الحديبية وأثره في تسليم المطولين للصبيحي ١٥٢-١٥٦].

## ٢٣ - خُرُوجُ الْبُضْعِ مِنْ مِلْكِ الزَّوْجِ مُتَقَوِّمٌ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ خُرُوجَ الْبُضْعِ مِنْ مِلْكِ الزَّوْجِ مُتَقَوِّمٌ، وَلِذَلِكَ أَوْجَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ رَدَّ الْمَهْرِ عَلَى مَنْ هَاجَرَ امْرَأَتَهُ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَعَلَى مَنْ أَزْدَلَّتْ امْرَأَتُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَحَقَّ الْكُفَّارَ عَلَيْهِمْ رَدُّ مَهْوَرٍ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ حُكْمُهُ الَّذِي حَكَمَ بِهِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَخْهُ شَيْءٌ، وَفِي إِجَابِهِ رَدُّ مَا أُعْطِيَ الْأَزْوَاجُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَقَوُّمِهِ بِالْمُسْمَى، لَا بِمَهْرٍ الْمَثَلِ». [زاد المعاد ٣/٣٠٨].

## ٢٤ - بيان حكم زواج المسلمة بالمشرِك والمسلم بالمشرِكة:

يقول الشيخ أبو زهرة: «بعد صلح الحديبية جاء نسوة إلى النبي ﷺ مؤمنات مهاجرات، ولم يردهن النبي ﷺ؛ لأنهن لم يشملهن العهد، الذي يوجب رد من ينجي مسلماً من غير ولي أمره، وفي هذا جاء النص الذي يحرم بقاء المسلمة في عصمة كافر سواء أكان كتابياً أم كان من المشركين، ولذا قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْ هُنَا فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنُ جُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تَنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ

وَلَيْسَ لَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ مَاءٌ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَفَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ بِمِثْلِ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا الَّذِينَ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [الممتحنة].

وقد قال الحافظ ابن كثير: جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بَعْضَ الْكَافِرِ﴾.

فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ المدينة المنورة.

قال ذلك ابن كثير في سرد ما كان في الحديبية؛ ولذلك قلنا إن تحريم زواج المسلمة بغير المسلم، وزواج المسلم بالمشركة جاء في الحديبية بعد إمضاء الصلح. وهذه الآية تدل على ثلاثة أمور:

أولها: أن المسلمة لا تجوز للكافر سواء أكان كتابياً أم كان مشركاً، والكتابي كافر لا كتاباً أو همت كتابة المحدثين ممن لا يمحسون الحقائق، ويقولون ما يقولون مجاملة، أو موادة للنصارى الذين لا يوادون المسلمين، فالنصراني كافر بمحمد ﷺ وبما نزل على محمد ﷺ، وبالوحدانية، واليهودي كافر بالقرآن الكريم وبمحمد ﷺ، ووصف الله في القرآن الكريم اليهود والنصارى بأوصاف الكفر فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال الله ﷻ: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ [البينة].

والذين يميزون زواج المسلمة بغير المسلم قد خرجوا عن إطار الإسلام؛ لأنهم أنكروا القرآن الكريم وأنكروا أمراً معروفاً من الدين بالضرورة، وأجمع عليه المسلمون.

وتدل ثانياً: على أن المسلم لا يجوز أن يتزوج مشركة، ومن كان عنده مشركة فليفارقه، وقد فهم ذلك الإمام عمر رضي الله عنه ففارق امرأتين كانتا تحته.

وهما مشركان، وأخذ ذلك من النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بَعْضَ الْكَافِرِ﴾.

أي لا تتمسكوا بزواج الكافرين إن كان بينكم وبينهن زواج؛ لأن الكوافر جمع كافرة، لا جمع كافر، إذ لا يجمع وصف العاقل الذي يكون على وزن فاعل على فواعل، ولكن تجمع فاعلة على فواعل، كفاطمة وفواطم، وقافلة وقوافل، وأريد المشركات؛ لأنه الذي يتفق مع إباحة الكتابيات بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وتدل ثالثاً: على أن العدالة توجب عند فسخ الزواج بهذا الحكم الشرعي، أن يرد إلى الأزواج المشركين ما أنفقوا على أزواجهم اللائي انفسخ زواجهن بالإسلام، فيرد إليهم الصداق؛ لأن الفسخ كان بحكم الإسلام يُعد من قبل الزوجة.

وفي مقابل ذلك من يفسخ زواجها من المشركات بحكم إسلام أزواجهم عليهم أن يردوا إلى المؤمنين ما أنفقوا من أموال، في هذه الزيجة؛ وذلك لأن امتناعهن عن الدخول في الإسلام، وقد دخل الزوج في الإسلام يعد تفويتاً لحقه فوجب التعويض عما أنفق؛ لأن سبب الفقرة من جانبها.

وإن المسلمين يستجيبون لحكم الإسلام، فيردون ما وجب من إعطاء ما أنفق هؤلاء؛ لأنه مما يؤدي إليه عقد المسالمة وما تؤدي إليه العدالة التي هي خاصة الإسلام مع العدو والولي على سواء لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة].

ولكن لا يضمن أهل الإيذان أن يؤدي المشركون ما يجب عليهم إذا انفسخ الزواج بين المشركة والمسلم؛ ولذلك فرض القرآن الكريم أنهم لا يدفعون، والحكم في هذه الحال أن يؤخذ مما يجب إعطاؤه للمشركين مما أنفقوا، ويسدد للمؤمنين الذين استحقوا ما أنفقوا، ولم يؤد عليهم حتهم.

ويفهم من أن بيت مال المؤمنين هو الذي يؤدي ما أنفق المشركون في الزيجة التي فسخت بحكم إسلام الزوج؛ لأن ذلك تنفيذ لحكم شرعي عام، ولأنه ما يوجه روح العهد الذي في الحديبية.

وإن المشركين يجب عليهم مجتمعين أن يؤدوا للمؤمنين ما أنفقوا في الزواج الذي فُسخ للإصرار على الشرك، فإذا لم يؤد أخذ حق المؤمن من مجموع ما كان يجب على المؤمنين، هذا تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاَتَاَ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [المتحنة: ١١].

وقد أخذنا المعنى في تفسير هذه الآية من تفسير الحافظ ابن كثير لهذه الآيات.

وإن هذا الحكم يفيد بطريق الإشارة إلى أن سبب التفريق إن كان من جانب الزوجة يجب عليها أن ترد ما أنفق الزوج بالمعروف، وتقدير المعروف للقاضي، كما كان تقدير ذلك في عصر النبي ﷺ لأمر المؤمنين، وبمقتضى تلك الإشارة: إذا أسلم زوج من لا دين لها، ولم ترض الدخول في دين كتابي أو الإسلام، فإنه يجب عليها أن ترد ما أنفق زوجها أو ما خسر بسبب امتناعها عن الدخول في دين سماوي.

### تنبيهات:

الأول: أن هذه الأحكام الفقهية أُخذت من نص الآية، وتفسيرها الذي يعد من التفسير بالآثار وهو تفسير الحافظ ابن كثير، ولم نرجع إلى كتب الفقه التي اختلفت فيها، ولا نقول إن هذه الأحكام منسوخة، فإننا لا نعلم لها ناسخاً ولأننا نقول إن القرآن الكريم ليس فيه منسوخ وخصوصاً في الأحكام الفقهية.

الثاني: أن أكثر المحدثين ذكر أن هذه الآيات نزلت والنبي ﷺ لم يغادر الحديبية، فقد قال أبو ثور: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم،

فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية، وأمره ﷺ أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين إذا جاءتهم امرأة من المسلمين (أي كانت تحت مسلم) وبقيت على شركها أن يردوا الصداق إلى أزواجهن». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٥٤-٨٥٧].

ويقول د/ العيساوي: «عند عرضنا لأحداث غزوة الحديبية، وبعد كتابة الصلح بين المسلمين وقريش جاء نسوة إلى النبي ﷺ مهاجرات، وفيهن نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهْجَرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ عَلِمْتُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ جِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآثُهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [المتحنة].

فلم يردهن النبي ﷺ بعد طلب أوليائهن لهن بحجة أن العقد لم يشملهن، بل شمل الرجال فقط، وبعد نزول هذا النص القرآني فارق عمر ﷺ امرأتين له كانتا في المشرك. [فتح الباري ٨/ ١٩٠].  
ومن هذه الآية الكريمة وسبب نزولها نستطيع أن نستنبط الأحكام التالية:

الأول: عدم زواج المسلمة بالمشرك أو الكافر، وأن المرأة إذا أسلمت وقعت الفُرقة بينها وبين زوجها لا هي تحل ولا هو يحل لها، قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، وهذا الحكم أجمع عليه العلماء. [الإجماع لابن المنذر، والمغني ٦/ ٤٧٣، والمحلى ٧/ ٣١٢، وتفسير القرطبي ٨/ ٦٣].

الثاني: عدم جواز زواج المسلم بالمشركة أو الكافرة، دل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ والكوافر جمع كافرة<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١].  
وقد فهم ذلك سيدنا عمر ﷺ ففارق زوجته، وفارق سيدنا طلحة ﷺ زوجة له كانت على الشرك أيضاً، وهذا الحكم أجمع عليه العلماء؛ لوجود النص القطعي الدال عليه، وقد جاء في بداية المجتهد: واتفقوا على أنه لا يجوز للمسلم أن ينكح الوثنية. [بداية المجتهد ٢/ ٤٤، وينظر: المغني ٦/ ٤٧٢، وروائع البيان ٢/ ٥٦٤].

الثالث: إن العدالة الإسلامية توجب عند فسخ الزواج أن يرد إلى الأزواج المشركين ما أنفقوا على أزواجهن اللاتي انفسخ زواجهن بإسلامهن فيرد إليهم الصداق؛ لأن الفراق كان بحكم الإسلام يعد من قبل الزوجة ﴿وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا﴾، وفي مقابل ذلك فإن من ينفسخ زواجها من المشركات بحكم إسلام زوجها عليهم أن يردوا إلى المؤمنين ما أنفقوا من أموال؛ وذلك لأن سبب الفُرقة من جانبها بأبائها الإسلام ﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾، فإن أبى المشركون دفع ما أنفق الزوج الذي أسلم، فالحكم في هذه الحالة أن

(١) يقول الشيخ أبو زهرة: الكوافرة جمع كافرة، إذا لا يجمع وصف العاقل الذي يكون على وزن فاعل على فواعل ولكن تجمع فاعلة على فواعل كفاطمة فواطم وقافلة قوافل. ينظر: خاتم النبيين ﷺ ٢/ ١٠٨٦.



يؤخذ مما يجب إعطاؤه للمشرّكين مما أنفقوا ويسدد للمؤمنين الذين استحقوا ما أنفقوا ولم يؤدي إليهم حقهم [ينظر: تفسير ابن كثير ٣/٤، وزاد المعاد ٣/٣٠٨، وخاتم النبیین ٢/١٠١٦ - ١٠١٧]، قال الله تعالى:

﴿وَأَن تَكُونُوا مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [المتحنة: ١١].

قال مجاهد: ما ذهب من أزواج أصحاب محمد ﷺ إلى الكفار فليعطهم الكفار صدقاتهن ولیمسكوهن، وما ذهب من أزواج الكفار إلى أصحاب محمد كمثل ذلك. [الدر المنثور ٨/١٣٣].

وقال الزهري: لما جاء النساء أمره الله أن يرد الصداق إلى أزواجهن وحكم على المشرّكين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، فأما المؤمنون فأقروا بحكم الله، وأما المشرّكون فأبوا أن يقرّوا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَن تَكُونُوا مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [المتحنة: ١١]، فأمر المؤمنين إذا ذهب امرأة من المسلمين ولها زوج من المسلمين أن يرد إليه المسلمون صداق امرأته مما أمروا أن يردوا على المشرّكين [الدر المنثور ٨/١٣٦].

[فقه الغزوات للعباسي ٣٦٧-٣٦٩].

## المبحث الرابع الدروس السياسية

### ١ - امتلاك القائد القدرة على الحرب والسلام:

يقول الشيخ حوى: «ومن أعظم دروس الحديبية أن على القائد أن يمتلك القدرة على الحرب والسلام، وكثيرًا ما يحدث أن القائد يستطيع السيطرة في الحرب، فإذا ما أراد السلام ظهرت أمامه عقبات، فالتحمسون، والمتشددون، وبالنسبة لغير الصحابة المزايدون، وههنا تحدث أزمات ومأس. إن علينا أن ندرك أنه ليس الهدف هو الحرب أو السلم، إنما الهدف أن يتقدم هذا الدين، فحيثما رأت القيادات الرشيدة والشورى المبصرة أن المصلحة في شيء فههنا محط الرّحال، ولا يصلح أحد للقيادة إذا لم يكن قادرًا على قرارَي السلم والحرب بأن واحد، ولقد كان رسول الله ﷺ هو النموذج الأرقى في هذا وفي غيره». [الأساس في السنة - السيرة - لحوى ٢/ ٧٨٩].

### ٢ - تقرير مبدأ التفاوض:

يتولى د/ الفيتوري: «لا ريب أن عملية التفاوض في حد ذاتها تعتبر مكونًا من مكونات الفطرة الإنسانية التي يصعب على الإنسان - مهما كان شكله وظرفه - إلغاؤها وإسقاطها من حساباته ما دام يعيش مع بني الإنسان على وجه هذه البسيطة، وذلك على جميع الأصعدة والمستويات، الفردية والجماعية، الإقليمية، والدولية، وعلى الأطر الحياتية كافة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية، ونحوها. مما لا شك فيه أن عملية التفاوض والمفاوضات لا غنى لأي إنسان عنها بحال من الأحوال؛ لأنها من العلوم الفطرية التعايشية الإنسانية التفاهمية التي تنأى بصاحبها عن اللجوء إلى استخدام أساليب التحكم، والفضاء، والعنف في محاولة التفاهم والتعايش الإنساني.

لذلك ترى من سياسة النبي ﷺ الواضحة في الحديبية محاولة فتح قنوات شعبية ورسمية؛ لطرح قضية التفاوض والتفاهم مع قريش الجاهلية بدلًا من قضية المعركة التي لا يعلم مداها إلا الله ﷻ. وبعد أن تمت عملية إسقاط هذه المعاني السياسية في داخل صف القيادة المكية - كما مر معنا في متن النص - قام عروة بن مسعود الثقفي بطرح قضية التفاوض مع الرسول ﷺ بشدة؛ لما رآه من صدق لهجة النبي ﷺ في رغبته لحل الأزمة السياسية القائمة بطريقة التفاوض والتفاهم، على الرغم من إصرار القيادة المكية على إدخال العرب كافة في حرب دامية تآكل الأخضر واليابس من الآباء والأبناء، وأبناء العمومة والأخوال، لمجرد حمية جاهلية ليست لها مسكة من عقل ولا حكمة!!

فقال عروة لقريش: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! تَتَهْمُونَنِي؟ أَلَسْتُمُ الْوَالِدَ وَأَنَا الْوَلَدُ؟ وَقَدْ اسْتَفْرَتْ أَهْلَ عُكَاظٍ لِنَصْرِكُمْ، فَلَسْنَا بِلُحُوءٍ (أي امتنعوا من الإجابة) عَلَيَّ نَفَرْتُ إِلَيْكُمْ بِنَفْسِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي، فَقَالُوا: قَدْ

فَعَلْتُ، فَقَالَ: وَإِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ، شَفِيعٌ عَلَيْكُمْ، لَا أَدْخِرُ عَنْكُمْ نُصْحًا، وَإِنِّ بُدْيَا قَدْ جَاءَكُمْ بِخُطَّةٍ رُشِدٍ (يعني العرض النبوي) لَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا أَخَذَ شَرًّا مِنْهَا، فَأَقْبَلُوهَا مِنْهُ، وَأَبْعَثُونِي حَتَّى آتِيَكُمْ بِمِصْدَاقِهَا (يعني الخطة التي عرضها النبي ﷺ على قريش) مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنْظُرْ إِلَى مَنْ مَعَهُ وَأَكُونَ لَكُمْ عَيْنًا آتِيَكُمْ بِخَبَرِهِ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٤].

فلما سمعت القيادة المكية خطاب عروة بن مسعود في جلسة المداولة داخل القبة السياسية، وأحسّت بأنه صادق في خطابه، وأن الأمر جد خطير، وأن شبح الحرب المدمرة قائم، قامت مباشرة بتعيينه رئيسًا لوفد سياسي يقوم بعملية التفاوض مع قيادة الدولة الإسلامية لاختيار أفضل الطرق السلمية، التفاهمية بين الطرفين، وفض هذه المعضلة السياسية!!

وبتلك الخطوات السياسية الإستراتيجية تمت مراحل الإعداد لعملية التفاوض من حيث تحديد الموضوع قيد التفاوض، واختيار الوفد المشارك في العملية التفاوضية، وجمع معلومات حول نيات الطرف الآخر، ووضع البدائل المقترحة للعملية.

إلا أن القيادة المكية لم تكن تحسن اختيار الوفد المشارك لهذه العملية الخطيرة التي إن فشلت فسوف تجر المنطقة إلى أكبر كارثة إنسانية عرفها تاريخ الإنسانية وقتئذ.

وذلك أن اختيارها عروة بن مسعود كمفاوض سياسي لم يكن اختيارًا خاضعًا للقوانين والتقاليد السياسية السائدة، وإنما للحمية والتصرف الطائش، فقد كانت أساليب رئيس الوفد القرشي المشارك في التفاوض أساليب عنجهية أكثر منها تفاوضية تفاهمية حضارية، حيث صدر منه أشياء لا تليق بالمفاوض الرسمي في ساعات الحرب، كاستخدامه الحرب النفسية السافرة، وعدم اعتباره الطرف الآخر شريكًا في المفاوضات!!

ومن تلك الأساليب إشادته بقوة قريش العسكرية، ورباطة جأشها في العمليات القتالية، فقال: «إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَيْسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنُوءٌ أَبَدًا»!!

ثم عرج بعد هذه الإشادة إلى تدمير القوة الإسلامية والخط منها عدة وعتادًا، فقال: «وَأَيْمُ اللَّهِ لَكَأَنِّي بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ غَدًا، فَلِإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيفًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ»!!

وبذلك يُسقط عروة بن مسعود نفسه من دائرة المفاوضين المحترفين الناجحين؛ لأن المفاوض المحترف الماهر هو الذي يبني إستراتيجيته على أرضية مشتركة بين الطرفين، ويستفيد من روح التعاون المتبادلة لمناقشة القضايا والمواقف المتنافرة، ومحاولة إقامة جسور وعلاقات طيبة بين الطرفين، ولكن كل

ذلك لم يعتبره مفاوض قريش لقصر نظره، وقلة حكمته، وطيش عقله، وحقاقة سلوكه، وعدم أهليته، وحميته الجاهلي، ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

ولكن القيادة القرشية أحست بهذه الإخفاقات التفاوضية من جانبها، فأرسلت بمن هو أكثر من عروة بن مسعود استدراكاً للموقف وتلافياً للصدمة السياسية المرتقبة، فقد أرسلت وفداً آخر برئاسة مكرز بن حفص للقضية نفسها!!! فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً عليه، قال: هذا رجل غادر!!

ولكن النبي ﷺ بأخلاقه الرفيعة، وآدابه الدمثة، وسياسته الحكيمة الرصينة استقبل هذا الفاجر كمفاوض رسمي للدولة المكية، وبالفعل أجرى مكرز مع النبي ﷺ محادثات حول التفاهم بشرط أن يعود النبي ﷺ وأصحابه ~~من حيث أتوا~~ من حيث أتوا، ومن دون شرط ولا قيد، لا سابق ولا لاحق!!

ولا ريب أن هذه السياسة التفاوضية المكية، سياسة إلغاء الآخرين، والوصايا على الدين الإبراهيمي، والحرم المكي، سياسة فاشلة جملة وتفصيلاً؛ لأن حقيقة التفاوض كما قيل: شارع ذو اتجاهين، لا يستطيع أن يحقق كل أهدافه من دون اعتبار لمصالح الطرف الآخر، ولكن السياسة الطاغوتية — ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد — أينما كانت وحلت لا ترضى إلا بإلغاء الآخرين!!

وعندما اطلعت القيادة القرشية في مكة على النتائج التي وصل إليها الوفد المفاوض بقيادة مكرز، إذ أنها وصلت إلى طريق مسدود، حاولت أن تستدرك الأمر من قبل أن يستفحل ولا يمكن الرجوع عنه، ومخافة أن يحدث جيوباً وتكتلات سياسية مناهضة لسياستها التعسفية داخل السيادة القرشية، أرسلت مباشرة إلى سيد الأحابيش الحليس بن زبان حليفها القوي عدة، وعتاداً، ومكانة، للقيام بدور الوسيط والمفاوض الخفيف بينها وبين دولة الإسلام.

وكان الحليس ذا عقل رزين، ونظر بعيد، وتجربة كبيرة، وكان على معرفة بشخص النبي ﷺ أيام مكة، وكان يحترمه، وكان من الذين يعظمون شعائر الحرم.

«فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ (يتعبدون ويُعظمون أمر الإله)، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسْبُلُ عَلَيْهِ مِنْ غُرْضٍ (جانبه) الْوَادِي فِي فَلَاثِدِهِ (ما يعلق في أعناق الهدي ليعلم أنه هدي)، وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ (موضعه الذي ينحر فيه من الحرم)، رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لَمَّا رَأَى... صَاح: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، أَيْ اللَّهُ أَنْ يَحْجَّ لَحْمٌ وَجُدَامٌ وَمَهْدٌ وَجَمِيرٌ وَيُمْنَعُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

ثم شدد نكيره على قريش قائلاً: هَلَكْتُ قُرَيْشٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، إِنَّمَا الْقَوْمُ (يعني المسلمين) أَتَوْا عَمَارًا، أَيْ: مُعْتَمِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلْ يَا أَخَا بَنِي كِنَانَةَ».

وبهذه السياسة التفاوضية النبوية برزت أولى فوائد التفاوض السياسي، وهي: زرع بذور الشقاق والتشرذم داخل صف العدو، وإجباره على تقديم تنازلات كبيرة تضره ضرراً بالغاً، أو تغيير من مواقفه، أو تجبره على الإذعان لمطالب معينة تصب في صالح الإستراتيجية الإسلامية، وهذه السياسة التفاوضية تسمى في عصرنا الحاضر بمبادئ (فَرَّقْ تَسُدْ)، و(الحمايم والصقور)!!

حيث أصبح المعسكر القرشي معسكرين، معسكر الحمايم بقيادة الحليس، عروة بن مسعود وغيرهم من الذين يرون عدم صد القيادة الإسلامية عن الدخول إلى المسجد الحرام هذا العام، ومعسكر الصقور بقيادة أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم من الذين يرون وجوب منع القيادة الإسلامية من الدخول إلى المسجد الحرام وذلك إلى الأبد!!

وبتلك السياسة التفاوضية استطاعت القيادة الإسلامية الحد من تأييد القبائل العربية لمواقف القيادة القرشية الظلومة الجهولة، والسعي الحثيث للفت في عضد تحالفها، وإحباطه والتشكيك فيه، وحمله على فقد الثقة في نفسه، وبالتالي الحد من مقدرته في المشاركة الإيجابية، وسحب البساط من تحت أرجل القيادة القرشية، وزعزعة الثقة فيها، والتقليل من شأنها!!

وبهذه الإستراتيجية التفاوضية النبوية وضع قائد الدولة الإسلامية ﷺ القيادة الجاهلية في موضع لا تُحسد عليه، خاصة أن رؤساءها متقلبي المزاج والرأي، غير متفقين على سياسة موحدة حيال الدولة الإسلامية، وفي ذلك إشارة واضحة لكيفية الاستفادة من هذه الأجواء التزعزعية يستفادها أبناء المشروع الحضاري لاستخدامها لخير الدنيا والآخرة.

فلما أحست القيادة القرشية بدوي هذه القنبلة التفاوضية داخل معسكرها!! أسرع إلى إرسال آخر ورقة تفاوضية في جعبتها السياسية، وهي انتداب سهيل بن عمرو رجل الوقت والمرحلة لهذه المهمة الصعبة لإخراجها من هذه المعضلة المصيرية التي لم تنته لصالح سياستها، بل إن الأمر ازداد تعقيداً وإشكالاً، وإن أقل القليل أن يقوم سهيل بمحاولة حفظ ماء وجه القيادة القرشية أمام عرب الجاهلية قاطبة. فعندما ظفرت بموافقة سهيل بن عمرو الرجل الحليم، صاحب التجارب السياسية، والرأي الراجح، رجل المواقف، توجه عندئذ - سهيل بن عمرو - والوفد المرافق له إلى الحديبية منطقة التفاوض المقترحة بين الطرفين، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: «لَقَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»، «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ».

وفي ذلك تنبيه مهم لضرورة الاعتناء بقراءة البعد الإنساني (الوفد المشارك)، والبعد الزماني والمكاني (التوقيت والمكان)، والبعد السلوكي (العادات والتقاليد السائدة)، قبل الخوض في غمار التفاوض، والتفاهم، والتحاور والتعاون، والأخذ والعطاء، خاصة في أمور السياسة.

وفي هذا الجو المناسب للتفاوض بين الاستبشار بالاسم، والقبول النفسي، والقراءة السياسية الحصيفة لتلك الأبعاد الثلاثة (الوفد، التوقيت، المكان، العادات والتقاليد السائدة) دار الحوار والتفاوض على طاولة مستديرة بين الوفدين بروح تعاونية، تفاوضية، تفاهمية، حيث تحديد الأهداف المرجوة المبتغى تحقيقها، مع الأخذ في الاعتبار مصلحة الطرفين، وعدم إهدار أي منها لصالح الآخر.

وكل ذلك قد جرى في إطار بين الحد الأعلى المرغوب فيه، والحد الأدنى المقبول الذي لا يمكن التنازل عنه حتى لو أدى ذلك لفض المفاوضات، ومع الأخذ في الاعتبار شتى البدائل التي قد تعتبر عند الرأي الآخر أو الرأي العام تنازلاً، أو استسلاماً وخوفاً!! وهذا يتطلب مزيداً من تطوين النفس على الثقة في النجاح، ونبذ الروح الانهزامية داخل الصفوف، والتحمل وعدم التعجل.

ولكن يجب أن ننوه إلى أن التنازلات والبدائل المقترحة على طاولة المفاوضات تعتبر مورداً نادراً ولا بد من حسن استغلالها واستخدامها وتوجيهها لتحقيق الهدف النهائي من المفاوضات؛ لأنها سلاح ذو شقين. ثم بعد أن توصل الوفدان المتفاوضان إلى حل المعضلة السياسية الحربية من خلال الأطر التنازلية البديلة المقترحة بين الوفدين «فَلَمَّا انْتَهَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَكَلَّمَ فَأَطَالَ الْكَلَامَ وَتَرَجَعًا، ثُمَّ جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦/٢].

تمت كتابة الصلح، وانعقدت بنوده المعروفة المشهورة وفق إطار الحد الأدنى لدى الوفدين. ووفق هذه البنود كانت قراءة الدولتين في عالم المكاسب والخسائر السياسية حسب فقه الموازنة بين الحدين الأعلى والأدنى، فمثلاً:

أولاً: تقرير حق زيارة المسجد الحرام للمسلمين:

الحد الأعلى للوفد المسلم: أن يدخلوا المسجد الحرام هذا العام ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ مَحْلِقَيْنِ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

الحد الأدنى للوفد المسلم: أن يدخلوا المسجد الحرام العام القادم.

ثانياً: اعتراف بسيادة قريش على الحرم:

الحد الأعلى للوفد المشرك: «ألا يدخلوا المسجد الحرام ما دام تحت سلطان قريش إلى الأبد» «ألا يدخل المسلمون مكة أبداً ما بقي لقريش فيها سلطان!!».

الحد الأدنى للوفد المشرك: حفظ ماء وجه قريش أمام العرب «أَنْتِ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُنْ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا».

ثالثاً: ضرورة السعي لتعظيم حرمان الله:

الحد الأعلى للوفد المسلم: «لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». مراعاة حرمة الحرم، والحفاظ على عدم سفك الدماء فيه.

الحد الأدنى للوفد المسلم: «وَضَعَ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَخْشَوْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ». رابعاً: تأمين حرية التجارة وتنقل الأفراد:

الحد الأعلى للوفد المشرك: «عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْسَ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ».

الحد الأدنى للوفد المشرك: «مَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ قُرَيْشٍ مُجْتَازًا إِلَى مِصْرَ أَوْ إِلَى الشَّامِ يَتَغَيُّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ قَدِمَ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ يَتَغَيُّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ».

وعلى هذا النحو كانت بقية بنود صلح الحديبية التي اعتبر فيها تقرير أصول القضايا المحورية، والأسس السياسية في إطار فقه الموازنة بين الحد الأعلى والحد الأدنى لكلا الطرفين، وبذلك تحققت الأهداف المرجوة من العملية التفاوضية، التي أسفرت عن تقديم نموذج للعرب قاطبة في كيفية التفاهم الحضاري، ومدى إمكانية التعايش بين الخصمين وجدوى ذلك، وتقرير لأهمية العلاقات الدولية، ودورها في تحقيق السلام والأمن وفرض التعايش ضمن الأطر الإستراتيجية المقررة شرعاً وعرفاً. [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيثوري ٣١-٤٢].

### ٣- تقرير مبدأ الهدنة:

يقول د/ الفيثوري: «لا يخفى أن مصطلح الهدنة يحمل في طياته أنواعاً وأقساماً عديدة من مضامين الهدنة، منها الهدنة الحربية، والفكرية، والاقتصادية، والإعلامية، والسياسية ونحو ذلك، رغم أن لفظة الصلح ورد مطلقاً هكذا: «أَتَاهُمْ أَصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ». [أبو داود في الجهاد (٢٧٦٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

إلا أن لفظة الحرب تشمل كل الذي ذكرنا، فمثلاً الحرب في زماننا هذا حرب اقتصادية في المقام الأول، بل أصبحت الحروب الاقتصادية في جاهلية القرن الحادي والعشرين أشد ضراوة من الحروب التقليدية العسكرية!!

لذلك يجوز للدولة الإسلامية توقيع اتفاقيات متنوعة من الهدنة حسب مواقعها الإستراتيجية وخطوطها التكتيكية، ولكن يجب عليها أن لا تنسى خطورة توقيع هدنة فكرية مفادها منع تبليغ دعوة

التوحيد؛ لأن ذلك يناهض مجمل أهداف الرسالة الإسلامية من دعوة الناس إلى الإسلام، أو الجزية، أو الهدنة، أو الحرب إن شاؤوا، قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَنْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». [البخاري في الإبان (٢٥)، ومسلم في الإبان (٢٠-٢٢)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)، والترمذي في الإبان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (٧١)، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، ومسند أحمد عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وأوس بن أبي أوس الثقفي ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم].

والشواهد على ذلك كثيرة جداً.

ولابد أن نؤكد على أن الهدنة الفكرية الدعوية التوحيدية محظورة في جميع مراحل الحركة وأطوارها، سواء في مراحل الدعوة والتأسيس، أم في أطوار الدولة والتمكين؛ لأن أصل الإشكال بين الإسلام والجاهلية - قديماً وحديثاً - هو تبليغ دعوة التوحيد وإيصالها للناس أجمعين، فالجاهلية التي تُعَبِّدُ الناس لأرباب متنوعة لا ترضى ولن ترضى عن من يسعى لتحرير الناس من عبودية البشر والأرباب المزعومة، وإسقاط شرعيتها، وكشف زيفها بتعبيد الناس لرب العالمين.

لذلك فالجاهلية حريصة كل الحرص على أن تُوقَّعَ الدولة أو الحركة الإسلامية أي هدنة دعوية توحيدية معها لكي تحفظ ماء وجهها، وتمد في عمرها وطغيانها!! لهذا فإن صلح الحديبية على الرغم من اشتماله على خطوط عريضة في العمل السياسي إلا أنه كان خالياً تماماً من أي بند مفاده منع تبليغ دعوة التوحيد سرّاً أو جهراً، بل إن بنود صلح الحديبية - كما مر معنا - كانت قد مهدت الجو المناسب لتبليغ الدعوة الإسلامية، ونشرها بين أهل مكة والعرب قاطبة.

يقول الإمام الزهري رحمته الله مقررّاً تلك الحقيقة: «فَمَا فَتَحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ - صلح الحديبية - إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ اتَّفَقَ النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقْوَا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَغْفُلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي بَيْتِكَ السَّيِّئِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدِيلُ عَلَى قَوْلِ الزَّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحَدِيثِ فِي الْفِ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

لكن يجب أن نذكر في هذا المقام على قضية أساسية من قضايا الهدنة وأنواعها، وهي: هل لجماعة مسلحة أن تضع السلاح وتلجأ للهدنة والحلول السلمية بعد أن دخلت ميدان القتال وحملت السلاح ضد أعداء الدعوة الإسلامية؟!



لا ريب عند أهل العلم أن اتفاقية الحديبية كانت بعد معركة الأحزاب التي قامت بين الدولة الإسلامية ودولة الجاهلية بمكة، فإذا كان ذلك فلا يخفى جواز دخول جماعة مسلمة مسلحة في قضايا الحلول السلمية بعد حملها السلاح، وإن كان ذلك مع من قاتلها بالسلاح، وتلك سنة النبي ﷺ كما هو مقرر في كتب السنن والسير، إلا أن ذلك الجواز يخضع لقواعد السياسة الشرعية، والمصالح والمفاسد، ومراعاة المنظومة السياسية الإقليمية والدولية من حيث الكر والفر، والمد والجزر، والحضور والغياب!!.

[صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيثوري ٤٩-٥١].

#### ٤ - الأخذ بمبدأ الشورى:

يقول د/ البوطي: «لقد رأينا في عامة تصرفات النبي ﷺ ما يدل على مشروعية الشورى وضرورة التمسك بها للحاكم، وعمل النبي ﷺ هنا، يدل على طبيعة هذه الشورى والمعنى الذي شُرعت من أجله: فالشورى في الشريعة الإسلامية مشروعة ولكنها ليست ملزمة، وإنما الحكمة منها استخراج وجوه الرأي عند المسلمين، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض، أو استطابة نفوسهم، فإذا وجد الحاكم في آرائهم ما سكنت نفسه إليه على ضوء دلالة الشريعة الإسلامية وأحكامها، أخذ به، وإلا كان له أن يأخذ بما شاء بشرط أن لا يخالف نصًّا في كتاب الله ولا سنة ولا إجماعًا للمسلمين، ولقد وجدنا أن النبي ﷺ استشار أصحابه في الحديبية، وأشار عليه أبو بكر ﷺ بما قد علمت، قال له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا هَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ.

ولقد وافقه النبي ﷺ في بادئ الأمر، ومضى مع أصحابه متجهًا إلى مكة حتى إذا بركت ناقته، وعلم أنها ممنوعة، ترك الرأي الذي كان قد أشير عليه به، وأعلن قائلًا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، وحينئذ تحول العمل عن ذلك الرأي الذي أبداه أبو بكر ﷺ، إلى أمر الصلح والموافقة على شروط المشركين، دون أن يستشير في ذلك أحدًا، بل ودون أن يصيخ إلى استعظام واستنكار المستنكرين كما قد رأيت.

فهذا يعني أن أمر الشورى يأتي من وراء حكم الوحي الذي هو اليوم: الكتاب والسنة وإجماع الأئمة، رضوان الله عليهم، كما يدلنا أيضًا على أن الشورى إنما شُرعت للتبصر بها لا للالتزام أو التصويت على أساسها». [فقه السيرة للبوطي ٢٥٢].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد ذهب أستاذنا البوطي - جزاه الله خيرًا - إلى أن الشورى ضرورية إلا أنها مُعلِّمة وغير مُلزِمة.

أقول: أرجو أن نستطيع أستاذنا عذرًا إذا خالفناه فيما ذهب إليه إذ نرى أن الشورى ملزمة وليست معلِّمة، وأن الشواهد الكثيرة من السنة النبوية تدعم ما ذهبنا إليه.

ونرغب في هذه المناسبة أن نسجل الملاحظات التالية:

أ - إن هدي النبي ﷺ أن يكثر من الشورى، وألا يستبد بالأمر، وكان يأخذ برأي الأغلبية وإن خالفت رأيه، قامت بهذا شواهد، منها: استشارته في أسرى بدر، فقد أخذ برأي الأغلبية وهو الفداء، وكان هناك رأي عمر ؓ قد خالف فرأى قتلهم، وأيده القرآن بعد ذلك.

وفي غزوة أُحُد، فقد كان الرسول ﷺ يرى البقاء في المدينة وعدم الخروج منها، والدفاع عنها، ويرى الشباب - وهم الأغلبية والأكثرية - أن يخرجوا لقتال قريش بعد أن علموا برأي النبي ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن أخذ برأي الأكثرية، ولبس لأمته وأمر المسلمين بالاستعداد للخروج إلى أُحُد، ثم خرج رغم اعتراض المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول.

وفي غزوة الأحزاب حينما أراد النبي ﷺ أن يعطي ثلث ثمار المدينة إلى غطفان فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عباد ؓ فرأيا غير ما رأى النبي ﷺ، فتنازل الرسول ﷺ وأخذ برأيهما.

ب - إن القول بأن الرسول ﷺ كان يستشير أصحابه ؓ لحكمة هي استخراج وجوه الرأي عند المسلمين، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض، أو استطابة نفوسهم.

أقول: ما الفائدة التي تجنيها الأمة إذا استشار الحاكم قوماً، وكانت الأغلبية منهم ترى المصلحة في رأي ذهب إلى، وهو يصر على عدم الأخذ برأيهم والتشبث برأيه، وأي استطابة لنفوس هؤلاء حين يستشيرهم ويرفض رأيهم، أو يعلمهم مقدماً أنه لن يأخذ برأيهم، إن هذا إجحاش للنفوس وليس تطبيقاً لها، وما أجل قول الجصاص في أحكامه حين يرد على هذا القول فيقول: «وغير جائز أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطيب نفوس الصحابة، ورفع أقدارهم؛ لأنه لو كان معلوماً عند المستشارين أنهم إذا استفرغوا جهدهم في استنباط الحكم الذي يُستشارون فيه لم يكن معمولاً به، ولا يتلقى بالقبول، فلم يكن في ذلك تطيب لنفوسهم ولا فيه رفع أقدارهم، بل فيه إجحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم غير مقبولة ولا معمول بها، فهذا تأويل ساقط لا معنى له». [أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٣٣٠].

ج - إن القول بأن الشورى معلمة وليست ملزمة يؤدي إلى انفراد الحاكم برأيه واستبداده وتسلطه على رعيته، ومن ثم ظلم الناس، لا سيما إذ خف الوازع الديني عند الحاكم.

د - إن شخصية الأمة تنماع وتتلاشى حين تحرم حق احترام رأيها والأخذ به.

هـ - إن ما عاناه المسلمون في فترات كثيرة من تاريخهم يعود إلى استبداد الحكام وعدم التزامهم بالشورى حكماً ونتيجة.

و - إن الاستدلال بعقد صلح الحديبية دون استشارة المسلمين على أن الشورى مُعلّمة وليست مُلزمة، أمر نختلف مع الأستاذ الكريم فيه؛ ذلك لأن الشورى إنما تقع ضمن دائرة الاجتهاد - كما هو معلوم -

حيث لا نص في المسألة المطروحة، إذ لا اجتهد في مورد النص والرسول ﷺ أخبر أصحابه ﷺ بشكل واضح، لا لبس فيه ولا غموض أن هذا الصلح لا يقع ضمن دائرة الاجتهاد، ومن ثم لا مجال لاستشارتهم والأخذ برأيهم، كما عودهم ﷺ، لقد أعلن صراحة أن الصلح أمر أمره الله به ولن يخالف هذا الأمر، تأمل قوله ﷺ لعمر ﷺ حين اعترض على الصلح: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، وفي البخاري «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي».

ولما علم الصحابة ﷺ بحقيقة الأمر أنه وحي من الله تبارك وتعالى لم يناقشوا في ذلك الأمر. هذا وكان الصحابة ﷺ في كثير من الأحيان قبل أن يدلوا دلوهم في مسألة من المسائل سألوها رسول الله ﷺ أهذا أمر أمرك الله به أم شيء تصنعه لنا، كما حدث في غزوة الأحزاب حينما أراد رسول الله ﷺ أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٣٥-١٣٩، وقد سبق تفصيل الحديث عن الشورى في عدة مواضع من غزوة بدر الكبرى، ومن غزوة أحد].

#### ٥ - ليس في السنة افتيات على حق الجماعة في الشورى:

يقول الشيخ الغزالي: «من الخلط أن يُستشهد بالأحداث التي وقعت في عمرة الحديبية على أي عمل مما يقع في دائرة الاجتهاد العام.

وتفصيل الحوادث في هذا الفصل الكريم من فصول السيرة ينطق بهذه الحقيقة، فقد خرج النبي ﷺ مع صحابته يريدون زيارة البيت العتيق، وكان أمل الصحابة كبيراً في أداء هذه الشعيرة؛ لأن الرسول ﷺ قص عليهم رؤيا تبشرهم بدخول المسجد الحرام.

ومع أن قصد القتال كان مستبعداً أول الأمر إلا أن المسلمين - وكانوا نحو ١٤٠٠ - أخذوا للأمر عدته حتى لا يُغدر بهم، قال البخاري في صحيحه وأبو داود في سننه: وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ، أَنَّهُ عَيْنُهُ قَالَ: «إِنْ قَرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ».

فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذُرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مُحْرُوبِينَ».

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا هَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهَ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلْنَاهُ، قَالَ ﷺ: «أَمْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ». [البخاري في المغازي (٤١٧٨، ٤١٧٩)، والسنن الكبرى للنسائي في السير (٨٥٢٨)، وهو جزء من حديث المسور ومروان في مسند أحمد ٣١/٢٤٣-٢٥٣ رقم ١٨٩٢٨].

ونحن نستنتج من هذا أموراً:

(١) أن الرسول ﷺ إلى هذه المرحلة كان يستشير أصحابه.

(٢) وأنه اقترح عليهم القتال وتأديب الأحلاف الذين انضموا إلى قريش، وبرر وجهة نظره في استعمال العنف معهم.

(٣) أن الصحابة هم الذين آثروا السلم وأرجؤوا القتال إلى أن يُصدوا عن البيت فعلاً.

غير أن الذي حدث بعد ذلك قلب النيات والأوضاع، فبينما النبي ﷺ على ناقته القصواء يتقدم الركب ويستعد لما يتكشف عنه الغيب - ولو كان قتالا دامياً في الحرم - إذا بالناقة تبرك وحاول الصحابة إرغامها على استئناف السير فأبت وتوقفت، فقالوا: خَالَاتِ الْقَصَوَاءُ - أي حرنت وعجزت - فقال النبي ﷺ: «مَا خَالَاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ.. «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا»، ثم زجرها فوثبت تسعى.

هذه الحالة كانت بداية التحول، وبها خرج الأمر من حدود الشورى العامة ورأي الناس، وبدأ الرسول ﷺ يتصرف مستفتياً قلبه الملهم وحده، مصيحاً لتوجيه الله.. ولو كان ذلك مخالفاً للنية التي اقترح على أصحابه تنفيذها أول الأمر أو مخالفاً لرغبات هؤلاء الصحاب وآملهم التي خرجوا بها، فلماذا كُلِّمَ ﷺ في ذلك قال: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي».

لقد خرج الأمر إذن عن ميدان الشورى وحدود الاجتهاد، ومع أن الرسول ﷺ كان يقول لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما قبلاً: «لَوْ أَنفَقْتُمَا عَلَى شَيْءٍ لَمْ أُخَالِفْكُمَا»<sup>(١)</sup>، فإنه هنا خالف جمهور الصحابة، لأن المجال قد قطع فيه الوحي، وأصبح لا رأي فيه لبشر.. فإذا جاء حاكم مستبد وافئات على رأي الأمة مستشهداً بما حدث في الحديدية، فيجب أن يُصفع بحد السيف لا بباطن اليد، فإن الاستبداد لا يُستشهد له دليل من دين الله.

وإذا وقع قارئ محدود الفقه على هذا الفصل من السيرة فاتخذة ذريعة لإهدار رأي الجماعة فينبغي أن يكشف له قصوره وأن يعرف الناس سيرة نبيهم من منابع الحق لا من مجاري الشهوات.

الرجل الذي تكلؤه السماء، ويؤيده الملائكة الأعلى، وتصلي عليه الملائكة ويبلغ رسالته بعين الله، ويصحبه من آي القرآن قول الله له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَحْبَابِ الْبَحْرِ﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة]. لم يمنعه هذا أن يلتقط الحكمة من أي إناء، وأن يبحث عن الحق مع أولي الفطنة والفقه من صحابته، والذي يقرأ سيرة هذا الرسول الجليل ﷺ يعلم أي أفق من آفاق المجد والحصافة والكياسة كان يحيا فيه ويلقى الناس به.

(١) ورد بلفظ: «لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا» مسند أحمد ٢٩/٥١٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وحديث عبد الرحمن بن غنم عن النبي ﷺ مرسل.

والرجل العظيم يلتقى الناس بأرائه فلا يبالي أن يناقشوه ويناقشهم حتى يستبين وجه الحق. شتان بين هذه القمم الشم وبين الأغمار الذين ظهروا في الشرق أيام عاره وانهباه فأسسوا بأسمائهم دولاً، وأصبحت لذويهم إرثاً، وتكلموا بغبائهم عمن وراءهم فأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. هذا، وقد قال علماء التفسير في شرح قوله تعالى: ﴿وَسَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ما سر هذه المشاورة مع كمال عقله، وجزالة رأيه، ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على كافة الخلق فيما أحبوا وكرهوا؟

ثم أجابوا: بأن القصد شاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد، من شؤون الدنيا وسياسة الحرب والسلام؛ لتستظهر برأيهم وتستعين بخبرتهم، فيتمخض لك الحق الخالص، ثم إن هذا تطبيقاً لقلوبهم وتدعيماً لأشخاصهم مما يجعلهم عليه أعطف وأحب.. ولتستن به من بعده الحكام فلا يهملوا الرعية وينفردوا بالنظر في تدبيرها، وقالت عائشة: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْثَرَ اسْتِشَارَةً لِلرَّجَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». [شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٨٨ كتاب الاستئذان باب المشورة وأن المستشار مؤتمن رقم (٣٦١)].

واتفق العلماء على أن كل ما نزل فيه من الله وحي لم تقع فيه مشورة، فهو حكم لا معقب له.

[الإسلام والاستبداد السياسي للغزالي ٥٥-٥٧].

## ٦ - اختيار مكان المفاوضات:

تقول د/ البيلي: «لقد تم اختيار معسكر المسلمين في الحديبية مكاناً للمفاوضات، وهذا الاختيار يحقق عدداً من المزايا للمسلمين:

- ١ - التحكم في المتغيرات البيئية المحيطة بجلوسات التفاوض، وتوظيف عوامل المكان بفاعلية.
- ٢ - تجنب الفريق التفاوضي متاعب عدم التكيف السريع.
- ٣ - استخدام كل أنواع التكتيكات التفاوضية بمرونة كبيرة.
- ٤ - توفير الحماية لأفراد الفريق التفاوضي، وتشمل الحماية الشخصية أو الحماية ضد أي عملية اختراق يقوم بها الطرف الآخر، ويظهر من خلال بعض المواقف التي أثبتتها كتب السيرة: فعندما توجه وفد قريش للتفاوض مع المسلمين، رأوا جانباً من بيعة الرضوان؛ مما أدخل الرعب في قلوبهم.
- ٥ - عقد المفاوضات على مرأى ومسمع من الصحابة والصحابيات يمثل ضغطاً على المتفاوض القرشي.

- ٦ - وجود الرسول ﷺ وسط قاعدته من المسلمين والمسلمات الذين بايعوه على الموت، والذين يُظهرون له أعلى مستويات الطاعة والانصياع والمحبة، يحقق تأميناً للجانب المتفاوض المسلم، ويشكل ضغطاً على أعصاب متفاوض قريش». [إستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجاً للبيلي ١٦٢].

## ٧ - المفاوض بمهارات متعددة:

يقول د/ إبراهيم: «إن العطاء دائماً يتمتعون بمهارات متعددة منها: التخطيط المتميز الناجح، والقدرة على التواصل مع المحيطين، وتوصيل الرسالة لهم واضحة مفهومة، مما يعطي لهم القدرة على التغيير في المجتمعات التي يعيشون فيها، وهذا ما استطاع نبي الإسلام ﷺ النجاح فيه، وكذلك يتوفر لديهم إحدى المهارات التي يحتاج إليها كل إنسان منا في مرحلة ما - قد تكون فاصلة - من حياته، وهي القدرة على التفاوض الناجح، وأعني به التفاوض الذي يصل بجميع الأطراف إلى اتفاقية مناسبة لهم، وتحقيق أهدافهم أو بعضها، وصلح الحديبية مثال على التفاوض الراقي والرائع، والذي تمكّن فيه النبي ﷺ من تحقيق فتح مبين للدعوة الإسلامية». [محمد ﷺ ماذا هو الأعظم؟ لإبراهيم ١٢٥].

وللتفصيل في موضوع المفاوضات، ينظر:

- (١) إدارة المفاوضات وتنمية مهاراتها في المنظمة - د/ أميمة الدهان - الجامعة الأردنية - عمان - الأردن ١٩٨٦ م.
- (٢) التفاوض - د/ ثابت عبد الرحمن إدريس - الدار الجامعية - الإسكندرية ٢٠٠٥ م.
- (٣) التفاوض فن ومهارة - د/ حسن الحسن - المنظمة العربية للعلوم الإدارية - عمان - الأردن ١٩٨٩ م.
- (٤) التفاوض في السنة النبوية: دراسة موضوعية (دكتوراه) - د/ مالك سيف الدين أحمد القواسمي - إشراف د/ أمين محمد سلمان القضاة، ود/ إبراهيم أحمد سلامة أبو عرقوب - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة اليرموك - إربد - الأردن ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م - ١٨٠ ص.
- (٥) التفاوض في القرآن الكريم (دكتوراه) - د/ محمد بن عيسى الأحمدي - إشراف د/ خالد نبوي سليمان حجاج - كلية العلوم الإسلامية - جامعة المدينة العالمية - ماليزيا ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م - ٣١٧ ص.
- (٦) التفاوض للفوز - جيم توماس - مكتبة جرير - الرياض ٢٠٠٧ م.
- (٧) الدبلوماسية المعاصرة وإستراتيجية المفاوضات - دار المسيرة - عمان - الأردن ٢٠٠ م.
- (٨) مبادئ التفاوض - د/ محمد قدرى حسن - إثراء للنشر والتوزيع - عمان - الأردن ٢٠١٠ م.
- (٩) المفاوضات الدولية - د/ محمد بدر الدين زايد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩١ م.
- (١٠) المفاوضات الدولية بين العلم والممارسة - د/ محمد بدر الدين زايد - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ٢٠٠٣ م.
- (١١) المفاوضات الدولية: الأسس والنظم - د/ محمود حسن أحمد - دار الجليل - دمشق ١٩٩٧ م.
- (١٢) المفاوضات في الإسلام والمفاوضات الدولية - د/ وهبة الزحيلي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٥ م.
- (١٣) مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي - د/ حسن محمد وجيه - سلسلة عالم المعرفة ١٩٠ - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م - ٣٥٢ ص، وط ٢ في ١٩٩٨ م - ٢٩٨ ص.
- (١٤) مهارات التفاوض - د/ السيد عليوة - المنظمة العربية للعلوم الإدارية - عمان - الأردن ١٩٨٧ م.
- (١٥) مهارات التفاوض - د/ نضال محمد سعيد - منشورات المعهد العربي للتدريب - بغداد ٢٠٠٩ م.

## ٨ - المتغيرات النفسية وأثرها على مفاوضات الحديبية:

تقول د/ البيلي:

«١- توظيف الرسول ﷺ للعوامل النفسية عند المفاوض: لقد أدرك الرسول ﷺ تأثير العوامل

النفسية على سلوك المفاوضين، واستطاع توظيفها لخدمة قضيته كما يأتي:

أ- ما إن رأى الرسول ﷺ الحليس بن زيان حتى استطاع أن يصنفه حسب قواعد البرمجة اللغوية العصبية بأنه شخص بصري<sup>(١)</sup>، وبمعرفة خصائص الشخص البصري قال لأصحابه: «ابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، وهكذا استطاع ﷺ أن يؤثر في قراره، فقد تأكد أن المسلمين ما جاؤوا إلا لأداء العمرة وتعظيم البيت.

ب- في قوله ﷺ: «أَجَلْ يَا أَحَا بَنِي كِنَانَةَ» إشارة إلى المساواة بينه وهو سيد الأحابيش وبين النبي ﷺ،

وهو من أفضل بطن من بطون قريش أشرف قبائل العرب.

وفي مقابل الفوقية والتعالي الذي عاملته بها قريش عندما عاد وأخبرهم بما رأى، فقالوا له: «اجْلِسْ، إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ»؛ مما أدى إلى غضبه، وقوله: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا خَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَيَصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَتَحْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا نَفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٢/٢].

هكذا نجد أن مهارة الرسول ﷺ في توظيف العوامل النفسية على مفاوض قريش (الحليس) أدت إلى

إحداث خلخلة في وحدة وتماسك معسكر قريش حيث انسحب (الحليس) الذي يعد الخليف الأكبر لقريش بقواته.

٢- رفع الروح المعنوية وتحفيز المسلمين: عندما اتخذ الرسول ﷺ قرار عدم مواجهة قوات خالد بن

الوليد والتقدم نحو الحديبية (بعد استشارة أصحابه)، سلك المسلمون طريقاً وعراً إلى الحديبية، ولما كان ﷺ يعلم أثر الدوافع والحوافز على السلوك الإنساني، والتي تنشطه وتنقله من حالة السكون إلى حالة الحركة، وتوجه سلوكه نحو النجاح؛ لذلك قال النبي ﷺ لأصحابه: «لَا يَجُوزُ أَحَدُ اللَّيْلَةِ هَذِهِ الثَّنِيَّةِ إِلَّا عُفِرَ لَهُ»، ثم وضعها بما أمر الله به بني إسرائيل أن يدخلوه سجداً، فما عبروها، حتى قال لهم ﷺ: «قُولُوا نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ»، فَقَالُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّمَا لِلْحِطَّةِ (الحطة: يُرِيدُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

(١) الشخص البصري: هو الذي يبتني إلى الصورة أولاً، ومن مميزاته أنه سريع التفكير، يعمل بكفاءة أثناء الأزمات، يصلح

كقائد، يستطيع تخيل النتائج والعواقب، ومن عيوبه أن لا يعنى بكلماته؛ لأن الكلمات تسبق عنده المعاني، يتخيل الأشياء

على شكل صور، يتخذ قراراته بسرعة، لديه حب السيطرة، يفتن بالشكل على حساب المضمون.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ حط عَنَّا ذُنُوبَنَا) الَّتِي عُرِضْتُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَقُولُوهَا.

[سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٠].

وفي هذا حفز للمسلمين ورفع للروح المعنوية لديهم، وتعزيز لتماسك الجبهة الداخلية.

٣- أثر بيعة الرضوان النفسي على الموقف التفاوضي في الفريقين: عندما سرت الإشاعة بقتل عثمان بن

عفان ؓ، سارع الرسول ﷺ بالدعوة إلى أخذ البيعة بالدعوة لتحقيق هدفين:

أ- الحفاظ على الروح المعنوية وتعزيز وحدة وتماسك المسلمين.

ب- إلقاء الرعب في قلب قريش، والتي تحولت مباشرة من خيار الحرب إلى خيار التفاوض.

كما أن توقيت البيعة جاء مناسباً، فقد طال بقاء المسلمين على الإحرام، حُرِّمُوا خِلَافَهَا مِنْ تَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وقص الشعر، ومس الطيب... إلخ، وبالرغم من أن في هذا رسالة هامة مفادها أن المسلمين لم يأتوا لقتال، إلا أن الرسول ﷺ أراد بعقد البيعة في هذا التوقيت إشعال الحماس في صفوف المسلمين ورفع روحهم المعنوية.

٤- إدراك الحاجة النفسية للطرف الآخر: إن الحاجة إلى حفظ ماء الوجه، والحاجة إلى الأمن كانت

أهم الحاجات التي تؤثر على مفاوضات قريش، أدركها الرسول ﷺ، فوافق على العودة هذا العام إلى المدينة والرجوع في العام القادم لأداء العمرة. [إستراتيجيات التفاوض الدولي للبيلي ١٦٤-١٦٥].

٩- أثر المتغيرات والأبعاد الثقافية على مفاوضات الحديبية:

تقول د/ البيلي: « نعرض فيما يلي بعض الملاحظات فيما يتعلق بالأبعاد الثقافية وأثرها على المفاوضات

في الحديبية:

أ- ارتكز طلب المسلمين لأداء العمرة على الحق المكفول لكل عربي، وهو تعظيم البيت الحرام، وهو

عرف سائد في الجزيرة العربية، وبناء عليه اكتسبت قريش لمكانتها الدينية والأدبية (سدانة البيت)، وحصلت على امتيازاتها ومركزها الاقتصادي، هذا المتغير الثقافي اعتمد عليه المفاوض المسلم؛ لأن الفريقين يتيمان إلى ذات المنظومة الثقافية.

ب- المستوى الحضاري الرفيع الذي تتمتع به قريش، والذي جعلها في مقدمة القبائل العربية، كان أحد

روافده (رحلة الشتاء والصيف)، التي وفرت لقريش فرصة التواصل الحضاري مع الحضارات الأخرى.

ج - وبالرغم من هذا المستوى الرفيع استطاع الرسول ﷺ وصحابته ؓ أن يقدموا نموذجاً

حضارياً جديداً لا يعتمد على المادية، إنما يركز على القيم، والذي انبه به المفاوض القرشي، فقد قال

عروة وهو يخاطب سادات قريش: «يَا قَوْمِ، إِنِّي قَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ: عَلَى كِسْرَى، وَهَرَقْلَ وَالنَّجَاشِيِّ،



وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ أَطْوَعَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ مِنْ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَاللَّهِ مَا يُشِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ، وَمَا يَرْفَعُونَ عِنْدَهُ الصَّوْتَ، وَمَا يَكْفِيهِ إِلَّا أَنْ يُنْشِرَ إِلَى أَمْرِ فَيُفْعَلَ، ... وَعَلَّمُوا أَنْكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ السَّيْفَ بَذَلُوهُ لَكُمْ، وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا مَا يُبَالُونَ مَا يُصْنَعُ بِهِمْ إِذَا مَتَعُوا صَاحِبَهُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ نُسَيَاتٍ مَعَهُ إِنْ كُنَّ لِيُسْلِمْنَهُ أَبَدًا عَلَى حَالٍ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٨-٥٩٩].

[إستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجًا للبلي ١٦٥-١٦٦].

#### ١٠ - إستراتيجية التفاوض التي استخدمت في مفاوضات الحديبية:

تقول د/ البلي: «بمحاولة تحليل إستراتيجية التفاوض التي استخدمها المسلمون في مفاوضات الحديبية نجد أنهم استخدموا إستراتيجية الاختراق، كما يظهر من خلال الملاحظات التالية:

##### ١ - عوائق تطبيق إستراتيجية الاختراق:

أ- تكبر قريش وعنادها وصلفها.

ب - تهور قريش أو ما يمكن وصفه بعدم المؤسسية في اتخاذ القرار، أو عدم الرشد، والذي يظهر جلياً من خلال قتل جمل مبعوث النبي ﷺ الأول خراش بن أمية رضي الله عنه، وحبس سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإرسال مجموعات إلى معسكرات المسلمين بهدف القتل أو السرقه.

ج- دور جماعات الضغط أو مجموعة الصقور الذين بادروا بقتل جمل مبعوث النبي ﷺ وأرادوا قتله لولا تدخل العقلاء من قريش، تعنت هذه المجموعة كاد أن يحول دون الوصول إلى اتفاق، حتى أنهم لم يرغبوا بسماح بديل بن ورقاء عندما أدرکوا أنه جاء ساعياً للسلام، كما كانوا سبباً في غضب الحليس بن زبان حينما قالوا له: «اجلس، إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ».

د - غضب وحقد قريش على المسلمين بعد هزيمتها المتكررة على يد المسلمين، وقتل خيرة أبنائها في بدر وأُخذ والأحزاب، إضافة إلى تهديد مركزها الاقتصادي ومكانتها الأدبية بين القبائل.

##### ٢ - تطبيق إستراتيجية الاختراق: كان ذلك باتباع خطوات هذه الإستراتيجية كالآتي<sup>(١)</sup>:

أ- الخطوة الأولى: الضبط الذي اتسم به جانب المسلمين، فبالرغم من التصرفات الطائشة لقريش،

(١) يقول ليدل هارت، في استراتيجيته العسكرية، والتي أطلق عليها اسم «الاقتراب غير المباشر»، والتي جاء فيها:

ضرب العدو في أكثر محور غير متوقع بالنسبة له. استغلال نقطة ضعف العدو.

والرسول ﷺ امتلك زمام المبادرة من خلال طرحه لفكرة العمرة، الأمر الذي لم تتوقعه قريش، حيث اعتمد في طلبه على قضية تعظيم البيت، وهو يمثل القاعدة الأساسية التي تركز عليها قريش في مكانتها الأدبية في الجزيرة العربية، ويتأسس عليها مركزها الاقتصادي؛ لذلك لا تستطيع قريش أن تنفي هذا الحق؛ لأنها بذلك سوف تهدد مركزها الأدبي والاقتصادي.

فقد استطاع المسلمون الحفاظ على الهدف، وتجنبوا القتال والمواجهة، ويتجلى ذلك من تحاشيهم للمواجهة مع قوة الفرسان بقيادة خالد بن الوليد، والتي شكلتها قريش لمنع تقدم المسلمين، فتحلى المسلمون بأعلى مستويات الضبط، ولم يتعاملوا برد الفعل.

ب الخطوة الثانية: حرص المسلمون بقيادة النبي ﷺ على خلق المناخ المناسب الذي يساعد على التغلب على خوف وغضب وعداوة قريش، حيث قال ﷺ: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطَةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَّةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَةً يَعْظُمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

وحينما كانت قريش تتوقع الهجوم بعد أن قامت بعقر جمل خراش ﷺ مبعوث النبي ﷺ، ومحاولة قتله، وأرسلت جماعات بقصد السرقة أو القتل، لم يرد النبي ﷺ بهجوم مضاد، بل قام بإطلاق سراح المهاجرين بعد أن أسرهم، وكان قوامهم سبعين رجلاً قائلاً: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثَنَاهُ».

ج - الخطوة الثالثة: لقد جاء الرسول ﷺ وهو مستعد للتفاوض، ولكن استمرت قريش في مقاومتها لعدم اقتناعها بفوائد الاتفاق، فقام ﷺ في محاولة لجذب قريش إلى اتجاه آخر غير الحزب، بتقديم عرض متميز يمثل جسراً ذهبياً ينقل قريش من ضعفها وهزيمتها إلى آفاق أرحب.

العرض الذي قدمه الرسول ﷺ راعى مصالح قريش بالدرجة الأولى، وتفهم حاجاتهم الأساسية، فقريش بعد أن هُزمت في غزوة الأحزاب تأكدت هي وجميع القبائل العربية أن شوكة محمد ﷺ قد قويت، وأنه لم تستطع القبائل بتجمعها وتحالفها أن تهزمه، فهذا يعني أن أصبح قوة لا تُقهر، وهكذا فقريش في هذا الموقف هي أحوج ما تكون إلى الحفاظ على ماء وجهها ومركزها بين القبائل، والحفاظ على مصالحها الاقتصادية الإستراتيجية.

كل هذه المزايا توفرت في العرض النبوي، حيث قال ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَحْجِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتُهُمْ (أضتتهم وبالغت في الإضرار بهم) الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مَدَّةً، وَيَحْلُلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرَ: فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جُمُوا [جُمُوا] (استراحوا وكثروا)».

«إِنَّا لَمْ نَحْجِ لِقِتَالِ أَحَدٍ» تأكيد على نية تحقيق السلام، وعدم الرغبة في الحرب، وفي هذا تطمين لقريش من خوفها في خوض حرب جديدة ضد المسلمين بعد هزيمة الأحزاب، وتحقيق أحد أهم الحاجات الإنسانية وهي الحاجة إلى الأمن.

«وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتُهُمُ الْحَرْبُ» في هذا تأكيد على إدراك المسلمين لقوتهم وقوة عدوهم.

وكما ذكرنا فإنه يدخل في تحديد قوة الدولة كيفية تقسيم الدولة لهذه القوة، وأيضاً تقسيم الدول الأخرى لها.

د- الخطوة الرابعة: مع استمرار قريش في عنادها ومقاومتها لم يكن هناك بد من تعليمها وإعطائها درساً عن ثمن عدم التوصل إلى اتفاق، فقام رسول الله ﷺ بالتدابير الآتية:

١- بيعة الرضوان: عندما ثبت للنبي ﷺ أن عثمان بن عفان ؓ غداً محجوزاً مع أصحابه لدى قريش أمر المسلمين بأخذ البيعة على الموت، فسبق المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة يبايعونه، فكانت بيعة الرضوان، والتي كانت تعصيلاً لتناسك الجبهة الداخلية، وتطبيقاً لأسلوب التهريب بتوجيه أنظار قريش إلى عواقب عدم التوصل إلى اتفاق.

٢- أسر مجموعة من قريش: بلغوا اثني عشر رجلاً بعد أن قتلوا (زنيماً) أحد المسلمين، ورغم ذلك حاول الرسول ﷺ تقليل مقاومة قريش بإطلاق سراح الأسرى في مقابل تسليم عثمان ومن معه <sup>بقيضه</sup>، والموافقة على شروط قريش في العودة العام القادم، ورد من يسلم من قريش إليها، للتأكيد على أن هدفه ليس الانتصار على قريش، بل هو تحقيق السلام والوصول إلى الرضا المتبادل للطرفين بتحقيق المصالح المشتركة، وبذلك تدرك قريش أن الجسر الذهبي ما زال مفتوحاً أمامها.

الخلاصة: وهكذا نستطيع القول أن الرسول ﷺ قد قام برسم الملامح الإستراتيجية؛ ليكون صلح الحديبية المدرسة الكبرى في المفاوضات.

لقد كان صلح الحديبية التطبيق الإسلامي الذي استخدمت فيه عدد من الآليات، كالمساعي الحميدة، والوساطة، والمفاوضات المباشرة.

لقد كان صلح الحديبية مدرسة إسلامية، بل منهجاً إنسانياً يثري الفكر، فيضع الأسس، وقيم القواعد، ويكسب المهارات.

لقد كانت المعاهدات في الجزيرة العربية قبل الإسلام، تأخذ في مجملها الطابع العرفي، إلا أن صلح الحديبية قد أحدث انقلاباً في مفهوم المعاهدات، حيث أصبح نظاماً قانونياً وسياسياً متكامل الجوانب.

لقد أرسى صلح الحديبية القواعد والمهارات التي تحكم علم المفاوضات، والتي تتمثل في: الإعداد الجيد، والقدرة على تسيير المفاوضات، والمهارة في إدارة الحوار.

كما قال سيدنا عمر ؓ: «مَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ أَعْظَمُ مِنَ الْحُدُوبِ». [المغازي للواقدي ٢/٦٠٧].

[إستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجاً للبلي ١٦٧-١٧٠].

## ١١ - تأصيل المفاهيم والغايات:

يقول د/ عشقي: «الحديبية واد فسيح يبعد عن مكة المكرمة تسعة أميال، ويقع بعض الوادي في الحل، كما يقع الآخر في الحرم.

شهد الوادي أشهر معاهدة للصلح في التاريخ الإسلامي، وبالوادي بئر ظنون، جاشت بالرواء، حتى استوى الماء على شفيرها، بعدما سل الرسول ﷺ سهماً من كنانته، وناوله إلى ناجية بن أعجم، وأمره بغرسه في فعر البئر.

وبالوادي شجرة أظلت بيعة الرضوان، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى الناس في خلافته يقدسون هذه الشجرة ويتبركون بها، فاجتثها خوفاً على العقيدة من الفساد؛ لأن الفاروق رضي الله عنه كان يفرق بين الآثار التاريخية، وملوثات العقيدة.

كان الرسول ﷺ يعسكر بأصحابه في الحديبية حيث اختارها الله لهم، بينما كانت قريش تعسكر بقواتها التي أعدتها لصد المسلمين عن المسجد الحرام في (وادي بلدح).

انتهى الموقف المتوتر بين الفريقين بعد أن دام عشرين يوماً بالصلح، حيث تنازل المسلمون عن القليل وربحوا الكثير، وما كان ذلك إلا بفضل من الله ﷻ، وبالمنهج النبوي الذي سار عليه الرسول ﷺ في المفاوضات وإجراء الصلح.

لقد أرضخ الرسول ﷺ، سادة قريش على قبول المفاوضات معه، فكانت مفاوضات الند للند، وكانت المعاهدة اعترافاً بالرسول ﷺ وكيانه السياسي أمام العرب، بعد أن كانت قريش تتعامل مع المسلمين، وكأنهم حفنة من العصاء والمنشقين.

لقد مكنت المعاهدة النبي ﷺ وصحبه الكرام، من التنقل في حرية بين القبائل، وإرسال الوفود إليها، ونشر الإسلام بينها.

كما حققت المعاهدة أمناً للمسلمين، وصيانة لقاعدتهم الإسلامية في المدينة المنورة من أي عدوان مكبي محتمل.

لقد نصت المعاهدة، على إنهاء الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنوات، فكانت السنتان الأوليان، كفيلتين بنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية.

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا انصرف بذاكرته إلى ذكر الحديبية قال: (لقد أسلم في الهدنة أكثر ممن أسلم من يوم بُعث الرسول ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان فتح أعظم من الحديبية).

وهذا ما يؤكد أن الإسلام ينتشر بالدعوة أكثر مما ينتشر بالعنف.

إن أجل المكاسب التي حصل عليها المسلمون من جرّاء الصلح مع المشركين، هي الاعتراف بحقهم المشروع في دخول مكة المكرمة وأداء العمرة والحج دون إراقة دماء.

لقد كانت معاهدة الحديبية من معاهدات الصلح الدولية لهذا قيل بأن النبي ﷺ صالح المشركين يوم الحديبية فجاءت المعاهدة بلفظ الصلح، وهو ما أشار إليه ابن تيمية في كتابه (نظرية العقد). والمعاهدات الدولية، هي اتفاقات تجري بين أشخاص القانون الدولي لتنظيم علاقة قانونية دولية وتحديد القواعد والأسس التي تخضع لها هذه العلاقة.

والمعاهدة من العهد، وفرق بين العهد والعقد، فالعقد هو وصل الشيء بالشيء على سبيل الاستيثاق والإحكام، فالعقد التزام، بينما العهد إلزام؛ لهذا كان صلح الحديبية عقدًا وعهدًا فالنبي ﷺ هو الذي عاقد قريشًا وأصحابه بذلك راضون؛ لهذا كان الصلح عهدًا وعقدًا.

لقد جاءت الآية الكريمة في أول سورة التوبة تؤكد المفهوم الإسلامي في هذه المعاهدة، وتوضح دقة العلاقة بين المسلمين والمشركين فقال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١﴾ قَسِبَ حُورُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ٢﴾ وَأَذِنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة].

فإنه ﷺ، أكد البراءة العامة من المشركين، رغم عهد الصلح الذي تم معهم حتى لا يتحول مفهوم الصلح إلى المودة والموالة.

إن الأصل في العلاقة مع المشركين هي البراءة منهم، والاستثناء هو العهد والمعاهدة؛ لهذا رأى بعض العلماء أن المعاهدات التي تُعقد مع المشركين، يجب أن تكون مؤقتة؛ لأن عدم تأقيتها يخل بمبدأ البراءة.

لقد حددت الآية الكريمة المعاهدات مع المشركين بأربعة أشهر إن لم يكن لها أجل، أما إذا كان العهد دون هذه المدة، فلا بأس من إتمام العهد إلى أربعة أشهر، فإذا كان العهد محدودًا بأكثر من أربعة أشهر، فبالإمكان إتمامه إلى مدته وهو ما يراه الكلبي من هذه الآيات.

لقد نذبت قريش سهيل بن عمرو على رأس الوفد القرشي للمفاوضات، وقد جاء في السيرة الحلبية: أن رسول الله ﷺ حينما رآه قادمًا، استبشر وبشر أصحابه بالفرج.

ويقول الطبري في تاريخه إنه ﷺ قال: «سَهَّلَ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، الْقَوْمُ مَا تَوَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَرْحَامِهِمْ (أي متوسلون إليكم بقرابة)، وَسَائِلُكُمْ الصُّلْحَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ، وَأَظْهِرُوا التَّلْبِيَةَ، لَعَلَّ اللَّهَ يُلِينُ قُلُوبَهُمْ»، ففعلوا ذلك وارتفعت أصواتهم بالتلبية في ضواحي المعسكر تشق عنان السماء.

على الرغم من عزم الرسول ﷺ على محاربة المشركين، إلا أنه كان كارهاً للحرب حقاً لدماء المسلمين، ومع هذا فقد كانت نفسه ﷺ تَوَاقَّةً للسلام، مستشرفة للدخول إلى مكة والطواف بالبيت العتيق؛ لهذا كان مستبشراً بقدوم الوفد المكي.

إن قواعد المفاوضات الدولية تركز على نوعين من المصادر، منها ما يتعلق بموضوعات التفاوض، ومنها ما يتعلق بإجراءات التفاوض.

فالموضوعات: تقوم على الاعتبار القانوني، والاعتبار السياسي، والاعتبار النفسى.

أما الإجراءات: فإنها تقوم على قواعد الإجراءات، وقواعد النظام، والتجارب السابقة، والأعراف. فالنبي ﷺ وظَّفَ كافة الجوانب القانونية والسياسية، ولم يهمل الجانب النفسى والإعلامي؛ لهذا أمر بإخراج الهدئي وإظهار التلبية، وأشار إلى أنها مدعاة لتلين القلوب، فليس المدَّع أن يقول: بأن توظيف الجانب النفسى والإعلامي، هما من التوجهات والعلوم الحديثة التي أدخلتها الحضارة الغربية في المفاوضات.

لقد اتسمت المفاوضات بالصفاء، والهدوء، وحسن النية، فقد بادر رئيس الوفد القرشي بإزالة التوتر وتهذئة الموقف، فقدَّم اعتذاره عن ما بدر من قريش من تجاوزات، تمثلت في التسلل المتكرر إلى صفوف المسلمين، وحجز عثمان بن عفان وأصحابه العشرة لدى قريش. لقد وصف سهيل هذه التجاوزات، بأنها من عمل السفهاء.

بعد الاعتذار، تقدم سهيل بن عمرو، يطلب إطلاق الأسرى من المشركين، فقال للنبي ﷺ: (إبعث إلينا أصحابنا الذين أسرنا) فقال له ﷺ مجيباً: «إنني غير مرسلهم حتى ترسل أصحابي» فقال سهيل: (أنصفتنا).

بعث سهيل بن عمرو مندوبه (الشميم بن عبد مناف التميمي) إلى قريش، يطلب منهم إطلاق عثمان بن عفان ﷺ ومن كانوا معه، فبعث قريش إلى النبي ﷺ بمن كان عندهم، وأرسل ﷺ إليهم بأصحابهم، وبهذا يكون قد تم تبادل الأسرى.

لقد بدأت المفاوضات بأحدث النظريات السياسية المعاصرة، فسهيل بن عمرو كان من النجوم الساطعة بين سادات قريش.. عُرف بالعقل والحلم، كما عُرف بالرزانة وأصالة الرأي، كانت تدخره قرش للأُمور السياسية المعقدة، وتفزع إليه في الخطوب والمعضلات.

بعد أن قام سهيل بتهذئة الموقف العام، أراد تسخين المفاوضات، كما رغب أن يحافظ على المبادرة، وأن يبقى زمام المفاوضات في يده، فطرح أول اقتراح في المفاوضات وهو ما اصطلح عليه بكلمة (proposal) وهو عبارة عن إيجاب ينتظر القبول.

لكن النبي ﷺ أبدى مهارة فائقة، فلم يرد عليه بقبول، بل رد عليه باقتراح مضاد وهو ما يعرف في العلوم القانونية باصطلاح (counter proposal) فطلب منه إطلاق ما لدى المشركين أولاً، فكان اقتراحاً منصفاً شهد به سهيل في الحال حينما قال له: لقد أنصفتنا.

لقد انطلق سهيل في منهجه التفاوضي من التكتيكات القرشية، بينما كان ﷺ يؤسس مدرسة إسلامية مميزة في التفاوض، تقوم على الانضباط والهدوء واعتناء الحجة والوضوح، بينما المنهج القرشي يقوم على المناورة، وفرض الإرادة على الخصم، والمكاسب العاجلة.

لقد كان رسول الله ﷺ يجلس متربعا أثناء المفاوضات، بينما كان سهيل بن عمرو باركا على ركبته متوثبا، مما يعطي الدلالة على ثقة النبي ﷺ في نفسه وفي قضيته، بينما الوضع الجثماني لسهيل يشير إلى أنه يغالط نفسه، ويكابر في سبيل الحصول على أعظم المكاسب.

إن علم النفس السياسي، يركز اهتمامه بشكل أساسي على الوضع الجثماني للمفاوض، ويستتج من خلال ذلك حقيقة المفاوض، كما أن ذلك الوضع قد يؤثر على الطرف الآخر.

وهذا ما يعرف باصطلاح (Body Language)، فالنبي ﷺ اتخذ لنفسه وضعا جثمانيا خاصا، مما يؤثر في المندوب القرشي، ويجعله يشعر بتجاوزاته فيضعف موقفه تحت وطأة الإدانة الأدبية.

لقد بدا أن المفاوضات أصبحت تشكل مطلباً للطرفين، وأن الطرفين لا يريدان الحرب؛ لهذا أصبح هدف المفاوضات هو تعظيم المكاسب وتقليل الخسائر إلى أدنى حد ممكن، دون أن يترتب على ذلك انهيار المفاوضات.

لقد فشل المندوب القرشي، في فرض الشروط الجوهرية على النبي ﷺ وأبرزها أن لا يدخل المسلمون مكة أبداً، ما بقي لقريش فيها سلطان، كما لم يرض ﷺ بالتبعض في الدخول إلى مكة، بل أصر على الدخول بأصحابه لأداء مناسك العمرة، ومقاتلة قريش، إن تعرضت قواتها المسلحة للمسلمين.

لقد كان المندوب القرشي يخشى من اثنين: الفشل الشخصي، والحرب؛ لهذا عمد إلى البحث عن مكاسب ثانوية طرحها على الرسول ﷺ، فأعطاه إياها، فكانت حلولاً وسطاً تحفظ ماء الوجه لقريش، لكنها تثير الفتنة بين المسلمين، ولولا التقوى التي كانت تغمر قلوبهم لحدث ما كانت تصبو إليه.

انحصرت هذه الحلول في عودة المسلمين إلى المدينة المنورة، على أن يدخلوا مكة في العام القادم، فيمكنوا فيها ثلاثة أيام، يؤدون خلالها مناسك العمرة.

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد ضمن الحق له ولأصحابه، وللمسلمين، في أداء العمرة والحج، كما حقق ﷺ دماء المسلمين.

لقد التزمت قريش بعدم التعرض للمسلمين أثناء وجودهم في مكة، وإنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش، بقيام هدنة بينهما لمدة عشر سنوات، يأمن الناس فيها على أنفسهم.

التزام المسلمون بعدم حمل السلاح عند دخولهم إلى مكة، إلا سلاح الراكب وهو السيف، على أن لا يشهروه في مكة، بل تظل السيوف في إغمادها ما داموا فيها.

لقد التزم النبي ﷺ برد كل من جاء إليه من أبناء قريش، إذا كان قد جاء بغير إذن أهله، حتى ولو كان مسلماً، وليس على قريش أن ترد إلى النبي من جاء إليها من المسلمين، حتى ولو كان مرتدًا عن دينه.

لقد أشارت المعاهدة على أن تُترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم، في الانضمام إلى أي المعسكرين شاءت، والدخول في عهد أي الفريقين أرادت.

فالقبيلة التي تنضم إلى أي من المعسكرين، تصبح جزءًا من المعسكر الذي تدخل في عهده، له ما لها، وعليه ما عليها، مع الالتزام بنصوص المعاهدة.

إن أي عدوان يقع على أي من القبائل، يعتبر عدوانًا على المعسكر الحليف الداخلة في عهده، ويعتبر أي عدوان مبطلاً للمعاهدة.

اختلفت المفاهيم بين النبي ﷺ وبعض الصحابة رضي الله عنهم حول مادتين من المعاهدة: مادة العودة والدخول إلى مكة في العام القادم، ومادة إعادة المسلمين واللاجئين من قريش بغير إذن أهلهم، وعدم رد قريش لمن يأتيها من المشركين.

فالنبي ﷺ نظر إلى العودة في العام القادم، ضمناً لحق العمرة، والدخول إلى مكة في جو آمن، كما نظر إلى عدم رد قريش لمن يأتيها من صفوف المسلمين، إنه لا خير فيه، بل ويصبح ضرباً من الاستحالة أن يعود المسلم إلى الكفر بعد الإيمان.

بينما نظر البعض من الصحابة، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج رضي الله عنهم، إليها على أنها ضعف من المسلمين أن يقبلوا بذلك الشرط، فعمدوا إلى مراجعة النبي ﷺ في ذلك، لقد كانت مراجعة وليست معارضة، كما يحلو للبعض أن يصفها؛ لأن المعارضة هي المناقضة والمخالفة، وقد ثبت أن الصحابة لم يخالفوا رسول الله ﷺ.

لم يكن الاتفاق قد أبرم نهائياً، فجاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ يراجع في بنود الاتفاقية، وكان في حالة من الغم قائلاً: يا رسول الله، ألسنت برسول الله؟ قال: «بلى!» أو لسننا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فرد عليه النبي ﷺ في هدوء الأنبياء: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».



لقد حملت الغيرة على الإسلام، أن يعيد عمر طرح المراجعة على أبي بكر رضي الله عنهما، فما كان من أبي بكر إلا أن قال له في لهجة الصديق: الزم غزره فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن نخالف أمر الله، ولن يضيعه الله.

لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحده كارهاً للصلح، بل كان الكثير من الصحابة يشعرون بمرارة العودة إلى المدينة، دون أداء العمرة، ولم يكن ذلك رغبة في دخول مكة للرؤية التي رآها النبي ﷺ وهم بالمدينة، بل كانت المعاهدة تشييطاً للأمال التي عقدوها كما كان يبدو لهم.

لقد كانت الحديبية مدرسة للمفاوضات، ومنهجاً جديداً للصلح، ولا أملك إلا أن أقول كما قال عمر رضي الله عنه: «ما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٨١-٩١].

## ١٢ - حكمة عالية:

يقول الشيخ القرني: «لقد كان هذا الفتح مقدمة كبرى لفتح مكة، وهو وإن كان المسلمون لم يتنبهوا لحكمته إلا مؤخراً إلا أن حكمته بدأت تظهر شيئاً فشيئاً، حتى أدرك المسلمون أن النبي ﷺ يُدرك ما لا يدركون ويتوقع ما لا يتوقعون.

لقد أُمِنَ الناس منذ هذا الصلح بعضهم بعضاً، فبدأت غشاوة الكفر تزول عن قلوب الكفار فيتفهمون الإسلام على حقيقته، لقد انهار طغيان قريش الذي كانت تسلط به على الرقاب وتحوّل به بين الناس وبين مجرد التفكير، ويكفي أن يسلم قائد عظيم كخالد بن الوليد وكعمرو بن العاص؛ نتيجة لزوال الحائل البغيض الذي كان يحُول بين المشركين والتدبر في عظمة هذا الدين، لقد كان القتال وجهيته وأنفة الكفر تستولي على عقولهم، أما الآن فقد وضعت الحرب أوزارها، فعلى ذوي العقول أن يعيدوا النظر في موقفهم ويناقشوا أنفسهم ويصححوا خطواتهم.

ولقد تخلى عن قريش بهذا الصلح حلفاؤها فلم يعودوا يظاهرونها على حرب المسلمين كما كانوا يفعلون.

إن النصوص التي ظنها المسلمون إجحافاً بهم لم تكن في حقيقة الأمر إلا في مصلحتهم ومسايرة لأهدافهم، فما عليهم أن يرجعوا هذا العام إلى المدينة على أن يعودوا في العام القادم ليدخلوا مكة آمنين غير متوجسين من عدوهم أو متحسين لغدره وحره، فيكمل بذلك تقربهم إلى الله وتفرغهم لعبادته دون أن يشغل بالهم شيء غير ذلك». [هدي السيرة للقرني ١٨٣].

### ١٣ - معرفة أساس علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات البشرية حراً وسلاماً:

يقول الشيخ عرجون: «هذه المعاهدة تُعد أساساً عملياً لتطبيق التشريع الإسلامي المتعلق بتحديد العلاقة فيما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وأساساً لكل ما يتصل بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت مرارته وشدته، ومهما تكن آثاره وقسوته.

ذلك لأن النبي ﷺ، وهو رسول الله الذي بعثه لدعوة الناس كافة إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والعلم، هو الذي تولّى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضي شروطها، وكان على علم بما فيها من تفاوت في موازين عدالة المعاهدات، لم يُخدع فيها عن صواب الرأي، ولكنه أراد - بتوفيق الله وتسديده - أن يفتح للدعوة باباً سلمياً تقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصبية لا هوادة فيها.

وهي حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق في أصدق صورته وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة رسول الله ﷺ.

وهي حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان والجهالة في أبشع صورها، يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة من فجرة الوثنيين وطواغيت قريش.

والنبي ﷺ إذ يتولّى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادئ السياسة التشريعية لأتمته إنما يرسم بعمله طريق التأسّي به لمن يتولّى بعده أمراً من أمور الحياة في مستقبل هذه الأمة.

وعمله ﷺ في تطبيق المبادئ التشريعية هو الأصل الأول في البناء التربوي للمجتمع الإسلامي، ومن ثمّ كان عقد هذه المعاهدة والوفاء بشروطها له الأهمية الكبرى في تأسيس التشريع الإسلامي المحدّد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤ / ٢٦١-٢٦٢].

### ١٤ - مبدأ الاعتراف والتعامل مع العالم الخارجي:

يقول د/ الفيتوري: «يَا وَيْحَ قُرَيْشُ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ» لا ريب أن إستراتيجية حرب الاستنزاف تقوم على الاستهلاك التدريجي لقوة الخصم بما يؤدي إلى إرهاقه والنيل من معنوياته، والإضعاف المستمر لقدرته على الرد والمقاومة «يَا وَيْحَ قُرَيْشُ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ».

ولاجتناب سياسة الحروب الاستنزافية وإلغاء الآخرين كان من الضروري السعي لتحقيق مبدأ الاعتراف المتبادل بكياني الدولتين من كلا الطرفين، والانفتاح على العالم الخارجي على الأصعدة والمستويات كافة، الدبلوماسية، والتجارية، والفكرية التعليمية، والعسكرية، فدولة قريش اعترفت بدولة الإسلام حين أبرمت معها صلح الحديبية؛ لأن المعاهدة عادة لا تكون إلا بين ندين.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ: ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: «اُكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ: فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَكَتَبَهَا، ثُمَّ قَالَ: «اُكْتُبْ هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو»، قَالَ: فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَوْ شِئْتُ أَتَىكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ أَقَاتِلْكَ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ...».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٧-٣١٨].

وبالمقابل فقد اعترفت دولة الإسلام وجوديًا وليس شرعياً بسيادة دولة قريش الجاهلية على تلك الحدود الجغرافية، وذلك حين قبلت بمبدأ مفاوضة قريش، وعقد الصلح معها، والرجوع في هذا العام والقعود في العام المقبل!!

«فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُكْتُبْ هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، اضْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ، أَمِنُ فِيهِنَّ النَّاسُ وَيَكْفُ بِغُضُّهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بَعِيرٍ إِذْنٍ وَلَيْتَهُ رَدَّهَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ بَيْنَنَا عَيْنَةٌ مَكْفُوفَةٌ، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَاقَ وَلَا إِغْلَالَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٨].

ولا يخفى على رجال السياسة أن هذا الاعتراف المتبادل ضرورة دولية وعرفية يجب الالتزام بها التزاماً معنوياً وليس التزاماً مادياً؛ لما لها من فوائد ومصالح تتحقق للطرفين أو لجموع البشرية، ومن تلك الفوائد على سبيل المثال: تحقيق السلام، والأمن، والاطمئنان العام للعباد وربوع البلاد.

لذلك فإن مراعاة الدولة الإسلامية هذه الضرورة الدولية - وفق المنظومة الشرعية المتمثلة في الاعتراف المتبادل بينها وبين الدول الأخرى، وإيفاد الرسل أو المبعوثين، واعتبار الرأي العام العربي والدولي، ومراعاة التوازن الدولي في سياستها الخارجية والداخلية أمرٌ لا غبار عليه، بل يرتقي لدرجة الوجوب من الناحية الشرعية والتأصيلية، والحركية السياسية.

كل ذلك يجب على قيادات المشروع الإسلامي وهي تسعى نحو الدولة والتمكين أن تأخذ به جد، وتضعه نصب عينيه؛ لأن عدم الاعتراف بهذه الضرورة الدولية يعني النعمة الدولية، وتآليب الرأي العام على الدولة الإسلامية في المحافل الدولية، والمؤتمرات الإقليمية، إلى أن يصل الأمر بعد ذلك إلى عزل الدولة الإسلامية عن الأسرة الإقليمية، والدولية، وعدم الاعتراف بها كدولة صاحبة سيادة مستقلة، بل عد الاعتراف بها كوجود على الخارطة البشرية السياسية!!

ولكن لا ننسى في غمار العمل السياسي والدبلوماسي الخارجية حقيقة شرعية مهمة مفادها أن اليهود والنصارى والمشركين لن يرضوا عن قيام دولة إسلامية مستقلة عنهم سياسياً، واقتصادياً، وفكرياً،

وعسكرياً، وإستراتيجياً، حتى تسبح في فلك إستراتيجيتهم الإقليمية والدولية على الأصعدة والمستويات كافة، وهذه الحقيقة الشرعية والكونية قد قررها القرآن الكريم منذ زمن بعيد، فقال ﷺ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بِلَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لذلك يجب على الدولة الإسلامية في طور استضعافها أو استخلاصها أن تتعامل مع هذه المبادئ السياسية من باب الضرورات التي تُقدَّر بقدرها، وتأخذ في اعتبارها عدم التوسع في هذا الباب حتى لا يجبرها مَنْ لَا خَلَقَ لَهُمْ إِلَى بَرَاثِنِ الْكُفَّارِ وَالظَّالِمِينَ، وتدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

بل الواجب عليها أن تحافظ على المبادئ والسنن الشرعية والكونية، وتسعى من خلال تلك السنن في إطار التمكين لدولة الإسلام وحمايتها حتى تصل بالأعداء إلى مرحلة اليأس والإحباط على المستويات كافة من عدم جدوى ممارسة الضغوط لإلغاء وجود الدولة الإسلامية إقليمياً ودولياً، بل تصل من خلال تلك السنن إلى قناعتهم بضرورة الاعتراف بالدولة الإسلامية والتعامل معها حسب الأطر السياسية، والعرفية، والمصلحية، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

هذه هي الحقيقة التي يجب على قيادات المشروع الحضاري أن تعلمها وتصبر عليها حتى تصل بالأعداء إلى ذلك اليوم، يوم اليأس والقنوط من إلغاء الدولة الإسلامية ومشروعها الحضاري، ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ثم يأتي بعد ذلك اليوم، يوم التمكين والنصر، يوم النعمة والرضى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]!!.

[صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيثوري ٦٩-٧٢].

## ١٥ - عملية التفاوض:

يقول د/ إبراهيم: «ينقسم التفاوض أخى القارئ إلى:

(١) تفاوض (مكسب/ خسارة) عندما يكسب أحد الطرفين ويخسر الآخر، وغالباً ما يفشل بعد إتمامه.

(٢) تفاوض (خسارة/ خسارة) وفيه يخسر الطرفان ويتهي بالفشل.

(٣) تفاوض (مكسب/ مكسب) وفيه يكسب كلا الطرفين ما كان كل منهما يرغب فيه، وتكون هذه

المفاوضات أنجح المفاوضات، وأكثرها استمرارية.

ويجب على المفاوض أن يحدد لنفسه ثلاث مجموعات من الشروط هي:

(١) ما يمكنه الاستغناء عنها، وهي غالبًا تتم في بداية التفاوض لإقامة جسور من الود وحسن النية، وكذلك يمكن أن يحصل عليها أحد الأطراف في نهاية الاتفاق عندما يضطر الطرف الآخر للتنازل عنها حتى لا تفشل المفاوضات وتعود من البداية، وغالبًا تكون هذه الشروط غير مؤثرة.

(٢) ما يصعب عليه الاستغناء عنها، وهي ما يتم التفاوض عليها ومبادلتها بمصالح أخرى، ويكون التفريط فيها بكل صعوبة، وبعد مناقشات حامية وتنازلات من الجانب الآخر.

(٣) ما لا يمكنه الاستغناء عنه، وهو ما يمس الهدف الرئيس للمفاوض، وإذا أصر الطرف الآخر على إلغاء هذا الشرط توقف المفاوضات وتفشل، وينسحب الطرف المطلوب منه التنازل.

**كيف بدأت المفاوضات؟** للأسف الشديد لم ترد في كتب السيرة تفاصيل عملية التفاوض التي تمت بين النبي ﷺ وبين سهيل بن عمرو، واكتفت كتب السيرة بذكر أنه تكلم فأطال الكلام وتراجعا، ثم ذكرت الاتفاق النهائي وما حدث أثناء كتابته.

ولكننا سنحاول من خلال ما كُتب أن نستنتج ما جرى خلال التفاوض من عمليات تنازل وتصميم وهكذا.

تقول كتب السيرة: إن قريشًا بعثوا سهيل بن عمرو للنبي ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا قال: «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ».

كف عرف النبي ﷺ هذا؟ بطبيعة الحال لأنه النبي ﷺ أعظم المفاوضين، فلو لاحظت أخي القارئ ما سبق لوجدت أنه تقريبًا كل من جاء للنبي ﷺ لم يكن من قريش، وإنما من قبائل خارج مكة: بديل بن ورقاء من خزاعة، والحليس بن علقمة من الأحابيش، وعروة بن مسعود من ثقيف، إلا سهيل بن عمرو فإنه من سادة قريش وأشرافها، فهنا أدرك النبي ﷺ أن قريشًا أرادت الصلح فأرسلت أحد أشرافها لعقده.

كما أن الروايات تقول أنه جاء في وفد وليس مفردًا كما حدث مع باقي الموفدين، فقد ورد في بعض الأحاديث أن قريشًا أرسلت معه حويطب بن عبد العزى وحفصًا، وفي رواية أخرى: (أرسلوا إليه سهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص، فقالوا: انطلقوا إلى محمد فقاضياه). [فتح الباري للحافظ ابن حجر ٦٧٦/٥].

وهنا أيضًا نلاحظ أساسًا من أسس التفاوض وهي: «ألا تتفاوض إلا مع من له الحق في التفاوض، أما من لا يحق له التفاوض فلا تتفاوض معه».

فلو لاحظت أخي القارئ ما فات لوجدت أن النبي ﷺ تقريبًا لم يتفاوض مع أحد، ولم يُسهب في الكلام مع أحد إلا مع سهيل، لماذا؟ لأنه الشخص الذي ستم معه المفاوضات، «فالتفاوض الذكي لا يُلقَى بأوراقه إلا في وقت التفاوض الفعلي، أما في المناوشات وجمع المعلومات فيكون في قمة الحذر والحرص»؛ لهذا لم يقم النبي ﷺ بإجراء أي تفاوض مع أحد إلا سهيل.

أوراق كل طرف: كل طرف من الأطراف المتفاوضة يجب أن يعلم ما بين يديه من أوراق الضغط التي تُعتبر نقاط ضعف عند الطرف الآخر، حتى يتمكن من إجراء تفاوض من موقع قوة وليس من موقع ضعف وكثيراً ما تكون هناك أوراق ضغط وتضيق نتيجة للجهل بها، فما أوراق كل فريق؟

بالنسبة للنبي ﷺ والمسلمين فإن معهم نقطة مهمة جداً وهي الشرعية، فإن من حق كل عربي في الجزيرة العربية في ذلك الوقت أن يحج ويعتمر للبيت الحرام، فهذا حق شرعي لا يستطيع أحد أن يأخذه منهم؛ لهذا أكد النبي ﷺ مع كل المبعوثين من قبل قريش أنه إنما جاء معتمراً لا أكثر، حتى يوضح للعالم من حوله شرعية قضيته، ولم ينسق وراء مهاترات قريش التي حاولت بها أن تضيق هذا الحق الشرعي.

وأيضاً من نقاط القوة عند النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم، ومبايعتهم له على الموت وعدم الفرار، وما نقله عروة بن مسعود لكفار قريش عن منزلة النبي ﷺ عند أصحابه، وبطبيعة الحال فإن أكثر الناس إدراكاً لقوة الصحابة أهلهم من كفار مكة؛ لأنهم جربوهم في القتال والنزال.

وبالنسبة للمشركين في مكة فإن أول نقطة هي وجود البيت الحرام عندهم مما يسهل عليهم الصد عنه؛ وذلك لأنهم هم المدافعون عنه والحامون له ضد أي عدوان؛ لذلك تجدهم أخى القارئ دائماً ما يرددون كلمة «لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَنُوةٌ» حتى يوضحوا للقبائل أن دخول النبي ﷺ والصحابة كان بالقوة، ولنا حق الدفاع عنه.

ومن نقاط القوة أيضاً أنهم قادرون على الحرب، وهم اليوم في عقر دارهم، وهم أكثر من النبي ﷺ والصحابة عدة (لم تؤثر العدة أبداً في حرب بين المسلمين والكفار) فهم قادرون على إحداث مشاكل للمسلمين لا يرغبها النبي ﷺ.

**إنهاء المفاوضات:** نظراً لعدم توافر ما يفيدنا في مجرى المفاوضات فسنحاول معاً توقع ما حدث من خلال الأحداث التي جرت أثناء كتابة المعاهدة وتحليلنا لبنودها.

**كتابة المعاهدة:** «وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ أَقَاتِلْكَ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو.

مما سبق نلاحظ اهتمام الكفار بالصورة التي سَتُكتب بها المعاهدة، وعدم اعتراض النبي ﷺ على هذا؛ لأن كل كلمة تُكتب يكون لها معنى وتأويل.

فمن حق المتفاوض أن يُراجع كل كلمة، ويُبدي اعتراضه على ما يظن أن تأويله ممكن أن يخل بممراده من المعاهدة، أو بالأحرى من أهدافه التي يسعى لتحقيقها.

كذلك نلاحظ عدم وقوف النبي ﷺ على الصغائر، فالنبي ﷺ أدرك أن ما تم الاتفاق عليه يحقق له كل ما يريد، فلا داعي لهدم الاتفاق من أجل ملاحظات هامشية وتنازلات لن تؤثر، وخصوصاً أن ما تمت كتابته لا يؤثر في الثواب التي يدعو لها النبي ﷺ، فلم تُعظم الأصنام أو يُسَفَّه من المسلمين وعقيدتهم. فلا ضرر من إبداء المرونة والتنازل عن الشكليات في سبيل تحقيق الهدف الرئيسي.

#### نص المعاهدة:

- (١) وضع الحرب عشر سنوات يأمن الناس فيها.
- (٢) من أتى النبي ﷺ وبدون إذن أهله رده النبي ﷺ عليهم، ومن أتى قريشاً من أصحاب النبي ﷺ دون إذنه لم يردوه عليه.
- (٣) بين النبي ﷺ والكفار في مكة عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، أي يأمن بعضهم بعضاً على المال والعرض.
- (٤) مَنْ أحب أن يدخل في عهد النبي ﷺ من القبائل دخل، فدخلت خزاعة، وَمَنْ أحب أن يدخل في عهد قريش من القبائل دخل، فدخلت بنو بكر.
- (٥) أن يعود النبي ﷺ ولا يعتمر هذا العام، ويعود العام التالي للعمرة.

#### ما نستنتجه من بنود المعاهدة:

- (١) بعد ما قرأته من بنود المعاهدة هل أدركت أخي القارئ ما الشرط الذي لا يمكن للنبي ﷺ التنازل عنه؟ هو الهدنة وتحبيد مكة وأهلها وإخراجهم من صراعه مع باقي الجزيرة العربية، وهذا هو ما كان يسعى إليه النبي ﷺ من البداية، وقد حصل عليه في البند الأول.
- وبالنسبة للمشركون فإن الشرط الذي لم يكونوا ليتنازلوا عنه هو عودة النبي ﷺ وأصحابه دون دخول مكة، فعندما بعث قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ قالوا له: **أَنْتَ مُحَمَّدًا فَصَاحِبُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صُلْحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجَعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنَوْهُ أَبَدًا.**
- وهذا ما حصل عليه المشركون في البند الأخير.

- (٢) تلاحظ أخي القارئ أن الشرط الثالث - تبعاً لترتيب كتابة المعاهدة - هو شرط مزدوج، بمعنى أنه محايد يفيد المسلمين كما يفيد المشركين، وهذا الشرط مثال للشروط التي تُكتب لتصفية النيات، وتقريب وجهات النظر، وإبداء التفاهات، وإقامة جسور الثقة، حيث يرى كل طرف فيه أنه لم يتنازل عن شيء، بل يجده في مصلحته ويناسب أغراضه وأهدافه.

(٣) الشرط الثاني- في رأيي الشخصي - أن النبي ﷺ لم يكن راضيًا عنه، وستكلم لاحقًا عن هذا الشرط بالتفصيل، ولكن لم يتنازل النبي ﷺ ويقبل بهذا الشرط إلا بعد أن حصل على الشرط الرابع، وهو اعتراف صريح لا مجال للبس فيه بوجود كيان قوي اسمه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وهو اعتراف ليس من مكة فقط ولكن من كل الجزيرة العربية وقبائلها، حيث يمكن أن ينضم من يريد من القبائل إلى حلف هذه الدولة كما فعلت خزاعة، أو إلى حلف قريش كما فعلت بنو بكر.

(٤) لو عدت لبنود المعاهدة أخي القارئ لوجدتها خمسة: اثنان في صالح الإسلام والمسلمين، واثنان في صالح المشركين، وواحد محايد؛ لذلك تُعتبر هذه المفاوضات من أول ما يمكن أن نطلق عليه مفاوضات (مكسب/ مكسب) وذلك لحكمة النبي ﷺ في الخروج بالمفاوضات لبر الأمان.

(٥) لو لاحظت بنود العقد أخي القارئ لرأيت أن نظر النبي ﷺ واسع في صالح الدعوة للدين الإسلامي، ونابع من رسالته الراقية للعالم، في حين أن نظر قريش ضيق للمصالح الشخصية لهم، ونابع من حمية الجاهلية، وهذا هو الفارق بين مَنْ له رؤية ومَنْ لا يملك أي رؤية.

الشرط الثاني: من قواعد المفاوضات أنك قد تقبل شرطًا لست راضيًا عنه، ولكن من قواعدها أيضًا أن تأخذ في المقابل شرطًا يحقق لك مكسبًا مضاعفًا.

قد يكون الشرط الثاني من أكثر الشروط حزنًا للمسلمين، وهذا ثابت في كل كتب السيرة والأحاديث؛ لأن شرط عودتهم دون العمرة تم تعويضه بأن أصبح في إمكانهم أداء العمرة في العام التالي، أما هذا الشرط فلم يكن هناك ما يعوضه في نظرهم، وما زاد من ضغط هذا الشرط على المسلمين أن النبي ﷺ التزم به مباشرة حتى قبل انتهاء المفاوضات عندما جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو - مفاوض قريش - مسلمًا مهاجرًا، فاضطر النبي ﷺ لرده مع أبيه.

وفي ظني أن النبي ﷺ لم يكن راضيًا عن الشرط الثاني لعدة أسباب:

(١) أكثر شيء كان يُحزن النبي ﷺ رؤية أصحابه يتأذون، وقد كان يسعى بكل قوته لإخراجهم من الظلم والأذى، فكيف سيردهم للأذى وهو راض؟ وقد سمعت أخي القارئ ما دار بين النبي ﷺ وسهيل بن عمرو، ورأيت كيف أن النبي ﷺ حاول بكل قوة أن يحتفظ بأبي جندل ﷺ، لدرجة أنه ﷺ كاد يترجى والده سهيلًا، فبال تأكيد كان هذا الشرط دون رغبة منه ﷺ.

(٢) اعتذار النبي ﷺ لأبي جندل وتبريره لماذا اضطر لإعادته، وقد حدث هذا أيضًا مع أبي بصير عتبة بن أسيد ﷺ عندما قدم على النبي ﷺ المدينة فارًا بدينه من الكفار في مكة فردّه النبي ﷺ، وقال له مثل ما قاله لأبي جندل ﷺ.



(٣) لم يغضب النبي ﷺ من أصحابه عندما راجعوه في هذا الأمر، إنما كان تبريره لهم قوله: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، هذا يؤكد أن النبي ﷺ لم يكن راضيًا عن هذا الشرط. كيف تعامل النبي ﷺ مع هذا الشرط:

من حِكمة المفاوض أن يجيد التعامل مع الشروط التي اضطر للقبول بها.

(١) كما قلنا إن النبي ﷺ لم يكن راضيًا عن هذا الشرط، ولكنها ظروف التفاوض؛ لذلك عندما جاءت بعض النساء مهاجرات أخرجهن النبي ﷺ من هذا الشرط ولم يردهن لقريش، ونزل القرآن مصداقًا ومدعمًا لمنع النبي ﷺ رجوع المؤمنات للمشركين مرة أخرى.

(٢) عندما قطع أبو بصير ﷺ الطريق على قوافل قريش قال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِمْ حَرْبٌ (مشعل الحرب) لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!»، ففهم المسلمون في مكة أن هذا الكلام قد يكون إشارة لهم للانضمام لأبي بصير ﷺ ومحاربة الكفار.

(٣) لم يتدخل النبي ﷺ بين أبي بصير ﷺ وأهل مكة عندما قطع عليهم الطريق، حتى اضطرت قريش لطلب التدخل منه ﷺ.

أعود وأكرر لك أخي القارئ أن هذه هي قواعد المفاوضات فعليك أن تقدم تعهدات قد تكون غير راض عنها، ولكن في المقابل تأخذ تعهدات من الطرف الآخر تحقق لك مكسبًا.

[محمد ﷺ لماذا هو الأعظم؟ لإبراهيم ١٥٣-١٦٣].

## ١٦ - الصياغة والتوثيق للمعاهدات الإسلامية:

يقول د/ عشقي: «إن صياغة المعاهدات ليست بالأمر الهين ولا اليسير، فالصياغة تعني دخول المعاهدة الدولية في طور التنفيذ والالتزام؛ لأن المعاهدة تنشئ التزامات قانونية على عاتق الدولة وتحدد من سيادتها.

والصياغة انتقال من مرحلة التفاهم والمناقشة إلى مرحلة الدقة والالتزام؛ لهذا فإن المرحلة تتطلب فهمًا مستنيرًا لكل ما يرد في المعاهدة، ودراسة واعية، للتحقق من مبرراتها وآثارها، مع التمهيد الدقيق لأحكامها، وكلماتها، ومصطلحاتها، وحتى الفواصل فيها.

انتهت المفاوضات الشفوية بين النبي ﷺ والفريق القرشي برئاسة سهيل بن عمرو، وعضوية كل من: مكرز بن حفص، وحويط بن عبد العزى.

لقد كانت المفاوضات تجري في العراء، على مرأى ومسمع من المسلمين رجالًا ونساء، لم يكن مع المسلمين من النساء إلا أم سلمة، وأم عمار، وأم منيع، وأم عامر الأشهلية.

وكما انتقلت أخبار المفاوضات وأحداثها إلى التاريخ برواية الرجال، فقد تم انتقالها أيضًا برواية النساء، لقد كانوا شهود العصر، على مرحلة من أدق المراحل في التاريخ الإسلامي.

رغم الحكمة والتعقل الذين كان يتحلّى بهما سهيل بن عمرو، إلا أن الموقف كان يستفزّه، حينما يصطدم برفض نبوي للشروط التي يطرحها، لكن قادة الحراسة وهما عباد بن بشر وسلمة بن سلمة بن حريش، كانا يبنهانه إلى جلال الموقف، وأدب الحوار، فيتراجع في استحياء، ثم يستأنف التفاوض.

اتفق الطرفان على أن يأتي المسلمون إلى العمرة عامهم القادم، حفظاً لماء وجه قريش بين القبائل، على أن يدخلها المسلمون بسلاحهم الشخصي، وهو سلاح الراكب، وأن تكون السيوف في أغصانها داخل مكة، وألا يزيد مكثهم في مكة عن ثلاثة أيام، وأن تحدد الهدنة بينهما بعشر سنوات، وعلى المسلمين أن يردوا كل من جاءهم من قريش دون إذن أهله، ولا يرد من جاء لقريش مرتدًا عن دينه من المسلمين، وأن تترك الحرية للقبائل المجاورة في الانضمام لأي من المعسكرين، مع الالتزام بنود المعاهدة.

لقد تعرضت المفاوضات لهزة خطيرة، حينما جاء أبو جندل ابن كبير المفاوضين من قريش، هاربًا بقيوده، طالبًا من المسلمين الجوار والحماية، ما إن رآه سهيل بن عمرو حتى انقضّ عليه في قسوة مستفزة، يضرب وجهه بغصن من الشوك، ويدفع به بعيدًا عن المسلمين، وتوتر الموقف، لكن النبي ﷺ احتوى الموقف وأعاد أبا جندل لأبيه، بعد قبوله ﷺ الالتزام بنصوص المعاهدة، رغم عدم كتابتها وتوثيقها، ليصبح هذا الإجراء مبدأً إسلاميًا في المفاوضات.

أجار العضوان من وفد قريش أبا جندل وأبعده عن أبيه، فهدأت الخواطر، وبدأ الطرفان في استئناف المفاوضات، والانتقال إلى المرحلة الثانية، مرحلة الصياغة والتوثيق.

إن المعاهدة الدولية، لا تستكمل صفاتها القانونية ولا شروطها الشكلية، إلا بالمرور عبر مراحل مختلفة، حتى تصل إلى مرحلة التنفيذ، والمعاهدات الدولية، أثرت العلوم القانونية بمعظم قواعد القانون الدولي، وعن طريق المعاهدات تحددت غالبية الحقوق والواجبات بين الدول، مما جعلها تترسم الصدارة بين المصادر الأصلية للقانون الدولي.

لم يعد تاريخ القانون تنظيمًا للاتفاقات والمعاهدات الدولية، إلا بعد منتصف القرن العشرين، وما ذلك إلا لأن الغرب أعرض عن البحث في القانون الدولي في الإسلام، فتأخر مئات السنين عن التنظيم.

إن القانون الدولي يقسم المعاهدات الدولية من حيث الموضوع إلى معاهدات عقدية Contract Treaties وهي المعاهدات التي تهدف إلى تحقيق نتيجة قانونية خاصة بين الأطراف الموقعة، ومعاهدات شارعة Law-Making Treaties كميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م، واتفاقية فيينا للعلاقات الدولية والقنصلية عام ١٩٦١م وعام ١٩٦٣م.

أما معاهدة الحديبية فإنها معاهدة عقدية شائعة؛ لأن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وما يقرره تصبح مصدرًا من مصادر التشريع.

ولأن رسول الله ﷺ بعثه الله مشرّعًا، فإن المعاهدات التي يعقدها ﷺ أو يقرها، تعتبر — في الفقه الإسلامي — معاهدات شائعة، حتى لو أخذت الطابع العقدي في المعاهدات، وبهذا يمكن أن نقول: بأن الفقه الإسلامي قد عرف التنظيم الدولي للمعاهدات منذ أربعة عشر قرنًا.

لقد كانت المعاهدات الدولية عبارة عن إجراءات تتم وفقًا للعرف الدولي، لكن المشروع الذي نوقش في المؤتمر الدولي بدعوة من الأمم المتحدة في فيينا عام ١٩٦٨ م وعام ١٩٦٩ م، إنتهى بإصدار اتفاقية دولية لقانون المعاهدات في ٢٣ مايو ١٩٦٩ م.

ولأن المعاهدات الدولية ترتب لأطرافها حقوقًا، وتنشئ عليهم التزامات، فإن معاهدة جنيف قضت بتحديد الشروط اللازمة لصحة المعاهدات الدولية، وحصرتها في ثلاثة شروط هي: الأهلية، والرضا، والمحل.

فالأهلية تتطلب أن تكون الدولة المعاهدة تتمتع بالسيادة الكاملة؛ لهذا فإن الدولة الإسلامية في المدينة، كانت دولة تتوفر لها عناصر السيادة، كما أن معاهدة الحديبية، تعتبر اعترافًا دوليًا وصرحًا من قريش بالدولة الإسلامية.

ولأن الأهلية لا تكفي لتصبح المعاهدة صحيحة؛ لهذا اشترط القانون الدولي، أن يتوفر عنصر الرضا لدى أطراف المعاهدة، وأن يكون الرضا نابغًا من الإرادة الحرة للأطراف.

فإذا عيب الرضا بغش، أو غلط، أو إكراه، فإن المعاهدة تصبح معيبة وغير ملزمة، وقد يؤدي ذلك إلى بطلانها.

ويشترط في صحة المعاهدة الدولية، أن يكون المحل، وهو موضوع المعاهدة معروفًا لدى المتفاوضين، كما يجب أن يكون واضحًا ومفهومًا وأن يكون الاتفاق منصّبًا عليه.

ويشترط في المحل، ألا يتعارض مع أمرّة من قواعد القانون الدولي (Jus Cogens) إذ لا يجوز أن يكون الاتفاق على القرصنة بكل أنواعها أو الاتجار بالرقيق، أو غير ذلك مما تحرمه الأعراف، والقوانين الدولية. لكن الدول الإسلامية، عليها أن تشترط لنفسها، ألا تكون المعاهدات والاتفاقات الدولية أو ما يرد فيها، مخالفًا للشريعة الإسلامية، وهو ما دأبت عليه المملكة العربية السعودية في كل مناسبة.

يُشترط عند صياغة المعاهدات أن يُزوّد الممثل المعتمد في المفاوضات بوثيقة التفويض الكامل ( Full Powers)، وهي التي عرفتها الفقرة (ج) من المادة الثانية من اتفاقية جنيف، بأنها الوثيقة الصادرة عن

السلطات المختصة في الدولة، والتي تعيّن شخصاً لتمثيلها في المفاوضة، أو في قبول نص المعاهدة، أو في إضفاء الصيغة الرسمية عليها، أو التعبير عن ارتضاء الدولة الالتزام بالمعاهدة، أو القيام بما يتعلق بالمعاهدة. أما إذا كان الممثل في المفاوضات واحداً من الذين عُرفوا بأنهم ممثلون لدولهم، بحكم وظائفهم، كرؤساء الدول أو الحكومات، أو وزراء الخارجية، أو رؤساء البعثات الدبلوماسية، أو هيئة أو منظمة دولية، فلا داعي لإبراز الوثيقة.

وهذا ما حدث عند صياغة معاهدة الحديبية، فالرسول ﷺ لا يختلف اثنان أنه القائد السياسي والديني للدولة الإسلامية.

أما بالنسبة لسهيل بن عمرو فإنه كان يُعرف لدى العرب إنه الممثل لقريش في مفاوضاتها، يدل على ذلك أن رسول الله ﷺ حينما رآه استبشر - وقال: «سهل الله أمركم، القوم ماتون إليكم بأرحامهم وسألوكم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

لقد أُلِفَ المفاوضون عند صياغة المعاهدة أن تبدأ بالديباجة حيث يرد فيها أسماء المفاوضين، وما يتم من تبادل كتب التفويض، والتأكد من صحتها، والتعرف على غرض المعاهدة. ثم يأتي المتن وهو صلب المعاهدة، ويحتوي على موادها التي توزع أحياناً إلى أبواب، وفصول، وأقسام، وفقرات.

أما صياغة المعاهدة فتتضمن تاريخ التنفيذ، وسريان المعاهدة الزماني والمكاني، ومدتها وإمكان تجديدها، وأصول تصديقها، والانضمام إليها، وتعديلها وتفسيرها، واللغة الرسمية التي يعتبرها في هذا التفسير، كما تشير الخاتمة إلى تسجيلها، وإيداع وثائق التصديق.

ثم تأتي مرحلة التوقيع بالأحرف الأولى، ويعني بذلك توقيع المفاوضين على نص المعاهدة، إشعار بالالتزام المبدئي بها، على أن المعاهدة لا تصبح ملزمة إلا إذا صدقت، ما لم يكن للمندوبين تفويض بالإبرام النهائي.

لقد حدث في الحديبية خلاف بين الفريقين، كان الخلاف الأول حول الكاتب، فعندما أحضرت الدواة والصحيفة، دعا النبي ﷺ أوس بن خولي لله لبحر الوثيقة، فاعترض سهيل بن عمرو قائلاً: لَا يَكْتُبُ إِلَّا أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: ابْنُ عَمِّكَ عَلِيٌّ، أَوْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا يَكْتُبُ.

شرع النبي ﷺ في إملاء الصيغة لتحرير ما اتفق عليه، فأمر علياً ﷺ أن يبدأ المعاهدة بكلمة: ﴿وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اعترض رئيس الوفد القرشي وقال: لا أعرف الرحمن، اكتب كما كنا نكتب (باسمك اللهم)، رفض الصحابة ذلك وقالوا: هو الرحمن، ولا تكتب إلا الرحمن، قال سهيل: إذاً لا أقاضيك على شيء،

فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم»، هذا ما اصطلاح عليه رسول الله ﷺ، فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، أفرغب عن اسم أبيك محمد بن عبد الله؟

ارتفعت أصوات الصحابة وقام رجل من المسلمين، وقال: لا نكتب إلا محمد رسول الله، أما أسيد بن حضير سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج، فقد أخذوا بيد الكاتب فأمسكها، وقالوا: لا تكتب إلا محمد رسول الله، وإلا فالسيف بيننا، علام نعطي هذه الدنيا في ديننا؟

تدخل ﷺ، فأولمأ بيده الشريفة إلى الصحابة حيث بالصمت، ثم أمر علياً أن يمحو (رسول الله)، وأن يكتب بدلاً منها كلمة (محمد بن عبد الله)، لقد نزلت الآية (١١٠) من سورة الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا اللَّهَ وَأَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّهَا الَّذِينَ دَعَوْا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

وبهذا أصبحت الصيغة الحرفية كما أوردها ابن هشام في سيرته، والواقدي في مغازيه، وابن سعد في طبقاته، وجوامع السيرة، والسيرة الحلبية: (باسمك اللهم، هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطلاحاً على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أن لا إسلال ولا إغلال، وأن بيننا عية مكفوفة، وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل، وأن من أحب أن يدخل في عهد قريش وعهدها فعل، وأن من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده إليه، وأن من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده، وأن محمداً يرجع عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا قاتل في أصحابه، فيقيم ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب).

لقد كانت المعاهدة في وثيقة واحدة فقال سهيل بن عمرو: تكون عندي، وأصر على ذلك، فبادر ﷺ فأمر بأن تكتب نسخة مطابقة للأصل، فأعطاه سهيل بعد أن وقعت الوثيقتان من النبي ﷺ وسهيل بن عمرو وباقي الشهود.

لقد وقعت الوثيقة من تسعة شهود: اثنين من المشركين، وسبعة من المسلمين، وقّعها أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، كلهم من المبشرين بالجنة إلا محمد بن مسلمة الأنصاري، أما على بن أبي طالب فلم يوقع لأنه كاتب الوثيقة.

ومن المشركين: حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأظيف.

لم يقتصر الحضور عند كتابة الوثيقة على قريش والمسلمين، بل كان هناك حضور لبعض الحلفاء من خزاعة وبني بكر كمراقبين، وكان المراقبون مفوضين في اتخاذ الإجراء المناسب حيال المعاهدة.

لهذا تقرر فتح أبواب المعاهدة لدخول القبائل المجاورة مع أي من الطرفين، ما إن وُقعت المعاهدة حتى أعلن مندوب خزاعة دخول خزاعة في عهد المسلمين، وأن تلتزم بمقررات الصلح، وأن تصبح جزءاً من المعسكر الإسلامي.

لم تكن خزاعة عدوة لقريش، بل كانت لهم خوولة فيهم، وكان بديل بن ورقاء من خزاعة يقيم في مكة معظم أيام السنة، ومع هذا فإن خزاعة كانت تتعاطف مع الرسول ﷺ، وظهر تعاطفها جلياً في حمراء الأسد.

ما إن أعلنت خزاعة أنها في حلف النبي ﷺ حتى التفت حويطب بن عبد العزى وهو أحد أعضاء الوفد القرشي إلى سهيل بن عمرو قائلاً: «بَادَأْنَا أَخَوَالِكَ بِالْعَدَاوَةِ، وَقَدْ كَانُوا يَسْتَتِرُونَ مِنَّا، قَدْ دَخَلُوا فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَعَقْدِهِ.

قَالَ سُهَيْلٌ: مَا هُمْ إِلَّا كَعَبَائِرِهِمْ، هَؤُلَاءِ أَقَارِبُنَا وَلَحْمُنَا قَدْ دَخَلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ، قَوْمٌ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَمْرًا فَمَا نَصْنَعُ بِهِمْ؟

قَالَ حُوَيْطِبٌ: نَصْنَعُ بِهِمْ أَنْ نَنْصُرَ عَلَيْهِمْ حَلَفَاءَنَا بَنِي بَكْرٍ. قَالَ سُهَيْلٌ: إِيَّاكَ أَنْ تَسْمَعَ هَذَا مِنْكَ بَنُو بَكْرٍ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ شُؤْمٍ فَيَقْعُوا بِخِزَاعَةٍ فَيَغْضَبُ مُحَمَّدٌ لِحَلَفَائِهِ فَيَنْقُضَ الْعَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ.

قَالَ حُوَيْطِبٌ: حَظَوْتَ وَاللَّهِ أَخَوَالَكَ بِكُلِّ وَجْهِ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: تَرَى أَخَوَالِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ بَنِي بَكْرٍ؟ وَلَكِنَّ وَاللَّهِ لَا تَفْعَلُ قُرَيْشٌ شَيْئًا إِلَّا فَعَلْتَهُ، فَإِذَا أَعَانَتْ بَنِي بَكْرٍ عَلَى خِزَاعَةٍ فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَبَنُو بَكْرٍ أَقْرَبُ إِلَيَّ فِي قَدَمِ النَّسَبِ، وَإِنْ كَانَ لَهُؤُلَاءِ لِحْوَلَةٌ وَبَنُو بَكْرٍ مَنْ قَدْ عَرَفْتُ، لَنَا مِنْهُمْ مَوَاطِنٌ كُلُّهَا لَيْسَتْ بِحَسَنَةٍ مِنْهَا يَوْمٌ عَكَاظٌ». [المغازي للواقدي ٦١٢/٢].

بادرت بنو بكر بالانضمام إلى قريش نكاية لخزاعة، بعد أن كانوا أعداء، وبهذا تكون المعاهدة قد حققت الدماء، ليس بين المسلمين وقريش وحدهم، بل بين القبائل العربية المجاورة، فأمنت المدينة المنورة الجبهة الجنوبية، وتوقف الخطر على المسلمين، فكان هذا أبرز آثار المعاهدة.

إن معاهدة الحديبية جديرة بالبحث والتحليل، لقد أثرت الفقه القانوني بالعديد من الأسس والقواعد، وهذا ما نحن في حاجة إليه في هذا العصر حيث السلام أصبح دعوة، ولا بد للمسلمين أن يتفاعلوا مع هذه الدعوة؛ ليقوموا بدورهم في نشر الإسلام والنهوض به بعد السبات الطويل.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٠٩-١١٨].

وتقول د/ البيلي: «إن معاهدة الحديبية كانت من المعاهدات الثنائية، ولم تكن من المعاهدات المغلقة، بل كانت من المعاهدات المفتوحة، إذ أتاحت الفرصة أمام القبائل التي ترغب في الانضمام إليها.

ولتنفيذ المعاهدة لابد من وجود نطاق زمني، وآخر مكاني للمعاهدة، فمعاهدة الحديبية كان سريانها المكاني ينصب على الدخول في مكة المكرمة والطواف بالبيت، ونحر الهدي، والمكث في مكة مدة لا تزيد على ثلاثة أيام ثم مغادرة مكة، والخروج من نطاق الحرم الذي كان معروفاً منذ إبراهيم عليه السلام. أما سريانها الأدبي فقد بدأ من الاتفاق الشفهي على المعاهدة؛ لهذا التزم النبي ﷺ بالاتفاق في قضية أبي جندل رضي الله عنه، بشكل أدبي فرضته الأخلاق الإسلامية.

لقد استوفت معاهدة الحديبية كافة الشروط الحديثة من حيث: المفاوضات الشفوية، ثم الصياغة والتدوين، كما توفرت فيها شروط الصحة من حيث الأهلية والرضا والمحل. وجاءت ديباجة المعاهدة مشمولة بإيضاح الطرفين، وأسَاء الممثلين في المعاهدة، وفي صلب المعاهدة جاءت المسائل التي تم الاتفاق عليها محددة ومكتملة ومختصرة، وكانت مرتبة على فقرات بحيث يمكن توزيعها على مواد مرقمة.

لم يرد في معاهدة الحديبية أي نوع من التحفظات (Reservation)؛ لأنها كانت معاهدة متكاملة، رغم اختصارها إلا أنها أوفت بما صيغت من أجله، فلا قصور، ولا غموض، ولا تناقض؛ لهذا لم تكن في حاجة إلى تفسير أو تحفظ ولا إلحاق». [إستراتيجيات التفاوض الدولي للبيلي ١٥٦].

#### ١٧ - أغراض معاهدة الحديبية:

يقول د/ عشقي: «يخطئ من يعتقد أن هناك معاهدات دولية تجري بلا أهداف مرسومة، ويخطئ من يسعى إلى المعاهدة بأهداف متواضعة لا ترقى إلى مستوى الأهداف القومية. إن العلم الحديث، أثبت أن لكل أمة متقدمة أهدافاً قومية تسعى إلى تحقيقها، لقد اصطلحت الدول الحديثة على أن يكون الأمن القومي، هو الهدف الإستراتيجي العام لكل دولة. ومع هذا، فإن هناك دولاً لم تتعرف على أهدافها الإستراتيجية ولم تحددتها، ومن حددها منهم، فإنه لم يكن أميناً في الوصول إليها.

فالدول التي لم تتعرف على أهدافها، أو التي لا ترقى أهدافها إلى طموح الأمة وأمانيتها، فإنها دول تعيش على هامش العصر، ومن يرضى أن يكون على الهامش فلن يجد مكاناً غير السفوح. لم تكن لقريش وغيرها من العرب في الجزيرة أهداف ترقى إلى آمال الأمة العربية قبل الإسلام، بل كانت أهدافهم متواضعة.

كان مهمهم التجارة، والمكانة الاعتبارية بين القبائل، وفي سبيل ذلك، قدّموا الكثير من التضحيات العظيمة في سبيل أهداف رخيصة، فأباحوا الموبقات ونصبوا الأصنام، وقدّموا لها القرابين.

كانت أهدافهم ثانوية متواضعة، تتمثل في جذب السياح والتجار ليتحقق لهم الرخاء، والمال والمكانة الاعتبارية.

لقد عاش العرب في تلك الحقبة من الزمن على هامش التاريخ؛ لأنهم لم يتمكنوا من رسم أهدافهم القومية، وتوظيف كافة الإمكانيات لتحقيقها، أما الذين دفعهم الطموح من إخوانهم إلى مواكبة المدينيات المعاصرة، فقد ارتضوا لأنفسهم غسل أقدام الحضارتين الفارسية والرومانية، فنشأت دولة المناذرة والغساسنة، وما أكثر أمثالهم في هذا العصر.

لقد بدأ النبي ﷺ رحلته الإلحائية بتحديد الهدف الإستراتيجي، كي يتسامى بالأمة ويخلق بها في الآفاق، لقد عرض على قريش أهدافه في أول لقاء جمعهم فيه بعد أن نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء].

لقد جمع بني عبد المطلب وقال لهم: «كلمة تسودون بها العرب وتحكمون بها العجم»، فقالوا له: عشر وأبيك، قال لهم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فانصرفوا عنه مدبرين؛ لأنهم يعلمون معناها، لكنهم لا يدركون أبعادها، وقرئ بين المعرفة والإدراك.

لقد كانت هذه الكلمة هي الهدف القومي الذي اختاره الله ﷻ للأمة العربية والإسلامية؛ لأن الله يبتغي لهم العزة في الدنيا والآخرة، ويجعلهم أمة بين الناس، كما قال ﷺ في الصحيفة، التي كانت أول دستور للدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وفي معاهدة الحديبية، كان للرسول ﷺ هدف إستراتيجي هو: لا إله إلا الله، وكانت له أهداف ثانوية تساعد على تحقيق وتعزيز الهدف العام.

هذه الأهداف هي:

أولاً: ممارسة الحق في أداء الشعائر في مكة المكرمة.

ثانياً: إتاحة الفرصة للاحتكاك بالقبائل في مكة وغيرها من أسواق العرب لنشر الدعوة.

ثالثاً: نزع الاعتراف عن طريق الجلوس إلى مائدة المفاوضات بكيان المسلمين السياسي.

رابعاً: تجميد الجبهة الجنوبية والتفرغ إلى تدمير الشمالية وخاصة اليهود في خيبر.

خامساً: تأمين القاعدة الإسلامية في المدينة المنورة ضد الهجمات، والاعتداءات القرشية.

لهذا كان ﷺ يصبر على تحقيق أهدافه من خلال المفاوضات، فكان يتسامح في الأمور الممكنة، لكنه لم

يزايد على أهدافه الأساسية.

إن الوصول إلى الهدف القومي يتطلب إستراتيجياً رسم أهداف ثانوية، من شأن هذه الأهداف تحقيق

وتعزيز الهدف القومي، وهذه الأهداف يجب أن لا تُطرح في ميدان المزايدات السياسية عند المفاوضات.



لقد كانت معاهدة الحديبية صلحاً، من أهم أهدافه الأساسية تحقيق الأمن للمسلمين، فالأمن ليس هدفاً قومياً، بل هو هدف يصون الطرفين للهدف الإستراتيجي الأعلى، ويجب أن يكون كذلك. إن الأمن الذي تحقق من خلال معاهدة الحديبية، مكّن المسلمين من نشر الدعوة الإسلامية، فبعث الرسول ﷺ الوفود إلى الملوك وأباطرة العصر، وبهذا انتقلت الدعوة الإسلامية من إطارها الإقليمي، إلى الإطار العالمي.

لقد بيّن الله ﷻ في سورة الأنعام أن الأمن لا يصلح أن يكون هدفاً قومياً، وإنما هو تحصيل حاصل، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨٢). فالذين جعلوا الأمن هدفاً قومياً، وسخروا لذلك ما وسعهم من أسلحة الدمار الشامل، والإنذار المبكر، لم يتمكنوا من تحقيق أمنهم القومي، ولا أمنهم الذاتي.

فالاتحاد السوفيتي الذي كان يمتلك أكبر قوة ضاربة عرفتها البشرية، تداعى في شكل يفوق كل التوقعات، والولايات المتحدة الأمريكية التي تربعت على عرش الكرة الأرضية، كقطب يسيطر على العالم بعد الحرب الباردة، اهتزت أوصالها من انفجار المبني الفيدرالي في (مدينة أو كلاهما) حتى قررت القيادة العليا غلق المنافذ حول البيت الأبيض، رمز الحرية والديمقراطية، ومع هذا فإن محاولات القفز من فوق الأسوار لتهديد هذه القيادة لا تزال تتكرر، وعيارات النيران لا تزال تنطلق.

إن المعاهدات الإسلامية لا تكتسب شرعيتها إلا إذا كانت تخدم الهدف الإسلامي الأعلى، حتى لو كان ذلك عن طريق أهداف ثانوية.

لقد جاءت الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام] في نهاية التجربة الإبراهيمية التي ساقها الله ﷻ، لتكون عبرة للمسلمين وغيرهم في مختلف العصور.

فإبراهيم عليه السلام، جعله الله ﷻ حجة على كافة الأمم في الماضي والحاضر، لقد اكتسب الإمامة على كافة الطوائف والملل قبل الإسلام؛ لهذا كان حجة على الكفار.

كان العرب يقرون بإمامة إبراهيم عليه السلام لأنهم أبناءؤه، وما نالهم الخير في جاهليتهم إلا بالبيت الذي بناه، وكان اليهود والنصارى ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام وينسبونهم إلى أنفسهم.

كان اليهود ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق إسحاق عليه السلام، من جهة الأب، وكان النصارى ينتسبون إليه عن طريق عيسى عليه السلام من جهة الأم.

كان اليهود ينسبونه إلى أنفسهم فيدعون أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً، وكان النصارى ينسبونه إلى أنفسهم ويدعون أنه كان نصرانياً، كان ادعاؤهم تزييفاً كشفه الله ﷻ في الآية ٦٧ من سورة آل عمران، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧) ﴿﴾.

لقد بين الله ﷻ أن العهد بين الله وبين العبد قائم على الوفاء، فقال تعالى في الآية ٤٠ من سورة البقرة: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿﴾.

فالعهد بين الله وبين العبد قائم على أداء جميع ما أمر الله به، من غير تخصيص ببعض التكليف دون الآخر، وتكاليف الله نعمة، والنعمة توجب الشكر، أما الثواب والمغفرة فهما من الله ﷻ الذي جعل الوعد بالثواب شبيهاً بالعهد من الله: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٣) ﴿﴾ [التوبة].

لقد وفى إبراهيم عليه السلام بعهد العبودية، فشهد الله ﷻ له بذلك على سبيل الإجمال والتفصيل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤) ﴿﴾ [البقرة].

بهذا الوفاء اكتسب إبراهيم عليه السلام الإمامة على كافة الطوائف والملل، فأقام الله ﷻ الحجة عليهم بفعل إمامهم إبراهيم عليه السلام الذي وفى.

فالآية تكليف وتشريف، والتكليف مختلف عن التشريف، والتشريف لا يرتبط بالتكليف بل يرتبط بالوفاء بحق التكليف، فالله ﷻ ابتلى إبراهيم عليه السلام بكلمات، فكانت تكليفاً وعندما أتمهن إبراهيم عليه السلام وأوفى بعهد التكليف، شرفه الله ﷻ، بأن جعله للناس إماماً، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، قال ﷻ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤) ﴿﴾.

فالوفاء بالعهد هو سبب التشريف، وليس الانتساب العرقي للشریف، سواء كان هذا الشريف نبياً أو تقياً كما يعتقد اليهود والنصارى.

إن الانتساب المطلوب لإبراهيم عليه السلام للملة: ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ومن سفهت نفسه، فقد انتفت عنه الحكمة؛ لأن السفه: خفة تنأى بالإنسان عن العقل.

لقد حكم الله ﷻ بسفاهة من رغب عن ملة إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله ﷻ اصطفاه في الدنيا، واختاره للرسالة، وعلمه الملة، والملة (هي الجامعة للتوحيد والعدل والشرائع)، كما أعطاه ﷻ الإمامة على الأمم الباقية إلى قيام الساعة، ومن ملة إبراهيم اتباع النبي ﷺ والايان بما جاء به.

لقد قال إبراهيم عليه السلام بعد أن رفع قواعد البيت ومعه إسماعيل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩) [البقرة].

لقد كانت هذه الآية إعجازاً للنبي صلى الله عليه وسلم وتعجيزاً لليهود والنصارى وغيرهم، فهم لا يستطيعون تكذيبها؛ لأن هذا ما يتلى في كتبهم عند البعثة المحمدية، وكانوا يستفتحون على الذين من قبلهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

ما إن استجاب الله ﷻ لدعاء إبراهيم عليه السلام، وبين من أولى بعهدته حتى قال الله ﷻ: أسلم، فقال إبراهيم عليه السلام: أسلمت لرب العالمين.

كان إسلام إبراهيم عليه السلام شاملاً لكل الجوانب التي ابتلاه الله ﷻ بها، فنال بذلك شرف الإمامة على الناس (لقد أسلم إبراهيم عليه السلام قلبه للفرقان، ولسانه للبرهان، وبدنه للنيران، وولده للقربان، وقدم ماله للضيغان) ثم طلب من الله ﷻ أن يكون له لسان صدق في الآخرين.

استجاب الله ﷻ دعاء إبراهيم عليه السلام، وقبل نداءه، فكان لسان الصدق، دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، والحج إلى مكة المكرمة للسير على سنن إبراهيم عليه السلام، والتقيد بإسلامه وإيمانه وشعائره إلى يوم القيامة.

إن النور الإلهي لائح لا ينقطع ولا يزول، ولا يحجبه عن الأرواح البشرية إلا الاشتغال عن الله ﷻ بغيره، فبقدر ما يزول الحجاب يحدث التجلي، ولا يزول هذا الحجاب إلا بالتقوى والعمل الصالح.

فحينما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٦) [الأنعام]، سقط الحجاب عن إبراهيم عليه السلام، فقال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَكُوتًا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥) [الأنعام].

والرؤية ثلاثة أنواع: رؤية بالقدرة، ورؤية بالإرادة، ورؤية بالفؤاد، فالرؤية بالقدرة هي الرؤية التي أنعم الله بها على الإنسان، أما الرؤية بالإرادة، فهي الرؤية التي بيد المرئي، فيمكنك من رؤيته على الحالة التي يريدها، كالملائكة، والجان، أما الرؤية بالفؤاد، فهي الرؤية بالبصيرة، وهي قدرة إدراكية يهبها الله لعباده المتقين: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) [النجم].

لقد أضاء الله ﷻ بصيرة إبراهيم عليه السلام فاشتغل بنور الله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآلِفِينَ﴾ (٧٦) [الأنعام].

فإبراهيم عليه السلام لم يقل هذا ربي اعتقاداً بل احتجاجاً؛ لأن الله ﷻ قال بدا ذلك: ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا ءَاتِيَتُهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٢) [الأنعام].

كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الكواكب، فكان أكبر آلهتهم (مردوخ) وهو كوكب المريخ، كما كانوا يعبدون الشمس ويسمونها (شاشم)، ويعبدون القمر ويسمونه (نان)، وقد أخذ العموريون منهم عبادة القمر وأطلقوا عليه اسم (سين) والعموريون هم سكن الشام.

كانت حجة الله التي أعطاها إبراهيم عليه السلام أن قال لهم: إنكم تقولون أنكم لا تعبدون إلا ما ترون، فهذا الكوكب يأفل، وهذه الشمس تغرب، وهذا القمر يغيب، فكيف تعبدون الآفلين، وأنا لا أحب الآفلين؛ لأن أفولها يعني أنها تُسَيَّر، ومن يُسَيَّر فلا بد له من مُسَيِّر، والإله لا يُسَيَّره أحد، فأنا أعبد الذي فطر السماوات والأرض.

لقد ساق الله ﷻ قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَاشِعًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

لقد عبد البابليون الكواكب؛ لأنهم رأوا أن تغيرات أحوال الأرض متعلقة بأحوال السماء، لقد وجدوا أن تحرك الشمس يُحدث الليل والنهار، وقرب الشمس وبعدها يُحدث الفصول الأربعة، وأن القمر يؤثر في المد والجزر، ويؤثر على طبائع المخلوقات بإذن الله.

لقد غلب على البابليين الظن أن مبدأ الأحداث في العالم ناجم عن الاتصالات الفلكية، فبالغوا في تعظيم الكواكب، وخاطبوها، وقَدَّموا لها القرابين، وتوسلوا إليها، ثم عبدوها. ولما وجد البابليون وغيرهم أن هذه الكواكب تغيب عن الأنظار، اتخذوا لكل كوكب صنماً بحسب ما نُسب إليه.

لهذا حَرَّمَ الله ﷻ الاعتقاد في النجوم والبحث في الطوابع؛ لأنها تؤدي إلى الشرك، كما حَرَّمَ الاستماع إلى المنجمين وتصديقهم، فقال ﷻ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». [مسند أحمد ١٥ / ٣٣١ رقم ٩٥٣٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: حسن رجاله ثقات رجال الصحيح].

لقد كانت حجة إبراهيم عليه السلام على قومه، بالاستدلال، والشرح والتفسير، وهى في إطار الرؤيا التي أراها الله إبراهيم عليه السلام؛ لأن الرؤية بالعين لا تكون حجة على قومه، طالما لا يرونها بأعينهم.

إن الأمة العربية والإسلامية تعيش اليوم أدق مراحل حياتها فهي تخوض معركة الوجود من خلال معاهدات مصيرية، ليس مع إسرائيل وحدها، بل مع غيرها من دول العالم.

إن الشخصية الإسلامية المستقلة، يجب أن تظهر في المفاوضات، فالفاوض العربي أو المسلم الذي يخوض تجربة مع الغير، عليه أن لا يتعامل معهم بمنهج هم رسموه وحددوا معاملة.

فالأهداف العربية والإسلامية يجب أن تختلف عن أهدافهم، ولغة الحوار يجب أن تختلف عن لغتهم، فالمسلم العربي له منهج يتمتع بجذور عميقة تضرب في أحقاب التاريخ، تستمد أسسها من مفاهيم حضارية، صاغتها عقول أثرت البشرية بالكثير من العلم والحكمة.

وهذه المفاهيم الحضارية، لها مرتكزات إسلامية ثابتة لا تتغير، فالتضحية بهذا البُعد الحضاري والقيم الإسلامية والعربية، سوف يفقد الأمة العربية هويتها وأصالتها.

إننا مطالبون برسم أهدافنا وتحديد هويتنا قبل أن ندخل في مفاوضات مع الغير، إن الأهداف القومية يجب أن تتبلور من خلال اتفاق عام بين القيادات السياسية في كافة الدول العربية والإسلامية.

إن المآسي التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية تكمن في عاملين:

الأول: هو عدم وجود الهدف الإستراتيجي الأعلى.

والثاني: هو عدم تحديد الهوية». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشتي ٢١٥-٢٢٥].

#### ١٨ - أهداف المفاوضات:

تقول د/ البيلي: «تعدد الأهداف والغايات في المفاوضات، سواء أكان ذلك في الفقه الإسلامي أو في غيره، فهي تظهر حسب الحاجة إليها، لكن المفاوضات الإسلامية تتسم بالثوابت العليا، وهي التي تقوم على نشر الدعوة الإسلامية، ومن الأهداف المعروفة، أن المفاوضات من شأنها إنهاء حرب دائرة، أو تسوية آثار للنزاع المسلح، أو تبادل للأسرى كما حدث في معركة بدر الكبرى، حيث تم فيها الاتفاق على فداء الأسرى، فكانت الفدية أربعة آلاف درهم عن كل أسير، ومن لم يستطع فعله أن يُعْلَم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة، وقد تكون أهداف المفاوضات دفع الخطر عن البلاد الإسلامية، ولو دعا الأمر إلى دفع مال من أموال المسلمين، كما حدث في معاهدة الصلح بين المسلمين والروم في عهد معاوية بن أبي سفيان؛ لظروف اقتضتها المصلحة العامة بسبب الفتن الداخلية؛ لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تُضعف المفاوض المسلم أمام الأعداء.

لقد قيدت الشريعة الإسلامية المفاوضات، بأن يكون الباعث فيها أمراً مشروعاً محققاً مصلحة المسلمين، سواء أكانت المفاوضات ناجمة عن ضعف أو قوة، فالنبي ﷺ فاض صفوان بن أمية، وهادنه أربعة أشهر عام الفتح، وكان النبي ﷺ في أوج انتصاره، لكنه فعل ذلك رجاء إسلام صفوان، وأسلم صفوان ﷺ قبل انتهاء فترة المهادنة؛ لذا فإن على المسلم أن يقيد معنى السلم والجنوح إليه بمصلحة الإسلام والمسلمين، وليس بالوقوف عند المصلحة المادية أو السياسية، والإمام أو الحاكم هو الأمين على المسلمين وعلى مصالحهم، فهو الذي يعين المفاوض، وهو الذي يسدي له النصائح والتوجيهات،

فالطرفان حريصان على المكاسب، لكن المكاسب تتسع في الفكر الإسلامي، لتستوعب الأهداف الأساسية من حيث نشر الإسلام، بينما هي تضيق لدى غير المسلمين عند المصالح المادية والأمور الدنيوية. وفقهاء المسلمين أكدوا على الباعث في المفاوضات، وقيدوه بكونه مشروعاً محققاً مصلحة المسلمين، سواء أكانوا في حالة ضعف أو قوة، فقد سئل الأوزاعي - وهو من أئمة أهل السنة والجماعة - عن حصن للمسلمين نزل به العدو، فخاف المسلمون، فقالوا: أنصالحهم على دفع السلاح والمال والخيل ليرتحلوا عنا؟ فقال: لا بأس إن لم يكن لكم بهم طاقة. [الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام وقت السلم - د/ أحمد عبد الونيس شتا ص ١٧ - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٩٤م].

[إستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجاً لليلي ١١٣-١١٤].

### ١٩ - أهداف الصلح:

يقول د/ عشقي: «إن معاهدة الحديبية لا تُوزن بموازين العصر، ولا تُقاس بمقاييس العلم، فهي فكر متألق، لا يدركه إلا الذين ارتفعوا فوق الصغائر، وحلّقوا في سماء الإيمان. وبما أن الغايات هي التي تصنع الوسائل ولا تبررها، فإن أهداف النبي ﷺ وغاياته تتمثل في ثلاثة: أولاً: الدفاع عن العقيدة التي تجسدت في صحابته رضي الله عنهم، وتمثلت في كيانه السياسي بالمدينة المنورة. ثانياً: تحرير الدعوة إلى الله، من كافة المعوّقات التي تضعها قريش وحلفاؤها. ثالثاً: تكوين مجتمع إسلامي يسود المعمورة ويثبت العدل والخير والسلام، فالإسلام هو السلام والاستسلام لله». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٣٨٨].

### ٢٠ - من اتفاقية الصلح إلى اتفاقية السلم:

يقول د/ عشقي: «لم تكن مفاوضات الحديبية مسألة سلام، بين النبي ﷺ وكفار قريش ومن حالفهم من قبائل العرب، كما يتخيّلها المحللون السياسيون أو الفقهاء المجتهدون؛ لأن السلام لا يستقيم مع الكفار، فالكفار جُبلوا على نقض العهود، وهل هناك أسوأ من نقض الموائيق مع الله؟ ولم تكن معاهدة الحديبية هدنة كما يقول الشيخ الفاضل يوسف القرضاوي؛ لأن الهدنة راحة للطرفين المتقاتلين، وإعداد لجولة جديدة من الحرب.

لقد كانت الحديبية معاهدة بحكم مؤقت بين فكرين مختلفين: فكر بنى معطاته على مصالح ذاتية، وموروثات اعتباطية، وفكر بنى أهدافاً إستراتيجية، وتطلعات قيمة، تشد الخير للبشرية، من خلال معرفة عميقة بالله ﻋَﻠَﻤَ، وبما جاء به رسوله ﷺ.

كان كفار قريش يحافظون على منفعة اقتصادية، ومكانة اعتبارية، بينما كان النبي ﷺ يبتغي لهم منفعة في الدنيا والآخرة.

لم يكن ﷺ يقاتل قريباً بغرض الانتقام، فقد قتل ﷺ في نفسه روح الانتقام، فنفسه لم تتسع إلا للخير لأهله وعشيرته وقومه ولل بشرية عامة». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٣٨٧].

## ٢١ - مفهوم المصالحة في إطار الدولة:

يقول د/ الفيتوري: «يعلق الإمام النووي على حديث صلح الحديبية، فيقول: «وَفِيهِ أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَعْقِدَ الصُّلْحَ عَلَى مَا رَأَهُ مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ لِبَعْضِ النَّاسِ فِي بَادِي الرَّأْيِ وَفِيهِ أَحْتِمَالُ الْمَفْسَدَةِ الْيَسِيرَةِ لِدَفْعِ أَعْظَمِ مِنْهَا أَوْ لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ أَعْظَمَ مِنْهَا إِذَا لَمْ يُمَكِّنْ ذَلِكَ إِلَّا بِذَلِكَ».

[شرح النووي على مسلم ٤١٩/٧].

يقول د/ محبوب عبد النور في هذا الصدد: «الفقهاء قيدوا أحقية الإمام في عقد الصلح عن المسلمين بالمصلحة، ولكنهم لم يذكروا معايير محددة لهذه المصلحة في الأعم الأغلب، غير أن بعضهم مال إلى ذكر أمثلة يستأنس بها في المصلحة التي شرطها على الإمام، مثل ضعف المسلمين، وقوة عدوهم، أو رجاء إسلام المعاهدين، أو بذل الجزية». [الصلح لمحمود محبوب عبد النور نقلاً عن الجهاد والقتال لهيكل ٤٨١/٣ - ١٤٨٢].

يمكن لنا أن نعرف مصلحة الدولة الإسلامية في هذا الزمان بأنها تمثل «محصلة أهداف الدولة في المجال الخارجي، والتي تتضمن - على سبيل المثال - المحافظة على قدر مقبول من الاستقلال السياسي، وحماية سيادة الدستور، وسلامة الكيان الإقليمي للدولة، فضلاً عن تحقيق الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، والعمل على زيادة الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك العمل على حماية الشخصية الاعتبارية، والثقافة الرسمية من أخطار الغزو الخارجي، والدفاع عن أفكار الدولة والعمل على نشرها خارج الحدود، وكل ما من شأنه الحفاظ على المكانة الدولية للدولة وزيادة قدرتها». [ينظر: الإستراتيجية والسياسة الدولية، والمفاهيم والحقائق الأساسية - د/ إسمايل صبري مقلد، مؤسسة الأبحاث العربية ص ٢٨-٢٩].

[صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيتوري ٩٠].

## ٢٢ - مفهوم القوة في إطار الدولة:

يقول د/ الفيتوري: «لا يخفى أنه بعد وصول المشروع الحضاري إلى مرحلة الدولة والتمكين التي تجسست بإقامة دولة مستقلة، لم يعد ممكناً لأية قوة إقليمية أو دولية أن تتدخل في شؤون الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية؛ لكونها أصبحت دولة ذات سيادة مستقلة، تمارس سيادتها وفق دستورها الذارتضته بإجماع المؤمنين وغيرهم - وثيقة المدينة - وتستطيع أن تحمي احترام سيادتها ودستورها وحدودها ورعاياها بالقوة العادلة التي تعطي كل ذي حق حقه، كما قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي

دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». [البخاري في الإيمان (٢٥)...، ومسلم في الإيمان (٢٠) - (٢٢)...، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)...، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)...، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)...، وابن ماجه في المقدمة (٧١، ٧٢)...، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، ومسند أحمد عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وأوس بن أبي أوس الثقفي ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم].

ومنذ ذلك الحين أصبحت الدولة الإسلامية ذات سيادة مستقلة، ولها كل مقومات الدولة القوية على الصعيد الداخلي والخارجي، حيث تم تشكيل علاقاتها الدولية كافة على ركيزة السيادة المستقلة في قرارها، وتشريعها، وقوتها، ومن ثم كانت تسعى لبسط مشروعها الحضاري العالمي بالحوار والتفاهم دون إكراه، وتحقيق مصالحها القومية، وحماية أمنها القومي في بيئة دولية ذات طبيعة فوضوية، حتى يدخل الناس في السلم كافة؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وفي ظل بيئة دولية هذا شأنها، ليس من المتصور لعلاقات الدول إلا أن تكون علاقات (عداء)، ومرد هذا العداء إلى حقيقة التعارض بين مصالح الدول والتكتلات، حيث تضطر دولة ما لتحقيق مصالحها القومية باللجوء إلى استخدام القوة لكبت وإلغاء دولة أخرى كانت تسعى لتحقيق المصلحة ذاتها. إلا أن الدولة الإسلامية استطاعت في ظل هذه الغابة السياسية، أن تسطر نظرية جديدة وفريدة في عالم العلاقات الدولية، تدور في فلك شرعية الدولة، ومشروعية اللجوء إلى القوة لإحقاق الحق وإبطال الباطل من دون هضم حقوق الآخرين سواء أكانوا دولاً أم جماعات، وهي بهذا تشير إلى ضرورة التمييز بين مفهومي (القوة) و(العنف) على اعتبار أن القوة تمارس في ظل الارتباط بالنظام الشرعي الإسلامي المنتخب من الأمة، القائمة على العدل، وحقوق الإنسان، وتحريم الظلم، والبغي، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظَّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَلَمُوا...». [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)].

ف«إِنَّ الظَّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [البخاري في المظالم (٢٤٤٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٩)]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل].

هذا معنى القوة في منظومة الدولة الإسلامية ومشروعها الحضاري. في حين أن مفهوم العنف يمثل القوة المتمردة أو الخارجة عن القوانين الإلهية، والمبادئ العدلية الفطرية التي فطر الناس عليها، كما قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ اتِّبَاعَ النَّاسِ عَلَيْهِ لَا تَبْدِيلَ لِحَقِّ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَدِيبُ الْفَيْدِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].



ولكن يجب أن ننوه إلى تسليمنا بالطبيعة الفوضوية للبيئة الدولية، وبشرعية لجوء الدول إلى العنف تحقيقاً لمصالحها، لا يعني أن البيئة الدولية لا تعرف الهدوء والانتظام، ولعل حلف الفضول، وحلف المطيين وغيرهما يصح أن تكون دليلاً على ذلك، وما قول زعيم بني شيبان لرسول الله ﷺ يوم أن دعاه للمشروع الإسلامي، عقيدة، وأخلاقاً، ومنهجاً، وشريعة، فرد عليه بأنه «دَعَوْتُ وَاللَّهِ يَا أَخَا قُرَيْشٍ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ» [الروض الأنف ٤/ ٦٢]، إلا برهان على ذلك، ولعل في رسائل ومكاتبات رسول الله ﷺ إلى قيادات العرب، وملوك النصارى، وقيادات العالم، وردودهم عليه أكبر شاهد على ذلك!!

ومن هنا يصح القول بأن مفهوم القوة من المفاهيم الرئيسة في علم العلاقات الدولية، حيث يكاد أن يكون هناك إجماع عام بين المهتمين بالعلاقات الدولية قديماً وحديثاً على أن ركيزتها الأساسية تتمثل في القوة، وأن الدولة لا تستطيع المحافظة على وجودها في بيئة دولية تتسم بالفوضى وغيبة السلطة، إلا من خلال لجوئها إلى سياسات القوة، وأن المعاهدات ليست كافية بذاتها لتحقيق الأمن، وإنما يتعين أن تقف القوة من ورائها ضماناً للالتزام بها.

يتضح مما سبق أن نظرية العلاقات الدولية بين الدول تتمحور حول محورين رئيسين هما: الحرب والسلام.

وعلى الرغم من تناقض هذين المحورين من حيث الأسلوب، إلا أنهما يتفقان في الغاية، حيث يستهدفان تحقيق الغاية العليا للسياسة، والتي مضمونها تحقيق حالة الوفاق الداخلي في إطار المجتمع الواحد وشعوره بالأمن من أي تهديد خارجي.

وهكذا، ومن خلال ربطنا بين الصراع الدولي كوسيلة وبين تحقيق الأمن كغاية، تبدو لنا العلاقة الجدلية بين مفهومي الحرب والسلام، فكل حروب تستهدف الدول بها تحقيق أمنها تؤدي إلى نقيضها وهو السلام.

وانطلاقاً مما سبق يتعين النظر إلى كل من الحرب والسلام باعتبارهما يشكلان معاً متصلاً تتحرك على امتداده الدول ذات المصالح المتعارضة سعياً وراء هذه المصالح، فحين تكون هذه المصالح ثانوية أو قليلة الأهمية يمكن حل الخلافات المتعلقة بها بالطرق السلمية، حيث يسهل على الدول تقديم التنازلات بشأنها بغية التوصل إلى حلول وسط.

أما إذا تعلق الأمر بالمصالح الحيوية للدولة والتي لا سبيل إلى التضحية بها — كالأمن والبقاء — وإذا عجزت الطرق السلمية عن تسوية هذه الخلافات، فحينئذ تفضل الدول اللجوء إلى الحرب استخلاصاً لحقوقها، وحماية لمصالحها، على الخضوع والتضحية بهذه المصالح الحيوية سعياً وراء السلام بأي ثمن.

وهكذا، فإذا كان التفاوض والإقناع هما وسيلتا فرض الإرادة في زمن السلم، فإن العنف والقتال هما أداتا الإكراه والقسر في وقت الحرب.

ومن ثم يمكن النظر - والحالة هذه - إلى الحرب باعتبارها استمراراً للسياسة، ولكن بوسائل أخرى. ومن هنا يأتي تكامل كل من الدبلوماسية (باعتبارها فن الإقناع) والاستراتيجية (باعتبارها فن الإكراه) كوسيلتين مكملتين من وسائل فن السياسة الخارجية في خدمة هدف واحد هو إخضاع الآخرين لإرادة الدولة تحقيقاً للمصلحة الوطنية. [ينظر: مدخل إلى علم العلاقات الدولية - د/ محمد طه بدوي ٣٤، ٢٧٠]. [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفتوري ٩١-٩٥].

### ٢٣ - الصلح مع العدو والواقع المعاصر:

يقول د/ أبو فارس: «ومن الفوائد جَوَازُ ابْتِدَاءِ الإِمَامِ بِطَلَبِ صُلْحِ الْعَدُوِّ، إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ الطَّلَبِ مِنْهُمْ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٤].

إنني أنبه القارئ الكريم وأحذره من أولئك الذين يأكلون بدينهم، قد باعوا دينهم بدنيا غيرهم، فقهاء السلطان، الذين يُحَسِّنُونَ له القبيح ويقَبِّحُونَ له الحسن، هؤلاء الذين يفتنون للسلطان حسب رغبته وهواه. إنني أحذر من تطبيق ما استنبطه ابن قيم الجوزية رحمته على حُكَّام معاصرين لا تتوافر فيهم أدنى مؤهلات الحاكم المسلم وشروطه وآدابه في نظر الإسلام.

إن الحاكم المسلم ينبغي أن يكون غيوراً على أعراض المسلمين محارباً للزيلة، ناشراً للفضيلة، مطبقاً لأحكام الشريعة، جريئاً في اقتحام الحروب وإقامة الحدود، قائماً بالفرائض والأركان، مجتنباً الكبائر من الآثام كشرب الخمر ومراقبة النساء والتعري من الفضيلة والخلق، غير مصر على صغيرة من الصغائر. إن الحاكم المسلم هو الذي يربي هذه الأمة على حرية الرأي والفكر ولا يضيق صدره برأي المخالف. إن الحاكم المسلم هو الذي يربي المسلمين على الجهاد والاستشهاد ويكون قدوة للناس، يتقدم الصفوف.

إن الحاكم المسلم هو الذي يحرص على أعراض المسلمين، فيحارب كل ما يسيء إلى العرض، ويؤدي إلى انحراف الشباب وميلهم نحو الفسق والفجور.

إن الحاكم المسلم هو الذي يسخر كل طاقات المسلمين لنشر الإسلام في الداخل والخارج.

إن حكماً قد أبعدها شرع الله عن واقع الحياة واستوردوا شرائع وقوانين لم يأذن بها الله ورسوله، ولا يرضى عنها صالح المؤمنين، ليسوا أهلاً لأن يتولوا قيادة الأمة ويتصرفوا في مقدراتها، ويصدروا قرارات مصيرية بالنسبة لها.

إن حكاما ليسوا غيورين على أعراض المسلمين، يسمحون للرديلة أن تشيع، ويشجعون الاختلاط المحرم والعُري والصور شبه العارية في وسائل الإعلام، ويشيرون الغرائز الجنسية عند الشباب والشابات ليقعوا في حمأة الرديلة، إن هؤلاء ليسوا أهلاً لأن تشبه أفعالهم ومواقفهم بأفعال رسول الله ﷺ ومواقفه. إن حكاماً عطّلوا فريضة الجهاد: ألغوها وجرموا كل من ينادي بها، فأصبح ليس آمناً على ظهره منهم على عدوه.

ومع هذا نقول: إن رسول الله ﷺ لم يتنازل عن شبر أرض من أرض يثرب لسهيل بن عمرو ولكفار مكة ليقموا عليها دولة للكفر والكافرين.

إن رسول الله ﷺ كان في تصرفاته يسعى جاهداً لتحقيق مصلحة المسلمين، وكان الصلح بأمر من ربه ليحقق هذه المصلحة.

إننا نسأل في أنفسنا ونسأل فقهاء السلطان:

هل الصلح مع اليهود يعني زوال دولة اليهود وطرد كل يهودي غاز إلى بلده في أمريكا وروسيا وألمانيا وبريطانيا؟

هل الصلح مع اليهود يعني زوال المستعمرات التي ملأت السهل والوعر في فلسطين والجزولان؟

هل الصلح مع اليهود يعني أن يعود كل شبر من أرض فلسطين لأهله ينعمون بخيراتهم بعد أن

اغتصبها الغاصبون؟

لا، إن شيئاً من هذا لن يحدث.

إن دولة اليهود ستبقى وستُحمى بموجب الصلح من كل من يريد أن يلقي عليها حجراً.

إن الهجرة ستزداد ولن يقفها واحد من الذين يركضون وراء الصلح ويلهثون لهث الذي إن تحمل

عليه يلهث أو تتركه يلهث.

إن المستعمرات ستزداد وتزداد، وإن الصلح سيشجع اليهود على شراء البقية الباقية من الأراضي.

إنه لا مصلحة للمسلمين في هذا الصلح، بل هو الشر المستطير الذي يهلك الحرث والنسل، ويدمر

المال والاقتصاد.

إن الصلح مع اليهود والاعتراف بقيام دولة لليهود على شبر من أراضي فلسطين في نظر هذا الدين

خيانة لله ولرسوله ﷺ ولسائر المؤمنين.

إن الواجب على كل مسلم أن يرفض هذا الصلح ويقاومه ولا يخشى في سبيل ذلك لومة لائم، ولا

ظلم ظالم، ولا سجن طاغية، ولا قهر مستبد.

وأبشّر القارئ الكريم أن النصر قريب من المؤمنين، وأن الجولة مع اليهود قادمة لا محالة، وأن النصر بإذن الله للمسلمين الذين ينصرون الله في حياتهم الخاصة والعامة قال سبحانه: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْلِفَنَّ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) ﴿مُحَمَّدٌ ﷺ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ﴿الروم﴾. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٨-٥١]. ويقول د/ حجازي في سبب اختياره لموضوع رسالته للمهاجستير: «٥- إيضاح الحقائق والمعاني العظيمة التي قام عليها صلح الحديبية، وبخاصة في هذا الزمان الذي بدأت تظهر فيه من هنا وهناك صيحات من المنتسبين إلى هذه الأمة للصلح مع يهود، وإعطائهم صفة الشرعية باغتصاب بلد من أقدس البلاد الإسلامية، وأعزها وأغلاها على المسلمين، بدعوى أن رسول الله ﷺ قد عقد صلح الحديبية مع المشركين في مكة.

هذا ولما كان هذا الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع المشركين في مكة لم ينه قضية النزاع القائمة بين الطرفين نهائياً، فإنه يصبح بهذا المفهوم بمعنى الهدنة، بدليل أن ما ورد في بنود صلح الحديبية يدل على هذا المعنى، وهو: إيقاف الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وكذلك العبارة التي تقول: «إِنَّ بَيْنَنَا عِيَّةً مَكْهُوفَةً».

وهذا يعني أن النزاع القائم بين الطرفين لم يطرأ عليه شيء سوى التأجيل فقط، وبهذه الحالة فإنه لا يمكن أن يوجد وجه للشبه أو للمقارنة بين صلح الحديبية وبين ما عُقد أو ما يُراد عقده من صلح مع يهود لإنهاء قضية المسلمين في فلسطين وتصفيتهما، على أساس من هذا المفهوم الخاطئ للأمر.

ومن هنا، وبناء على ما تقدم فقد كان من الأهمية بمكان إيضاح الحقائق والمعاني التي قام عليها صلح الحديبية حتى لا يتمكن أحد بحال من الأحوال من تزييف تاريخ أمتنا الإسلامية المجيدة، وحتى يعلم الناس جميعاً أن رسول الله ﷺ، وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، لم يعقد صلح الحديبية مع قريش إلا طاعة لله وتنفيذاً لأمره ﷻ، ذلك الأمر الذي جاءت الإشارة به في حادثة برك الناقة، بالإضافة إلى الكثير من الأمور الهامة الأخرى، ومنها أنه ﷺ بما حباه الله من رحمة، كان شديد الحرص على هداية الناس جميعاً وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، بالحجة والبرهان، وليس بطريقة الحرب التي لم يلجأ إليها مرة من المرات إلا في حالة الضرورة وللدفاع عن النفس.

وعلى هذا الأساس فإن ثمرات صلح الحديبية جاءت محققة لآمال المسلمين جميعاً، وذلك بفتح مكة المكرمة في أقل من سنتين من تاريخ هذا الصلح، ومن ثم دخول قريش نفسها، ومن حولها من القبائل العربية الأخرى في دين الله أفواجاً، وانتشار الإسلام في كافة أرجاء الجزيرة العربية.

وقد أيد الله ﷻ هذا الصلح مسمياً إياه بالفتح المبين، كذلك فإن رسول الله ﷺ كان يهدف إلى إضاعة الفرصة على المتهورين وأصحاب العصية والكبرياء الوثني من قريش، من أن يحققوا مأربهم في إيقاع الفتنة وإشعال نار الحرب حسب أهوائهم ورغباتهم، مما أدى إلى حقن دماء المسلمين من أن تُهدر عبثاً على ساحة الحرم الشريف، وتجنب بيت الله الحرام - ذلك المكان الطاهر الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، وأقدس بقعة على هذه المعمورة - من أن يكون مسرحاً للحرب وسفك الدماء.

هذا، ولقد كان من ثمرات هدنة الحديبية، أن تمكّن المسلمون من توسيع دائرة نشاطهم الإعلامي؛ مما أدى إلى زيادة عدد الداخلين في الإسلام أضعافاً مضاعفة عما كانوا عليه قبل الحديبية.

وهذه هي المعاني الرائعة، والحقائق الناصعة، التي أسفر عنها عقد صلح الحديبية مع قريش. فهل الذين عقدوا صلحاً مع يهود، أو الذين ينادون بعقد الصلح معهم، وضعوا في اعتبارهم هذه المعاني والعبر التي قام عليها صلح الحديبية؟

وهل كانت نتائج الصلح الذي عقد مع يهود محققة لآمال المسلمين كما كانت نتائج صلح الحديبية؟! وذلك بتحقيق النصر للمسلمين وحقن دمائهم من أن تُهدر عبثاً؟ وإدخال يهود في الإسلام كما دخلت قريش فيه، وفتح القدس وفلسطين في أقل من سنتين كما فُتحت مكة المكرمة؟! ولكن الواقع يدل على أن نتيجة ما حصل هو العكس تماماً.

كذلك فإن اليهود كما عرفهم الإسلام وعرفهم الجنس البشري، هم قومٌ غدر وخيانة ونقض للعهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿أَوْ كَلِمَا عَهْدُوا عَهْدًا ثَبَدَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد خانوا العهد والميثاق مع أوفى المخلوقات بالعهود والمواثيق، ألا وهو محمد رسول الله ﷺ، الذي لم يعرف التاريخ البشري أفضل منه معاملة، ولا أحسن منه خُلُقاً.

وها هم كما نراهم ويراهم العالم لا يزالون يمارسون سياستهم المعروفة من نقض للعهود والمواثيق، والحقّد على الإنسانية وتسخيرها لمآربهم الدنيئة، والعداء المستمر لدين الله منذ فجر الدعوة الإسلامية، لا شيء ولكن حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وقد دفعهم حقدهم الأسود على الإسلام والمسلمين إلى إقامة المجازر الرهيبة لأبناء هذا الدين في دير ياسين وقبية وصبرا وشاتيلا وغيرها منذ أن دنسوا أرض فلسطين المسلمة، بالإضافة إلى هدمهم للمدن والقرى بصورة كاملة، وهتكهم للأعراض، وحرقهم للمساجد والمقدسات الإسلامية، وما حادثة المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين عنا ببعيدة.

وهذا غيض من فيض من جرائمهم الشنيعة التي لم تقف عند حد، ولا زلنا نسمع من قادتهم بين الحين والآخر المناداة للثأر لخيب وبنى قريظة، والمطالبة بالمدينة المنورة، فهل بعد هذا كله دليل؟.

[منهج الاعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٩-١٢].

## ٢٤ - احترام المعارضة النزيهة التي مبعثها الإسلام:

يقول أ/ باشميل: «إن النبي ﷺ وضع قواعد احترام المعارضة، وعدم التعرض للمعارض بأي أذى مهما كانت منزلة هذا المعارض، شريطة أن تتوفر سلامة النية لدى هذا المعارض، وأن يكون باعث معارضته الحرص على مصلحة الإسلام والمسلمين.

أما إذا كانت المعارضة باعثها الهوى أو المصلحة الشخصية أو العمل على ترسيخ قواعد مبدأ يخالف الإسلام ومصلحة الأمة فإنها معارضة يجب قمعها فليست جديرة بأي احترام.

والدرس المستفاد هنا بصفة رئيسة هو في قصة معارضة الفاروق عمر رضي الله عنه الصريحة بل القوية لبعض بنود معاهدة الصلح التي أبرمها النبي الأعظم ﷺ بينه وبين المشركين.

لقد كان ابن الخطاب رضي الله عنه يرى - في قرارة نفسه ساعة عقد الصلح - أن بعض الشروط التي اشترطها المندوب القرشي سهيل بن عمرو في المعاهدة، وقيل بها النبي ﷺ فيها مساس بكرامة الأمة الإسلامية تسجل عليها شيئاً من الدنية، كان ذلك مبلغ فهمه وإحساسه وشعوره كإنسان عادي - بالنسبة للنبي ﷺ - لم يكن (بالتأكيد) على مستواه في إصابة الرأي وبُعد النظر والإحاطة بغوامض الأمور، وبالتالي، تلقّيه الوحي من السماء وعدم صدوره إلا عن أمر الله تعالى.

لذلك فإن ابن الخطاب رضي الله عنه لم يكذب على بنود وشروط المعاهدة - التي اتفق عليها ولم يبق غير التوقيع والإشهاد عليها - حتى نهض معلناً عن معارضته الشديدة وذهب إلى النبي ﷺ، وبصراحته المعهودة أفصح لسيد الحكماء وإمام الحلماء رضي الله عنه عن هذه المعارضة، مستنكراً بعض الشروط التي تضمنتها هذه المعاهدة، وخاصة المتعلقة باشتراط قريش رجوع المسلمين عن مكة ذلك العام دون أداء مناسك العمرة، وتعهد النبي ﷺ برد كل من جاءه من أبناء قريش إليهم حتى ولو كان مسلماً، وعدم تعهد قريش (مقابل ذلك) بأن يردوا من جاء إليهم مفارقاً جماعة المسلمين مرتدّاً عن الإسلام.

فرأينا كيف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى النبي ﷺ معلناً معارضته لهذه الشروط قائلاً: أأست رسول الله حقاً؟ قال: بلى، فقال ابن الخطاب: أألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال النبي ﷺ: بلى.

فقال عمر: فلم نعط الدنية في ديننا إذن؟

فلم ينكر النبي الأعظم ﷺ على ابن الخطاب رضي الله عنه معارضته القوية الصريحة ولم يعنّفه على هذه المعارضة بل حاول إقناعه بسلامة تصرفه ﷺ حينها وافق على هذه الشروط التي تراءى للفاروق أنها مجحفة بالمسلمين، فقد أبلغ النبي ﷺ عمر رضي الله عنه بأنه لا يفعل إلا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وبالتالي لا يتصرف إلا بأمر من الله حيث قال ﷺ جواباً على معارضة الفاروق رضي الله عنه: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ! وَلَكُنْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي».

وحتى بعد ذلك الجواب النبوي الرفيع المقتضب، على تلك المعارضة الفاروقية العنيفة، لم يضق صدر سيّد البشر لاستمرار ابن الخطاب في المعارضة ومناقشة الرسول ﷺ واستجوابه، حيث واصل المناقشة حول الموضوع نفسه قائلاً، وبذلك الصراحة التي كان النبي ﷺ يكبرها في عمر ﷺ لنزاهة الدافع لها في كل مناسبة: «أو ليس يا رسول الله كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟» فقال النبي ﷺ - في هدوئه المعروف -: بلى أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ فقال عمر: لا.

فقال ﷺ: فإنك آتية ومطوف به.

وكان الفاروق قد اتصل بوزير النبي الأول أبي بكر الصديق ﷺ وأعرب له عن معارضته لتلك الشروط وعدم استساغته لها حيث قال لأبي بكر كما تقدم: أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. فقال: ألسنا على حق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قال: فلم نعط الدنيا في ديننا؟ وهنا قال الصديق للفاروق «ملفتاً نظره إلى وجوب التسليم بكل ما يقوله أو يفعله النبي ﷺ»: أيها الرجل إنه لرسول الله وليس يعصي الله ربه، وهو ناصره، فقال عمر: وأنا أعلم أنه رسول الله. فقال أبو بكر: فاستمسك بغرزه فو الله إنه على الحق.

ندم الفاروق ﷺ على المعارضة: وقد أعلن الفاروق ﷺ - وبالصراحة المعروفة عنه - ندمه على تلك المعارضة التي أبداها، وحَدَّث عمر ﷺ عن نفسه أنه كان يصوم ويتصدق ويعتق، تكفيراً عما صدر منه من تلك المعارضة التي صرح بها النبي الأعظم ﷺ. [صلح الحديبية لباشمیل ٢٧٧-٢٨٠].

ويقول د/ أيوب: «لقد اعترض الفاروق عمر ﷺ على بعض بنود شروط الصلح، وقابل ذلك النبي ﷺ بكل سرور؛ لأن مبعث المعارضة هو حب الإسلام وإعلاء شأن المسلمين، فكل معارضة من هذا القبيل يجب أن يتقبلها المسلم بكل ارتياح، أما المعارضة التي يكون مبعثها المساس بالإسلام أو الأغراض الشخصية فيجب أن تجعل تحت الأقدام، فالرسول ﷺ قابل معارضة عمر ﷺ بقوله: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكُنْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي».

أما حين يعارض أي إنسان في مبادئ الإسلام أو أي مبدأ منه، فقد تقوم الحرب لذلك، فليس يرضى الرسول ﷺ، وبالأحرى فلن توجد في صف المسلمين أبداً معارضة ضد الإسلام أو تعاليمه.

اللهم أيد الإسلام برجال يمشون على هدي الرسول ﷺ، ويحفظون قادة المسلمين كما حفظ الأوائل القائد الأول ﷺ. [صلح الحديبية لأيوب ١٥١].

## ٢٥ - حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي:

يقول د/ أبو فارس: «إن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقدًا لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، نعم إن من حقه أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

تأمل هذا النقاش الحاد الجريء من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بنود الاتفاقية التي عقدها رسول الله ﷺ، وتأمل موقف النبي ﷺ من ذلك، إنه لم يغضب، بل أخذ يحاوره ويخبره أن الأمر سيحقق مصلحة المسلمين لأنه أمر من الله تبارك وتعالى، والله لا يضيع أولياءه ورسله.

ونفهم من هذا القول أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف، ليست جريمة تستوجب العقاب، وتغيب صاحبها في غياهب السجون، وربما قالت كلمة المعارضة لذلك الرئيس خذني معك، بل إن هذه المعارضة إن قصد بها وجه الله فهي عبادة يتقرب بها إلى الله ﷻ، وطريق توصل صاحبها إلى الجنة والنعيم المقيم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٣٤-١٣٥].

## ٢٦ - يجب الحكم على الأمور بروية:

يقول د/ أيوب: «فالبلد الذي أثار دهشة المسلمين فسره لهم الرسول ﷺ بأن من ارتد عن الإسلام فأبعده الله فلا حاجة للمسلمين به، ومن جاء مسلمًا ورده الرسول ﷺ فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

وقد حدث كما قال الرسول ﷺ لأبي جندل: اصبر فسيجعل الله لك ولن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا، وقد حدث ذلك لأبي بصير ومن مع من المسلمين فقد قطعوا على قريش طريق تجارتهم حتى ذهب وفد من قريش يسأل الرسول ﷺ أن يقبل من جاءه مسلمًا.

فلقد كان في شرطهم الطاغوي بغيًا عليهم، وقد كان فيه مصلحة كبرى للمسلمين، ألم يكن فيه الفدائية العظيمة لهذا الذي أطاح بأحد الرجلين من الكفار الذين جاؤوا يطلبونه وفر الآخر مذعورًا؟ ألم يكن في هذا الشرط تعلم للمسلم الاعتماد على الله وحده، وأنه يستطيع أن يكون كتبه وحده بفضل دعاء قائد المسلمين له؟ فهو مع الجماعة قلبًا ومنقلبًا، وهو والحالة هذه كأنه سرية وحدة خرجت تضرب في الأرض لتشل حركة الكفر تأخذ رزقها من قوافل قريش التجارية.

إن في ذلك لدرس للقادة المسلمين ولأفراد الإسلام يحتذونه.

اللهم وفق المسلمين لرفع راية الإسلام وفهم الإسلام كما فهمه هؤلاء الذين أوقعوا الرعب بالمشركين، وقعدوا لهم كل مرصد وأقلقوا أمنهم، وجعلوها حربًا عليهم، وقائد المسلمين آمن ومعه أصحابه الكرام، وهؤلاء المؤمنون الجدد الذين جاؤوا من مكة هم الذين قاموا بالحرب على قريش وصدقت دعوة الرسول: «وَيْلٌ لِّأُمَّهِمْ مَسْعَرُ حَرْبٍ لَّوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، وفي رواية «وَيْلٌ لِّأُمَّهِمْ مَحْشٌ حَرْبٍ لَّوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!». [صلح الحديبية لأيوب ١٥١-١٥٢].



## ٢٧ - استشراف أبعاد المعركة:

يقول الشيخ حوى: «في هذه القصة موقف لم يستطع أصحاب رسول الله ﷺ إدراك أبعاده، وهذا يعطينا درسًا في العمل الإسلامي: أن نستشرf دائمًا أبعاد معركتنا، وأن نتفهم الآراء المطروحة أمامنا، وأن نتأني في الحكم على تصرفات القادة الذين يكرمهم الله ﷻ بتحمل المسؤولية، فكثيرًا ما نُضدِرُ أحكامًا مستعجلة، ظاهرها الصواب وباطنها الخطأ». [الأساس في السنة - السيرة - لحوى ٢/ ٧٨٨].

## ٢٨ - مفهوم القوة والضعف والمسامحة والشدّة:

يقول د/ العودة: «الحدة والشدّة والعنف والتشنج ليست بلوازم للقوة، والمسامحة والمهادنة، والتعقل والمداواة ليست مؤشرات للضعف، والأمور تختلف بأحوالها، والناجح من وظّف الموقف المناسب في الوقت المناسب؛ فليس الشديد بالصرعة، وإن من البيان لِسِحْرًا، وإذا لم يكن إلا الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها، والمداواة من أخلاق المؤمنين، والمهادنة سبيل المنافقين.

ومن تأمل هديته ﷺ ومواقفه في (الحديبية) وجدها محققة للغرض، وإن غلب عليها المسامحة والمفاهمة؛ ولذا قال العلماء بجواز بعض المسامحة في أمر الدين واحتمال الضيم ما لم يكن قادمًا في أصله؛ إذا تعين ذلك طريقًا للسلامة في الحال والصلاح في المآل، سواء كان ذلك في حال ضعف المسلمين أو قوتهم، وأن التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد مديظهر في الحال، بل عليه التسليم؛ لأن المتبوع أعرفُ بمآل الأمور غالبًا بكثرة التجربة، ولا سيما مع من هو مؤيدٌ بالوحي. [ابن حجر: السيرة في الفتوح ٢/ ٣٣٢].

كم نحتاج إلى هذه القاعدة التي فصلها الحافظ ابن حجر، وحدد فيها هدف المسامحة في الدين، ووقتها، وضوابطها، وموقف التابع والمتبوع منها.

وكم نحتاج قبل ذلك إلى الوقوف على نصوص الوحيين لمعرفة مفهوم الحق للقوة وأثرها، والواقع يشهد أن قوةً أدبيةً ومرافعةً منطقيةً قد يستجيب ويخضع لها الخصوم، ولجأًا ومهارشةً وحُققًا قد يتنافر منه الأقربون.

وإذا كان في (الرمي) قوةً، ففي برهان (الحجة) قوةً أخرى، والقوة المثمرة في استخدام أي منها عند الحاجة إليها، كما تثمر المسامحة أو الشدة إذا وضعتا في موضعهما». [فقه الحديبية للعودة ٧].

## ٢٩ - وطة الحرب.. وطة السلام:

يقول د/ عشقي: «تملك الجهاد قلوب المؤمنين ونواصيهم، حتى شغلهم عن الطعام، والشراب، والنساء، وإذا كان ﷻ قد رضي منهم ذلك، فإنه لا يرضى لهم ذلك؟ لقد أصبح المسلم يتمنى على الله أن يقتل في سبيله، ثم يحيا ثم يُقتل، ثم يحيا، ثم يُقتل.

نأى أحدهم (حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه) عن زوجته في ليلة زفافها وهما في قمة التداني ليلحق بإخوانه جنباً، فخاص المعركة في أحد وقتل، فبشّرهما رضي الله عنهما، أنه غسيل الملائكة.

رمى أحدهم بضع تمرات كادت تصل إلى فمه لتستقر في معدته الخاوية، لكنه فضل عليها ثمار الجنة، ودخل المعركة فقتل، فأكل من ثمار الجنة.

تقرب أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه برأس أبيه إلى الله في بدر، فما أسف على ذلك قط ولا ندم، بل فاخر بذلك واحتسب.

وفي بدر تلقى معوذ بن عفراء رضي الله عنه ضربة من سيف عكرمة بن أبي جهل حين رآه هاجماً على أبيه، فسقطت يده من الكتف، وتدلّت وتسحبت، فكانت عائقاً له عن القتال، ما كان منه إلا أن مال عليها واتكأ على طرفها بقدمه فسقطت، وواصل جهاده.

مرّ على رسول الله ﷺ، فمرّ بيده الشريفة على الجرح فبرئ، وعاش معوذ رضي الله عنه إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

لقد تنامي حب الجهاد في قلوب المؤمنين حتى أوشك أن يخرج عن مضامينه الحقيقية، وكاد أن يصبح الجهاد غاية واحترافاً، وما هو بغاية، ولا هو باحتراف.

لقد غدا القتال مطلباً شخصياً لكل مسلم، حتى أوشك أن يتبلور فيصبح الأساس في نشر الإسلام، مع أنه شرع للدفاع عن الإسلام، فالإسلام لا ينتشر إلا بالدعوة.

أراد الله ﷻ في غزوة الحديبية أن يكفّ أيدي المسلمين وأيدي المشركين، بعضها عن بعض، كما أراد ﷻ أن يصوّب للمسلمين المفاهيم، فكانت المفاوضات وكانت المعاهدة.

تقدّم النبي ﷺ تجاه مكة عازماً على دخولها ولو عنوة، فكانت حادثة القصواء.

لقد بركت الناقة في الحديبية ورفضت كل المحاولات، وأدرك النبي ﷺ أنها مأمورة.

لقد كانت هذه الحادثة تمثل تحوّلاً في حياة المسلمين، كانت انتقالاً من حالة الحرب إلى حالة السلام، ومن الجهاد إلى الدعوة، ومن القتال إلى التفاوض.

إن للسلام وطأة أشد من وطأة الحرب، فالسلام صراع مع الذات، وحرب قوامها الثبات في المواقف، والصبر على المكاره، وكظم الغيظ، وحسن الأداء، وحكمة القرار، فالسلام هو الجهاد الأكبر.

صبر النبي ﷺ مع صحابته الكرام عشرين يوماً، حتى سال الهدي بقلائده من عرض الوادي، معكوفاً عن محله وقد أكل أوباره من طول الحبس، وشعث المسلمون وقملوا من البقاء في إحرامهم ومن طول المكث، فالصبر على الظلم مذلة للظالم.

لقد تفرق الحلفاء عن قريش، وتعالّت أصوات النقد من القبائل العربية تلهب أسماهم، وبقدر ما كانت قريش تستفز المسلمين، بقدر ما كان المسلمون يكظمون الغيظ، ويتسامحون، ويعفون. بعثت بسفهاثها ليتسللوا إلى صفوف المسلمين، فكانت عاقبتهم الأسر، وبين لهم ﷺ حُسنَ القصد فأفرج عنهم.

ما إن استقر ﷺ في الحديبية، حتى بعث إليهم خراش بن مالك الكعبي ﷺ؛ ليلبلغهم أنهم ما جاؤوا للحرب، وإنما جاؤوا للسلام، جاؤوا لأداء المناسك ثم العودة.

لم تقابل قريش مبعوث السلام بمنهج إسلامي ولا بأسلوب حضاري، بل هاجموا المبعوث النبوي، وعقروا (الثعلب) جمل الرسول ﷺ رمز التفويض، ولولا تدخل العقلاء لقتلوا خراشاً ﷺ.

لقد غلبتهم جاهليتهم فصموا آذانهم عن نصائح الوسطاء من حلفائهم، أمثال بديل بن ورقاء سيد خزاعة، وعروة بن مسعود سيد ثقيف، والحليس بن زبان سيد الأحابيش، ومكرز بن حفص.

بلغ بهم البغي أن قتلوا واحداً من الصحابة، ذكره الطبري في تاريخه ولم يحفظ من اسمه إلا (زُنيَم)، كان السفهاء من قريش ييغون الفتنة؛ لأن أصوات العقل أخذت تملو داخل مكة وخارجها، فخافوا من الصلح، لكن رسول الله ﷺ فوّت على السفهاء الفرصة، وانتصر للعقل، وعزز موقف العقلاء.

بعث إليهم عثمان بن عفان ﷺ فدخل مكة واستمعوا إليه، لما له عليهم من دالة وما له عندهم من منعة، لكنهم في النهاية أرادوا به كيّداً، فحجزوه مع عشرة من الصحابة.

ضاق المسلمون ذرعاً بما حدث، وتزايدت حدة التوتر بين الفريقين، ونظر الله ﷻ إلى حال المسلمين فأَنْزَلَ روح القدس.

ما إن جاء الأمر الإلهي حتى استنفر النبي ﷺ أصحابه ودعاهم إلى البيعة على الموت، فكانت بيعة الرضوان.

تدافع المسلمون على رسول الله ﷺ لإعطاء البيعة حتى وطؤوا متاع أم عمارة، كان أول من بايع هو سنان بن أبي سنان بن محسن ﷺ، بايع الرسول ﷺ على ما في نفسه، فبايع الناس على بيعة سنان ﷺ.

لقد أبعد هول الموقف وتطور الأحداث، وساوس الشيطان عن قريش، فسارعت إلى السلام وأوفدت فريقاً للتفاوض.

ورغم خضوع قريش وانصياعها، إلا أن الصحابة أسقط في أيديهم؛ لأن جذوة الجهاد ما زالت مشتعلة في نفوسهم.

بدأت المفاوضات، واتخذت شكلاً تميزت به في تاريخ الشرائع، لم تكن المفاوضات في قاعة مغلقة، ولا خيمة محروسة، بل تمت في العراء، على مرأى ومسمع من الصحابة رجالاً ونساء، لقد أراد لهم رسول الله ﷺ، أن يكونوا شهود العصر على هذا الحدث العظيم وأن يكون ذلك درساً للإنسانية.

ومع أن الرسول ﷺ أجرى مفاوضات سرية إلا أنه أراد لهذه المفاوضات أن تتم في العلن، حتى توضع الأمور في نصابها، فمفاوضات الحديبية درس للأجيال الإسلامية يجب الإصغاء إليه، والمشاركة فيه، فهي مرحلة من مراحل التحول التاريخي والفكري.

استفزت المفاوضات الصحابة رضوان الله عليهم، فالنبي ﷺ يريد الدخول في سلام إلى مكة المكرمة، والصحابة يتمنونها عنوة، والنبي ﷺ يريد حقن دماء المسلمين الزكية، والمسلمون يسترخصون دماءهم في سبيل الله. تمت المفاوضات بشروطها التي تقضي بعودة المسلمين هذا العام إلى المدينة وقدمهم في العام القادم، وإعادة من يأتي من المسلمين هارباً بدينه إلى المشركين، ولا إعادة لمن ذهب من المسلمين إلى قريش.

ارتفع صوت عمر رضي الله عنه متسائلاً لا معارفاً: يا رسول الله، فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّيْنَةَ فِي دِينِنَا؟ إنها الغيرة العمرية على الإسلام، (ألم يقل له رسول الله ﷺ في مناسبة أخرى: (إن الله غيور يحب الغيور، وأنت غيور يا عمر، وإني لأغیر منك)؟

لقد كان رسول الله ﷺ يرد عليه قائلاً: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

كان الحوار مع صحابي وصفه ﷺ في غنائم بدر برسول الله نوح الطيِّب حين قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (١٦) [نوح].

وكان حوار عمر رضي الله عنه مع نبي قال له الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اذْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانَا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٩٩)].

ولم يثبت أن رسول الله ﷺ لعن إنساناً بعينه، ومن لعنه - وهم قليل - لم يكتب لهم الإسلام، مما يعطي الدلالة على أنه كان يأمر بأمر من الله ووحى منه، فإلى الذين يلعنون إخوانهم المسلمين ويكفرونهم أسوق هذا الحديث.

هذا ابن الخطاب رضي الله عنه، وكظم الغيظ في نفسه، ومع هدوءه هداً الصحابة رضوان الله عليهم، وما كادت تطيب النفوس، حتى حدث أمر ألهب الموقف من جديد، وزاد من هم المسلمين وكرهم حتى أبكاهم، كان مشهداً (درامياً) لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

فالمفاوضات قد تمت والاتفاق على بنودها قد أقر من الطرفين، لكنها لم تسجل، ولم توقع، ولم يتكامل لها العنصر الشكلي.

التفت سهيل بن عمرو كبير المفاوضين من قريش، فوجد ابنه أبا جندل وقد قدم من مكة، يرسف في قيوده والسيوف في يده، هارباً من ظلم قريش، يتوسل إلى إخوانه المسلمين أن يوفروا له حق اللجوء وحق الحياة.

ما إن رآه سهيل، حتى قفز من مجلسه في جاهلية فظة، وتناول غصناً من الشوك فصفع به ابنه، وأخذ بلبته يدفعه إلى الخلف، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته وقد أدمى الشوك وجهه: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرِّدُّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟

فانفجر المسلمون بالبكاء على ما يعاينه أخوهم المسلم، فالأب يضرب ابنه دون شفقة، والمسلمون سيكون عليه وهم لا يعرفونه من قبل وما سبق لهم أن رأوه. هل رأيتم موقفاً أشد روعة من هذا وأبلغ عظمة منه.

ما كان من حويطب بن عبد العزي عضو الوفد القرشي المفاوض، إلا أن التفت إلى زميله مكرز بن حفص، وهمس في أذنه قائلاً: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ حُبًّا لِمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لِحَمْدٍ، وَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَمَا إِنِّي أَقُولُ لَكَ: لَا تَأْخُذْ مِنْ مُحَمَّدٍ نَصْفًا أَبَدًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى يَدْخُلَهَا عَنُوءٌ. فَقَالَ مَكْرَزٌ: أَنَا أَرَى ذَلِكَ.

لم يحتمل الصحابة هذا الموقف، فهجموا على سهيل بن عمرو، وانتزعوا أبا جندل من بين يديه، فهم أولى به من أبيه؛ لأنه أصبح مسلماً منهم، بعد أن تقطعت الصلة بأبيه المشرك.

احتج سهيل على رسول الله ﷺ قائلاً: (هذا أول ما أقاضيك عليه، لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، والله لا أكاتبك على شيء حتى ترده إلي).

لقد غالط سهيل نفسه، لكنه يعلم أن رسول الله ﷺ لا ينصاع للشكليات، بل يبنى قراره على الإرادات، فأرادته ﷺ قد انصرفت عند المفاوضات على القبول بكافة عناصر الاتفاق.

لقد عرف ﷺ قبل البعثة بالأمانة والوفاء، فكيف وقد أصبح نبياً ورسولاً؟ لم تغلبه العواطف، ولا تؤثر فيه المواقف، ولن يثنيه شيء عن الوفاء بالعهد.

لقد أسفرت هذه الحادثة عن قيمة جديدة من القيم التفاوضية في الإسلام.

لقد أطاع أبو جندل ﷺ واستسلم، لقد أطاع الرسول ﷺ، واستسلم لقضاء الله ﷻ، وسلم نفسه لأبيه، وكله ثقة بأن الله ﷻ سوف يجعل له وإخوانه بمكة مخرجاً، ما مضى عام واحد، حتى تمكن أبو جندل ﷺ وإخوانه من الهرب من سجون مكة، وشكلوا قوة هددت طريق القوافل بين مكة والشام، حتى فرغت قريش تتوسل إلى رسول الله ﷺ أن يحميها منهم، فكان الفرج الأخير لهم.

رفض سهيل شفاعة الرسول ﷺ في ابنه، لكن عضوي الوفد (حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص) أبلغا النبي ﷺ بأن أبا جندل سيكون في حمايتها من شر أبيه، وأبلغا سهيلاً بجوارهما لابنه، فكان ذلك الفرج الأول لأبي جندل، وهذا ما أدخل الطمأنينة على قلوب المؤمنين.

عندما كان سهيل بن عمرو يجروا أبا جندل ﷺ ويدفعه، اقترب عمر بن الخطاب ﷺ من أبي جندل ﷺ، وهو يقول له: يَا أَبَا جَنْدَلٍ، فَإِنَّمَا هُمْ الْمَشْرِكُونَ، وَإِنَّمَا دَمٌ أَحَدِهِمْ دَمٌ كَلْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ، وَمَعَكَ السَّيْفُ.

قال عمر ﷺ وهو يروي هذا المشهد لأصحابه: فَرَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ وَيَضْرِبَ أَبَاهُ، فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: يَا أَبَا جَنْدَلٍ، إِنَّ الرَّجُلَ يَقْتُلُ أَبَاهُ فِي اللَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ أَدْرَكْنَا أَبَاءَنَا لَقَتَلْنَاهُمْ فِي اللَّهِ، فَرَجُلٌ بِرَجُلٍ، قَالَ: وَأَقْبَلَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ عَلَى عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: مَا لَكَ لَا تَقْتُلُهُ أَنْتَ؟ قَالَ عُمَرُ ﷺ: نَهَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِهِ وَقَتْلِ غَيْرِهِ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ: مَا أَنْتَ بِأَحَقَّ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ مِنِّْي.

[الغازي للواقدي ٢/ ٦٠٨-٦٠٩].

ما إن بلغ رسول الله ﷺ ما فعل عمر ﷺ حتى قال له: «يَا عُمَرُ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقُومَ فِي اللَّهِ مَقَامًا يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ». [جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ لابن الأثير ٨/ ٣٠١ رقم ٦١٠٨ من زيادة رزين، وقال محققه: «رواية رزين هذه رواها أحمد في المسند ٤/ ٣٢٦» ولم أصل إليها في المسند].

عادت الأجواء لما كانت عليه وعاد الفريقان لإتمام المعاهدة بالتسجيل، لكن رسول الله ﷺ أراد أن يدخل السكينة في قلوب المؤمنين ليستكمل الإجراءات.

اجتمع ﷺ بالمسلمين، وبين لهم المكاسب في المعاهدة والتضحيات، حتى أدركوا أن المسلمين غنموا الكثير ثم قال لهم: «أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ أَحَدٍ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَأَنَا أَذْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ؟ أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ رَاغَبَ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟»، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُهُمْ أُمُورًا: أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيهَا فَكَّرْتَ فِيهِ، لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ مِنَّا.

جعل الصحابة يتعوذون من الشيطان الرجيم، وقال عمر ﷺ: فَمَا أَصَابَنِي قَطُّ شَيْءٌ مِثْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ يَوْمَئِذٍ.

لقد كان لكلام أبي عبيدة بن الجراح ﷺ أثر في وجدان عمر ﷺ، وما قال أبو عبيدة سوى بضع كلمات: (تعوذ بالله من الشيطان يا عمر واتهم رأيك)، فكان عمر ﷺ يرددها إلى أن مات.

إن اتهام الرأي هو أقوم السبل إلى الطريق القويم، فما ضل من ضل إلا بالاعتداد بالرأي لكن للمسلم نفساً قوامه.

بادر الوفدان البدء بتسجيل المفاوضات، وبهذا انتهت المرحلة الأولى من مراحل المعاهدة، وجاءت مرحلة التحرير والتوقيع». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٩٥-١٠٤].

### ٣٠ - الاعتراف الرسمي من الوثنية بدولة الإسلام والمسلمين:

يقول عميد/ فرج: «اعترفت قريش بالمسلمين كقوة لها شأنها وبالإسلام كدين له وجوده، وهذا اعتراف له شأنه من أشد الناس عداوة للإسلام وشدة على المسلمين، ولعل خوف قريش من المسلمين كان عاملاً هاماً وراء سعيهم إلى عقد هذا الاتفاق، فرغم أن قريشاً كانت في بلدها بكامل قواتها وفيها صناديدها كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، ومعها حلفاؤها من الأحابيش والأعراب، إلا أنها كانت تعيش خوفاً ورعباً من قوة محمد ﷺ التي تزيد عن الألف قليلاً ولم يكن معها من السلاح إلا السيوف فقط، ذلك أنها قد عرفت فيهم خلال لقاءاتها معهم الشجاعة والجرأة والصبر عند اللقاء والقوة عند النزال، وأنهم يقاتلون على قلتهم وكأنهم جيش جرار يسعى الواحد منهم إلى النصر أو الشهادة، وكان دخول المسلمين مكة عنوة أمراً يثير فيهم الرعب، فهم بذلك يفقدون منزلتهم عند العرب، وسلطانهم داخل مكة، وسيادتهم التي عاشوا حياتهم بها ولها، ومن هنا كان سعيهم إلى السلام لا رغبة فيه ولكن حرصاً على كرامتهم ومكانتهم، ولقد كان واضحاً أن المسلمين كانوا راغبين في مهاجمة مكة ودخولها عنوة، وأكبر دليل على ذلك بيعة الرضوان، فقد بايعوا الرسول ﷺ على ألا يفروا حتى الموت وبايعوه وكلهم ثابت الإيمان قوي العزيمة، وقد اهتزت السيوف في غمودها وكان كل منهم ينتظر اللحظة ليدخل مكة أو لتكون له الشهادة.

وهكذا عاد المسلمون إلى المدينة، وقد ازدادت ثقتهم في أنفسهم، ورأوا أن هذا الصلح قد باعد بين قريش وحلفائها من يهود خيبر، إذ فقد هؤلاء معاونة قريش لهم، وأصبحوا هدفاً لغزوة إسلامية قضت على آخر معاقلمهم في الجزيرة، وأمن بذلك المسلمون جانبهم إلى الأبد.

وعاد المسلمون إلى المدينة لتبدأ مرحلة جديدة من نشر رسالة دينهم خارج حدود الجزيرة، فكانت رسالات الرسول ﷺ التي حملها رسله إلى هرقل وكسري والمقوقس ونجاشي الحبشة والحارث الغساني وعامل كسرى في اليمن، وهكذا بدأت صفحة جديدة من السعي والجهاد لإبلاغ رسالة الإسلام إلى كافة الناس في ربوع الأرض». [العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٣٦-٣٣٧].

ويقول د/ الغضبان: «شهدنا في سمة الصف القوي، وها نحن نشهد الآن عظمة القيادة النبوية من خلال صلح الحديبية.

لقد كان اتجاه رسول الله ﷺ إلى المصالحة منذ اللحظة التي بركت ناقته، فقال الناس: خَلَّاتِ الْقَصُوءَ، خَلَّاتِ الْقَصُوءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (بعد أن أدرك ما لم يدركه غيره): «مَا خَلَّاتِ الْقَصُوءَ، وَمَا

ذَلِكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) خُطَّةَ يُعَظَّمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

والظاهر أن الوحي نزل على رسول الله ﷺ بالصلح مع العدو؛ لأن رسول الله ﷺ لم يستشر - كما تشير النصوص - أحداً في هذا الأمر، واكتفى بإعلان هذا الاتجاه بعد بروك الناقة وفي ذلك إشارة دقيقة: حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وهذا يعني أن احتمال الرجوع عن مكة وارد.

ومع وصول سهيل بن عمرو الذي تفاعل به ﷺ قائلاً: سهل أمرهم، وانتهاء المفاوضات الأولى بتبادل الأسرى بين الفريقين، لكن وصول هذا الوفد والبيعة على أشدها كان المهماز الأخير في اتجاه قريش إلى الصلح، وكان هدفها الأول: ألا تحطم سمعتها العسكرية، وتمرغ كرامتها بالتراب نتيجة دخول الرسول ﷺ مكة عنوة، أما بقية البنود فقابله للأخذ والرد.

وبين رغبتيين جامحتين: رغبة لقريش أن لا يدخل عليهم مكة هذا العام أبداً، ورغبة المسلمين أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت الحرام ورجوعهم هو هزيمة عسكرية لهم.

بين هاتين الرغبتين الجامحتين كان النبي ﷺ يوازن بأفاق أبعد وأماد أرحب، وهل من هزيمة أعظم من قبول قريش المصالحة وبعثة وفد بذلك، قريش قبل عام واحد تحاصر المسلمين مع مَنْ جِيشت من العرب، وتأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم وهي اليوم تبعث وفداً للمصالحة مع المسلمين على مشارف مكة. إنه نصر ساحق ولا شك والنصر الآخر هو أن تقف مكة على الحياد، وتقف الحرب في جزيرة العرب، وتُفتح أبواب الجزيرة أمام المد الإسلامي.

إنه نصر ساحق ولا شك.

وأن يعود المسلمون في العام القادم ويدخلوا مكة باعتراف رسمي دون أن يتعرض لهم أحد بسوء.

إنه نصر ساحق ولا شك.

وأن تفتح قريش صفحة جديدة مع المسلمين وتعترف بكيانهم ودولتهم، ويسود الأمن والود بين الفريقين ويفتح باب الحوار مع قادة مكة من موقع القوة. إنه نصر ساحق ولا شك.

هذا من جهة ومن جهة ثانية ماذا يعني إصرار المسلمين على دخول مكة عنوة.

إن أول معانيه، أن يكون الحقد والثأر هو الذي يطبع نفوس أهل مكة جميعاً، وهذا يسد إلى فترة غير قليلة باب الدخول في الإسلام أو التفكير به.

وما كان رسول الله ﷺ يغيب عن قلبه أبداً رغبته في إسلام أهل مكة، وهذه خسارة فادحة، وأن تقع معركة غير متكافئة يسقط فيها مئات الشهداء من المسلمين لدخول مكة، وهم قرعة عينه وخيرة جنده، فهذه خسارة فادحة ثانية.



وأمام هذه التوازنات جميعاً، وبتسديد الوحي كان رسول الله ﷺ ماضٍ في خطته، لا يراوده فيها أدنى شك، نلاحظ ذلك من خلال إجابته الواضحة الصارمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:  
**«أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».**

والملاحظ أن رسول الله ﷺ لم يُفصح عما في نفسه إلا مضطراً، وذلك أمام إلحاح المسلمين على دخول مكة، فأعاد لهم شريط الأحداث ليتقلوا منه ومعه إلى النصر الجديد القادم.

**«أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تُضْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ؟ أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ الْأَخْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟»،**  
**وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُهُمْ أُمُورًا: أَنْتَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ، لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ مِنَّا.**

وعودة إلى نصوص المعاهدة نلاحظ من خلالها أول اعتراف رسمي من قريش بدولة الإسلام، إنه اعتراف بالدولة وليس اعترافاً بالرسالة، ومن أجل هذا ناقشوا كثيراً بـ (الرحمن الرحيم) وبـ (رسول الله) ولكنها الخطوة الأولى على الطريق.

وإيقاف الحرب عشر سنين تهيء لرسول الله ﷺ وللمسلمين مجالاً رحباً للانطلاق بالإسلام إلى العرب كل العرب، دون مقاومة أو مواجهة من أحد، فقد كانت العرب تنتظر مصير الحرب بين الفريقين؛ واقفه على الحياد ولا يجرؤ أي تجمع عربي على الانضمام لأحد الفريقين خوفاً من غلبة الفريق الآخر، وإن كانت بعض القبائل العربية ظهرت قريباً على رسول الله ﷺ لكن تلك المظاهرة كانت منطلقة من الثقة المطلقة بقوة قريش، وأما بعد الأحزاب وبعد فشل الهجوم الضخم انتهت التحالفات العربية في المنطقة ضد الإسلام وأيس الناس من إمكانية القضاء على الإسلام ورسول الإسلام ﷺ.

وأهم بند من بنود المعاهدة انتهاء عنصر الخوف في الأرض العربية فمن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه، لقد فتحت آفاق الدعوة على مصراعها دون وجل أو خوف من أحد، وهذا ما كان يريده رسول الله ﷺ منذ بداية الحملة: **«إِنَّمَا لَمْ تَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، إِنَّمَا جِئْنَا لِنُطَوِّفَ بِهَذَا النَّبِيِّ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، وَقُرَيْشٌ قَوْمٌ قَدْ أَصْرَتْ بِهِمُ الْحَرْبُ، وَهَكَتْهُمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مَدَّةً يَأْمُنُونَ فِيهَا، وَيُحِلُّونَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَإِنْ ظَهَرَ أَمْرِي عَلَى النَّاسِ كَانُوا بَيْنَ أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ أَوْ يُقَاتِلُوا وَقَدْ جَمَعُوا، وَاللَّهِ لَا جَهْدَنَ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ يُنْفَذَ اللَّهُ أَمْرَهُ!». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٣].**

والبنود الأخيرة اللذان أثارا حفيظة المسلمين يجد النظر لهما لأول وهلة أنها محضان بحق المسلمين، لكن النظرة الأبعد تؤكد أنها لمصلحة المسلمين.

وأول هذين البندين: «مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بَغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيٍّ رَدَّ عَلَيْهِمْ».

ولا شك أن هذا البند فيه - في ظاهر الأمر - تخلُّ عن المستضعفين المؤمنين في مكة، غير أن ما ذكره القرآن حولهم يؤكد أن تأجيل المعركة مع قريش وتأخيرها هو لصالح هؤلاء المستضعفين في مكة: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَرْجُلِ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٥﴾ [الفتح]؛ لأن الحرب لو اندلعت لتعرض المستضعفون في مكة للإبادة بينما قامت هذه المعاهدة بتحقيق نصر معنوي لهم أهم ما فيه العهد مع دولتهم بالمواذعة.

ومع أن الإجحاف الجزئي من خلال هذا النص قد أثر قليلاً على أعصاب المسلمين، لكنه ما لبث أن تعدّل بعد أقل من شهرين، وذلك بعد خروج أبي بصير رضي الله عنه ومن معه من المسلمين إلى ذي المروة بالساحل. وثاني هذين البندين: «وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّهُ عَلَيْهِ»، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئن إلى المؤمنين عنده، وكما قال لصحبه: «ومن جاءهم منا فلا رده الله».

إذ ماذا يُجدي وجود عملاء لقريش في الصف المسلم أو منافقين يكيدون للإسلام؟ ورجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة في ظاهره فشل حملة الحديبية، وفي حقيقته اعتراف رسمي بحق المسلمين بدخول مكة في العام القادم.

وكم الفرق بين نصر جزئي لن يصل له المسلمون دون مئات الشهداء والقتلى من الفريقين، وبين دخول رسمي لمكة من المسلمين بإقرار المشركين.

وليس بعد قول الله تعالى قول، فلقد سمى الحديبية - جل شأنه - فتحاً مبيهاً، فقال عزمي قائل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢﴾ وَيَضْرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ٣﴾ [الفتح].

واقترضت هذه الآيات تهنئة أهل السماء على لسان جبريل عليه السلام، وتهنئة أهل الأرض وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين المسلمين جميعاً ليتلو عليه آيات الله، ويسكب الطمأنينة والسكينة والأمن في قلبه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِلَىٰ مَعَاذِ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينَةُ ۚ وَاللَّهُ جُثُوْدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٦﴾ [الفتح].

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَقُولُ: «مَا كَانَ فَتْحٌ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مِنْ فَتْحِ الْحَدَيْبِيَّةِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمِيذٍ قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَرَبِّهِ، وَالْعِبَادُ يَعْجَلُونَ وَاللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَعْجَلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّىٰ تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللَّهُ».

لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَجَّهٍ قَاتِلًا عِنْدَ الْمَنْحَرِ يُقَرِّبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بُدْنَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْحَرُهَا بِيَدِهِ، وَدَعَا الْحَلَّاقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَنْظَرُ إِلَى سُهَيْلٍ يَلْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ، وَأَرَاهُ يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَذْكُرُ إِيَّاهُ أَنْ يَقَرَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ بِأَنْ يَكْتُبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيَأْبَى أَنْ يَكْتُبَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي هَدَانَا بِهِ وَأَنْقَذَنَا بِهِ مِنَ الْهَلَكَةِ!». [المغازي للواقدي ٢/ ٦١٠].

والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى أن تراجع رصيدها على ضوء هذه السمة، وألا تشغلها النزوات والانفعالات الجزئية عن الخطة العامة التي تجعل الهدف العام يضحى من أجله بالمنفعة القريبة العاجلة.

إن الانتقال بالدعوة إلى المجال السياسي بحيث تثبت وجودها فيه، بجانب الجهد العسكري الذي تبذله هو الذي يمكن لهذه الدعوة في الأرض، وإن الدعوة حين تُسد في وجهها السبل، وتوضع في عجلاتها العصي، وينزل الاضطهاد بها من كل صوب لا تجد أمامها محيصاً من اللجوء إلى القوة حتى تضرب جذورها في الأرض، لكن هذه القوة هي الوسيلة الناجعة للعودة إلى الحوار الفكري والمجال السياسي مع الخصوم.

وتستطيع أن تحقق بترافق ذينك الجانبين معظم أهدافها، أما التخلي عن واحد منها فهو خلل كبير تُصاب به الدعوة.

لقد رأينا الحركات الإسلامية حين تعتمد على الحرية الديمقراطية دون سند لها من قوة، ولو وصلت إلى بعض المواقع لكنها سرعان ما تخسر؛ لأن الباطل لا يرضى لها الغلبة وهو قادر على إزاحتها، وتجارب الحركة الإسلامية من خلال منح وزارة أو إعطاء قطاع من القطاعات حرية محدودة سرعان ما ينهار ذلك العطاء، وتُجثت تلك الثمرات، كما أن اعتماد القوة وحدها ونسيان هدف الدعوة الرئيس، واعتماد التحرك السياسي سرعان ما يفصم بينها وبين الناس ويوسع الهوة التي لا تزد بعد ذلك.

أما أن يكون الجانب الجهادي بجوار التحرك السياسي، وكلاهما يخدمان دعوة الإسلام هو الطريق الطبيعي لتحقيق نصر الله.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ( يَقُولُ الزُّهْرِيُّ (عن فتح الحديبية): فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتَحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ (أي من صلح الحديبية)، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ اتَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدُنَةُ وَوُضِعَتْ الْحَرْبُ، وَأَمَنَّ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَقَا وَضُوعًا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَبِينِكَ السَّتِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدَلِيلِ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ أَلْفٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

ومن الألاف العشرة يوم الأحزاب إلى الألاف العشرة يوم فتح مكة يظهر حقيقة هذا الفتح المبين. ولا شك أن رسول الله ﷺ استثمر هذا الفتح أعظم استثمار.

والمؤمنون المجاهدون بحاجة إلى أن يستثمروا المواقع التي يربحونها أعظم استثمار، وها نحن نشهد في السمات التالية آثار هذا الاعتراف ونتائج هذا الفتح بحيث قلب الموازين كلها لصالح الإسلام والمسلمين: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آلُؤْيًا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿٧﴾ [الفتح].

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ٣٢-٣٩].

### ٣١ - استثمار الفرص وتحييد الأعداء:

يقول د/ العودة: «تَحْيِئُ الفرصة المناسبة لنجاح، والنجاح الأكبر استثمار الفرص المتاحة لمصلحة الإسلام والمسلمين، والمتأمل في سياق (قصة الحديبية) يرى أن النبي ﷺ بارعٌ ومتفوق في استثمار الفرص، فلم يكن نجاحه في (شروط الحديبية) ليقف عند حدود (اعتراف) المشركين بالمسلمين كقوة كبرى تستحق أن يُقاوَضَ معها، وتُهادَنَ بعد أن كانت قريش تُغيِّرُ عليها متى شاءت، والعهد قريب بغزوة (الأحزاب)، بل تجاوزت نجاحات النبي ﷺ ذلك إلى (تحييد) قريش في معترك الصراع القائم آنذاك، وكبَّلت قريش نفسها بهذه (المعاهدة) فلا تفكرُ بحرب المسلمين على الأقل (عشر سنين) وكان هذا نجاحًا وعمقًا في سياسة محمد ﷺ، وربما خفي على بعض أصحابه ﷺ».

والنجاح الأكبر والاستثمار الأعظم هو استثمار النبي ﷺ لهذه الفرصة (الهدنة) وذاك (التحييد)؛ فثمة خصوم آخرون لا بد من الالتفات إليهم والخلاص منهم، وثمة فرصٌ للدعوة لدين الحق هذا أو أنها وميدانها، وقد كان.

ففي الجانب الحربي غزا النبي ﷺ (اليهود) في (خير) وأدبهم، وغنم أموالهم وعقد الصلح معهم. وفي الجانب السلمي تقدمت (الدعوة) خطواتٍ في أرض الحجاز وما حولها، ودخل في دين الله - زمن الهدنة - أضعاف ما دخل من قبل.

وعن هذه المكاسب الدعوية «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ ﷺ: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ (أي من صلح الحديبية)، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ اتَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتْ الْحَرْبُ، وَأَمَّنَ النَّاسُ

بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي بَيْتِكَ السَّيِّئِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدَلِيلِ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحَدِيثِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعٍ مِثَّةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

قال ابن القيم: ومن حكم الصلح: «أَنَّ هَذِهِ الْهُدْنَةُ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْفُتُوحِ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْكَفَّارِ، وَبَادَوْهُمْ بِالدَّعْوَةِ وَأَسْمَعُوهُمْ الْقُرْآنَ وَنَاطَرُوهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ جَهْرَةً أَمْنِينَ، وَظَهَرَ مَنْ كَانَ مُحْتَفِيًا بِالْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ فِيهِ فِي مَدَّةِ الْهُدْنَةِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلَ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ فَتْحًا مُبِينًا». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠].

لقد كان رسول الله ﷺ قادرًا على استثمار الفرص؛ وفي صلح الحديبية درس عظيم للمسلمين للحوار والدعوة واستثمار الفرص، وتحييد الأعداء وإسماع صوت الإسلام لمن يسمع». [فقه الحديبية للعودة ٥-٦]. ويقول د/ الزيد: «بعد صلح الحديبية يكون الرسول ﷺ قد فرغ من عدو لدود للإسلام والمسلمين وبالتالي تمكن من التفرغ لأعمال أخرى [ينظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٥٠]، مثل التوجه إلى اليهود في عقر دارهم حيث لم يبق في المدينة بعد الحديبية إلا فترة قصيرة جدًا ثم توجه إلى خيبر وفتحها. وكذلك كاتب الرسول ﷺ ملوك وأمراء العالم وأرسل إليهم رسائل من عنده يبلِّغونهم دعوة الله إلى الناس كافة». [فقه السيرة للزيد ٥٤٤].

### ٣٢ - تقرير مبدأ المحالفة:

يقول د/ الفيتوري: «الحلف في اللغة: الحَلْفُ بِوَزْنِ الحَقْفِ: الْعَهْدُ يَكُونُ بَيْنَ الْقَوْمِ، وَقَدْ حَالَفَهُ أَيْ عَاهَدَهُ، وَتَحَالَفُوا: تَعَاهَدُوا، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُ حَالَفَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ» يَعْنِي أَخَى بَيْنَهُمْ لِأَنَّهُ لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ. [مختار الصحاح للرازي ص ١٢٥ ط الهيئة المصرية للكتاب].

والحلف، بالكسر: الْعَهْدُ بَيْنَ الْقَوْمِ، وَالصَّدَاقَةُ، وَالصَّدِيقُ يَحْلِفُ لِصَاحِبِهِ أَنْ لَا يَغْدِرَ بِهِ، ج: أَخْلَافٌ. [القاموس المحيط للفيروز آبادي ١/ ٨٠١ ط مؤسسة الرسالة].

الحلف اصطلاحًا: لا يختلف المعنى اللغوي عن المعنى الشرعي كثيرًا، فأصل الحلف: المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق على الخير ونصرة الحق. [ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. نقلًا عن التحالف السياسي في الإسلام لمنير الغضبان ص ٩ بتصرف].

جاء في بعض كتب السياسة المعاصرة تعريفًا للحلف بأنه: الاتفاق بين دولتين أو أكثر على تدابير معينة لحماية أعضائه من قوة أخرى معينة، تبدو مهددة لأمن كل من هؤلاء الأعضاء.

[مدخل إلى علم العلاقات الدولية، محمد طه بدوي ص ٢٥٥-٢٥٦].

ولا يخفى أن سياسة التحالف مبنية على فقه المصالح والمفاسد في إطار الأمن، أو المواجهة، أو تحقيق التوازن في الوسائل السيادية للدولة العسكرية منها أو المدنية.

ولا ريب أن الأخذ بسياسة التحالفات هي استجابة لمقتضيات البيئة السياسية والاجتماعية، وتفاعل مع ضرورات التأمين والتمكين التي تقتضيها المرحلة بهدف حماية الأمن القومي، والدفاع عن مصالح الأمة الإسلامية، وتحقيق الأهداف الإستراتيجية الخارجية للدولة الإسلامية، من عالمية الدعوة والنظام، كما قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». [مسلم في الإبان (١٥٣)].

ويتضح من هذا، دوافع لجوء الدولة الإسلامية إلى سياسة التحالفات التي يمكن أن نجمل أهميتها في جملة واحدة، حيث إنها (تعتبر أكثر خيارات السياسة الخارجية واقعية، والتقاء مع طبيعة العلاقات الإنسانية، والسياسة الدولية)، التي كانت تدور في محورين رئيسيين وهما: الدبلوماسية (فن الإقناع)، والإستراتيجية (فن الإكراه)!! وذلك لتحقيق الأهداف المرجوة من سياسة التحالفات، وهي: تأمين كيان الدولة، والتمكين لها، وإقامة مشروعها الرباني، وبسط نظامها العالمي على العباد وفي البلاد، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

ومن هنا يمكننا القول بأن الخطوة الأولى: نحو إبرام التحالفات تتمثل في تحديد (العدو)، وتحييده (سياسة الاحتواء)، كما يقال: حيث لا عدو، لا تحالف!!

أما الخطوة الثانية: نحو إبرام التحالفات لكونها سبيلاً إلى زيادة قوتها بأقل تكلفة، وكبديل عن سياسة التسلح التي قد تستنزف جانباً كبيراً من مواردها الاقتصادية، فضلاً عن حاجة سياسة التسلح إلى فترة زمنية أطول نسبياً؛ لكي تؤتي ثمارها المرجوة.

وكذلك تهدف الدولة الإسلامية من سياسة التحالف إلى تقليل المدى الزمني الذي قد يستهلك إلى تحقيق بعض أهدافها الخارجية، أو تقليل حجم المخاطر التي قد تواجهها وهي في سبيلها إلى تحقيق هذه الأهداف.

وكذلك قد يكون الهدف من قيام بعض التحالفات رسم أو تحديد نطاق مناطق النفوذ التابعة للدولة الإسلامية، وذلك إبقاء على توازن القوى فيما بينها، وحتى لا يتطلع أي منها إلى المساس بالدائرة الثابتة لنفوذ القطب الآخر، كما كان في عقده ﷺ حلفاً مع قبائل الشمال المتاخمة للدولة البيزنطية.

وقد تحقق سياسة التحالفات الهيمنة والسيطرة على بعض الدول الخليفة، وتقييد سلوكها المجافي لسياسات الدولة الإسلامية في علاقاتها الخارجية، كما كان من حلفه ﷺ مع القبائل المحيطة بمجال الدولة الإسلامية في المدينة.

وقد وردت شواهد شرعية كثيرة تدل على جواز عقد حلف بين دولة الإسلام والجاهلية، وقد شهد تاريخ الدولة الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ تطبيقات عديدة لسياسة التحالف، سواء على المستوى الإقليمي كما كان حلفه ﷺ مع خزاعة يوم الحديبية، أو على الصعيد المحلي كما كان حلفه مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، وقد اتسمت سياسة التحالفات هذه بالرونة والتبدل وفقاً لاعتبارات توازن القوى، ومؤشرات المعارك من نصر وهزيمة، ومقتضيات المصلحة العامة، والرأي العام، فحليف اليوم سرعان ما يتحول إلى عدو الغد، كما حصل ذلك مع بني سليم وغطفان حينما نقضوا حلفهم مع الدولة الإسلامية، وأعلنوا الحرب عليها، وذلك في أعقاب نتائج معركة بدر المحورية، حيث كانت قواعد بني سليم وغطفان تقع إلى جهة الشرق من العاصمة الإسلامية.

[ينظر: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي لمحمد حميد الله ص ٢٥٧].

ومن تلك الشواهد ما نحن بصدد شرحه، وهي غزوة الحديبية، حيث عقد رسول الله ﷺ حلفاً مع قبيلة خزاعة بعد فراغه للتو من كتابة الصلح بينه وبين دولة قريش.

وكان فحوى هذا الحلف أن تقوم خزاعة بمناصرة دولة الإسلام الخليفة على دولة قريش الجاهلية إذا غزتها أو نقضت صلحها، وكذلك على الدولة الإسلامية مناصرة خزاعة إذا غزتها قريش أو نقضت عهدها معها، وبالضرورة ليس هذا الحلف أو الاتفاق مقتصرًا على الطرفين فقط، بل الباب في ذلك مفتوح لمن شاء من قبائل العرب أو غيرهم أن يدخل فيه!!

ولا يخفى أن ذلك فيه توسعة لدائرة الإسلام والنفوذ في الجزيرة العربية بأسرها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يَعْلَمُ﴾ (٧٥) ﴿وَأَنَّمَا لِسَبِيلِ مُقِيمٍ﴾ (٧٦) [الحجر]!!

يقول ابن كثير رحمه الله: «كَانَ فِي صَلَاحِ الْحَدِيبَةِ أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ، فَتَوَاتَبَتْ خُزَاعَةُ وَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ وَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةِ أَوْ الثَّمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا.

ثُمَّ إِنَّ بَنِي بَكْرٍ وَتَبَوُّوا عَلَى خُزَاعَةَ لَيْلًا بِنَاءً يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ، وَقَالَتْ قُرَيْشُ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ.

فَاعَانَوْهُمْ عَلَيْهِم بِالْكَرَاعِ وَالسَّلَاحِ، وَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُمْ لِلصَّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ رَكِبَ عِنْدَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ خُزَاعَةَ وَبَنِي بَكْرٍ بِالْوَتِيرِ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُهُ الْخَبْرَ وَقَدْ قَالَ أَيْيَاتٍ شِعْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا:

## لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَبِيهِ وَأَيُّنَا الْأَمْلَدَا

[البداية والنهاية ط هجر ٦ / ٥٠٨-٥٠٩].

وفي رواية ابن أبي شيبة رحمته الله: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَنْ دَخَلَ مَعِيَ فَلَهُ مِثْلُ شَرِّطِي»، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَنْ دَخَلَ مَعَنَا فَهُوَ مِنَّا، لَهُ مِثْلُ شَرِّطِنَا، فَقَالَتْ بَنُو كَعْبٍ: نَحْنُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَالَتْ بَنُو بَكْرِ: نَحْنُ مَعَ قُرَيْشٍ. [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠ / ٤٠١ رقم ٣٧٩٩٤].

ولا يخفى أن للحلف أعرافاً سياسية وطرفاً دبلوماسياً يجب مراعاتها عند إبرامه مع دولة كافرة صديقة أو غيرها، ومن هذه الآداب السياسية التي تخص الدولة الإسلامية، والتي ينبغي أن تراعيها قيادة الدولة السياسية عند إبرامها الحلف مع أية دولة، منها:

ضرورة تحديد مقدرات الدولة الإسلامية المادية والمعنوية، والجغرافية والديمقراطية، والعسكرية والتسليحية، قوة وضعفاً، وسلباً وإيجاباً، وكثرة وقلة، وإمكانية المناورة بهذه المقدرات، ورصد ذلك في الدولة الحليفة أيضاً، ثم بعد ذلك تعيين مساحات المصلحة والمفسدة بين الدولتين، وكيفية التحرك من خلال هذه المساحات لتحقيق المصالح ودرء المفاصد وفق الأهداف الإستراتيجية للدولتين في إطار الأمان النسبي القائم بينهما، وروح التعاون الضروري، والحاجة الماسة لتحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين للدولتين.

ولكن يجب أن يكون معلوماً في أدبيات الدولة الإسلامية أن سياسة الأحلاف ودبلوماسية الاتفاقيات عامة تختلف باختلاف الزمان، والمكان، والإنسان، قوة وضعفاً، وحسب الأطر الإستراتيجية والأهداف التكتيكية المرتقبة والمرجوة.

فقد ترى الدولة الإسلامية جواز نوع من الأحلاف والاتفاقيات في وقت ما، وعدمه في وقت آخر حسب الظروف والمكاسب المتاحة؛ لأن قضايا الأحلاف والاتفاقيات والمصالحات والمهادنات، كما هو معلوم في منظومة السياسة والدبلوماسية، كلها خاضعة لفقه المصالح والمفاصد، وتدور في فلك فقه المآلات والموازنات التي تعتبر من صلب السياسة الشرعية، وليست داخلية في مسمى الولاء والبراء ومفردات قضايا الإيمان والكفران كما يظن بعض الناس.

فقد جاء في ديباجة صلح الحديبية مثلاً، توقيع اتفاقية دفاعية بين الدولة الإسلامية وإحدى دويلات (الكمنولث) المكي المتمثلة في قبيلة خزاعة، نظراً لمصلحة الدولة الإسلامية الإستراتيجية، في كسر حاجز السيادة القرشية، وشق صفها، وتشيت جهدها، واختراقها، ومراقبتها عن كثب «وَكَاثَتْ خُرَاعَةُ عِيَّةٍ نَصَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أي خاصته وأصحاب سره)»، وفيما يلي خبر هذه الاتفاقية الدفاعية الهجومية.



نص الاتفاقية: نص هذه الاتفاقية كما ورد في مسند أحمد: «وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاتَبَتْ خُزَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرِ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

على الرغم من اعتبار خزاعة إحدى دول (الكمنولث) المكي، فإن توقيع الاتفاقية الإستراتيجية بينها وبين دولة الإسلام يعتبر تقريراً لمبدأ ممارسة الردع بجميع أشكاله من أجل إرغام الخصم على قبول مبادئ سياسة الأمر الواقع، أو محاولة إلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر السياسية به على الصعيد الإقليمي والدولي، أو الإجهاز عليه مبكراً، والافراد به حين يلزم الأمر، وذلك من خلال نظرية (الردع، والقوة العادلة).

قال الحافظ ابن حجر في شرحه خبر توقيع الاتفاقية الدفاعية بين الدولة الإسلامية وخزاعة، ما يلي: «وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ: جَوَازُ اسْتِنْصَاحِ بَعْضِ مُلُوكِ الْعَدُوِّ، اسْتِظْهَارًا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ مَوَالِيَةِ الْكُفَّارِ، وَلَا مَوَادَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، بَلْ مِنْ قِبَلِ اسْتِخْدَامِهِمْ، وَتَقْلِيلِ شَوْكَةِ جَمْعِهِمْ، وَإِنْكَاءِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ». [فتح الباري لابن حجر ٥/٣٣٨].

ويجب أن نشير في هذا المقام إلى أهم وسائل التكتيك التي ركزت عليها هذه الاتفاقية الإستراتيجية بالنسبة للدولة الإسلامية، وهي أسلوب التحديتات التدريجية أو المرحلية للعدو العربي واليهودي، حيث كانت تقوم على تفجير صراعات محدودة النطاق هنا وهناك، ولكن في إطار إستراتيجية محسوبة ضد الخصم الرئيس القرشي، وذلك بما يخدم الهدف الإستراتيجي النهائي من وراء الصراع الإستراتيجي بالنسبة للدولة الإسلامية.

وهذا ما حصل حقيقة بعد عقد صلح الحديبية حيث دخلت خزاعة في توقيع اتفاقية دفاعية هجومية مع الدولة الإسلامية، وتم تحييد دولة قريش عن دائرة الصراع، والافراد بدويلات يهود خيبر ودك معاقلهم، وتدمير منشآتهم، والقضاء عليهم قضاءً مبرماً!!

قال ابن القيم رحمه الله: «قَالَ مُوسَى بْنُ عَقَبَةَ: وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، مَكَثَ بِهَا عِشْرِينَ لَيْلَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ غَازِيًا إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ اللَّهُ ﷻ وَعَدَهُ إِيَّاهَا وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ».

[زاد المعاد ٣/٣١٦].

وأظنه يقصد بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَاسٍ رُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَنكُحُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب].

وبالفعل توجه قائد الدولة الإسلامية ﷺ بعد عقد اتفاقيتين إستراتيجيتين مع أهل مكة، إحداهما: اتفاقية سلام و صلح - مقيدة - مع قريش، والأخرى اتفاقية دفاع وهجوم مع خزاعة، بعد ذلك توجه إلى تأمين شمال الدولة الإسلامية حيث تقبع خيبر اليهودية، التي تعتبر من أخطر معاقل اليهود في الجزيرة العربية، من حيث القوة والمكر، والكيد، والخبرة القتالية، فدكهم دكة واحدة.

ولا يخفى أن شبه الجزيرة العربية بأسرها كانت تقف من تلك المعركة الفاصلة بين الدولة الإسلامية ودويلات بني يهود موقف الحائر المسترب، وتساءل: هل ستكون الغلبة والسيادة الكاملة للدولة الإسلامية على الجزيرة العربية، أم أنها مُعرَّضة للتلاشي والاندحار أمام دويلات اليهود؟!

كل ذلك كان يدور في خلد قائد الدولة الإسلامية ﷺ وهو يخوض غمار سياسة الموازنات، وتوقيه الاتفاقيات، والنظر في المآلات، واعتبار المصالح والمفاسد.

فكان ﷺ يدرك حقيقة هذه المعركة الإستراتيجية التي من شأنها أن تميل كفة ميزان القوى لصالح من ينتصر؛ لذلك كانت سياسة تحييد قريش، واختراقها بخزاعة، وشق صفها بالاتفاقيات أمرًا ضروري، وبعُد إستراتيجي.

وينص أبو الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة - رحمهما الله - في معرض حديثه عن صلح الحديبية وأبعاده السياسية والدبلوماسية: «أَنَّ كَانَ فِيهِ نَظَرٌ لِّلْمُسْلِمِينَ، لِمَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَأَهْلِ خَيْبَرَ مِنَ الْمَوَاطَاةِ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى أَحَدِ الْقَرِيْقَيْنِ أَغَارَ الْقَرِيْقُ الْآخَرَ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَوَادَعَ أَهْلَ مَكَّةَ حَتَّى يَأْمَنَ مِنْ جَانِبِهِمْ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى خَيْبَرَ». [شرح السير الكبير ١/ ٢٩٨].

وبخروج تلك الاتفاقية التي أبرمت بين الدولة الإسلامية وبعض دويلات (الكننولث) القرشي، كخزاعة وغيرها من قبائل المنطقة، إلى حيز الوقوع والوجود، وتزامن ذلك مع سقوط آخر وأقوى معقل يهودي في المنطقة في العام نفسه على يد الدولة الإسلامية، تم بالفعل سقوط قريش بعد سنتين ونصف من توقيع هذه الاتفاقية الإستراتيجية، وظهور ديباجتها للناس أجمعين، مما اضطر كثيرًا من قبائل العرب الأخرى إلى إعادة تقويم إستراتيجية دفاعية جديدة في المنطقة، أو الانضمام تحت لواء الدولة الإسلامية الوليدة إيمانًا بدعوتها، أو احتماؤها منها، فكان عام الوفود، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!!!. [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيتوري ٥٢-٥٨، ٨٥-٨٨، وينظر: معاهدات التحالف العسكري في الفقه الإسلامي مقارنة بالقانون الدولي العام (ماجستير) - د/ سعد بن مطر العتيبي - المعهد العالي للقضاء - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٤١٥ هـ والأحلاف العسكرية والسياسة المعاصرة والآثار المترتبة عليها: دراسة فقهية مقارنة (دكتوراه) - د/ هشام محمد سعيد آل برغش - دار اليسر - القاهرة ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م - ٢ مج ١٥٠٠ ص، وقد سبق إيراد بعض المراجع الخاصة بالمعاهدات والتحالفات في الإسلام].

### ٣٣ - تقرير مبدأ جواز عقد اتفاقيات أمنية متبادلة:

يقول د/ الفيتوري: «فقد جاء في دياحة صلح الحديبية الثنائية (معاهدة الحديبية) تقرير مبدأ جواز عقد اتفاقي أمنية متبادلة بين دولة الإسلام ودولة الجاهلية، وذلك في نصوص بنود الاتفاقية بقولهم: «لَا إِسْلَاحَ وَلَا إِغْلَالَ» الْإِسْلَاحُ: السَّرِقَةُ الْحَقِيقَةُ، وَقِيلَ: سَلُّ السُّيُوفِ، وَالْإِغْلَالُ: الْخِيَانَةُ، أَوِ السَّرِقَةُ الْحَقِيقَةُ، وَقِيلَ: لُبْسُ الدَّرْعِ». [البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٣٩٢، ٣/ ٣٨٠].

لا يخفى أن في هذا البند من الاتفاقية إشارات وإيحاءات يستفاد منها أمور أهمها أنه يمكن للدولة الإسلامية في خضم هذه الجاهلية أن تعقد اتفاقية أمنية ثنائية أو غيرها مع دول ترتبط برابطة التجاور الإقليمي، أو المصالح القومية الحيوية، والأهداف الإستراتيجية. وتقوم هذه الاتفاقيات على أساس حماية المصالح العامة وتأمينها وفق منظومة متبادلة ومواثيق مشتركة.

قال الخطابي في معالم السنن في شرح سنن أبي داود ما يلي: «وَقَوْلُهُ: (لَا إِسْلَاحَ وَلَا إِغْلَالَ) فَإِنَّ (الْإِسْلَاحَ) مِنَ السَّلَةِ، وَهِيَ السَّرِقَةُ، (وَالْإِغْلَالَ) الْخِيَانَةُ، يُقَالُ: أَغْلَلَ الرَّجُلُ - إِذَا خَانَ - إِغْلَالًا، وَغَلَّ فِي الْغَنِيمَةِ غَلَوًا، يَقُولُ: إِنَّ بَعْضَنَا يَأْمَنُ بَعْضًا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَا يَتَعَرَّضُ لِدَمِهِ وَلَا لِمَالِهِ سِرًّا وَلَا جَهْرًا، وَلَا يَخُونُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى (الْإِغْلَالَ) لُبْسُ الدَّرْعِ لِلْحَرْبِ، وَ(الْإِسْلَاحُ) مِنْ سَلِّ السَّيْفِ».

[معالم السنن ٢/ ٣٣٦].

وتتركز فكرة الاتفاقيات الأمنية المتبادلة، والمواثيق المشتركة على إحباط العدوان أو ردعه في أية صورة يتحرك في إطارها، وبتلك التدابير العقابية، والمضامين الأمنية تلغي أو على الأقل تُضعف كثيرًا من احتمالات استخدام الطرق غير المتفق عليها في إطار العلاقات الدولية (لَا إِسْلَاحَ وَلَا إِغْلَالَ)!!

ومما لا شك فيه أن هذا البُعد له ارتباط ببعض قضايا الأمن والدفاع التي من المناسب أن نتناولها بشيء من الإيجاز لرفع الإشكال الذي قد يرد عليها وفيها، ومن هذه القضايا: هل يجوز إيواء المعارضين أم لا؟ وهل يجوز تسليمهم بعد الاتفاقية؟ وكيف يكون التعامل مع المرتد وفق معاهدة الحديبية؟!

أولاً: عدم إيواء المعارضين: ويدخل ضمن اتفاقية الأمن المتبادلة بالضرورة الأمنية عدم إيواء المعارضين للدولتين، أو إبعادهم، أو تسليمهم إن اقتضت الاتفاقية والمصلحة العامة ذلك، وهذا ما نص عليه في دياحة اتفاقية الحديبية بين الدولة الإسلامية ودولة الجاهلية، فقد: اشْتَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو: أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ - وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ - إِلَّا رَدَدْتُهُ إِلَيْنَا، وَحَلَيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، وَأَبَى سُهَيْلُ أَنْ يَقَاضِيَ رَسُولَ

الله ﷺ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، فَكَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ وَامْتَعَصُوا [امْتَعَصُوا] (أي غضبوا وشتق عليهم)، فَتَكَلَّمُوا فِيهِ، فَلَمَّا أَبَى سُهَيْلٌ أَنْ يُقَاضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، كَاتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا جَنْدَلٍ ابْنَ سُهَيْلٍ ﷺ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا. [البخاري في المغازي (٤١٨٠، ٤١٨١)، وفي الشروط (٢٧١١، ٢٧١٢)].

فقد رأينا في قصة أبي جندل ﷺ مع أبيه كيف ابتزه من بين ظهرائي المسلمين وهو يستغيث فلا يُستجاب له، قال راوي الرواية: «وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتُرْذُونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي، قَالَ: فَرَادَ النَّاسُ سَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرَجًا وَخَرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ».

[مسند أحمد ٣١/ ٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

ثانيًا: هل يجوز تسليم المعارضين بعد الاتفاقية؟ ولعل في حادثة أبي بصير ﷺ حين لحق بعاصمة الدولة الإسلامية المدينة المنورة، وطلبت دولة قريش الجاهلية من قيادة الدولة الإسلامية إرجاعه إليها فورًا حسب الاتفاقية الأمنية المتبادلة في تبادل الخارجين عن قانون المعاهدة، ما يفهم منها أن التسليم وارد، والإبعاد وارد كذلك، إلا أن فرصة الإبعاد تكون أفضل من التسليم لأسباب دينية، وإنسانية، وسياسية كثيرة جدًا.

ويمكن لنا أن نتناول النص الوارد في الاتفاقية بهذا الشأن، فقد جاء في نص الرواية ما يلي: «ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ ﷺ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ».

[البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٣)، ومسند أحمد ٣١/ ٢٤٣-٢٥٣ رقم ١٨٩٢٨].

وفي رواية أخرى: «وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَاطْمَأَنَّ بِهَا أَفَلَتْ إِلَيْهِ أَبُو بَصِيرٍ عْتَبَهُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ النَّفْقِيِّ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ، وَالْأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ، وَبَعَثَا بِكِتَابَيْهِمَا مَعَ مَوْلَى هُمَا وَرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ اسْتَأْجَرَاهُ لِيُرَدَّ عَلَيْهِمَا صَاحِبُهُمَا أَبَا بَصِيرٍ، فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَفَعَا إِلَيْهِ كِتَابَهُمَا، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَصِيرٍ فَقَالَ لَهُ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ صَالَحُونَا عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ فَالْحَقْ بِقَوْمِكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُرْذِنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي وَيَعْبُثُونَ بِي؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اصْبِرْ يَا أَبَا بَصِيرٍ، وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَرَجًا وَخَرَجًا». [السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٨٠ رقم ١٨٨٣١].

يقول ابن القيم رحمه الله في معرض حديثه عن فوائد صلح الحديبية ما يلي: «وَمِنْهَا: جَوَازُ صَلَاحِ الْكُفَّارِ عَلَى رَدِّ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْأَيُّدُ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ». [زاد المعاد ٣/٣٠٨].

وهكذا كانت فحوى البنود الأمنية الواردة في ديباجة اتفاقية الحديبية التي كانت تشكل في ظاهرها طوقاً شديداً، وخناقاً عنيفاً يحاصر مبادئ الدولة الإسلامية في إطار العلاقات الخارجية والدبلوماسية، ولكن ما لا يُدرك كله لا يترك جُله، والميسور لا يسقط بالمعسور.

فقيام دولة إسلامية في خضم الجاهلية قد يلزمها كثير من ولوج هذه المعاهدات والاتفاقيات التي تحتكرها قوى الاستكبار والطغيان المعادية لمبادئ الإسلام جملة وتفصيلاً!! لذلك يجب أن تعلم قيادات الدولة الإسلامية علم اليقين ما لها وما عليها عندما تفكر، أو تُدعى، أو تضطر لكي تلج هذه السرايب الأمنية، والدهاليز الدبلوماسية، والمطابخ السياسية!!

ثالثاً: التعامل مع المرتد وفق الإطار السياسي لمعاهدة الحديبية: لا ريب أن هناك تساؤلاً علمياً يدور حول إحدى بنود معاهدة الحديبية التي قبلت الدولة الإسلامية بموجبها التوقيع على أن من ارتد من المسلمين إلى دولة مكة ألا تطالب بإرجاعه إليها من أجل إقامة حد الردة عليه، أو رفض التعامل معه إذا أسندت إليه دولة مكة أعمالاً دبلوماسية وسياسية مرتبطة بدولة المدينة، وهذا نص البند: «من جاء محمداً من قريش بغير إذن وليه يرده عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا ترده إليهم»!!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك: «فصالح المشركين على أن يرجع بهم ذلك العام، ويرد إلى المشركين ما جاءه مؤمناً مهاجراً، ولا يرد المشركون من ذهب إليهم مرتداً». [درء تعارض العقل والنقل ٧/٤٦]. محل التساؤل العلمي، وموضع الاستفهام هو: هل بند معاهدة الحديبية حُمِّل في طياته إشارة بأن حد الردة في حقيقته حد تعزيري للإمام أن يتصرف فيه وفق الأطر السياسية والمصالح الداخلية والخارجية؟ أم هو عقوبة حدية لا يقبل التغيير ولا التبديل ولا الشفاعة، ولا المساومة؟!

فإذا كان الأخير فكيف قبل رسول الله ﷺ شفاععة عثمان بن عفان رضي الله عنه في عدم قتل عبد الله بن أبي السرح (المرتد سابقاً) بعد القدرة عليه، على الرغم من أن دمه أهدر وإن كان متعلقاً بأستار الكعبة، وذلك في عام فتح مكة بعد صلح الحديبية بعامين تقريباً!!

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله وهو بصدد حديثه عن فتح مكة: «وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَمْرَاءَهُ أَنْ لَا يَقْتُلُوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ أَهْدَرَ دَمَ نَفَرٍ سَمَاهُمْ... فَأَمَّا ابْنُ أَبِي سَرْحٍ فَكَانَ أَسْلَمَ ثُمَّ أَرْتَدَّ، ثُمَّ شَفَعَ فِيهِ عُثْمَانُ رضي الله عنه يَوْمَ الْفَتْحِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَحَقَّنَ دَمَهُ وَقَبِلَ إِسْلَامَهُ». [فتح الباري لابن حجر ٨/٣٢٣].

وفي رواية أخرى: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ يَكْتُتِبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْزَلَهُ الشَّيْطَانُ - أَيْ ارْتَدَ - فَلَحَقَ بِالْكَفَّارِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَاسْتَجَارَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رضي الله عنه، فَأَجَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [أبو داود في الحدود (٤٣٥٨)، وقال الشيخ الألباني: حسن الإسناد].

فتأمل قبوله ﷺ شفاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه في إسقاط عقوبة الردة عن عبد الله بن أبي سرح أيام فتح مكة، وعدم قبوله ﷺ شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه في حد السرقة حين سرقت المرأة المخزومية أيام فتح مكة كذلك، بل رفض ذلك بشدة، واعتبره انتهاكاً لحدود الله، وتضييعاً للدين، وسبباً في هلاك الناس أجمعين. وهذا نص الواقعة كما جاءت في صحيح البخاري، قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَقَرَعَ قَوْمُهَا إِلَى أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ، قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا كَلَّمَهُ أَسَامَةُ فِيهَا تَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»، قَالَ أَسَامَةُ رضي الله عنه: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبِيًّا، فَأَتَنِي عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنْتُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِي، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَقَطَعَتْ يَدَهَا... [البخاري في المغازي (٤٣٠٤)]

لا يخفى أن الواقعتين قد وقعتا في زمن ومكان واحد، وعلى الرغم من ذلك فقد اختلف موقف النبي ﷺ إزاءهما، ففي عقوبة المرتد - ابن أبي سرح - وبعد القدرة عليه، ثم قبول شفاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه فيه. أما في عقوبة السارقة - المخزومية - وبعد القدرة عليها لم يقبل رسول الله ﷺ شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه فيها.

وفي هذا التفريق بين هذه وتلك دلالة واضحة، وإشارة قوية جداً تدل على أن عقوبة المرتد في حد ذاته لا تعد من العقوبات الحدية، وإنما تصنف ضمن العقوبات التعزيرية التي مردها إلى الإمام الأعظم، ومصالح الأمة، وأمور الاستصلاح العامة، وأمن الدولة المسلمة.

ولعل هذا الفهم هو الذي أمه الإمام أبو حنيفة وغيره من العلماء، حيث لم يفرق بين الكفر الأصلي والكفر الطارئ في ذلك، وجعل مناط القتل مرده إلى استقرار الدولة والحفاظ على أمنها وأمن ديانة المسلمين، وقد عبر عن مناط ذلك (بالطائفة الممتنعة صاحبة الشوكة)، وفيما يلي نص ذلك كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو بصدد الحديث عن تحرير مناطات القتل في الشرع، ثم ذكر المرتد بأنه يقتل لكفره بعد إيمانه، وإن لم يكن محارباً فقال: «وَهَذَا الْوَجْهُ قَوِيٌّ عَلَى مَذْهَبِ الثَّلَاثَةِ: مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ، وَدَلَالَتُهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَّوَعَةً، وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ فَقَدْ

يُعَارِضُ بِمَا قَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يُوجِبُ قَتْلَ أَحَدٍ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَصْلًا حَتَّى الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْتُلُ إِلَّا الْمُحَارِبَ لَوْجُودِ الْحِرَابِ مِنْهُ وَهُوَ فِعْلُ الْمُنْهِي عَنْهُ، وَيُسَوِّي بَيْنَ الْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ وَالطَّارِي، فَلَا يَقْتُلُ الْمُرْتَدَّ لِعَدَمِ الْحِرَابِ مِنْهُ، وَلَا يَقْتُلُ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَوْ الزَّكَاةَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي طَائِفَةٍ مُتَمَنِّعَةٍ، فَيَقَاتِلُهُمْ لَوْجُودِ الْحِرَابِ».

[مجموع الفتاوى ٩٩/٢٠-١٠٠].

ويقول في موضع آخر: «فَأَبُو حَنِيفَةَ رَأَى أَنَّ الْكُفْرَ مُطْلَقًا إِنَّمَا يَقَاتِلُ صَاحِبُهُ لِمُحَارَبَتِهِ، فَمَنْ لَا حِرَابَ فِيهِ لَا يَقَاتِلُ، وَلِهَذَا يَأْخُذُ الْحِزْبُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانُوا وَثْنَيْنِ، وَقَدْ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ، وَمَعَ هَذَا يَجُوزُ الْقَتْلُ تَعْزِيرًا وَسِيَاسَةً فِي مَوَاضِعَ». [مجموع الفتاوى ١٠١/٢٠].

رابعا: المرتد والتمثيل الدبلوماسي: ولقائل أن يقول: إذا قبلت الدولة الإسلامية ابتداءً بعدم مطالبة المرتدين عنها إلى الجاهلية، فهل تقبل الدولة الإسلامية انتهاءً أن يُستعمل هؤلاء المرتدون من قبل دولة الجاهلية كسفراء لها في الدولة الإسلامية، أو مفاوضين عنها في المعارك الدبلوماسية والمناورات السياسية التي تقام بينها وبين الدولة الإسلامية باعتبارهم واجهات دبلوماسية رسمية لدولة الجاهلية الموقعة الاتفاقية الثنائية بينها وبين الدولة الإسلامية؟!

لا ريب أن مسألة التعامل مع المرتد الاعتباري وغير الاعتباري تخضع على الجملة لمبادئ العمل السياسي التي تراعى فيها وسائل ومقاصد جلب المصالح ودرء المفاسد حسب الخط الاستراتيجي للجماعة أو الدولة الإسلامية التي تُقَدَّرُ ذلك مكانًا، وإنسانًا، وزمانًا!!

بل نستطيع أن نقول قولاً فصلًا انطلاقياً من بنود معاهدة الحديبية، بأن التعامل السياسي في واقعنا المعاصر بين الكافر الأصلي، والكافر المرتد على حد سواء لا يوجد بينهما فارق علمي دقيق يفرق بينهما إلا ما جاء من كلام بعض أهل العلم العاري عن الدليل الاستقرائي، حيث يذهب بعضهم إلى عدم جواز التعامل مع الكافر المرتد بحال من الأحوال. [لا خلاف بأن المرتد كافر، وأنه يقتل، ولكن هل قتله من العقوبات الحدية، أم من العقوبات التعزيرية التي مردها للخليفة؟ فإن كانت الأولى فلا تعامل معه، وإن كانت الثانية فيجوز التعامل معه وفق الضوابط الشرعية. ذكرت هذا من باب الإيضاح حتى لا يُفهم الكلام على غير مراده]. ولا شك أن كلامهم هذا يعتبر من جنس الفتوى، والفتوى كما هو مقرر في مناهج الاستدلال بأنها تتغير بتغير الإنسان، والمكان، والزمان، ولكن عند النظر في جانب بنود معاهدة الحديبية وما دار بعدها في فتح مكة بمنهجية استقرائية نجد أن البنود الواردة بهذا الشأن لم تفرق بين إعطاء الأمان، وفرصة العيش، والعمل السياسي، والتفكير في أمور الدين من جديد بين الكافر الأصلي (قريش) وبين الكافر المرتد «ومن جاء قريشاً من المسلمين لا ترده إليهم».

وذلك لأن هذا المرتد سوف يدخل ضرورة تحت أمان الكفار الأصليين (قريش)، وتشمله تلك الاتفاقيات والبنود المقررة في الصلح؛ لأن ما جاز على الأصل جاز على الفرع، والأمور بمقاصدها!!».

[صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيتوري ٥٩-٦٨].

### ٣٤- مبدأ مراعاة المقاصد الكلية في السياسة الشرعية:

يقول د/ الفيتوري: «لو تأملنا شروط الصلح من منظور مقاصدي سياسي، لوجدناه على الجملة قد اعتنى اعتناءً واضحاً بالكليات المقاصدية وأهدر جزئياتها التي يمكن تحصيلها في إطار ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلُّه، والميسور لا يسقط بالمعسور، وفيما يلي مخلص الاتفاقية التي أبرمت بين الدولة الإسلامية والجاهلية، وفق مبدأ مراعاة المقاصد الكلية.

١- أن يرجع المسلمون ذلك العام ولا يدخلوا مكة، ولا يؤدوا العمرة.

٢- أن يقضوا عمرتهم من العام المقبل، وفق شروط معينة:

أ- الإقامة بمكة ثلاثة أيام فقط.

ب- لا يدخلون بسلاح إلا سلاح الراكب.

ج- أن تكون سيوفهم في قراهم.

٣- لا يدخل في سيادة دولة المدينة بعد الاتفاق رجل من أهل مكة إلا بإذن قريش.

٤- حماية المرتدين الخارجين على سيادة (دولة) المدينة، ودخولهم في سيادة (دولة) مكة.

٥- تقوم (دولة) المدينة بتسليم الفارين بدينهم من مكة إلى (دولة) مكة.

٦- مَنْ أراد أن يدخل في عقد (دولة) المدينة وعهدها دخل فيه، وله مثل شرطها.

٧- وَمَنْ أراد أن يدخل في عقد (دولة) مكة وعهدها دخل فيه، وله مثل شرطها.

٨- أن بينهم عيبة مكفوفة.

٩- أنه لا إسلال ولا إغلال.

١٠- توضع الحرب بينهم عشر سنين.

ومما يحتاج إلى التأمل.. يرجع المسلمون.. يقضون عمرتهم من العام المقبل.. يقيمون بمكة ثلاثة أيام فقط.. لا يحملون سلاحاً فيها.. يردون مَنْ أتاهم مسلماً من مكة.. لا يقومون بأي عمل إعلامي مضاد.. إعطاؤهم الحصانة في الدم والمال.. لا إسلال ولا إغلال.. أن توضع الحرب بينهم عشر سنين!!

ولو وقف متأمل بنظرة عابرة لفحص وتحليل هذه البنود لحكم عليها وللهولة الأولى، بأنها بنود جائرة، قد أهدرت كليات وجزئيات المنظومة السياسية في العلاقات الخارجية جملة وتفصيلاً، وهو محق في



إصداره هذا الحكم عليها، وهذا ما حدث بالفعل لبعض الصحابة رضي الله عنهم حين رجعوا إلى المدينة وأخذوا يفكرون في تلك البنود السياسية من دون تعمق سياسي، وربط تاريخي للأحداث السابقة واللاحقة!!  
فقد جاء عن عروة قوله: « وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ رَاجِعًا، فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذَا بَفَتْحٍ، لَقَدْ صُدِدْنَا عَنِ الْبَيْتِ وَصُدَّ هَدْيُنَا، وَعَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَرَجَا!!  
فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلَ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِفَتْحٍ!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئْسَ الْكَلَامُ!!» [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦٠-١٦٢].

ولكن ما يجب التأمل فيه هو منطق العقلية القيادية، ونظرتها السياسية العميقة، وربطها للأحداث، وتقديرها لمصالح الأمة الكلية، وموازنتها بين الكليات والجزئيات بميزان سياسي عميق، وبُعد نظر إستراتيجي دقيق، وهذا ما ينبغي أن تكون على نسقه قيادات العمل الإسلامي حركة ودولة في سعيها السياسي نحو الدولة والتمكين.

فأجاب قائد الدولة الإسلامية ﷺ على هذه التساؤلات فقال: «هَذَا أَعْظَمُ الْفَتْحِ، لَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوا بِالرَّاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَيَسْأَلُونَكُمْ الْقَضِيَّةَ، وَيَرْعَبُونَ إِلَيْكُمْ فِي الْأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا وَقَدْ أَظْفَرَكُمْ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ، وَرَدَّكُمْ سَالِمِينَ غَانِمِينَ مَأْجُورِينَ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، أَنْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ!! أَنْتُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَبَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا؟»  
قَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، هُوَ أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، وَاللَّهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيهَا فَكَّرْتَ فِيهِ، وَلَئِنْ أَعْلَمَ بِاللَّهِ ﷻ، وَإِذَا أُمُورٍ مِنَّا». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦٠-١٦٢].

لا يخفى أن في ظاهر هذه البنود من الظلم والحيف، والجور والظلم للمسلمين ما الله به عليم، ولكن باعتبار النظر المقاصدي الكلي عند قائد الدولة الإسلامية الأولى - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - كان هذا الظلم والحيف، والجور والظلم جزئياً قياساً أمام الكليات المقاصدية التي تحققت بالفعل بعد إبرام هذا الصلح، وحققت انتصارات مقاصدية إستراتيجية لصالح الدولة الإسلامية على مستوى قطاعات واسعة: دعوية واجتماعية، وإنسانية، وحقوقية، واقتصادية، وسياسية، وحرية.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في هذا الصدد: «وَصَالَحَ الْمُشْرِكِينَ صَلَاحُ الْحُدَيْبِيَّةِ الْمَشْهُورِ، وَبِذَلِكَ الصُّلْحِ حَصَلَ مِنَ الْفَتْحِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ كَرِهَهُ خَلْقٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَعْلَمُوا مَا فِيهِ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ». [مجموع الفتاوى ٣٥/ ٦٠].

ومن تلك المقاصد الكلية التي قصدها الدولة الإسلامية مقابل إهدار بعض الجزئيات التي لم تتمكن من الحصول عليها نظرًا للظروف السياسية المحيطة بها، والملايسات الحربية وشبكة الوقوع فيها:

١- الحصول على اعتراف من دولة قريش الكبرى حيثئذ بالدولة الإسلامية (مقصد كلي)، مقابل أن يرجع المسلمون هذا العام ويأتوا العام المقبل (مقصد جزئي).

٢- اقتناع دولة قريش بعدم جدوى مقاتلة المسلمين، ورضاها بالتعايش السلمي «لَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوا كُفْرَهُم بِالرَّاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَيَسْأَلُوا نَفْسَهُمُ الْقَضِيَّةَ» (مقصد كلي)، مقابل التحلل من الإحرام قبل تمام العمرة، ونحر الهدي، وحلق الرؤوس خارج المسجد الحرام (مقصد جزئي).

٣- رجوع المسلمون إلى المدينة سالمين من القتل والتجريح، غانمين الفرصة السياسية الدعوة، ومأجورين في عمرتهم «هَذَا أَكْثَرُ الْفَتْحِ، لَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوا كُفْرَهُم بِالرَّاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ» (مقصد كلي)، مقابل التشفي من صدوكم عن المسجد الحرام في تلك المنطقة البعيدة عن داركم حيث قلة النصير والمعين من إخوانكم، وأهليكم، وحلفائكم «أَنْتِمْ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَأَنَا أَذْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ؟!! أَنْتِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَبَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا؟!!» (مقصد جزئي).

٤- تحييد قريش والافراد بمعاقلة اليهود ودكها (مقصد كلي)، مقابل حصانة دماء وأموال رعايا الدولة القرشية، لا إسلال ولا إغلال (مقصد جزئي).

٥- إتاحة الفرصة لتبليغ الدعوة الإسلامية للقطاعات العربية كافة الاجتماعية منها والسياسية، الاقتصادية منها والحربية (مقصد كلي)، مقابل عدم مقاتلة قريش عشر سنين؛ لأن الجهاد وسيلة، والدعوة غاية، والغاية مقدمة على الوسيلة (مقصد جزئي)، وهكذا دواليك!!

وبالوقوف والنظر في هذه الكليات السياسية، ومحاولة إجراء عملية الفك والتركيب في خط إستراتيجية الدولة الإسلامية السياسي للحصول على كليات سياسية ثابتة تمكن قيادة المشروع الحضاري المعاصر اعتمادها كخط إستراتيجي في السياسات الداخلية والخارجية بغض النظر عن تغير الأسماء والأشكال، وبالتالي نجد - بعد عملية الفك والتركيب - جُلَّ هذه الكليات تدور في فلك مراعاة حفظ النوع البشري، وإقامة مصالحه، وإصلاح معاشه، ومعاذه، وتحصيل الحسنات والمصالح وتكميلها، وتعطيل السيئات والمفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، وكل ذلك يجري وفق ضوابط الوحيين (الكتاب والسنة).

ويؤكد الإمام ابن تيمية رحمته هذه الكليات السياسية التي يجب أن تدور في فلكها السياسات العامة والخاصة للدولة الإسلامية في مرحلة الدعوة والتأسيس، والدولة والتمكين، فيقول: «وَمَقْصُودُ الرُّسُلِ:

حِفْظُ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ وَإِقَامَةُ مَصْلَحَةِ مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ». [مجموع الفتاوى ٤/ ٩٩].

ويقول في موضع آخر: «وَالرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - بُعِثُوا بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ». [مجموع الفتاوى ٩٣/٨، ٩٦/١٣].

ويقول في موضع ثانٍ: «وَأَنَّ الدِّينَ تَحْصِيلُ الْحُسَنَاتِ وَالْمَصَالِحِ، وَتَعْطِيلُ السَّيِّئَاتِ وَالْمَفَاسِدِ».

[مجموع الفتاوى ١٠/٣٦٦].

ولكن لا ننسى أن نشير إشارة تناسب المقام حيث إنه ورد في حديث عروة بن الزبير الذي قال فيه: «وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ رَاجِعًا، فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذَا بَفَتْحٍ، لَقَدْ صُدِّدْنَا عَنِ الْبَيْتِ وَصُدَّ هَدْيُنَا، وَعَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَرَجَا!!». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/١٦٠-١٦٢].

لا ريب أن هذا النص يحمل في طياته إشارات سياسية واضحة وجليلة، مفادها أن قيادة الأمة الإنسانية في جوانبها العامة ليست بالأمر السهل، وأن قيادة العمل السياسي في حالات الدفع والتمكين أصعب من ذلك؛ نظرًا للورود العمل السياسي موارد الاجتهاد والفهم، والموازنة والترجيح، وليس موارد النصوص المحكمات في الدلالة التي عادة لا يختلف في فهمها العقلاء من بني الإنسان.

ولكن الشيء الذي يجب أن ننوه إليه في هذا المقام هو أن القيادة السياسية إذا كانت قيادة جماعية، وتبسط الشورى، وذات تجربة طويلة، ومتجانسة فكريًا لحد ما، وتماز بالمرونة السياسية، والنظرة الإستراتيجية، والعقلية الاجتهادية ونبد التقليدية، تكون هذه القيادة السياسية أقرب للعصمة وأبعد عن الروح الدكتاتورية التعسفية (ما أرىكم إلا ما أرى)، وأقرب للصواب في نظرتها الكلية، ومقاصدها الإستراتيجية، وأنفع للأمة والناس أجمعين في كلياتها المقاصدية، كما قال ﷺ: «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ». [ابن ماجه في الفتن (٣٩٥٠)].

وبتلك العقلية الجماعية المرنّة، حيث الميزان الدقيق، ميزان التقوى، والعلم والتجربة، والميزان الذي به تميز قيادات المشروع الرباني بين أنفع النفعين، وخير الخيرين، وشر الشرين، يكون النجاح والتوفيق بإذن الله.

«وَاللَّهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ، وَلَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ ﷻ، وَبِالْأُمُورِ مِنَّا».

[صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفتتوري ٧٧-٨٤، وينظر: مقاصد الشريعة في غزوات الرسول ﷺ - د/ عبد

الرحمن عثمان علي سليمان ص ٨١-٨٥].

### ٣٥ - المقصد الأمني لصلح الحديبية:

يقول د/ الصبيحي: «إن من يسبر التاريخ الغابر والحاضر ببداية فهمه واتزان نظره، ويتعرف على واقع الأمم السالفة والمجتمعات الحاضرة، فلن يتطرق إليه شك البتة في وجود حقيقة ثابتة ومبتغى ينشده

كل مجتمع، وأساس ثابت لا يتغير ولا يتبدل، مهما توالى عليه العصور، إنه مطلب الأمن والأمان، والأمن الذي لا يستطيع الإنسان العيش بدونه، فلا يهنا بطعامه، ولا بشرابه، ولا بنومه، ولا بمعاشه. الدليل من القرآن على أهمية الأمن: لقد أكد القرآن الكريم على أهمية الأمن، واعتبرها أساساً للمجتمع، فمتى فَقَدَ المجتمع الأمن فَقَدَ معها لذة الحياة، وأصبحت حياته شقاءً لا يهنا بها. ففي مواضع كثيرة من القرآن، يؤكد جل وعلا على أهمية الأمن، وذلك بالمعنى الذي سأتكلم عنه، ألا وهو الأمن الذي يعني السلامة والاطمئنان النفسي، وذهاب الخوف والهلع على حياته، أو على ما تقوم به حياته.

يقول ﷻ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرِّهْتُمْ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

يعني حرم مكة، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِ إِبْرَاهِيمَ إِيمَانًا وَنَبَاً﴾ [البقرة: ١٢٥].

أي آمناً للناس وآمناً من العدو، آمناً لمن يدخله.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ويقول تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبا].

ويقول تعالى: ﴿وَلِيَسِدَّ لَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

كما جعل الله تعالى الخوف نوعاً من العذاب للمكذبين والكافرين، يقول ﷻ: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وجعل الابتلاء بالخوف من قبيل الفتن التي يتعرض لها الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ

الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والخوف قد يكون جزاءً على كفر النعمة، فيقلب الأمن خوفاً، إذا لم يكن شكر من الإنسان لله عليها،

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ

بِنِعْمِ اللَّهِ فَآذَنَّاها أَنِ لَيْسَ لَهَا أَجُوعٌ وَالْخَوْفُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٣].

وذلك مثل أهل مكة في أول أمرهم، ومحاربتهم للرسول ﷺ، مع ما كانوا فيه من نعمة، يقول تعالى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ١].

الدليل من السنة على أهمية الأمن: وفي السنة النبوية ما يؤكد الأمن بالنسبة للإنسان، ففي الحديث

الشریف أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِيزَتْ

لَهُ الدُّنْيَا». [الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

فالأمن على النفس، وعلى سلامة البدن من العلل، والأمن على الرزق، هو الأمن الشامل الذي ذكره الحديث، وجعل تحقيق الإنسان لهذا بمثابة مُلك الدنيا بأسرها، فكل ما يمتلكه الإنسان في دنياه لا يستطيع الانتفاع به، إلا إذا كان آمناً على نفسه ورزقه.

ولقد دعا النبي ﷺ إلى كل عمل يبعث الأمن والاطمئنان في نفوس المسلمين، ونهى عن كل فعل يبعث الخوف والرعب في جماعة المسلمين، حتى ولو كان أقل الخوف وأهونه، باعتبار الأمن نعمة من أجل النعم على الإنسان.

ويظهر اهتمام الإسلام بالأمن حتى في وقت القتال، فلا يصح إرهاب أو قتال من لا يحارب كالنساء والصبيان، وكبار السن الذين لا مدخل لهم في القتال مع المسلمين.

لقد واجه الصحابة رضيه الله عنهم ألوأنا من التخويف والعدوان والإرهاب في بداية الدعوة، وكان ذلك الإرهاب والعنف، وافتقاد الناس للأمن في حياتهم - الأمن على النفس، والأمن على العقيدة، وعلى المال - في زمن لم تكن فيه سلطة ولا ولاية للمسلمين، وكان أمر المجتمع بيد كبار المجرمين من أهل الشرك، فأسرفوا في حرمان المسلمين الأوائل من الأمن في بلدهم، حتى اضطروا كثيراً منهم إلى الهجرة إلى بلاد بعيدة، وهي بلاد الحبشة، حيث ملك عادل يضمن للناس أمنهم وسلامتهم، حتى وإن كانت عقيدتهم تخالف عقيدة أهل ملكه من النصارى.

وهكذا ظل كفار مكة من وقت بدء الإسلام ومبعث النبي ﷺ، يقاومون دين الحق، وينالون من أهله والمؤمنين به بالعذاب، ولا يأمن فيها المسلم على دينه.

حتى أذن الله بقيام دولة الإسلام في المدينة المنورة بعد الهجرة الشريفة إليها، حيث قامت دولة الإسلام الأولى بيد المسلمين وتحت الولاية الكاملة للرسول ﷺ.

مكث النبي ﷺ في المدينة، ولكن الخوف ما زال عليهم، فاليهود يحيطون بهم من جهة، وقريش من جهة، حتى جاءت غزوة الحديبية، والتي كان من مقاصد النبي ﷺ تأمين الجهة التي فيها قريش حتى يتفرغ لباقي الجهات التي تهدد أمن المدينة.

إن المتأمل لأحداث صلح الحديبية يتبين له إصرار النبي ﷺ على تحقيق السلام، وأنه ﷺ كان دائماً ينجح للسلم إن هيئت له أسباب إقامة السلام في أي وقت.

فعندما قصد رسول الله ﷺ العمرة مع أصحابه فأبى قريش أن تسمح للنبي ﷺ وأصحابه رضيه الله عنهم بأداء العمرة، وهذا الفعل من القرشيين يُعد جريمة كبرى في عرف العرب، إذ كيف يُصد عن البيت الحرام مَنْ جاء معظماً له، وقد قال النبي ﷺ حينما حُبست ناقته: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) حُطَّةً (الأمر والحال والخطب) يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

فاليمن التي حلفها الرسول ﷺ كانت لتأكيد شيء يريده وهو عدم القتال، وتعظيم البيت، والنبي ﷺ حينما خرج من المدينة متوجهاً إلى مكة قام بتغيير طريقه، ولقد نجح ﷺ في خطته القاضية بتغيير الطريق، حيث لم يرد الصدام مع المشركين، ولم يخطط له، يقول ل.ر محمود شيت خطاب: «لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات قريش؛ لأن الذي يخاف عدوه لا يقترب من قاعدته الأصلية (القاعدة هي المنطقة التي يستند إليها الجيش قبل شروعه في العمليات الحربية، والقاعدة نوعان: قاعدة العمليات، وقاعدة التموين، وتتوحدان على الأغلب ويندر أن تكونا منفصلين)، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خطوط مواصلات العدو (هي التي تربط الجيش بقاعدته)، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨١].

ولكن هذا الموقف كان نابغاً من قوة، ويسير في طريق الهدف الذي خرج من أجله ﷺ، ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجمات؛ إن الرسول ﷺ كان حريصاً كل الحرص على السلام، وعدم سفك الدماء، مع قدرته على كسب النصر والتغلب على أعدائه، إجلالاً للحرم وتعظيماً له. [غزوة الحديبية - د/ أبو فارس ص ٤١].

لقد كان النبي ﷺ في غزوة الحديبية يسعى إلى تحقيق الأمن والأمان وإيجاد السلام، ويدل على ذلك رؤياه، والتي أنزل الله تعالى فيها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وهذا مما يدل على أن النبي ﷺ حينما توجه إلى مكة كان لا يريد قتالاً.

في وقت كانت قريش قد طغت وتجبرت وأذت الرسول ﷺ، ووقفت ضده في غزوات كثيرة، وشككت عبتاً وهماً على سكان المدينة، فلقد منعت قريش المسلمين من تعظيم بيت الله ﷻ والطواف حوله، فأتت رؤيا النبي ﷺ مبشرة للمسلمين بأنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت وهم آمنون. فالأمن والأمان حق طبيعي من حقوق الإنسان في كل زمان ومكان، وإننا حرمة منه وعكر صفوه عليه الطمع، وبغي الإنسان على الإنسان، وذلك حين يشن البغاة الحرب على الضعفاء أو المستضعفين، والحرب في حقيقتها نار لا تُبقي على شيء مما حولها، وما لا تلتهمه في أتونها تحرقه بلهبها، ثم تترك آثارها المرعبة، تفسد على الناس تفكيرهم، وتدمر ما بقي من حياتهم.

ولقد كان سكان الجزيرة العربية يعيشون حياة الحرب والحرمان من الأمان فترة طويلة من الزمان، سواء كان ذلك في الجاهلية أم كان بسبب عدوان قريش على المسلمين في محاولة لردهم عن الدين الذي اعتنقوه وآمنوا به.

لقد كانت معاهدة الحديبية صلحاً، من أهم أهدافه الأساسية تحقيق الأمن للمسلمين، فالأمن ليس هدفاً قومياً، بل هدف يصون الطريق للهدف الإستراتيجي الأعلى، ويجب أن يكون كذلك.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر - د/ عشقي ٢١٨].

فعند عقد الصلح كان سكان الجزيرة قد سئموا الحرب، وملتها نفوسهم، وضافت بها صدورهم، وأصبحوا يتطلعون إلى سلام يزيل عنهم ذلك الشبح المخيف الذي طالما روعهم، ويغسل تلك الدماء التي خلفتها الحرب منذ سنين طويلة، ويواري تلك الجثث التي طالما ظلت مهذرة لا تجد من يوارىها. فبالرغم من تضايق عامة المسلمين لما تحمله (في الظاهر) شروط صلح الحديبية التي قبلها النبي ﷺ، واغتم لها عامة المسلمين، فإن هذا الصلح نتج عنه مكاسب عظيمة للمسلمين، بل نصر كبير لدعوة الإسلام ظهرت جلية واضحة فيما بعد للذين تضايقوا من شروط هذا الصلح.

[صلح الحديبية وأثره في تسليم المطلوبين للصبيحي ٢٨-٣١].

### ٣٦ - الثقة بالقيادة الرشيدة:

يقول د/ السباعي: «على الجنود وأنصار الدعوة ألا يخالفوا القائد الحازم البصير في أمر يعزم عليه، فمثل هذا القائد وهو يحمل المسؤولية الكبرى، جدير بالثقة بعد أن يبادلوه الرأي، ويطلعوه على ما يرون، فإن عزم بعد ذلك على أمر، كان عليهم أن يطيعوه، كما حصل بالرسول ﷺ يوم صلح الحديبية، فقد اختار الرسول ﷺ شروط الصلح، وتبين أنها كانت في مصلحة الدعوة، وأن الصلح كان نصراً سياسياً له، وأن عدد المؤمنين بعد هذا الصلح ازداد في سنتين أضعاف من أسلم قبله، هذا مع أن الصحابة شق عليهم بعض هذه الشروط، حتى خرج بعضهم عن حدود الأدب اللائق به مع رسوله وقائده، وقد حصل مثل ذلك بأبي بكر ؓ يوم بدأت حوادث الردّة، فقد كان رأي الصحابة جميعاً ألا يخرجوا لقتال المرتدين، وكان رأي أبي بكر ؓ الخروج، ولما عزم أمره على ذلك أطاعوه، فنشطوا للقتال، وتبين أن الذي عزم عليه أبو بكر ؓ من قتال المرتدين هو الذي ثبتت الاسلام في جزيرة العرب، ومكّن المؤمنين أن ينساحوا في أقطار الأرض فاتحين هادين مرشدين». [السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي ١١٩].

### ٣٧ - الحديبية... ذلك النصر العظيم:

يقول م/ أبو راس: «استفرغت قريش ومن لف لفها من القبائل العربية ويهود الجزيرة، جميع ما في جعبتهم من جهد ومكر لإيذاء المسلمين ولصددهم عن دينهم الحق، ولكن جميع جهودهم وجميع مكرهم

ارتد إلى نحورهم بعدما تحطم على صخرة الإسلام الصلبة حيث عاهد المسلمون ربهم على الموت مختارين طائعين، في سبيل هذا الدين القويم.

وأراد الرسول ﷺ إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم بعدما أقر من خلال الإيمان والجهاد حق المسلمين في الحياة الكريمة، وحقهم في الدخول في دين الإسلام.

وأراد كذلك أن يُفهم المشركين في مكة أن المسجد الحرام ليس ملكاً لهم، فليس لهم الحق بالتالي أن يدخلوا من شأؤوا أو يمنعوا من شأؤوا من أداء هذا النسك المبارك.

فخرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى مكة لا ييغون إلا أن ينالوا ما لغيرهم - وهم أحق من غيرهم - من حق الاعتماد والحج، وساق ﷺ أمامه الهدى الذي سيذبح ليطعم فقراء مكة، فلما بلغ المسلمون «غسفان» على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها قد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم، فقال رسول الله ﷺ: «يَا وَنَحْ قُرَيْشُ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَأَفْرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأُلُ أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ» - يعني الموت.

ولكنه ﷺ لم يرد الصدام، وأراد أن لا يلتقي رجاله في منتصف الطريق الذي خرج فيه رجال مكة، فسأل ﷺ: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فجاء رجل من أسلم، فسلك بهم طريقاً وعراً أجرد، ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند متقطع الوادي انثنى المسلمون عندها يميناً، ليهبطوا عند الحديبية أسفل مكة، الأمر الذي دفع بفرسان قريش أن يتراكموا راجعين إلى مكة ليحولوا بين المسلمين ودخولها.

ومضى رسول الله ﷺ وصحابته في وجهتهم فإذا بناقته ﷺ تترك لا تجاوز مكانها، ودهش الناس لما عراها فقالوا: خَلَّاتِ الْقَصْوَاءُ، خَلَّاتِ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا خَلَّاتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطْبَةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَوةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالناقة المسير.

ولما كانت قريش تعلم ما قد تجره الحرب عليها من هزيمة ينهار لها كيانه كله، فلقد أخذت بيعث الوسطاء فأرسلت «بديل بن ورقاء» ثم «مكرز بن حفص» ثم بعثوا سيد الأحابيش «الحليس بن علقمة»، ثم جرت المصالحة مع سهيل بن عمرو والوصول إلى صلح الحديبية.



وحزن المسلمون لبنود هذا الصلح، وكان على رأسهم في هذا الحزن والاعتراض عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نعم وقف ابن الخطاب رضي الله عنه هذا الموقف على الرغم من أن «حكومة رسول الله» في المدينة لم تخسر أرضاً ولا مالا.. ولا.. ولا... ولكن عمر رضي الله عنه يراه من حيث الظاهر دنية!

والحقيقة التي أجمع عليها علماء المسلمين أن صلح الحديبية كان نصراً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني، فهذا الزهري يقول فيه: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ (أي من صلح الحديبية)، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ تَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَآمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّتِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

والحقيقة التي يجب إبرازها والتأكيد عليها أن «الحديبية» وما نتج عنها من صلح ليست قضية عقلية. يستسيغها العقل أو لا يستسيغها، وليست قضية فلسفية سياسية حاول فيها رسول الله ﷺ - وحاشاه أن يفعل هذا - اللعب على أحبال الكلمات ليوهم من يحاوره بما لا يريده في نفسه.

إن صلح الحديبية كان أمراً إلهياً عظيماً، وكان فتحاً ربانياً مباركاً قال الله فيه: ﴿وَأَنفَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح]، وإن صلح الحديبية لا يشابه بحال من الأحوال ما نراه في هذه الأيام من عقود ألصقتها علماء السوء بالإسلام وتاريخ الإسلام، كمعاهدة «كامب ديفيد» التي وقعت فيها مصر العربية المسلمة صاحبة الأرض والحق - لا أقول في سيناء فقط ولكن في فلسطين كل فلسطين إذا أن فلسطين لكل مسلم - عهداً مع اليهود الذين لا حق لهم ولا أرض!

أو كالمعاهدات التي يتخبط بها بعض الدعاة حيث يدمجون أنفسهم وأهدافهم ووسائلهم مع أشخاص تبنت شتى المناهج والسبل الأرضية والوضعية، ليس لهم هدف إلا الوصول إلى سدة الحكم ليعملوا في خصومهم السيف، وبأي وسيلة كانت!

لقد كانت الحديبية نصراً مؤزراً - كما سنرى إن شاء الله تعالى - حيث تأتي قريش مرغمة طالبة إلغاء بنودها التي ظنّها المسلمون أنهم يعطون الدنيا بسببها!

في وثيقة يجتمعها الطرفان..». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٦١-٢٦٦].

### ٣٨ - تحليل علمي لصلح الحديبية:!!

يقول د/ أبو خليل: «والتحليل العلمي قناع لتطويع أحداث التاريخ لفكر مسبق، ومن يرفض أو ينقض هذا التحليل، لم يستشف القضية الجوهرية، يقرأ بشكل تعسفي سريع، سلفي يتطلع إلى وراء، ينزل إلى أعلى، ويحاول الصعود إلى أسفل!

وقبل أن نطوي الصفحات الأخيرة، نقدم رأياً غريباً «لفكر» معاصر، يكفي بعد عرض الرأي نقضه من قبل القارئ، بعد أن ألمَّ بأحداث صلح الحديبية.

نعرض هذا الرأي لنرى سخافات بعض المحللين، وكيف يقبلون المفاهيم بحجة «التحليل العلمي»، والعلم منهم براء.

جاء في مقالة عنوانها: «شيء عن اليمين واليسار في بدايات المجتمع العربي - الإسلامي الوسيط»<sup>(١)</sup>:  
 (لقد قاد المسار التاريخي للمجتمع العربي الإسلامي الجديد المعارك اللاحقة بين المعسكرين الطبقتين الرئيسيتين، المثلأ التجاري الربوي في مكة من طرف، والمضطهدين المسلمين الثائرين من طرف آخر، إلى نتائج مريعة بالنسبة لهؤلاء الآخرين، وخصوصاً بعد معركة الخندق، بحيث قد نشأت أوضاع جديدة مناسبة لعقد اتفاق بين الفريقين، كان لصالح التجار والمرايين المكيين، وقد وجد هذا صيغته الحقوقية باتفاق الحديبية.

إن النشاط السياسي والاجتماعي والفكري الإسلامي ذاك قد تجلّى في النقاط التالية:

- (١) وضع الحرب بين المسلمين الثائرين والقرشيين التجار والمرايين عشر سنوات.<sup>(٢)</sup>
- (٢) من أتى المسلمين ومحمداً من القرشيين الطامحين إلى الانحياز إلى صفوف الثائرين من غير إذن وليه ردوه إليهم، ولكن من أتى قريشاً ممن مع المسلمين لم يردوه إليهم.
- (٣) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

(٤) إن المسلمين يرجعون إلى المدينة، وقد كانوا عند الحديبية قرب مكة.

وهكذا كان صلح الحديبية بداية خط جديد في الحركة الإسلامية تميز بإعطاء تنازلات لصالح التجار والمرايين في مكة، وبالتالي بفتح الأبواب العريضة لهؤلاء لدخول الإسلام، ومحاولتهم تحويله من حركة للفقراء المعدمين إلى حركة للأثرياء ولأعداء التقدم الاجتماعي.

إن البند الثاني من الصلح يظهر إلى جانب البند الأول هذا الاتجاه الجديد، ولإعطاء صورة أكثر وضوحاً لهذه القضية، نسوق هنا نصّاً ننقله من كتاب: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضري، والذي منه أخذنا بنود صلح الحديبية تلك: وبيننا الكتاب - أي عقد الصلح - يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت إلى المسلمين، فلما رأى سهيل (بن عمرو العامري)

(١) الطليعة العدد ٢٠٢، ص ٢٦-٢٧، الصادر بتاريخ ٩/٥/١٩٧٠، دمشق.

(٢) هنا نورد النص حرفياً كما كتبه صاحبه «المحلل العلمي» الأمين.

المكلف من قريش بعقد الصلح مع محمد ابنه قام إليه وأخذ بتلايبه وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، وأبو جندل رضي الله عنه ينادي: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني، ولم تكن هناك حيلة، إلا أن يرد أبا جندل عملاً بوثيقة الصلح].

أولاً: كلمة يمين ويسار اصطلاح تاريخي حديث معاصر، ظهر للوجود عند انعقاد «المجلس التأسيسي» للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م، فكيف يجوز استخدام يمين ويسار على من كانوا قبل ألف وأربعمائة سنة؟ فإن صح ذلك، نكون كمن يحمل عوداً طوله متر، يريد أن يقيس به قماشاً لبيعه، فإذا به وبهذا العود المعوج، يبيع حطباً وزيتاً ولبناً وأدوية وفاكهة ولحمًا!

ثانياً: ينسى المحللون العلميون عند كتاباتهم الصراع الفكري العميق؛ ليعطوا الجانب الاقتصادي الشيء كله، فهو المحرك للأحداث ليس غير، وهم بذلك مزادون أو جاهلون، إن التفسير الاقتصادي بشكل نجعله يطغى على الجوانب كلها وأسباب سير التاريخ أمر مبالغ فيه، لم يقله من قال بتفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً مادياً.

يقول الدكتور راشد البراوي في مقدمة كتابه «التفسير الاشتراكي للتاريخ» (نشر دار النهضة العربية، عام ١٩٦٨ م): «أرسل أنجلز إلى كونراد سميث في ١٥ آب ١٩٨٠ رسالة مما جاء فيها: «نجد الكثير من الناشئين الألمان يكتفي باستخدام العبارة المادية التاريخية - وكل شيء يمكن تحويله إلى اصطلاح - لكي يجعلوا من معلوماتهم التاريخية القليلة نسبياً نظاماً دقيقاً بأسرع ما يمكنهم ذلك، ثم بعد هذا ينظرون إلى أنفسهم نظرة عالية جداً». (ص ١٢٧)، والعبارة التي بين معترضتين من مضمون الرسالة).

«إن توجيه الكتاب الناشئين الاهتمام إلى الجانب الاقتصادي بأكثر مما يستحق أمر يقع اللوم فيه على عاتقي وعاتق ماركس، لقد كان علينا أن نؤكد هذا المبدأ الرئيس، لنعارض خصومنا الذين كانوا ينكرونه، ولم يكن لدينا دائماً الوقت أو المكان أو الفرصة لنضع العناصر الأخرى التي تتضمنها العلاقة المتداخلة في مواضعها الحقيقية...».

«ولسوء الحظ كثيراً ما يحدث أن الناس يتصورون أنهم قد فهموا نظرية ما فهماً تاماً ويستطيعون تطبيقها دون كبير عناء، وذلك منذ اللحظة التي يتمكنون فيها من الإلمام دائماً للإدراك الصحيح، ولا أستطيع أن أعفي من اللوم الكثير من الماركسيين الأحداث عهداً، إذ من هذه الناحية خرجت أشد الأشياء تفاهة وسخفاً».

إن من وضع التفسير الاقتصادي للتاريخ لم يجعل الناحية الاقتصادية هي الشيء كله - تمعن بالعبارتين: بأكثر مما يستحق، العناصر الأخرى - فلماذا الزاودة؟ أم إن علمهم هذا من الجهل وعدم هضم المبدأ والإلمام بكل جوانبه؟!

ويكفي هنا ردًّا أن الأمانة العلمية - عند المحلل العلمي - مفقودة عند نقل النصوص، فالنصوص مشوَّهة، حذف منها وأضاف إليها حتى تتلاءم مع معتقده، وحُكمه المقرر مسبقًا.

فالذي يعود إلى عيون المصادر العربية الإسلامية التاريخية ليقرأ ويدرس بنود صلح الحديبية يدهش للتزوير والافتراء الذي ارتكبه صاحب المقالة.

- ففي الطبري: ج ٢ ص ٦٣٤، من طبعة دار المعارف: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنوات يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض».

وفي الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ١٣٨، المطبعة المنيرية ١٣٤٩ هـ «هذا ما صالح عليه محمد سهيل بن عمرو، واصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنوات».

- وعند الخضري (مع أن كتاب الخضري «تاريخ الشعوب الإسلامية» مرجع حديث لا يُعتمد عليه كغيره من أمهات المصادر المعتمدة) - مرجع مقالة المحلل -: ج ١ ص ١٢٦، المكتبة التجارية الكبرى: «بعث قريش سهيل بن عمرو إلى محمد... ثم قال: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنوات يأمن فيهن الناس، فيكف بعضهم عن بعض».

- وحتى بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية»، نشر دار العلم للملايين، ص ٥٦: «ف عقد النبي معه - مع سهيل - صلحًا مدته عشر سنوات».

ومن الغريب أن بروكلمان وغيره كثيرين من المستشرقين يشهدون بعظمة الصلح الذي جاء واقعياً لصالح المسلمين، ولكن أصحاب التحليل العلمي يقلبون المفاهيم دومًا، فلو قالت المصادر: إن الصلح جاء لصالح قريش، لقالوا: لا إنه لصالح المسلمين، وإلا كيف يتم التحليل العلمي، إن لم نغير الحقائق، ونُظهر المخالفة لكل ما هو معترف عليه مقرر صحيح، فجعلوا التاريخ ينطق - زورًا - بما ليس فيه؟

التحليل العلمي «فناع» لتطويع أحداث التاريخ لفكر مسبق، ومثل هذا التطويع كخذه قريب من مهده لمخالفته الواقع، وعيشه على توهّمات وافتراضات وتخمينات.

ينظرون إلى تاريخنا كأنه متَّهم لا بد من إدانته، فيجب تعقبه في الميادين كلها لهدمه، وعندهم الهدم أصل والعفو استثناء، ولم يكن سبب الهدم قوة حجّتهم، بل سهولة الهدم ليس غير.

فالتقيّد التام بأجواء العصر الذي كُتب فيه النص، أمر رئيس، كيف فهموه؟ وكيف جاء التطبيق؟ ولا نُحمّل - باسم التحليل العلمي - الحادثة ما لم يُفهم منها في عصرها، وأكثر مما أرادها أصحابها.

والملاحظ أن الذي يرد عليهم يُتهم بأنه لم يستشف القضية الجوهرية المطروحة، يقرأ بشكل تعسفي سريع، سلفي يتطلع إلى وراء، ينزل إلى أعلى ويحاول صعودًا إلى أسفل.

وختامًا: لو جاء الصلح لصلح قريش، لماذا إذن نقضته بنذًا بعد آخر، وأوقعت بين بكر وخزاعة؟  
الصلح - كما يدعي التحليل العلمي - جاء لمصلحتها، فيجب والحالة هذه أن تحرص عليه، وتعمل جاهدة على إبقائه، وتسعى بكل ما تملك على تثبيت وجوده، مع الالتزام المطلق به، بل وتجعل تمديده هدفًا، وإطالة مدته مطلبًا، والحفاظ عليه ألا يُحرق مبدأ، كل ذلك للحفاظ على المصالح التي تحققت بعد توقيعه، فكيف يُقال: جاء الصلح لصلح المرايين القرشيين، وهم الذين سعوا إلى نقضه وتقويض بنوده، وهو لخيرهم ولصلحهم؟! إلا أن يكون العكس هو الصحيح والواقع؟

وكما قلنا: لو قال تاريخنا العربي الإسلامي: إن الصلح جاء لخير القرشيين، لقالوا: لا إنه لصلح المسلمين في المدينة؛ لأنهم يضعون أنفسهم في المكان المعاكس لتاريخنا دومًا، عداً وبغياً، وهذا صلح الحديبية مثل قديمناه، فيه الكفاية لتكوين فكرة عن تحليلاتهم العلمية، ورفضهم للروايات التقليدية، ولنذهبهم للروايات السلفية؟

كل ذلك يثير فينا العطف على عقولهم، والشفقة على فكرهم المطوّع والذي يجعل الأمور معكوسة، لكنهم يمشون على أيديهم يلهثون، ويعتبرون الناس الأسوياء على خطأ، ويحلفون بأنهم هم الأسوياء، وإن لم يمش الناس الآخرون مثلهم، فهم على خطأ واتجاه سيرهم خاطئ، وطريقة مشيهم خاطئة معكوسة؟!». [صلح الحديبية لأبي خليل ١٤١-١٤٩].

### ٣٩ - تثمين رأي المرأة السياسي:

يقول الشيخ أبو خوات: «أما موقف أم سلمة الرائع، وموقف الرسول ﷺ معها الأكثر روعة، فهو أن رسول الله ﷺ أمر الناس بعد الصلح بنحر الهدي والخلق استعدادًا للعودة إلى المدينة فبكى الناس وتباطأوا، فدخل على أم سلمة يخبرها خبر المسلمين ويخشى أن يهلكوا بسبب عدم طاعتهم، فقالت أم سلمة: يا رسول الله إن المسلمين قد أصابهم ما أصابهم حين اضطروا إلى العودة دون زيارة البيت، فامض يا رسول الله إلى إبلك فانحر أمامهم فإنك ستجدهم يتبعونك لا يتخلف منهم رجل واحد حين يرونك تنحر هديك.

فأخذ النبي ﷺ بما قالت له زوجه العاقلة المجربة وقام إلى سكينه فشحذها ثم أقبل على إبله ينحرها، فبكى المسلمون وهوى كل منهم إلى إبله فنحرها ثم حلّقوا وأحلّوا.

فأين من هذا المثل أولئك الذين يستبدون برأيهم ولا يقبلون على استشارة أحد مهما كان، بل إنهم لينفرون أشد النفور من استشارة امرأة أي امرأة ولو كانت زوجة وربة بيت وأم بنين، وربما أتى لك بعضهم بنصوص تجعل استشارة المرأة في أمر ما شيئًا لا يجمل بالرجال.

فهناك عناصر في نوع النساء تتمتع بالحصافة في الرأي والبُعد في النظر والقدرة على تصريف الأمور، كما أن هناك في نوع الرجال عناصر كثيرة قد يتم للواحد منهم أن يكون في ذلك كله أقدر من كل عناصر النساء، وهاكم نبي الله هاديًا ومرشدًا، إذ لما وجد ما تقوله زوجته حقًا ومن طبائع النفوس أنفَذَ قولها، وأكرمها الله بتحقيق ما قالت له للرسول ﷺ، فما كاد يفعل حتى أقبل الناس يفعلون».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ١١٤-١١٥].

ويقول د/ العودة: «المسلمون أمرهم شورى بينهم، والسيرة النبوية وعاءٌ حافظ لمشورة النبي ﷺ لأصحابه، وفي الحديبية استشار النبي ﷺ المسلمين أكثر من مرة، ولم تقف مشورته عند حدود الرجال، بل استشار النساء، وأخذ برأي (أم سلمة) ﷺ في المبادرة بحلق نفسه حين أبطأ الناس عليه بالحلق، فلما رأوه فعل حلقوا وتحللوا، بل كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا. [رواه البخاري في كتاب الشروط ٩٢٥٢].

وفي رواية ابن إسحاق قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا تكلم؛ فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح.

وعلق ابن حجر على ذلك بقوله: «فيه فضل المشورة.. وجواز مشاور المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة ووفور عقلها». [السيرة من فتح الباري ٢/٢٢٣].

كم نعتزُّ بآرائنا ونقصر الأمور المهمة عن مشورة غيرنا، والمشورة تسديد للرأي واستفادة من عقول الآخرين، وفتح للمغلق وتبصير للمتردد، وإذا شاور المؤيد من الساء فغيره بالمشورة أولى، وكذلك تستشار المرأة وتشير في عظام الأمور - في زمن النبوة - ثم تتغير الأحوال وتتقاصر المهمم (بشأن المرأة) حتى يستفتي الناس: هل تقود السيارة، أم لا؟ وكأنه لم يبق من قضايا المرأة إلا هذه؟».

[فقه الحديبية للعودة ١١].

#### ٤٠ - القيم الإدارية المستنبطة من صلح الحديبية:

تعددت القيم الإدارية المستنبطة من صلح الحديبية، وقد جمع د/ الزهراني منها ما يلي:

١ - التسمية: «فَدَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتُ تَكْتُبُ».

[البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٣)، ومسند أحمد ٣١/٢٤٣-٢٥٣ رقم ١٨٩٢٨].

عندما يبدأ القائد التربوي عمله بذكر الله تعالى وينتهي بحمده، فإنه يأمل التسديد والتوفيق من الله تعالى؛ لأن ذكر الله تعالى هداية وبركة وتسديد وطمأنينة، والأعمال التي يُذكر اسم الله فيها حريٌّ أن يكتب لها النجاح والتوفيق.

والقائد التربوي الذي يربط أعماله وقراراته بهذه القيمة العظيمة، ويحرص عليها في شتى جوانب عمله الإداري، يشعر بطمأنينة عند إصدار قراراته وتوجيهاته، ويدخل الطمأنينة في نفوس العاملين معه، ونجد في التراث الإسلامي الاهتمام البالغ بهذه القيمة العظيمة، لا سيما في مؤلفاتهم وخطبهم، فالتسمية ملازمة ولا تنفك عنهم؛ لاعتقادهم الجازم ببركتها، ولطلب العون والتوفيق من الله. والقائد التربوي عندما يلتزم بها ويطبّقها في ميدانه التربوي يرجو ثمارها، ويأمل أن يؤصلها في نفوس معلميه وطلابه.

٢ - التوكل: وذلك في قوله ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

على القائد التربوي أن يصنع أعماله ومنجزاته بالصبغة الإسلامية، وهي التي تميزه عن غيره ويتفرد بها، وتأتي قيمة التوكل على الله ﷻ في مقدمة ذلك التميز والتفرد، فالقائد التربوي المسؤول - وقبل شروعه في أي عمل من الأعمال - يفوض أمره إلى الله تعالى، ويتوكل عليه، ويطلب منه العون والتسديد، ويعمل بعد التوكل بكل الأسباب التي تمكنه من أداء مهامه وواجباته.

٣ - الشورى: وقد تعددت صور الشورى التي مارسها الرسول ﷺ في هذه الغزوة وغيرها.

وقد أصبحت الشورى ركناً أساسياً من أركان الإدارة في الإسلام، وعلى القائد مشورة مَنْ يعملون معه، وعليهم الصدق في المشورة له، وله الحق في إصدار القرار، وعليهم الطاعة. والمشورة تُظهر الحقيقة، وتبني على الحق والصدق، وتقدم للقائد الإداري النصيحة والرأي، وتضمن تعاون وموافقة كل التابعين له بحسن تنفيذ الأعمال، كما تُظهر للقائد خبرة عناصره البشرية، فيسند الأمر لأهله، فتحقق بذلك الكفاءة العالية والفعالية والرضا، كما يزداد الولاء.

فالشورى تبعث روح المشاركة، وتُشعر العاملين بالثقة في إبداء الرأي، والوصول إلى قرارات مناسبة بكل فناعة، بالإضافة إلى التحفيز وتماسك أفراد المؤسسة، وتحفظ احترام الإنسان ورأيه، وتزيد من التقارب بين الرئيس والمرؤوس، وترفع مستوى الرضا، وتعمل على كشف أمور وتوجهات مختلفة.

فالشورى أمر يلزم الإداري المسلم القيام به؛ امتثالاً لأمر الله ﷻ وطاعة له.

٤ - القدوة الحسنة: الرسول ﷺ قدوة حسنة في سائر أحواله وأقواله وأفعاله.

وقد كان الصحابة الكرام ﷺ يقتدون بالرسول ﷺ في كل شؤون حياتهم، وهو ما ظهر في النحر والحلق بعد صلح الحديبية.

وتعد القدوة من أبلغ الأساليب تأثيراً في نفوس الآخرين؛ لأن ذلك أنموذجاً حياً يشاهده الفرد أمامه.

ولقد حظيت القدوة باهتمام بالغ؛ لما لها من أثر في النفس البشرية، وكان على رأس ذلك الاهتمام أن اهتم بها القرآن الكريم، ودعا إليها باعتبارها طريقة فاعلة ومؤثرة في النفس البشرية. وتبرز الحاجة إلى القدوة الحسنة في كل مجتمع من المجتمعات مهما تطور هذا المجتمع أو تقدم؛ لأن القدوة هو من يحقق الأهداف المرسومة بأسلوبه وسلوكه.

فمهما يكن من أمر إيجاد منهج تربوي متكامل، ورسم خطة محكمة لنمو الإنسان وتنظيم مواهبه وحياته النفسية والانفعالية والوجدانية والسلوكية، واستنفاد طاقاته على أكمل وجه، مهما يكن من ذلك كله، فإنه لا يغني عن وجود واقع تربوي يمثل إنساناً مُرب يحقق بسلوكه وأسلوبه التربوي، كل الأسس والأساليب والأهداف التي يُراد إقامة المنهج التربوي عليها.

فالقدوة الحسنة تعني أن يكون القائد قدوة حسنة لغيره فكراً وسلوكاً؛ ولكي يكون كذلك ينبغي أن يكون على علم بكل دقائق العمل؛ ولكي يكون قدوة في سلوكه ينبغي أن يكون عالماً صبوراً حليماً، يجيب سائلهم، ويهتم بأمورهم، ويعطف عليهم، ويسأل عنهم، ولا يعبس ولا ينفّر، وأن يكون صادقاً أميناً وعادلاً وقوراً... وهكذا كان رسول الله ﷺ، فقد اجتمعت فيه هذه الصفات القيادية.

ويجب على القائد الإداري أن يحرص أن يكون قدوة بأعماله وأفعاله، وأن توافق أقواله أفعاله؛ ليكون ذلك أدعى إلى الاقتداء به.

إذاً فإن القائد القدوة هو ذلك القائد الذي يستطيع أن يغرس فضائل الأخلاق في نفوس مؤوسيه بما يشاهدونه من ذلك القائد من احترام لكل ما يدعوهم إليه، وأنه ملتزم بذلك قولاً وعملاً.

٥ - الحوار: وقد مرت المحطات الكثيرة للحوار بين النبي ﷺ والمشرّكين، وحوار النبي ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم.

لقد اهتم الإسلام منذ بزوغ فجره بالحوار، واعتبره ضرورة ملحة في الدعوة إلى الله تعالى بأسلوب تحبّذه النفوس البشرية وتركن إليه؛ ولأن الحاجة إلى الحوار ضرورية فقد ضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة وأسمى الأخلاق في الحوار، والإسلام ظل فترة بقائه في مكة قبل الهجرة إلى المدينة معتمداً على أسلوب الحوار والإقناع، وجعل الحجّة تقارع الحجّة.

والحوار هو أحد أهم الأساليب القرآنية والنبوية الحكيمة والحضارية في الاتصال والتواصل بين الأفراد والجماعات والثقافات المختلفة، من خلال إفصاح كل طرف عما لديه من أفكار وآراء ليتم مناقشتها والوصول إلى الحقيقة عن طريق الإقناع العقلي والوجداني، كما أنه أحد الوسائل الهامة لنبد الخلافات وحل النزاعات المختلفة على كافة المستويات.



إن قيمة الحوار من القيم العليا التي تدل على سمو الملتزم بها وسمو خلقه، ورفعة شأنه، وتدل على أن الفرد الملتزم بتلك القيمة يحمل أدباً جماً، بل إنه يريد أن يصل إلى الحقيقة ويطرح الحقيقة ويسهم في إظهارها وإبرازها.

لذلك فإن تخلق الإداري القيادي المسلم بها ضرورة ملحة، بل وإنها تسهم في تحقيق مصالح المنظمة العليا، وتسهم في استقرارها ونجاحها.

٦ - القوة والحزم: وذلك عندما أمضى الرسول ﷺ الصلح مع قريش في قوة وحزم على الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيها من جُل الصحابة رضي الله عنهم.

وديننا الإسلامي يحث المسلم أن يكون قوياً في كافة جوانب حياته، فهو يدعو أتباعه إلى القوة، ويحثهم عليها، ويرشدهم إليها.

وبما أن القيادي والإداري هم من يتولون زمام الأمور، فعليهم يقع العبء الأكبر في تحمل تلك الإرشادات والسير بأتباعهم ومنظمتهم إلى أن يبلغوا بهم ما يصبون إليه من أهداف.

وإن للقوة مفهوماً شاملاً، فهي تكون من الأمور المعنوية مثل الشجاعة، أو في الأمور الحسية مثل قوة الجسد، وقوة العلم، وقوة التقدم العلمي، وقوة في التخصص؛ ولذلك شجع النبي ﷺ أمته على الاتصاف بهذه الصفة، وأخذ الأسباب اللازمة التي تؤدي إليها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرُ رُحْصٍ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». [مسلم في القدر (٢٦٦٤)].

والقائد الناجح هو ذلك القائد الذي يتحمل المصاعب والمشاق، ويكون في هدوء وروية؛ لأن ذلك سوف يعينه على اتخاذ القرار السليم، ويكسبه حب أتباعه.

وعلى الإداري والقيادي أن يهيئ نفسه للعمل في ظروف وأوضاع متباينة، وسوف يواجه التحديات والعقبات التي تحول بينه وبين اتخاذ قراراته، وفي ظل تلك الظروف تظهر شخصية القائد وتتجلى، ويتحتم عليه اتخاذ القرارات في قوة وعزم.

٧ - الوفاء بالعهد: وظهر ذلك في قصة أبي جندل رضي الله عنه، وكذلك في قصة أبي بصير رضي الله عنه.

وقد سبق الحديث التفصيلي عن قيمة الوفاء في عدة مواضع.

وإن التزام القائد بهذه القيمة النبيلة والخلق الرفيع تبعث في نفوس أتباعه الأمان والاطمئنان، وتحثهم على مزيد من العمل والإنجاز، وتدفعهم إلى المثابرة والإبداع؛ لأنهم يعلمون بأن منجزاتهم وأعمالهم

سوف يلقون ويجدون لها الأثر في نفس القائد، وأن ذلك القائد الذي اتصف بتلك القيمة وذلك الخلق النبيل لن يضيع جهودهم وإبداعهم وتفانيهم في أعمالهم.

٨ - الصبر: لقد صبر النبي ﷺ على قريش، وتحمله للأذى الشديد ومنعه من دخول مكة لأداء العمرة، وإثاره ﷺ الصبر وتحمل المتاعب والصعاب والسلم على الحرب. وكذلك صبره ﷺ على أصحابه ﷺ عند اعتراض جلهم على بنود الصلح.

والصبر قوة خلقية من قوى الإرادة، تمكّن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والسأم والملل، والعجلة والرعونة والغضب والطيش، والخوف والطمع والأهواء والشهوات والغرائز.

ويعتبر الصبر من أهم وأسمى الدلائل التي يمتاز بها القادة، فالصبر يدل على معالم العظمة وشارات الكمال، ومن دلائل هيمنة النفس على من حولها؛ ولذلك كان (الصبور) من أساء الله تعالى، فهو يتمهل ولا يتعجل، ويبطئ بالعقاب إن أسرع الناس بالجريمة... والصبر من عناصر الرجولة الناضجة، والبطولة الفارعة، فإن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل.

وقد كان الرسول ﷺ مثلاً أعلى في الاقتداء به في هذا الخلق وهذه القيمة النبيلة التي تدل على سمو المتسم والمتصف بها.

٩ - الحلم: وقد ظهر حلمه ﷺ أثناء المفاوضات وأثناء كتابة بنود الصلح ووثيقته، حيث تجلّى حلمه ﷺ عند قبوله للتعديلات التي طالب بها الوفد القرشي برئاسة سهيل بن عمرو، وكان من أهمها تغيير: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى: باسمك اللهم، وتغيير: رسول الله، إلى: محمد بن عبد الله. والحلم هو حالة تظهر معها الوقار والثبات عند الأسباب المحركة للغضب، أو الباعثة على التعجل في العقوبة.

والحلم صفة من صفات الأنبياء والرسل، وهم قادة البشرية، وهذا يدل على سمو هذه الفضيلة والقيمة وعلو منزلتها.

والقائد يتعامل مع مختلف الطبائع والنفسيات، ومع مستويات مختلفة من التفكير والتعليم، وعندما يتحلّى القائد بهذه الصفة فإنه يتيح لنفسه مساحة واسعة من التفكير، تنعكس إيجاباً على اتخاذ قراراته، وعلى آلية وطريقة حله للمشاكل التي يواجهها.

١٠ - الحكمة: لقد غابت الحكمة من هذا الصلح عن كثير من الصحابة، ولقد علم سبحانه ما في الصلح من الخير والحكمة، والمصلحة للمسلمين، ما لم يعلموه، فجعل قبل فتح مكة فتحاً عاجلاً.

والحكمة فضيلة وقيمة دعا إليها الإسلام، فهي تدل على رجاحة العقل والاعتزان.  
والحكمة تمنع وتحجز صاحبها عن الزلل والتعجل، وتجعله يضع الأمور في نصابها والشيء في موضعه، فالحكمة تمنع صاحبها من الجهل في القول والعمل، وتصده عن سوء التصرف في المعاملة، وتحذره من الاندفاع والعجلة، وتعلمه أن يضع كل شيء في موضعه.  
إذاً فالحكمة تجعل صاحبها برأيه وفكره في مقدمة الصفوف، يعود إليه من حوله لأخذ رأيه، والاستئناس به، وهذا ما يجب أن يتوفر في القائد، فالقائد يجب أن يكون حكيمًا يقود من حوله بالحكمة والروية، يقبل منهم تصرفاتهم، ويحسن الظن بهم، ويقوم بتوجيههم، ويرعى حقوقهم، ويصبر على سلوكياتهم، ويوجههم إلى معالي الأمور في حكمة وروية وصبر.  
[القيم الإدارية والمهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية للزهراني ٦٨-٩٨ باختصار].

#### ٤١ - المهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية:

يقول د/ الزهراني: «يتمتع القائد بمجموعة من الصفات والسمات التي تميزه عن غيره ليؤدي عمله بكل اقتدار ومسؤولية، وإلى جانب تلك الصفات والسمات يفترض أن يلم القائد بعدد من المهارات التي ترتبط وتؤثر في عطاء وعمل القائد وتميزه.  
ومن خلال أحداث صلح الحديبية يمكن استنباط مجموعة من المهارات القيادية التي من الضروري توافرها في القائد التربوي، وهي على النحو التالي:

١ - **المبادأة والابتكار**: من المهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية المبادأة والابتكار، وتم استنباط هذه المهارة من خلالبيعة الرضوان، حينما دعا الرسول ﷺ إلى البيعة عندما أتى الخبر أن عثمان بن عفان قُتل بمكة، فكانت هذه البيعة أسلوباً فريداً ومبتكراً من القائد الأول ﷺ، غيرَ به موازين القوى، وتغيرت به المواقف، فموقف الرسول ﷺ منذ خرج من المدينة وهو يبين سبب خروجه لقريش، إلا أن قريشاً تأبى وتريد الحرب، والرسول ﷺ يتمسك بهدفه، حتى جاء خبر مقتل عثمان ﷺ، وبمبادأة الرسول ﷺ إلى البيعة بدأت قريش تميل إلى الصلح والسلام.

إن من المهارات الذاتية التي ينبغي للقائد التحلي بها مهارة المبادأة والابتكار؛ لأن هذه المهارة هي التي تميز القادة عن بعضهم، فهي تدفع الأفراد إلى الاقتراح والإبداع والتطوير وابتداء من عند أنفسهم، وهذه المهارة تمكن القائد من التعرف على أعضاء فريقه ودافعهم للعمل وطاقاتهم وقدراتهم وميولهم.  
فالمبادأة بشكل عام تعني الميل الذي يدفع الفرد إلى الاقتراح أو العمل ابتداء، وسبقاً للغير... وتعتبر هذه السمة من السمات الهامة اللازمة للقائد؛ لأنها كما يقول «فايول» تمكنه من الكشف عن عزيمة كل موظف من موظفيه باعتبارها القوة المحركة للعمل، وتمكنه بالتالي من شحذ عزمهم على أداء العمل.

والقائد الذي يجيد هذه المهارة ويفعلها في ميدان عمله هو في الأصل يتحلى بأكثر من صفة تصب كلها في هذه المهارة، ومن هذه الصفات صفة الشجاعة والقدرة على الحسم وسرعة التصرف والبدئية. وعلى القائد اكتساب هذه المهارة والسعي إلى صقلها وتطويرها؛ لأنها من المهارات المهمة في حياة القائد.

٢ - مهارة ضبط النفس: التزم الرسول ﷺ بضبط النفس وكظم الغيظ بالرغم من كل محاولات قريش الاستفزازية لإقحام المسلمين في حرب لم يخرجوا من أجلها، ولا يرغبوا بها، والتزامهم بهدفهم الذي خرجوا من أجله.

وهكذا فإن النبي ﷺ إزاء كل ما أقدمت عليه قريش من حماقات تمثلت في استفزازاتها المسلمين والإصرار على اللجوء إلى السلاح لمنعهم من دخول الحرم، التزم ضبط النفس وكظم الغيظ، ولم يتسرع في الإقدام على أية خطوة من شأنها قدح شرارة الحرب.

والقائد الفاعل والناجح هو ذلك القائد الذي يستطيع إدارة نفسه قبل إدارة الآخرين. فالقائد الذي يتمتع بهذه المهارة العالية تساعد على إدارة الأزمات بنفس هادئة، والقائد الذي يمارس هذه المهارة يستطيع استخدام كل مهاراته الأخرى.

ومهارة ضبط النفس تساعد القائد على تقبل الآراء والنقد حتى وإن كان ذلك النقد أو تلك الآراء بعيدة عن رأي القائد وتصوره، ويستطيع في نهاية المطاف أن يصدر قراراته دون انفعالية أو تسرع، وتكون تلك القرارات قرارات مؤثرة وأصدت بعد تفهم وروية.

والقائد الناجح جلد على تحمل المصاعب، ثابت وهادئ الأعصاب في الكوارث والملمات، مما يكسبه الاحترام ومما يساعده على التصرف بحكمة بعيداً عن التأثير والانفعال، كما أن ثباته وجلده وشجاعته تبت المهمة في نفوس أتباعه ويصمدون معه.

لذلك على القائد التربوي التحلي بهذه المهارة، وممارستها في ميدانه التربوي، وإكساب فريقه وطلابه داخل المدرسة هذه المهارة.

٣ - مهارة القدرة على تحمل المسؤولية: وتحلى ذلك في إنفاذه ﷺ للصالح على الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيها من جل الصحابة رضي الله عنهم.

إن من أهم السمات والمهارات التي تلزم القائد أن يكون صاحب قدرة على تحمل المسؤولية وأعبائها؛ لأن هذه المسؤولية في المقام الأول أمانة ملقاة على عاتق المسؤول، فيجب عليه أن يتصف بتحمل المسؤولية وتبعات تلك المسؤولية، وأن يكون القائد حريصاً على إمامته بتلك المهارة وما تتدرج تحتها من مهارات مثل الثقة بالنفس، وتحمل مسؤولية القرارات التي يتخذها، وأن يكون طموحاً، فمن أهم

السمات التي ترتبط بقدرة القائد على تحمل المسؤولية ثقته في نفسه، وفي قدرته على إنجاز ما يقرره، ورغبته في أداء واجبات وظيفته، وتحمل أعبائها، وتحمل مسؤولية القرارات التي يتخذها، والأعمال التنفيذية التي يقوم بها دون محاولة التهرب منها أو إلقاء مسؤولية إنجازها على الآخرين، وتوفير مستوى معين من الطموح يدفعه لتحمل المسؤولية.

٤ - مهارة القدرة على رسم الأهداف وتحقيقها: وتجلّى ذلك في تحديده ﷺ للهدف من الخروج إلى مكة، وهو أداء العمرة، وتعظيم البيت الحرام؛ «لذلك أعلن النبي ﷺ في الحاضرة والبادية أنه قرر التوجه إلى مكة، وأعلن صراحة أنه لا يريد دخول مكة غازيًا وإنما معتمرًا مسالمًا، وأرسل إلى قريش من يبلغها ذلك لئلا تظن أنه جاء محاربًا». [صلح الحديبية لباشميل ١٠٨-١٠٩].

إن وضع الأهداف ورسمها مسؤولية القائد وحده؛ لذلك يجب على القائد أن يُلم بتلك المهارة بكل جزئياتها ودقائقها؛ لأنها تضمن له نجاح عمله وتزرع الثقة في القيادة، فالأهداف المرسومة بعناية تجعل العاملين تحت هذه القيادة يشعرون بالثقة تجاه القيادة وأنها تقودهم إلى النجاح.

والمسؤولية الأساسية للقائد هي وضع الهدف، وينبغي أن يكون هذا الهدف واضحًا وملهمًا، فيقبله كل عضو من أعضاء الفريق، وتبذل الجهود الجماعية لتحقيقه، كما يجب على القائد أن يحافظ على تركيز الفريق على الهدف، ويصبح بمثابة الرسالة لكل الفريق.

ويعد وضع الهدف مسؤولية القائد؛ لذلك يجب عليه أن يحدد الهدف بوضوح، ويخلق نوعًا من الثقة في القيادة، وأنه يستطيع قيادتهم إلى النجاح.

وتحديد الأهداف تعد حافزًا مهمًا تدفع الفرد إلى العمل وتحقيق آماله، فإن تحديد الإنسان لهدف معين في حياته يعد من أهم الحوافز التي تدفع الإنسان إلى العمل الدؤوب، والنشاط، لكي يصل في نهاية الأمر إلى تحقيقه، فإذا كانت حياة الإنسان بلا هدف فإنها بلا شك تعتبر خالية من المضمون؛ ولذلك فإن الهدف هو محرك حياة الإنسان.

فإذا كان هذا هو حال الإنسان في حياته اليومية المعتادة، فكيف بحياة القائد داخل مؤسسته، فمن باب أولى أن تكون الأهداف أكثر أهمية والحاحًا لتستقيم المؤسسة وتنجح في تقديم ما أسست له.

٥ - مهارة الاتصال: والمواقف التي تم استنباط مهارة الاتصال منها:

أ- اتصاله الدائم ﷺ مع صحابته رضي الله عنهم، وقربه منهم وإطلاعهم على مستجدات الأمور، ومعرفة رأيهم.

ب- السفارة بين الرسول ﷺ وقريش.

ج- بيعة الرضوان (قمة التواصل بين القائد وأفراده).

تمثل عملية الاتصال أحد أهم العناصر في التفاعل الإنساني، وبالاتصال الفاعل والجيد بين الأفراد والمجموعات والمؤسسات تحرز الأهداف وتتقدم في مختلف مناحي الأنشطة. والاتصال وسيلة تربوية، وبدونه يفقد القائد التربوي ديناميكيته في تأدية رسالته، والاتصال ضرورة ومهارة للقائد متى ما أراد النجاح لمؤسسته.

والاتصال وسيلة من الوسائل التربوية، وبدونه تفتقد التربية ديناميكيته في تأدية رسالتها، وهو— أي الاتصال — مهارة أساسية يحتاج إليها كل من يعمل في مجال الإدارة المدرسية. وما لم يكن الإداري المدرسي ملماً إلماماً كافياً بمبادئ وفنيات الاتصال وماهرًا في تطبيق تلك المعارف تطبيقاً سليماً فإن نجاحه في تأدية وظائفه يصبح أمراً مشكوكاً فيه، وهو— أي الاتصال — كفاية من الكفايات التي يمكن للقائد أن يتعلمها، وينميها، وتجعل منه قائداً فعالاً.

والاتصال عملية مستمرة لا تقف عند حدود وقت أو مرحلة معينة، بل هو مستمر طوال حياة المنظمة، فنشاط الإدارة القيادية: التخطيط والتنظيم، واتخاذ القرارات، والتنسيق، والإشراف والمتابعة، والرقابة، والتقويم... وما إليها يؤدي كله بالاتصال، والمبادرة بالاتصال الجيد في الوقت المناسب وراء نجاح الكثيرين في أعمالهم الرسمية والخاصة على حد سواء.

وبدون مهارة اتصال فعالة وجيدة لا يمكن للقيادي إيصال أهدافه أو أهداف خطته للعاملين، بل ولا يمكن له إعداد خطط جيدة بدون تبادل الآراء والحوار، ولا يمكنه توجيه العاملين للقيام بمهامهم على الوجه الأكمل بدون أن يتمكن وبشكل كفء من الاتصال معهم، وكافة مهام ووظائف القيادي المدير تُبنى على كفاءة وفعالية اتصاله.

٦ - مهارة إدارة الوقت: الموقف الذي تم استنباط مهارة إدارة الوقت منه: هو استشاره ﷺ للوقت، بإرسال الرسل إلى قريش، واستقبال سفراء قريش، ومفاوضتهم، وطلب البيعة من الصحابة ﷺ لحظة وصول خبر مقتل عثمان بن عفان ﷺ.

يدرك القادة بأن الوقت من الموارد المحدودة؛ لذلك يجب عليهم استغلال كل جزئياته بما يعود عليهم بالنفع في قيادة أفرادهم نحو الإنجاز وتحقيق الأهداف.

وقد اعتنى الإسلام بالوقت عناية فائقة، فأهم شعائر الإسلام مرتبطة بالوقت والتوقيت، فالصلاة— على سبيل المثال— محدودة المواعيد، ولا يجوز للمسلم التساهل في وقتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ﴿٢٣﴾ [النساء].

والإسلام ينظر إلى الوقت بأنه نعمة من نعم الله ﷻ على الإنسان، فحري بالإنسان استغلال ذلك الوقت بما يعود عليه بالفائدة في دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٣].

ومن تلك الأهمية السابقة للوقت في حياة الإنسان لزم عليه إدارة الوقت بكفاءة عالية وإدارة هذا المورد بكل اقتدار، فالوقت الذي يمضي لا يمكن إعادته على الإطلاق.

وإدارة الوقت هي تخطيط استخدام الوقت وأساليب استخدامه بكفاءة وبفعالية مع توجيه الجهود نحو زيادة الكفاءات والإنتاجية ورفع معدلات الأداء.

وإدارة الوقت هي إدارة للذات، وفي هذا المجال ينبغي للقائد أن ينمي العادات السليمة والمفيدة في استخدامه للوقت.

إن إدارة الوقت تعني إدارة الذات؛ لذا فإن إدارة الذات هي النقطة الحيوية في مراقبة الوقت، وللتحكم فيه ينبغي تنمية عادات مفيدة في استخدام الوقت وممارستها فعلاً.

والقائد تقع عليه المسؤولية في إدارة الوقت داخل المؤسسة التربوية، وإذا أخفق في إدارة الوقت فإنه سوف يخفق فيها سوى ذلك.

ومن خلال المعطيات السابقة فعلى القائد تنمية مهارات إدارة الوقت وإعطاء ذلك الأهمية التي يستحقها، فمن خلال الوقت تنجز الأعمال، وتحقق الأهداف، ومتى ما استطاع القائد إدارة وقته بفاعلية انعكس ذلك بشكل إيجابي على عطائه، وتحقيق خطته وفق ما خطط لها مسبقاً.

#### ٧ - مهارة التفويض: الموقف الذي تم استنباط مهارة التفويض منه:

أولاً: إرساله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة، وتفويضه بالتفاوض مع قريش وإبلاغهم بأن الرسول ﷺ قدم إلى مكة معتمراً لا غازياً.

ثانياً: تفويضه ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بكتابة وثيقة الصلح.

التفويض فن وهو من المهارات الأساسية للقيادة، وهو أسلوب من أهم أساليب الإدارة «الإدارة بالتفويض»، ويهدف التفويض في مجمله، إلى تطوير العاملين، وتحسين الإنتاج واستغلال الوقت وإتاحة الفرصة للقائد في التركيز على ما هو رئيس ومهم في نشاطاته، وتفويض النشاطات الثانوية التي يمكن للمرؤسين القيام بها بفاعلية مرتفعة.

والقائد المسلم يجد في السيرة النبوية العطرة وتاريخنا الإسلامي المجيد نماذج مضيئة لمهارة التفويض في أبهى صورها وأنصح معانيها، بل وتجيد مهارة التفويض مكتملة الأبعاد والشروط، فموقف تفويض

الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق ﷺ بالصلاة بالناس في مرضه ﷺ يعتبر مدرسة تتعلم منها الأمة هذا الفن وهذا الأسلوب، فالإعداد لشخصية الصديق ﷺ لهذا المكان امتدت منذ بزوغ فجر الإسلام ودخول أبي بكر الصديق ﷺ فيه، إلى أن وقف للصلاة بالناس في محراب رسول الله ﷺ، فقد تجلبت في هذا التفويض شروط التفويض وأركانه من أن المفوض له شخص قادر على تحمل المسؤولية وأعبائها إلى الثقة العميقة التي يكنها الرسول ﷺ لصاحبه.

[القيم الإدارية والمهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية للزهراني ٩٩-١١٢ باختصار].

#### ٤٢ - أهمية الإمارة في الإسلام:

يقول د/ أبو فارس: «نلاحظ هذا بوضوح من اختيار المسلمين لأبي بصير ﷺ أميراً عليهم يصلي فيهم الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وقيم فيهم الأحكام الشرعية، ويفصل بينهم في المنازعات، ويقسم بينهم الغنائم التي يغنموها من قريش.

نعم لقد اختاروا أبا بصير ﷺ لتوافر مؤهلات الإمارة فيه، إضافة إلى أنه هو الرائد، وغيره تبع له، كل ذلك جعل القلوب تُجمع عليه.

وهذا ليس عجباً، فقد رباهم الرسول ﷺ على ألا يعيشوا لحظة واحدة بلا أمير، في الحضر أو السفر.

تأمل معي قول الرسول ﷺ: «إِذَا خَرَجَ [كَانَ] ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨، ٢٦٠٩)، وصححه الشيخ الألباني - صحيح الجامع الصغير ٥٠٠، ٧٦٣].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «...وَلَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ، وَلَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبَيْهَا». [مسند أحمد ١١/٢٢٧ رقم ٦٦٤٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره إلا حديث

الإمارة فحسن. ينظر: السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٣٨-١٣٩].

فهذه الأحاديث توجب على المسلمين تنصيب أمير عليهم، إذ تنص على وجوب تأمير أمير على جماعة قليلة كالثلاثة في السفر، وهذا يدل أن الوجوب أكد وأوجب في حق الجماعة الكبيرة المستقرة.

[ينظر: النظام السياسي للمؤلف [د/ أبو فارس] ص ١٥٨، والتنظيم الحركي في الإسلام ص ٣٦].

قال ابن تيمية رحمته الله: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: «إِذَا خَرَجَ [كَانَ] ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»، فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع». [السياسة الشرعية ١٣٨].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٥٦-١٥٧].



#### ٤٣ - اغتنام كل الفرص الممكنة لتسخيرها لصالح الدولة المسلمة:

يقول د/ الحميدي: «حينما رأى رسول الله ﷺ من أبي بصير ﷺ شجاعة ودهاء دفعه ليكون هو وأمثاله مشعلًا لمعارك خاطفة تزعج الكفار وتجعلهم يتنازلون بمحض اختيارهم عن شرطهم الجائر الذي يقتضي بردّ من خرج منهم وإن كان مسلمًا، فقال ﷺ لأبي بصير ﷺ كلمته العظيمة ذات الأثر البالغ في حسم الموقف: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

وقد فهم أبو بصير ﷺ التلويح حينما لم يكن النبي ﷺ قادرًا على التصريح لقيام الهدنة بينه وبين الكفار، فاختار مكانًا صالحًا لرصد تجارة قريش وانضم إليه كل من كان على شاكلته وأبرزهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ﷺ فأقضوا مضاجع المشركين وأفقدوهم هدفهم الأول من قبول الصلح وهو الحصول على طريق آمن لتجارته نحو الشام، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ منكمسي رؤوسهم خاضعين يرجونه أن يؤوي كل من خرجوا إليه مسلمين، وأعلنوا تنازلهم عن شرطهم الجائر.

وتحققت بشارة النبي ﷺ لأبي بصير وصحبه ﷺ بأن الله تعالى سيجعل لهم فرجًا ومخرجًا. وهكذا تبدو سياسة رسول الله ﷺ العملاقة إلى جانب سطحية التفكير السياسي لدى زعماء المشركين، فقد كان ذلك الشرط الذي اشترطوه تعنتًا واستعلاءً فبالأعلى عليهم، حيث سبّب لهم حروب عصابات لم يحسبوا لها حسابًا، وظهرت نتائج الصلح الباهرة لصالح المسلمين ضد أعدائهم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ٨-٩].

#### ٤٤ - إصلاح الداخل الإسلامي والدعوة العالمية:

يقول الشيخ أبو خوات: «كان من نتائج الحديبية أن أرسل رسول الله ﷺ رسله بكتب من عنده تدعو البلاد المجاورة إلى الإسلام، حتى إذا استجابوا دعا من بعدهم الخ، حتى يحقق المعنى من إرساله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وهنا نتعلم أن من يتعرض في وطنه لشق عصا طاعته من مواطنيه لن يكون من اليسير أن يخرج دعوته - أيًا كانت - خارج وطنه، وتلك طبيعة الأشياء، فالذي لا يستطيع سياسة بيته لا يفلح في سياسة دولته، والذي لا يستطيع سياسة دولته كان في سياسة غيرها أعجز الناس، وهذا الحكم أغلبي، فقد تستعر نيران الحقد بين الأقرباء أو القرناء، فلا يتمكن الساسة الأذكياء من الانتفاع بثمرة ذكائهم، ولو أقاموا بين غرباء ربما استطاعوا تحقيق أغراضهم بشكل أتم وأشمل.

وفي أكثر الأوطان العربية - مشكلة من هذا النوع - تظهر في قطر في صورة الطائفية الدينية، وفي آخر في صورة العنصرية القومية الخ - وذلك لأسباب كثيرة أقربها إلى عهدونا الاستعماري، فإنه كان - لا كان - يقوم بالدرس والوقية والتفرقة بين العرب المستعمرة بلادهم على طرق تختلف بما يناسب كل منطقة، فهو في السودان غيره في المغرب والجزائر، غيره في سوريا ولبنان، غيره في العراق، غيره في سواحل المحيط

الهندي والخليج العربي، ثم هو في الوطن كله يخطط الحدود ويظل بكل الوسائل يعلن عن حيده التامة حتى يصل الأمر إلى أن يحتكم العربان إليه فيما يختلفان فيه من حدود تأكيداً لمعاني الانفصال والفرقة وإثارة لرغبات الملك والسلطان والتحكم في بعض الناس، حتى إذا آذنت شمسها بالغيب، وظهر في الأفق - وبأدلة عملية كما حدث في حرب فلسطين مثلاً - أن العرب في سبيلهم إلى الوحدة أو ما يشابهها، انحاز إلى اليهود ولم يصلوا بعد إلى مليونين، وخاصم العرب وهم عشرات الملايين وفي أيديهم الخيرات والممرات والأرض والجو والبترول.

أيها العرب! إن محمداً ﷺ لم ير من طبائع الأشياء أن يرسل إلى أحد من الأمم المجاورة رسولاً أو كتاباً وهو لا يزال في معارك مع قومه فلما اصططح معهم - على أي شكل - بدأ يخاطب ملوك الأمم ورؤساءها برسله وكتبه.

ونحن لن نستطيع مخاطبة العالم بما نريد في ثقة وأمل إلا إذا انتهت خلافتنا الحادة من حياتنا، وأصبحنا يأمن بعضنا بعضاً، ويتحدث أحدها بلسان الآخرين، وحتى في داخل الوطن العربي الواحد لن نستطيع أن نتحدث مع الوطن العربي الآخر أو غير العربي من موقع الثقة حتى نكون في وطننا الصغير أهلاً لهذه الثقة. ونحن في حاجة لكل قطرة عرق أو دم ولكل لحظة تفكير من كل فرد عربي لتوجه إلى هدف واحد هو: إزالة آثار العدوان إن لم يكن إزالة أساس العدوان.

وكتب رسول الله ﷺ إلى ملوك وعظماء البلاد المجاورة مروية ومسجلة ويظهر في بعضها خاتم رسول الله ﷺ، وإذا قرأناها وجدناها دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ووجدنا في كل منها ما يتناسب مع مبادئ وطبيعة الشخص المرسل إليه.

ومن هنا نأخذ أن رسالة محمد ﷺ لم تكن أن يقيم دولة الإسلام في المدينة، وأن ينتهي أمرها إلى إخضاع من يجاورها ومصالحة مكة عشر سنين تقبل أن تزيد، وإنما رسالة محمد ﷺ هي دعوة الله إلى الخلق كلهم أن يعبدوه ويوحده ويقدروه قدره الذي يعرفه لنفسه، فما هو إلا أن يأمن محمد ﷺ أقسى وأشرس قوة تقف في وجهه وهي قريش في مكة، حتى ينقل نشاطه في الدعوة إلى الله إلى كل من يستطيع الوصول إليه بادئاً من يملكون الأرض التي تحيط ببلاد العرب التي أصبحت تدين بالإسلام أو تهاده.

مما يعطينا أن رسالتنا دائماً هي عَرَض ما يصل إلينا من خير على المحرومين منه ونكون أسعد الناس إذا أقبلوا عليه وانتفعوا به وآمنوا بجذواه وتقبلوه». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ١١٧-١٢٠].

#### ٤٥ - تصدع الموقف القرشي:

يقول د/ عشقي: «إذا كان التشريع يعتبر من أهم الوسائل التي تمكّن الدولة من مباشرة اختصاصاتها في المجتمع الوطني، فإن إبرام المعاهدات يعتبر الوسيلة الأهم لتمكين الدولة من مباشرة اختصاصاتها في المجتمع الدولي.

فالصحيفة التي أصدرها النبي ﷺ حال هجرته إلى المدينة المنورة، كانت بمثابة أول دستور في التاريخ، وأول تشريع داخلي، مكّن الدولة الإسلامية الأولى من مباشرة اختصاصاتها داخل المجتمع الإسلامي.

كما أن إبرام معاهدة الحديبية يُعتبر نقطة تحول في التاريخ الإسلامي، إذ مكّن الدولة الإسلامية من مباشرة نشاطها في المجتمع الدولي، كما كان إبرام الحديبية اعترافاً ضمناً بكيانها السياسي. والمعاهدات تُعتبر من أهم المصادر الأصلية المباشرة لإنشاء القواعد القانونية الدولية، إلى جانب العُرف ومبادئ القانون.

والمعاهدات في القانون الدولي بمثابة التشريع في دائرة النظام الداخلي، فعندما تتواضع الدول فيما بينها على إنشاء المعاهدة، فإنها تقوم بالدور نفسه الذي يقوم به المشرع الداخلي.

والمعاهدات: قد تكون جماعية فتشترك فيها عدة دول، وقد تقتصر على دولتين فتصبح معاهدة ثنائية. ولا تتجاوز القوة الإلزامية في المعاهدات حدود أطرافها، لكنها قد توسع دائرة الانضمام إليها كما اتسعت معاهدة الحديبية حين نص الاتفاق على ذلك.

وإذا تناولت المعاهدات موضوعاً دولياً بالتنظيم، تصبح معاهدة شارعة، وهنا تختلف عن المعاهدة العقدية.

إن الإرادة المنفردة لا تترك أثراً قانونية على القانون الدولي، إلا إذا واكبتها إرادات لأشخاص دولية أخرى، سواء كانت هذه المواكبة رئيسية، أو تبعية، أو ضمنية، ومن هذه الإرادات: الاعتراف، والإبلاغ، والاجتماع، والتنازل.

ومع هذا فإن الفقه الدولي الحديث لم يعط هذا النوع من الأعمال القانونية حقه من الدراسة والاهتمام. والمعاهدات من حيث الشكل تمر بثلاث مراحل هي: المفاوضات، والتحرير، والإبرام.

فالمفاوضات بين الدول حول قضية محلها نزاع سياسي، تختلف في جوهرها عن التفاوض بين الدول حول قضايا التعاون الثنائي والجماعي المتبادل.

إن طبيعة القضايا التفاوضية وإطارها العام، هي التي تحدد عناصر وأساليب المفاوضات، كما أنها تحدد أسس وقواعد العملية التفاوضية.

وعلى هذا فإن التفاوض يصبح الوسيلة السلمية الأمثل لحل المنازعات الدولية؛ لأنها أسلوب للتفاهم المباشر بين الأطراف المعنية، حول موضوع يمثل مصلحة مشتركة. ولأن المفاوضات لا تُعتبر إجراءً شكلياً، إلا أنها عملية تقتضي حسن النية، كما تتطلب الإرادة الصادقة لحل النزاع، بالإضافة إلى قدر من المرونة من كافة الأطراف المشتركة في التفاوض. والمفاوضات في الإسلام هي ألوان من الحوار الذي يجري بين المسلمين وغيرهم لإنهاء المنازعات، وتحرير الدعوة الإسلامية من القيود، وضمان الأمن من التهديد، مع التأكيد على حسن العلاقات. فظهور الإسلام، وتكوين القاعدة الإسلامية بالمدينة المنورة، أثار موجة من الصراع بين الإسلام والوثنيين، بلغ أشده في غزوة الأحزاب التي كانت تمثل تهديداً مباشراً للكيان السياسي الإسلامي. وجد النبي ﷺ نفسه أمام جبهات ثلاث، جبهة شالية في خيبر، وفدك وتيما، ووادي القرى، ويتزعمها اليهود، هذه الجبهة تشكل قاعدة للتحرير، ومركزاً للتمويل بالسياسة والمال. وجبهة شرقية تتمثل في القبائل العربية من نجد، وأبرزها غطفان، وبنو أسد، وبنو مرة، وغيرها، وهي عبارة عن قوة من المرتزقة، يغريها اليهود بالمال وبشمار خيبر. أما الجبهة الجنوبية فتتزعّمها قريش، وتدفعها الأحقاد والمصلحة الاقتصادية، والقيمة الاعتبارية بين القبائل.

لقد كانت غايات النبي ﷺ من معاهدة الحديبية الآتي:

أولاً: ممارسة الحق في أداء الشعائر بمكة.

ثانياً: توفير الأمن للمدينة المنورة من التهديد المستمر، وذلك بتحييد الجبهة الجنوبية، حتى الانتهاء من تصفية الجبهة الشالية؛ لهذا كانت الحديبية معاهدة مؤقتة.

ثالثاً: إطلاق الحرية للدعوة الإسلامية.

من هذا المنطلق فافوض النبي ﷺ قريشاً، لقد كان للنبي ﷺ أهداف مرسومة، وخطة موضوعة فكانت المعاهدة متّكاً للوصول إلى هذه الأهداف.

لم تكن لقريش أهداف سوى المحافظة على التجارة والمكانة الاعتبارية بين القبائل؛ ولهذا وصفها الله ﷻ بالحمية الجاهلية.

من هذا المنطلق تمت صياغة المعاهدة، فكان ﷺ وهو يضع أحكامها يتحرى تحقيق هذه الأهداف، أما قريش فقد كانت وهي تفاوض الرسول ﷺ تنطلق من مبدأ فرض الإرادة على الخصم.

كان ظاهر المعاهدة، أن قريشاً حققت ما تريد من شروط؛ لهذا كان المسلمون قلقين من بعض أحكام المعاهدة، مشفقين على مستقبل الدعوة الإسلامية، لكن الرسول ﷺ كان يوصيهم بالصبر والأناة، ويشرحهم بالفتح والغنائم؛ لأنه كان يدرك أبعاد المعاهدة:

لقد فوجئت قريش بأن شروطها التي أصرت عليها تفتقر إلى العمق، فحقها في استرداد اللاجئين من صفوف المسلمين، أصبح وبالأعلى؛ لأنهم تسللوا إلى الساحل فقطعوا طريق القوافل، مما حدا بقريش أن تناشد النبي ﷺ الله والرحم في إسقاط الشرط، واحتواء الذين هددوا طريق القوافل، حتى يكونوا تحت مظلة المعاهدة، واستجاب ﷺ لذلك.

إن تنازل قريش عن شرط استعادة اللاجئين، فتح الطريق أمام الذين كذب الله الإيمان في قلوبهم أن يلتحقوا بقافلة الإيمان، فكان بداية لتصدع الموقف القرشي.

عندما تمتع المسلمون بحقوقهم في الدخول إلى مكة وأداء عمرة القضاء، كان أداؤهم للشعائر يمثل صورة حية من صور الدعوة الإسلامية.

لقد كان للسلوك الإسلامي أثر بالغ في عقلاء قريش، فأعادوا حساباتهم، كما أحسوا بغرور الكيان القرشي المشرك، وشروق الإسلام على ربوع مكة.

عندما قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة لِيُسَلِّمُوا قال النبي ﷺ: «لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها».

كان إسلام هؤلاء الثلاثة بداية لتصدع الموقف في قريش، ثم انتهى باستسلام الجبهة الجنوبية فيما بعد. إن الإعجاز الجري الذي ظهر في معركة أُحُد قد ولَّد القناعة العقلية لدى خالد بن الوليد.

كما أن ثقة المسلمين وخشوعهم حول البيت في عمرة القضاء، ولَّد القناعة القلبية لدى خالد بصدق الدعوة الإسلامية.

لقد رأى المسلمين وهم يطوفون حول البيت وكأنهم قناديل الهدى فهفا قلبه إليهم، وتمنى أن يتخذ مكانه في قافلة الإيمان.

وقد روت كتب السنة والسيرة قصة إسلام خالد ومعه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم، وقد وصل الثلاثة إلى مشارف المدينة، وعند بئر أبي عتبة وجدوا رجلاً يصيح: يا رباح، يا رباح، يا رباح، فتنفوا من قوله.

ما إن نظر الرجل إليهم حتى قال: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وكأنه يعني خالدًا وعمراء، فولى الرجل مدبرًا إلى مسجد الرسول ﷺ يحمل البشرى.

أناخ الثلاثة رحالهم بالحرّة، ولبسوا صالح الثياب، ما إن وصلوا إلى المسجد النبوي والمسلمون من حولهم جنّلى، حتى رُفِعَ أذان العصر..

تقدّم فارس قريش، وداهيتها، وسادن الكعبة إلى حيث يجلس رسول الله ﷺ، وقلوب المسلمين تطير شعاعًا من الفرح وعيونهم تعلقت بهذا الموكب العظيم.

ما إن وقعت عينا رسول الله ﷺ عليهم حتى ارتسمت البسمة على شفثيه، وظلت كذلك حتى سلّموا عليه.

كان إسلام هذا الرهط نهاية لتصدع قريش وتداعي وحدتها، ألم يقل رسول الله ﷺ: «لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها».

ألم يقل الرجل الذي نظر إليهم عند بئر أبي عتبة: (قد أعطت مكة المقادة بعد هذين) يعني خالدًا وعمراً، وما أمر سادن الكعبة عثمان بن طلحة عنهم ببعيد.

لقد كان إسلامهم ثمرة من ثمار المفاوضات في الحديبية، لقد صاغها ﷺ بحكمة ما بعدها حكمة، وبعقل ما بعده عقل، وبحكمة ما بعدها رشد، ألا يحق لنا أن نتأسى برسول الله ﷺ.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٢٤٥-٢٥٦].

## المبحث الخامس الدروس العسكرية

### ١ - إحكام التدبير:

يقول الشيخ حوى: «من أول ما يطالعك في قصة الحديبية إحكام التدبير: أولاً: في شعار الذي رُفِعَ.

وثانياً: في الطريق الذي سلك.

وثالثاً: في الحوار الذي تم والمفاوضات التي جرت والحجج التي قيلت.

ورابعاً: في أخذ البيعة على عدم الفرار أو الموت.

وخامساً: في ضبط النفس عن القتال مع وجود أسبابه.

وسادساً: في الاحتياطات الأمنية التي اتخذت.

وسابعاً: في الجو الذي أُحيطت به المفاوضات.

وثامناً: في بنود الصلح». [الأساس في السنة - السيرة - لحوى ٢/ ٧٨٨].

### ٢ - حرب الدعاية:

يقول ل/ خطاب: «شَنَّ المسلمون على قريش بخروجهم لزيارة البيت العتيق، أضخم حرب للدعاية

التي هي من أهم أركان الحرب الباردة.

لقد أظهرها تعظيمهم للبيت الحرام بصورة عملية لا تقبل الشك والمهارة، فتسامع العرب بذلك، فلما

أصرت قريش على رجوع المسلمين دون زيارة المسجد الحرام، اعتبر العرب قريشاً ظالمة للمسلمين، إذ

ليس لها أن تحرم أحداً جاء لتعظيم البيت وزيارته.

وقد رأيت كيف أن قريشاً أرسلت الخليس بن علقمة لمفاوضة الرسول ﷺ، فلما رأى الهذلي في

الوادي، عاد أدراجه دون أن يقابل النبي ﷺ، وأخبر قريشاً بما رأى وهددهم أعنف تهديد.

بل إن هذه الدعاية كادت أن تثير حرباً أهلية داخل مكة بين قريش نفسها من جهة، وبين قريش

والأحابيش من جهة أخرى.

أما عثمان بن عفان ؓ فقد استطاع أن يتصل بالمسلمين في مكة حين بعثه الرسول ﷺ لمفاوضة قريش

ويوجههم إلى أهداف الإسلام الحيوية.

لقد كانت غزوة الحديبية حرب دعائية من الطراز الأول». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٧].

### ٣- توخّي الهدف:

يقول ل/ خطاب: «توخي الهدف مبدأ من مبادئ الحرب المهمة، وهو أن نعرف هدفنا تمامًا ونفكر بأقوم الطرق لتحقيقه، ثم نقرر خطة مناسبة للحصول عليه وننفذ تلك الخطة جاعلين هدفنا الرئيس وحده نصب أعيننا دون أن تعيقنا أو نغيّر من خطتنا الأهداف الثانوية الأخرى.

وقد برز مبدأ توخي الهدف لدى الرسول ﷺ في غزوة الحديبية بأجلى مظاهره حتى يمكن أن تكون دروس هذه الغزوة من أروع الأمثلة المفيدة للذين يريدون أن يفهموا معنى توخي الهدف.

قرر الرسول ﷺ منذ مغادرته المدينة ألا يحارب قريشًا، بل يبذل كل جهده للتفاهم معها، إلا إذا لم يجد مناصًا من القتال.

ووضع هذا الهدف نصب عينيه دائمًا.

خرج مُحرّمًا، واستصحب أسلحة الراكب وهي السيوف في القرب، فلما علم من دوريات استطلاعه اعترام قريش على قتاله، أصر على (السّلم)، فخرج عن الطريق العام إلى طريق فرعية وعرة شديدة الوعورة، مما جعل أصحابه يكابدون المشقات عند قطعها، ولم يكن الرسول ﷺ يهدف من الخروج عن الطريق العام إلا التملص من اصطدام أكيد بطلائع قريش؛ لأن المكوث في موضع (عُسفان) الذي وصله المسلمون، يؤدي إلى اصطدام الفريقين، لاندفاع خيالة قريش أمام قواتها الأصلية وإقترابها من مواضع المسلمين.

ولو انسحبت قوات المسلمين إلى الخلف باتجاه المدينة، لطاردتهم قوات قريش أيضًا، وفي هاتين الحالتين سيحصل الاصطدام الذي لا يريده الرسول ﷺ.

ولكن خروجه عن الطريق العام إلى طرق فرعية باتجاه مكة، جعل طلائع قريش تضطر إلى الإسراع في العودة أدراجها للدفاع عن مكة؛ لأن المسلمين هددوها تهديدًا مباشرًا وأصبحوا قريبين منها.

ولم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفًا من قوات قريش؛ لأن الذي يخاف عدوه لا يقترب من قاعدته الأصلية (القاعدة هي المنطقة التي يستند إليها الجيش قبل شروعه في العمليات الحربية، والقاعدة نوعان: قاعدة العمليات، وقاعدة التموين، وتتوحدان على الأغلب ويندر أن تكونا منفصلين)، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خطوط مواصلات العدو (هي التي تربط الجيش بقاعدته)، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية.

وعندما وصل الرسول ﷺ (الحديبية) بقي مصرًّا على هدفه (السلام الذي لم ينسه قط: أفسح المجال لمفاوضي قريش بالقدوم إلى معسكر المسلمين في كل وقت للتأكد من نيات المسلمين السلمية، وأرسل مفاوضين من المسلمين ليؤكدوا للمشرّكين صدق نياتهم السلمية.



وعندما هاجم قسم من المشركين معسكر المسلمين ورموهم بالنبل، حاول المسلمون حينذاك أن يلقوا القبض على المهاجمين دون أن يوقعوا بهم خسائر بالأرواح أو بالأموال؛ فاستطاعوا فعلاً تطويقهم والقبض عليهم، ثم أطلقوا سراحهم وأعادوهم إلى قريش دون أن يلحقوا بهم أي أذى.

ألا يدل ذلك على إصرار الرسول ﷺ على التفاهم مع قريش وإحلال السلم بين الطرفين؟ لقد لاحظنا في هذه الغزوة دون غزوات الرسول ﷺ الأخرى، أنه لم يستشر أصحابه في عقد الهدنة واستقل هو برأيه، وسبب هذا الإصرار على الرأي واضح جداً، فقد كان قرار الرسول ﷺ التثبت بالتفاهم مع قريش نهائياً وحاسماً، ولا يحتاج مثل هذا القرار إلى استشارة أحد.

إن الرسول ﷺ كان يتوخى من التفاهم مع قريش أهدافاً بعيدة جداً ليس من مصلحة الدعوة ولا من مصلحة المسلمين الإخبار عنها، وقد ظهرت أهدافه فيها بعد.

كانت قوات المسلمين في الحديبية ستمائة وألف رجل، فأصبحت قواتهم يوم فتح مكة بعد عامين عشرة آلاف رجل، وشتان بين العددين.

وهذا بعض ما في صلح الحديبية من فوائد للمسلمين.

فهل كان بإمكان الإسلام أن ينتشر بهذه السرعة في مثل هذه تلك الظروف، لو لم تضع الحرب أوزارها بعض الوقت ويتهدان الطرفان؟». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٠-٢٨٢].

#### ٤ - المحافظة على الغرض:

يقول عميد / فرج: «المحافظة على الغرض مبدأ سياسي وعسكري هام برز بوضوح خلال الحديبية، فمن أهم ما يتميز به الفكر العسكري والسياسي هو وضوح الرؤية، ومعرفة الهدف، واختيار أنسب وأحسن الطرق للوصول إليه، والمحافظة على الهدف مهمة صعبة، لا يقدر عليها إلا القائد الفاهم الواعي المدرك القادر على حسن التصرف ومواجهة الأمور وحسم المواقف.

كان هدف رسول الله ﷺ عند خروجه من المدينة قاصداً مكة أداء واجب الزيارة دون قتال إلا إذا وجد نفسه مجبراً عليه.

إذن لم تكن هناك نية أصلاً للحرب، وكان هذا في حد ذاته هدفاً، وكان هذا الهدف نصب عيني رسول الله ﷺ دائماً لم يرغب عن باله قط حتى في أحلك المواقف، ولم يفكر رسول الله ﷺ أن يخرج عن سبيله أبداً ودليل ذلك:

— خرج رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ ومعهم السيوف في القرب وقد ساقوا الهدي أمامهم ليؤكد أنه ما خرج محارباً أو مقاتلاً أو غازياً.

— عندما اعترضت قريش طريقه ﷺ دعا أصحابه ليخرج به أحدهم بعيداً عن طريقهم حتى يتبعد بهم عن مواطن الصدام.

— استقبل رسول الله ﷺ كل وفود قريش إليه، وتحدث إليها في صراحة ووضوح عن هدفه، حتى أن الحليس وعروة بن مسعود اقتنعا تماماً بصدق هدفه، ويبدو ذلك في أحاديثهما مع قريش.

— وعندما هاجم بعض المشركين مواقع المسلمين ووقعوا في أيديهم وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ أبي أن يحجزهم وأطلق سراحهم وأعادهم إلى أهلهم دون أن يلحق بهم أذى وكان ذلك في الاستطاعة دون ريب.

— اتخذ رسول الله ﷺ من جانبه خطوة للتفاهم مع قريش فبعث إليهم رسولين من عنده يحدثانهم ويشر حان لهم الهدف.

— ورسول الله ﷺ يكتب عقد الهدنة مع سهيل جاء ابن سهيل أبو جندب ؓ وكان قد أسلم وفرّ إلى المدينة - لاجئاً إلى رسول الله ﷺ، فلم يحزه رسول الله ﷺ بل سلّمه إلى أبيه تنفيذاً للاتفاق الذي لم يكن قد وضع موضع التنفيذ، وكان أبو جندل ؓ يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟»، فقال له الرسول ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ فَرَجًا وَخُرْجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْدًا، وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ!«.

— لم يشأ رسول الله ﷺ أن يستشير أصحابه في أمر الصلح، فقد أحس أنهم لن يقبلوا من قريش هذا التشدد، وأنهم سوف يرفضون الصلح ويعارضونه؛ ولهذا فقد أمضى ﷺ الصلح على رغمهم، ولقد ثار عمر بن الخطاب ؓ فأسكنه رسول الله ﷺ، وثار أسيد بن حضير وسعد ابن عباد وغيرهما حين اعترض سهيل على كلمة محمد رسول الله ﷺ، ورأوا أن يلجأوا إلى السيف، فأعادهم رسول الله ﷺ إلى هدوئهم، وغضب المسلمون كيف يردون للمشركين مسلماً، وأقنعهم رسول الله ﷺ بوجهة نظره.

لقد كان الهدف في نظر رسول الله ﷺ أسمى من أن يضيع تحت أي ظرف، فاهتم به وحرص عليه مؤكداً ما قاله لأصحابه حين قالوا «خَلَأْتُ الْقُصُوءَ»، قال «مَا خَلَأْتُ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي فُرَيْشُ الْيَوْمِ إِلَى خُطَةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

[العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٣٧-٣٣٨].

ويقول د/ عشقي: «كانت المعاهدة تخدم خطة (إستراتيجية) لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، لقد تعرض ﷺ إلى حرب إبادة في غزوة أُحُد، وفشلت قريش، ثم حرض اليهود قريشاً وبعض القبائل من نجد فكانت غزوة الأحزاب، لكن الله ﷻ شتت شملهم.

كان لابد من تعامل النبي ﷺ مع ثلاث جبهات، وبالمعاهدة، حَيْدَ ﷺ الجبهة الجنوبية، وبالهجمات المتتالية شتت القبائل في الجبهة الشرقية.

لقد هيأت المعاهدة الفرصة للنبي ﷺ للقضاء على قاعدة التحريض والإمداد في خيبر، حيث كان اليهود يستعدون قريشاً والقبائل على رسول الله ﷺ ويمولونهم بالمال، ويمدونهم بالسلاح. لقد دمر ﷺ قاعدة خيبر وصادر ما فيها من أموال، وعتاد وقضى على بقية الجيوب اليهودية في فذك، ووادي القري، وتيباء، ثم أخرج اليهود من جزيرة العرب إلا من تطلب الأمر بقاءه لخدمة الزراعة.

لقد حقق ﷺ مبدأ من أهم مبادئ الحرب، وهو المحافظة على الهدف، لقد حافظ ﷺ في البداية على الهدف، ألا وهو زيارة البيت العتيق، فتجنب الاشتباك مع القوات التي بعثها قريش لاعتراضه قريشاً من عسفان، وكانت عبارة عن مائتي فارس بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل رغم أنه استشار أصحابه فاشأروا عليه بمناجزتهم، وهذا يعطي الدلالة على أن الشورى ملزمة بأدائها، وغير ملزمة في الأخذ بها إذا رأى الحاكم أو القائد غير ذلك، لم يكن هذا الدرس قاصراً على المسلمين، بل كان درساً لفقهاء الإستراتيجية، لقد أخذوا به؛ لأنهم كانوا أقرأ لغزوات الرسول ﷺ من غيرهم.

كما أن رسول الله ﷺ لم يخضع للاستفزازات القرشية التي كانت تدفعه إلى الحرب، لتؤكد للعرب أنه ما جاء إلى البيت إلا مقاتلاً ومعتدياً». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٤٤٣-٤٤٤].

## ٥ - الضبط<sup>(١)</sup>:

يقول ل/ خطاب: «لا أكاد أقرأ تفاصيل غزوة (الحديبية) كما ترونها كتب السيرة، إلا وأهتف من صميم نفسي: ما أعظم الضبط الذي كان يتحلّى به الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ حينذاك.

لم يكن موقف الرسول ﷺ والمسلمين سهلاً أثناء مفاوضات الهدنة وبعدها حتى عودتهم إلى المدينة المنورة، فقد كان الرسول ﷺ يعرف أهدافه القريية والبعيدة ويعمل لتحقيقها بصبر وأناة وإصرار ولكن كيف السبيل إلى إفهام كل تلك الأهداف للمسلمين في مثل تلك الظروف؟

أما المسلمون فما أصعب موقفهم!

لم يكن أحد منهم يشك في دخول مكة، فانهارت آمالهم أثناء المفاوضات.

ولم يكن أحد يفهم ما يبرّر الهدنة، فشاهدوا هذه الهدنة تصبح أمراً مفروغاً منه.

(١) الضبط: اصطلاح عسكري يقصد به الحالة العقلية التي تساعد الفرد على عمل واجبه باعتبار أنه ملزم بأدائه سواء كان مراقباً أو غير مراقب، أو القدرة على حبس بعض الانفعالات غير الاعتيادية كالخوف والغضب والجوع... إلخ، وإنجاز العمل المطلوب بحرص وأمانة وإخلاص في الحالات الصعبة.

وكانت عقيدتهم تطغى على كل شيء سواها، فوجدوا إخوانهم المستضعفين من المسلمين يُردُّون إلى المشركين ليفتنوهم عن دينهم.

ولو كان المسلمون ضعفاء أو يشعرون بالضعف لهان الخطب، ولكنهم كانوا أقوياء مادياً ومعنوياً، فكيف يقتنعون بالهدنة في شكلها وأسلوبها الذي كان؟

بينما كان الرسول ﷺ يكتب عقد الهدنة، جاء إلى المسلمين أبو جندل - وهو ابن سهل بن عمرو ممثل قريش في المفاوضات - يرسف في الحديد، فقد اعتنق الإسلام فلقي العذاب من أهله المشركين.

فلما رأى سهيل ابنه ضرب وجهه وجعل يجره ليرده إلى قريش، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: (يا معشر المسلمين، أُرِّد إلى المشركين يفتنونني عن ديني)!

ليس من السهل احتمال المسلمين لمثل هذا الموقف حينذاك.

ولكنهم احتملوه صابرين، على الرغم من بعض التذمر الخافت الذي كان يخالج بعض نفوس المسلمين، والذي كان يثيره حرصهم الشديد على عزة الإسلام.

إن ضبط الرسول ﷺ أعصابه أثناء المفاوضات وبعدها على الرغم من تذمر بعض المسلمين.

وضبط المسلمين أعصابهم في مثل ذلك الموقف على الرغم من حق بعضهم على المفاوضات والهدنة،

كل ذلك يدل على تحلي المسلمين حينذاك بالضبط المتين بشكل يدعو إلى الإعجاب الشديد.

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٢-٢٨٣].

## ٦ - الإصرار على تحقيق السلام في عهد الحديبية:

يقول د/ عبد السلام: «لقد جعل الله مكة مكاناً آمناً وحرم فيها القتال، وجعل أول بيت لعبادته فيها،

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران)، ومع ذلك، ورغم أن

البيت مفتوح لكل الناس يأتون إليه في كل وقت، فإنه بالنسبة للمسلمين عكس ذلك فقد صدتهم قريش

عن الدخول فيه دون سائر الناس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَرَمِ فَقَالَ فِيهِ قُلُوفٌ قَتَلُ

فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ

وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ

فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة)، ويقول

تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءُ يَعْبُدُوكُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَئَاؤُهُ إِلَّا الْغَافِقُونَ

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ

حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال).

فالمسلمون لا يبدأون أحدًا بقتال، لكن إذا كانت قريش قد صدتهم عن المسجد الحرام وأخرجتهم منه، فإن للمسلمين أن يدافعوا عن حقهم في الصلاة في المسجد الحرام، ولو أدى الأمر إلى قتال من يمنعهم ويصدهم عنه، ولو كان ذلك في الأشهر الحرم.

ومع ذلك، ففي الحديبية لم يكن الرسول ﷺ ولا المسلمون يرغبون في قتال، وإنما كانوا يريدون العمرة فحسب، وكسر الحصار المضروب عليهم للدخول في البيت الحرام... كان المسلمون محرمين، وكانوا يسوقون الهدى، ومع ذلك عندما علمت قريش بمقدمهم، استعدوا لمنعهم بالقوة، ووضعوا أمامهم الفرسان، ورأى الرسول ﷺ أن عليه - لكي يدخل مكة - أن يقتحم هذه الجنود المترابطة، ولكن لرغبته ﷺ في السلام، رأى أن يتخذ طريقًا آخر لا يواجه جيش قريش، ودله بعض أصحابه على طريق وعر وصعب، وهو طريق الحديبية، ومع ذلك بدأت الرسل بينه ﷺ وبين قريش، هنا ينقل عنه ﷺ قوله: «يَا وَنَحْ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ»، وبالفعل أرسلت قريش سهيل بن عمرو إلى محمد ﷺ بهذه الخطوة، وقبلها ﷺ بكل ما فيها من شروط مجحفة، أقلها عودة المسلمين من عامهم هذا إلى المدينة دون أن يؤدوا العمرة، وعودتهم في العام المقبل ليس معهم إلا السيوف في جرابها، وأكثرها إجحافًا: أن مَنْ جاء محمدًا ﷺ بغير إذن وليه رده إلى قريش، وعدم رد قريش مَنْ يأتيها بدون إذن محمد ﷺ.

ومع تعاظم غضب المسلمين من هذه الشروط المجحفة، بل رفض بعضهم اتباع أوامر النبي ﷺ، دخل ﷺ إلى خيمة زوجته أم سلمة غاضبًا حزينًا، يقول لها: «عَجَبًا يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إِنِّي قُلْتُ لِلنَّاسِ انْحَرُوا وَاحْلُقُوا وَحَلُّوا مَرَارًا، فَلَمْ يُجِبْنِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى ذَلِكَ، وَهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامِي وَيَنْظُرُونَ فِي وَجْهِ». أقول: رغم ذلك نزلت سورة الفتح التي اعتبرت أن السلام الذي تحقق في الحديبية نصر كبير، وفتح مبين، يقول تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح].

ويعطينا عهد الحديبية مجموعة من أخلاقيات الحرب المهمة، نذكرها فيما يلي:

(١) عدم الدخول في الحرب مع العدو كلما كان ذلك ممكنًا، وعليه: يجب بذل كل الجهد لتفادي الدخول في الحرب، يقول ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَعَلِّمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ». [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦، ٣٠٢٤، ٣٠٢٦)، وفي التمني (٧٢٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤١، ١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، والدارمي في السير (٢٤٤٠)، وأحمد عن أبي هريرة، وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه].

(٢) الانصياع لأية خطط تؤدي إلى تحقيق السلام، وعدم الدخول في الحرب، حتى لو تمت تنازلات يمكن احتلالها.

(٣) اتباع كافة الطرق التي تؤدي إلى تجنب سفك الدماء، ولو نتج عن ذلك متاعب للجيش الإسلامي.

(٤) أن مزايا السلام تفوق دائماً مزايا الحرب، في كل زمان وفي كل عصر.

(٥) أن مسالة العدو والتعاقد معه لتجنب الحرب وتجنب إراقة الدماء من الأمور المشروعة، بل المستحبة في الإسلام.

(٦) أنه يمتنع قتل رسل السلام التي يرسلها أحد الطرفين للآخر للتفاوض للصلح أولاً، أو لأي هدف سلمي آخر، وأن جزاء قتل الرسل يمكن أن يكون الحرب، والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ قد أخذ بيعة الرضوان من المسلمين الذين كانوا معه، عندما أشيع أن رسوله إلى قريش (عثمان بن عفان ؓ) قد قُتل». [أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية لعبد السلام ١٧٧-١٧٩].

#### ٧ - الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>:

يقول د/ عويس: «كان الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بأن قريشاً لن تغزوهم في المدينة بعد الخندق، وقد كانت مشاعر المسلمين - لا سيما المهاجرين - قد تأججت تهفو لزيارة مكة البلد الحرام، وطن المهاجرين الذين طالت غربتهم واشتد حنينهم.

إنهم يعيشون منذ ست سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرج قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها، وخابت كل جهودها، وضاعت كل أحلامها، وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة.

**صلح الحديبية:** يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه بالعمرة؛ ولهذا خرج الرسول ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القرب، وقد وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠ أو ٦٠ كم تقريباً، وقد عمد الرسول ﷺ إلى اتخاذ كل السبل ليقتنع أهل مكة بأنه جاء مُعتمرًا، ولم يأت محاربًا، ومع ذلك فقد رفضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام، إلا أن الرسول ﷺ حافظ على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن.

لقد اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحديبية، وأمر أصحابه بالتوقف، على الرغم من إيمانه بنفسه

(١) ضمن مقال للدكتور عبد الحليم عويس - أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - مصر - مجلة حراء - العدد ٣ (أبريل -

وشجاعة أصحابه، كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفُضِّل الانتظار، وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تباع مع أصحابه، تباع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام، هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ (١٨) وَمَغَانِرَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ [الفتح].

والحقيقة أن قريشاً التي كانت تظهر أنها تملك الكعبة اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقَّعت عليها، كما وقع عليها الرسول ﷺ، إذ قالت للرسول ﷺ: «وانك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها غيرها»، ومعنى هذا أن المسلمين شركاء في الكعبة أيضاً، وأن لهم ديناً حنيفاً على ملَّة إبراهيم عليه السلام، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم.

[الرسول ﷺ قائداً: التنظير والتطبيق - لمحمد فتح الله كولن ص ١٤٢-١٤٣].

وبعد مفاوضات ظهرت فيها إساءات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وغضب لها أصحاب النبي ﷺ، وتغاضى عنها الرسول ﷺ إيثاراً للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين، وسرعان ما تبين للمسلمين أن إيثار الرسول ﷺ للسلام كان خيراً وبركة وفتحاً مبيناً.

لقد كان المفاوض من قبل قريش «سهيل بن عمرو» يعدُّ كل تنازل يقطعته من المسلمين نصراً كبيراً له؛ لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل؛ فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ علياً عليه السلام ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)»، فقال سهيل: «اكتب: باسمك اللهم»، فكتبها، ثم قال ﷺ اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول ﷺ لعلي عليه السلام أن يمحو كلمة «رسول الله» التي كان قد كتبها، وتردَّد علي عليه السلام، إذ صعب عليه محو كلمة «رسول الله»، فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلَّه على مكانها علي عليه السلام، وقال: «اكتب؛ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذنٍ وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّه عليه».

وقد قبل النبي ﷺ هذا الشرط الجائر لحكمة رآها، على الرغم من تبرُّم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهكذا يرينا صلح الحديبية بملاساته وشروطه المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يُراد لها الدخول إلى القلوب والعقول.

ومن البديهي أن مناخ الحرب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق، ولا على الحوار الإيجابي، وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا الصلح على ما فيه من إجحاف فتحاً مبيئاً، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح]. اهـ.

## ٨ - الحياد المسلح<sup>(١)</sup>:

يقول ل/ خطاب: «ما كاد عهد (الحديبية) يُبرَم حتى حالفت خزاعة محمداً ﷺ وحالفت بنو بكر قريشاً؛ فربح المسلمون حليفاً قوياً له أهمية خاصة لقرب دياره من قريش».

لقد كانت خزاعة تميل قلبياً إلى المسلمين قبل اليوم، وكان الإسلام قد انتشر بين أفرادها، ولكنها لم تستطع أن تحالف المسلمين قبل هذه الهدنة؛ لأن ذلك يهدّد مصالحها الدينية لوجود البيت الحرام بمكة التي تسيطر عليها قريش، هذا بالإضافة إلى تهديد مصالحها الأخرى.

والهدنة حرمت يهود (خيبر) من الأمل في معونة قريش لها، وقريش هي ألد أعداء المسلمين، وذلك حين يأتي موعد محاسبة المسلمين ليهود.

والهدنة جعلت المنطقة الجنوبية (جنوب المدينة) أمينة بالنسبة للمسلمين، وكانت هذه المنطقة أخطر ما يهدد الدعوة؛ لأن فيها قبائل قوية ذات حضارة وعقيدة، بينما كانت قبائل الشمال حتى حدود العراق والشام بدوية ممعنة في البداوة.

فإذا أمنت هذه الهدنة الاستقرار الذي جعل الإسلام ينتشر بسرعة فائقة، وأمنت القوة والمنعة للمسلمين، فماذا أمنت لقريش؟

توخت قريش أهدافاً سطحية دفعتها إليها العصبية الجاهلية: هي ردُّ المسلمين عن زيارة البيت الحرام هذا العام ليعودوا لزيارته في العام المقبل، وردُّ الذين يسلمون من قريش بدون رضی أوليائهم، حتى لا

(١) الحياد المسلح: معنى الحياد في القانون الدولي: الحالة القانونية التي توجد فيها الدولة التي لا تشترك في حرب قائمة وتستبقى علاقاتها السلمية مع الطرفين المتحاربين، والحياد المسلح كالحياة العادي، إنما يتميز عن الحياد العادي بما يصدر عن الدولة المحايدة، من إعلانها عزمها على استعمال القوة للمحافظة على حيادها ومنع الدول المحاربة من الإخلال به.



يكثر عدد المسلمين، وأن ينالوا بهذه الهدنة الاستقرار ليتفرغوا لتجاريتهم، وهذا هدف حيوي بالنسبة لقريش.

**فماذا كانت النتيجة؟** وفد أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية رضي الله عنه من مكة إلى المدينة مسلماً بغير رأي مولاة، وهو ثقيفي حليف لبني زهرة، فكتب أزهر بن عوف والأحنس بن شرق إلى النبي ﷺ كي يرده، وبعثا بكتابها مع رجل من بني عامر ومعه مولى لها.

قال النبي ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرَ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْعُدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَتَحَرَّجًا، فَأَنْطَلِقُ إِلَى قَوْمِكَ».

قال أبو بصير رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُرَدِّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟».

فكرر الرسول ﷺ عليه القول الأول.

انطلق أبو بصير رضي الله عنه مع الرجلين، فقتل العامري، وعاد إلى النبي ﷺ فقال له ما قال.

ولم يخف الرسول ﷺ إعجابه به وتمنيه لو كان معه رجال، وقال النبي ﷺ لأصحابه عن أبي بصير رضي الله عنه: «وَيْلٌ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

أدرك أبو بصير رضي الله عنه أنه لا مقام له في المدينة، ولا مأمّن له في مكة، فانطلق إلى ساحل البحر إلى ناحية تدعى (العيص) موضع من ناحية ذي المروة على ساحل البحر الأحمر بطريق قريش التي كانوا يسلكونها إلى الشام في تجارتهم)، وشرع يهدد قوافل قريش المارة بطريق الساحل أهم طرقها إلى الشام.

وسمع المسلمون بمكة عن مقام أبي بصير رضي الله عنه، وعن كلمة الرسول ﷺ فيه: «وَيْلٌ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، فاجتمعوا حول أبي بصير رضي الله عنه في مكمنه يشدون أزره، حتى اجتمع إليه قريب من سبعين مسلماً، فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنه.

وألّف هؤلاء المعذبون في الأرض الناقمون على المشركين المستقتلون في سبيل عقيدتهم، الذين لا ملجأ لهم إلا سيوفهم، وقد فروا من أهلهم وأموالهم بعقيدتهم وإيمانهم، وألّف هؤلاء قوة مغاوير (جمع مغوار، والمغوار هو الفدائي) لا تمر قافلة لقريش إلا اغتتموها ولا يرون رجلاً من قريش إلا قتلوه.

وإذا بقريش تبعث إلى الرسول ﷺ تسترحمه وتناشده الرّحم أن يؤوي إليه هؤلاء المسلمين الذين ضيّقوا عليها الخناق، فلا حاجة لها بهم.

وبذلك نزلت قريش طائعة عن الشرط الذي اعتبرته نصراً لها واعتبره المسمون شرطاً لا يناسب كرامتهم على أقل تقدير.

وهكذا حافظ المسلمون على عهودهم كلها، وانصرفوا إلى نشر دعوتهم، بينما استمر مشردو المسلمين في التعرض على قريش، هكذا بقي المسلمون محايدين وبقي الفارون بدينهم من قريش والقبائل الموالية لها مقاتلين، وبذلك تمَّ الحياذ المسلح في أقوى مظاهره للإسلام». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٤-٢٨٦].

#### ٩ - تكوين جماعات الفدائيين:

يقول عميد / فرج: «إن جماعة أبي بصير ﷺ لها نظائر في حرب اليوم. فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن دينها، وتعطيل مسيرة العدو، وهي بهذه المهمة تشبه جماعات الفدائيين التي تشكل جانباً هاماً في جيوش اليوم، فهذه الجماعات تكلف بمهام ضد العدو، تصيب مواقعه، وتقتل رجاله، وتعطل مواصلاته، وتثير الرعب في صفوفه، وتُفقد القدرة على السيطرة على نفسه وعلى الموقف، وتحطم اقتصادياته، وتزلزل معنوياته، وتشل تفكيره، وتجبره على موقف يرى فيه الاستسلام أمناً. إذن فمن وجهة النظر العسكرية يمكن أن نطلق على جماعة أبي بصير ﷺ باسم الفدائيين، فإن الدور الذي قامت به هو ذات الدور الذي يقوم به فدائيو اليوم، ولقد نجحت هذه الجماعة الفدائية في تحقيق رسالتها وبلوغ أهدافها، وليس أدل على نجاحها من أن قريشاً قد اعترفت بخطورة مهامها «إن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره»، وطلبت حمايتها منهم، وتنازلت عن شرط كانت تتشدد في طلبه بعد جحودها العاتي وعدائها المر». [العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٤١].

#### ١٠ - أهمية اختيار مكان الانطلاق:

يقول د/ أبو فارس: «إن القارئ الكريم يلاحظ أن أبا بصير ﷺ حينما أدرك أن الرسول ﷺ لن يسمح له بالبقاء في المدينة وفاء بالعهد الذي قطعه للمشركين، ذهب إلى مكان يقال له العيص ونزل به، وهو بالقرب من الساحل على الطريق الذي تمر به قافلة قريش الذاهبة إلى الشام. وهذا الطريق في غاية الأهمية بالنسبة للاقتصاد القرشي، فهو يعتمد على رحلتين إحداهما في الشتاء إلى اليمن والثانية في الصيف إلى الشام، فنصف الاقتصاد القرشي يعتمد على هذا الطريق كما ترى. ولقد اختار أبو بصير ﷺ هذا المكان القريب من الساحل حتى تكون قوافل قريش تحت مرمى أبي بصير ﷺ ومن معه، فكان له ذلك، كما مر معك عند سرد قصة أبي بصير ﷺ. إن الذي يجدر ذكره هنا أن قريشاً قد عقدت الصلح مع الرسول ﷺ لتأمن في تجارتها، حين تذهب إلى الشام، وحين تذهب إلى اليمن، وهذا الذي رغبها في عقد الهدنة، فاشترطته ونصت عليه. إلا أن أبا بصير ﷺ ومن معه قد فوّتوا على قريش تحقيق هذا الغرض باختيارهم مكان انطلاقهم هذا، وتصديهم لقوافل قريش التجارية المارة منه، فيقتلون من في القافلة ويستولون عليها، مما أثر على الاقتصاد

القرشي وعرضه لهزات قوية كادت تعصف به، فتداركوه بإلغاء هذا الشرط الذي ظنوه نصرًا لهم وغلبة، ذلكم عدم قبول مَنْ يلجأ من المسلمين من مكة إلى الرسول ﷺ.

إنهم كانوا فدائيين أدوا مهمتهم، وحققوا هدفهم، وأرغموا عدوهم على الاعتراف بحقوقهم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٥٨-١٥٩].

## ١١ - كيفية التعامل مع الجبهات:

يقول د/ عشقي: «في غزوة الأحزاب اجتمع أحد عشر ألفًا من المشركين وزحفوا للقضاء على الدعوة الإسلامية، وتدمير مركزها بالمدينة المنورة.

حضر ﷺ الخندق ليوقف زحف الأعداء على المدينة، فأصبح المشركون ومن معهم على الطرف الشمالي من الخندق، وبقي النبي ﷺ وأصحابه على الطرف الجنوبي منه وتجمد الموقف.

بعث ﷺ من يُخَدِّل في صفوف المشركين، فشطر موقفهم، وصدع صفوفهم، فأرسل الله ﷻ عليهم ريحًا كفأت قدورهم وفتت أقدارهم، فعادوا من حيث أتوا.

تنبه الرسول ﷺ إلى العمل على كسر شوكة الكفار، لكنه وجد التهديد يحيط به من ثلاث جهات: جبهة شالية تتمثل في اليهود الذين سكنوا خيبر وتيماء وفدك ووادي القري، فكانوا قاعدة للتمويل بالمال والسلاح للأعداء، ومصدرًا لتحريض العداء على النبي ﷺ، وجبهة شرقية تتمثل في قبائل نجد تترعماها غطفان وبنو أسد وغيرهم، فكانوا وقود الحرب ورجالها الأشداء، وجبهة جنوبية، تضم كفار قريش وحلفاءها، تدفعهم مصالحهم، وتقودهم أحقادهم.

أراد ﷺ أن يجمد الجبهة الجنوبية ويحيدها لأنهم سادة العرب، ودخولهم في الإسلام خير، فمارس حقه المشروع في أداء العمرة بمكة؛ لأن في العمرة قربة إلى الله، ودعوة إلى الإسلام، وحوارًا مع كفار قريش.

لم يحمل رسول الله ﷺ وصحابه ﷺ إلا سلاح الراكب، ولم يرد الله أن يكون مع رسوله إلا المؤمنون، فامتنع المنافقين إلا عبد الله بن أبي، والجد بن عبد قيس، وما كانا مع جماعة العمرة، بل كانا على هامش الموكب الإيماني، لقد خاطب الله هذه الفئة في آيات الحديبية باسم المؤمنين، فكان تمييزًا لهم.

تحاشى النبي ﷺ خالدًا وفرسانه قرب عسفان، وعند الحديبية فجأ قريشًا بظهوره على مشارف مكة، ولم يشأ الله أن يدخلها عنوة؛ لأن قريشًا وقفت بقواتها أمامه؛ ولهذا بركت القصواء، ناقة رسول الله ﷺ فقال: «مَا خَلَأْتُ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ».

مارس المسلمون ضبط النفس، وبلغ بهم الصبر حتى النهاية، فكان الصبر من المسلمين والجور من المشركين، وبدأ الموقف في مكة يتصدع، وبدأ الحلفاء ينسحبون؛ لأن قريشًا خالفت قواعد العدالة العرفية.

أذن الله للمؤمنين بالبيعة، أخذها ﷺ منهم، وأثنى الله ﷻ على المبايعين، فأذنت قريش للحوار وأبرمت معاهدة الحديبية في مفاوضة لم يسبق لها مثيل.

تمخضت المفاوضات عن صلح بين الطرفين، تمسك فيها ﷺ بالمبادئ والقيم الإيانية، وترك لقريش ما يُرضي غرورها، تمسك ﷺ بحقه في العمرة، حتى لو كان ذلك في العام القادم، فأرغم قريشاً على الاعتراف بكيانهم السياسي في المدينة، ومع هذا الاعتراف اعترف العرب جميعاً بدولة الرسول ﷺ ودعوته، فتوافد العرب يبائعون، ويسلمون.

أتاح الله ﷻ هذه المعاهدة الفرصة لانتشار الدعوة الإسلامية داخل الجزيرة العربية وخارجها، كما أتيحت الفرصة لتجميد قريش، وإخراجها من حلبة الصراع، فتفرغ ﷺ لتصفية بقية الجهات، وكأن إسرائيل إستأنست بذلك في هذا العصر.

اكفى ﷺ بإرسال بعض السريا والدوريات القتالية للجبهة الشرقية؛ لتمزيق صفوف القبائل النجدية، وتفريق تجمعاتهم، وبث الرعب في قلوبهم، وتفرغ لتدمير القواعد في خيبر، وفدك، وتيما، ووادي القرى، في الجبهة الشمالية.

ما إن فرغ ﷺ من تصفية القواعد اليهودية حتي بعث بالرسائل إلى ملوك وأباطرة العصر، وبهذا نقل النبي ﷺ الدعوة من الإقليمية إلى العالمية.

أدى ﷺ عمرة القضاء، فكانت احتكاكاً فكرياً مع قريش، وهذا الاحتكاك أدى إلى بث الرعب، والضعف، في قلوب المشركين، واجتذب الكثير ممن أدركوا حقائق الأحداث، فأسلم خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة رضي الله عنه، حال عودته ﷺ إلى المدينة فدخلوا في زمرة المهاجرين. نقضت قريش المعاهدة عندما أعانت حلفاءها من بني بكر، على حلفاء الرسول ﷺ من خزاعة فقتلوه عند «الوثر» وطاردوهم حتى دخلوا مكة المكرمة، ولم يراعوا حرمة البيت، حتى حال العقلاء من قريش دون إبادةهم». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٣٨٨-٣٩١].

التعامل مع الجبهة الشمالية: ما إن صودق على المعاهدة حتى عاد النبي ﷺ وقد أمن الجبهة الجنوبية، فتفرغ لمصدر التحريض وقاعدة التمويل في خيبر، فأخرج منها اليهود، واستبقى من كانت لديهم الخبرة في إدراك الأراضي الزراعية، وكذلك فعل مع بقية الجيوب اليهودية في فدك ووادي القرى وتيما.

لقد كانت الجبهة الشمالية تتكون من اليهود، ثم القبائل العربية المنتصرة ثم الروم، بعد أن قضى ﷺ على هذه الجيوب، مارس حقه مع من شاء من المسلمين في أداء عمرة القضاء، فكان لها أبلغ الأثر في قريش التي دب في أهلها الوهن، فألقت إليه بفلذات أكبادها حين جاء عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة رضي الله عنه، يعرضون إسلامهم ويبائعون النبي ﷺ.

نقل ﷺ الدعوة من الإطار القومي إلى الإطار الدولي، فبعث بالرسائل إلى ملوك وأباطرة ذلك العصر فأسلم البعض منهم، وأعرض البعض الآخر، وتردد هرقل ملك الروم، ففي الوقت الذي تأكد هرقل من نبوته ﷺ، وتمنى أن يغسل قدمي رسول الله ﷺ خشبي على ملكه ففضّله على الإسلام.

لقد قتل شرحبيل بن الحارث بن عمير الأزدي الغساني الحارث بن عمرو الأزدي، مبعوث النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر، وكان شرحبيل أمير تابعاً للحارث، فكان ابن عمير المبعوث الوحيد الذي قتل للنبي ﷺ.

ثم جاء قتل جماعة الحارث بن أبي شمر، لخمسة عشر من الصحابة الدعاة قرب المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير مما زاد من غضب الرسول ﷺ، فأرسل ﷺ الجيش لقتال الروم وحلفائهم في مؤتة. القتال في مؤتة: خاض الجيش الإسلامي الذي لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، معركة من أخطر المعارك التاريخية أمام مائتي ألف مقاتل بكامل العدد والعدة، نصفهم من العرب المنتصرة، ونصفهم من الروم النصارى.

استمرت المعركة ستة أيام، وعندما قُتل القائد الإسلامي الثالث عبد الله بن رواحة ؓ، تلقى ثابت بن أرقم ؓ الراية وسلمها إلى خالد بن الوليد ؓ، بعد أن اصطاح عليه المسلمون، فكانت المرة الأولى التي تحمّل فيها خالد مسؤولية الراية الإسلامية.

أعاد خالد بن الوليد ؓ الانضباط للصفوف الإسلامية كما أعاد للمسلمين الثقة حتى انقضى النهار. أخذ خالد ؓ يعيد تنظيم قواته فعمد إلى الخديعة، لقد قرر خالد ؓ الانسحاب، لكنه رأى أن الانسحاب تحت جنح الظلام قد يغري الروم على اللحاق بهم ومطاردتهم إلى المدينة، فيهدون القاعدة الرئيسة للإسلام.

قرر خالد ؓ أن ينازل الروم في اليوم السابع، ويشد عليهم حتى يبيت الفرع في نفوسهم، ويدفعهم إلى التراجع إلى الخلف عندئذ يكون له المبرر بالانسحاب، بعد أن يكون قد زرع في قلب الروم الوهم بأنه قد يظهر عليهم من أي مكان، فما كان من الروم إلا أن فضلوا العودة إلى ديارهم خشية المكيدة.

لقد أعاد خالد ؓ تنظيم القوات الإسلامية فقام بالتبديل بين الميمنة والميسرة والقلب، فواجه الروم في كل قطاع بوجوه لم يألّفوها خلال الأيام الستة الماضية، مما ولّد لديهم الاعتقاد بأنها قوات جديدة. قام خالد ؓ بترشيح بعض الفرسان ووزعهم في فصائل عدة وجعلهم في مكان خلف المعسكر، وطلب منهم أن يهجموا في فترات متقاربة بعد أن يثيروا الغبار والأتربة، ويرفعوا أصواتهم بالتهليل، ثم يشنوا الهجوم على صفوف الأعداء من عدة أماكن.

هذه الخطة التكتيكية استلمها روميل القائد الألماني الشهير في شمال أفريقيا ضد القوات البريطانية. ما إن انتهى اليوم السابع من المعركة حتى تراجع الرومان ودب الفرع في قلوبهم، وكادوا يسلمون إلى الفرار، وقد انسحبت بعض القبائل العربية، فضلت القيادة الرومانية التراجع وتحقيق بفضل الله ما كان يرجوه خالد عليه السلام.

انتهز خالد بن الوليد عليه السلام الفرصة، وانسحب إلى المدينة المنورة، انسحاباً منظماً ولمسافة لا تقل عن سبعمائة ميل، فكان أول انسحاب منظم تشهده جزيرة العرب، وكان درساً في الفنون العسكرية انتفع به كبار القادة في التاريخ.

لهذا لم يكن رسول الله ﷺ ليرضى أن يحثوا أهل المدينة التراب في وجوه الجيش، ويطلقوا عليهم الفرار، فقال ﷺ: «إنهم الكرار وليسوا بالفرار»، ومنح على ذلك وساماً معنوياً لخالد عليه السلام، فكان سيفاً من سيوف الله.

اللقاء في السلاسل: كانت قبيلة قضاة، من أشد القبائل عداوة للإسلام في الجبهة الشمالية، وقضاة جيل من العرب، كان لهم وجود في الشام قبل الإسلام.

قال البعض: بأنهم من نسل حمير القحطانيين فاستبعد الكثير من المؤرخين ذلك؛ لأن حمير وبعض القبائل اليمنية تكونت نتيجة للتزاوج بين العرب والأحباش، فانفردوا بلون وقوام مغاير، فكانوا بين العرب والأحباش، لكن لغتهم العربية استقامت بعد الفتح الإسلامي، ومع هذا فإن لي تحفظاً على بعض ما جاء في هذا الرأي.

لقد كان القضاة قومًا من الرُّحْل وكانوا على علاقة مع تدمر، هذه العلاقة نشأت بفعل التبادل التجاري، وكانت بعض القبائل من قضاة، تشكل عنصرًا هاماً في جيش زينوبيا الزباء، قهرت بهم الرومان حتى طرقت أبواب القسطنطينية، ثم قهروها فقضوا على ملكها، كان هؤلاء من بني سليم وحلوان.

كان القضاة ملوكًا في الشام، فكانوا يتبعون الرومان، يجمعون لهم الضرائب ويجندون لهم الجند لمساندتهم في الحروب، كما كانوا يشكلون مانعاً من الهجمات العربية على الحدود الرومانية.

كانت قضاة تسيطر على شريط ضيق يمتد على كامل الحدود الشمالية للجزيرة العربية، فهي تشمل مناطق مؤتة ومعان ومؤاب؛ لهذا كان يُطلق على قضاة، مشارف الشام، وتُعرف اليوم بلواء الكرك والبلقاء.

تعاقبت على حكم قضاة عائلتان هما الصجاغمة وتنوخ، فكان أشهر من حكم من الأسرتين: النعمان بن عمرو.

عُرف القضاة بالصلابة، كما عرفوا بالقدرة القتالية المتفوقة، ورغم اعتماد الرومان عليهم في القتال، إلا أنهم ألحقوهم بالغساسة، فكانوا القضاة يشكلون القوة الرئيسية في معركة مؤتة ضد المسلمين. لم يكن الرسول ﷺ ليرتك قضاة دون عيون تنقل له الأخبار، فما مضى نصف شهر، حتى طرق الخبر مسامع النبي ﷺ، من أن قضاة تعتزم القيام بغزو المدينة المنورة.

كان يحذوها إلى ذلك، مصرع بعض قادتها في مؤتة، وعلى رأسهم مالك بن رافلة، كما كان لإيعاز الرومان لهم بالتخلص من القوة الإسلامية بالمدينة سبباً آخر للإعداد.

جرد الرسول ﷺ حملة إلى ديار قضاة، فعُرفت بغزوة ذات السلاسل، كان ذلك في جمادى الآخرة من السنة الثامنة للهجرة، فكانت امتداداً لمعركة مؤتة.

كانت الإستراتيجية النبوية تعتمد على مفاجأة العدو قبل أن يتحرك لعدوانه، ونقل المعركة إلى دياره، فيزلزل أوصالهم، ويوقع الرعب في قلوبهم.

سار الجيش بقيادة عمرو بن العاص ؓ، فقال له النبي ﷺ: إني أريد أن أبعثك على جيش، فيغنمك الله ويسلمك، فقال عمرو ؓ: إني لم أسلم رغبة في المال، قال ﷺ: نعم المال الصالح للرجل الصالح.

كان جيش عمرو يضم سراة المهاجرين والأنصار، فكان من بينهم: أبو بكر الصديق، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن نفيل ؓ، كما كان فيه سادة الأوس والخزرج: أسيد بن حضير، وعبد بن بشر وسلمة بن سلامة، وسعد بن عباد ؓ.

كان معه من المقاتلين ثلاثمائة مقاتل، ومن الفرسان ثلاثون فارساً، ما إن سار الجيش عشرة أيام حتى بلغ قريباً من ديار الأعداء، فنزل على ماء يُقال له السلاسل.

تلقى عمرو بن العاص ؓ من عيونه التي بثها، عظم الجيش الذي أعده الأعداء من قبائل قضاة وبلى وعذرة والقين، فقرر التريث وطلب المدد.

جاءت النجدة من المدينة المنورة وعلى رأسها أبو عبيدة عامر بن الجراح ؓ، وفيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وقد أوصى ﷺ أبا عبيدة بعدم الاختلاف مع عمرو.

رفض عمرو إمامة أبي عبيدة في الصلاة قائلاً له: أن الأمير وإنما أرسلك النبي ﷺ مدداً لي، ورفض الاقتراح بأن يكون أبو عبيدة أميراً، وعمرو بن العاص أميراً، فقال أبو عبيدة ؓ: لقد قال لي رسول الله ﷺ: «إذا قدمت على صاحبك فتطاول ولا تختلفا» وإنك والله يا عمرو لئن عصيتني لأطيعنك، وتسلم عمرو الإمامة والقيادة للجيش.

بهذا الانضباط، وهذه الأخلاق، استطاع المسلمون قهر أعدائهم ونشر الإسلام في كل مكان، وليس هناك قاهر للأعداء كالصبر وحسن الخلق.

لقد كان من حكمته ﷺ أن ولَّى عمرو بن العاص القيادة، وهو حديث عهد بالإسلام، ولم يمض عليه أربعة أشهر؛ لأنه جاء إلى النبي ﷺ مؤمناً، كانت الحكمة تتجلى في قدرة عمرو بن العاص على المناورة، كما كانت لقبائل بني خؤولة لوالده، فكان عمرو قائداً لمن هم أفضل منه، فتقرر جواز ولاية الفضول مع وجود الأفضل.

لقد أصبحت قوات عمرو ﷺ خمسمائة مقاتل فشرع في مهاجمة الأعداء، واجتاح ديارهم الواحدة بعد الأخرى، وشتت جموعهم، فكان ينقض عليهم كالقضاء المنزل من حيث لا يشعرون، فهربوا إلى الجبال والسهول، وتركوا أموالهم غنائم للمسلمين، ثم أقام في ديارهم أياماً ليثبت لهم قوة الإسلام، فكانت غزوة تاديبية لقضاة.

سبقت أخبار النصر إلى رسول الله ﷺ فكانت سعادته بالغة، لقد أقر ﷺ عمرو بن العاص في تصرفاته العسكرية والفقهية، حيث اجتهد فصلى بالناس وهو جنب بعد أن تؤضاً لأنه خشي من الموت إن اغتسل بالماء، وقد امتنع عن إشعال النيران خشية مهاجمة الأعداء له، ونحزهم لقوته. لقد كانت معركة مؤتة وذات السلاسل بداية لتكوين المنظومة الإستراتيجية داخل الجزيرة العربية، بعد أن كانت المدينة تشكل قاعدة للإنطلاق.

فالجزيرة العربية أصبحت هي المنظومة الإستراتيجية، فما مات رسول الله ﷺ حتى انتهى منها، فكانت معقلاً للمسلمين، وقلعة إستراتيجية لهم، فأمر ﷺ أن تُطهر من بقية الأديان، وأن تبقى منيعة ضد الغزاة، ومأمناً للمسلمين في شرق الأرض وغربها. [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٣٢٧-٣٣٤].



## المبحث السادس

### الدروس الدعوية والإعلامية

#### ١ - مجارة العدو في بعض ما يريد لتحقيق مصالح الدعوة:

يقول د/ زيدان: «رأينا أن مندوب قريش في معاهدة صلح الحديبية أصر على كتابة (باسمك اللهم)، بدلاً عن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وأن يكتب اسم النبي ﷺ واسم أبيه دون ذكر محمد رسول الله، فوافق رسول الله ﷺ، حتى أنه أمر علي بن أبي طالب عليه السلام بمحو ما كتبه من (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، و(محمد رسول الله)، وأن يكتب بدلها ما أراده مندوب قريش سهيل، أي (باسمك اللهم)، و(هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله)، ولا أن هذه المجارة لرغبات سهيل كانت ضرورية لإتمام عقد الصلح الذي فيه مصلحة كبيرة للمسلمين، يهون معها مجاراتهم فيما طلبوه، وهي شيء لا يغير من الحقيقة شيئاً، وهي أن محمداً هو رسول الله حقاً ﷺ، وإن أنكر المشركون.

وعلى هذا فعلى الدعاة أو جماعتهم أو أميرهم أن لا يصروا على أشياء لا تنفي الحقيقة، أو لا تؤثر في جوهر الدعوة، وليس فيها إقرار بمنكر، في سبيل تحقيق مصالح كبرى للدعوة، وعليهم الاستهداء بمسلك رسول الله ﷺ في مجاراته بطلبات المشركين؛ لتحقيق الصلح الذي فيه مصلحة للمسلمين، فيجَارُوا خصوم الدعوة بتلبية بعض مطالبهم ورغباتهم في سبيل تحقيق مصالح مؤكدة للدعوة وإيجاد المجال المريح لنشر الدعوة». [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢/ ٣٦٢].

#### ٢ - مصالح الدعوة لا تُقاس بمصالحها الآنية بل بها وبالمستقبلية:

يقول د/ زيدان: «إن مصالح الدعوة الحقيقية لا تُقاس بمصالحها الآنية دون نظر إلى عواقب الأمور، وما تؤل إليه من مصالح مؤكدة في المستقبل، أو من أضرار تقع في المستقبل إذا أراد تحقيق مصالح آنية؛ ولهذا ضاقت صدور بعض المسلمين، أو كثير منهم من صلح الحديبية لما ظنوه من إجحاف في حقوقهم، وتجاوز عليها، ومن مهانة حلت بهم في منعهم من أداء العمرة في عامهم ذلك، ومرد ذلك أنهم لم يمتد نظرهم إلى مستقبل هذه المعاهدة - معاهدة الصلح مع قريش - وإيقاف الحرب معها لمدة عشر سنوات، وما يترتب على ذلك من مصالح مؤكدة للإسلام، وهذا هو ما لاحظته رسول الله ﷺ وحمله على عقد تلك المعاهدة، التي نزل القرآن بشأنها، وجعلها فتحاً مبيناً للمسلمين.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن لا يجعّلوا تأكيدهم على مصالح الدعوة الآنية دون نظر إلى مصالحهم في المستقبل في سبيل تحقيق مصالح وافية؛ لأن قدر المصلحة تُقاس بمدى ضخامتها بذاتها وإن كانت آجلة، وعلى هذا إذا رأت جماعة الدعاة اتباع سياسة معينة، أو عقد مهادنة مع خصومها لما يرى من أن هذه المهادنة، أو السياسة تحقق مصالح عظيمة دلت القرائن والحسابات الصحيحة على احتمال تحققها احتمالاً

راجحاً، أقول فعلى الدعاة في هذه الحالة أن لا يعارضوا جماعتهم وقيادتهم فيها في سلوك هذه السياسة ما دام الشرع يبيحها ولا يمنعها». [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢/ ٣٦٢-٣٦٣].

### ٣ - تفويت مقاصد خصوم الدعوة:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن زعماء قريش وكبراءها أو معظمهم كانوا يريدون الصلح مع النبي ﷺ على أن يرجع في هذا العام ولا يعتمر، إلا أن بعض شباب قريش ومن ورائهم بعض رجال قريش كانوا لا يريدون هذا الصلح، فقاموا بتحركات بالمسلمين وبمحاولات الغارة عليهم، ولكن المسلمين صدوهم وأسروا كثيراً منهم، ولكن النبي ﷺ عفا عنهم وأرجعهم إلى مكة، وهكذا بهذه السياسة الحكيمة من رسول الله ﷺ فوّت على ذلك النفر مقاصدهم الخبيثة في إفشال توجيه قريش إلى عقد الصلح مع المسلمين.

فعلى الدعاة وعلى جماعتهم إذا ارتضوا مع خصومهم سياسة معينة في علاقاتهم فيما بينهم، فقد يقوم بعض أنصار الدعاة أو بعض خصومهم باستفزاز جماعة الدعاة؛ ليحملوها على القيام بأعمال تفسد السياسة التي ارتضوها، وبالتالي عدم الالتزام بها، والسبيل إلى إفشال مثل هذه المساعي صبر الجماعة على تحركات بعض خصوم الدعوة، وتفهم الجماعة أنصارها بضرورة ضبط أعصابهم، وعدم الرد على تحركات هذا النفر من خصوم الدعوة، وأن لا يقوموا هم ابتداءً بما يُفسد هذه السياسة على الجماعة؛ لاعتقادهم بأنها سياسة خاطئة لا تجوز». [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢/ ٣٦٣].

### ٤ - سنة الله التي لا تتغير:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح]، أي سنَّ الله سنة لا تتغير ولا تبدل، وهى أن الله ينصر أوليائه المؤمنين على أعدائهم. فعلى الدعاة أن يوضحوا ويبينوا ويكرروا هذا البيان وذاك التوضيح لهذه السنة الإلهية حتى يبعثوا الأمل في نفوس المسلمين، ويقنعوا من نفوسهم اليأس، ويذكروهم بما وعد الله به المؤمنين؛ لأن وعده لا يتخلف ويدخل في مضمون سننه في نصره للمؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ [غافر].

أي نصرهم في الدنيا والآخرة بأن يغلبوا أعداءهم في الدنيا بالحجة والبرهان وبالقتال، وإن غلب المؤمنون في بعض الأحيان؛ لتقصير منهم أو لامتحان لهم من الله تعالى، ولكن العاقبة دائماً لهم ما داموا مؤمنين قائمين بمقتضيات الإيمان». [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢/ ٣٦٤].

### ٥ - عدم تعمد الخصام والحرص عليه مع خصوم الدعوة:

يقول د/ زيدان: «وما ينبغي أن يعرفه الدعاة ولا ينسوه أن من نعم الله عليهم أن يجنبهم الخصام مع خصوم الدعوة مع بقائهم واستمرارهم في أعمالهم الدعوية، ولا يجوز لهم تعمد الخصام معهم أو الحرص

عليه مع أن أعمالهم الدعوية لا تقتضي ولا تستدعي ولا تستلزم هذا الخصام، وإنما الذي تستدعيه نيتهم الخفية، وتطلّعهم الخفي إلى هذا الخصام؛ لينالوا ثناء الناس عليهم، ومدحهم لهم بأنهم مجاهدون مضمون لا سيما إذا كانت الخصومة مع رجال الحكم، فليحذر الدعاة ذلك وليعلموا أن ساحة العمل الدعوي واسعة جدًا، يمكن ولو جهارًا القيام بالأعمال الدعوية الضرورية للدعوة دون حاجة إلى تعمد الاحتكاك والتحرش بخصوم الدعوة وهم غافلون عنهم، فإن فعلهم هذا دليل على ريائهم وإرادتهم لفت النظر إليهم. لقد ذكرنا امتنان الله على عباده المؤمنين أصحاب الحديبية بأن منع المشركين من الاقتتال معهم، كما منع المؤمنين من الاقتتال مع المشركين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح]، وقد ذكرنا في تفسيرها، أن الله تعالى يمتن على المخاطبين - أصحاب الحديبية - بأنه منع المشركين كما منع المسلمين من الاشتباك والاقتتال.

إن الدعوة تحتاج إلى الجو والمناخ المريح الخالي من الغبار والخصام، إن الدعاة يبنون ويهيئون، والبناء والتهيؤ لا يكونان مع الخصام والشجار والتشابك بالأيدي والانشغال بغير البناء، إن الدعاة كالسائرين في طريقهم، فلا يجوز لهم إيقاظ الكلاب النائمة، فتنبج عليهم وتهجم عليهم، وتحسس أصحابها بسير. الدعاة فيضطرون إلى التوقف ومناوشة الكلاب، وليس هذا من حكمة الدعاة ومسيرهم المحمود». [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢/ ٣٦٥].

## ٦ - حذار من الحمية الجاهلية:

يقول د/ زيدان: «قلنا فيما سبق إن مشركي مكة أخذتهم الحمية الجاهلية، أي الأنفة من قبول الحق والانقياد إليه، ومن قبول ما هو صحيح في ذاته، فكانت أنفتهم جاهلية، وعلى أساسها منعوا النبي ﷺ من دخول مكة للعمرة، وفي العمرة تعظيم لبيت الله الذي هم يدعون تعظيمه، ومن أنفتهم الجاهلية رفض الإقرار بنبوته محمد ﷺ مع ظهور دلائل نبوته ظهور الشمس في رابعة النهار، ومن أنفتهم امتناع مندوبهم إلى عقد الصلح: سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر المعاهدة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وامتناعه أن يكتب صفحة محمد ﷺ بالرسالة، فرفض أن يكتب: (محمد رسول الله) باعتباره طرْفًا في عقد الصلح، وبخلاف أولئك المشركين كان رسول الله ﷺ وأصحابه بعيدين عن كل معاني الحمية الجاهلية دقيقةا وعظيما؛ لأن الله تعالى كما قال: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦]، فثبتهم الله تعالى، ولم تستفزهم حمية المشركين، وحمية مندوبهم الجاهلية، فيصروا على رفض ما أراده سهيل من كتابة (باسمك اللهم) وبكتابة اسم سيدنا محمد ﷺ، باسمه المجرد واسم أبيه دون نعته بنعت النبوة والرسالة؛ لأن الصحيح كان عقد ذلك الصلح ولو بإجابة طلبات المشركين ومندوبهم، ولو

أن الموقف كان يستدعي رفض طلبات المشركين لتعتهم في باطلهم، ولكن كان النظر السديد والحكيم والعمل الصحيح، هو المضي في عقد الصلح، وعدم التأثر باستفزازهم برفض طلباتهم.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن يلاحظوا ذلك، إذا حصلت لهم حاجة ومصلحة في عقد مهادنة مع أعداء الدعوة، أن يركزوا ويؤكدوا على الجوهر والأساس، وعلى ما يسهل عقد هذه المهادنة ما دامت في مصلحة الدعوة، وأن لا تستفزهم طلبات الخصوم غير الصحيحة في نفسها، ولكن الأخذ بها لا يمس الدعوة وأصولها ومعانيها، ومن أمثلة ذلك أيضًا إذا أراد خصوم الدعوة عقد المفاوضات في مكان معين وزمان معين، فلا مانع من الأخذ بها يريدون، وإن كان في إجابتهم شيء من الغضاضة في أعين بعض الناس، أو في أعين أنصار الدعوة، ما دام يؤمل في هذه المفاوضات خير للدعوة». [المستفاد لزبدان ٢/ ٣٦٦-٣٦٧].

#### ٧ - لا حوار مع أصحاب الأديان إلا على أساس دعوتهم للإسلام:

يقول د/ زيدان: «أرسل الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح]، أي ليعليه على جميع الأديان السابقة، وعلى ما قد يظهر من أديان باطلة، فالإسلام وحده هو الدين الحق، وهو المهيمن على غيره الناسخ لغيره، الذي لا يسع أحدًا من الخلق إلا اتباعه، هكذا أراد الله لدينه الإسلام، وهكذا يجب أن ينظر المسلم لدينه بذاته وفي علاقته بالأديان الأخرى.

وبناء على هذا الذي أقوله على الدعاة وجماعتهم، أن يفقهوا جيدًا أنه لا يجوز أي حوار أو عقد مؤتمر مع أصحاب الأديان الأخرى، تحت أي شعار أو عنوان إلا على أساس دعوتهم لاعتناق الإسلام، وبيان أدلته وبراهينه، وبيان بطلان أديانهم ونسخها، فلا يجوز الاعتراف بهم وإقرارهم على دينهم، واستعداد جماعة الدعاة التعاون معهم بحجة تعاونهم ضد الإلحاد مثلًا أو ضد الشيوعية، فالدعاة وجماعتهم يجاربون الإلحاد والشيوعية وكل باطل تحت راية الإسلام فقط، وبمنهجهم الإسلامي، ولا يرضون أن يقف معهم في هذه المنازلة للملحدين أصحاب الأديان الباطلة الرافضين دعوة الإسلام المنكرين نبوة محمد ﷺ ورسالاته العامة لجميع البشر، إن معاني إظهار الإسلام على جميع الأديان لا تظهر في عقد المؤتمرات مع أصحاب هذه الأديان، وغض البصر عن باطلهم، والرضا بهم ضمناً أو صراحة بحجة التعاون معهم ضد العدو المشترك: الإلحاد، إنهم هم أعداء الإسلام كما أن الملحدين هم أعداء الإسلام».

[المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزبدان ٢/ ٣٦٧-٣٦٨].

## ٨- توقيع اتفاقية إعلامية:

يقول د/ الفيتوري: «فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقَاتِلْكَ، وَلَكِنْ ائْتَبْتُ هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشَرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكْفُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ... وَإِنَّ بَيْنَنَا عِيَّةً مَكْفُوفَةً... [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وفي رواية أبي داود: «أَنَّهُمْ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشَرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ، وَعَلَى أَنَّ بَيْنَنَا عِيَّةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ». [أبو داود في الجهاد (٢٧٦٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن].  
«والعِيَّة: مُسْتَوْدَعُ الثِّيَابِ، وَالْمَكْفُوفَةُ: الْمُسْتَرْجَعَةُ الْمُسْدُودَةُ، أَيُّ بَيْنَهُمْ صُدُورٌ نَقِيٌّ مِنَ الْغُلِّ، وَالْخِدَاعِ، مَطْوِيٌّ عَلَى الْوَفَاءِ بِالصُّلْحِ.

وَقِيلَ: أَرَادَ أَنَّ بَيْنَهُمْ مَوَادَعَةً، وَمُكَافَأَةً عَنِ الْحَرْبِ، تَجْرِيَانِ مَجْرَى الْمَوَدَّةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْمُتَصَافِينَ الَّذِينَ يَبْقَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ». [النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/٣٢٧].  
ويقول السهيلي: «عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ: أَيُّ: صُدُورٌ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى مَا فِيهَا لَا تُبْدِي عَدَاوَةً».

[الروض الأنف تح الوكيل ٦/٤٨٨].

ويقول سيد قطب رحمه الله: «(وَإِنَّ بَيْنَنَا عِيَّةً مَكْفُوفَةً) أَنْ تَكْفَ عَنَا وَنَكْفَ عَنْكَ، وَالْأَصْلُ أَنْ يَبْنِيَا وَعَاءً مَقْفَلًا، فَاسْتَعَارَهُ لِهَذَا الْمَعْنَى». [في ظلال القرآن ٦/٢٣١١].

عِيَّة مَكْفُوفَةٌ، صُدُورٌ مُنْطَوِيَةٌ، صُدُورٌ نَقِيَّةٌ مِنَ الْغُلِّ، صُدُورٌ صَافِيَةٌ مِنَ الْخِدَاعِ، صُدُورٌ مُطَوِيَةٌ عَلَى الْوَفَاءِ، عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ، تَكْفَ عَنَا وَنَكْفَ عَنْكَ، هَدَنَةٌ إِعْلَامِيَّةٌ، هَدَنَةٌ دَعَائِيَّةٌ، هَدَنَةٌ لِقَطْعِ الْحُرُوبِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي دَامَتْ دَهْرًا طَوِيلًا؛ لِأَنَّ الْإِعْلَامَ وَالْحَرْبَ النَّفْسِيَّةَ وَالِدَعَائِيَّةَ تُسْتَعْمَلُ كَأَدَاةٍ فِي دَعْمِ وَمُسَانَدَةِ الدَّبْلُوْمَاسِيَّةِ الْحَرْبِيَّةِ؛ لِتَدْمِيرِ مَعْنَوِيَّاتِ الْخَصْمِ، وَإِذَاعَةِ الشَّائِعَاتِ وَالشَّعَارَاتِ الْمَوْجَهَةِ لِلتَّأْثِيرِ فِي خَطِّهِ وَفِكْرِهِ وَإِسْتِرَاطِيَجِيَّتِهِ!!

لذلك لم تغفل دولة قريش عن خطورة هذه الأداة الإعلامية في الإستراتيجية الحربية ودورها الفاعل في تشكيل الرأي العام، مما جعلها تنص في ديباجة عقد الحديبية على أهمية الهدنة الإعلامية، وأنها لا تقل خطورة عن الهدنة الحربية، يا محمد (بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ)!!

كأن لسان حالهم ومقالمهم يقول: يا محمد الهدنة الإعلامية الثقافية، والهدنة الحربية القتالية سواء بسواء، مثلاً بمثل، لا سُبَابٍ، ولا شَائِعَاتٍ، ولا تَحْرِشَاتٍ، ولا تَأْلِبَاتٍ، ولا تَجْرِيحَاتٍ، وإنما التركيز على الدعوة بالإفهام، والحجة والبيان، وصلة الأرحام، والتعايش السلمي، والانفراج الدعوي، والوعي السياسي، والاستقرار الاجتماعي، والوفرة الاقتصادية «وَيَكْفُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ»!!

وفي ذلك رصيد لقيادات المشروع الحضاري المعاصر في كيفية تطوير دبلوماسية الإعلام والثقافة في هذا العصر، خاصة أن تقلص الفواصل الجغرافية بين دول الجوار التي كانت تعاني منها الشعوب والدول فيما مضى من حيث التنقل، وجريان المعلومات، أصبح الآن من اليسر بمكان، مما يتيح لقيادات المشروع الحضاري حرية التنقل، وتسريب المعلومات على هيئة صور شتى وأنماط مختلفة، مما يجعلها تعطي الدبلوماسية الثقافية والإعلامية قيمة معنوية وحسية في ربط دول الجوار في إطار من القيم والمثل والمبادئ والأخلاقيات المتجانسة بين أصحاب الفطر السليمة!!

ويصح القول: إنه لا يمكن أن تتوقف الدبلوماسية الثقافية والإعلامية لقيادة الأمة الإسلامية عند هذه النقاط من بناء الصور، وتغيير الانطباعات، أو الدعاية السياسية، وإنما تتجاوز تلك الحدود التقليدية للعمل الإعلامي إلى محاولة النفاذ إلى روح الشعوب الأخرى، وتسجيل حضور مستمر، والعمل على تفهيمها رسالة الإسلام بشكل موضوعي وصحيح، بل إن فاعلية الدبلوماسية الإعلامية الإسلامية تجعل احتمالات نشوب الحروب بين دول الجوار والدولة الإسلامية ضئيلاً للغاية، ولنا في فتح الحديبية الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح]، العبر الكثيرة، والخطوط العريضة في تقرير فوائد توقيع الاتفاقيات والمعاهدات الإعلامية الثقافية على مسار خط الحركة الإسلامية الأولى، حيث الانقلاب البشري نحو الإسلام الذي حدث في مكة خلال عامين من توقيع الاتفاقية لم يحدث مثله طوال أكثر من عشرين عاماً، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [٧٥] وَإِنَّا لَنَسِيرٌ مُّقِيمٌ﴾ [الحجر]!!.

يقول الإمام الزهري رحمه الله مقررًا تلك الحقيقة: «فَمَا فَتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ - صلح الحديبية - إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَقَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَبَنِكَ السَّيِّئِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحَدِيثِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ أَلْفٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

فهل من سبيل لإحداث هذا الانقلاب البشري نحو الإسلام من خلال هذه السياسة الإعلامية الرشيدة، والمواد الثقافية النافعة، والحركة الفكرية المنداحة والمناسبة وفق اتفاقية إعلامية، وأطر سياسية راشدة تخدم البشرية جمعاء؟! [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفتنوري ٧٣-٧٦].

## ٩ - الابتلاء من معالم الدعوة إلى الله:

يقول د/ أبو فارس: «قصة أبي جندل ؓ تضع أيدينا على معلّم بارز من معالم طريق الدعوة إلى الله، هذا المعلّم البارز هو الابتلاء، إن على أصحاب الدعوات أن يعملوا أن الابتلاء والمحن شيء ضروري لأصحاب الدعوات، ولا يكون النصر إلا بعد الابتلاء والنجاح في هذا الابتلاء. فيها هو ذا أبو جندل امتحن، وصبر، فجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

وعلى هذا فليوطن الدعاة أنفسهم وليعدوها لتخطي مرحلة الابتلاء بنجاح قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّرَرِ﴾ وَيُشِيرُ الصَّادِقُ (ع) «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١٦١) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٦٢) [البقرة]. وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (١٦٣) [البقرة].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٤٧]:

## ١٠ - فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يقول د/ أيوب: «يؤخذ من مشورته لأم سلمة ؓ أنه يجوز للإنسان أن يأمر بالمعروف وإن لم يأت، ولكنه إذا فعل المعروف أولاً ثم دعا إليه غيره كان ذلك أقوم وأدعى لاستجابة المدعوين. وهذا درس عظيم على الدعاة والمصلحين أن يأخذوه من فعله وقوله ﷺ في هذا الصلح؛ ولذلك يقول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِيحِينَ﴾ (١٧) [الأعراف]، والتمسك بالكتاب العمل بما فيه وتنفيذ أوامره واجتناب ما نهى عنه، ولذلك يقول الشاعر:

|  |  |
|--|--|
| يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ | هَلَا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ        |
| تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي     | الضَّنَى كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ |
| وَأَرَاكَ تَلْقَحُ بِالرِّشَادِ عَقُولَنَا   | نُضْحًا، وَأَنْتَ مِنَ الرِّشَادِ عَدِيمُ      |
| ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَإِنَّهَا عَنْ غِيَّهَا  | فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ      |
| فَهَذَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى | بِالْقَوْلِ مِنْكَ، وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ    |
| لَا أَنَّهُ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْنِي مِثْلُهُ   | عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ         |

ويقول الله ﷻ عن وصية لقمان الحكيم لابنه: ﴿بَنِيَّ أَقْبِرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) وَلَا تَصْغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) [لقمان].

وقد قالت أم سلمة للنبي ﷺ: «فقم أنت وانحر هديك، ولا تكلم أحدًا، ثم ادع حلاقك يخلق لك، ثم مرهم بعد ذلك فلم يتخلف أحد منهم».

وقد حدث ما قالت، فبعد أن نفذ النبي ﷺ هو أولاً قاموا ينفذون ما قال حتى كادوا أن يقتتلوا، وكانوا قبل ذلك كما قال ﷺ: «أمرتهم فلم يأتمروا».

على أنه يؤخذ من هذه العبارة النبوية ومن أمره لهم أنه لا مانع أن يأمر الدعاة وأن ينهوا قبل أن يأتمروا هم، وقبل انتهائهم عما يُحذِّرون الناس منه، فهذا واجب من قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٣]، أي ليس هناك من هو أفضل منه، ولكن تنمة الآتية تجعل وقع كلام الدعاة على القلوب أنفذ من وقع السيوف في قلب الأعداء وهو قوله تعالى في نفس الآية ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٣]. [صلح الحديبية لأيوب ٥٣، ٦٠].

#### ١١ - تأثر المشركين بالمسلمين:

يقول د/ أيوب: «قد أتاح هذا الصلح تأثر المشركين بالمسلمين واختلاطهم ببعضهم ببعض مما جعل العقلاء من قريش يفكرون جديدًا في الإسلام، وأنه الدين الحق، فأسلم الكثير منهم حين عرفوا الحق وزالت نغمة التضليل والتشويه وقلب الحقائق وتزييف الأمور».

لقد وضع الحق لذي عينين، وانكشف الخفاء، وظهرت حلاوة الإسلام وأخلاق الرسول العظيم ﷺ، وأحرز المسلمون بهذا فضلاً من الله عظيمًا». [صلح الحديبية لأيوب ١٥٤].

#### ١٢ - اتباع أسلوب الترغيب في الدعوة إلى الله:

يقول د/ الزيد: «فقد بين الرسول ﷺ أفضلية الحلق على التقصير من خلال تكرار دعوته للمحلّقين بالرحمة ثلاث مرات، ولم يدع للمقصرين إلا مرة واحدة، وهذا معناه الترغيب في حلق الرأس للمحرم في تحلله من نسكه». [فقه السيرة للزيد ٥٤١].

#### ١٣ - ثناء الله على أصحاب رسول الله ﷺ:

يقول د/ زيدان: «ذكرت ثناء الله على أصحاب محمد ﷺ، ومدحه لهم، وشهادته لهم، بالعمل الصالح وبنيتهم الصالحة، وأعيد هنا ثناء الله عليهم وإن كان في إعادته تكرار قال تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجْ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح].



هذه الآية صريحة في دلالتها على علو منزلة أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى كثرة عبادتهم وصلاتهم، وإرادتهم الظفر بفضل الله ورضوانه، وأنهم كانوا أعرافاً وتقوية لرسول الله ﷺ، وأن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وليكونوا جنوده يشدون أزره ويجاهدون معه، ويكونون بين يديه، يأمرهم فيطيعون، يحبونه أكثر من نفوسهم ويفدونه بأرواحهم، ويؤثرون أن يموتوا دونه ولا تصيبه الشوكة، إن أولئك الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ، لا ينطوي قلب مسلم إلا على محبتهم، وإلا على الحرص على اتباعهم، لينال رضوان الله تعالى، فهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده ونشروا الإسلام ونقلوا إلينا كتاب الله وسنة رسوله، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

فعلى الدعاة أن يعرفوا قدرهم ومنزلتهم ويبينوا للناس، ويزيلوا عن أذهانهم الشبهات والأباطيل التي وضعها وأثارها ويثيرها المبتدعة الفجرة الذين يتدينون ببغضهم وسبهم وشتيمهم وإصااق النقائص بهم، وهذا علامة نفاقهم وزيفهم من سبيل الحق.

فعلى الدعاة تفهيم المسلمين منزلة الصحابة وقدرهم عند الله ولا يعوزهم الدليل على ما يقولون، ففي كتاب الله آيات صريحة في الثناء عليهم، ومنها هذه الآية، فليحفظها الدعاة وليقرئوها على الناس، وكذا في السنة نصوص كثيرة في الثناء على الصحابة، فليقرأها الدعاة على الناس أيضاً، فهذا من معاني دعوتهم، ومن واجبه تبيين هذه المعاني للناس. [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢ / ٣٧٠].

#### ١٤ - يَسْعُ الْفَرْدُ مَا لَا يَسْعُ الْجَمَاعَةُ وَلَا عَضْوًا فِيهَا:

يقول د/ زيدان: «كان من بنود صلح الحديبية أن من جاء محمداً ﷺ من قريش مسلماً من غير إذن وليه رده النبي ﷺ إلى قريش، ولم يقبله في صفوف جماعة المسلمين في المدينة، وعلى أساس هذا البند أو الشرط لم يقبل النبي ﷺ أبا جندل ؓ عندما جاء يرسف بقيوده، فألقى بنفسه بين يدي النبي ﷺ، ولم يفرغ بعد من كتابة بنود المعاهدة، وطلب سهيل رد ابنه أبا جندل ؓ إلى قريش حسب بنود المعاهدة المتفق عليها شفهيًا، ولكن لم تكتب بعد، فردّه النبي ﷺ، وقال له: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِئِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرَجًا وَمَحْرَجًا»، وحصل أن انفلت من قريش رجل من المسلمين هو أبو بصير ؓ، ثم انفلت أبو جندل بن سهيل ؓ فلحق بأبي بصير ؓ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ؓ حتى اجتمعت منهم عصابة، فصاروا يُغيرون على كفار قريش السائرة إلى الشام، فيقتلون حُرَّاسَهَا ويأخذون أموالها، فأرسلت قريش تطلب من رسول الله ﷺ قبول أولئك المسلمين المنفلتين منها، وعدم ردهم إلى قريش؛ لتخلص منهم ومن تعرضهم لقوافل قريش، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فقدموا عليه في المدينة.

وُستفاد من قصة أبي جندل وأبي بصير أنه يسع الفرد المسلم غير المرتبط بجماعة ما لا يسع الجماعة ولا عضواً فيها، بمعنى أن الفرد المسلم السائب غير المرتبط له أن يعمل من الأعمال المباحة له شرعاً، ومنها ما فيه ضرر على المشركين يستحقونه، بينما لا يجوز للجماعة المسلمة ولا عضو فيها أن يفعل ما يفعله المسلم السائب وإن كان العمل بذاته جائزاً.

فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك وتُفقه أعضائها فيه، حتى لا يعملوا أي عمل لا ترضيه الجماعة، ولا يتفق وسياستها في العمل، أو لا يتفق مع ما اتفقت عليه مع خصومها؛ لأن مقياس جواز العمل للجماعة المسلمة لا يقف عند حد مشروعية العمل في ذاته، وإنما يتجاوزها إلى مدى ما يحققه من مصلحة راجحة، أو دفع مفسدة راجحة، باعتبارها جماعة ذات هدف معين واسع، تريد الوصول إليه ولا تقف عند حدّ تحصيل المصالح الجزئية، إذا كان من شأن تحصيل هذه المصالح تفويت المصلحة الكبرى، أو تأخير تحصيلها وما في تأخيرها من احتمال تفويتها بالكلية، وإذا كانت الجماعة تلتزم بها قلت فعلى كل عضو في الجماعة أن يلتزم بما التزمت به أو تلتزم به من أعمال فعلاً أو تركاً؛ لأن أعماله تنعكس على الجماعة؛ لأنه عضو فيها ولا يمكن براءة الجماعة من أعماله، فليترك الله عضو الجماعة المسلمة، وأن يلتزم بكل دقة ما تلتزم به الجماعة من أعمال فعلاً لها أو تركاً لها، وليعتبر الأخ الداعية العضو في الجماعة المسلمة بقصة أبي جندل وأبي بصير، وبما فعله النبي ﷺ من رده لأبي جندل ومن التزام المسلمين في المدينة ببند الصلح - صلح الحديبية - ولا يجوز الخروج على ما ذكرته، هذا ويجب أن يكون معلوماً أن التزام عضو الجماعة المسلمة بما تلتزم به الجماعة، لا يُشترط في التزام الجماعة الذي يلتزم به أعضاؤها أن يكون هناك معاهدة أو اتفاق تحريري بين الجماعة المسلمة وبين خصومها، وإنما يكفي للالتزام العضو بما تلتزم بها جماعته من سياسة ومن منهج في العمل باختيار منها أو باجتهد منها أو نتيجة اتفاق مع خصومها، سواء كان اتفاقاً تحريرياً أو اتفاقاً شفهيّاً». [المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢/ ٣٦٨-٣٦٩].

## ١٥ - إزالة العوائق من أمام الدعوة الإسلامية:

يقول أ/ الشامي: «أصبحت حركة الدعوة الإسلامية بطيئة؛ لأن هناك عوائق مهمة ينبغي اتخاذ الإجراءات وبذل الجهد في سبيل تجاوزها حتى تنطلق الحركة بعد تحررها من هذه العوائق. وتمثل هذه العوائق بأمرين اثنين:

- (١) مكانة قريش في العرب، وإصرارها على موقفها العدائي من الرسول الكريم ﷺ ومن دعوته.
- (٢) ذلك الحلف الوثيق بين اليهود وبين المنافقين، الذي سبب فيها مضي كثيراً من الأزمات، التي كان بعضها سيقضي على الدعوة قضاء تاماً، كالاتفاق الذي حصل بين قريظة والأحزاب أثناء معركة الخندق.

وكان لابد من علاج لكل من الأمرين.

كانت العمرة - أو الغزوة - وسيلة احتكاك بين النبي ﷺ وبين أعدائه في مكة، وقد اختار ﷺ الوقت والمكان اختياراً مُحْكَمًا، فالوقت هو شهر ذي القعدة، وهو أحد الأشهر الحرم، والمكان هو الحرم، فهو قاصد للعمرة، وإذن فمكان الاحتكاك هو الحرم، يُضاف إلى ذلك إعلانه أنه لا يريد الحرب وإنما يريد العمرة، والبرهان على ذلك: ذلك الهدى الذي قدّمه بين يديه.

كان ﷺ راغبًا كل الرغبة بأي اتفاق مع قريش يتيح للناس أن يسمعوا دعوته، أو بتعبير آخر: يجعل قريشًا بعيدًا عن ساحة العمليات التي يريد القيام بها، وهذا ما عبّر عنه ﷺ بقوله: «ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب..» كما ذكرنا سابقًا.

وقد تحقق ذلك من خلال الشرط الأول من اتفاق الصلح.

وأما العائق الثاني، فقد يسّر الله إزالته بعد إنهاء مشكلة العائق الأول ولو كان ذلك جزئيًا، وقد رأينا كيف تم له ﷺ فتح خيبر وفدك وتيما.

وبهذا تمكن ﷺ من إطلاق الدعوة من قيودها التي أحيطت بها ورأينا تلك الحركة الدائبة التي ما فترت بعد ذلك». [السيرة النبوية للشامي ٢٧٤-٢٧٥].

## ١٦ - تمهيد الطريق أمام انتشار الدعوة الإسلامية:

يقول د/ الحميدي: «كان صلح الحديبية كسبًا عظيمًا لدعوة الإسلام، ولقد كان في ظاهره إجحافًا بالمسلمين في بعض بنوده، ولكن نتائجه كانت انتصارًا عظيمًا للإسلام والمسلمين، وهذا يدل على تفوق النبي ﷺ في التخطيط الإداري والنظر المستقبلي لدولة الإسلام.

وقد سماه الله تعالى فتحًا مبينًا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ [الفتح]، مما يدل على أهمية نتائجه لصالح الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام.

وإنما كان صلح الحديبية فتحًا لأن مكة كانت قبله مغلقة أبوابها أمام المؤمنين، فلما تم الصلح فُتح باب المعاملة مع المشركين واستطاع المؤمنون أن يدخلوا مكة معتمرين مع رسول الله ﷺ بعد عام من الصلح. وكانت المدينة مغلقة أمام المشركين من سائر العرب لقلّة المؤمنين وكثرة أعدائهم فما كان العرب يُقدمون على الدخول في الإسلام والحالة هذه، فلما تم الصلح دخل في الإسلام أضعاف من كانوا دخلوا فيه قبله، وذلك أن العرب لما تسامعوا بأن محمدًا ﷺ قد تصالح مع قريش ووضعت الحرب بينه وبين أكبر أعدائه علموا بذلك عزته وأنهم لا قِيلَ لهم بحربه، فأسرعوا إلى الدخول في دينه، وخصوصًا بعدما قضى رسول الله ﷺ على أكبر أعدائه بعد قريش وهم اليهود في خيبر، وكان القضاء عليهم من آثار تفرغه ﷺ بعد الصلح، فلم يبق بعد القضاء عليهم من يحارب الإسلام بقوة وضراوة، وقد أدرك العرب عزة

الإسلام في تلك الفترة فساروا إلى الدخول فيه، ومن أسلم في هذه الفترة رجلاً من صناديد قريش هما: عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، وقد أصبحا بعد ذلك من أعلام المسلمين وقادتهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/٢١١-٢١٣].

ويقول عميد/ فرج: «كان من أهم نتائج هذا الصلح أن أصبح الطريق ممهداً أمام الدعوة إلى الإسلام، وانفسح المجال لتصل الدعوة إلى القلوب والعقول والأفهام، وبدأ اتصال المسلمين بالناس واختلاطهم بهم، فكانوا يشرحون لهم حقيقة الدين ومبادئه، ويطلعونهم على أسسه وأهدافه، وكانت دعوتهم تجد صدى لدى الكثيرين من عقلاء القوم الذين سرت إلى نفوسهم دعوة الحق، ورأوا الإسلام في علاء فزالت عنهم الغمة وتكشفت الحقائق ووضحت الرؤية.

فلما كانت عمرة القضاء أحس كثيرون من أهل قريش بقوة هذا الدين وبصدق ما يدعو إليه، وأصبحوا جاهزين لإعلان إسلامهم إذا ما عُرض عليهم الإسلام، وصاروا يُعَدِّين نفسياً وذهنياً لتقبل الدعوة، ويهمن أن تنشر هنا إلى إسلام اثنين كان لهما شأن - وأي شأن - في مجال الحرب، فهذا هو ذا خالد بن الوليد فارس قريش وبطلها المغوار قد تلقى رسالة من أخيه الوليد ابن الوليد رضي الله عنهما وكان قد سبق إلى الإسلام - يدعو به إلى الإسلام.

لقد كان إسلام خالد وعمرو رضي الله عنهما نصراً للإسلام، وكان في ذات الوقت كسراً لشوكة قريش، وبقدر ما سعد المسلمون بإسلامها، بقدر ما تكدرت قريش وحزنت. وتبعهما قوم كثير من أهل مكة.

ولا يختلف اثنان أن هؤلاء جميعاً كانوا قوة للإسلام، فخالد رضي الله عنه كان سيف الله المسلول، وعمرو رضي الله عنه كان قائداً من قادة الصدارة في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد خلفائه من بعده. ولو كان إسلام هؤلاء هو وحده ثمرة الحديبية لاستحق صلح الحديبية أن يكون كما وصفه رسول الله ﷺ «أعظم الفتح». [العقبة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٤٢-٣٤٣].

ويقول د/ خليل: «لم يرتح المسلمون لأحداث الصلح ونتائجه، ولا سيما وأنهم جاؤوا يحملون أملاً بدخول مكة والطواف في البيت العتيق في أعقاب رؤيا الرسول ﷺ وها هم يعودون من حيث جاؤوا دون أن يتحقق أملهم، هذا فضلاً عما في بنود الصلح نفسها وصيغته من أمور رأوا فيها تنازلاً للمشركين، هذا إلى أن الرسول ﷺ لم يستشر أصحابه على غير ما ألفوا منه في هذا الاتفاق المقترح مع أنه في شؤون الحرب والسلم التي سلفت كان يرجع إليهم.. وربما نزل على رأيهم وهو له كاره.. لكنه اليوم يتفرد بالعمل ويقر ما يكرهون على غير ضرورة ملجئة. [فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي ص ٣٥٩].

ثم جاءت قضية تسليم أبي جندل رضي الله عنه لأعدائهم إثارة جديدة لأعصابهم المرهقة وحتفتهم الذي عبّر عنه عمر رضي الله عنه صراحة.

من أجل ذلك كله دخل عليهم أمر عظيم حتى كادوا يهلكون، وعندما أمرهم الرسول ﷺ بنحر الهدي وحلق رؤوسهم إيماناً بالعودة للمدينة، لم يستجيبوا له لأول مرة في حياتهم، فما كان من الرسول ﷺ بعد استشارة زوجته أم سلمة إلا أن يخرج عليهم فينحر ويحلق رأسه، فلما رأى أصحابه ذلك راحوا ينحرون ويحلقون وهم يتميزون غيظاً وألماً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً، دون أن يدركوا أن الصلح الذي تمخض عن مرونة الرسول ﷺ وتنازله عن بعض الشكليات في صياغة الوثيقة وبنودها كان أكبر فتح في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ انبعاثها قبل تسع عشرة سنة، وأن الرسول ﷺ بموقفه ذاك قد فتح طريقاً جديداً أمام الحركة الإسلامية أوصلها إلى آفاق جديدة ومساحات واسعة لم يكن أحد من المسلمين يطمح في الوصول إليها قبل مرور سنين وسنين». [دراسة في السيرة لخليل ١٩٠-١٩١].

#### ١٧ - انتشار الدعوة الإسلامية:

يقول د/ عشقي: «لقد كان البريق الروحي في السيرة النبوية، أكثر اجتذاباً للمؤرخ الإسلامي من البريق الفكري، وهذا ما ترك آثاراً مضيئة على القضايا الإيمانية، والقضايا التشريعية، لكن التعامل مع الجانب الفكري في السيرة يضع الكثير من الحلول للتناقضات التي يعيشها الإنسان في هذا العصر. فصلح الحديبية، بالإضافة إلى ما فيه من دروس إيمانية، إلا أنه يعتبر مدرسة للمفاوضات، ومنهجاً للقانون الدولي، والسياسة الدولية، وهذا يتطلب منا الوقوف طويلاً عند معالم هذا الصلح ومنعطفاته. لقد كانت الحديبية سبباً رئيساً لانتشار الإسلام، فعندما أمن العرب شر القتال، وأمن المسلمون خطر الهجمات القرشية، اختلط العرب الوثنيون بالمسلمين الموحدين، فخالطوا كبار الصحابة واستمعوا إلى النبي ﷺ.

لقد أرهقت العادات المتوارثة الإنسان العربي، فوجد في الإسلام تحولاً كاملاً في المفاهيم، كما وجد فيه تهيئاً لهذه العادات والتقاليد القاسية، وفي ظل الهدنة، اتسع الإقبال على الإسلام. لقد أسلم الكثير من العرب خلال ستي الهدنة، حتى أصبحوا يعدلون من أسلم منذ البعثة النبوية عدداً، لقد كان الفتح يُقاس بعدد الذين انضموا إلى قافلة الإيمان، وليس بالمكاسب التي حققها الفتح. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَقُولُ: مَا كَانَ فَتْحٌ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مِنْ فَتْحِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمِنُذِ قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّهِ، وَالْعِبَادُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَعْبُدُ كَعَبَادَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللَّهُ.

لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِوٍ فِي حَجَّهِ قَاتِمًا عِنْدَ الْمَنْحَرِ يُقَرِّبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بُدْنَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْحَرُهَا بِيَدِهِ، وَدَعَا الْحَلَّاقَ فَحَلَّقَ رَأْسَهُ، وَأَنْظَرُ إِلَى سُهَيْلٍ يَلْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ، وَأَرَاهُ يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَذْكُرُ إِبَاءَهُ أَنْ يَقَرَّ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ بِأَنْ يَكْتُبَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وَيَتَأَبَّى أَنْ يَكْتُبَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي هَدَانَا بِهِ وَأَنْقَذَنَا بِهِ مِنَ الْهَلَكَةِ!». [الغازي للواقدي ٢/ ٦١٠].

وقد سبقت الروايات في اتهام الرأي على الدين، فقد كان محور الموقف هو عبارة «اتهموا الرأي»، فالرأي يجب أن يُحَيَّد إذا قضى الله ورسوله أمراً، حتى لا يُفْضِيَ الأمر إلى نزاع، وما حدث خلاف بين المسلمين منذ بداية الدعوة إلا بسبب عدم اتباع هذه العبارة.

لقد أطلق هذه الكلمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، أطلقها في وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهزت كيانه، فأصبح يرددها حتى أسلم روحه لله.

لقد كانت لهذه المواقف حكمة، ولكلام الصديق وأبي عبيدة عمق إيماني، يدل على وجوب اتباع ما أمر به رسول الله ﷺ، ولو خالف ذلك رأينا؛ لأن الرأي يسقط مع النص، وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حيثما كنتم، فلن يترك من أعمالكم شيئاً ولو كنتم بصمد وجازان»<sup>(١)</sup>.

جهينة تدخل الإسلام: كانت جهينة من أوائل من أسلم بعد الحديبية، جاء منهم عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية، يصحبه أخوه لأمه أبو روعة، فقال رسول الله ﷺ: «لعبد العزى: أنت عبد الله، وقال لأبي روعة: أما أنت فرعت العدو إن شاء الله، ثم قال لهم: أنتم لستم بني غيان بل أنتم بنو رشدان».

كما وفد على رسول الله ﷺ من جهينة سادن صنمهم، عمرو بن مرة الجهني بعد أن راغ على الصنم تحطياً، ثم أتى رسول الله ﷺ وأسلم.

ثم عاد عمرو بن مرة الجهني إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوه إلا رجلاً.

إسلام بني سليم: قدم على النبي ﷺ رجل من بني سليم يقال له قيس بن نسيبة وباع الرسول ﷺ على الإسلام، ولما رجع إلى قومه قال لهم: قد سمعت برجة الروم، وهيمنة الفرس، وأشعار العرب، وكهانة الكهان، وكلام مقابل حمير، فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم، فأطيعوني وخذوا منه بنصيبكم.

(١) روى ابن سعد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم ثلاثة نفر من بني عيس على رسول الله ﷺ، فقالوا له: إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش هي معاشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا، فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حيث كنتم، فلن يترك من أعمالكم شيئاً، ولو كنتم بصمد وجازان». طبقات ابن سعد ١/ ٢٥٦.

الأشعريون صرةً المسك: قدم وفد الأشعرين على رسول الله ﷺ ومعهم جعفر بن أبي طالب وأصحابه، كان الأشعريون قرابة خمسين رجلاً فيهم أبو موسى وفيهم رجلان من عك. ما إن قدموا إلى المدينة حتى ارتجزوا قائلين:

عَدَا نَلْقَى الْأَجِبَهُ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ

وعندما التقوا برسول الله ﷺ وهو في سفره بخير بايعوه على الإسلام، فقال لهم: الأشعريون في الناس، كصرة فيها مسك.

خُشَيْنَ ثُشُورُ إِسْلَامِهَا: بينما كان رسول الله ﷺ يتجهز لغزوة خيبر، لحق به أبو ثعلبة الخشني، فأشهر إسلامه وكتب الله له الخروج مع النبي ﷺ فشهد خيبر.

ما إن سمع به جماعته حتى لحق به نفر من خشين، فترلوا عليه وأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إلى قومهم فدعواهم إلى الإسلام.

سعد العشيرة: كانت قبيلة سعد العشيرة تعبد صنماً يُقال له (فَرَّاص)، ما إن سمعت القبيلة بخروج النبي ﷺ إلى خيبر حتى قام رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة، إلى فرائص فحطمه ثم وفد على النبي ﷺ فأسلم.

مُضَرُّ تَوْفَدَ رَجَالُهَا: لقد كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر، أربعائة من مزينة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم.

لقد كان خزاعي بن عبد نهم، أول من وفد من مزينة فبايعه على قومه، وكان النعمان بن مقرن، وبلال بن الحارث فيمن قدم معه.

وتوالت القبائل: بنو سعد بن بكر وبنو أشجع وغيرهم.

لم تكن قريش تعلم ما أحدثته المعاهدة من انقلاب فكري في مجتمع الجزيرة العربية، لقد وجدت قريش نفسها تعيش عزلة دولية، بعد أن كانت محور العلاقات في المجتمع العربي.

لم يقتصر القادمون على رسول الله ﷺ للإسلام والبيعة على القبائل وحدها، بل تجاوزها إلى القيادات القرشية، خصوصاً وأن شرط الإعادة قد سقط، وأن الصلح قائم والسلام شامل.

إن المعاهدات ليست عملاً قانونياً ينسق الحقوق فحسب، بل هي أيضاً عمل فكري يُحدث التحولات ويقلب الموازين.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ﴿٦٣﴾ [الأحزاب].

يقول الواقدي: «فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْقُضَيْيَةِ وَحَلَقَ رَأْسَهُ قَالَ: «هَذَا الَّذِي وَعَدْتُكُمْ». فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ أَخَذَ الْفَتْاحَ، فَقَالَ: «أُدْعُوا لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، فَقَالَ: «هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ». فَلَمَّا كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَعَرَهُ فَقَالَ: «أَيُّ عُمَرُ! هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ»، قَالَ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ! مَا كَانَ فَتُحَّ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ!». [المغازي للواقدي ٦٠٩-٦١٠].

الشرط المذلل: اعتقد المسلمون أن الشرط الذي يقضي بإعادة المسلمين اللاجئين من قريش، دون استعادة المسلمين الذين قد يلجأون إلى قريش مذل للمسلمين.

ولأن الله ﷻ لا يرضى المذلة للنبي ﷺ والمسلمين، فإن الشرط أصبح يشكل الذل الأكبر لقريش. لقد ظل أبو بصير وأبو جندل ومن معهم في العيص قريباً من سيف البحر، يقطعون على قريش تجارتها إلى الشام، فيقتلون من ظفروا به، ويسلبون ما مر بهم من تجارة؛ لأن قريشاً حرمتهم من الغطاء والنظامي الذي يستظل به المسلمون في قاعدتهم بالمدينة المنورة.

لقد أدرك القرشيون أن سهيل بن عمرو قد فتح عليهم باباً من الشر يصلبهم بناره، حين اشترط في صلح الحديبية، أن على الرسول ﷺ أن يرد مَنْ جاءه مسلماً من قريش.

لم يكن سهيل بن عمرو بالمفاوض الساذج، لكنه اعتقد أنه بشرطه هذا يعطي استعلاءً لقريش على المسلمين، ويحقق مكانة ادعى للاحترام بين القبائل.

كان سهيل بن عمرو وهو المفاوض الحاذق، يراهن بهذا الشرط على تصدع الموقف الإسلامي، لكنه لم يدرك أن رجال الحديبية هم من المؤمنين، وكانت كافة الآيات التي نزلت في الحديبية تحاطب هذه الفئة بكلمة المؤمنين وتصفهم بذلك.

فالمنافقون واليهود والمسلمون الأعراب، لم يكتب الله لهم الخروج مع النبي ﷺ، ولم يكن من المنافقين إلا اثنان في الحديبية، جاء في ظل (التقية) التي هي مبدأ من مبادئ النفاق، ومع هذا فلم يشاركوا في البيعة؛ لأن المؤمن هو الذي يجعل هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ.

لقد كان أكثر الناقمين على هذا الشرط هو أبو سفيان، فلم يكن يدرك أبعاده المذلة عليهم، فقال في غضب، وهم يناقشون الأمر في دار الندوة: لو أني كنت حاضرًا صلح الحديبية، ما أصررت على هذا الشرط ولا أقررت، لكن السؤال، لماذا لم يسقط هذا الشرط حال عودته إلى مكة، وانتظر حتى اصطلى بناره؟

لقد قرر زعماء قريش أن يسير أبو سفيان إلى المدينة المنورة، وأن يناشد النبي ﷺ الله والرحم، أن يسقط هذا الشرط وأن يضم إليه من بعدهم.

لقد تبدل الموقف، فالزعيم الذي قاد قريشاً يوم أحد، وتزعم الأحزاب يوم الخندق، في محاولات مستميتة لاستئصال شأفة الإسلام، يأتي إلى المدينة اليوم مسترحماً رسول الله ﷺ.



ما إن جلس أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ صاغر النفس، حتى قال: يا محمد إنا أسقطنا هذا الشرط، فمن جاء منهم إليك فأمسكهم في غير حرج، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراره.

كان عمر ينظر إلى أبي سفيان وهو صاغر يستجدي رسول الله ﷺ فتذكر قول أبي بكر: استمسك بغرزه يا عمر حتى تموت، ثم انتقل عمر بذكرته إلى أبي عبيدة فتذكر قوله: تعوذ من الشيطان يا عمر واتهم رأيك. لم يكن عمر بن الخطاب ﷺ معارضًا كما اعتقد البعض، لكنه كان محاورًا ومراجعًا لرسول الله ﷺ، تحذوه إلى ذلك الغيرة على الإسلام، وهذا نوع من المشورة الإرادية.

لقد كانت حرية المحاور والمراجعة مكفولة في الإسلام، حتى مع رسول الله ﷺ في حياته، ألم يقل الله ﷻ في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوَرِكُمَا إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة].

فكان التحاور هنا نوعًا من المراجعة، وما كنت هذه المراجعة تؤرق عمر ﷺ إلا لفرط إيمانه وتقواه. استجاب ﷺ لنداء قريش، وأمر بكتاب إلى أبي بصير وأبي جندل، أمرهما فيه أن يقدموا إلى المدينة المنورة، وأن يتركا الخيار لمن معهم من المسلمين والأعراب، أن يلحقوا بديارهم وأن لا يتعرضوا لتجارة قريش. كان أبو بصير، مسجى في فراشه يعاني من سكرات الموت، لكنه أفاق على تكبير المسلمين بعد استلامهم رسالة الرسول ﷺ.

جاءه أبو جندل مبشّرًا ومستبشّرًا، فقرأ عليه الرسالة، فمد أبو بصير يده لتسلّمها، ما إن أخذها حتى وضعها على صدره ثم أسلم روحه إلى الله في طمأنينة.

القبائل تسعى إلى الإسلام: توالى العرب على النبي ﷺ وفودًا وأفرادًا يبائعونه ويسلمون على يده، فكان يأتي الفرد فيتعلم القرآن كما يتعلم أسس الإسلام ثم يبعثه إلى قبيلته داعيًا.

كما كان الرهط يأتي رسول الله ﷺ فيستمعون إليه، ثم يعودون إلى قومهم محمّلين بمتاع الدنيا وخير الآخرة، فلا تلبث القبيلة أن تدخل عن بكرة أبيها في الإسلام.

بنو عبس: كان بنو عبس آخر من وفد على رسول الله ﷺ من القبائل قبل خروجه إلى عمرة الحديبية، كانوا تسعة رهط من الرجال، فكانوا من المهاجرين الأولين، مثلوا أمام الرسول ﷺ فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أن [لا إسلام لمن لا هجرة له]، ولنا أموال ومواشيء بين يدينا، فإذا كان ذلك حقًا بعناها وهاجرنا». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٢٦١-٢٧١].

## ١٨ - الفقه الحركي للمستضعفين:

يقول أ/ الشامي: «وصل أبو بصير عليه السلام المدينة، وبعد ثلاثة أيام وصل مبعوثا المشركين للمطالبة به، وما كان رسول الله ﷺ ليخل بها أعطى من التزام، وقد رأينا كيف أعاد أبا جندل عليه السلام والاتفاقية ما زالت تُكتب، ويُسلم رسول الله ﷺ أبا بصير عليه السلام للمطالين به، وفقاً للاتفاق.

ويعود معهما أدراجه إلى مكة، والصورة التي تركها فيها من فتنة المؤمنين ما تزال خيالها في ذهنه، إنه يعود الآن بملء إرادته إليها بعد أن أفلت منها، فلم يعود؟ إنه لا يربطه بهم عقد ولا ميثاق، وإن استعادته ليست من باب التكريم بل هي الإذلال والفتنة، وتسبح له الفرصة فيقتل أحد الرجلين ويتبع الآخر الذي لا بالمسجد، ويبادر الرسول ﷺ قائلاً: قد والله أوفي الله ذمتك، ولم يؤنبه رسول الله ﷺ ولكنه قال: «وَيْلٌ لِّأُمَّهِمْ مَسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

وفهم منها أنه إن بقي في المدينة فسرد ثانية إلى قريش، فتركها إلى ساحل البحر، إن الرسول ﷺ وصفه بأنه مسعر حرب أي محرّكها، ووصل فعل أبي بصير عليه السلام إلى مكة ووصلت كلماته ﷺ إلى المسلمين المستضعفين، فرأوا في سلوك أبي بصير عليه السلام سنة يحسن سلوكها.

إنه لا حق لقريش أن تطالب رسول الله ﷺ به وبأمثاله، ولا سيطرة لها عليهم، وهكذا تلاحق المستضعفون من المسلمين إلى أبي بصير عليه السلام، ذاك الرجل الذي كان سلوكه التفسير العملي لقول الرسول الكريم ﷺ: «إن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً...».

وكان الفرج مطالبة قريش ومناشدتها الرسول ﷺ أن يضم هؤلاء إليه.

رحمك الله أبا بصير عليه السلام، لقد وصلك كتاب رسول الله ﷺ وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة بعد أن أعطيت أكبر درس في الفقه الحركي، ما أحوج المسلمين إليه وإلى أمثاله من الدروس.

[من معين السيرة للشامي ٣٧٠-٣٧١].

## ١٩ - الدروس الإعلامية المستفادة من صلح الحديبية:

يقول د/ حجازي: «لم يوهب نبي ما وهب رسول الله ﷺ من قيادة ملهمة في تصريف الأمور تصريفاً سياسياً وإعلامياً سليماً.

ففي عهد الحديبية تجلّى تدبير النبي ﷺ في سياسة خصومه، وسياسة أتباعه، والاعتماد على السلم والعهد، حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المواقف ولا تصلح العهود. كان صلح الحديبية في حقيقته فتحاً إعلامياً وعسكرياً عظيماً، فتح الله به على رسوله وعلى المسلمين بالنصر والعزة، دون أن تظهر للعيان حقيقته وأبعاده في حينه.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى تبين هذا الفتح المبين للجميع، رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر إليه، وتبين للناسر السياسة الإعلامية الحكيمة التي اتبعها رسول الله ﷺ في تحقيق غرضه الأساسي الذي جاء من أجله بدون قتال ولا سفك دماء.

ويوم أن نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَنُصْرًا مِنْ اللَّهِ نَصْرًا عَظِيمًا (٣) [الفتح].

لم يفقه الكثيرون معناها في حينها، ولم يتبين موضع الفتح من ذلك الاتفاق، ولكنهم فهموا أي فتح هو، بعد أقل من سنتين، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف.

يقول العقاد: «وقد تولى النبي ﷺ أعمالاً كثيرة مما يطلق عليه لفظ سياسة في عموم مدلوله، ولكننا لا نعرف بينها عملاً واحداً هو أدخل في أبواب السياسة وأجمع لدروبها، وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية، أو صفة الوعظ العلني، أو سائر الصفات التي اتصف بها ﷺ من عهد الحديبية في مراحلها جميعاً، منذ ابتدأت بالدعوة إلى العمرة، إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش».

[عبقرية محمد ﷺ ص ٦٢ ط دار الإسلام-القاهرة].

فمن الدروس المستفادة من هذا الصلح في النواحي الإعلامية، وغيرها دروس في: الحكمة، والحلم، والصبر، وضبط النفس، والسياسة الإعلامية الصائبة، وتُعد النظر، والوفاء بالعهد، والحذر والحيلة والتسامح والشورى واحترام الرأي.

إنها دروس جديرة بأن يتدبرها ويعيها ويسير عليها الرادة والقادة من أمة الإسلام، في معالجة المشاكل السياسية والإعلامية في حل الأزمات.

ويجدر بنا أن نبحث هذه الدروس بشيء من التفصيل؛ لأنها تتعلق بالدعوة والدعاة إلى الله.

**الدرس الإعلامي الأول: في الحكمة ويُعد النظر:** عندما بدأ الرسول ﷺ بالدعوة إلى العمرة، فإن هذه الدعوة لم تقتصر على المسلمين المصدقين لرسالته فقط، بل شملت هذه الدعوة كل القبائل العربية المجاورة، والواقعة على طريق مكة المدينة، والتي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه، فجعل له بذلك وللعرب من هذه القبائل قضية واحدة في وجه قريش، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى، وبهذا فقد أحبط على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة الرسول ﷺ، والرسالة الإسلامية.

وهذا الدرس يعتبر درساً إعلامياً في حقيقته ومعناه.

فكان بذلك أن أفشل على قريش خططها العسكرية والإعلامية الكاذبة، التي حاولت بها أن تشوه صورة المسلمين عند العرب، وأن تؤلب العرب عليهم، بما ادعوه من قطعهم للأرزاق وتهديدهم

للأسواق التي يعمرها الحجاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والقادمون منها، فهي هو النبي ﷺ يأخذ معه المسلمين إلى مكة، كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين إلى البيت الحرام، والأماكن المقدسة جميعها.

وهذا العمل الإعلامي الناجح قد أظهر للعرب جميعاً المزايا العظيمة التي يتحلّى بها الدين الإسلامي الحنيف.

**الدرس الثاني: السياسة الإعلامية:** كانت السياسة الإعلامية التي اتبعها رسول الله ﷺ، ترمي إلى الفصل بين قريش وبين حلفائها الرئيسيين من الأحابيش وبني ثقيف، ولقد رأينا كيف أن رسول الله ﷺ، كان يضع الخطط الإعلامية المناسبة لكل وفد من تلك الوفود، ولكل ظرف من تلك الظروف التي مر بها أثناء أزمة الحديبية، فقد رأينا نجاح كل خطة من هذه الخطط الإعلامية وآثارها الرائعة.

فالحلّيس، تركه يستخلص النتائج بنفسه، ويعود إلى قريش وهو يحمل في قزارة نفسه بأن قريشاً هي المعتدية في هذه القضية، وإنه بذلك أصبح في موقف الخصومة من قريش بدلاً من خصومته للمسلمين.

ولم يكن زعيمٌ ثقيف أقلّ تحمّساً في محاسبته لقريش، من زعيم الأحابيش، بل إنه انفصل بقواته عنه، وعاد راجعاً من حيث أتى؛ بعد أن تبيّن له من حق المسلمين في هذا النزاع ما تبيّن، ومن كذب وافتراء واعتداءات من جانب قريش الشيء الكثير، الأمر الذي جعل حلفاء قريش الأقوياء يناوون عنها.

وبذلك فقد تحقّق للنبي ﷺ، نجاح خطته الإعلامية في فصل حلفاء قريش عنها، وكسبهم إلى جانبه.

**الدرس الثالث: التكرار الإعلامي:** ويقوم هذا المبدأ الإعلامي على الإعلان عن الدوافع والرغبات والأغراض المطلوبة، ومن ثم الإصرار عليها، وذلك بتكرار المطالبة بها حتى تصبح هذه المطالبات وكأنها أخذت صفة الموافقة والقبول والشرعية.

وهذا ما حصل فعلاً في أزمة الحديبية، فقد كان الرسول ﷺ يعلن بوضوح وبصورة دائمة منذ خروجه من المدينة المنورة، تارة بالصراحة الكلامية، وتارة بالرموز الإعلامية، من أنه ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ إنما جاؤوا من أجل أداء العمرة وتعظيم البيت الحرام، وإبلاغ الهدي محله والانصراف، حتى أن هذه المتطلبات باتت معروفة تماماً لدى جميع القرشيين وحلفائهم على حد سواء، وحتى لدى كافة عرب المنطقة المجاورة وعرب الجزيرة العربية بأكملها تقريباً.

ويعتبر التكرار الإعلامي من الأمور التي تساعد على نجاح الرسالة الإعلامية، وتزيد من فعاليتها وتأثيرها الدعائي.

وتوضح لنا هذا المفهوم د/ رشتي بقولها: «يؤمن عدد كبير من علماء الاتصال بأن تكرار الرسالة الإعلامية من العوامل التي تساعد على الإقناع، وينعكس هذا الإيمان في الحملات الإعلامية التي تعتمد

على تكرار الرسالة الإعلامية، ولكن اكتشفَ الباحثُ روز، وهو يستعرض الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع، أن التكرار - خاصة التكرار على فترات - يزيد من فاعلية الدعاية التي تحض على التسامح، ويتفق هذا الرأي بشكل عام، مع رأي بعض علماء النفس، أمثال نورديك، وبعض العاملين في مجال الدعاية ومنهم جوزيف جوبلز وغيره». [الأسس العلمية لنظريات الإعلام - د/ جيهان رشدي ص ٥٠١ - دار الفكر].

**الدرس الرابع: استخدام الحرب النفسية:** وعن أهمية استخدام الحرب النفسية في هذا النزاع، فقد استخدم الرسول ﷺ، أرقى أساليب الحرب النفسية في التأثير على الروح المعنوية لعدوه، وبالتالي، إضعاف الروح القتالية له.

ومن ناحية أخرى فإنه ﷺ كان كفؤاً بارعاً في تحصين أصحابه ووقايتهم ضد هذه الحرب التي تؤثر في القلوب والعقول، فكان ﷺ يعمل بشتى الطرق والوسائل على رفع معنويات أصحابه، وفي الوقت نفسه كان يعمل بشتى الطرق والوسائل أيضاً على تحطيم معنويات أعدائه.

ويتضح ذلك في المفاوضات التي أجراها عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية، وفي الرسالة الإعلامية التي حملها عروة إلى قريش.

كذلك، وما من شك في أن أزمة الحديبية بأكملها تعتبر أزمة معنويات وحرباً نفسية تؤثر في النفوس والقلوب، وليست معركة خسائر تؤثر في الأرواح والممتلكات.

**الدرس الخامس: الحنكة العسكرية:** ومن هذا الدرس نستفيد ويستفيد الباحثون من حنكة الرسول ﷺ في بُعد نظره، وذلك باستخدام أنجح الطرق الإعلامية للحصول على أخبار عدوه، فقد عمد ﷺ منذ بداية خروجه لهذه العمرة إلى إرسال دوريات استطلاع إعلامية، وأعمال استكشاف لجميع الأخبار الكافية عن أعدائه أولاً بأول، وفعلاً، فإنه ﷺ لم يكذب يصل بأصحابه إلى منتصف الطريق بين مكة والمدينة حتى عرف عن طريق استخباراته كل ما يجب أن يعرفه عن أهل مكة الذين هم في حالة حرب مستمرة معه، وبذلك، فإنه استطاع أن يرصد حركات أعدائه ومواقعهم ونواياهم، وأن يؤمن لجيشه الحماية الكافية التي تستند إلى واقع علمي مدروس، وبالتالي إحراز النصر الإعلامي والعسكري.

**الدرس السادس: في توخي الهدف:** لقد كان وجود الرسول ﷺ بأصحابه الكرام، طوال مدة بقائه في منطقة الحديبية، وهي مده ذكرها الواقدي بأنها تقدر بحوالي عشرين يوماً [مغازي الواقدي ٦١٦/٢]، وتعتبر هذه الفترة من أخرج الفترات التي مرت بها الدعوة الإسلامية، حيث كان الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ههنا، يعيشون في منطقة جدداء قليلة العشب والماء، ويحيط بهم أعداؤهم من كل جهة، ولا مجال لتلقي الإمدادات العسكرية والتموينية، لبعدهم عن مقرهم الرئيسي في المدينة المنورة، ولوجودهم بين أعدائهم.

ومع ذلك فقد أعطى رسول الله ﷺ درسًا رائعًا في الصبر والثبات والتحمل، في مواجهة ضروب الحرب النفسية، وفي الإصرار على توخي الهدف.

ولقد صبر رسول الله ﷺ، في البأساء والضراء، وثبت في جميع المواقف وفي أشدها حرجًا، وكان مسيطرًا على أعصابه سيطرة كاملة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، رغم الاستفزات المتكررة من المشركين والمتهورين منهم، ومحاولاتهم المتوالية لإشعال فتيل الحرب، ومع كل هذا ظل ﷺ مصرًا على هدفه السلمي، فيرسل الوفود الإعلامية، ويستقبل الوفود الإعلامية، حتى تحقق له ما أراد، فكان بهذه السياسة الإعلامية يعمل على تحقيق كل معاني العبودية والطاعة الكاملة لله تعالى في توخي الهدف السلمي، وذلك بناءً على الإشارة الإلهية التي تلقاها ﷺ في حادثة برك الناقة.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب: «إن توخي الهدف يعتبر مبدأ من مبادئ الحرب المهمة، وهو أن نعرف هدفنا تمامًا، ونفكر بأحسن طريقة للوصول إليه، ومن ثم نقرر خطة مناسبة للحصول عليه، وننفذ تلك الخطة، جاعلين هدفنا الرئيسي وحده نصب أعيننا دون أن تعيقنا أو تغير من خطتنا الأهداف الثانوية الأخرى».

ويضيف خطاب قائلاً: «وقد برز توخي الهدف عند الرسول ﷺ في غزوة الحديبية بأجل مظاهره، حتى يمكن أن تكون دروس هذه الغزوة من أروع الأمثلة المفيدة للذين يريدون أن يفهموا معنى توخي الهدف». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٠].

الدرس السابع: الصبر والثبات على الدين: لقد أثبت الإسلام عمليًا للعالم أجمع من خلال حادثة أبي جندل ؓ، أنه يستطيع الاطمئنان كل الاطمئنان على أبنائه، في أن يعيشوا في أي مجتمع من مجتمعات الدنيا وتحت أي ظرف من ظروفها دون أن يتأثروا بها حولهم من أفكار، أو آراء، ودون أن ينال منهم الخوف أو التهديد، أو العذاب النفسي والجسمي أي منال.

وإن هذه الحقيقة لتعتبر من الميزات التي ينفرد بها الإسلام وحده دون غيره من الديانات الأخرى. وقد تمثل هذا المفهوم في حادثة أبي جندل ؓ، فقد كان حقًا اختبارًا قاسيًا وامتحانًا شديدًا وصعبًا لشاب مسلم يفر بدينه إلى المسلمين، ثم يُنتزع منه انتزاعًا ليرمى به مره أخرى في جحيم الشرك، ثم يعود أبو جندل ؓ مرة ثانية إلى قيوده ليعاود العيش من جديد في مجتمع الشرك والوثنية، تنفيذًا لأمر نبيه الكريم ﷺ، بالصبر والاحتساب، وباليقين الذي لا يتزعزع، من أن الله ﷻ سيجعل له ولن معه من المستضعفين في مكة فرجًا ومخرجًا.

وبهذا فإن المسلم الحق يكون دائمًا مستعدًا لأن يدفع ضريبة الإيمان بكل صدر رحب، ونفس طيبة، متمسكًا بدينه وعقيدته، غير مبال لما يتعرض له من أساليب القسوة والإرهاب والتجويع، ووحشية

التعذيب؛ لأن المؤمن يتطلع إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين، فهو يعيش في هذه الدنيا لله ويموت، من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وهذا هو معنى الإيمان الحقيقي.

**الدرس الثامن: الوفاء بالعهد:** ولعل من أبلغ الدروس في صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة، من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه.

وقد تجلّى حرص الرسول ﷺ والمسلمين على الوفاء بعهودهم بأجلى صورته، وذلك في مثل تلك الوقائع التي كان فيها الوفاء بالعهد شاقاً على النفوس البشرية، صعباً عليها؛ وذلك لتصادمه مع عواطف المسلمين القلبية ومشاعرهم الوجدانية، ولكن المسألة في هذا الأمر لا يُستجاب فيها لنداء العاطفة، بل يلي فيها نداء المبدأ الذي اتسمت به شرعة الإسلام، وهو الوفاء بالعهد، وإن تصادم مع ما ترغب فيه النفوس، وتميل إليه المشاعر.

ومن هنا فقد كان درس حادثة أبي جندل ؓ امتحاناً قاسياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل ؓ الذي استطاع أن يفر بدينه وأن يلتجأ إلى أسرة الإسلام بالحديبية، ولقد تأثر المسلمون لمنظر أخيهم المسلم المؤمن عندما كان أبوه يجتذبه من تلايبه، والدماء تنزف منه؛ مما زاد في إيلاهم حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفافاً منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسجبه بفظاظة الوثني الجلف ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة.

وتأتي من ناحية أخرى حادثة أبي بصير ؓ التي جاءت في أعقاب صلح الحديبية مباشرة، عندما استطاع أبو بصير ؓ أن يفر بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة وأن يلتحق بالرسول ﷺ في المدينة. فلما قدم الرجلان اللذان بعثت بهما قريش إلى المدينة لاستلامه، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْعُدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَمُخْرَجًا، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُرَدِّنِي إِلَى الْمَشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟ قَالَ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجًا وَمُخْرَجًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٣].

فانطلق معهما، وقد شق ذلك على نفوس المسلمين وهم ينظرون بحزن إلى أخيهم في العقيدة وهو يعود إلى سجنه بمكة، بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش.

إن لهاتين الحادتين حادثة أبي جندل وأبي بصير رضي الله عنهما، التي وقعتا في أزمة الحديبية دلالة واضحة على أن الوفاء بالعهود والمواثيق لم يكن مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياة المسلمين، وفي علاقاتهم الدولية.

يقول د/ مصطفى السباعي: «وكما وضع الإسلام للحرب أسس القواعد العادلة والموازن الإنسانية الفريدة، فقد وضع في حالة السلم نظاماً للعلاقات التي تضمن رعاية السلم العام، وتتيح للناس جميعاً أن يحيا في حرية وأمن واطمئنان، ومن أبرز قواعد النظام الإسلامي في هذا، الوفاء بالعهود والمواثيق، إذا يحرص الإسلام في هذا على الالتزام الكامل والإخلاص فيها، وحسن النية في رعايتها، ويُحذّر من نقض العهد بأي صورة من الصور، ذلك أن الميثاق الذي يعقده المسلم لا يرتبط به أمام الناس فحسب، بل إنه ينبعد في الوقت نفسه بينه وبين الله تعالى، إذ يجعل المسلم ربه شهيداً وكفيلاً على عقوده والتزاماته، فهو أمر متغلغل في النفوس، متصل بعقد الإيمان، بحيث لا تبقى قوة في الأرض أن تحلله منه سواء في ذلك دوافع المنفعة، أو طلب النفوذ، أو زيادة الرخاء، أو التوسع الاقتصادي، أو التوازن السياسي، أو غير ذلك». [أخلاقنا الاجتماعية ص ١٤٧ - المكتب الإسلامي - بيروت].

وقد أوصى الله ﷻ بالوفاء بالعهود، وحذّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْفَالاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١) [النحل].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولا﴾ (٢) [الإسراء].

وقال ﷻ: ﴿وَالْمُؤُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها.

ويحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة عن الوفاء بالعهد من حيث اعتباره قوة تؤمن السلام والطمأنينة والاستقرار للشعوب، فلنستمع إلى ما يقوله عن هذا الموضوع: «لا شك أن المسلمين يعتقدون بأن الوفاء بالعهد في ذاته قوة، فوق أنه عدالة وفضيلة، وهو دعامة أساسية من دعائم السلام، إذ أن العهد في ذاته قوة، والتزامه قوة؛ لأنه يؤمن فيه جانب الاعتداء، ويثبت دعائم السلام، والسلام تطمئن فيه الشعوب وتستقر؛ ولذلك شبه القرآن الكريم من ينقض عهده بأنه كالحمقاء التي تغزل غزلها، فتحكمه وتقويه، ثم بعد ذلك تنقضه أنكاثاً، أي أجزاء صغيرة متفرقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً مِّنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢].

[الوحدة الإسلامية ص ٣٣٢ - دار الفكر العربي - القاهرة].



وبهذا فإننا ننتهي إلى القول بأن الوفاء بالعهد يعتبر عند المسلمين قاعدة هامة من قواعد الدين الإسلامي الحنيف التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها وأن يحافظ عليها.

الدرس التاسع: دروس مستفادة من الغزوات والسرايا الحربية: لقد رأينا خلال دراستنا لهذه الغزوات الصغيرة والسرايا الاستطلاعية بأنها كانت عاملاً رئيساً لحماية الدعوة الإسلامية، ولتنشيط حركة الإعلام الإسلامي في تلك الفترة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الهدف من هذه الغزوات والسرايا لم يكن يرمي إلى تحقيق مغنم حربي أو هدف عدواني، كما هو الحال بالنسبة لجيوش الغزاة المحتلين، ولو كان كذلك لكان الأولى بأن يكون عدد أفراد هذه السرايا أكثر مما كان عليه بكثير.

والجدير بالذكر أن الرسول ﷺ كان يملك القوة العسكرية التي تمكنه من تجهيز الجيوش الكبيرة لغرض السيطرة العسكرية على كافة المناطق الشالية لشبه الجزيرة العربية، ولكنه حقيقة لم يكن يهدف إلى اتباع هذا الأسلوب في نشر دعوته، ولقد رأينا أن متوسط القوة لمعظم هذه الغزوات والسرايا كان ما بين ثلاثين إلى خمسين رجلاً، وهذا العدد بطبيعة الحال لا يكفي، من وجهة النظر العسكرية بأي حال، من الأحوال، لغرض السيطرة والاحتلال، ومن هنا تتضح لنا حقيقة هذه الغزوات وأهدافها الرئيسة بما يلي:

- ١- إنها كانت مجرد إجراء وقائي لتأمين حرية الكلمة، وتأمين حرية الدعوة الإسلامية.
- ٢- لإظهار هيبة المسلمين حتى لا تستضعفهم القبائل، ولقد رأينا كيف أن بعض هذه الغزوات انطلقت من المدينة المنورة لإحباط هجوم بعض القبائل الذين تجمعوا للانقضاض على قاعدة المسلمين في المدينة المنورة.
- ٣- حماية الدعاة المسلمين من غدر القبائل، وخاصة بعد مقتل مبعوث رسول الله ﷺ إلى عامل هرقل على بصرى الشام.

وهذه مجمل الأهداف والمقاصد التي كانت هذه الغزوات والسرايا الصغيرة ترمي إلى تحقيقها. ويوضح لنا د/ عبد اللطيف حمزة هذه الحقيقة بقوله: «إن بعوث النبي ﷺ وسراياه إلى حدود الروم وغايتها الإعلامية كانت تأميناً للحدود الإسلامية، وتخويفاً للأعداء من هيبة الإسلام، وإعلاماً لهم بذلك؛ حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده.

وهكذا كان يشعر النبي ﷺ دائماً بأن عليه واجب كبيرين هما:

- ١- تأمين حماية الدين الإسلامي في الداخل.
- ٢- حمايته من الخارج.

ومن أجل ذلك كان لا يشتبك مع العرب إلا دفاعاً عن النفس وعن الدين، وفي الوقت نفسه كانت هذه البعث الحربية التي تصل إلى حدود شبه الجزيرة العربية من ناحية الدولة الرومانية تعتبر بعوثاً استطلاعية، وكانت تستعين في هذا الاستطلاع بالقبائل العربية الموالية للنبي ﷺ.

[الإعلام في صدر الإسلام ص ١٧٣ - دار الفكر العربي - القاهرة].

هذا ولقد ساعدت هذه الغزوات والسرايا الصغيرة من جهة أخرى في تنشيط حركة الإعلام الإسلامي، وتوجيه انتباه الناس واهتماماتهم نحو هذا الدين الجديد؛ حتى أصبح الحديث عن هذا الدين هو موضوع الساعة في جميع أنحاء المنطقة الشمالية خاصة، وشبه الجزيرة العربية عامة، مما أدى إلى تحقيق نتائج إعلامية رائعة.

ولا شك أن المعاملة الحسنة والحكمة والتفاضل بالتقوى التي كان المجتمع الإسلامي قائماً على أساسها قد ساعدت كثيراً في ترحيب الناس بهذا الدين الجديد وتفضيله على غيره من الديانات الجاهلية أو المحرفة الأخرى، فقد وجد الناس في هذا الدين ضالّتهم المنشودة، فإطمأنت به نفوسهم وقُرت به عيونهم، وارتاحت به عواطفهم وجوارحهم، وأخذت أنباء هذا الدين تُمجِّج في البوادي والحضر، وتتبع الناس أخبار الوقائع التي غيرت وجه الجزيرة العربية، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

يقول د/ توماس آرنولد معترفاً بعظمة الإسلام وسموه: «لقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفراداً شتى من القبائل، ولا سيما من كان يقيم منها في جوار المدينة ليزداد بها أتباع النبي ﷺ، وأن المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي ﷺ واهتماماته بالنظر في مشاكلهم ومشاكلاتهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، كل ذلك جعل اسم النبي ﷺ مألوفاً لديهم، كما جعل صيته يُذاع في كافة أنحاء الجزيرة العربية، سيّداً عظيماً ورجلاً كريماً».

[الدعوة إلى الإسلام ص ٣٩ - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة].

وفي ضوء هذه الحقائق الثابتة، فإنه يمكننا الآن أن نتصور المردود العظيم، والنجاح الإعلامي الضخم، الذي حققته هذه الحديبية في مجال الدعوة الإسلامية في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها.

ولنستمع إلى هذا التقرير التاريخي الذي كتبه مجموعة من الأساتذة والمؤرخين ورجال الفكر حول هذا الموضوع، جاء في هذا التقرير ما يلي: «لم يقاتل رسول الله ﷺ في أي من غزواته من أجل الحرب، أو طمعاً في مال الدنيا أو جاهها، بل كان الهدف منها جميعاً حماية للعقيدة؛ ولإعلاء كلمة الله، ورد العدوان، وتوطيد السلام، فعندما أظهر يهود المدينة بعد الهجرة ميلاً إلى السلم، شجع الرسول ﷺ ذلك، وعقد معهم معاهدة أمنت للجميع حرية العقيدة والأمن، ثم حالف ﷺ كل قبيلة أبانت عن رغبتها في السلام، بل إنه كان يبذل كل جهده لتحقيق أغراضه السلمية حتى لو أدى ذلك إلى تدمير بعض أصحابه كما حدث

في غزوة الحديبية، حيث انتشر الإسلام انتشارًا عظيمًا بين الناس بعد إبرام معاهدة الصلح بين المسلمين والمشرّكين». [د/ أسعد سليمان عبده، ود/ طه عثمان الفراء، ود/ أحمد موسى البكري، ود/ محمد سعيد الثقفي، ود/ حامد شاكر حلمي: كتاب التاريخ الصف الأول الثانوي ص ٧٣ طبعة أولى. وهذا الكتاب يُدرس في مدارس المملكة العربية السعودية].

وبهذه النتائج الرائعة التي حققتها الدعوة الإسلامية من معاهدة الحديبية، فإنه يمكننا القول بأن هذه المعاهدة قد جاءت لتُطلق العنانَ للدعوة الإسلامية بأن تمارس نشاطاتها الإعلامية الواسعة والمتنوعة في ظل السلم والأمان الذي حققه لها صلحُ الحديبية، وقد تمثل هذا النشاط بدخول الأعداد الضخمة في دين الإسلام في فترة قصيرة جدًا من عمر هذه الدعوة، ألا وهي الفترة الواقعة بين صلح الحديبية وفتح مكة المكرمة، مما يثبت بأن هذا الدين كان ينمو ويتعش في أجواء السلم والأمان أكثر منه في وقت الحرب».

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٣٢١-٣٣٣، وينظر للتفصيل: المضامين التربوية المستنبطة من صلح الحديبية للحجاني: ١٢٥-١٥١].

## المبحث السابع

### العرض القرآني لغزوة الحديبية

#### ١ - جو سورة الفتح:

يقول صاحب الظلال: «رأينا هذا الجو الذي نزلت فيه السورة، الجو الذي اطمأنت فيه نفس الرسول ﷺ إلى إلهام ربه، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوي الصادق، ومضى يستلهم هذا الإيجاء في كل خطوة وفي كل حركة، لا يستفزه عنه مستفز، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية، ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم، ففأثروا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق، كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر، شأن الصديق أبي بكر ؓ الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله ﷺ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائماً، ولم تفارقها الطمأنينة أبداً.

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله ﷺ، فرح لها قلبه الكبير فرحاً عميقاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ②﴾ [الفتح].

كما جاء في الافتتاح، الامتنان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب، وعون السماء بجنود الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ③ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ④﴾ [الفتح].

ذلك مع ما أعدّه لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ⑤﴾ [الفتح].

ثم التنويه ببيعة رسول الله ﷺ واعتبارها بيعة الله، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ⑥ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑦ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَعْزُوبُهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ⑧﴾ [الفتح].

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية - إلى الأعراب الذين تحلفوا عن الخروج، فيفصح معاذيرهم، ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله، ومن توقع سوء للرسول ﷺ ومن معه، ويوجه الرسول ﷺ إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل،

وذلك في أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضعف المخلفين، كما يوحى بأن هنالك غنائم وفتوحاً قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يَقُولُونَ يَا لَيْسَ بِهِمَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَسَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِغَيْرِ لِحْمٍ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ تَكْسِدُ وَنَأَى بَلْ كَانُوا لَا يَتَفَقَهُونَ إِلَّا لِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أُولَئِكَ سَيُدْبِرُ أَعْيُنُهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ [الفتح].

وفي هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا، والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه، وهو العذر الوحيد: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح].

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوارج نفوسهم، حديثاً كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم، وكله بشریات لهذه النفوس الخالصة القوية، البائسة المتجردة، حديثاً يتجلى فيه الله ﷻ على هذه المجموعة المختارة من البشر، يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتبتيته، ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض، وأنه كان حاضراً وهم يبايعون في مكان بعينه: ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، وأنه اطلع على ما في نفوسهم، وأنه راضي عنهم، وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود، وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أُسْطِطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴿٢١﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ أَلَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ سُنَّةَ اللَّهِ

ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى، ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام، وصدوا الهدى أن يبلغ محله، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام

عنهم، وفضله في ترضيتهم بما كان، وإنزال سكينته في قلوبهم، لأمر يراه، وهو أعظم مما يرون، وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتديره: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ١١﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُتُيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٢﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُغْمِيَّةً حِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ١٣﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مَخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ١٤﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِالنَّحْيِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ١٥﴾ [الفتح].

وتختتم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختلفة من البشر، وتفرد بها بسمتها الخاصة، وتنوّه بها في الكتب السابقة: التوراة والإنجيل، وبوعد الله الكريم بالغفرة والأجر العظيم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ مِنْهُ خُطْمُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَخْلَفَ فَاِستَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ١٦﴾ [الفتح].

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة، تعيش في جوها الذي نزلت فيه، وتصوره أقوى تصوير، بأسلوب القرآن الخاص الذي لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها، ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية، ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة، والموقف الخاص بالأصل الكوني العام، ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد.

ومن سياق السورة وجوها، وبالموازنة بينها وبين إحياءات سورة محمد ﷺ التي قبلها في ترتيب المصحف، يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة، في مدى السنوات الثلاث، التي نرجح أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول، ويتبين مدى فعل القرآن الكريم، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن، وفي رعاية النبوة، فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل.

واضح في جو سورة الفتح وإحياءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة، وتجانست مستوياتها الإيمانية، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين، ولم تعد محتاجة إلى حوافر عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال، بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها، وينهتج حدتها، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء، والمهادنة بعض الوقت، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة.

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد ﷺ]، ولا بمثل قوله تعالى: ﴿هَذَا نَسْرُ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفُوقٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد ﷺ].

ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة، ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد إذ يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبِّئُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [سورة محمد ﷺ] وَيُضِلُّهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ [محمد ﷺ].

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم، والمقصود بها تهدئة قلوبهم، وتخفيض حميتهم، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ﷺ في المهادنة والملاينة، وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة، وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه.

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح]، فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة، والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهي إشارة عابرة، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة، وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها.

وهي على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئاً مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود، وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل.

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها، والإشارات إلى الفتوح المقبلة، وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله.. كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين.

ففي حقيقة النفوس، وفي حال الجماعة، وفي الظروف المحيطة بها، حدث تطور واضح، يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية، ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالة على أثر المنهج القرآني والتربية المحمدية، لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ، ثم إن هذا التطور إيجائه للقائمين على الجماعات البشرية، فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته، وآثار البيئة والوسط،

وجواذب الأرض، وثقله اللحم والدم.. وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة، ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج، تأخذ في التحسن والتطور.

والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور، حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه، وشيئاً فشيئاً تخف ثقله الطين، وتشف كثافة اللحم والدم، وتتوارى آثار البيئة، وتصفو رواسب الماضي، وتستشرف القلوب آفاقاً أعلى فأعلى، حتى ترى النور هناك على الأفق الوضيء البعيد، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم». [في ظلال القرآن ٦/ ٣٣١٢-٣٣١٦].

## ٢ - منهج القرآن في عرضه لغزوة الحديبية:

يقول د/ آل عابد: «تحدث القرآن الكريم عن غزوة الحديبية في سورة الفتح، وسنين إن شاء الله هذا المنهج حسب الآيات الموجودة في المصحف؛ لأننا متعبدون بقراءة القرآن الكريم على حسب ترتيب المصحف وليس على النزول.

(١) فنجد في حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة العظيمة أن سمي الصلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾ [الفتح].

بالرغم من الفتح المفهوم من بداية الآية الأولى من هاتين الآيتين فإننا نجد بالتأمل في أسباب النزول أن سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النبي ﷺ من الصلح وهو عائد إلى المدينة المنورة وبعد أن خاض النبي ﷺ والمؤمنون تلك التجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين إلى بيعة الرضوان إلى الصلح الذي لم يكن بعض الصحابة الكرام عنه راضين دارت في أنفسهم أشياء كثيرة حول هذه الأحداث الجسام...

ينزل القرآن الكريم من الله كالبلسم للجراح، والضوء للطريق في الظلام ليقول إن هذا الصلح هو فتح مبين فيطمئن حيثئذ من التبس عليه الأمر سابقاً ويؤكد أن النبي ﷺ كان على صواب في قبوله الصلح، بل لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح هذا الفتح بالصلح ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقة واطمئناناً بأنهم على الصواب، وأن ما فعلوه هو الحق ومآله السعادة.

(٢) ثم يبين سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين فهو الذي وفقهم للصبر مع رسوله وموافقته أخيراً على ما جنع له من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح واستسلم للأمر على مضض، فلم يحصل رفض لهذا الصلح بل كلهم نزلوا على أمر



رسوله ﷺ بفضل السكينة التي أنزلها الله عليهم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾.

فالقرآن الكريم يبين أن الله هو الذي أنزل هذه السكينة عليهم ليتذكروا فضله فيداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يميز به حديث القرآن عن هذه الغزوة إذ السكينة أمر معنوي لا يعلم نزوله إلا الله، وإنما يشعرون به في أنفسهم، فهذا الحديث أخبرنا به الله عن شيء معنوي فنصدق به كمال التصديق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء].

(٣) ثم إنه جاء في سبب النزول قول المؤمنين - وهم في طمع رحمة الله: هينًا مريدًا يا نبي الله بين الله وبينك هذا ما يفعل بك فما يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رِيشُكَفَرَعَنَّهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾.

فبين سبحانه ما للمؤمنين من فضل بعد هذا العناء وهذا الجهد بسبب هذه الغزوة، ولعل الله جعل نزولها بعد أن يسأل المؤمنون ما لهم؟ ولم ينزلها ابتداء؛ تشويقًا لهم بعد أن فرحوا بها للنبي ﷺ من مغفرة أن يسألوا ما أعد لهم.

(٤) كما عُرف في أسلوب القرآن الكريم في الترغيب والترهيب فإنه لما ذُكر ما للمؤمنين الأبرار الذين حضروا صلح الحديبية، بين ما للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من عقوبة عند الله، وبين - سبحانه - ظنهم السيء به، فقال تعالى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَنَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

(٥) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقْضِيَهُ وَنُفَرِّقُوهُ وَنَشْجُوهُ بِكُفْرَةٍ وَاصِيلًا ۝٩﴾.

هذا تأكيد منه - سبحانه - للمؤمنين بأن النبي ﷺ معصوم من الخطأ، وأنه مرسل من عند الله، فكل ما يصدر منه يجب أن يُسلموا به، ويُدعنوا له.

(٦) ثم أشار ﷺ إلى حدث هام حدث قبل صلح الحديبية وهوبيعة الرضوان، فقد دعا النبي ﷺ إلى هذه البيعة، بعد أن حبست قريش عثمان بن عفان عندها، وشاع بين المسلمين أنه قُتل، فندب ﷺ إليها وحث الصحب الكرام عليها، فبايعوا على الموت، فأثنى ﷺ على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن، وقرر أنها مبايعة لله ﷻ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَةٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

وهذا نرى ما يتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات فهو يبين الحقائق ويصحح العقائد، ويربي النفوس.

(٧) ثم تبرز هنا سمة خاصة من خصائص حديث القرآن عن الغزوة حيث يخبر سبحانه عن فرقة الأعراب التي تخلفت، فيبين ما سيقولونه من أعذار، ويبين حالهم بالتفصيل، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بَلْ لَيْسَ بِهِمْ مَالٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَبْغِيَنَّكَ مِنَ الْأَعْرَابِ نَفَقًا أُولَئِكَ هُمُ الْفٰكِرُونَ ۚ﴾ (١١) ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۚ﴾ (١٢) ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۚ﴾ (١٣) ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۚ﴾ (١٤).  
فقد أخبر - سبحانه - عن اعتذارهم قبل أن يصدر منهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية.

وبيّن حقيقة اعتذارهم: ﴿يَقُولُونَ بَلْ لَيْسَ بِهِمْ مَالٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَبْغِيَنَّكَ مِنَ الْأَعْرَابِ نَفَقًا أُولَئِكَ هُمُ الْفٰكِرُونَ﴾، فالذي يطلع على سر القلوب هو الله وحده.

وبيّن ما في نفوسهم: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ الآية.

(٨) ثم تحدث عن أمر كان غيباً، وهو خروج النبي ﷺ لغزوة خيبر، فيبين أن هؤلاء الأعراب سيقولون: دعونا نخرج معكم فنأخذ من غنائم خيبر، وأخبر - سبحانه - بأنهم محرومون منها عقاباً لهم، ويبين جميع ما سيصدر منهم، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِنَاْ أَخَذُوهَا ذُرُوءًا نَّعْبَعُكُمْ يَبْرُدُونَ أَنْ يُوَافِكُمْ اللَّهُ قُلْ لَنْ تَنصِبُونَا كَمَا لَكُمْ أَلَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقَفُّونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ﴾ (١٥).

وحديث القرآن هذا دليل أياً دليل على رعاية الله لهذا الجيل، وفيه تميز، فسبحانه حين يخبر عن هذه الفرقة المتخلفة عن غزوة الحديبية يخبر عن الغيب، ثم أمر الله ﷻ النبي الكريم سيدنا محمداً ﷺ أن يخبر المخلفين أنهم وإن منعوا من غنائم خيبر لكنهم سوف يُدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد يقاتلونهم، فالباب أمامهم مفتوح والأمل أمامهم موجود، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ﴾ (١٦).

ولا يفوتني هنا أن أقرر أن إخبار الله تعالى عن اعتذار المخلفين من الأعراب قبل صدوره منهم، وبيان حقيقة ذلك الاعتذار، وبيان ما في نفوسهم، والإخبار عن خروجه ﷺ إلى غزوة خيبر قبل حدوثه، وأن الأعراب سيطلبون السماح لهم بالخروج، كلها أمور من الغيب المستقبل تدل على إعجاز القرآن وأنه كلام الله ﷻ! ومن يخبر عن المستقبل غير الله.

(٩) ثم بيّن ﷺ أصحاب الأعدار، فليس كل من تخلف يُعاتب، وإنما هناك استثناء، وهذا من كمال الرحمة الإلهية، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾.

(١٠) ثم نجد القرآن يواصل حديثه عن البيعة العظيمة ويستفتح الحديث عنها بتعجيل الفوز الأعظم الذي ناله أولئك المبايعون، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ لَا أَدْبَرْتُمْ لَاجِدْرًا وَلَا تَصْبِرُوا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾.

سبق أن بيّن ﷺ حقيقة بيعة الرضوان، وأنها مبايعة لله ﷻ، ثم بيّن في هذه الآيات أن الله قد رضي عن الذين بايعوا في هذه البيعة السعيدة، وأن لهم درجة الرضا.

فهذه نتيجة البيعة، ولم يكن لنا علم بها لولا أن أعلمنا الله بها وهي كما يلي:

١ - فاز المؤمنون بالرضا من الله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ - أطلع الله على قلوبهم: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ - أنزل عليهم السكينة: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ - كافأهم بنعم كثيرة: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا﴾.

(١١) ثم ذكر ﷺ المؤمنين بنعمة عظيمة أنعم بها عليهم في هذه الغزوة فقال تعالى: ﴿وَهُرَّ اللَّيْلى كَفَّ

أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾.

فالنعمة كانت طواف ثمانين من المشركين بمعسكر النبي ﷺ وأصحابه ليصيبوا منهم، فأخذهم أصحاب رسول ﷺ قبل أن يتمكنوا مما أرادوا، وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ فغفا عنهم وخلي سبيلهم، فكان ذلك مما يسر الصلح.

(١٢) ثم نجد الآيات الكريمة بعد هذا تتحدث عن أعمال الكفار السيئة، تتحدث عن ظلمهم وأن

الحق مع المسلمين.

ثم تُبيّن بعد ذلك حكمة كف القتال في هذه الغزوة، وهذا لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَيَنْصَبِكُمْ فَنُفِّرُ بَعْضُهُمْ عَلَى لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ شَاءَ لَوْ تَزَلَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾.

(١٣) ثم بين - سبحانه - أن موقف الكافرين على نقيض موقف المؤمنين، فالكافرون أخذتهم الحمية  
حمية الجاهلية، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى  
رَسُولِهِ. وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾.

(١٤) ثم لما تم صلح الحديبية وعاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ما قصدوه من دخول مكة أشار  
سبحانه إلى الرؤيا التي سبق أن رآها النبي ﷺ، وبشّر بها أصحابه وبيّن أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق،  
قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحِيطِينَ رُءُوسَكُمْ  
وَمُقَاصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾.

(١٥) ثم ختمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي ﷺ ولأصحابه الكرام، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي  
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ محمدٌ رسولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى  
الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي  
التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّمَ اللَّهُ الْفَيْضَ فَاصْتَبَقْهُ فَاصْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ  
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾.

[حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ٢/ ٥٤٨-٥٥٥].

ويقول الشيخ شقرة: «كان صلح الحديبية امتحانًا لكثير من الصحابة لم يسع بعضهم إخفاء  
فانصرفوا عنها وقلوبهم مترعة حزنًا، ولولا إيمانهم الصادق، وتسليمهم المطلق لكل ما يُمضيه النبي ﷺ  
عليهم من أمر أو نهي لأصابهم شيء من الوهن أقعدهم عن القيام بحق رسول الله ﷺ فيما بعد، غير أنهم  
كانوا في بشرتهم فوق ما تطيقه بشرية سواهم من الإخبات والطاعة والرضا.

أخبرهم رسول الله ﷺ قبل مخرجهم إلى الحديبية وهم بالمدينة أنه رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف  
بالبيت، فلما ساروا إلى الحديبية كانوا على يقين أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا، فلما وقع ما وقع من  
الصلح رجعوا وفي نفوس بعضهم من ذلك شيء، وكان منهم عمر رضي الله عنه الذي سأل النبي ﷺ قائلاً: أَلَسْنَا  
عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قِتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي  
دِينِنَا، وَتَرْجِعُ وَلَكِنَّا نَحْكُمُ اللَّهَ بَيْنَنَا، فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يُضَيِّعُنِي اللَّهُ أَبَدًا»، فَرَجَعَ  
مُنْعِيطًا، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ  
الْخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ يُضَيِّعُهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَتَرَكْتُ سُورَةَ الْفَتْحِ. [البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٤)].

ونزل مصداق هذه الرؤيا بخاصة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ  
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحِيطِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَاصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا  
قَرِيبًا ۝﴾ هو الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ [الفتح].

إِنبَاءَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وتبشيراً له ولأُمته أنه سيكون لهم الغلبة على الأمم، والعلو والتمكين في الأرض وظهور دينهم على الأديان كلها.

ونزل في ما حَلَّ في قلوب الصحابة ﷺ من سكينه وتسليم وحب لما كان الصلح الذي كرهه بعضهم بادئ الأمر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠﴾ [الفتح].

وموقف المنافقين في كل الأحوال واحد لا يتغير إلا بأسلوبه وشكله الظاهري، وجزاؤهم على ذلك أيضاً واحد لا يتبدل، قال تعالى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهَ وَالْمُتَّقِنَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةَ الطَّائِفَاتِ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١﴾ [الفتح].

وقد كانوا يظنون أن الرسول ﷺ وأصحابه سيقولون بأساً شديداً من المشركين فيستأصلون استصلاً، فتذهب شوكتهم، وتغور قوتهم ويخلو الميدان لهم وحدهم: ﴿الطَّائِفَاتِ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوَةِ﴾، فيعود لهم سوددهم في العرب الذي أذهبه محمد ﷺ وأصحابه، وإذا عاد الرسول ﷺ سالماً اعتذروا إليه قائلين: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ۖ وَتَتَّبِعُونَ ذَلِكَ بِكُلِّ قِحَّةٍ وَصَفَافَةٍ وَقَلَّةٍ ذُوقُوا وَادَّبُوا قَوْلَهُمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۖ وَيَسْجَلُ الْقُرْآنُ مَوْقِفَ السَّوَةِ هَذَا فِي آيَات: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٢﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّرْتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ طَرَفَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ١٣﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ إِنَّا عَدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ١٤﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٥﴾ [الفتح].

ومع هذا الموقف السيء للمنافقين، فإن الله سبحانه يأمر نبيه ﷺ أن يبلغهم بأنه سيكون بينهم وبين أقوام آخرين أقوياء ذوي بأس شديد في المستقبل قتال حتى يذعنوا ويسلموا لله ﷻ، فعليهم أن يبادروا إلى خلع أنفسهم من هذا النفاق الذي أقعدهم عن الخروج مع النبي ﷺ لعلهم يرجون من الله توبة تكفر عنهم سيئاتهم، وتردهم إلى صف الجماعة المؤمنة، وإن هم ظلوا على موقفهم الذي أقعدهم عن الخروج مع النبي ﷺ فليس لهم نجاة من عذاب الله ﷻ، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّوْنَ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدٍ تَقُولُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦﴾ [الفتح].

ويحدد القرآن الأعداء التي تبیح للمسلم التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ولا يُحمِّل المسلم على غير ما يطيق، وهي أعداء تضع عن المسلم شيئاً من العبادات التي فرضها الله عليه، فإن احتال على التخلف عن الجهاد بغيرها فهو مُتَوَلٍّ عن الزحف، قاعد عن الجهاد

مُقبل على الدنيا، وليس ينجو من عذاب الله قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [الفتح].  
ولِعَظُم منزلة هذا الصلح الذي كان واحدًا من طرفيه الموقعين عليه محمد ﷺ سباه الله سبحانه فتحًا، وذلك قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝﴾ [الفتح].

يقول ابن كثير: «فتحًا مبينًا، أي: بينًا ظاهرًا، والمراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم والإيمان».  
[تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٣].

أضف إلى ما قاله ابن كثير رحمه الله أن هذا الصلح صار قاعدة من القواعد الأساسية في علاقات المؤمنين بغيرهم من الأمم والشعوب.

فحقيقٌ بهذا الصلح إذا أن يُسمى فتحًا، وأن يُعتبر في عداد الغزوات المهمة الكبيرة التي أدت دورًا عظيمًا خطيرًا على صفحة الجهاد في حياته ﷺ، وأرست قواعد كلية في عقود الصلح والهدنة والعلاقات الدولية في حياة المسلمين من بعد.

من أجل هذا كله وغيره أتبع القرآن هذه الآية بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾ وَيُضِرِّكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [الفتح]، والفتح هو النصر، والنصر هو الفتح، وإذا هو كذلك ففيه تمام النعمة، وليس شيء من نعيم الدنيا مهما بلغ في عظمه ونمائه يعدل في لذة النصر، ولا في نشوته نشوة الفتح، إلا أن تكون لذة الإيمان ونشوته عند من يعرف هذه اللذة، فإنها لذة تُفرغ على صاحبها الطمأنينة، وتغشيه السكينة، وتوثق قلبه بقوائم العرش، وتشعره بالقرب القريب من الله خالقه وسيده، فيطمعه ذلك بعفو الله، ومغفرته لذنبه، فإذا هو في نشوة فوق كل نشوة، وفي لذة فوق كل لذة، حتى لذة الإيمان ونشوته.

وإذا كان محمد ﷺ قد جاوز هذا المقام، فغفر الله له ذنبه كله ما تقدم منه وما تأخر، فإن أمته ستبلغ من مقام نبيا منزلة تعجز عن بلوغها الأمم كلها إن هي لزمت المحجة، واستقامت على الجادة، وأخذت نفسها بأسباب النصر في جهادها عدوها، والجهاد هو الباب الواسع الذي تُقضي منه الأمة إلى رحاب السعادة في الدنيا والرضوان في الآخرة.

وكانت بيعة من المؤمنين للنبي ﷺ تحت الشجرة، أضاءت آفاق الدنيا، وحملت بُشريات النور للعالم كله، وبذلت أشواق الرجاء والتضحية في كل صقع وفج، وسجلت أنبل قدرات العطاء في تاريخ الإنسانية، وامتدت ظلالها حتى أوى إليها الضاحون الظالمون، وظلت على الدهر كلمات راسخة في عقل

الجهاد، يحدث بها الأجيال المقبلة حديثاً راشداً، يقودها إلى التعلق بسيرة من كان قبلها، ممن أعلوا صرح الإيمان في الأرض، ولا مست هاماتهم أديم الساء في عزة وتواضع.

عُرفت هذه البيعة باسم بيعة الرضوان، وسجلها القرآن فيما سجل من أحداث هذه الغزوة المباركة، مظهرًا الكرامة التي أكرم الله بها أصحاب هذه البيعة من رضاه المستلزم الحب، فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ويصرح القرآن في هاتين الآيتين بما أجراه الله من فضل سابغ دائم على أولئك المبايعين الذي امتدت بركته إلى المستقبل، فنالت منها الأمة في كل أعصارها الخير الوفير فيقول: ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾ [الفتح]، فالسكينة المنزلة من الساء والفتح القريب لخير ومكة وما تبعها، والمغانم الكثيرة الوفيرة، والحماية من الله لذلك كله، كل ذلك كفاء ما عَمَّرَ الله به قلوب أصحاب البيعة من صدق في القول والعمل، ووفاء جم أحكم الوثاق بين القول والعمل، وحسن إصغاء لأمر الله، وطاعة له لا تعرف التردد، وذلك قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

والأيدي التي امتدت إلى يد الرسول ﷺ لتأخذ منه البيعة إنما امتدت حقيقة إلى الله ﷻ الذي خلقها، وقدر لها الهداية، ليأخذ الرسول ﷺ عليها البيعة، وإذا كانت البيعة كذلك فإن نقضها أو الإخلال بها إنما هو نقض وإخلال لبيعة وضعها المباح في عنقه اختياراً، فإن وفى فقد وفى لنفسه وسيوفيه الله أجره، وإن نقض وأخل فقد أوقع نفسه في مهلكة بنفسه، فلا يلوم إلا نفسه.

ويفتح الله سبحانه على أولئك المؤمنين المبايعين أبواب البشري، فينقلهم من الحديبية إلى الأرض كلها ينبئهم أن سيكون لهم في كل أطرافها فتح ونصر، وأنهم إن لم يدركوها هم فسيديركها ممن بعدهم من كان على مثل ما هم عليه من الصدق والوفاء والطاعة، قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝١٩﴾ [الفتح]، فإن ماتوا ماتوا وصدورهم مملوءة بشراً ورجاء وفرحاً لمن بعدهم ممن لم يروا: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَشِيرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٠﴾ [آل عمران].

فيزداد أولئك المؤمنون بذلك إيماناً، ويذهب ما ألم بقلوبهم من حزن وألم على فواتهم القتال، حين ينزل القرآن يعلمهم أن الله إرادة في منعهم من قتال المشركين في الحديبية، لا لأن المشركين أولو بأس يُخشى عليهم منه، فلو كان بينهم لكانت الغلبة والعلو للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا أَذْ بَرْثُمْ لَا يُجِدُونَ وِثْرًا وَلَا نَصِيرًا ۝٢١﴾ [الفتح]، وتلك سنته الماضية أن تكون الغلبة لأوليائه على أعدائه، وأن تكون

الرفعة للحق على الباطل: ﴿سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سَنَةَ اللَّهِ بِدَيْلٍ﴾ [الفتح]، وليس يوم بدر ببعيد، فقد أزهق الله فيه الباطل وأرداه، ونصر الحق وأعلاه.

ولكي لا يظل شيء من الحزن عالماً في قلوب الصحابة أن فاتهم القتال الذي كانوا يؤملون معه النصر والغلبة - وكان واقعاً لا محالة لو كان قتال - على المشركين يوم الحديبية، يردهم الله ﷻ في ذلك إلى إرادته وحده، ليس لهم من الأمر فيه شيء، ورغم أن الظفر كان في أيديهم، فكف أيدي المشركين، لم ينالوا من المؤمنين أي أذى يوهنهم في أجسامهم ولا في نفوسهم، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين؛ كي يظل جهدهم محروراً لهم لمعارك قريبة متتابعة، فكأن هذه الرحلة التي قطعوها بين المدينة وبين الحديبية لم تكن إلا ترويضاً لهم على الأسفار الطويلة، واختباراً لصبرهم، وامتحاناً لإيمانهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح]، وبخاصة وأنهم قد خرجوا مع نبيهم ﷺ يبعثون العمرة، لا يريدون قتالاً، فناسب أن يكون الصلح - وفيه حجراً للنفوس عن الإمعان في التفكير في القتال - قاعدة لتحقيق السلم لفترة من الزمن، ينصرف فيها الجهد كله إلى العبادة، لإعداد النفوس وتهيتها للمعارك القادمة.

ولو كان قتالاً في هذه الغزوة وتحققت فيه سنة الله بإظهار المؤمنين على المشركين، لوقعت مأساة عظيمة - لا اختلاط أهل مكة مؤمنهم وكافرهم - ما كان يمكن درؤها إلا بتقدير الله سبحانه أن يكف أيدي المؤمنين عن المشركين، وهي وقوع مقتلة في جماعة المؤمنين المقيمين في مكة، فتكون خسارة المؤمنين جسيمة رغم إدراكهم النصر على المشركين، وهو نصر لا يكافئ تلك الخسارة، وحرص الرسول ﷺ على كل فرد من المؤمنين كان حرصاً لا يعدله حرص أحد، حتى الذين كان سينالهم القتل والجراح، ولم يكن سهلاً على الرسول ﷺ وجماعة المؤمنين أن يميزوا بين المؤمنين وبين المشركين، فيجتنبوا أن يوقعوا بإخوانهم قتلاً وجراحاً؛ فتدركهم معرة، وهذا ما بينه الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمَّا تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح].

وفائدة أخرى ستحقق بعدم القتال، وهي أن يدخل عددٌ من المشركين الإسلام من غير إكراه عليه، بل بمحض اختيارهم وعلمهم أن الإسلام هو دين الحق، وهذا ما يذكره الله بقوله: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وفي هذا كله تظهر حكمة الله سبحانه، وتتجلى - من غير أن تتكلم - لنفوس المؤمنين، أو يتأهبها حدس أن الله أخلفهم وعده.



ويتوج الله سبحانه تلك الأسرار الخافية على المؤمنين التي ظهرت لهم بكل حكمها، بُشِّرَ طارت إلى الدنيا، تنقل إليهم نبأً عظيمًا يراه من يدرکه بعينه، ويؤمن به - لصدق النبي ﷺ - من لم يره، وذلك قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ١٨﴾ [الفتح]، وتلك لعمرك الحق بُشِّرَ تملأ القلوب رجاء وفرحًا، والنفوس سكينه وطمأنينه، والعقول ثقة وحكمة، فيطلق المسلمون يحققون في الأرض وعد الله لهم؛ ليظفروا بشيء من تلك البُشْرِ، فتكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها، لا يزاحمها كلمة، وتكون راية الحق هي الخفافة في الآفاق جميعها، لا تنازعها راية، وتكون السيادة للقرآن في كل أطراف الدنيا، لا تنهض بجانبها سيادة، ويدخل الإسلام كل بيت من وبر أو حَصَر، ويترز إلى ظله كل هاجر ظامئ، ويمكن الله لدولة الإسلام فلا يندُّ عنها إلا شقي.

وعندي أن كل ما أظهرته أو ما أشارت إليه آيات سورة الفتح غنائم ساقها الله بين أيدي المؤمنين؛ ليعلموا أن وعد الله حق، وأن من الغنائم غنائم لا تمسكها الأيدي، ولا تراها العيون، إنما هي أخبار يسوقها الله سبحانه في زمان الوحي؛ ليكون ناقلها إلى الأجيال الآتية الذين سمعوها غصة من فم محمد ﷺ فينال أولئك الثقلة من الصحابة السعادة مرتين مرة بسماها غصة، ومرة بنقلها لمن وراءهم.

وإذا كان للغنائم العاجلة لذة تزول؛ فإن لهذه - غنائم سورة الفتح - لذة تبقى في الأعقاب، تؤكِّد للأجيال المؤمنة إيمانهم، وتوثق لهم عرى الحب المعقودة بينهم وبين الأجيال التي سبقتهم، وغضى بهم في طريق المستقبل، وينظرون من خلالها في رجاء إلى البشريات الماثلة في ذهن التاريخ حقائق لا تقبل النقص ولا الشك، وتعلو بهم فوق هام الأمم، ليظلوا هم القادة الموجِّهين الأخيار لها، فينالوا من الثواب ما تعجز عنه قدراتهم البشرية؛ لأنه ثواب من عند الله سبحانه، وأي غنائم تفوق هذه الغنائم أو تربو عليها؟!

كل ما تحدثنا عنه في سورة الفتح - بسطًا أو إيجازًا - هو تأويل لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ١﴾ [الفتح]، إنه فتح جليل الخطر، قوي الأثر، ليس يدرکه على ما فيه إلا دقيق النظر.

[السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٢٠-٤٣٢].

### ٣- معاهدة الحديبية في سورة الفتح:

يقول د/ عشقي: «لقد نزلت سورة الفتح تكريمًا للرسول ﷺ بطل الحديبية، حيث ضرب فيها أروع المثل في الحكمة، والصبر، والإيمان، فكافأه الله ﷻ بتوجيه الخطاب إليه، ومع هذا الخطاب تأكيد للعصمة من الذنوب والمعاصي، قال ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢﴾ وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ٣﴾ [الفتح].

فإذا كان الإيمان بالله والصبر من أسباب المغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة. فإن النعمة تمت بفتح مكة وبالنصر القادم في خيبر، فالفتح المبين هو الحديبية وهو الذي جاء بفتح مكة، كما جاء بالنصر في خيبر وما بعدها.

لقد كانت الحديبية فتحاً مبيناً ليس لما جرى فيها من انتصار سلمي فحسب، بل بما نجم عنها من آثار، ومن أعظمها فتح مكة، وتطهير بيت الله من رجس الأوثان.

إن هذا التطهير لبيت الله، تطهير دائم يظل إلى آخر الزمان، فبالفتح حصل الحج، والحج تمت المغفرة، فتمام النعم لا يتم إلا بتمام أركان الإسلام، وهو وجوب الحج السابق مع فتح مكة اللاحق.

إن فتح مكة، يعني القضاء على أعداء الإسلام من قريش، بعضهم بالقتل، وبعضهم بالدخول في الإسلام، والباقي بالاستسلام.

لقد كافأ الله ﷺ النبي ﷺ بتأكيد العصمة، فالنبي ﷺ بشر، وبشريته تقتضي الذنب، والذنب من المقتضيات التي خلق الإنسان من أجلها.

فالله ﷻ غفر للنبي ﷺ ما تقتضيه بشريته من ذنب، بأن حال بينه وبين ذنوبه التي لم يرتكبها، ولولا هذه العصمة لارتكبها ﷺ.

فالذنب لم يحدث بسبب القضاء بالمغفرة السابقة واللاحقة؛ لأن المغفرة مع احتمال الذنب عصمة. فإذا كانت العقول تُقَصِّرُ أحياناً عن فهم بعض الحقائق الكونية، فإنها تصبح أشد قصوراً عن بعض الحقائق القرآنية، وهذا ما غفل عنه الكثير.

لقد أتم الله العصمة على نبيه ﷺ فقال ﷻ: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾ بأن جعله على طريق الهداية التي هي تمام العصمة السابقة واللاحقة.

ثم وصف الله ﷻ النصر بالعزیز فقال: ﴿وَيُنْصِرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝﴾، فالله ﷻ قرن اسمه بالنصر، فلم يقل وينصرك نصراً عزيماً، بل قال: وينصرك الله نصراً عزيماً، ولو عدنا إلى آيات النصر، لوجدنا أنها جاءت في القرآن مقرونة بالله، فضعف الثقة بنصر الله ضعف في الإيمان، ولا نصر إلا بالإيمان.

لقد اختص الله ﷻ الحديبية من بين الغزوات بالنصر العزیز؛ لأن العزیز هو النفيس الغالي، القليل الوجود مع شدة الحاجة إليه، فهو نصر لا نظير له؛ لأنه كان سبباً في تخلص بيت الله الحرام من الأوثان، وتطهيره من أدران الشرك، من غير حرب ولا قتال.

بعد ذلك أثني الله ﷻ في سورة الفتح على الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة في بيعة الرضوان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْنَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾.

فَاللّٰهُ تَعَالٰى يَنْبَغِي أَنْ مَبَايِعَتُهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ إِنَّمَا هِيَ مَبَايَعَةُ اللَّهِ: وَأَنْ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ بِالتَّأْيِيدِ، فَكَانَ نَصْرُ اللَّهِ لَهُمْ أَقْوَى، وَأَعْلَى مِنْ نَصْرَتِهِمْ إِيَّاهُ.

إِنَّ الْأَعْرَافَ الْعَرَبِيَّةَ، تَنْظُرُ إِلَى أَنْ وَضَعَ الْيَدَ فَوْقَ أَيْدِي الْمُتَعَاهِدِينَ، إِنَّمَا هِيَ تَأْيِيدٌ وَحِفْظٌ وَنَصْرَةٌ وَضَمَانٌ، ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ ﷻ، أَنَّ الَّذِي يَنْكَثُ لَا يَضُرُّ اللَّهَ ﷻ، وَلَا يَضُرُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ يَجْلِبُ الضَّرَرُ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ حُكْمَ اللَّهِ نَافِذٌ وَالنَّصْرُ مُؤَكَّدٌ، فَالْثَّانِي هُوَ مَنْ حَرَّمَ نَفْسَهُ مِنَ الْغَنَائِمِ فِي الدُّنْيَا، وَالْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ.

كَانَ الْعُرْفُ بَيْنَ الْعَرَبِ أَنْ زِيَارَةَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَالطَّوَافُ بِهِ حَقٌّ لِكُلِّ عَرَبِيٍّ، مَهْمَا كَانَتْ عَقِيدَتُهُ وَمَهْمَا اخْتَلَفَتْ مِشَارِبُهُ، وَلَيْسَ لِقُرَيْشٍ أَنْ تَحُولَ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَبَيْنَ الْحَرَمِ.

لَقَدْ مَكَّنَ اللَّهُ ﷻ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ ﷺ مِنْ تَطْهِيرِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَ آخِرُهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ، الَّذِينَ غَرَّهُمُ الْأَحْزَابُ، أَغْرَاهُمْ قَاذِئُهَا، فَغَدَرُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَنَقَضُوا الْعَهْدَ، فَكَانَتْ سَبَبًا فِي قَضَاءِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مَا زَادَ مِنْ هَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ.

قَرَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ يَتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ، وَأَعْلَنَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ الدَّخُولَ إِلَيْهَا غَازِيًا وَأَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ يَبْلِغُهَا ذَلِكَ.

اسْتَنْفَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ، كَمَا اسْتَنْفَرَ الْعَرَبَ مِنْ حَوْلِهَا.

كَانَتْ رَحْلَةُ مَحْفُوفَةٍ بِالْمَخَاطِرِ، حَافِلَةٌ بِالْأَخْطَارِ، فَالْحَرْبُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ مَا زَالَتْ مَعْلَنَةً، وَلَا شِفَاعَةٌ مِنْ عَهْدٍ أَوْ صُلْحٍ، وَلَا سِلَاحٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا السِّيفُ.

اسْتَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَلَّغُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةَ، لَكِنِ الْمُنَافِقِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رُكْبِ الْإِيمَانِ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَلُولٍ وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، حَضَرَ الْبِشْبَا لَا لِيَنْفِرَا، وَحَضَرَ خَوْفًا لَا رَجَاءَ، فَهَمَّا قَدْ حَضَرَ جَسَمًا وَلَمْ يَحْضُرَا قَلْبًا.

ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ سَوْفَ لَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، فَقَالُوا: كَمَا ذَكَرَ صَاحِبُ السِّيَرَةِ الْحَلَبِيَّةِ: «أَنْذَهَبَ إِلَى قَوْمٍ قَدْ غَزَوْهُ فِي دَارِهِ بِالْمَدِينَةِ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ».

تَنَاهَتْ كَلِمَاتُ الْمُنَافِقِينَ إِلَى الْأَعْرَابِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، فَأَصَابَهُمُ الْفَزَعُ وَآثَرُوا السَّلَامَةَ، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الرُّكْبِ النَّبَوِيِّ.

لَقَدْ أَنْبَأَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾.

بعد أن بيّن الله ﷻ ما سيقوله المخلفون من الأعراب، وما يطلبونه من استغفار حتى يشاركوها في الغنائم التي تحدث عنها القرآن، كشف الله ﷻ لنبيه ما سيطرحونه من أعذار، تختلف عن حقيقة ما أقعدهم عن المشاركة.

لقد اعتذر الأعراب خوفاً من الله ﷻ، بعد أن بيّن في الآيات السابقة، ما أعد الله للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات من العذاب لظنهم السوء بالله ومحاربتهم له. فالأعراب ليسوا من المنافقين، لكن امتناعهم عن الخروج يتفق مع ما تذرّع به المنافقون، وإن كان الأعراب قد اتفقوا معهم في الذريعة وسبب عدم الخروج، إلا أنهم اختلفوا معهم في جوهر القصد، فميز الله بينهما.

ومع هذا فقد بيّن الأعراب عذرهم الظاهر، وكتموا سببهم الباطن، فعذرهم الظاهر كان واهياً لا يرتقي إلى حجم الجريمة، فقالوا: شغلنا أموالنا وأهلونا، ولم يقولوا شغلنا الأموال؛ لأن جمع المال لا يصلح مبرراً لعدم الخروج، لكن حفظ ما لديهم من أموال قد يكون عذراً مقبولاً؛ لأنه من الحقوق التي كفلها الإسلام للإنسان ومنحه حق الدفاع عنها.

ولكي يعزز الأعراب عذرهم بالانشغال بالأموال، أضافوا إليه حقاً آخر مكفولاً هو حماية الأهل، ومع العذر تضرعوا في طلب الاستغفار اعترافاً بالإساءة. لكن الله ﷻ كذبهم، وبيّن حقيقة ما انطوت عليه أنفسهم من ضعف الثقة بالله في النصر، فقال ﷻ:

﴿يَقُولُونَ يَا لَيْسَ بِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

فكان العذر الذي جاء على ألسنتهم، لا يتفق مع سوء الظن بالله، الذي عشعش في قلوبهم الفارغة من الإيمان.

لقد رد الله ﷻ عليهم فقال: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، ثم كشف الله صدورهم وما انطوت عليها فقال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُوتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

كان ظن الأعراب هو ما زينه الشيطان، شيطان الإنس من المنافقين، وشيطان الجن من الموسوسين، فالشيطان من شأنه أن يزين الشبهات، ويضم إليها المخايل، فيقطع بها الغافل؛ لهذا حذر الرسول ﷺ من الشبهات والوقوع فيها.

لقد كشف الله ﷻ نوايا الأعراب، فقال في الآية الخامسة عشرة ما سيقوله الأعراب للمسلمين: ﴿سَيَقُولُ الْمَخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِرَ لِنَأْخُذْهَا ذُرُوءًا نَنَاصُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّبِعُونَكَ قَالُوا كَلَّا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ سَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إن من إعجاز القرآن، أن يكون النبأ قبل الحدث، فالله ﷻ أنبأ نبيه ﷺ بما سيقوله الأعراب الذين تناقلوا عن الخروج إلى العمرة.

ومعنى الآية: (سيقولون: إذا انطلقتم إلى مغانم كثيرة ذرونا معكم) فالأعراب مسلمون، ويعلمون أن وعد الله حق طالما نزلت به الآية، خصوصاً وأن قريشاً لن تتدخل بسبب المعاهدة، والتوجه سيكون نحو خيبر، حيث اليهود بأموالهم وكنوزهم، وهي وعد الله للمسلمين، الذين شاركوا في بيعه الرضوان، فكيف يشارك الأعراب فيما لا يستحقون؟

فعندما يقول المسلمون للأعراب: لن تتبعونا، كذلك قال الله من قبل، عندئذ سيقول الأعراب: بل تحسدونا، فالحسد هو عدم الرضا بما قسم الله، والأعراب يعتقدون أن الله أعطاهم المشاركة في الغنائم بسبب استغفارهم وتوبتهم، فوصفهم الله ﷻ بعدم الفهم الكامل ومحاولة تبديل كلام الله.

فالله ﷻ من حكمته أنه لم يعط المسلمين غنائم محسوسة عاجلة في الحديبية كما اعتاد الناس، لكنه ادخرها لهم في الجولة الثانية، وليست الغنائم من كفار مكة بل من يهود خيبر. فكانت الغنائم نوعين: معنوية تتركز في العمرة، وفتح مكة والانتصار على اليهود، وتأمين المدينة، وانتشار الدعوة، والطمأنينة، وضمان الجبهة الجنوبية، أما الغنائم المادية فهي في خيبر؛ لأن ما جمعه اليهود من الكنوز كثير.

لكن الله ﷻ منح الأعراب شرطاً للتوبة والحصول على الغنائم، وذلك بملاقاة الأعداء فيما بعد، فقال ﷻ في الآية السادسة عشرة: ﴿قُلْ لِلْمُطَلِّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ يَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

وفي هذه الآية بلاغ بأن هناك حروباً كثيرة؛ لأن عجلة الجهاد لا تتوقف، فكانت الحروب القادمة في حنين، والبيامة، وفارس، وغيرها إلى آخر الزمان، وهذه الأسس والقواعد ثابتة، وحكم الله ﷻ قائم.

لقد بين الله ﷻ للمسلمين أنكم لو قاتلتم الكفار في الحديبية لهزمتهم، لكن هناك أموراً قد لا تعلمونها، الله يعلمها.

فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَإِنَّا لَا نَصِيرُهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

لكن الله يبين ما خفي على المسلمين: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

فاقتحام المسلمين مكة بالسيف سوف يؤدي إلى قتل المستضعفين من المؤمنين الذين في مكة، على يد الكفار انتقاماً، لكن الله كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بطن مكة.

إن الله ﷻ هو الذي اختار طريق الصلح للمسلمين، فخلأت الناقة وهي مأمورة، لتعطي الدلالة على أن المفاوضات هي الخيار الوحيد أمام المسلمين إذا استجابت قريش.

تلقى المسلمون درسًا في المفاوضات وعلّموا كيف يتعاملون في أجواء السلام، وكيف يُمكنهم فرض السلام كما أمكنهم فرض القتال، وبين أهداف السلام ومكاسبه.

فالنصر كان في الماضي يحمل مفهومًا واحدًا، هو النصر الحسي المتمثل في الغنائم، ودماء الأعداء، لكن النصر في معركة السلام يحمل مفاهيم متغايرة، فالنصر يحمل جوانب معنوية ومكاسب آنية، ومعاناة السلام قد تكون أشد من معاناة الحرب، والإسلام صراع مع الذات قبل أن يكون صراعًا مع الذوات الأخرى. لقد جاءت سورة الفتح تبين كافة المفاهيم، فبينت ثمن النصر، كما بينت أن السلام لا يتأتى إلا بالقوة، والإعداد النفسي، والفعل، والقتال، كما أوضحت السورة الكريمة أن السلام النابع من القوة، هو السلام الحقيقي، وأن السلام النابع من الضعف يختلف عن ذلك.

لقد بينت السورة حجم المكاسب ومن أولى بها، وكيفية التفرقة بين الكفار، والمشرّكين، والمنافقين، والمتخاذلين من المسلمين.

لقد كنّ في التقاط المعاني العميقة صغيرًا أمام شموخ الحكمة وعظمة التوجيه الرباني، فالآنية الصغيرة لا تأخذ من البحر إلا القليل». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٥٣-١٦٤].

#### ٤ - كما تحدث القرآن:

يقول د/ عشقي: «عاد المؤمنون من الحديبية بخالطهم شيء من الحزن والكآبة، لقد اعتادوا العودة من معاركهم مكّلّين بالنصر، محمّلين بالغنائم، وقد شفيت صدورهم من مقارعة الأعداء، واليوم يعودون من مكة، وأمامهم المنافقون والأعراب، إن لم يكيلوا لهم الإهانات القاتلة فإنهم سيرشقونهم بالنظرات الساخرة. لقد تجشّموا المصاعب، خرجوا من المدينة وقلوبهم ملؤها الأمل، ليس بالطواف بالبيت فحسب، بل بالفتح الذي وعدهم به رسول الله ﷺ، وما علموا أن الفتح ليس في هذا العام، وبهذه المناسبة فقد كانت الحديبية فتحًا مبيّنًا كما وصفها الله ﷻ».

لقد وجد المؤمنون كفار قريش يقفون موقف المتصلب العنيد، وفي قلوبهم حمية الجاهلية، والمؤمنون يعلمون أن عناد الحق فوق عناد الباطل.

لم يألف المؤمنون الرضوخ لشروط قريش، حتى عندما كانوا أذلة مستضعفين في مكة، لكنه الخيار، بين الامتثال لأوامر الله ﷻ، أو الامتثال لإرادته ﷻ.

إن إرادة الله ﷻ قضت بأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا على الحق، وأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، لكن الأوامر الإلهية التي رد بها النبي ﷺ على عمر بن الخطاب ؓ تقول: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، لقد قضى الأمر الإلهي بإقرار المعاهدة، والعودة إلى المدينة المنورة.

لقد قال الله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣١).

لقد ثبتت معاهدة الحديبية منهجاً إسلامياً حول الإرادة القدرية، والإرادة الشرعية، والأمر الإلهي والأمر الشرعي.

كان المؤمنون على ثقة بأنهم لو قاتلوا قريشاً، وهم بهذه القلة، من العدد، وبهذا التواضع في العدة والتسلح، لزموهم بإذن الله، وقد أيد الله ظنهم به فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا أَلَدَبَرْتُمْ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢) [الفتح].

فالمؤمنون على ثقة من ربهم بالنصر، وعلى ثقة من أنفسهم بالقدرة على تحقيقه، لكن النصر ليس هو كل شيء في القضية، فهناك اعتبارات أخرى بينها الله ﷻ في هذه السورة.

استطاعت قريش أن تفرض إرادتها على المؤمنين في المفاوضات، وأن تعيدهم هذا العام ليعتمروا في العام القادم، لقد كان المؤمنون على مشارف البيت العتيق، وكانت إحدى أقدامهم في حدود الحرم بالحديبية، كانوا يؤدون صلاتهم فيه، وينحرون هديهم، ويحلقون ويقصرون، وبعد كل هذا يعودون مئات الأميال إلى المدينة المنورة، وليس معهم إلا ورقة المعاهدة؟

لقد أخذ منهم رسول الله ﷺ البيعة فبايعوه على القتال حتى الموت، فلم يبق أمامهم إلا أن يخوض بهم رسول الله ﷺ حرباً فاصلة، يستعيدون فيها البيت العتيق؛ لأنهم أحق به منهم، ويخلصونه من أدران الشرك. لكن وفد قريش قطع حبال الأمان، وقدم للتفاوض، لقد أدركت قريش أن الأمر يوشك على النهاية، وأن الحسم أصبح لا محالة، وتمت المعاهدة، وتنازل المؤمنون عن كثير من كبريائهم وشموخهم في سبيل الله.

لقد رضوا بشروط قريش، وما أذنوا لهم إلا بالعمرة في العام القادم، وهذا الإذن لم يكن تنازلاً من قريش؛ لأن هذا حق حددته الأعراف لكل العرب.

سار المؤمنون في طريق العودة إلى المدينة مجللهم الحزن والكآبة، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ عَنْ شَيْءٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ: نَكِلْتُكَ أَمْرَكَ

يَا عُمَرُ! نَزَرْتُ (ألححت عليه) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: فَحَرَكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزَلَ فِي قُرْآنٍ، فَمَا نَشِيتُ (أي لبثت) أَنْ سَمِعْتُ صَارِحًا يَصْرُخُ بِي، قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِي قُرْآنٍ، وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴿١﴾﴾ [الفتح]. [البخاري في المغازي (٤١٧٧)، وفي التفسير (٤٨٣٣)، وفي فضائل القرآن (٥٠١٢)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٦٢)].

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُمَا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحَدِيثِ، وَأَصْحَابُهُ يُحَالِطُونَ الْحُزْنَ وَالْكَآبَةَ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَسَاكِينِهِمْ، وَنَحَرُوا الْهَدْيَ بِالْحَدِيثِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴿١﴾﴾ لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح]. قَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَتَانِ هُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا»، قَالَ: فَلَمَّا تَلَاهُمَا قَالَ رَجُلٌ: هَيْنَا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ بَيَّنَّ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَا يَفْعَلُ بِنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ [الفتح: ٥]. [مسند أحمد ٣٦٩/١٩، رقم ١٢٣٧٤، ٢١/٢٣٢، رقم ١٣٦٣٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وكي لا يعتقد المنافقون بأنهم خَدَعُوا اللَّهَ، فقد حدد القرآن منازلهم في النار، لموقعهم المتخاذل وظنهم السيء بالله، كما بين ما يلقاه المشركون من العذاب.

وفي الآية العاشرة من سورة الفتح بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ مبايعة المؤمنين لرسول الله ﷺ، وأن يد الله فوق أيديهم، فإذا كانت البيعة على القتال حتى الموت، فإنها كانت أيضًا على الطاعة لله ولرسوله حتى في السلم.

إن آية البيعة، تشير إلى أهمية بيعة الرضوان بشكل خاص، وإلى كل بيعة بشكل عام، فيد الله فوق أيديهم مشاركة وتأييدًا وضمانًا كما هي العادة عند العرب في معاهداتهم.

لقد حذر الله ﷻ من نكث البيعة، كما بين عظم الأجر في الوفاء بها.

قال الله ﷻ في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَعْزُوبُهُ أَعْظَمُ ۖ ﴿١﴾﴾.

ثم بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ موقف المخلفين من الأعراب، وانشغالهم بأموالهم وأهليهم، وخشيتهم من العقاب، والحرمان من الغنائم التي وَعَدَها المؤمنين، وذكر أن الأعراب يطلبون المغفرة من الرسول ﷺ والاستغفار لهم، لكن الله ﷻ كشف حقيقة ما انطوت عليه نفوسهم من ضعف الإيمان وضعف الثقة في الله بالنصر.

ثم بَيَّنَّ اللَّهُ منزلة الذين صدقوا مع الله، وبايعوا الله ﷻ ورسوله ﷺ تحت الشجرة، فنالوا أسمى ما يتغنيه المؤمن ألا وهو رضا الله ﷻ واللجنة؛ لأن رضوان الله هو الهدف واللجنة هي الجائزة والنتيجة، فقال



تعالى في الآية ١٩: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾.

لقد كانت الآية العاشرة من سورة الفتح تبين شكل البيعة، وقوتها، والالتزام بها، والأجر عليها؛ لهذا لم تشر الآية الكريمة إلى مكان الانعقاد؛ لأنها قاعدة عامة تسري على كل مبايعة بين الحاكم والمحكومين، فهي خاصة بالنبي ﷺ وأصحابه، كما أنها عامة لكل من جاء بعدهم.

أما الآية الثامنة عشرة، فقد أشارت إلى مكان البيعة وهو تحت الشجرة؛ لتظهر المثوبة التي أعطاها الله ﷻ للمؤمنين الذين بايعوا الرسول ﷺ في بيعة الرضوان، وما وعدهم من الفتح والغنائم.

لقد بين الله ﷻ ما انطوت عليه نفوس هؤلاء المؤمنين من الصدق، والصفاء والإيمان، فقال ﷻ:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فكانت الفاء للتعقيب، وكان علم الله الأزلي بها في قلوب المؤمنين قبل رضا الله عليهم.

فإنه ﷻ لم يقصر الأجر للمؤمنين على الرضا والجنة فقط، وهما أسمى ما ينشده المؤمن، بل ترك لهم أجراً في الدنيا يكون بياناً للناس، فأثابهم الفتح والمغانم، فقال في الآية نفسها: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾.

فالفتح هو فتح مكة، والفتح المبين هو معاهدة الحديبية، والمغانم الكثيرة هي خير وما بعدها، ثم جاءت الآية ٢٠ لتكمل ما وعد الله المؤمنين من نعم فقال ﷻ: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾ وأخرى لم تقدرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾.

لقد وعد الله المؤمنين مغانم من غير تعيين، فعجل غنائم خيبر، وأتم نعمه بأن كف أيدي الناس عن المدينة المنورة بعد أن كانت مستهدفة من المشركين وحلفائهم، وجعل معاهدة الصلح آية لمن جاء بعدهم من المؤمنين، ممن يستشهدون بمعاهدة الحديبية في الإيمان بالله والصبر وطاعة الرسول وأولي الأمر، ولتظل هذه البيعة محفورة في وجدان التاريخ الإسلامي، ليتأسى بها المسلمون في مسيرتهم الإيمانية.

أما قوله ﷻ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾، أي أنه سيسدد خطاكم، وسيغفر لكم ما تفعلون بأن يجعلكم على طريق الهداية.

ثم أشار الله ﷻ إلى الغنائم التي لم يقدرُوا عليها فقال في الآية الكريمة ٢١: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾.

فالغنائم الأخرى التي لم يقدرُوا عليها واستشرفت نفوسهم إليها هي غنائم الفرس والروم، كما يقول بعض المفسرين، لكن الله ﷻ قد أحاط بها فحفظها للمؤمنين ولمن جاء بعدهم من أبنائهم، ولكل من يسير على منهج النبوة.

لقد أخبر الله ﷺ المؤمنين بأنهم بقوتهم الإيمانية كانوا سيهزمون قريشًا، فقال في الآية ٢٢: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا أَلاَ تَدَبَّرْتُمْ لَا يَجِدُوا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢)، فبين ﷺ أن الكفار سوف يولون مدبرين من المؤمنين لو أنهم قاتلوهم، ولن يجدوا وليًا ينفعهم باللطف، ولا نصيرًا يدفع عنهم بالعنف، وبهذا يصبح الهلاك حالًا بهم، وواقعًا لا محالة.

لكن الله كف أيدي المشركين عن المؤمنين كما كف أيدي المؤمنين عنهم ببطن مكة في الفتح، بعد أن أظفر الله المؤمنين عليهم، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢١).

لقد أشار الله ﷺ إلى صدّ المشركين للمؤمنين عن المسجد الحرام، وحبسهم الهدي القادم لله ﷺ عن محله، كل ذلك كان موجبًا لأن تحل عليهم الهزيمة، ويحل بهم العذاب، لكن الله نظر إلى أمر لم يعلمه المؤمنون، هذا الأمر هو أن المؤمنين والمؤمنات من المستضعفين بمكة قد يُقتلون من قِبَل المؤمنين دون علم، أو من المشركين انتقامًا، فيصيب المؤمنين بسببهم إثم أو عيب، فقال ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّهَرْتُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥).

لقد أجرى الله ﷺ مقارنة بين المؤمنين والمشركين، وهذه المقارنة تحمل معاني عميقة، فنصبح منهجًا إسلاميًا في المفاوضات، والمنازعات السياسية والقانونية.

قال ﷺ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٢٦).

فالله ﷺ أشار إلى ثلاثة أشياء للمقارنة بين المؤمنين والمشركين، فبيننا جعل في قلوب الذين كفروا الحمية حمية الجاهلية، أنزل ﷺ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، ففي حق الكفار وحميتهم استخدم لفظ جعل، وفي حق الرسول والمؤمنين استخدم في السكينة لفظ أنزل، والجعل غير النزول، وبيننا جعل للكفار الحمية أنزل على المسلمين السكينة، فالحمية هياج، والسكينة هدوء وثبات، فكانت السكينة في مقابل الحمية، ثم نسب ﷺ الحمية إلى الجاهلية، وبهذا نسب القبيح للمستقبح، بيننا نسب السكينة إليه ﷺ فقال: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن السياق الفكري، يشير إلى أنه إذا اشتد الغضب لدى أحد الأعداء، فإن العدو الآخر، إمّا أن يكون قويًا فيزداد غضبًا فينفجر الموقف، وإما أن يكون ضعيفًا فيهزم.

فحينما أخذت الحمية الجاهلية، وهي قمة الغضب قريشاً، كان المؤمنون أقرباء بإيمانهم، لكن الله استبدل غضب المؤمنين بالسكينة، فأنزلها الله عليهم بسبب وجود النبي ﷺ وبسبب إيمانهم، فهذا التحول العظيم الذي جرى للعقل العربي بعد أن صقله الإيمان أورث النتائج العظيمة.

لكن الله ﷻ ألزم المؤمنين كلمة التقوى، وكلمة التقوى هي: (الخوف من الله والخشية منه)، ﴿وَكُنُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٦١).

فالله ﷻ ألزم المؤمنين كلمة التقوى، بأن أعانهم على التقوى والالتزام بها، وكلمة التقوى تتكرر في القرآن الكريم، وأحياناً تأتي بشكل الأمر والإلزام، فأمر بها النبي ﷺ حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنْتَ اللَّهُ لَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١) [الأحزاب]، وأمر بها الناس فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء]، كما أمر بها المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٥) [المائدة].

إن تكرار الأمر بالتقوى يتواصل حتى يلتزم بها الإنسان، فإذا التزم بها، أذهلته التقوى عن الالتفات إلى ما سوى الله، فيكون الله معه فيصره ويهديه.

لقد وصف الله في نهاية السورة النبي ﷺ، وأصحابه في هذا الموقف وغيره، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ مِنْهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَفَرُوا وَكَفَرُوا فَقَالَ أَصْحَابُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُجْرِمَ الْغَيْبِيِّمْ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ أَمْ يَنْظُرُونَ عَدَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢١).

ففي هذه الآية شهد الله ﷻ لنبيه بالرسالة، قال ابن عباس: والذين معه أبو بكر الصديق ﷺ، والأشداء على الكفار عمر بن الخطاب ﷺ، والرحماء بينهم عثمان بن عفان ﷺ، والركع السجود علي بن أبي طالب ﷺ، ويتبعون فضلاً من الله ورضواناً بقية الصحابة ﷺ، فعلا ماتهم من أثر السجود في الدنيا بالبقعة المميزة، وفي الآخرة بالنور في الجبهة، كما أن السمات الحسن والتواضع من أبرز العلامات.

يقول الإمام مالك بن أنس في شرحه الآية: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية، مما يدل على أن من كره أحد الصحابة فقد كفر.

لقد نزلت سورة الفتح على النبي ﷺ وهو عائد من الحديبية إلى المدينة المنورة، فكانت رحمة وتباًناً ويشري للمؤمنين، كما كانت عبرة لمن جاء بعدهم.

لقد رحم الله المؤمنين بعد أن علم ما في نفوسهم من الحزن والكآبة؛ لأنهم لم يعتادوا على العودة إلى المدينة إلا بالنصر والغنائم، لقد خلّفوا أعراباً لم يبلغوا مرتبة الإيمان، وخلّفوا منافقين يشبطونهم، إن رأوا فيهم خيراً قللوا من شأنه، وإن رأوا فيهم سوءاً فرحوا به.

وبيّن الله في الآية ما في الحديبية من نعم غامضة غير محسّنة، وما ادخر الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم ومنحهم المغفرة، كما بيّن مساوئ الحرب والنصر الذي كان يمكن إحرازه، وما سوف يورث من جروح وآلام.

لقد بَشَّرَ الله المؤمنين بالرضوان والمغفرة، والغنائم الكثيرة، كما بشرهم بالفتح والجنة، ثم وصفهم في نهاية السورة وبيّن مكانتهم، وحذّر من يعاديهم أو مجرد البغض منهم.

وأخيراً بيّن الله ﷻ أهمية ضبط النفس وأهمية السلام العادل، وحسن الأداء للمفاوضات، وعدم التجاوب مع الحمية الجاهلية، والله الموفق». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٦٩-١٧٩].

[وينظر للتفصيل: سياسية الرسول ﷺ في الحرب والمهادنة كما تصورها سورة الفتح للأحمدي ٤٦ وما بعدها، وصلاح الحديبية وأبعاده في نشر الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها لسياني ١٨٥-٢٠١، ومنهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ١٩١-١٩٥].

## المبحث الثامن

### نتائج وآثار صلح الحديبية

استفاض علمائنا الأفاضل في بيان نتائج ومكاسب وآثار صلح الحديبية؛ باعتبارها من أعظم مظاهر بُعد نظر النبي ﷺ في هذه الغزوة وهذا الصلح المبارك، وحاولت أن أجمع بين هذه الأقوال، ولكني -رغم بعض التكرار- رأيت أن لكلٍّ منهم أسلوبه في عرض هذه الآثار والنتائج والمكاسب، مما يكمل بعضها بعضًا، فآثرت أن أتركها كل قول على حدة.

#### ١ - مكاسب الصلح العظيمة:

يقول أ/ باشميل: «بالرغم من تضايق عامة المسلمين لما تحمله (في الظاهر) شروط صلح الحديبية التي قبلها النبي ﷺ واغتم لها عامة المسلمين، فإن هذا الصلح نتج عنه مكاسب عظيمة للمسلمين بل نصر كبير لدعوة الإسلام ظهرت جليلة واضحة فيما بعد للذين تضايقوا من شروط هذا الصلح.

وقد تساءل البعض في حينه - عن حسن نية - أين هي المكاسب الملموسة التي حققها صلح الحديبية بشروطه القاسية على المسلمين، وقد أقر النبي ﷺ صد المسلمين عن الحرم فحلوا إحرامهم خارجه، وعادوا من حيث أتوا دون أن يطوفوا بالبيت، وهو الهدف الرئيسي الذي لم يخرجوا من المدينة بقضهم وقضيضهم إلا من أجل تحقيقه؟؟

والجواب على هذا التساؤل، هو أن النبي الأعظم ﷺ لم يقر في هذا الصلح ويوافق سهيل بن عمرو على صد المسلمين عن الحرم ومنعهم من الطواف أبد الأبدن.

وإنما وافق على أن يؤجل المسلمون دخولهم الحرم معتمرين من عامهم ذاك إلى العام الذي يليه مباشرة، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ وهو يحاول إقناع المعارضين للصلح من أصحابه.

وهذا يدل على (دبلوماسية) رفيعة وسياسة عسكرية غاية في الحصافة - إن صح هذا التعبير - (دبلوماسية) حقق بإتباعها النبي ﷺ حقن دماء كثيرة لم تكن له أية رغبة في إراقتها بل يكره كل الكره أن تُراق داخل الحرم، وكان يمكن أن تُراق بسهولة وبغزارة، لولا أن النبي ﷺ فعل كما القادة المتجربون القادرون على تحقيق أهدافهم بحد السيف، وقد كان قادرًا على اقتحام مكة بحد السيف.

ولكنه - هو الذي أرسله الله رحمة للعالمين - فضّل أن يحل محل هذا الاقتحام الدامي، عودة سلمية للمسلمين لزيارة البيت بعد عام واحد فقط، فقَبِلَ (لذلك) الشرط الذي أملاه المندوب القرشي والذي يقضي بأن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة، على أن يكون من حقهم دخولها في العام القادم.

وأى إجحاف بحق المسلمين في الموافقة على هذا التأجيل، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا التأجيل البسيط كان سبباً رئيسياً في حفظ مئات - بل آلاف الأرواح - يمكن أن تزهق من الفريقين لو لم يوافق النبي ﷺ على هذا التأجيل وأصر على اقتحام مكة بالقوة.

ثم ما هو الفرق بين أن يحصل الإنسان على حقه اليوم أو غداً، ما دام أنه قد ضمن الحصول على هذا الحق؟

وقد تضمنت معاهدة صلح الحديبية وجوب حصول المسلمين على حقهم وهو الطواف بالبيت في العام القادم.

فهل من الحكمة أو هل من مصلحة الإسلام والمسلمين أن يخاطر النبي ﷺ بأرواح المئات من أصحابه الذين هو في أمس الحاجة إليهم وخاصة في تلك المرحلة المصيرية من بناء الدولة الإسلامية الوليدة، التي هي أحوج ما تكون إلى الرجال لحماية الدعوة التي أخذت جذورها في الرسوخ والانسحاب في الأعماق؟ هل من الحكمة أو من المصلحة أن يقدم على مخاطرة قد لا تكون مأمونة الجانب فيعرض أصحابه للموت في حرب ستكون لا شك ضروساً طاحنة، من أجل التعجيل بمطلب هو قادر على تحقيقه بعد عام واحد، دون أن يضطر إلى إراقة قطرة دم واحدة من دم أصحابه؟

إنه نبي أرسله الله رحمة للعالمين، وكرسول جاء يحمل شعار الحب والتسامح، وكرائد ومصلح جاء لحقن الدماء وصيانتها، لا لسفكها وإضاعتهما ما وجد إلى ذلك سبيلاً، حتى ولو كانت هذه الدماء غير دماء المسلمين؛ لهذا كله ولأنه - كقائد مسؤول عن سلامة أرواح أصحابه - لا يمكن أن يقدم على تلك المخاطرة فيخوض حرباً مدمرة ضروساً لا ضرورة لها إلا الاستجابة لعواطف بعض الأصحاب التي عند جيشانها قصرت مداركهم عن فهم وإدراك ما فهمه وأدركه القائد الفذ المحنك المسؤول، والرسول الموحى إليه من عند الله والذي لا يصدر إلا عن أمره تعالى.

**شرط سطحي:** لقد قبل النبي ﷺ ذلك الشرط الذي اشترطته قريش في المعاهدة والذي بموجبه قبل النبي ﷺ الامتناع عن دخول مكة ذلك العام على أن يدخلها وأصحابه في العام القادم.

لقد تظاهرت قريش أنها يأملاء هذا الشرط قد انتصرت على المسلمين، بينما ذلك الشرط (في حقيقته) ليس أكثر من غطاء رقيق شفاف، حاولت قريش - أمام السطحين العاطفين - أن تغطي به هزيمتها الكبيرة في هذا النزاع الخطير الذي أثاره تصلفها وكبرياؤها الجاهلي، هذه - الهزيمة المتمثلة في انحنائها للعاصفة بقبولها مبدأ دخول المسلمين مكة واعترافها بحقهم في الطواف بالبيت، الأمر الذي كانت ترفضه وتمانع في الاعتراف به حتى توقيع مندوبيها على معاهدة الصلح التي اعترفت فيها بهذا الحق.

إن كل ما كسبته قريش من هذا الشرط - الذي استعظم عامة الأصحاب الموافقة عليه - هو أن النبي ﷺ قبل أن يؤجل دخول مكة للعمرة عامًا واحدًا.

وهذا أبرز ما ظن قادة قريش، أو أوهموا السطحيين من مشركي العرب أن فيه نصرًا لقريش على المسلمين.

بينما هو في الحقيقة لا يعدو أكثر من موافقة الرسول القائد ﷺ على تأجيل مباشرة حق سنة واحدة، حق كانت قريش - إلى ما قبل إبرام هذا الصلح - ترفض الاعتراف به.

فكان قريشًا بإبرامها هذا الصلح قد وقَّعت على الاعتراف بحق للمسلمين كانت ترفض الاعتراف به وتقسّم الأيوان الغليظة بأنها لن تمكنهم من مباشرته أبد الأبدن.

ولهذا خرجت من مكة إلى منطقة الحديبية بكل ما لديها من قوة لتبر بهذا القسم الآثم وتجبر المسلمين على العودة من حيث أتوا دونما أي قيد أو شرط أو دخول في أية مفاوضة.

ولكنها عندما رأت تصميم المسلمين على البقاء في الحديبية وأن ذلك قد يؤدي إلى صدام مسلح قد يكون فيه تحطيم كيائها إلى الأبد، وخاصة بعد المبايعة تحت الشجرة والتي لا تعني سوى الاستنفار العام واستعداد المسلمين لخوض المعركة إذا لم يكن منها بُد، ورأت قريش - كما هو في قرارة نفسها - أن لا طاقة لها بمقاومة المسلمين إذا ما اضطروا للهجوم؛ لذلك انحنت للعاصفة، فرجعت عن يمينها، فوافقت على أن يدخل المسلمون مكة للعمرة، ولكنها - كستار لتراجعها الذي هو عين الاندحار - طلبت أن يكون ذلك في العام القادم.

فصح بهذا يقينًا أن الذي حصل على الكسب الحقيقي والنصر المؤزر في هذه القضية الخطيرة التاريخية المعقدة إنما هم المسلمون لا المشركين.

ولقد اعتبر الخبراء العسكريون والسياسيون القدامى والمعاصرون، اعتبروا رجوع النبي ﷺ بأصحابه على تلك الصورة وبعد الظفر بتلك المعاهدة هو من أحكم وأقوم ما يمكن أن يُقدم عليه قائد مسؤول عن الأمة، يقدر النتائج ويحسب حسابها قبل الإقدام على العمل.

كما أن الباحثين وفلاسفة التاريخ اعتبروا صلح الحديبية نصرًا عظيمًا أحرزه النبي ﷺ للإسلام والمسلمين.

بل إن الناظر بتفهم وإمعان في قضية الحديبية والصلح التاريخي الذي كان خاتمة المطاف فيها، يجد أنه قد نتج عن هذه القضية مكاسب عقائدية وسياسية وأدبية وإعلامية عادت بالنفع العظيم على الإسلام ودعوة الإسلام.. ويمكننا الإشارة إلى بعض هذه المكاسب:

## ٢ - اعتراف قريش بكيان المسلمين:

لقد كانت قريش - منذ ظهور دعوة الإسلام في مكة ومنذ خمس عشرة سنة وحتى يوم صلح الحديبية - تعتبر النبي ﷺ وأصحابه المسلمين ❶ شرذمة لا كيان لها، لا تنظر إليهم إلا كما تنظر إلى الصعاليك من قُطَاع الطرق والخارجين على القانون الذين يجب إخضاعهم لسلطانها وإعادتهم إلى حظيرة طاعة كهنتها الوثني أو التخلص منهم بأية وسيلة من الوسائل، وما كانت قريش تفكر أنها في يوم من الأيام ستقعد معهم على مائدة واحدة لتفاوضهم الند للند وتعترف بهم في معاهدة مسجلة كأمة لها كيانها، بل كدولة لها هيبتها ونفوذها، الأمر الذي ترفض قريش الاعتراف (رسمياً) بشيء منه كل الرفض حتى جاء يوم الحديبية فاعترفت فيه للمسلمين بكل ذلك ووقع مندوبها على وثيقة تاريخية دولية، تتضمن هذا الاعتراف.

وهكذا تكون أولى مكاسب صلح الحديبية السياسية - بل أهمها - اعتراف قريش رسمياً بأن النبي ﷺ وأصحابه أصبحوا أمة لها كيانها بل دولة لها خطرهما.

وقد جاء هذا الاعتراف مجسّداً في وثيقة معاهدة هذا الصلح التي تضمنت اثني عشر بنداً، من بينها البند الذي ينص على عقد هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات.

والهدنة لا تُعقد إلا بين فئتين متكافئتين - عسكرياً وسياسياً على الأقل.

والتكافؤ عسكرياً ودولياً بين المسلمين وقريش، ظلت قريش ترفض الاعتراف به طيلة خمس عشرة سنة حتى وقّعت على الاعتراف به رسمياً (مرغمة) في معاهدة الحديبية.

فكان النبي الأعظم ﷺ بنجاحه في عقد هذا الصلح التاريخي مع قريش قد انتزع منها هذا الاعتراف انتزاعاً، الأمر الذي ما كانت قريش لترغب فيه أو تتوقع حدوثه لولا صبر النبي ﷺ وجلده، وتحليه بضبط النفس وقدرته الفذة على المناورة باتباعه إزاء قريش في قضية الحديبية سياسة اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف، بينما ركب سادات قريش رؤوسهم في هذه القضية، فاتبعوا - إزاء المسلمين - سياسة العناد والمكابرة والشدة والعنف والتهديد والوعيد، وأعلنوا أنهم سيشنون حرباً كاملة على المسلمين في الحديبية وأن يرجعوا من حيث أتوا دونما قيد أو شرط، وأن قريشاً لن تسمح لهم بدخول مكة في أي وقت وتحت أي ظرف، ثم تراجعت بل وتحاذلت وأرسلت بوفدها إلى الحديبية ليوقّع وثيقة هذا الصلح الذي ظنت قريش أنه نصر لها، بينما وفي الواقع قد تجسّدت فيه هزيمة سياسية كبرى نزلت بقريش التي قبلت صاغرة مبدأ دخول المسلمين مكة وقيامهم بأداء العمرة التي حلفت قريش أنهم لن يؤدوها مهما كانت النتائج المرتبة على منعهم من أدائها.



### ٣ - تفهّم المشركين لحقيقة الإسلام:

ومن المكاسب الكبرى التي جنته الدعوة الإسلامية أثناء المفاوضة في الحديبية هو أن تصرف المسلمين - وخاصة نبيه العظيم ﷺ - طيلة الأيام التي قضوها في الحديبية قد جعلتهم محل احترام وإكبار كل الزعماء والسادة الذين بعث بهم قريش كوسطاء لحل المشكلة القائمة بينها وبين المسلمين.

فقد كانت وسائل قريش الإعلامية تصور المسلمين بين العرب على أنهم دعاة حرب ومضاصي دماء معتدون، وأنهم لم يأتوا هذه المرة بهذه العدد الضخم إلا للعدوان وسفك الدم الحرام داخل البلد الحرام. غير أنه سرعان ما ينكشف زيف هذه الدعاية القرشية الكاذبة وتأتي لقريش بعكس النتائج التي كانت قريش تسعى - من وراء هذه الدعاية الكاذبة - لتحقيقها.

فلا يأتي زعيم من حلفاء أو أصدقاء قريش - وسيطاً إلى الحديبية - إلا وهو يحمل في ذهنه عن المسلمين تلك الصورة المشوّهة التي رسمتها الدعاية القرشية الكاذبة المغرضة.

ولكن سرعان ما تنكشف له الحقيقة بمجرد أن يتصل بهؤلاء المسلمين فيعود إلى قريش وقد زالت من ذهنه عن المسلمين تلك الصورة الخاطئة المعتمدة وتحل محلها صورة مشرقة مضيئة هؤلاء المسلمين، ترسم في ذهنه من واقعهم المشرف الذي منه يتبين له أنهم ليسوا - كما تصورهم قريش - طلاب شر، وإنما هم دعاة خير ليس من باعث لمجيئهم سوى تعظيم حرمان الله وزيارة بيته الحرام.

فيعود هؤلاء الوسطاء وهم يلقون بكل اللوم على قريش ويحملونها وحدها مسؤولية تعقيد الموقف وما قد ينتج عنه من صدام دام، وذلك بعد أن يلمس هؤلاء الوسطاء بأنفسهم شرف المقصد وحسن النية الصادرة بين المسلمين، كما حدث من الوسيط الثاني عروة بن مسعود الثقفي والوسيط الثالث الحليس بن زبآن.

وهذه كلها مكاسب أدبية وسياسية حصل عليها المسلمون نتيجة تصرفات نبيهم ﷺ الحكيمة إزاء استفزازات قريش وتحدياتها الجاهلية، وهي مكاسب إعلامية عظيمة، ما كان المسلمون يحصلون عليها لولا التزام نبيهم العظيم ﷺ بسياسة الحلم وضبط النفس في هذه القضية المعقدة.

### ٤ - انشقاق معسكر الشرك:

ومن المكاسب التي صاحبت صلح الحديبية الانشقاق الخطير الذي حدث داخل معسكر الشرك بين قريش وحلفائها الذين لامها قادتهم من الوسطاء على عنادها ومكابرتها عندما وجهوا إليها اللوم وأسدوا إليها النصيحة بأن لا تحول بين المسلمين وبين مباشرة حقهم الطبيعي في الطواف بالبيت بعد أن نقلوا إلى سامع زعمائها أن المسلمين ليسوا مخطئين في إصرارهم على دخول مكة لأداء مناسك العمرة كغيرهم من فئات العرب الأخرى.

فقد رأينا فيما مضى كيف غضبت قريش على سيد الأحابيش (الحليس بن زبان) وهو أقوى حليف لها عندما صارحها بالحقيقة، وأنها تتصرف تصرفاً سيئاً عندما تتحول بين المسلمين وبين الطواف بالبيت، الأمر الذي - كما أشار الحليس - لا يمكن لأي عربي استساغته أو إقراره؛ لأنه بغي وظلم، ما سبق وأن أقدم على مثله أحد من سادوا أرض الحرم عبر العصور.

ورأينا كيف أن زعيم الأحابيش عندما جبهته قريش وسفّهت رأيه، عندما أسمعها كلمة الحق بشأن المسلمين - بعد أن لمس بنفسه نزاهة مقصدهم وسلامة موقفهم - هدد قريشاً بأنه سيلغي الحلف الذي بينه وبينها، وينسحب برجاله من تجمّعها إذا لم تصغ لصوت الحق فتخلي بين المسلمين وبين البيت ليطوفوا به. والأمر الذي أزعج قريشاً وجعلها تتوسل إلى حليفها القوي بأن لا ينفذ تهديده حتى تجد لها مخرجاً من ورطتها، بعد أن وعدته بأنها ستسعى لإيجاد مخرج يكون فيه رضا ويحفظ لها شيئاً من ماء وجهها، ويضمن السباح للمسلمين بزيارة البيت الذي كان صد قريش المسلمين عنه أساس المشكلة ومصدر غضب سيد الأحابيش.

وتهديد الحليس بن زبان كان انشقاق خطير يواجهه التجمع الوثني في الحرم، مما حمل سادات قريش على التفكير جدّياً في الرجوع إلى طريق الاعتدال والتخلي عن سياسة العنجهية والحماقة والسفه، الأمر الذي وصل في النهاية بقريش (مكرهة) إلى التوقيع على معاهدة هذا الصلح التاريخي.

**انسحاب سيد ثقيف:** كذلك رأينا فيما مضى كيف انسحب سيد ثقيف وحليف قريش وصهرها (عروة بن مسعود) من التجمّع الوثني، بعد أن شجب تصرفات قريش القاضية بمنع المسلمين من زيارة البيت، ووصف تصرف النبي ﷺ بالرشد والاعتدال حين لمس ذلك فيه عندما قابله في الحديبية يوم أرسلته قريش وسيطاً يفاوض النبي ﷺ ويقنعه بالعودة إلى المدينة.

فقد قال عروة بن مسعود لقريش: إن محمداً قد عرض عليكم خطة رشدة فاقبلوا ما عرض عليكم فإنني ناصح لكم، ثم صارحهم بأنه يرجح أن تكون الهزيمة من نصيبهم إذا ما حاربوا النبي ﷺ قائلاً: (مع أي أخاف أن لا تصرفوا عليه).

ولما أبت قريش أن تستجيب إلى نصيح حليفها القوي الثاني (عروة) قال غاضباً ومحملهم مسؤولية هذا العناد: (ما أراكم إلا ستصبيكم قارعة يا معشر قريش) أي بسبب محاولتكم منع المسلمين من زيارة البيت، ثم ترك التجمع الوثني وانصرف بقومه إلى الطائف.

ومما لا جدال فيه أن هذا الانشقاق الخطير الذي حدث في معسكر الشرك هو من المكاسب التي جناها المسلمون في هذا الصلح، فهذا الانشقاق كان عامل ضعف في جانب القرشيين بقدر ما كان عامل

تقوية وتدعيم لمركز المسلمين، الأمر الذي حدا بقريش - بل أجبرها - على أن تقبل مبدأ الاعتراف بحق المسلمين في الطواف بالبيت، بل وتوقع على الاعتراف بهذا الحق في وثيقة صلح الحديبية الذي أثبت الأحداث - فيما بعد - أنه من أعظم الانتصارات التي حققها الإسلام على الشرك والمشركون.

#### ٥ - تأثر المشركين بواقع المسلمين:

ولعل من أكبر المكاسب التي جناها الإسلام والمسلمون من صلح الحديبية، هو أن هذا الصلح قد أتاح الفرصة للمسلمين والمشركون على السواء بأن يختلطوا بعضهم ببعض. ولقد كان من نتيجة ذلك الاختلاط الذي حدث بعد أن أمن الناس بعضهم بعضاً - نتيجة هذا الصلح - أن عرف المشركون المسلمين على حقيقتهم والإسلام كما هو، لا كما كانت تصوّره لهم أبواق الوثنية المغرصة في مكة.

وقد تأثر كثير من عقلاء المشركين بواقع المسلمين المشرف الذي لمسوه وشهدوه عن كثب، تأثر كثير من هؤلاء العقلاء الوثنيين تأثراً بالغاً، حتى أنه لم تمض على صلح الحديبية - الذي أتاح للفريقين بأن يختلط بعضهم ببعض آمناً - بضعة عشر شهراً حتى دخل في الإسلام من الوثنيين وخاصة القرشيين أكثر من الذين دانوا بالإسلام خلال خمس عشرة سنة.

ويكفي للتدليل على صحة هذا الرأي، هو أن عدد المسلمين يوم أبرم صلح الحديبية لم يزد على ألفين - في أكبر تقدير - بينما بلغ عددهم في السنة الثامنة - وقبل فتح مكة بقليل - أكثر من عشرة آلاف.

#### ٦ - صلح الحديبية هو الفتح العظيم:

وقد دخل أكثر هؤلاء في الإسلام، بفضل الله ثم بفضل ما أتاحه صلح الحديبية خلال سنتين من اختلاط وتعارف ومناقشة ومفاوضة حرة بين الفريقين؛ ولهذا أطلق فيما بعد على هذا الصلح اسم الفتح العظيم.

فقد أتاح هذا الاختلاط والتعارف للمشركون، أن يروا هذا الجيل - جيل الإسلام - على حقيقته. فقد دهش المشركون لهذا التحول السريع العجيب في المسلمين الذين تحولوا من كل شيء - كانوا عليه أيام شركهم - إلى ضده.

لقد كانوا - قبل أيام قليلة - مثل هؤلاء المشركين، تحكمهم الفوضى وتستبد بهم رغبات الجسد، عبدة أصنام، متهكي حرمان، مرتكبي جرائم، لا فرق بينهم وبين الحيوان السائم.

ولكنهم اليوم أصبحوا يتفوقون عليهم في كل شيء، يتفوقون عليهم في الصدق والوفاء والطاعة والتقيد بالنظام، وبالجملية أصبحوا خلقاً جديداً يتحلون بفضائل ومحاسن ما كان للمجتمع القرشي بها من عهد، كانت محل دهشة هؤلاء المشركين القرشيين وتساؤلهم!

تُرى ما هو السر الذي قفز بهؤلاء المسلمين إلى هذه المنزلة الرفيعة من السمو الإنساني التي جعلتهم محل احترام وإكبار، حتى هؤلاء الذين خرجوا من مكة لقتالهم ومنعهم من دخول مكة بحد السيف؟ سؤال كبير ظل يجول - في إلحاح - بخاطر عقلاء قريش منذ أتاح صلح الحديبية الاختلاط بهؤلاء المسلمين، ولمسوا فيهم ذلك التبدل المذهل الذي جعل منهم أرقى مثل حي للإنسان الكامل الذي لا يعرف السير إلا في طريق الخير.

لقد كان القرشيون خاصة - لكثرة دعايات ساداتهم المضللة - لا ينظرون إلى أصحاب محمد ﷺ إلا كما ينظرون إلى الحيوان الضار الذي لا يستحق الحياة، وتلك الصورة المشوهة التي ترسمها للمسلمين في أذهان هؤلاء القرشيين أبواق دعاية سادات دار الندوة في مكة.

ولكن ها هي الحقيقة تنسخ تلك الصورة المختلفة المشوهة، وتحل محلها الصورة الحقيقية المشرفة لهؤلاء المسلمين الذين لا يكاد أحدهم يفارق دين الوثنية ويعتني الإسلام حتى يتبدل فيه كل شيء: أخلاقه، سلوكه، نفسيته، الأمر الذي كان مصدر الدهشة والتساؤل لدى عامة المشركين الذين أتاح لهم صلح الحديبية الاختلاط بهؤلاء المسلمين ومعرفتهم على حقيقتهم.

رأى سيد ثقيف في المسلمين: ولقد أفصح الكثير ممن أُتيح لهم الاختلاط بهؤلاء المسلمين أثناء مفاوضة صلح الحديبية وطيلة أيام الهدنة، أفصحوا عن هذه الدهشة لذلك التغير المذهل السريع الذي يُحدثه الإسلام في نفوس معتنقيه، وعلى تلك الصورة من الوضاعة والإشراق، وحتى الذين كانوا بالأمس سفاكي دماء وقُطّاع طرق، بمجرد أن لامس هدي الإسلام قلوبهم، قفزوا إلى أعلى درجات السمو الإنساني والانضباط الأخلاقي المستقيم.

فهذا المغيرة بن شعبه رضي الله عنه (مثلاً) كان شاباً صعلوكاً طائشاً فاتكاً من قُطّاع الطرق، لا يرعوي - قبل اعتناقه الإسلام - عن قتل أو سلب أو نهب، تعرف ذلك عنه قبائل ثقيف كلها أيام كان على دين الوثنية. وآخر جرائمه الجاهلية الشبعة إقدامه - قبل أن يعتنق الإسلام بأيام قلائل - على قتل اثني عشر رجلاً من بني مالك غدرًا، وكانوا زملاء له في رحلة كانوا عائدين من مصر.

هذا الشاب الذي كان (أيام شركه) رمزًا للطيش والتهور والوحشية وقطع الطريق، رآه وسيط قريش في قضية الحديبية وأقفا على رأس النبي ﷺ يحرسه أمينًا على حياته بل مسؤولًا عن حمايته، بعد أن حوَّله الإسلام من وحش كاسر إلى إنسان مضبوط السلوك يشعر بالمسؤولية وعلى المستوى الرفيع من الشهامة والنبيل والتقيّد بأوامر قائده الأعلى النبي ﷺ.

لقد غيّر الإسلام فيه كل شيء كان يُعرف به في الجاهلية.

وكم كانت دهشة زعيم ثقيف أن يكون ابن أخيه ذلك الفاتك القاطع للطريق في الماضي، أميناً على حياة نبي المسلمين.

وليس تغرُّ أحوال ابن أخيه مثار دهشته ومبعث تساؤله فحسب، بل إن اختلاط سيد ثقيف بالمسلمين، والذي أتاحته له سفارته لقريش إلى النبي ﷺ في الحديبية، قد مكّنه من الإلمام بأمور كثيرة عن أحوال المسلمين كانت محل دهشته واستغرابه أيضاً، وكان لها الأثر الكبير العميق في نفسه، مما جعله في النهاية يدخل في الإسلام ويموت شهيداً وهو يدعو قومه ثقيفاً في الطائف إلى الإسلام.

**مصارحة قريش:** ولقد كان من مكاسب صلح الحديبية أن تأثر عروة بن مسعود بواقع المسلمين المدهش الذي أحاط به أثناء تفاوضه مع النبي ﷺ كسفير لقريش، فقد عاد إلى حلفائه القرشيين من الحديبية وهو يحمل الانطباع الصحيح عن المسلمين.

ولم يُخف عن حلفائه القرشيين هذا الانطباع المدهش، بل - صارحهم بالتغير الخطير والتحول المدهش الذي لحظه يحدث في حياة وسلوك كل من يدخل في الإسلام، ولفت نظر القرشيين (بكل صراحة) إلى التطورات التي قد تحدث في غير صالحهم وتشهدها المنطقة نتيجة هذا التغير الكامل الذي يحمله الإسلام معه إلى نفس كل إنسان يدين به ويتبع نبيه ﷺ.

فقد قال لسادات مكة - عندما عاد من الحديبية -: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنِّي جِئْتُ كَسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَجِئْتُ قَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِمَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مُلْكًا قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لَشَيْءٍ أَبَدًا، فَارْأَوْا رَأْيَكُمْ.**

ومما لا شك فيه أن الانطباعات الصحيحة التي نقلها عن المسلمين عروة بن مسعود - بكل صدق وأمانة - إلى حلفائه من سادات مكة، كان لها أثرها البالغ في نفوس الكثير منهم.

#### ٧ - اختمار الإسلام في النفوس:

ولم يكن الزعماء والوسطاء وغيرهم من المشركين الذين أتاح لهم قضية الحديبية - وبالتالي عقد الصلح - الاختلاط بالمسلمين ومعرفتهم على حقيقتهم، أقل تأثراً من عروة بن مسعود بما لمسوا وشاهدوا من واقع المسلمين الحي المدهش، الذي انعقدت له ألسنتهم دهشة وإعجاباً.

لقد كان من طبيعة العرب الصراحة واستقباح الكذب - حتى وإن كانوا مشركين - ولهذا فقد نقل المشركون الذين زاروا المسلمين في الحديبية واختلطوا بهم وعاملوهم بعد إبرام الصلح، نقلوا إلى الجمهور القرشي كامل انطباعاتهم عن حالة المسلمين ومجتمعهم الجديد، والذي بُني على أساس من التوحيد، والذي رأوا فيه نموذجاً حياً للخير والصفاء والمحبة والتسامح والتآلف والتكاتف وضبط هذا الدين الجديد لسلوكهم.

وأشد ما أدهشهم ذلك الضبط الإداري العجيب، الذي يلتزمه المسلمون كجزء أساسي من تعاليم الدين الجديد، هذا الضبط الذي بالتزامه خلعوا من نفوسهم عنجهية الجاهلية البغيضة، وعصية القبلية المقيتة، التي طالما كانت الاستجابة العاطفية لزوجاتها سبباً في إثارة حروب ظالمة تأكل الأخضر واليابس.

لقد حل محل كل تلك الفوضى الجاهلية انضباط إسلامي رائع عجيب مدهش، تكفي لتنفيذه والتقيد به كلمة هائلة تصدر من محمد بن عبد الله ﷺ، النبي الذي آمن وصدق به هؤلاء المسلمون، واتبعوه طائعين مختارين.

#### ٨ - الانضباط الإسلامي:

ولعل أروع مثال حي للانضباط الإسلامي وكبت المسلمين لعواطفهم تقيداً بهذا الانضباط، والذي شاهده بعض سادات قريش في الحديبية فأخذوا به، ودهشوا له، يتمثل في قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو - الذي كان أشد الناس تأثراً - في أعماق نفسه - بهذا الانضباط.

فقد رأى سهيل بن عمرو وبقية أعضاء الوفد القرشي في المفاوضة، رأوا كيف تفجر الغضب في نفوس المسلمين، وهاجت عواطفهم عندما رأوا سهيل بن عمرو هذا يأخذ بتلابيب ابنه المسلم ويلطمه على وجهه، ليرده إلى قريش المشركة وهو مسلم جاء يرسف في قيوده ملتجئاً إلى المسلمين في الحديبية؛ لينقذوه ويحموه من إرهاب أهله الوثنيين وتعذيبهم، رأى سهيل بن عمرو وبقية أعضاء وفده وكل من كان حاضراً من المشركين، رأوا أن كلمة واحدة هادئة قالها نبيهم ﷺ قد جعلتهم يكظمون غيظهم ويلجمون عواطفهم الثائرة، نعم كلمة هادئة واحدة قالها محمد بن عبد الله ﷺ لأبي جندل ﷺ: «إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ».

هذه الكلمة الهادئة التي قالها النبي ﷺ لأبي جندل ﷺ عندما طلب حق اللجوء إلى المسلمين، رأى سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده من المشركين كيف قيّدت ألفاً وأربعمائة من أصحاب النبي ﷺ، إذ رأوا جميعهم أن العهد الذي أعطاه نبيهم في وثيقة الصلح لا يسمح لهم بأن يتخذوا أي إجراء يحول بين سهيل بن عمرو والمشرک، وبين استلام ابنه المسلم، فلم يحركوا ساكناً لحماية أبي جندل ﷺ، مع - ما يغتلم في نفوسهم من غيظ وحق على المشركين، وعلى سهيل ابن عمرو بالذات، وبالرغم من قدرتهم الكاملة على حماية أبي جندل ﷺ الذي لم يستطيعوا أن يصنعوا له شيئاً سوى تشييعه بالدروع وهو يغادر معسكرهم وأبوه يأخذ بتلابيبه ويلطم وجهه في وحشية المشرک الغليظ الفظ.

لأن تلك الكلمة النبوية الهادئة التي أسمعها النبي ﷺ أبا جندل ﷺ - وهو يوصيه بالصبر - قد جعلت هؤلاء المسلمين حدوداً يقفون عندها في تصرفاتهم إزاء مأساة أخيهم في الإسلام أبي جندل ﷺ.

فقد اعتبروا تلك الكلمة النبوية الهادئة بمثابة أمر لهم بأن لا يتخطوا في مساعدتهم أخاهم في الإسلام أباً جندل ﷺ حدود المواساة بالتشجيع والحث على الصبر والثبات حتى يكشف الله عنه الغمة ويجعل له مخرجاً، ولقد وقفوا - بالفعل - عند هذا الحد نزولاً عند رغبة قائدهم ونبиеم ﷺ، الذي حرص كل الحرص على أن يقوم المسلمون بتطبيق معاهدة ذلك الصلح نصاً وروحاً.

كل هذه الانطباعات المشرقة المدهشة عن المسلمين ومجتمعهم الجديد، قد نقلها حاضروا صلح الحديبية من أعضاء الوفد القرشي وغيرهم إلى الجماهير القرشية في مكة، وإلى جيران مكة من كنانة وخزاعة كما هي، فتأثروا بها غاية التأثر.

وازداد ذلك السؤال الكبير إلحاحاً في نفوس العقلاء من قريش وجيران الحرم: ترى ما هو السر في هذا كله؟

وما هو التفسير الحقيقي لقيام هذا المجتمع المتناسك المتحد الفاضل الذي قوامه هؤلاء الأصحاب من أتباع محمد ﷺ الذين تطلق عليهم أبواق الدعاية القرشية - تبغيضاً فيهم وتحقيراً لشأنهم - اسم الصباة؟

هذا المجتمع الذي لا يسع أي عاقل - مهما كان مذهبه وعقيدته - إلا أن يجل أعضاءه ويحترمهم، بل ويود أن يكون أحد أفراد هذا المجتمع العظيم؟

وعلى ضوء البحث الحر والمقارنة النزيهة، وجد العقلاء من مشركي مكة وغيرهم الجواب الصحيح على هذا السؤال الكبير، وتوصلوا إلى التفسير الصحيح لسبب قيام هذا المجتمع الفاضل المتكامل. وهو أن الإسلام، ولا شيء سوى الإسلام، هو الذي أقام هذا المجتمع وصار الالتزام بتعاليمه والقيام بتكاليفه، مصدر كل ما يتحلى به أفراد هذا المجتمع المحمدي من فضائل الاستقامة وضبط السلوك وسمو الأخلاق وانتظام الشمل واتحاد الكلمة.

وهنا، واقتناعاً بهذا التفسير الصحيح - والنبي ﷺ لما يزل في طريقه من الحديبية إلى المدينة - تأثر ذوو العقول الكبيرة من سادات مكة بما نقل إليهم من انطباعات صحيحة عن هذا المجتمع الإسلامي الفاضل الجديد، فاخترت في نفوس هؤلاء العقلاء فكرة الدخول في الإسلام والانخراط في سلك الأسرة الإسلامية التي كان حسن بئنها وشأنها شائلاً لأفرادها - التي شهد بها العائدون إلى مكة من شاهدي صلح الحديبية - حديث مكة كلها.

وظل هؤلاء العقلاء القرشيون ينتظرون الفرصة السانحة لإعلان دخولهم في الإسلام وانضمامهم إلى هذا المجتمع الإسلامي الفاضل، الذي لم يغادر أفراد الحديبية إلا بعد أن تركوا عنهم الانطباعات الخيرة التي فعلت في نفوس عقلاء المشركين من قرشيين وغيرهم ما يشبه فعل السحر.

وكان من الزعماء والقادة الذين تأثروا بواقع المسلمين الحي المشرق في الحديبية، فاختمرت في نفوسهم فكرة اعتناق الإسلام: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رضي الله عنه.

فلم تمض سنة واحدة على أحداث الحديبية المثيرة حتى وقف فارس قريش وقائد أئمة خيلها خالد بن الوليد - الذي خرج أيام أزمة الحديبية يقود المئات من فرسان لمنع المسلمين من دخول الحرم أو إبادتهم - وقف على الصفا وصك بها قريشاً صك الجندل حيث صارحهم بأن محمداً ﷺ حامل رسالة صدق وصاحب دعوة حق، وأن على كل ذي عقل مستنير أن يتبعه.

فقد صاح خالد بأعلى صوته: يا معشر قريش، لقد استبان لكل ذي لب أن محمداً ﷺ ليس بساحر ولا كذاب، وأن على كل ذي عقل أن يتبعه.

ثم أخذ سلاحه وركب فرسه واتجه نحو المدينة ليعلن إسلامه يرافقه صاحبا وصديقا عثمان بن طلحة العبدري وعمرو بن العاص السهمي اللذين كانا على رأيه.

وهكذا كان صلح الحديبية - وما صاحبه من أحداث، وترتب عليه من أمور - مثار إحساسات عميقة، وتحريك مشاعر بعيدة الأغوار في نفوس العقلاء ممن كانوا على الشرك، فقادتهم هذه الإحساسات إلى الإسلام فدخلوا فيه.

وليس بعيداً عن الحقيقة - بل هو عينها - ذلك القول: إن صلح الحديبية من أعظم الانتصارات ذات الأثر البعيد الفعّال في توطيد دعائم الإسلام وبناء دولته.

#### ٩ - التفرغ ليهود خيبر والشمال:

كذلك من مكاسب صلح الحديبية - بل ولعله من أهم هذه المكاسب السياسية - هو تفرغ النبي ﷺ لتصفية الحساب عسكرياً مع يهود خيبر الذين يُعتبرون - بحق - أخطر عنصر محارب عدو للمسلمين في جزيرة العرب.

فقد كانت تقبع في خيبر - قبل صلح الحديبية - أشد العناصر اليهودية حقداً على النبي ﷺ، تدعمها عشرة آلاف مقاتل من اليهود، لديهم جميعاً الرغبة الشديدة الملحة في الانقضاض على المسلمين ومحوهم من الوجود.

الأمر الذي يحتم على المسلمين العمل بحزم على إزالة هذا الخطر اليهودي الذي يهدد وجودهم بالزوال، وذلك يستدعى نقل المعركة إلى عقرب ديار اليهود في خيبر لإنهاء الوجود اليهودي في الجزيرة كلها. وهو ما حدث بالفعل في غزوة خيبر.

فقد زحف النبي ﷺ بألف وأربعمائة مقاتل نحو خيبر، ونقل المعركة إلى دار اليهود، مسافة خمسة أيام تقريباً، وفي هذه المعركة قضى على الوجود اليهودي الدخيل الذي كانت تدافع عنه أقوى قوة ضاربة في جزيرة العرب.



وحسب مقياس العلوم العسكرية ما كان النبي ﷺ ليتمكن من نقل المعركة خارج المدينة مسافة خمسة أيام لبصار على امتداد هذه المسافة عشرة آلاف مقاتل من اليهود ودون أن يترك أية قوة حربية لحراسة المدينة، لولا أنه - في ظل صلح الحديبية - قد أمن جانب أعظم خصم وألد عدو تقليدي هو (قريش) التي لم تكن أقل رغبة من اليهود في القضاء على الكيان الإسلامي والتي تدعمها قوة حربية لا تقل عن ثمانية آلاف مقاتل.

فبالرغم من أن قريشاً كانت بعواطفها ومشاعرها مع يهود خيبر تتمني لهم النصر على المسلمين، إلا أن إبرامها صلح الحديبية مع المسلمين قد ألزمها بأن تقف موقف الحياد من القتال الذي ظل يدور بين المسلمين واليهود في خيبر والشمال حوالي شهرين اثنين حتى انتهى بانتصار المسلمين الساحق على العناصر اليهودية جميعاً في خيبر ووادي القرى وفدك وتيها وكل مناطق الشمال.

ومن هنا صح يقيناً القول: إن تفرغ القوات الإسلامية الكامل الذي مكناها من أن ترمي بكامل ثقلها لمحاربة اليهود في خيبر والشمال، والتغلب عليهم، وهو من المكاسب والثمرات السياسية العظيمة التي جناها المسلمون نتيجة إبرامهم الصلح مع مشركي قريش وحلفائها الكنانين في الحديبية.

#### ١٠ - نقل المعركة إلى الشام:

كذلك تمكن النبي ﷺ - في ظل صلح الحديبية - من أن يقوم بأول وأعظم حملة عسكرية في حياته خارج حدود الجزيرة العربية؛ لإشعار الإمبراطورية البيزنطية بقدرة المسلمين العسكرية، التي ما كانت هذه الإمبراطورية تحسب لها حساباً قبل أن تتجاوز حدود الشام وتتوغل مسافة ثمانين ميلاً داخل الأراضي الرومانية في منطقة الأردن.

ففي خلال الهدنة بين المسلمين وقريش جهز النبي ﷺ حملة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل - وهي أعظم جيش تم حشده في العهد النبوي حتى ذلك الوقت - وأمر النبي ﷺ هذا الجيش بأن يطأ بلاد الروم في الشام ويتوغل فيها ما أمكنه التوغل.

فتوغل الجيش النبوي حتى وصل إلى قرية يقال لها (مؤتة)، وهناك دارت أعنف وأول معركة بين المسلمين والجيوش الرومانية، وقد سميت هذه المعركة الخالدة باسم هذه القرية.

لم ينتصر المسلمون عسكرياً في هذه المعركة الطاحنة، ولكنهم حققوا انتصارات معنوية وسياسية عظيمة، بها صححوا ما كان مرتسماً في أذهان قادة الجيوش الرومانية من فهم خاطئ عن حقيقة الجندي الإسلامي، حيث أذهلت شجاعة وبسالة هذا الجندي قادة الرومان، وجعلتهم يزيلون من أذهانهم - وإلى الأبد - الفكرة الخاطئة المرتسمة عن قصور وضعف الجندي المسلم.

حيث صمد في هذه المعركة ثلاثة آلاف جندي من المسلمين في وجه مائة ألف مقاتل من الرومان، وتمكنوا من الانسحاب بانتظام ودونما بالجيش الرومانية أفدح الخسائر... الأمر الذي أربع الرومان وجعلهم يعدلون عن غزو الجزيرة العربية، بعد أن كان هذا الغزو مقرراً لقيام لدى القيادة الرومانية في دمشق.

### ١١ - دعوة ملوك الشرق الأوسط إلى الإسلام:

كما أن قيام هدنة الحديبية مكن النبي ﷺ من التفرغ للعمل على إيصال دعوته - وبطريق رسمي - إلى خارج حدود جزيرة العرب.

حيث قام في فترة الهدنة بالاتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام.. وذلك عن طريق رسائل خاصة بعث بها إليهم في السنة السابعة من الهجرة حيث بعث إلى كل ملك أو أمير واحدًا من أصحابه برسالة يدعوه فيها وشعبة إلى الدخول في الإسلام... وقد كان لهذه الرسائل آثارها المختلفة في الأفطار التيس تلقي ملوكها أو أمراءها هذه الرسائل، ورغم اختلاف تأثير هذه الرسائل، فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دونها شك».

[صلح الحديبية لباشميل ٢٨٧-٣١٣ بتصرف].

ويقول د/ أيوب: «وبالرغم من شروط هذا الصلح التي كانت في نظر المسلمين شروط قاسية فإن الإسلام قد أخذ ينتشر في الأرض بكتب الرسول ﷺ في كل بقاع الأرض.

وفتح خير التي تلت الصلح، وانتشار أصحابه ﷺ بالكتب ومجاہتهم للملوك، ودخول كثير من الناس في الإسلام، وفتح باب المناقشة لمن أراد أن يتعرف على الإسلام، ودخول الناس في حلف قريش، ودخول الآخرين في حزب الله، كما مر ذلك في البحث في شروط الصلح، فإن ذلك الحرية للناس، وحين رأى الرجال والنساء والصبيان رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ وهم يطوفون بالبيت وقع ذلك في قلوبهم، فتأثر البعض منهم ودخل في الإسلام، ويوم الفتح الأكبر دخل جلهم في الإسلام وخاصة بعد أن قال لهم ﷺ: (ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: إذهبوا فأنتم الطلقاء).

وكانت خير من مكاسب صلح الحديبية مكاسب اقتصادية أنعشت المسلمين بإي نالوه من غنيمة».

[صلح الحديبية لأيوب ١٥٣].

### ١٢ - آثار هدنة الحديبية:

يقول د/ الوكيل: «وقعت هذه الاتفاقية من نفوس قريش والعرب موقعًا حسنًا، حيث رأوا فيها نصرًا لم يتوقعوه، فهم لم يستطيعوا أن يحققوا انتصارات عسكرية في معاركهم مع المسلمين، ولكنهم شعروا بأنهم حققوا انتصارات سياسية بهذه المعاهدة.

وفي الوقت الذي شعرت فيه قريش بأن المعاهدة حققت لها نصراً سياسياً لم تحلم به، كان المسلمون على العكس من ذلك، فهم يرون أن المعاهدة مجحفة ظالمة، ولم تحقق للمسلمين شيئاً قط؛ لهذا تقبلوها على مضض، ولولا ثقتهم بنبيهم، وإيمانهم بتأييد الله له لرفضوها رفضاً قاطعاً، فهي لم تمكنهم حتى من العمرة التي خرجوا فرحين بأدائها.

وعاد المسلمون إلى المدينة وفي قلوبهم من الهم ما تعجز الجبال عن حمله، والمسلمون وإن طابت نفوسهم بما نزل على نبيهم من القرآن الكريم، إلا أن صدورهم لازالت تبحش بالحرمان لعدم طوافهم بالبيت العتيق ومن يضمن لهم الحياة حتى يقضوا عمرتهم في العام المقبل؟

ومهما يكن من أمر فإن هذه الاتفاقية، وما حققته من الهدنة بين الفريقين كانت لها آثار عظيمة في داخل الجزيرة وخارجها على حد سواء، وقد تحقق بها للمسلمين ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالخصومة والحرب، فكانت حقاً نصراً عزيزاً وفتحاً مبيناً.

#### أولاً: آثار الهدنة في داخل الجزيرة:

أ- الأمن: الأمن والأمان حق طبيعي من حقوق الإنسان في كل زمان ومكان، وإنها حرمة منه وعكر صفوه عليه الطمع، وبغي الإنسان على أخيه الإنسان، وذلك حين يشن البغاة الحرب على الضعفاء أو المستضعفين، والحرب في حقيقتها نار لا تُبقي على شيء مما حولها، وما لا تلتهمه في أتونها، تحرقه بلهبها، ثم تترك آثارها المرعبة تفسد على الناس تفكيرهم، وتدمر ما بقي من حياتهم.

ولقد كان سكان الجزيرة العربية يعيشون حياة الحرب والحرمان من الأمان فترة طويلة من الزمان، سواء كان ذلك في الجاهلية أم كان بسبب عدوان قريش على المسلمين في محاولة لردهم عن الدين الذي اعتنقوه وآمنوا به.

وكان سكان الجزيرة عند عقد الصلح قد سئموا الحرب، وملتها نفوسهم، وضائق بها صدورهم، وأصبحوا يتطلعون إلى سلام يزيل عنهم ذلك الشبح المخيف الذي طالما روعهم، ويغسل تلك الدماء التي خلّفتها الحرب منذ سنين طويلة، ويوارى تلك الجثث التي طالما ظلت مهددة لا تجد من يوارىها.

فلما تم الاتفاق بين المسلمين والمشرّكين على الهدنة أمن الناس، واستمتعوا بحريتهم، فتنقلوا حيثما شاؤوا، واختلط بعضهم ببعض، وبدأت الحياة تدب في أنحاء الجزيرة المختلفة والمترامية الأطراف، وتحركت قوافل التجار تضرب هنا وهناك، تتجه مرة إلى الشام وأخرى إلى اليمن، وأصبحت القبائل حرة في اختيار الجهة التي تؤمها.

ولقد مكّنت الهدنة الناس من الإطلاع على حقيقة الدين الذين جاء به رسول الله ﷺ كما كشفت زيف قريش وباطلها، وكان الناس من قبل لا يستطيعون إدراك ذلك في هذا الجو الخانق الذي سببته الحرب.

ب - نشر الدعوة: وباختلاط الناس، وتبادل الأفكار، والحوار الهادئ في ظل السلام الذي حققته الاتفاقية عرض المسلمون دينهم على الناس نظرياً بشرحه لهم، وعملياً بتطبيقه في سلوكهم ومعاملاتهم وضح المسلمون مبادئ الإسلام للناس، وبنوا تشريعاته، وأظهروا فضائله ومحاسنه، وتلاوا القرآن الكريم على الناس فسمعوه بأذان صياغة لم تحل بينها وبين فهمه قعقة السيوف، وأدركوا معانيه بقلوب واعية لم تغلقها صرخات الجرحى، وأثارت المكومين، فكانت نتيجة ذلك استجابة لتلك الدعوة التي وجدت من الناس آذاناً صاغية، وقلوباً واعية.

وكما شرح المسلمون الإسلام نظرياً فإنهم كانوا نماذج عملية لما يدعون إليه من الأخوة والمحبة والجهاد والبذل، رأى فيهم أعداؤهم ما جعلهم يعجبون بهم، فأقلعوا عن غيهم واتخذوهم قدوة لهم، وهكذا دخل الناس في دين الله أفواجا حتى تضاعف عدد المسلمين في فترة الهدنة أضعافاً مضاعفة مما أدهش الناس، وحير عقولهم.

وفي ذلك يقول ابن هشام رحمته الله: **وَالدَّلِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَيْنِ فِي عَشْرَةِ أَلْفٍ.**

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

وهاتان الستتان هما فترة الهدنة، فقد عقد الصلح في ذي القعدة سنة ست من الهجرة، وكان فتح مكة سنة ثمان منها في رمضان.

ج - انضمام بعض القبائل المشركة إلى المسلمين: ولم يكن ذلك شيئاً معروفاً، ولا مما يسكت عليه أهل مكة، ولكن المعاهدة قد أعطت هذا الحق للقبائل، فدخلت خزاعة - كما قلت من قبل - في حلف المسلمين.

وكان الجزء الأكبر من الأحابيش الذين تعتمد عليهم قريش في حروبها مع المسلمين من أبناء تلك القبيلة - خزاعة - وبانضمام هؤلاء إلى جماعة المسلمين فقدت قريش قسماً كبيراً وهاماً من رجالها المحاربين، كما زادت بذلك قوة المسلمين.

وهناك ظاهرة هامة وجديرة بالتسجيل، وهي وجود جماعة كبيرة تعيش إلى جانب قريش في حرية تامة وهي موالية للمسلمين، ترقب حركات قريش وسكناتها، وتحصي عليها أنفاسها وخلجات صدرها، وهو شيء - وإن كان المسلمون قد استفادوا منه قبل المعاهدة من بعض رجال خزاعة - إلا أنه أصبح بعد المعاهدة شيئاً مشروعا يقوم به الخزاعيون دون خوف أو مجاملة.

د - حبس المسلمين المستضعفين في مكة: وكان هذا العمل الذي أعطت المعاهدة المشركين حق القيام به هو الذي أثار حفاظ المسلمين، وأقلق نفوسهم، ولكن المسألة كانت على عكس ما تصوّره المسلمون تمامًا، فلم يكن ذلك الحبس رادعًا للناس عن الدخول في الإسلام بل كان له أثران هامين.

الأول: إثارة الشعور بالظلم الواقع عليهم في نفوس الناس، مما جعل كثيرًا منهم يتعاطفون مع المسلمين، ويقومون بتقديم العون لهم سرًا، وكان صبر هؤلاء المستضعفين على هذا التعذيب المريع واحتماله في قوة وثبات عاملًا هامًا دعا كثيرًا من الناس إلى الإيمان بتلك العقيدة التي تحمّل أصحابها في سبيلها كل هذا الظلم والإضطهاد.

والثاني: تحوّل عاطفة جمهور كبير من الناس إلى جانب هؤلاء المستضعفين؛ مما أتاح لهم فرصة القيام بدور خطير، حيث كانوا عيونًا للمسلمين في مكة ينقلون إليهم أخبارها، وكل ما يدور فيها، حتى كان ذلك تميهدًا للفتح الأكبر الذي حدث بعد ذلك بستين على إثر نقض قريش للمعاهدة.

هـ - تكوين جبهة من المستضعفين لإثارة الرعب في مكة: لم تمض أشهر على عودة المسلمين إلى المدينة المنورة حتى فر أبو بصير - عتبة بن أسيد ؓ - من مكة هاربًا من العذاب الذي يُصب عليه وعلى إخوانه المحبوسين في مكة، وتوجه أبو بصير ؓ إلى المدينة، يريد أن يحتمي بالمسلمين هناك، ولكن أوليائه في مكة لم يسكتوا على ذلك، بل كتب أزهر بن عبد عوف، والأخنس بن شريق كتابًا إلى رسول الله بشأنه لكي يرده إليهم.

وبعثا في طلبه رجلًا من بني عامر ومولى لها، فلما قدما المدينة سلّمَا الكتاب لرسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ لأبي بصير ؓ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِنَّ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرْجًا وَخُرْجًا، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ».

وحاول أبو بصير ؓ إقناع الرسول ﷺ بالعدول عن رلاده حتى لا يفتن، ولكن الرسول ﷺ أصر على تنفيذ نصوص المعاهدة، ورجع أبو بصير ؓ بإيمان كبير، وعزم حديد، وقد أسر في نفسه أمرًا، فلما بلغ ذا الحليفة نزل الرجلان يسترحان ونزل معهم أبو بصير ؓ، وجلسوا هناك إلى جوار جدار لعلمهم يستروحوّن فيأه، ورأى أبو بصير ؓ أن الفرصة قد سنحت فلم يضيّعها.

نظر أبو بصير ؓ إلى العامري وقال: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ قال: نعم. قال أبو بصير: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت.

ومد أبو بصير ؓ يده إلى سيف العامري في رفق، وقبض عليه قبضة حديدية، واستله من غمده، وعلا الرجل فقتله، ورأى المولى ما حلّ بصاحبه العامري فتوقع تلك العاقبة، وما الذي يحول بين أبي بصير ؓ وبين أن يقتل الرجل كما قتل صاحبه؟

وفر المولى عائداً إلى المدينة مستنجداً برسول الله ﷺ، راجياً أن يمنعه من أبي بصير ؓ، وأخذ يجري مذعوراً، والحصى ينطار من تحت قدميه، وراه الرسول ﷺ على ذلك الحال فقال: «إن هذا الرجل قد رأى فرعاً» فلما انتهى الرجل إلى الرسول ﷺ قال له: «ويحك! مالك؟».

قال: قتل صاحبكم صاحبي.

ودخل أبو بصير ؓ على رسول الله ﷺ، وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَتَ ذِمَّتِكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ، وَقَدْ افْتَنَعْتُ يَدَيَّ أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُعْبَثَ بِي.

ولم يخف الرسول ﷺ إعجابه بشجاعة أبي بصير ؓ وقوة إيمانه، وعبر عن ذلك بقوله: «وَيْلُ أُمِّهِ حَشَّ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجُلٌ!».

وكانت هذه الكلمات من رسول الله ﷺ إيذاناً لأبي بصير ؓ بشيء أدركه حين سماعها، وفهم منها، أن الرسول ﷺ يشير عليه بالهرب إلى مكان غير مكة والمدينة ففعل، وتوجه نحو العيص هناك عند سيف البحر، وهو الطريق التي تمر بها قوافل قريش تحمل تجارتها إلى الشام. [فتح الباري ٥/ ٣٥٠].

وسمع المحبسون المستضعفون في مكة بتوجه أبي بصير ؓ نحو العيص، وبلغهم قول الرسول ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، ففهموا منها أن الرسول ﷺ يشير عليهم باللاحق بأبي بصير ؓ حتى يكون معه رجال يؤيدون فكرته، ويقوون عزيمته، فأخذوا يهربون من مكة، ويفرون من الظلم، وكان أول الفارين أبو جندل بن سهيل ؓ، والتحق بأبي بصير ؓ، وانضم إليهما رجال من المستضعفين في مكة حتى بلغ عدد سبعين رجلاً.

ويقول الذهبي: انضم إليهم رجال من القبائل القريبة منهم حتى صاروا ثلاثمائة رجل.

[التاريخ الكبير ١/ ٣١٠].

تجمع المستضعفون عند العيص، تؤلف بينهم عقيدة التوحيد، وتربط بين قلوبهم رابطة الأخوة في الله ﷻ، وتحرضهم على الانتقام من قريش آلام الظلم والتعذيب التي أصابتهم جميعاً، ولولا هذه العوامل مجتمعة ما نجح هذا التكتل، ولا حقق النتيجة التي وصل إليها المستضعفون.

إن العقيدة هي الآصرة التي شدتهم إلى الصمود والثبات، والأخوة هي التي جعلتهم يتواسون في هذه المحنة المريرة، والآلام التي تحملوها في سبيل دعوتهم هي الدافع الذي حرّضهم على الفرار والهروب من وجه الظالمين، واجتماع هذه العوامل الثلاثة هو الذي دعاهم إلى تكوين جبهة يتحدّون بها الطغاة ويثيرون الفزع والرعب في قلوب المعتدين.

وقفت هناك هذه الفئة المؤمنة، وقطعوا على قريش طريق تجارتها، يقول ابن إسحاق: وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها. [ابن هشام ٣/ ٢٠٨].

ضاقت قريش ذرعًا بهؤلاء الفارين والذين عاملتهم من قبل معاملة العبيد الآبقين، لقد استفحل أمرهم، وعظم خطرهم، وأصبحوا وهم قوة تهدد تجارتهم في غدوها ورواحها، وخشيت قريش أن تتكرر مأساة مصادرة تجارتهم، وهم لم يقبلوا معاهدة الصلح، ولم يفرحوا بها إلا لأنها منحتهم أمانًا ضمن لهم سلامة قوافلهم، فمن الذي يضمن لهم سلامتها بعد أن رصدها هؤلاء؟

إنهم لا يستطيعون أن يطلبوا من محمد ﷺ أن يمنع هؤلاء مما يفعلون، وهو قد التزم بنصوص المعاهدة حتى سلم إليهم هؤلاء الفارين من ظلمهم، ولم يقبلهم في جماعته، ولم يحمهم من العذاب، وفي الوقت نفسه لا تستطيع قريش أن تمتنع منهم بالوسائل السلمية، وهم الذين آذوهم، وعذبوهم حتى فروا هارين من طغيانهم.

**موقف قريش من الجبهة:** ليس هناك حل للمشكلة إذن إلا أن تسمح قريش للرسول ﷺ أن يقبلهم معه، ويضمهم إلى جماعته حتى يكون مسؤولاً عن تصرفاتهم، وحتى يلتزم هؤلاء بأوامره، وتنازلت قريش عن هذا الشرط في المعاهدة، وكانوا يحسبونه كسبًا ضخمًا لحسابهم، ولكن الأيام قد أثبتت أنه لم يكن قط في صالحهم بقدر ما كان في مصلحة المسلمين الذين تبرموا به، وغضبوا من أجل إثباته في الاتفاق. وبعثت قريش إلى الرسول ﷺ، تناشده الله والرحم أن يؤوي هؤلاء الفارين، وأن يمنهم من إغلاق الطريق في وجه رجالهم وقوافلهم، وأرسلوا من أجل ذلك سيد قريش وزعيمها - أبا سفيان بن حرب - وحملوه رسالة شفوية ليلغها إلى الرسول ﷺ، وهي: كف عنا هؤلاء، ومن خرج منا إليك فهو لك حلال غير حرج. [فتح الباري ٥/ ٣٥٠].

قبل الرسول ﷺ عرض قريش، وما له لا يقبله، وهو لا يريد إلا إطلاق سراحهم، وتمكينهم من حرّيتهم في ظل المعاهدة القائمة بينه وبين قريش، أما وقد تحقق ذلك، أما وقد تنازلت قريش مرغمة عن هذا الشرط الذي تمسكت به من قبل، حتى هدد سهيل بن عمرو بنقض الاتفاق قبل أن يتم إذا لم ينفذ المسلمون هذا الشرط، فإن الرسول ﷺ يرحب بانضمام هؤلاء المؤمنين إلى إخوانهم في المدينة.

عندئذ أرسل الرسول ﷺ إلى أبي بصير ؓ رسالة يأمره فيها بالقدوم إلى المدينة هو ومن معه من المسلمين، وروى موسى بن عقبة عن الزهري، أن رسول الله ﷺ كتب إلى أبي بصير ؓ فقدم كتابه وأبو بصير ؓ يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ بين يديه، فدفعه أبو جندل بن سهيل ؓ مكانه وجعل عند قبره مسجدًا، وقدم أبو جندل ؓ ومن معه إلى المدينة. [فتح الباري ٥/ ٣٥١].

وهكذا بدأت قريش تشعر بأن شروط المعاهدة ليست في صالحها كما كانت تظن، حتى الشرط الذي تشدد في إثباته سهيل بن عمرو، قد ظهر لهم فيها بعد خطورته عليهم، فألحوا على الرسول ﷺ في عدم الأخذ به.

و - فتح خيبر: لقد مكّنت معاهدة الحديبية المسلمين من أن يتفرغوا لليهود أعداء الإسلام والمسلمين، فقد وضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس، وهدأت النفوس، واطمأنت القلوب، ولم يبق أمام المسلمين في شمال الجزيرة سوى اليهود الذين يشكّلون خطرًا على الدولة الإسلامية.

لقد دأب اليهود منذ إخراجهم من المدينة على التحريض ضد المسلمين، وكان يوم الخندق آخر تلك المؤامرات، وكانت أمنيّتهم وقد استطاعوا أن يوجدوا ذلك التحالف أن يبلغوا هدفهم من ورائه، ولكنهم فشلوا فشلًا ذريعًا، ولكنهم كانوا يعزّون هذا الفشل إلى اختلاف العرب وتفرقهم، ونفاد صبرهم، فراحوا يحاولون جمع قوة كبيرة من اليهود، مستغنين عن الاستعانة بالعرب الذين لم يستطيعوا إحراز النصر، ونسي هؤلاء أنهم قبل فشل العرب في يوم الأحزاب لم يستطيعوا الصمود أمام المسلمين، وأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم مكرهين دون مقاومة، وكان فرحهم بنجاتهم أشد من حزنهم على أموالهم وممتلكاتهم. لقد حسب اليهود أنهم إذا جمعوا قوة كبيرة من بني جلدتهم يستطيعون بها إلحاق هزيمة بالمسلمين، وغرهم تجمع عشرة آلاف مقاتل في خيبر، وبدأوا يرأسلون بها إخوانهم يهود فدك ووادي القسري وتيماء؛ ليحاصروا المدينة بقوة لم تعرفها من قبل.

وعلم الرسول ﷺ بما يدبر اليهود، فعزم على الخروج إليهم قبل أن يهاجموه، وأن يغتحم قبل أن يفاجئوه، فخرج إليهم في شهر محرم سنة سبع، ولم يمض على صلح الحديبية سوى شهرين، ولم يخرج معه إلا من شهد الحديبية، وعددهم ألف وأربعمائة.

إن يهود خيبر هم المحرّضون على القتال يوم الخندق، ومن يدري لعلمهم إن يتركوا آمنين في بلادهم يقوموا بكيد أخبث من كيدهم السابق؟ وهل يستبعد أن يقوموا بتأليب قبائل الشمال، أو يغروا الفرس والروم بمهاجمة المدينة للقضاء على المسلمين؟

كل ذلك لا يُستبعد منهم، فهم بوسائلهم المادية، وإغراءاتهم المتنوعة يستطيعون الوصول إلى ما يريدون، وقد رأينا كيف برعوا في استعمال تلك الخيل يوم تجمع الأحزاب.

لهذا خرج الرسول ﷺ إليهم بعد أن أمن مكر قريش بمعاهدة الحديبية، وخرج مع رسول الله ﷺ ألف وأربعمائة من أصحابه، وأراد بعض الأعراب الانضمام إلى الجيش رجاء الغنيمة، ولكن الرسول ﷺ رفض انضمامهم، وقال: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا». [دحلان ٢/ ٢٣٣].

ولقد رفض الرسول ﷺ خروج هؤلاء الأعراب معه لأنهم لم يخرجوا إلا للغنيمة، وأمثال هؤلاء غالبًا إذ لم يجدوا الغنيمة باردة يكونون وبالآ على الجيش الذي خرجوا معه، وخير ليست من البلاد القريبة الفتح، السيرة المغنم؛ لأنها حصون وقلاع، وأهلها أقوى شكيمة، وأعظم خبرة وأقوى في الحرب من غيرهم.



إن مثل خيبر لا يفتحها إلا جيش خرج ابتغاء مرضاة الله، لا يريد إلا إعلاء كلمة الله؛ لهذا رفض الرسول ﷺ أن يأتي هؤلاء الأعراب راغبين في الغنيمة فقط، وأراد أن يختبر صدقهم في جهادهم فقال لهم: وليس لكم من الغنيمة شيء، عندئذ قعدوا، ولم يفكروا في الخروج...

### ثانياً: آثار الهدنة في خارج الجزيرة:

وكما كان لصلح الحديبية آثار جليلة في داخل الجزيرة على النحو الذي رأيناها كان لها كذلك آثار عظيمة في خارجها، فقد تمكن ﷺ بعدها من الاتصال بالعالم الخارجي، حيث اتصل بكسرى فارس، وقصر الروم، ومقوقس مصر، ونجاشي الحبشة، وكذلك أرسل إلى أبي شمر الغساني ملك البلقاء وهوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة، وإلى حاكم عمان والبحرين واليمن. [زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٢].

أرسل إلى هؤلاء جميعاً وأطلعهم في كتبه التي كتبها إليهم على مبادئ الدين الحنيف، وشرح لهم تعاليم الإسلام بواسطة السفراء الذين أرسلهم هنا وهناك، وقد اختار ﷺ سفراء من خيرة أصحابه هيئة وخلقاً وفصاحة وعقلاً.

وكان الغرض من هذه الزيارة هو دعوة هؤلاء الحكام إلى الله، وكان الأمل هو دخولهم في الإسلام، ثم دخول أقوامهم معهم؛ لأن الناس على دين ملوكهم، وكان ﷺ حريصاً على أن يطلعهم على ما لم يطلعوا عليه من أمر هذا الدين ترغيباً لهم في الدخول فيه، وإقامة للحجة عليهم.

وقد استجاب بعضهم فسمع وأطاع ودخل في الإسلام كحاكم عمان، وحاكم البحرين، وكذلك دخل عامة أهل اليمن في الإسلام بغير قتال، وأسلم بعض حكامهم، وأسلم كذلك حاكم معان.

[زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٢].

وهكذا كانت تلك الاتفاقية خيرًا وبركة على المسلمين في داخل الجزيرة وخارجها، بقدر ما كانت خيبة أمل وبلاء على المشركين». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢١٦-٢٢٦، ٢٣٥].

### ١٣ - الآثار والمغانم:

يقول د/ عشقي: «يرى الفقه الدولي أن المعاهدات إذا استوفت أركانها الموضوعية، وشروطها الشكلية، فإنها تصبح نافذة، ليس في مواجهة أطرافها فحسب، بل في نطاق المجتمع الدولي، وبالتالي تصبح أحكامها ملزمة للدول الأطراف.

والمعاهدات الدولية، تستمد قوتها الملزمة من الإرادة المشتركة لأطرافها، ومن قاعدة (العقد شريعة المتعاقدين Servanda Pacta Sunt) وتحكمها الاعتبارات الأدبية، وهو ما بُني عليه العلاقات الدولية.

إن المعاهدة تظل ملزمة للطرفين حتى تنقضي بانقضاء أسباب المعاهدات، ولا يجوز لأحد الأطراف التحلل من التزامه أو عدم تنفيذ ما تضمنته أحكام المعاهدة.

لقد كان العرب قبل الإسلام -وبخلاف المجتمعات اليهودية في الجزيرة العربية (وحتى يومنا هذا؛ لهذا نجد أن حزب الليكود في إسرائيل حينما فاز في انتخابات عام ١٩٩٦م انتهك المعاهدات التي وقعها حزب العمال الإسرائيلي مع الفلسطينيين، وحاول التوصل منها لولا وقوف المجتمع الدولي ضده) - أشد الناس احترامًا للمعاهدات والالتزام بشروطها؛ لأنها كانت تتعلق بالقيم التي تحكم الإنسان العربي في جاهليته. إن آثار المعاهدة لا تقتصر على الدول التي أبرمتها، بل تمتد إلى البعض من الدول التي لم تكن طرفًا في المعاهدة.

لهذا نجد أن المعاهدات الدولية تنشئ بين أطرافها حقوقًا، وتفرض عليها التزامات، كما أن الأخذ بمبدأ وحدة القانون، يتطلب نفاذ شروط المعاهدة في مواجهة الأفراد والسلطة الداخلية، وبهذا تصبح المعاهدة ملزمة حتى للقاضي الداخلي، كما تصبح موجبة لاحترام أحكامها. فالقاضي الداخلي مكلف بإزالة التناقض بين الأحكام الداخلية والأحكام الدولية، وإذا ما استعصى عليه التوفيق بين الأحكام فإن الأسبقية التاريخية هي التي تحكم النفاذ، لكن أصحاب المدرسة الثنائية في القانون، يأخذون بالقانون الأحدث.

ومن المسلّم به في القانون الدولي، أن المعاهدات الدولية لا تحكم إلا أطرافها، وهو ما يؤيده العرف الدولي، كما أنه المبدأ الذي أخذت به محكمة العدل الدولية؛ لهذا أجمع الفقهاء، واستمر العمل بين الدول على عدم إلزام دولة ما بما تعاهدت عليه دول أخرى.

أما إذا اعترفت الدولة التي لم تشارك في المعاهدة بما جاء في نصوصها، فإن عليها أن تحترم أحكام المعاهدة، وعدم الإتيان بما يتعارض معها، وليست المعاهدة هي مصدر التزام الدول بما تعاهد عليه الغير، لكنه أمر يترتب على نتيجة الاعتراف بالمعاهدة.

وكما أن هناك آثارًا ملزمة للدول المعترفة بالمعاهدة، فإن هناك آثارًا نافعة لبعض الدول، التي لم تشارك في المعاهدة، ومع هذا فإنه لا يحق لهذه المطالبة بتنفيذ المعاهدة.

إذا كانت المعاهدات تؤثر بعض الشيء على الدول الأخرى، فإن آثار المعاهدات من حيث الحقوق والالتزامات، تقتصر على أطراف المعاهدة وحدهم.

لقد كانت معاهدة الحديبية من المعاهدات الدولية التي لا تلزم إلا أطراف المعاهدة، لكنها تركت الباب مُشروعًا لمن أراد الانضمام إليها من القبائل، والانضمام إليها من القبائل لا يعني الاعتراف فقط، بل يعني اختيار أحد الجانبين، وهنا تصبح القبيلة المنضمة طرفًا في المعاهدة.

لقد انضمت خزاعة إلى صفوف المسلمين وأعلنت عن ذلك وانضمت بكر إلى صفوف المشركين وأعلنت عن ذلك، فأصبحتا طرفين في المعاهدة.

لقد تركت معاهدة الحديبية آثارها السلبية على حلفاء قريش، وخاصة اليهود في خيبر، حيث أصبحوا يواجهون المصير المحتوم وحدهم، كما جعلت القبائل في نجد أمثال غطفان وبنو أسد يترددون في أي عمل أو تحالف ضد المسلمين.

وهذا ما استفاد منه يهود إسرائيل اليوم في معاهداتهم مع الدول العربية، فأصروا على إجراء المعاهدات الثنائية، لقد عقدوا المعاهدة مع مصر لتجميدها وليقضوا على الثورة الفلسطينية، ولم يتسن لهم ذلك، إذ أن المعاهدة أحدثت انشقاقاً في صفوف اليهود أنفسهم داخل إسرائيل وداخل الولايات المتحدة الأمريكية. لقد حققت معاهدة الحديبية أهداف قريش المتواضعة، لكنها حققت بالتالي أهداف المسلمين العظيمة، كانت أهداف قريش تتمثل في فرض الإرادة على الخصم للحفاظ على مكانتها الاعتبارية بين القبائل العربية، وبهذا غفلت عن المكاسب العظيمة التي جناها المسلمون من هذه المعاهدة.

لقد أصرت قريش على عودة المسلمين دون الدخول إلى مكة وأداء الشعائر، كما أصرت على إعادة من جاء من قريش مهاجراً بدينه إلى المسلمين، ففي الوقت الذي كانت ترى قريش في ذلك نصراً، كان ﷺ ينظر إلى هذه التنازلات على أنها طُعم، فالنصر والطُعم شيء آخر..

لقد حققت المعاهدة اعترافاً للمسلمين بكيانهم السياسي، كما أقرت قريش بحق المسلمين في أداء العمرة، وبهذا حقن النبي ﷺ دماء المسلمين، ودماء المستضعفين بمكة المكرمة.

لقد أحدثت المعاهدة انشقاقاً في صفوف المشركين وانقساماً في رباط الحلفاء الذين تحزّبوا ضد الرسول ﷺ وقاعدته الإسلامية في غزوة الخندق.

لقد أتاحت المعاهدة للدعوة الإسلامية الانتقال من الإطار الإقليمي، إلى الإطار الدولي، فبعث الرسول ﷺ بالرسائل والسفراء إلى ملوك وأباطرة العصر، وانتشرت الدعوة الإسلامية في أرجاء الجزيرة العربية. لقد حققت المعاهدة الأمن للقاعدة الإسلامية من الهجمات القرشية وهجمات القبائل، فأمنت المدينة المنورة جبهتها الجنوبية والشرقية، واتجهت إلى الشمال، فبدأ المسلمون بغزو خيبر وكسر شوكة اليهود في الجزيرة العربية، تمهيداً لإخراجهم منها على يد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ؓ.

كان اليهود في الجزيرة العربية، جسماً غريباً رفض الانصهار في الأمة العربية ورفضته، لقد ظل هذا الجسم قرابة ألفي عام، كان يوحى للعرب بأنهم الأكثر علماً، والأكثر حضارة، ومن خلال ذلك سعى اليهود إلى امتصاص الدماء العربية عن طريق الربا، وفتح الأسواق لتجارة السلاح، من خلال إحداث الفتن بين القبائل.

كان العرب خير الأمم لليهود، وكان اليهود أسوأ الأمم للعرب، استخدم معهم رسول الله ﷺ سياسة الصفح والتسامح، كلما انتهكوا المواثيق ونقضوا العهود، لقد حاولوا اغتياله ﷺ عدة مرات، وكان آخرها السم في خيبر.

لقد صادر أموالهم بدلاً من قتلهم، وأخرجهم من المدينة إلى حيث يريدون، ومع هذا فقد ظلوا يواصلون التآمر، لقد كانوا وراء كل عدوان يقع على المسلمين، سواء كان من قريش أو حلفائها.

كانت خيبر أقوى القواعد اليهودية، وتبعد هذه القاعدة عن المدينة المنورة بمسافة لا تتجاوز الثمانين ميلاً، بدأ اليهود في استيطانها سنة ١٢٠٠ ق.م إثر وفاة موسى ﷺ، بعد أن جرّد حملته لقتال العمالة العرب الذين نشروا الفساد في المدينة وخيبر.

انتصر اليهود على العمالة، وأبادوا من لم يسلم منهم على دين موسى ﷺ، وعندما عادوا إلى فلسطين كان موسى ﷺ قد مات، ورفض خلفاؤه استقبالهم فردوهم عن الشام؛ لأنهم عفاوا عن بعض العمالة، وخالفوا أوامر موسى ﷺ.

تناثر هؤلاء الغزاة بين الشام والمدينة، فسكن بعضهم خيبر، والبعض الآخر سكن المدينة، استوطن بعضهم في تيماء ووادي القرى، وهو ما أكدّه ابن خلدون في مقدمته، والأصفهاني في أغانيه، والسمهودي في وفاء الوفاء.

جاء الاستيطان الثاني لليهود إثر تخريب بختنصر لبيت المقدس عام ٥٨٦ ق.م، وأخرج اليهود من فلسطين، فاتجهوا إلى المدينة المنورة فسكنها البعض، كما سكن البعض خيبر، وهذا ما أشار إليه كل من جواد علي في الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، وكما أشار إليه الطبري في تاريخه، وكان هذا هو الخروج الأول لليهود من فلسطين.

ثم جاء الخروج الثاني لليهود عام ٦٣ قبل الميلاد في عهد الإمبراطور الروماني (هادريان) بعد تخريب الهيكل فاستوطنوا المدينة وخيبر، وانضموا إلى إخوانهم في تيماء وغيرها، وكان هذا هو الاستيطان الثالث. وبسبب احتفاظ اليهود بعاداتهم وتقاليدهم، وبسبب الفكر العنصري الذي يعيش في صدورهم، ارتضوا العزلة لأنفسهم، فحولوا المناطق التي سكنوها إلى مستوطنات شبه مستقلة في المدينة وخيبر، وتيماء ووادي القرى، وفدك، وهي لا تختلف عن المستوطنات الإسرائيلية اليوم في أهدافها.

استطاع اليهود أن يتزاجوا مع البعض من العرب بعد أن هودوهم، كان منهم الزعماء أمثال مرحب اليهودي، الذي كان من حير، وكعب بن الأشرف.

لقد كان الوجود اليهودي في الجزيرة العربية وجودًا قلبيًا إلا أنه دام آلاف السنين، فكان إخراجهم مفترضا؛ لأنه كان السبب في تفتيت الوحدة الوطنية، عن طريق بث الفتن واستعداد القبائل بعضها على بعض.

كان يهود خيبر يمتازون بالتماسك، كما كانوا يتميزون بالقوة والثراء، كانوا يحتفظون بأسلحة فتاكة لم يعهدها العرب في تلك الحقبة من الزمن، أمثال المنجنيق والأسهم النارية، لكن المسلمين غنموها أثناء الغزوة ودمروا بها القلاع الباقية.

لم يكن اليهود في خيبر يناصرون إخوانهم اليهود في حروبهم بالمدينة المنورة ضد الأوس والخزرج، بل ظلوا على الحياد في الصراع الدائر بين اليهود والمسلمين حتى السنة الرابعة للهجرة؛ لأنهم كانوا يدّخرون قوتهم للنهاية، فكانوا يمثلون الاحتياط الإستراتيجي لكافة اليهود في الجزيرة العربية.

عندما اختار يهود بني النضير خيبر لتكون منفى لهم بموجب الاتفاق على الصلح الذي جرى مع النبي ﷺ، برزت خيبر كقاعدة يهودية خطيرة، فتحولت من الحياد إلى العدوان وأصبحت وكرًا للمؤامرات، وقاعدة للإمداد بالمال والسلاح.

عندما تحولت خيبر إلى قاعدة عدوانية كان بنو النضير يقودون ذلك العدوان؛ لأنهم كانوا يتفاخرون على اليهود من بني جنسهم أنهم يتنسبون إلى هارون بن عمران عليه السلام، ولعلمهم أول من سكن المدينة المنورة؛ لأن هارون عليه السلام دفن بجبل أُحُد كما تقول بعض الروايات التاريخية.

كان حبي بن أخطب وأخوه ياسر أشد الناس عداوة للإسلام من بين اليهود، وكان يقف إلى جانبهم سلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، لقد قاد هؤلاء من بني النضير القوات في خيبر.

كان هؤلاء مرجع اليهود في الجزيرة العربية، كانوا يبشرون اليهود بقدوم النبي ﷺ، لقد بادر حبي بن أخطب وأخوه ياسر إلى الاجتماع بالنبي ﷺ في قباء ليلة وصوله إلى المدينة مهاجرًا، وأكد حبي أنه هو النبي ﷺ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة.

دارت على إثر ذلك مناقشة سرية بين حبي وياسر، قال ياسر: أهو هو؟ (يعني النبي المذكور) رد عليه حبي: نعم والله، قال ياسر: أنعرفه وتثبت؟ قال حبي: نعم، قال ياسر: فما في نفسك منه؟ قال حبي: عداوة... ويقول ابن هشام في سيرته: إن أم المؤمنين صفية بنت حبي بن أخطب استمعت سرًا إلى ما دار بينهما، وهي لما تزل صبية تلعب في مجلس أبيها وعمها.

لم يكن بالإمكان تصفية القاعدة العدوانية في خيبر دونما تأمين للجبهة الجنوبية، فكانت معاهدة الحديبية هي السبيل الأمثل لذلك.

لم تكن غزوة الأحزاب التي هددت الكيان الإسلامي في السنة الخامسة من الهجرة، إلا بتحريض من يهود بني النضير الذين انضموا إلى إخوانهم في خيبر.

لقد سار زعماء بني النضير إلى قريش وزينوا لها غزو المدينة المنورة، بتمويل من يهود خيبر وبني النضير، كما سعوا لدى قبائل نجد وأغروها بالمال، وعرضوا عليها إنتاج حقول خيبر، من زروع ونخيل لمدة عام، إن تحقق النصر على أيديهم.

لقد وافقهم على ذلك قبائل أشجع، وأسلم، وأسد، وفزارة، وكلهم من غطفان، فكان أكبر حلف عسكري شهدته الجزيرة العربية يضم الوثنيين واليهود.

كانت القوة مكونة من أحد عشر ألف مقاتل ستة آلاف من نجد وأربعة آلاف من قريش، وألف من يهود بني قريظة بالمدينة المنورة.

لم يشترك يهود خيبر في هذه الحملة بل كانوا هم الرأس المدبر لها، والقاعدة الممولة بالمال والسلاح، ومع هذا فإنها كانت الهزيمة.

لقد وعد الله المسلمين بفتح خيبر، كما وعدهم بغنائمها، وعندما أعلن النبي ﷺ الاستنفار لأصحابه للزحف على خيبر عم الفرخ أرجاء المدينة المنورة، ما إن سمع المخلفون بعزم المسلمين على القتال حتى تقدموا يطلبون المشاركة في الزحف، وتحقق للمسلمين ما ذكره القرآن الكريم في سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَكَانٍ لِنَأْخُذْهَا ذُرُوءًا نَنَاصِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنَ تَنَاصِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْهَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾، فأعلن ﷺ، أنه لن يشترك معه إلا أصحاب الشجرة الذين حضروا الحديبية، وهم ألف وأربعمائة، وقال للمخلفين: لا تخرجوا إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا، وأرسل النبي ﷺ منادياً في المدينة بذلك.

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنا نسوة قد أردنا الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا، فقال ﷺ: على بركة الله، وخرجت نسوة على رأسهن صفية بنت عبد المطلب، وأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنهما.

ما إن سمع بقايا اليهود بالمدينة بعزم الرسول ﷺ على غزو خيبر، حتى بدأوا في وضع العراقيل مستفيدين من ساحة الإسلام، فأخذوا يطالبون المسلمين بديونهم التي كانت على الكثير منهم، فأمرهم ﷺ بالوفاء، فباع البعض ثيابهم ودروعهم ومتاعهم.

لقد تصدى أبو الشحم اليهودي لعبد الله بن أبي حذرد الأسلمي رضي الله عنه في دين له بخمسة دراهم، فأرغمه على بيع ثوبه وسدّد اليهودي، لكن الله جعل في غنائم عبد الله من خيبر يهوديةً من أهل أبي الشحم، فاضطر أبو الشحم أن يشتريها من عبد الله بكل أمواله.

ما إن سمع يهود خيبر نبأ العزم على الزحف، حتى اجتمعوا وتراؤوا في الدفاع أو الهجوم على المدينة، فكان سلام بن مشكم، يرى الهجوم على المدينة وعدم الاستعانة بالعرب، أما كنانة بن أبي الحقيق، فكان يرى البقاء في الحصون، والدفاع من خلالها والاستعانة بالعرب لضرب المسلمين من الخارج، واختلف الرجلان، لكن الرأي استقر على ما رآه كنانة.

بعث اليهود بوفدهم الذي طاف بالقبائل العربية يساومهم على نصرته اليهود، واستجابت غطفان وبنو أسد، وساروا بقيادة عيينة بن حصن، وطلحة بن خويلد، ورفض بنو مرة عرض اليهود، وكان سيدهم الحارث بن عوف، الذي أرسل إلى عيينة قائلاً له: (يا عيينة إنك توضع في غير شيء، والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، لقد كان اليهود يخبروننا بذلك) وذكره بما قاله أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي، وهو ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد.

لقد هاجم الرسول ﷺ خيبر من الجهة الشمالية حتى لا يمكن اليهود من الهرب إلى الشام أو إلى تيباء لتشكيل قاعدة أخرى، لقد كان عدد المقاتلين اليهود في القلاع يصل إلى أحد عشر ألف مقاتل. لقد رفضت قبائل غطفان كافة العروض التي طرحها عليها الرسول ﷺ، وأصروا على أن يقفوا مع أحلافهم اليهود.

كانت خطة اليهود أن تبقى القبائل الحليفة خلف المسلمين إذا هجموا على قلاع خيبر، لكن الرسول ﷺ بدأ هجومه وهو يعلم أن غطفان وأسدًا من خلفه، ما إن تحركت غطفان حتى سمعوا صائحا يقول: (يا معشر غطفان، أهلكم أهلكم الفوت بحيفاء لا تربة ولا مال).

ما إن سمعت غطفان بذلك حتى خرجت على الصعب والذلول عائدة إلى ديارها. انهار اليهود لنبا خروج غطفان، وأسقط في أيديهم، وبدأت القلاع تتساقط أمام هجمات المسلمين، لقد كان الصوت الذي أفرغ غطفان، هو من فعل الصحابة، لقد قال عيينة بن حصن لثعلبة بن سلام بن أبي الحقيق: إن محمدًا كادنا في أهلنا فنفرنا إليهم حين سمعنا الصرير، فلم نر شيئًا، فكررنا إليكم لتنصركم فلم نصل إلا بعد الهزيمة.

إن سقوط خيبر، كان يعني انهيار القوى وآخر معقل للوجود اليهودي الدخيل في جزيرة العرب، كما كانت تعني أن المسلمين قد استولوا على أغنى منطقة زراعية في جزيرة العرب في ذلك العهد، كانوا يطلقون عليها ريف الحجاز.

لقد كانت اتفاقية التسليم تنص على خروج اليهود إلى الشام، وأن يتعهد المسلمون بحقن دماء اليهود، وإعفاء نساءهم وذرايعهم من السبي، والاسترقاق، وشرطت أن لا يكتموا أو يغيبوا شيئًا من الأموال.

بعد توقيع الاتفاق جاء اليهود إلى النبي ﷺ وقالوا: يا محمد، نحن أعلم منكم بخير، دعونا نكون فيها نعيمها بشطر مما يخرج منها، فأجازهم بذلك ﷺ.

استسلم بعد ذلك يهود فدك على يد محيصة بن مسعود ؓ، وصالحوه دون قتال على نصف الأرض، لكن يهود وادي القرى لم يستسلموا إلا بعد القتال، أما يهود تيباء فقد بعثوا من تلقاء أنفسهم يطلبون الصلح ويعرضون الخير للمسلمين، فقبل ﷺ منهم ذلك.

لقد استطاع الرسول ﷺ أن يؤمن الجهة الشمالية من المدينة والشام، وأن يقضي - على أوكار التآمر اليهودي.

لقد كانت خير، هي المغانم الكثيرة التي وعد الله ﷻ بها المسلمين، الذين كانوا مع النبي ﷺ في الحديبية، وشهدوا بيعة الرضوان، فقد كانت مرحلة انتقال من الضعف إلى القوة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الخوف إلى الأمن، لقد كانت من أعظم الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والعسكرية للأمة الإسلامية.

استطاع الرسول ﷺ أن يواصل دعوته دون عناء، فالمحرك للمؤامرات قد انتهى، والممول لها قد زال، وهكذا تنفس العرب الصعداء ليكملوا الرسالة في خدمة الإسلام والمسلمين».

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٩٩-٢١١].

#### ١٤ - نتائج غزوة و صلح الحديبية:

يقول د/ العيساوي: «لقد أسفرت غزوة الحديبية وما رافقها من صلح عن نتائج باهرة لصالح المسلمين سياسية وعسكرية، ودعوية ويمكن إجمالها فيما يأتي:

(١) اعتراف قريش بالدولة الإسلامية لأول مرة: حيث إن قريشاً كانت تعتبر محمداً ﷺ مجرد رجل خارج على القانون وعلى الأعراف والتقاليد العربية، وأن دولة الإسلام في المدينة المنورة مجرد عصابة من الناس تمكنت من بلدة واحتمت بها، وتوقيع قريش - والعرب تبعاً لقريش - معاهدة الحديبية مع الدولة الإسلامية التي يرأسها محمد ﷺ هو اعتراف بهذه الدولة واعتراف بمحمد ﷺ رئيساً لهذه الدولة.

[قراءة جديدة في السيرة ص ٣٠٧، وحياة محمد ﷺ ص ٣٦٥].

(٢) تقوية الصف الداخلي للدولة الإسلامية: فقد فرغ الرسول ﷺ بعد استتباب الأمن للقضاء على جميع المعارضة غير النزوية فقد استطاع تصفية المسلمين من كل منافق يتهمز الفرص ويتحينها لإشعال فتيل الفتنة بين المسلمين وإيقاد أوارها أو يعمل في شبكات التجسس التي تمده قريشاً بالمعلومات بكل سرية ودقة، وتقوية الصف الداخلي أصبحت الدولة الإسلامية مُهابة الجانب ينظر إليها العرب بكل هيبة



واحترام، حتى إن بعض القبائل بدأ ينتقل من تحالفاته القديمة مع قريش إلى تحالفات جديدة مع دولة الإسلام، وأخذ بناء علاقاتها معها على هذا الاعتبار، فلما (كانت قريش هي زعيمة الوثنية العربية وحامية الحرم المقدس، فإن توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حِلٍّ من الانتماء لزعمائها والارتباط بمصيرها، وأن لها الحرية المطلقة في أن تختار المعسكر الذي تراه مناسباً دخولاً في دينه أو صداقة معه). [دراسة في السيرة ص ٢٣٢].

وأول هذه القبائل دخولاً في حلف رسول الله ﷺ هي قبيلة خزاعة، بينما فقدت قريش كثيراً من هيبتها بعد حرب الدعاية الكبيرة التي شاعت عليهم أنهم يصدون عن البيت مَنْ جاءه معظماً، وللموقف المهزوز الذي ظهرت به؛ ولأنها جمدت على سياستها النفعية واهتمت بشؤونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري.

[فقه السيرة للغزالي ص ٣٦٣].

(٣) القضاء على الوجود اليهودي: وهذا يتمثل في فتح خيبر، فإنه لما استتب الأمن ووقعت الهدنة بين المسلمين وقريش، كان لا بد أن يكون الالتفاف نحو اليهود الذين كانوا السبب في إشعال فتيل الحرب، وكانت خيبر تمثل المعقل الرئيسي لجميع اليهود، فقد لجأ إليها كثير من يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، وغيرهم.

أضف إلى ذلك مَنْ كان فيها من اليهود فأصبحوا بتجميعهم هذا وكراً للهدنة والتأمر، فكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم؛ ولذلك كان أول إقدام حاسم للنبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر. [الرحيق المختوم ص ٣٠٣].

وبعد القضاء على قوة اليهود في خيبر عمل الرسول ﷺ على تصفية بقية الكيانات السياسية لليهود في فدك ووادي القرى وتيماء؛ خشية من احتمال إقدامها على عمل عسكري بعد توحيدها.

(٤) تطويق قريش وتفتيت قوى القبائل العربية المعادية للإسلام: لم تبق أمام الرسول ﷺ قوة تُذكر بعد الصلح مع قريش والقضاء على تجمع اليهود في خيبر سوى بعض القبائل العربية المنتشرة هنا وهناك؛ ولذلك عمل الرسول ﷺ على إخضاعها عسكرياً، عن طريق السرايا التي أرسلها والغزوات التي قادها، وكذلك جعلت الهدنة الاتصال بعرب الجنوب أمراً ميسوراً، حيث دخل الكثير من أهل اليمن الإسلام، ولا شك أن انتشار الإسلام في اليمن له أهمية خاصة من الناحية العسكرية، فقد جعل قريشاً مطوقة بالمسلمين من الشمال والجنوب وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائياً. [الرسول القائد ﷺ ص ٢١٢].

(٥) نشر الدعوة الإسلامية في ربوع الجزيرة العربية: لقد أتاح صلح الحديبية الفرصة للمسلمين والمشركون لأن يختلط بعضهم ببعض فيطلع المشركون على محاسن الإسلام وما وضع من نظم في تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس وتطهير العقول والقلوب من ألوان الشرك والوثنية والعداء والخصومة والضراوة بالدماء، والولوع بالحرب في بني جلدتهم الذين لا يختلفون عنهم في نسب وبيئة ولغة.

[صلح الحديبية ص ١٠٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتَحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ (أي من صلح الحديبية)، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهَدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَقَاوُضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَغْفُلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تِينِكَ السَّيِّئِينَ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدَلِيلِ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي الْفِ وَأَرْبَعَمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢].

(٦) إثبات عالمية الدعوة الإسلامية عن طريق مراسلة ملوك العالم: في ظل صلح الحديبية استطاع رسول الله ﷺ أن ينتقل بدينه إلى دائرة أوسع من دائرة الجزيرة العربية إلى العالم كله، حيث قام في فترة الهدنة بالاتصال بملوك العالم وأمرائه ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وذلك عن طريق رسائل خاصة بعث بها إلى كل منهم في السنة السابعة للهجرة، وقد كان لهذه الرسائل نتائجها المختلفة في الأقطار التي أرسلت إليها، ورغم اختلاف تأثير هذه الرسائل فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دونها شك.

[صلح الحديبية لباشمیل ص ٣٥٤، والدعوة إلى الإسلام ٤٨-٥١، والسفارات النبوية ص ٤٨١-٤٨٧].

(٧) اعتراف المشركين بالدين الإسلامي: إن قبول المشركين بدخول المسلمين مكة معتمرين من العام القابل أكسب المسلمين الحق في زيارة البيت من غير مناجزة ولا حرب. [سيرة الرسول ﷺ لدروزة ص ٢٦٧-٢٦٨]، وهذا يعني أنها قد اعترفت بأن الإسلام دين مقرر ومعترف به من أديان الجزيرة العربية. [حياة محمد ﷺ ص ٣٦٥].

(٨) إن الحديبية كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فكانت هذه الهدنة بابا له ومفتاحا، ومؤذنا بين يديه، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدرا وشرعا، أن يوطئ بين يديها مقدمات وتوطئات، تؤذن بها، وتدل عليها؛ ولهذا

أطلق الله سبحانه اسم الفتح على هذا الصلح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحِقِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح]. [فقه الغزوات للعيساوي ٣٥٤-٣٥٧].

ويقول د/ الحكمي: «لقد تخضعت هذه الغزوة عن نتائج عظيمة لم تتوافر في غزوة قبلها أو بعدها فيما أعلم، وأهمها ما يلي:

أولاً: ترتبت على الصلح آثار إيجابية ضخمة منها ما يلي:

(أ) اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقُدوة.

(ب) دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم بعد أن خابت ظنونهم إذ كانوا يتوقعون أنها القاضية على المسلمين، كما أخبر الله بذلك عنهم.

(ج) أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «يَقُولُ الزُّهْرِيُّ: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتَحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمَّنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَقَاوُضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي بَيْنِكَ السِّتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالِدَلِيلِ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحَدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتَحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَيْنِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٢/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «كَانَتْ الْحَرْبُ قَدْ حَجَزَتْ بَيْنَ النَّاسِ وَأَنْقَطَعَ الْكَلَامُ، وَإِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَوُا، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَصَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَأَمَّنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ تَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ، حَتَّى دَخَلَ فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ صَنَادِيدُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِالشَّرِكِ وَبِالْحَرْبِ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَأَشْبَاهُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْهُدْنَةُ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ شَهْرًا، دَخَلَ فِيهَا مِثْلُ مَا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ، وَفَسَّ الْإِسْلَامُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْعَرَبِ». [الغازي للواقدي ٦٢٤/٢].

(د) أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى.

[أخذت بعض المعاني السابقة عن كتاب «سيرة الرسول ﷺ» لمحمد عزة دروزة ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣، و«موسوعة التاريخ

الإسلامي» لأحمد شلبي ١/ ٣٣٠-٣٣١، و«السيرة النبوية» لأبي شهبة ٢/ ٢٨٢].

ثانيًا: كسب المسلمون الذين شهدوا هذه الغزوة بسببها فوائد كثيرة - أخروية ودنيوية - وأهمها ما يلي:

(أ) فازوا برضا الله ﷻ عنهم: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةِ﴾ الآية [الفتح: ١٨].

(ب) أخبرهم النبي ﷺ: «أن الله قد غفر لهم»: ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَخْمَرِ».

[مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٠)].

(ج) شهد لهم النبي ﷺ أنهم خير أهل الأرض: فعن جابر ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم

الحديبية: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ». [البخاري في المغازي (٤١٥٤)].

(د) بشرهم النبي ﷺ: بالنجاة من النار: فمن حديث أم مبشر ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند

حفصة ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا».

[مسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤٩٦)].

(هـ) قسمت عليهم غنائم خيبر: ففي حديث مجمع بن جارية الأنصاري: «فُقِسَّمَتْ خَيْبَرُ عَلَى أَهْلِ

الْحُدَيْبِيَّةِ، لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدًا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ»، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ سَهْمًا،

وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ، فِيهِمْ ثَلَاثُمِائَةٌ فَارِسٍ، فَأَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا.

[أبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، ومسنند أحمد ٢٤/ ٢١١-٢١٢ رقم ١٥٤٧٠، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: إسناده

ضعيف، يعقوب بن مجمع بن جارية والد مجمع - وإن كان حسن الحديث - انفرد به].

ثالثًا: شرعت في هذه الغزوة كثير من الأحكام والرخص التي كان لها أثر كبير في حياة المسلمين ومن

أهمها ما يلي:

(أ) شرعت فيها صلاة الخوف على الصحيح.

(ب) شرعت فيها الفدية لمن ارتكب شيئًا من محظورات الإحرام.

(ج) شرع فيها الصلح مدة معلومة عند حاجة المسلمين إليه.

(د) شرع فيها التحلل للمحصر، وأنه لا يلزمه القضاء.

- (هـ) شرعت فيها رخصة الصلاة في الرحال في حال المطر.<sup>(١)</sup>
- (و) شرع فيها قضاء الصلاة الفائتة بالنوم أو النسيان عند ذكرها.
- (ز) نزل في هذه الغزوة تحريم نكاح الكفار من المسلمات، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ لَهُنَّ حِلُّهُنَّ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].
- قال ابن كثير: «هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة...» [تفسير ابن كثير ٤/ ٣٥١].
- (ح) نزل فيها أيضاً الأمر بفسخ نكاح الشركات وعدم الاستمرار عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكُفَّارِ﴾ الآية [المتحنة: ١٠]. [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٠١-٥٠٦].
- ويقول ل/ خطاب: «أهم نتائج غزوة الحديبية هي ما يأتي:
- (١) اعتبار المسلمين طرفاً مساوياً لقريش، وهذا أول اعتراف بالدولة الإسلامية من أشد أعدائها وأقواهم في الحجاز.
- لقد كانت قريش تعتبر المسلمين من قبل عصاة شقوا عليها عصا الطاعة، ولم تكن تعتبرهم ندّاً لها قدراً وقيمة وقوة ومكانة.
- (٢) أصبح المجال مفتوحاً أمام الرسول ﷺ لمخالفة القبائل التي لم تكن تطمئن إلى مخالفته؛ لقوة قريش ولوجود الكعبة في مكة، وبذلك قوي جانب المسلمين وكثر حلفاؤهم وازدادت قوتهم الضاربة.
- (٣) التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين يهود خيبر الذين كانوا لا ينفكون يجرّضون القبائل على الرسول ﷺ.
- (٤) الاستقرار الذي أمّن التفريغ للدعوة وانتشار الإسلام.
- (٥) نجاح المسلمين في الحصول على الحياض المسلح: المسلمون محايّدون ومشردوهم الذين فروا بدينهم من قريش وحلفائها مسلحون يقاتلون.

(١) وردت الإشارة إلى أمر النبي ﷺ لأصحابه بالصلاة في الرحال في حديث ابن عمر في صحيح البخاري مع الفتح، في الأذان ٦٣٢، وفي صحيح مسلم، في صلاة المسافرين ٢٢-٢٤، وفي حديث جابر، صحيح مسلم، في صلاة المسافرين ٢٥، وأشار إليه حديث ابن عباس في المصدر السابق حديث رقم ٢٦-٣٠، ولم يعين في شيء من تلك الأحاديث الزمن الذي فعل النبي ﷺ فيه ذلك، وإنما ورد التعيين في حديث أبي المليح، فقد ذكر أنه وقع في الحديبية، وقد تقدم الحديث برقم (١٢٨)، وقد ورد في حديث أبي المليح أيضاً أنها حصلت لهم القصة في حنين وسبقت الإشارة إلى ذلك في ص ٣٩٤، وغزوة الحديبية كانت قبل غزوة حنين، كما هو معلوم فابتداء مشروع الصلاة فيها ظاهر، والله أعلم.

(٦) إثارة المسلمين للرأي العام ضد قريش لصدها المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه، مما أكسب المسلمين عطف كثير من القبائل، وكثير من قريش نفسها، وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش، مما سهّل عملية فتح مكة عليهم فيما بعد.

هذه هي نتائج الحديبية، وهي بعض أهداف الرسول ﷺ البعيدة التي لم يستطع المسلمون إدراكها في حينه، فلما عادوا إلى المدينة واستقر بهم المقام هناك ورأوا بعض تبشير هذه النتائج، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه معبراً عن رأي المسلمين: (لم يجلب نصر للإسلام ما جلب صلح الحديبية)، ثم نزل في هذا النصر قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح].

وبدأ المسلمون حينذاك يلمسون بُعد نظر الرسول ﷺ وتبشير ما بشرهم به من فتح قريب.

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٧-٢٨٨].

ويقول د/ أبو خليل: «صلح الحديبية اعتراف رسمي موقع من قريش، بأن رسول الله ﷺ ومن معه، قوة مستقلة متميزة، وصنو (الصنو: الأخ الشقيق والعم والابن، وأصل الصنو إنما هو في النخل، والصنو: المثل، والأصل أن تطلع نخلتان من عذق واحد) قريش زعيمة القبائل.

وهذا يعني أيضاً - أمام كل قوى جزيرة العرب - أن قريشاً قد اعترفت رسمياً بمن كانت تريد استتصاله، مما جعل القبائل العربية تعيد حساباتها.

وكانت الهدنة التي نص عليها صلح الحديبية فرصة المسلمين الذهبية، فاتصلوا بالقبائل، واختلطوا بأفرادها، فشرحوها لهم الإسلام، وبلغوا الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالحجة والبرهان، والعقل والمنطق.. فأسلم في سنتين اثنتي من الصلح، ما يعادل الذين أسلموا قبلها.

لقد اختلط المسلمون بغيرهم، فأعلموهم الإسلام، قولاً وعملاً، خلقاً وسلوكاً.

وجاء المشركون إلى المدينة المنورة، وذهب المسلمون إلى مكة المكرمة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يثقون بهم، وسمعوا منهم أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته الظاهرة، ودلائل نبوته العقلية، وحسن سيرته وجهيل طريقته بين أصحابه وبين الناس جميعاً، وعانوا بأنفسهم كثيراً من ذلك، فمالت أنفسهم إلى الإيمان، فبادر قسم منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، فأسلموا فيها بين صلح الحديبية وفتح مكة، ومال آخرون إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح، أسلموا جميعاً.

وبعد صلح الحديبية، وبعد هذا الاحتكاك، أيقن العرب جميعاً - من أسلم ومن لم يسلم بعد - أن قوة جديدة، بفكر جديد، وتنظيم اجتماعي جديد، ورابطة جديدة خلّفت وراءها العصية القبلية، قد أثبتت وجودها في جزيرة العرب، يتحتم على كل العرب التفكير جدياً بها كأمر واقع من ناحية، وكفكر منطقي سليم من ناحية ثانية.

كأمر واقع: أثبت وجوده، وبالتالي لقد غيّر ميزان القوى لصالحه بعد الحديبية.

وكفكر منطقي سليم: سقّه الأصنام والأوثان والشرك، وركّز على التوحيد المطلق لله ﷻ، خالقاً مبدعاً، قيوم السموات والأرض.

ومهد صلح الحديبية لاتصال المسلمين ببلاد العرب الجنوبية الغربية، وجعل ذلك أمراً ميسوراً، فجاء وفد من قبيلة بني دوس، من تلك الجبال التي تتأخم بلاد اليمن الشمالية، وانضموا إلى رسول الله ﷺ في المدينة.

وكانت جماعة من هذه القبيلة - بني دوس - قبل ظهور الإسلام مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم، وكانوا يرون أن هذا العالم لا بد له من خالق، ولو أنهم لم يهتدوا إليه، فلما بُعث محمد ﷺ رسولاً من قِبَل الله ﷻ، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو إلى مكة ليقف على حقيقة الأمر.

وعلى الرغم من أن قريشاً حذّرتَه مما قد يتركه محمد ﷺ في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه، وتبع طفيل رسول الله ﷺ إلى بيته بعد أن رآه يصلي في الكعبة، فشرح له رسول الله ﷺ تعاليم الإسلام، ففاضت نفس طفيل ﷺ حماساً لهذا الدين الجديد، فلما رجع إلى بلده، أفلح في هدي أبيه وزوجه، ولكنه وجد قومه غير راغبين في ترك عبادتهم الوثنية القديمة، فعاد إلى رسول الله ﷺ وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس، ولكن النبي ﷺ شجّعَه على المثابرة بقوله: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»، ودعا لهم رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم اهد دوساً».

وقد بلغ من نجاح طفيل ﷺ في بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة في السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه، كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه.

ويعد أن دخل رسول الله ﷺ مكة دخول الظافر، أشعل طفيل النار في كتلة من الخشب، وهي الصنم الذي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين.

[ينظر: تاريخ الإسلام ١/ ١٢٩-١٣٠، والدعوة إلى الإسلام ٥٧].

إسلام خالد وعمرو وعثمان بن أبي طلحة ﷺ: وأدركت قريش بعد صلح الحديبية أن الأمر قد استبان، وأن الإسلام ظاهر متصّر لا محالة، خاصة بما أن جشدت أضخم جُمع في تاريخها في غزوة الأحزاب وأخفقت، وبعد أن تكررت انتصارات المسلمين أيقنت قريش أيضاً أن أمر رسول الله ﷺ قد عظم في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وأن العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره، وفتح مكة ذاتها قريباً... وبند الصلح الذي نص على عدم إرجاع قريش من يأتيها من عند محمد ﷺ، فيه يقين رسول الله ﷺ وثقته بأصحابه ﷺ، فهو ﷺ على يقين من حبهم، ومن إخلاصهم لدينهم، مع شدة تمسكهم بعقيدتهم، فلن ينضم واحد منهم إلى قريش، وهذا ما كان.

وتراجعت قريش عن شرطها هذا، الذي اعتبرته في حينه نصرًا لها أُمِّلَتْهُ على رسول الله ﷺ فإذا به ينافي مصالحها وسمعتها وتجارها.

وسيتجه رسول الله ﷺ بناظره إلى خارج الجزيرة العربية برسائل إلى الملوك والأمراء، بعد إنجازه العمل في تنظيم شؤون المدينة الداخلية.

وأعاد الصلح فتح طريق القوافل التجارية المارة بالمدينة وما حولها، وظنت قريش أن الحصار الاقتصادي المفروض على تجارتها، والذي عانت منه كثيرًا، قد انتهى، ولكن أبا بصير رضي الله عنه ومن معه جعلها في حرج كبير، مما اضطرها إلى إلغاء البند الخاص بمن يأتي المسلمين مسلمًا دون إذن وليه.

وكان الشرط الذي تألم له المسلمون غاية التألم، وتمسك به المشركون غاية التمسك فرجًا ومخرجًا للمستضعفين، ونكدًا وخسارة على المشركين، حتى سعوا إلى إلغائه، وأعلنوا نزولهم عنه، ولم يكن قد مضى عليه عام بعد!

لقد أثبتت الأيام بعد نظر رسول الله ﷺ وصواب رأيه، وأنه سياسي عظيم، ومفاوض بارع، ففنع الصحابة بأنهم تعجلوا حين كرهوا بنود الصلح، التي كانت يُمنًا وبركة على الإسلام.

ودخل رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين مكة لعمرة القضاء، وبقوا ثلاثة أيام فيها، محققًا نصرًا إعلاميًا رائعًا.

لقد أكدت عمرة القضاء تعظيم المسلمين للبيت العتيق كما تعظمه العرب، بل هم أشد تعظيمًا له، وأكبر حرمة عندهم، وأن مكة لن تفقد مكانتها، والتي تحرص قريش على بقائها.

وسنرى عند بحث «عمرة القضاء» في الجزء الخاص بغزوة خيبر أثر هذه العمرة البالغ في مكة ذاتها، عندما رأت قريش بأم عينها:

- تضامن المسلمين وترابطهم وتعاونهم وتعاطفهم، وحسن نظامهم، واقتداءهم بنبههم بأرواحهم، وبالتالي فقدان الأمل في الوقوف في وجه المسلمين، ولا أمل في التغلب عليهم.

- عمرة القضاء قضاء على روح العناد الوثنية، فالعقلاء من قريش سينضمون إلى الإسلام علنًا وسرًا.

قال عكرمة بن أبي جهل لأبي سفيان: لا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم.

فعمرة القضاء فتح أولي لقلوب أهل مكة، وجلاء لأبصارهم.

وعزل صلح الحديبية قريشًا عن حلفائها اليهود الذين سعوا - بكل طاقاتهم وإمكاناتهم - إلى استئصال المسلمين، فهم الذين ما فتؤوا يجرّضون قريشًا والقبائل على رسول الله ﷺ، فلما رأوا أن العرب قد أخفقوا في القضاء على الإسلام، وأخفقت محاولاتهم في قتل رسول الله ﷺ وتأليب القبائل كلها على المسلمين،



وتحزيب الأحزاب عليهم، مع خيانتهم لعهودهم، ونقضهم لمواثيقهم في الساعات الحرجة، ومما لآلة الأعداء عليهم ليستأصلوا شأفتهم ويبدوهم عن آخرهم.

لما رأوا ذلك كله تحزبوا أحزاباً أعدوا العدة للإغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها، وسعى بذلك يهود خيبر إلى بني عمهم في تيماء وفدك ووادي القرى، ولا غرو فإن في خيبر أشراف بني النضير الذين ساروا إليها بأموالهم، وآلت إلى يدهم دفة الأمور فيها.

ولما علم رسول الله ﷺ بتأهب اليهود للإغارة على المدينة للقضاء على الإسلام في معقله، عاجلهم وسار إلى خيبر معقد هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه والرأس المدبرة له، المهيمنة عليه.

وملخص القول:

لقد أثمر صلح الحديبية بأسرع مما كان متوقعاً، وبأعجب مما كان يتصوره إنسان.

أزاح قريشاً - العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره - من طريق الدعوة، وسيحطم عنادها وجحودها مما سيجعلها تفكر بحل يحفظ لها ماء وجهها.

أزاح رسول الله ﷺ من طريقه كل تفكير بقريش، ليركز جهده إلى العدو الشالي، إلى يهود خيبر، فهو العدو الأكبر بعد قريش، فبعد أن أوقف رسول الله ﷺ قريشاً على الحياد في الصلح، كان لابد من استثمار الصلح بعد عزلة قريش، فسار إلى خيبر، إلى المتربصين بالإسلام والمسلمين.

وبعد الصلح مباشرة، وبعد فتح خيبر خاصة، أيقنت القبائل العربية والقوى المحيطة بأمة العرب، أن قوة جديدة، بفكر جديد، ورابطة جديدة، قد أثبتت وجودها وبجدارة في جزيرة العرب، فيتحتّم التفكير جدياً بها، وبميزان القوى الذي مالت كفته تجاه المسلمين.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: «أن محمداً ﷺ فاز في صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسياً باهراً».

[صلح الحديبية لأبي خليل ١١٣٠-١٣٤، ١٣٦-١٤٠، وفي التاريخ الإسلامي لأبي خليل ١٣٠-١٣٢].

ويقول د/ الزيد: «كان لهذا الصلح نتائج عظيمة نوجز شيئاً منها:

(١) ذهاب هيبة قريش بدليل مبادرة خزاعة للانضمام إلى عهد محمد ﷺ وعقده دون خوف من

قريش. [ينظر: السيرة النبوية لرزق الله ص ٤٩٥].

(٢) اعتراف قريش بكيان المسلمين، فقد كانت قريش منذ ظهور الدعوة الإسلامية تعتبر النبي ﷺ

ومن معه (شرذمة) لا كيان لهم ولا مكان، لكن في صلح الحديبية اعترفت بهم قريش وجلست معهم

جلوس الند للند. [ينظر: غزوة الأحزاب لباشميل ص ٣٣١، والسيرة الصحيحة للعمري ٢/ ٤٥٠].

(٣) اختلاط المسلمين بالمشرّكين، وتأثيرهم عليهم، وسماعهم للإسلام، ومشاهدتهم عن قرب

لأعمال المسلمين، يقول ابن حجر رحمه الله: «وَلَمَّا كَانَتْ قِصَّةُ الْحَدِيثِ مُقَدِّمَةً لِلْفَتْحِ سُمِّيَتْ فَتْحًا كَمَا سَيَأْتِي فِي

الْمَغَازِي، فَإِنَّ الْفَتْحَ فِي اللُّغَةِ فَتْحُ الْمُغْلَقِ، وَالصَّلْحُ كَانَ مُغْلَقًا حَتَّى فَتَحَهُ اللَّهُ، وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ فَتْحِهِ صَدُّ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْبَيْتِ، وَكَانَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ضِيًّا لِلْمُسْلِمِينَ وَفِي الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ عِزًّا لَهُمْ، فَإِنَّ النَّاسَ لِأَجْلِ الْأَمْنِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَهُمْ اخْتَلَطَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ، وَأَسْمَعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ، وَنَاطَرُوهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ جَهْرَةً آمِنِينَ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَتَكَلَّمُونَ عَنْدهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا خُفْيَةً، وَظَهَرَ مَنْ كَانَ يُخْفِيهِ إِسْلَامَهُ فَذَلَّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الْعِزَّةَ وَأَقْبَهُرُوا مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الْغَلْبَةَ».

[فقه السيرة للزيد ٥٤٣-٥٤٤].

## ١٥ - مكاسب المسلمين من صلح الحديبية:

يقول د/ أبو شهبه: «ومن مكاسب المسلمين من صلح الحديبية:

- (١) اعترفت قريش بالمسلمين اعتراف الند بالند، وفي ذلك دعاية للإسلام لا يستهان بها إن لم تكن ذات بال عند قريش فسوف يسمع بها العرب، وفي ذلك تمهيد لاتساع نفوذ الإسلام وسطوته.
- (٢) إن هذه الهدنة ضمنت للمسلمين الانصراف إلى تبليغ دعوة الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة وما يتاخها من الدول والإمارات، وهذا ما كان، فقد كاتب النبي ﷺ الملوك والأمراء، وبذلك انتشر الإسلام أضعاف انتشاره من قبل.

- (٣) اعتراف المشركين بمجيء المسلمين معتمرين من العام القابل أكسب المسلمين الحق في زيارة البيت من غير مناجزة ولا حرب، وهذا ما كان يريد به المسلمون.
- (٤) كان أشد ما أحفظ بعض المسلمين من الصلح: أن من أتى المسلمين من قريش رُدَّ، ومن جاء من المسلمين لا يُرد، وقد أثبت الواقع أنه لم يرد مسلم، وبذلك أصبح هذا البند من الشرط غير ذي خطر، كما كان النبي ﷺ يعلم بثاقب فكره، واستضاء قلبه بنور الوحي وفيوضاته أن الفقرة الأولى من هذا الشرط ستجر على قريش متاعب كثيرة، قد تضطرها إلى التنازل عنه بل والإلحاح في ذلك، وهذا ما صدَّقته الحوادث بأسرع مما كان يظن.
- وهو ما كان في قصة أبي بصير ؓ.

وهكذا صدَّق الله فراسة نبيه، وعلم المسلمون الذين امتعضوا من هذا الشرط أن أمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرهم، وأن رأيه لهم أولى من رأيهم لأنفسهم، وازدادوا إيمانًا بأن الله ناصر نبيه، وناشر دينه، ورضي الله عن الصحابي الجليل سهل بن حنيف، فقد كان يقول: (اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله أمره لرددت، والله ورسوله أعلم)».

[السيرة النبوية لأبي شهبه ٢/ ٣٤٠-٣٤٢].

## ١٦ - الآثار التي تترتبت على صلح الحديبية:

يقول أ/ رضوان:

أولاً: بناء على الشرط السادس من معاهدة الصلح، دخلت قبيلة خزاعة في تحالف مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين، ودخلت قبيلة بني بكر في تحالف مع قريش.

ثانياً: أثار الشرط الثاني من نصوص المعاهدة غضب المسلمين، وعلى الأخص الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أسرع إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه متسائلاً في دهشة وذهول: أو ليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال أبو بكر رضي الله عنه في ثقة وحسم ويقين: يا عمر، الزم أمره، فإني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ.

فلله در الصديق رضي الله عنه أقوى أمة محمد ﷺ إيماناً، فلقد ألقى درساً منيراً على الفاروق رضي الله عنه موجهًا عقله وقلبه، بأن ما يراه الرسول ﷺ بنور النبوة الكاشف للخفايا، لا يراه الخلق جميعاً بعقولهم القاصرة، والنبی ﷺ لا يُعارض بل يجب على المؤمنين التسليم لأمره، فإنه أرحم بهم من أنفسهم وأولى بهم منها، كما قال - تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وذهب عمر رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ هذه الأسئلة التي سأها أبا بكر رضي الله عنه فأجابه بنفس الأجوبة، قائلاً له: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي». فقال عمر فيما بعد: مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ! خَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦-٣١٧].

ثالثاً: حينما خرج أصحاب رسول الله ﷺ معه كانوا لا يشكون في زيارة البيت الحرام، وأداء العمرة لرؤيا رآها رسول الله ﷺ ورؤيا الأنبياء حق.

فلما رأوا الرجوع من العمرة هذا العام، وشروط المعاهدة المجحفة بالمسلمين، كادوا يُفتنون في دينهم، وأوشكوا على الهلاك؛ لأنهم نظروا بعقولهم القاصرة، ونسوا نور النبوة الكاشف، وتأيد الله القاهرة العليم بكل شيء لخطوات رسوله رحمة الله للعالمين.

رابعاً: وزادت آلام المسلمين، حينما شاهدوا أبا جندل بن سهيل بن عمرو، يرده الرسول ﷺ إلى أبيه وإلى المشركين وهو يصرخ قائلاً: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَرَدُّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟

فقال له الرسول الأعظم ﷺ في رحمة وثقة: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اضْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِيًّا مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنُغْدِرُ بِهِمْ».

وكان أبو جندل رضي الله عنه قد قدم على رسول الله ﷺ هارباً من مكة بقيوده، والمعاهدة ما زالت تُكتب لم يفرغ من كتابتها بعد، فقام أبوه سهيل بن عمرو يضرب في وجهه، وأخذ بمجمع ثيابه، ثم قال: يَا مُحَمَّدُ قَدْ لُجِّتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا، قَالَ الرسول الأمين الحريص على السلام العادل: «صَدَقْتَ».

ولو كان سياسياً من ساسة عصرنا هذا، لقال: كلا، فإن المعاهدة لم تصبح قانونية بعد، لعدم تصديق الطرفين عليها، لكنه رسول الله ﷺ العادل الأمين، ورحمة الله إلى العالمين.

خامساً: أظهرت للعرب عامة ولقريش خاصة مدى حب رسول الله ﷺ للسلام، وسعيه إليه، فحينما بدأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه كتابة نصوص المعاهدة كتب في بدايتها (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال سهيل بن عمرو: لا نعرف الرحمن الرحيم، اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب باسمك اللهم، وحينما كتب علي رضي الله عنه: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو، اعترض سهيل بن عمرو قائلاً: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، اكتب اسمك واسم أبيك، فقال الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فلم يستطع علي رضي الله عنه محو اسم رسول الله ﷺ من الصحيفة، وأزاله رسول الله ﷺ حرصاً على السلام، وسعيًا إليه، وحقاً للدماء؛ لأن الله تعالى هو السلام، والإسلام دين السلام، وتحية المسلمين السلام، وفي سبيل السلام تهون اعتراضات قریش المعتنة.

سادساً: سارع الرسول القائد ﷺ بعد إبرام الصلح بالتحلل من عمرته، وذبح هديه، وكذلك فعل المسلمون، ثم أخذ في العودة إلى المدينة.

سابعاً: وفي الطريق إلى المدينة نزلت سورة الفتح، وقد أثلجت تلك السورة الكريمة صدر رسول الله ﷺ وصدور المسلمين، ووصف الله تعالى هذه المعاهدة بالفتح المبين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾ [الفتح].

وبشّر الله ﷻ رسوله ﷺ: بالمغفرة وإتمام النعمة والهداية إلى الطريق المستقيم، والنصر العزيز، وهو فتح مكة وانهار كل معاقل الشرك في الجزيرة العربية.

ثامناً: كانت معاهدة الصلح حقاً كما قال العليم بكل شيء فتحاً ظاهراً مبيناً، فقد ترتب عليها، أن أمن الناس بعضهم بعضاً، وتقابلوا في سلام واطمئنان، وعرض المسلمون دينهم العظيم الباهر الضياء على

المشركين فدخل في الإسلام كل من له عقل سليم وفؤاد مبصر، ودخل في خلال عامين في الإسلام أكثر ممن دخلوا طوال التسعة عشرة عامًا السابقة من تاريخ الدعوة الإسلامية، وهذا هو الفتح المين حقًا. تاسعًا: أثبتت الأحداث حكمة الرسول ﷺ وبعده نظره، وأنه يرى بنور النبوة الكاشف لخفايا الأحداث.

فقد كان البند الثاني من بنود المعاهدة: وهو رد من جاء من قريش مسلمًا من غير إذن وليه إلى قريش، وعدم رد قريش من ارتد عن دينه من المسلمين ولجأ إلى قريش إلى رسول الله. كان هذا البند هو أشد بنود المعاهدة غيظًا على المسلمين، ومع هذا فقد كانت قريش هي التي طلبت من رسول الله ﷺ أن يلغيه، ولا يرجع إليهم من جاءه مسلمًا من غير إذن وليه، والذي دفع قريشًا إلى ذلك هو البطل العظيم أبو بصير عتبة بن أسيد ؓ وأصحابه الأبطال ؓ. [محمد القائد العظيم ﷺ لرضوان ١٢٥-١٣٠].

#### ١٧ - فائدة صلح الحديبية:

يقول أ/ شاكِر: «ولقد كان في هذا الصلح فائدة للمسلمين كبيرة، فالهذنة فسّحت المجال للدعوة، وأعطت الفرصة ليتفرغ المسلمون للانتهاء من الجبهة الشالية والتخلص من خطر اليهود نهائيًا، أما إعادة مَنْ جاء مسلمًا دون إذن وليه فإن من مصلحة المسلمين أن يكون لهم عيون بين المشركين يخبرونهم بكل خبر، ويرسلون إليهم خبر كل كيد يحاول المشركون أن يكيدوهم به، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يكون لهم من تأثير على معارفهم وأقربائهم، وما يكون من سلوكهم، فانتشار الإسلام لا يكون بطريقة واحدة، وإنما بعدة طرق منها: الدعوة، ومنها التأثير في السلوك، ومنها القوة.... وأما عدم إعادة قريش مَنْ جاءهم مرتدًا فإننا نكره أن يكون بيننا عيون لأعدائنا، وبالأصل فلا خير فيمن يرتد، بل لو بقي في صفوفنا لوجب قتله ردة.

وكذلك فإن في هذا الصلح اعترافًا صريحًا من المشركين بالمسلمين بوضعهم وقوتهم. ولقد حرص المسلمون على ذلك مدة ليست بالقصيرة، ولربما كان ذلك منذ أن وصل رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة وأسس دولته فيها، وكان من هذا الاعتراف أن دخلت قبائل في حلف مع المسلمين مثل خزاعة، على الرغم من قرب منازلها من ديار قريش، وأما ما كانوا يستفيدونه من العمرة فإنه سيتم في العام المقبل، ولكن المسلمين آنذاك لم يدركوا أبعاد هذا الصلح؛ لذا بدا منهم ما بدا من عمر بن الخطاب ؓ، ولربما حدثت بعض الأحداث زادت من هذا الشعور، أو أوجدته، كما في حادثة أبي جندل ؓ.

[التاريخ الإسلامي لشاكِر ٣٠٨/٢-٣٠٩].

## ١٨ - ثمرات الحديبية [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٩١-٢٩٢]:

(١) المسلمون: أتاح الاستقرار الذي كان من ثمرات هدنة الحديبية للمسلمين، التفرغ للتبشير بالدعوة الإسلامية داخل شبه الجزيرة العربية كلها وخارجها، فأوفد الرسول ﷺ دعاته إلى الملوك والأمراء والرؤساء النابهين يدعوهم إلى الإسلام.

وقد أصبحت المنطقة الكائنة جنوب المدينة آمنة بالنسبة للمسلمين، ولم يبق أمام الرسول ﷺ بعد الحديبية غير خصمين: يهود في منطقة خيبر وما حولها، والأعراب في شمال المدينة المنورة. وكان الموقف يتطلب القضاء على هذين الخصمين ليتفرغ المسلمون بعد إكمال حشد قواتهم إلى خصمهم الأكبر: قريش، وإلى هدفهم الرئيس: مكة المكرمة. لقد كان الهدف الحيوي للمسلمين: إكمال حشد قوى المسلمين استعداداً لمعركة الإسلام الحاسمة ضد قريش.

(٢) المشركون: لقد كسدت تجارة قريش قبل الهدنة، فأرادت بعد عقدها أن تعود إلى إرسال قوافلها التجارية على طريق مكة - الشام، بعد أن حُرمت من سلوكها مدة طويلة. وفعلاً تحركت قوافلها إلى الشام، ولكن أبا بصير ﷺ وأصحابه المغاوير الذين ردهم المسلمون إلى قريش تنفيذاً لشروط هدنة الحديبية، حددوا حرية حركة قوافل قريش إلى الشام، فأخذوا يتعرضون لكل قافلة تمر بهم فيقصون على حراسها ويعبثون بأموالها، بعد أن تركوا أهلهم وأموالهم بمكة، وآثروا الجهاد دفاعاً عن عقيدتهم على العودة إلى أهلهم وذوهم.

ولم تنعم قريش بنعمة الاستقرار إلا بعد أن سألت الرسول ﷺ بإلحاح شديد أن يؤوي إليه أبا بصير ﷺ وأصحابه ﷺ، متنازلة بمحض إرادتها للمسلمين عن شرط الهدنة، الذي يقضي برد المسلمين الذين يقصدون المدينة بدون موافقة أوليائهم إلى قريش.

(٣) يهود: استمر يهود خيبر وما جاورها على تحريض القبائل وجمع الأحلاف ضد المسلمين، وقذف الإسلام بالتهم الباطلة، وإيواء أعداء المسلمين، والغدر بالمسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. لقد كانوا موطن خطر يهدد المسلمين في شمال المدينة المنورة، وقد حرمتهم الهدنة من معاونه قريش، فاستمالوا غطفان لمعاونتهم عندما يتهددهم خطر المسلمين.

إنهم ينظرون إلى مصلحتهم الخاصة، ولا يبالون لكي يحصلوا عليها أن يستخدموا أية وسيلة». ويقول أ/ الشامي: «وعلى الرغم من عدم رضا كثير من الصحابة عن هذه الشروط لما فيها من إجحاف بحق المسلمين، وخاصة ما جاء في الشرط الثاني، الذي كان أبو جندل ﷺ أول تطبيق له، وكان

أبو بصير رضي الله عنه التطبيق الثاني له، نقول: على الرغم من ذلك فقد كانت له نتائج ذات آثار كبرى؛ مما جعل هذا العقد فتحًا كما أشار إليه القرآن الكريم في سورة الفتح، ومن هذه النتائج:

(١) اعتراف قريش بالنبي ﷺ وبالمسلمين كقوة لها وجودها وهي في مستوي الند لها.

[سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ٢/ ٣٥٢].

(٢) فتح الباب أمام القبائل أن تنضوي تحت أحد الجانبين إذا أرادت.

(٣) هبة القوة الإسلامية وخاصة من قبل المنافقين والأعراب الذين كانوا يظنون أن هذه القوة لن

تعود ثانية إلى المدينة، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في انسياب الدعوة بعد ذلك.

(٤) والأهم من هذا كله، أن الرسول ﷺ قد حقق بهذا الصلح الغاية التي كان يصبو إليها، وهي

عزل قريش جانبًا، وأن يُحَلَّى بينه وبين الناس، فقد كانت قريش عقبة كأداء بينه وبين الناس، مما كان يعيق

حركة الدعوة بل ربما عطل حركتها في بعض الأحيان، ووضع قريش جانبًا - ولو إلى حين - يتيح للدعوة

أن تأخذ بزمام المبادرة وتتحرك الحركة الإيجابية الفعالة.

وقد عبّر ﷺ عن رغبته تلك أثناء الطريق.. حينما أخبر أن قريشًا خرجت تريد منعه من دخول مكة..

فقال عند ذلك: «ماذا عليهم خلوا بيني وبين سائر العرب..». [سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩، وأصله في

البخاري، وفي قوله ﷺ: «فإن شاؤوا ماددتهم مدة، ويحلوا بيني وبين الناس» رقم الحديث [٢٧٣١].

هذه هي الغاية التي يهدف إليها ﷺ، فإن قريشًا كانت حاجزًا بينه وبين سائر العرب، إقامة الصلح

معها يعني زوال هذا الحاجز.

وقد كان هذا من حكمته ﷺ وتخطيطه البعيد المدى الذي غاب عن الصحابة رضي الله عنهم باستثناء أبي بكر

رضي الله عنه، كما كان واضحًا من مسلكهم عند إبرام العقد. [السيرة النبوية للشامي ٢٦٢-٢٦٣].

## ١٩ - الآثار الإستراتيجية بعيدة المدى لصلح الحديبية:

يقول ل/ محفوظ: «كان لصلح الحديبية آثار إستراتيجية بعيدة المدى كما يلي:

(١) فقد جعلت الهدنة المنطقة الجنوبية أي التي تقع جنوب المدينة منطقة آمنة بالنسبة للمسلمين،

وكانت قبل ذلك مصدر الخطر الأكبر الذي يهدد الدعوة والمسلمين.

(٢) وانحصر بذلك الخطر في المنطقة الشمالية التي تضم خصمين هم اليهود في يثرب والمسيحيون

والأعراب في شمالي المدينة، الأمر الذي يمكّن المسلمين من القضاء على هذين الخصمين؛ ليصبحوا بعد

ذلك متفرغين للتحويل - في الوقت المناسب - نحو الخصم الأكبر: قريش، وإلى هدفهم الرئيس: مكة

المكرمة.

(٣) وكان من نتائج الهدنة أيضًا التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين يهود خيبر الذين كانوا لا ينفكون يجرّضون القبائل على الرسول ﷺ.

(٤) كما أنها فتحت المجال للرسول ﷺ لعقد محالفات مع القبائل التي لم تكن مطمئن لمحالفته بسبب قوة قريش لوجود الكعبة بمكة، وخير دليل على ذلك إعلان خزاعة حلفها للرسول ﷺ بعد الصلح مباشرة، وقد ربح المسلمون بذلك حليفًا قويًا له «أهمية إستراتيجية خاصة» لقرب دياره من قريش. ولقد كانت خزاعة تميل قليلاً إلى المسلمين قبل الهدنة، وكان الإسلام قد انتشر بين أفرادها، ولكنها لم تستطع أن تحالف المسلمين قبل هذه الهدنة؛ لأن ذلك يهدد مصالحها الدينية لوجود البيت الحرام بمكة التي تسيطر عليها قريش، هذا بالإضافة إلى تهديد مصالحها الأخرى.

(٥) وقد يسّرت الهدنة للمسلمين الوقت وهيات لهم الظروف لنشر دعوتهم بأمان، وفي ظل هذا المناخ المستقر زادت قوة جيش المسلمين حتى أصبحت عشرة آلاف مقاتل في فتح مكة بعد أن كانت ألفًا وأربعمائة في غزوة الحديبية، وقد تحققت هذه الزيادة في زمن لم يتعد سنتين.

(٦) وقد كسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش بسبب صد قريش لهم عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو الهدف الذي خرج الرسول ﷺ من المدينة من أجله، وقد سهّل ذلك من عملية فتح مكة على المسلمين فيما بعد.

(٧) ومن خير ما يعبر عن النتائج الإستراتيجية لهذنة الحديبية قول أبي بكر ؓ: «لم يجلب نصر للإسلام ما جلب صلح الحديبية»، ثم نزل في هذا النصر قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ [الفتح].  
[العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية لحفظ ١٦٩-١٧٠].

## ٢٠ - النتائج السياسية لصلح الحديبية:

يقول د/ قلعجي: «لقد وصف الله تعالى صلح الحديبية بما حققه من نتائج باهرة لصالح المسلمين بـ «الفتح المبين» فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ [الفتح]، وقد كانت أهم هذه النتائج:

(١) إن قريشًا كانت تعتبر محمدًا ﷺ مجرد رجل خارج على القانون، وعلى الأعراف والتقاليد العربية، وإن دولة الإسلام في المدينة المنورة مجرد عصابة من الناس تمكنت من بلدة واحتمت بها، وتوقيع قريش - والعرب تبع القريشيين - معاهدة الحديبية مع الدولة الإسلامية التي يرأسها محمد ﷺ هو اعتراف بهذه الدولة، واعتراف بمحمد ﷺ رئيسًا لهذه الدولة.

(٢) وقد كانت النتائج التي تمحض عنها بند الالتزام بإيقاف القتال بين قريش والدولة الإسلامية على غاية من الخطورة، إذ أنه أعطى للدولة الإسلامية حرية التحرك السياسي والعسكري دون أية مخاوف.



أما التحرك العسكري فقد تمثّل في أمرين اثنين:

أولهما: أن رسول الله ﷺ جعل بيت سراياه هنا وهناك في أنحاء الجزيرة العربية.

وثانيهما: أن الدولة الإسلامية استطاعت - بعد تجميد عداء قريش لها، وأمنها منها - أن تصفي يهود

خير - كما سنرى - تنفيذًا للمخطط الذي وضعه الرسول ﷺ في تصفية أعداء الدولة الإسلامية.

أما التحرك السياسي فقد تمثّل بإرسال الدولة الإسلامية رسلها إلى ملوك الأرض طالبة منهم

الاعتراف بالدولة الإسلامية وبنظامها القائم.

(٣) إثارة الرأي العام العربي ضد قريش، لصدها الناس عن بيت الله.

(٤) أما النتائج التي تمحض عنها شرط رد الدولة الإسلامية كل من جاءها مسلمًا من قريش فهي:

تكوين جماعة من المؤمنين الذين كان يردهم رسول الله ﷺ تعلن ولاءها للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وتهاجم المشركين وقوافلهم وتجاراتهم، والدولة الإسلامية لا تحمل مسؤولية تصرفهم.

وقد تكونت هذه الجماعة عندما فر أبو بصير - أحد المؤمنين الجدد - من أسرته بعد أن قتل أحدهم،

وأقام على الطريق بين مكة والشام، ثم أخذ يلحق به كل المسلمين الجدد الهاربين من مكة، حتى أصبحت

هذه الجماعة - ولا يبعد أن تكون تتلقى إمدادًا ماديًا ومعنويًا من الدولة الإسلامية في المدينة المنورة -

مصدر قلق واضطراب بالنسبة لقريش، مما اضطر قريشًا أن ترسل لرسول الله ﷺ - رئيس الدولة

الإسلامية - وفدًا خاصًا تطلب منه الموافقة على إلغاء هذا البند من المعاهدة، وقبول المسلمين القادمين إليه

من مكة». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ٢٢١-٢٢٢].

ويقول د/ خليل: «وما من شك أن مجرد دخول قريش في عهد مع المسلمين يمثل اعترافًا منها بالدولة

الفتية والدين الجديد بعد حرب الإفناء الطويلة التي شنتها ضدها.

ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حرم المقدس، فإن توابعها من القبائل العربية

المتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حِلٍّ من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها، وأن لها الحرية المطلقة في

أن تختار المعسكر الذي تراه مناسبًا دخولًا في دينه أو صداقة معه.

وقد فتح ذلك المجال أمام المسلمين لكي ينشطوا ويتشربوا في الآفاق لكسب مزيد من الأصدقاء

والحلفاء والمتممين إلى الدين الجديد، مستغلين من جهة أخرى فترة السلم التي أتاحتها شروط الحديبية.

وكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصرًا كبيرًا للرسول ﷺ ذلك أن جزءًا كبيرًا من الأحابيش

الذين كانت قريش تعتمد عليهم يُعدون من بطونها، وبذلك ضم محمد ﷺ جزءًا كبيرًا من هذه القوة إلى

جانبه، وأضعف بذلك مركز قريش الحربي. [مكة والمدينة للشريف ص ٤٦٩].

ويرى (أرنولد) أن الحروب المتصلة التي كان الرسول ﷺ قد شنّها على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي تقيم جنوبي هذه المدينة حتى تخوم اليمن بعيدين بُعدًا يكاد يكون تامًا عن سلطان الدين الجديد.. ولكن هدنة الحديبية جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمرًا ميسورًا في ذلك الحين. [الدعوة إلى الإسلام ص ٥٧].

وقد كان لا يتشاور الإسلام في اليمن في الفترة التي أعقبت الحديبية أهمية خاصة من الناحية العسكرية، فقد جعل قريشًا محفوفة بالمسلمين من الشمال والجنوب، وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائيًا.

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ص ٢١٢].

هذا في الوقت الذي كانت قريش فيه قد توخت أهدافًا سطحية دفعتها إليها العصبية الجاهلية وهي رد المسلمين عن زيارة البيت الحرام هذا العام ليعودوا إلى زيارته في العام المقبل، ورد الذين يسلمون من قريش بدون رضا أوليائهم حتى لا يكثر عدد المسلمين، وأن ينالوا بهذه الهدنة الاستقرار للتفرغ لتجارهم وهو أهم هدف حيوي بالنسبة لقريش. [الرسول القائد ﷺ لخطاب ص ١٩٠].

ولم ينس الرسول ﷺ أن ينتزع من هذه الفرصة الثمينة كل ما يستطيع انتزاعه، فضلًا عن كسب الناس إلى الإسلام وصدقتهم لدولته.. صراعًا ضد القوى الأخرى المضادة للإسلام كاليهود الذين تكتّلوا في خيبر والمواقع المجاورة له، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهات الشمالية بازدياد نشاط الإسلام هناك، فضلًا عن التجمعات القبلية البدوية المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة السانحة لإنزال الضربات بأتباعه.

وها هو الرسول ﷺ وقد فصم عقدها بهدنته مع زعيمتها قريش يوجّه إليها السرايا تلو السرايا طيلة السنة السابعة ليصدها عن المضي فيما تبغيه وليشعرها بمقدرة المسلمين على العقاب!.

[دراسة في السيرة لخليل ١٩٢-١٩٣].

## ٢١ - الآثار العملية للصلح:

يقول أ/ الشامي: «كان من آثار الشرط الأول، أن التقى الناس بعضهم ببعض، والتقى المسلمون مع أقاربهم وأصحابهم من المشركين، وأتيح لهم لأول مرة أن يعرضوا أفكارهم، وأن ينقلوا صورة صادقة عن الإسلام، هذه الصورة التي طالما وقف طغاة القوم في وجهها، فطلبوا من الناس أن يغلقوا أعينهم، وأن يصموا أذانهم، كما رأينا في قول الزهري رحمه الله.

لقد التقى الأخ بأخيه، والابن بأبيه، والجار بجاره.. وتركوا قريشًا بعد أن أسمعهم ما يريدون، تركوهم ليراجعوا أنفسهم على مهل..

وأما الشرط الثاني، وهو الشرط الذي أثار حفيظة المسلمين، ودفع بعمر رضي الله عنه أن يراجع أبا بكر رضي الله عنه، ثم يراجع رسول الله ﷺ.

كان الشرط محجفًا في ظاهره، وزاد من هذا الإجحاف مجيء أبي جندل رضي الله عنه يرسف في قيوده، ثم رُدَّ إلى المشركين، ورسول الله ﷺ يقول له: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اضْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ وَلِيًّا مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَخَرَجًا».

أما قصة هذا الفرج والمخرج فقد كانت سريعة العطاء، وهو ما كان في قصة أبي بصير رضي الله عنه والثوار من حوله.

وهكذا تنازلت قريش عن شرطها الذي أصرت عليه، بل ناشدت الرسول ﷺ أن يتوسط لإنهاء الأمر. وإذا كان من شيء يستوقف المرء، فهو سرعة بديهة أبي بصير رضي الله عنه في إيجاد المخلص، والاعتصام بدينه. وبعد ذلك أصبح الباب مفتوحًا إلى المدينة فمن أراد الإسلام من أهل مكة خرج وهاجر إلى المدينة، كما فعل عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة. وغيرهم كثير.. ومن آثار الصلح تفرغ الرسول ﷺ لشؤون الدعوة المختلفة، من إرسال السرايا، وقيادة الغزوات، وإرسال الرسل، واستقبال الوفود..

ولهذا كان هذا الصلح فتحًا: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية).

ولا أدل على كونه فتحًا من المقارنة بين عدد الذين جاؤوا إلى عمرة الحديبية وبين عدد الذين جاؤوا بعد اثنين وعشرين شهرًا فقط لفتح مكة، كان عدد الأولين على الرغم من الاستنفار الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ ألفًا وأربعمائة، بينما كان عدد الفاتحين عشرة آلاف.. هذا الفارق الكبير في هذه المدة اليسيرة يبين كم كانت حركة الدعوة فاعلة نشيطة، كما يبين أثر الصلح الذي أتاح فرصة الاتصال بين الناس. ثم كان فتح مكة.. وقد كان من نتائجه إسلام أهل مكة كلهم إلا أفرادًا قلائل أسلموا فيما بعد، منهم صفوان بن أمية الذي طلب من الرسول ﷺ أن يكون له الخيار لمدة شهرين، قال ﷺ: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر...».

ذلك أنه لا إكراه في الدين...». [السيرة النبوية للشامي ٢٧٥-٢٧٨].

ويقول الشيخ أبو خوات: «لقد بلغ مدى علم الله بالمصلحة المترتبة على هذا الصلح أن سماه فتحًا مبنيًا، فقد يظن كثير من الناس أن المراد بالفتح المبين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح]، هو فتح مكة والصحيح أن المراد به صلح الحديبية، فقد نزلت هذه السورة في الطريق بين مكة والمدينة في

عودة الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة بعد هذا الصلح، والدارس لما حدث بعد هذا الصلح وما ترتب عليه يجد أنه كان المقدمة الطبيعية التي لا بد منها أو مثلها ليدخل المسلمون مكة دون مقاومة تُذكر، بل - من ناحية قبول الدين الجديد - بإعجاب بالدين ودخول فيه، وعلى قدر ما أعلم عن سقوط العواصم والمدن، لم أعلم أن مدينة سقطت في يد الفاتحين كان شأنها شأن مكة حين فُتحت.

تفتح المدن والعواصم فيملك الفاتح الطرق والأبنية وإرغام الناس ولكنه لا يملك القلوب التي في الصدور، أما فتح مكة فهو الفتح الوحيد في التاريخ - فيما أعلم - الذي ترتب عليه ملك الأميين جميعاً عن رضا وطوعية، وفي لحظة انقلب الأعداء الألداء أحبة أحماء، ومن هنا استمعوا في وقت الكرب والشدة هذا النداء: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

إليك أيها القارئ الصورة باختصار: كان العرب والأعراب يتخرجون من الاتصال بالمسلمين اتقاء لغضب قريش أو عتابها، فلما تم الصلح رفع هذا الحرج وصاروا يقولون: إن قريشاً صالحت محمدًا فلماذا نخاصمه وقد كنا نخاصمه من أجلها؟ ولهذا سُمِّي العام السابع للهجرة عام الوفود: جعلت كل قبيلة توفد إلى رسول الله ﷺ من يتعلم الإسلام ثم يعود إلى قومه، أو تطلب إليه أن يرسل إليها من يعلمها الدين والقرآن من المسلمين الأولين، وبهذا الصلح اختلط المشركون بالمسلمين ورأوا رسول الله ﷺ، وعرفوا من قضايا الإسلام وخلاله وخلال أهله ما جعلهم يحبون الإسلام ويقبلون عليه، تاركين ما هم فيه من ضلال.

ويقول الإمام النووي - عليه الرحمة - ناقلًا عن العلماء في هذه النقطة من البحث:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْمُصْلَحَةُ الْمَرْبُوبَةُ عَلَى إِنْتَاقِ هَذَا الصُّلْحِ مَا ظَهَرَ مِنْ ثَمَرَاتِهِ الْبَاهِرَةِ، وَفَوَائِدِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، الَّتِي كَانَتْ عَاقِبَتُهَا فَتْحُ مَكَّةَ، وَإِسْلَامَ أَهْلِهَا كُلِّهَا، وَدُخُولَ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَبْلَ الصُّلْحِ لَمْ يَكُونُوا يَخْتَلِطُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَظَاهَرُ عِنْدَهُمْ أُمُورُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا هِيَ، وَلَا يَحِلُّونَ بِمَنْ يُعَلِّمُهُمْ بِهَا مُفَصَّلَةً، فَلَمَّا حَصَلَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ اخْتَلَطُوا بِالْمُسْلِمِينَ، وَجَاؤُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَكَّةَ، وَحَلُّوا بِأَهْلِهَا وَأَصْدِقَائِهِمْ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَسْتَنْصِحُونَهُ، وَسَمِعُوا مِنْهُمْ أَحْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ مُفَصَّلَةً بِجُزْئَاتِهَا، وَمُعْجَزَاتِهِ الظَّاهِرَةِ، وَأَعْلَامَ بُنْيَانِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، وَحُسْنَ سِيرَتِهِ، وَجَمِيلِ طَرِيقَتِهِ، وَعَايَنُوا بِأَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ، فَمَا زَلَّتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ حَتَّى بَادَرَ خَلْقٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَأَسْلَمُوا بَيْنَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَازْدَادَ الْآخَرُونَ مَيْلًا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ أَسْلَمُوا كُلُّهُمْ لِمَا كَانَ قَدْ تَمَّهَدَ لَهُمْ مِنَ الْمَيْلِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ فِي الْبَوَادِي يَنْتَظِرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ إِسْلَامَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ أَسْلَمَتِ الْعَرَبُ فِي الْبَوَادِي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ [النصر].

[شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٤٠ كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية].

ولعلنا بعد هذه الكلمات لا نعجب إذا قرأنا أن الذين قاموا من المدينة لفتح مكة بعد عامين اثنين كانوا بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً، فأين من هذا الحجم الصغير ألف وأربعمائة كانوا في الحديبية؟! وإذا قرأنا في دائرة المعارف الإسلامية: «أن محمداً فاز في صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسياً باهراً، حتى إن الشرط الذي يتعلق برد المسلمين إلى مكة وعدم رد المسلمين المنحرفين إلى المدينة، سعت قريش نفسها إلى رسول الله ﷺ أن يلغيه، فقد حدث أن رجلاً اسمه أبو بصير رضي الله عنه جاء إلى المدينة مسلماً فردّه رسول الله ﷺ عن المدينة فلم يقبل العودة إلى مكة، وإنما ذهب إلى مكان في طريق «مكة - الشام» التجاري، وعلم بمكانه من كانوا يسلمون من أهل مكة فجعلوا يتسللون إليه فرادى وجماعات، حتى إن أبا جندل بن «سهيل بن عمرو» الذي وقّع عن قريش وثيقة الصلح خرج من مكة في سبعين راكباً أسلموا فلاحقوا بأبي بصير رضي الله عنه، وانضم إليهم ناس من كثير من القبائل حتى بلغوا ثلاثمائة قطعوا طريق قريش: لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا أخذوها، وهنا كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بالأرحام أن يطلبهم إلى مدينته، وأن يتحلل من أحد شروط الصلح الذي كان يوم الصلح يعتبر شرطاً جائراً.

ومما يدل على عبقرية محمد ﷺ الذاتية - مع طاعته لأمر ربه - وعلى أنه كان يفاوض في الصلح على أعلى درجات الدراية السياسية هذه القصة: روى البيهقي بأسانيده عن عُرْوَةَ قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ رَاجِعًا، فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذَا يَفْتَحُ، لَقَدْ صُدِدْنَا عَنِ الْبَيْتِ وَصُدَّ هَدْيُنَا، وَعَكَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَرَجَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلَ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ يَفْتَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئْسَ الْكَلَامُ! هَذَا أَعْظَمُ الْفَتْحِ، لَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَذْفَعُوا بِالرَّاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَيَسْأَلُوا نَفْسَهُمْ الْقَضِيَّةَ، وَيَرْغَبُونَ إِلَيْكُمْ فِي الْأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا وَقَدْ أَظْفَرَكُمْ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ، وَرَدَّكُمْ سَالِمِينَ غَانِمِينَ مَأْجُورِينَ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، أَنْتُمْ يَوْمَ أَحَدٍ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ؟ أَنْتُمْ يَوْمَ الْأَخْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا؟».

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، هُوَ أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، وَاللَّهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيهَا فَكَّرْتَ فِيهِ، وَلَآتَى أَعْلَمَ بِاللَّهِ ﷻ، وَبِالْأُمُورِ مِنَّا. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦٠ - ١٦٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَقَالَ عُمَرُ   وَرَجَالَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ  : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ؟ وَهَدَيْنَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ، وَلَا نَحْنُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «قُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟»، قَالَ عُمَرُ  : لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَأَخْلِقُ رَأْسِي وَرُؤُوسَكُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ، وَأُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عُمَرَ   فَقَالَ: «أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ نَصَعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ؟ أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ الْأَخْزَابِ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ رَاغِبِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟»، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ   يَذْكُرُهُمْ أُمُورًا: أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ، لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ   وَبِأَمْرِهِ مِنَّا. [المغازي للواقدي ٦١٠/٢].

أقول: إن محمداً   كان له من المعرفة والدراية السياسية ما جعله يعرف - وهو يعقد الصلح - المزايا الضخمة التي حصل عليها المسلمون، ولعله كان يرى بنور الله أن هذا الصلح كان المقدمة التي تنتج بالضرورة فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا.

ومن هنا ينبغي أن نتعلم أن بعض القواد والزعماء الموهوبين يكونون لذكائهم ولإدراكهم لأكثر أبعاد المشاكل التي يتصرفون فيها أقدر من غيرهم من الناس على الوصول بالمشاكل في يسر إلى الحلول المنشودة، ولو ظهر غيرهم بمظاهر الشجاعة والغيرة والإقدام ودلائل العزة والكرامة.

[دروس من غزوات الرسول   لأبي خوات ١٠٦-١١٢].

[وينظر لمزيد التفصيل: صلح الحديبية وأبعاده في نشر - الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها لسياني ٢٠٣-٣٢٩، وسياسة الرسول   في الحرب والمهادنة كما تصورهما سورة الفتح للأحمدي ٥٦-٧٣، والتناقص الموضوعي في سورة الفتح لميلسي ٤٥٠-٤٥٩].



## مصادر ومراجع غزوة الحديبية

- (١) أبو بصير : قمة في العزة الإسلامية - د/ محمد حسن بريغش - ط ٦ مكتبة المنار - الزرقا - الأردن ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- (٢) الأحاد والمثاني - الإمام أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني، ابن أبي عاصم (٢٨٧هـ) - تح د/ باسم فيصل أحمد الجوابرة - دار الراية - الرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- (٣) إنحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة - الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (٨٤٠هـ) - تقديم د/ أحمد معبد - تح دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أ/ أبو تيم ياسر بن إبراهيم - دار الوطن - الرياض ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (٤) الأحلاف العسكرية والسياسية المعاصرة والآثار المترتبة عليها: دراسة فقهية مقارنة (دكتوراه) - د/ هشام محمد سعيد آل برغش - دار اليسر - القاهرة ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
- (٥) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (دكتوراه) - د/ أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد - إشراف د/ عبد الستار فتح الله سعيد - ط ٢ دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- (٦) أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية - د/ جعفر عبد السلام - رابطة الجامعات الإسلامية - القاهرة ٢٠٠٨م.
- (٧) الأساس في السنة وفقهها : السيرة النبوية - أ/ سعيد حوى - دار السلام - القاهرة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- (٨) إستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجاً (دكتوراه) - د/ أمل البكري محمد إسماعيل الببلي - إشراف د/ حسن علي الساعوري - كلية الدراسات العليا - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان ١٤٣٢هـ / ٢٠١٢م.
- (٩) الإسلام والاستبداد السياسي - الشيخ محمد الغزالي - مكتبة نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٥م.
- (١٠) الإصابة في تمييز الصحابة رحمه الله - الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب للفقهاء الحافظ المحدث ابن عبد البر القرطبي المالكي (٤٦٣هـ) - تح أ/ عادل أحمد عبد الموجود، وأ/ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- (١١) الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ - أ/ سامي بن عبد الله المغلوث - مكتبة العبيكان - الرياض ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.



- (١٢) أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة: أماكن وأقوام - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- (١٣) أطلس السيرة النبوية - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- (١٤) أطلس القرآن - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- (١٥) أطلس تاريخ الإسلام - د/ حسين مؤنس - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٨م.
- (١٦) أطلس تاريخ العرب والإسلام - د/ سيف الدين الكاتب - ط ٦ دار الشرق العربي - بيروت ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.
- (١٧) الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء - الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (٦٣٤هـ) تح د/ مصطفى عبد الواحد - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.
- (١٨) إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع - الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (٨٤٥هـ) - تحقيق وتعليق أ/ محمد عبد الحميد النميسي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (١٩) البداية والنهاية - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) - تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر - القاهرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- (٢٠) بعض فوائد صلح الحديبية - ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (١٢٠٦هـ)، ملحق المصنفات ج ١٢ - دراسة وتحقيق د/ ناصر بن سعد الرشيد، نشر وتوزيع إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٤١٤ - ١٤١٥هـ.
- (٢١) التاريخ الإسلامي - أ/ محمود شاكر - ط ٤ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (٢٢) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر - د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي - دار الأندلس الخضراء - جدة، ودار الدعوة - الإسكندرية ١٩٩٧م.
- (٢٣) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) - الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) - تح أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ٤ دار المعارف بمصر ١٩٧٧م - ١٩٧٩م.
- (٢٤) تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ - م/ يوسف أبو راس - دار الفرقان - عمان - الأردن ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- (٢٥) تأملات في سيرة الرسول ﷺ - د/ محمد السيد الوكيل - ط ٣ دار المجتمع - جدة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- (٢٦) التربية القيادية (المنهج التربوي للسيرة النبوية) - د/ منير محمد الغضبان - ط ٤ دار الوفاء - المنصورة - مصر ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(٢٧) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) - الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي (٧٧٤هـ) - تح / سامي بن محمد سلامة - ط ٢ دار طيبة - الرياض ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

(٢٨) تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن - الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) - تح / د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر - القاهرة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٢٩) التناسق الموضوعي في سورة الفتح (ماجستير) - د/ إبراهيم بن محمد أبكر عباس ميلسي - إشراف د/ جمال مصطفى عبد الحميد النجار - كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٣٤هـ.

(٣٠) حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المصطفين الأخيار - العالم الفقيه القاضي علامة اليمن محمد عمر بحرّق الحضرمي الشافعي (٩٣٠هـ) - اعتنى به / محمد غسان نصوح عزقول - ط ٢ دار المنهاج - بيروت، جدة - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(٣١) الحديبية (في ظلال السيرة) - د/ محمد سليم العوا - مكتبة وهبة - القاهرة ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

(٣٢) حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ: (بدر وأحد والحديبية وفتح مكة وحنين وتبوك) - د/ محمد بن بكر بن إبراهيم آل عابد - دار الغرب الإسلامي - بيروت - د.ت.

(٣٣) حياة محمد ﷺ - د/ محمد حسين هيكل - الهيئة المصرية للكتاب - مصر ٢٠٠١م.

(٣٤) خاتم الأنبياء محمد ﷺ (قصص الأنبياء والتاريخ ٧) - د/ رشدي البدرأوي - ط المؤلف - القاهرة ٢٠٠٤م.

(٣٥) خاتم النبيين ﷺ - الإمام الشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - القاهرة د.ت.

(٣٦) دراسة في السيرة - د/ عماد الدين خليل - ط ١٥ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٣٧) دروس من غزوات الرسول ﷺ - الشيخ محمد محمد أبو خوات - الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية - دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.

(٣٨) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة - الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) - توثيق وتخريج وتعليق د/ عبد المعطي قلججي - دار الكتب العلمية - بيروت، ودار الريان - القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٣٩) الرسول القائد ﷺ - ل.ر/ محمود شيت خطاب - ط ٦ دار الفكر - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

(٤٠) الروض الأنيّف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - الإمام المحدث أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلي (٥٨١هـ) - تحقيق وتعليق وشرح الشيخ عبد الرحمن الوكيل (ومعه السيرة النبوية لابن هشام) - مكتبة ابن تيمية - الجيزة - مصر ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(٤١) زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ - الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) - حقق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط - ط ٢٧ مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م.

(٤٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (السيرة الشامية) - الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي - تح د/ مصطفى عبد الواحد وآخرين - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٤ - ٢٠٠٧ م.

(٤٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض ١٩٩٥ م.

(٤٤) سنن الدارمي (مسند الدارمي) - الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (٢٥٥ هـ) - تح أ/ حسين سليم أسد الداراني - دار المغني - الرياض ١٤٢٠ هـ.

(٤٥) السنن الكبرى - الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣ هـ) - قدم له د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - أشرف عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط - حققه وخرّج أحاديثه الشيخ حسن عبد المنعم شلبي - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.

(٤٦) سياسية الرسول ﷺ في الحرب والمهادنة كما تصورها سورة الفتح (ماجستير) - د/ سليم بن مسعد الأحدي - إشراف د/ محمد محمد أبو شهبة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الملك عبد العزيز (أم القرى) - مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

(٤٧) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ﷺ - العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (١٠٤٤ هـ) - لخص فيه عيون الأثر لابن سيد الناس، والسيرة الشامية للصالح - دار المعرفة بيروت - توزيع مكتبة الإيوان - المنصورة - مصر د.ت.

(٤٨) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة - أ/ محمد فريد وجدي - جمعها وراجعها وقدم لها د/ محمد رجب البيومي - ط ٢ الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م.

(٤٩) السيرة النبوية - الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري (٢١٨ هـ) - تح أ/ مصطفى السقا وإبراهيم الإيباري وعبد الحفيظ شلبي - ط ٢ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م.

(٥٠) السيرة النبوية - الشيخ علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي - تح أ/ سيد عبد الماجد الغوري - ط ١٢ دار ابن كثير - دمشق ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.

- (٥١) السيرة النبوية : تربية أمة وبناء دولة - أ/ صالح أحمد الشامي - ط ٢ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- (٥٢) السيرة النبوية الصحيحة - د/ أكرم ضياء العمري - ط ٥ مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- (٥٣) السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة - أ/ محمد إبراهيم شقرة - مكتبة المعارف - الرياض ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- (٥٤) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د/ محمد بن محمد أبو شهبة - ط ٧ دار القلم - دمشق ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- (٥٥) السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة: قراءة جديدة - أ/ محمد بن حمد الصوياني - مكتبة العبيكان - الرياض ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- (٥٦) السيرة النبوية: دروس وعبر - د/ مصطفى السباعي - ط ٣ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، وط دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (٥٧) شرح السنة - الإمام المحدث الفقيه الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٦-٥١٦ هـ) - حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه الشيخ شعيب الأرناؤوط وأ/ محمد زهير الشاويش - ط ٢ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (٥٨) شرح السيرة النبوية - رواية ابن هشام - الإمام أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الحشني (٦٠٤هـ) تصحيح أ/ بولس برونل - المطبعة الهندية بالموسكي - القاهرة ١٣٢٩هـ.
- (٥٩) شرح معاني الآثار - الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١هـ) - تح أ/ محمد زهري النجار - دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٩هـ.
- (٦٠) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان - الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي أبو حاتم البستي - الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي - تح الشيخ شعيب الأرناؤوط - ط ٢ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- (٦١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - ط ٣ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (٦٢) صحيح السيرة النبوية - الشيخ إبراهيم العلي - تقديم د/ عمر سليمان الأشقر - راجعه د/ همام سعيد - دار النفائس - عمان - الأردن ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- (٦٣) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية - أ/ محمد الصوياني - مدار الوطن للنشر - الرياض ١٤٣٤هـ / ٢٠١١م.

(٦٤) صلح الحديبية - الشيخ محمد أحمد باشميل - ط ٣ المكتبة السلفية ومطبعتها - القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٦٥) صلح الحديبية : الفتح المبين - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٦٦) صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة - د/ عبد الحكيم الصادق الفيتوري - ط ٣ دار المدني - جدة ٢٠٠٥م.

(٦٧) صلح الحديبية وأبعاده في نشر الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها (٦-١١هـ / ٦٢٨-٦٣٢م) (ماجستير) - د/ خالد محمد علي يمني - إشراف د/ محمد عبد العال أحمد عزيز - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

(٦٨) صلح الحديبية وأثره في الدعوة الإسلامية (ماجستير) - د/ حافظ مصطفى أيوب - إشراف د/ عبد الغفار محمد عزيز - كلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر - القاهرة ١٩٧٩م.

(٦٩) صلح الحديبية وأثره في تسليم المظلومين (ماجستير) - د/ عبد الله بن عبد الرحمن الصبيحي - إشراف د/ جلال الدين محمد صالح - جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية - كلية الدراسات العليا - الرياض ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.

(٧٠) صور من حياة الرسول ﷺ - أ/ أمين دويدار - دار المعارف - مصر ١٩٧٢م.

(٧١) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة - د/ محمد فوزي فيض الله - دار القلم دمشق - الدار الشامية - بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٧٢) ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - ط ٢ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(٧٣) الطبقات الكبرى (الكبير) - الإمام محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (٢٣٠هـ) - تح د/ علي محمد عمر - مكتبة الخانجي - القاهرة ٢٠٠٢م.

(٧٤) العبقرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ - العميد/ محمد فرج - دار الفكر العربي - القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٧م.

(٧٥) العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية - ل. ر/ محمد جمال محفوظ - سلسلة دعوة الحق عدد ٣٧ - رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٧٦) غزوة الحديبية - د/ محمد عبد القادر أبو فارس - دار الفرقان عمان - الأردن ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٧٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) - تح أ/ محمد فؤاد عبد الباقي وأ/ محب الدين الخطيب - دار الريان للتراث - القاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- (٧٨) فضائل الصحابة رضي الله عنهم - الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٤١هـ) - تح د/ وصي الله محمد عباس - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (٧٩) فقه الحديبية - د/ سليمان بن حمد العودة - مجلة البيان - العدد ٢٠٦ - لندن - ديسمبر ٢٠٠٤م - ص ٩٨-١٠٧.
- (٨٠) فقه السنة - الشيخ السيد سابق - طبعة مصححة منقحة ومخرجة الأحاديث تحت إشراف أ/ محمد السيد سابق - ط ٢ دار الفتح للإعلام العربي - القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- (٨١) فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي - خرج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - دار الريان للتراث - القاهرة ١٩٨٧م، وط دار القلم - دمشق ١٤٢٧هـ.
- (٨٢) فقه السيرة - د/ زيد بن عبد الكريم الزيد - دار العاصمة - الرياض ١٤٢٤هـ.
- (٨٣) فقه السيرة - د/ محمد سعيد رمضان البوطي - ط ٦ دار السلام - القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- (٨٤) فقه الغزوات - د/ محمود خلف جراد العيساوي - دار عمار - الأردن ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- (٨٥) في التاريخ الإسلامي - د/ شوقي أبو خليل - ط ٢ دار الفكر - دمشق، ودار الفكر المعاصر - بيروت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (٨٦) في ظلال الرسول ﷺ - د/ عبد الحليم عويس - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٨٠م.
- (٨٧) في ظلال القرآن - أ/ سيد قطب - ط ٢٢ دار الشروق - القاهرة ١٩٩٢م.
- (٨٨) قراءة سياسية للسيرة النبوية - د/ محمد رواس قلعجي - دار النفائس - بيروت ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- (٨٩) القيم الإدارية والمهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية وتطبيقاتها في الإدارة المدرسية (ماجستير) - د/ عيضة بن حسين بن محمد آل فريز الزهراني - إشراف د/ عبد الله بن محمد بن عبد الله الحميدي - كلية التربية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
- (٩٠) الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه - اعتنى به أ/ رائد بن صبري بن أبي علفة - مكتبة الرشد - الرياض ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- (٩١) كشف الأستار عن زوائد البزار - الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧هـ) - تح الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- (٩٢) مجمع الزوائد = بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧هـ) - تح أ/ عبد الله محمد الدرويش - دار الفكر - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

- (٩٣) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - د/ محمد حميد الله - ط ٧ دار النفائس - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- (٩٤) محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام - أ/ محمد عبد المنعم رضوان - دار المأمون - القاهرة ١٩٨٤م.
- (٩٥) محمد ﷺ لماذا هو الأعظم؟ - د/ صالح إبراهيم - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م.
- (٩٦) محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق - الشيخ محمد الصادق عرجون - دار القلم - دمشق ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- (٩٧) مرويات غزوة الحديبية (ماجستير) - جمع وتخريج ودراسة د/ حافظ بن محمد بن عبد الله الحكمي - إشراف د/ أكرم ضياء العمري - قسم السنة النبوية بالجامعة الإسلامية - ط ٢ منشورات المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م.
- (٩٨) المستدرك على الصحيحين - الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري ، المعروف بابن البيع (٤٠٥ هـ) - تح أ/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، وط تح الشيخ مقبل بن هادي الوادعي - دار الحرمين - القاهرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- (٩٩) الاستفادة من قصص القرآن للدعوة والدعاة - د/ عبد الكريم زيدان - ط ٢ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- (١٠٠) المسند - الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١ هـ) - حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون - ط ٢ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (١٠١) المصنف - الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٥ هـ) - حققه وقوم نصوصه وخرّج أحاديثه أ/ محمد عوّامة - دار القبة بجدة ومؤسسة علوم القرآن بدمشق ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- (١٠٢) المصنّف - الإمام الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١ هـ) - عني بتحقيق نصوصه، وتخرّج أحاديثه، والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الأعظمي - المجلس العلمي بالهند - توزيع المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (١٠٣) المضامين التربوية المستنبطة من صلح الحديبية وتطبيقاتها التربوية في الأسرة والمدرسة (ماجستير) - د/ هدى بنت هليل بن علي اللحاني - إشراف د/ نجم الدين بن عبد الغفور الأنديجاني - كلية التربية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

- (١٠٤) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية - الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) - ج ١٧ تح د/ خالد بن عبد الرحمن بن سالم البكر - تنسيق د/ سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري - دار العاصمة ودار الغيث بالرياض - ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- (١٠٥) المعجم الأوسط - الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - تح أ/ طارق بن عوض الله بن محمد وأ/ عبد المحسن بن إبراهيم الحسني - دار الحرمين - القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- (١٠٦) معجم البلدان - الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادى (٦٢٦هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- (١٠٧) المعجم الصغير = الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني - الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - تح أ/ محمد شكور محمود الحاج أمين - المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- (١٠٨) المعجم الكبير - الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - حققه وخرّج أحاديثه أ/ حمدي عبد المجيد السلفي - ط ٢ مكتبة ابن تيمية - القاهرة د.ت.
- (١٠٩) معرفة الصحابة رحمهم الله - الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (٤٣٠هـ) - تح أ/ عادل بن يوسف العزازي - دار الوطن - الرياض ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- (١١٠) المغازي - الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي (٢٠٧هـ) - تح د/ مارسدن جونس - طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - د.ت.
- (١١١) المفاوضات بين الحديبية وروح العصر: دراسة شرعية وقانونية - ل.ر.د/ أنور ماجد عشقي - مكتبة التوبة - الرياض ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (١١٢) مقاصد الشريعة في غزوات الرسول ﷺ (ماجستير) - د/ عبد الرحمن عثمان علي سليمان - إشراف د/ عبد الحمود بلال منير - كلية الشريعة والقانون - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- (١١٣) من أسرار الفتح : فتح مكة - أ/ البهي الخولي - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.
- (١١٤) من معين السيرة - أ/ صالح أحمد الشامي - ط ٣ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.



- (١١٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - الإمام أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) - ط ٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧١م.
- (١١٦) منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ماجستير) - د/ سليم عبد الله حجازي - إشراف د/ محمد بن عبد الرحمن الراوي - المعهد العالي للدعوة الإسلامية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ط دار المنارة - جدة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- (١١٧) المنهج الحركي للسيرة النبوية - د/ منير محمد الغضبان - ط ٦ مكتبة المنار - الأردن ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- (١١٨) الموطأ: برواياته، بزياداتها وزوائدها، واختلاف ألفاظها - الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) - تح الشيخ سليم بن عيد الهلالي - مجموعة الفرقان التجارية - دبي ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- (١١٩) موقف يهود خيبر وشمال الحجاز من الدولة الإسلامية إلى إجلائهم في عهد عمر رضي الله عنه (ماجستير) - د/ فاضل عبد الله رضوان - إشراف د/ محمد محمد زيتون - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (١٢٠) نفثات صدر المكمّد وقرّة عين الأرمّد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد - العلامة الشيخ محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي - خرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط - ط ٥ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- (١٢١) النهاية في غريب الحديث والأثر - الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ) - تح د/ طاهر أحمد الزاوي، ود/ محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- (١٢٢) النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية - أ/ محمد فتح الله كولن - ترجمة أ/ أورخان محمد علي - دار النيل ومؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (١٢٣) هدي السيرة: في رحاب السيرة العطرة - الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٣م.

## [١] فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الثاني من غزوة الحديبية

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ٥      | الباب الثاني: المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية):                               |
| ٧      | الفصل الأول: عرض المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية):                            |
| ٧      | المبحث الأول: صلح الحديبية:  |
| ٧      | قريش تسعى للصلح بعد البيعة   |
| ٧      | كيف نصح سهيل بن عمرو قريشًا بالجنوح إلى السلم؟   |
| ٧      | إرسال قُرَيْشٍ سُهِيلًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ لِلصُّلْحِ  |
| ٩      | سهيل بن عمرو يشاهد بيعة الرضوان - سهيل بن عمرو النجم اللامع                                  |
| ١٠     | هيئة الوفد القرشي - الخطوط العريضة للمعاهدة عند قريش   |
| ١١     | سهّل الله لكم من أمركم - رغبة النبي ﷺ في السلام  |
| ١٢     | أسباب الصلح ومقدماته   |
| ١٥     | بدء المفاوضات  |
| ١٦     | اعتذار رئيس الوفد القرشي للنبي ﷺ وإطلاق سراح عثمان ؓ   |
| ١٦     | النبي ﷺ يطلق سراح المشركين المحتجزين   |
| ١٧     | بحث بنود الصلح - النبي ﷺ في حراسة أصحابه ؓ   |
| ١٨     | بنود الصلح التاريخية - الحل الوسط  |
| ١٩     | أهم بنود الصلح   |
| ٢٠     | الشروط التي تم عليها الصلح   |
| ٢٦     | المبحث الثاني: موقف الصحابة ؓ من صلح الحديبية:   |
| ٢٦     | تألم عمر ؓ وبعض الصحابة ؓ من شروط قريش   |
| ٢٨     | احتجاج عمر ؓ ومجادلته النبي ﷺ  |
| ٢٩     | ألسنا بالمسلمين وأليسوا بالمشركين؟   |
| ٣١     | اشتداد الكرب على المسلمين - مَا أَهَمَّ النَّاسَ مِنَ الصُّلْحِ وَحِجِّيْ أُبَيِّ جَنْدَلٍ ؓ |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ٣٤     | تسليم أبي جندل <small>رضي الله عنه</small> للمشركين - النبي <small>ﷺ</small> يعتذر لأبي جندل <small>رضي الله عنه</small> |
| ٣٤     | أبو جندل <small>رضي الله عنه</small> يستسلم ويطيع أمر الرسول <small>ﷺ</small> - ازدياد الكرب على المسلمين                |
| ٣٥     | سهيل بن عمرو يرفض شفاعة الرسول <small>ﷺ</small> في ابنه  |
| ٣٥     | عضوا الوفد القرشي يجيران أبا جندل <small>رضي الله عنه</small> - تفجّر المعارضة بين المسلمين من جديد                      |
| ٣٥     | ابن الخطاب <small>رضي الله عنه</small> يغري أبا جندل <small>رضي الله عنه</small> يقتل أبيه المشرك                        |
| ٣٦     | يا عمر لعله يقوم مقاماً يُحمد عليه - عودة المعارضة إلى مناقشة النبي <small>ﷺ</small>                                     |
| ٣٨     | المبحث الثالث: توثيق صلح الحديبية:   |
| ٣٨     | الخلاف حول صيغة المعاهدة   |
| ٣٩     | سيّد الأنصار يتدخلان   |
| ٤٠     | الرسول <small>ﷺ</small> يحسم الخلاف - الصيغة النهائية لوثيقة الصلح   |
| ٤١     | عليّ <small>رضي الله عنه</small> يكتب شروط الصلح   |
| ٤٢     | شهود الصلح من الجانبين   |
| ٤٣     | نسخ المعاهدة للفريقين  |
| ٤٤     | المبحث الرابع: نتائج صلح الحديبية:   |
| ٤٤     | إنهاء حالة الحرب بين خزاعة وكنانة أيضاً  |
| ٤٤     | دُخُولُ خَزَاعَةَ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ <small>ﷺ</small> وَبَنِي بَكْرِ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ                               |
| ٤٤     | عداوة الإسلام جمعت بين كنانة وقريش   |
| ٤٥     | خزاعة لم تكن عدوة لقريش - كيف انقلب العدو صديقاً   |
| ٤٥     | خزاعة في عهد المسلمين، وكنانة في عهد قريش  |
| ٤٦     | غضب قريش على خزاعة لدخولها في عهد المسلمين   |
| ٤٧     | النبي <small>ﷺ</small> يرفض تسليم لاجئين من العبد والشباب القرشي   |
| ٤٩     | المبحث الخامس: الإحلال من الإحرام:   |
| ٤٩     | النبي <small>ﷺ</small> يحل الإحرام في الحديبية - من رواسب المعارضة للصلح   |
| ٤      | النبي <small>ﷺ</small> يعمل بمشورة زوجته أم سلمة <small>رضي الله عنها</small>  |
| ٥٠     | أم سلمة <small>رضي الله عنها</small> تشير على النبي <small>ﷺ</small> ، فتنجح في المشورة                                  |

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٥١     | دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ لِلْمُحَلِّقِينَ ثُمَّ لِلْمُقَصِّرِينَ   |
| ٥٣     | التبرك بشعر النبي ﷺ   |
| ٥٤     | عدد الهدى الذي نحره المسلمون في عمرة الحديبية - قصة جمل أبي جهل   |
| ٥٦     | مائة ناقة ثمنًا لجمل أبي جهل  |
| ٥٧     | هل نحر المسلمون الهدى في الحِلِّ أو في الحرم؟   |
| ٥٩     | نحر عشرين بدنة عند المروة   |
| ٦٠     | المبحث السادس: العودة إلى المدينة:  |
| ٦٠     | مدة الإقامة في الحديبية - انصراف المسلمين من الحديبية ونومهم عن صلاة الصبح                                |
| ٦٥     | طريق العودة إلى المدينة   |
| ٦٦     | بُشْرَى فَتَحَ مَكَّةَ وَتَعَجَّلَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ - نُزُولُ سُورَةِ الْفَتْحِ                      |
| ٦٩     | المجاعة في طريق العودة  |
| ٧٠     | النبي ﷺ يعمل بمشورة ابن الخطاب ؓ  |
| ٧٠     | معجزة النبي ﷺ في نبع الماء من أصابعه وفي تكثير الطعام   |
| ٧٤     | نزول المسلمين بالأثاية  |
| ٧٥     | نسيان الصحابة ؓ لمكان الشجرة في العام القابل  |
| ٧٦     | غنائم خيبر لمن شهد الحديبية   |
| ٧٧     | المبحث السابع: المستضعفون بعد صلح الحديبية:   |
| ٧٧     | وفاء المسلمين بالعهد  |
| ٧٨     | مَا جَرَى عَلَيْهِ أَمْرٌ قَوْمٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بَعْدَ الصُّلْحِ                                 |
| ٧٨     | قَتْلُ أَبِي بَصِيرٍ ؓ لِلْعَامِرِيِّ وَمَقَالَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي ذَلِكَ                                 |
| ٨٠     | أَرَادَ سُهَيْلٌ وَذِي أَبِي بَصِيرٍ ؓ وَشَعْرٌ مَوْهَبٌ فِي ذَلِكَ                                       |
| ٨٠     | شِعْرُ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي الرَّدِّ عَلَى مَوْهَبٍ  |
| ٨٢     | اجْتِمَاعُ الْمُحْتَبِسِينَ إِلَى أَبِي بَصِيرٍ ؓ وَإِيدَاؤُهُمْ قُرَيْشًا وَإِيوَاءُ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ |
| ٨٤     | شعر أبي جندل ؓ - تحلي قريش عن أهم شروطها  |
| ٨٩     | المبحث الثامن: المهاجرات إلى الله:  |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ٨٩     | أَمْرُ الْمُهَاجِرَاتِ بَعْدَ الْهُدْنَةِ  |
| ٩١     | سُؤَالُ ابْنِ جُرَيْجٍ لِعَطَاءٍ عَنْ آيَةِ الْمُهَاجِرَاتِ وَرَدُّهُ عَلَيْهِ     |
| ٩١     | سُؤَالُ ابْنِ هُنَيْدَةَ لِعُرْوَةَ عَنْ آيَةِ الْمُهَاجِرَاتِ وَرَدُّهُ عَلَيْهِ  |
| ٩١     | سُؤَالُ ابْنِ إِسْحَاقَ الزُّهْرِيِّ عَنْ آيَةِ الْمُهَاجِرَاتِ                    |
| ٩٥     | الفصل الثاني: الدروس المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية): |
| ٩٥     | المبحث الأول: الدروس العقائدية:  |
| ٩٥     | ١ - استحباب الفأل وأنه مغاير للطيرة  |
| ٩٦     | ٢ - العبودية لله أرقى درجات الكمال الإنساني. ٣ - أمية الرسول ﷺ                     |
| ١٠١    | ٤ - اتهام العقل أمام النصوص الصريحة  |
| ١٠٦    | ٥ - تنفيذ الأمر الإلهي وإن خفيت مصلحته   |
| ١٠٨    | ٦ - العبرة بما تقول إليه الأمور. ٧ - بين خوف الأخيار وتحكيم الآراء والأهواء        |
| ١٠٩    | ٨ - وهل شك عمر رضي الله عنه بدينه؟ ٩ - تكفير الزلات                                |
| ١١٠    | ١٠ - إثبات المعجزة النبوية في صلح الحديبية لمحمد ﷺ                                 |
| ١١٢    | ١١ - هل رفض النحر والخلق مخالفة جماعية؟ ١٢ - نظرات في رؤيا الرسول ﷺ                |
| ١١٣    | ١٣ - العزة والثقة بنصر الله لا تفارق المؤمنين                                      |
| ١١٣    | ١٤ - البشرى بالفتح وفضل الله على رسوله   |
| ١١٦    | ١٥ - بشارات الحديبية   |
| ١١٧    | ١٦ - المنافقون وصلح الحديبية   |
| ١١٨    | ١٧ - نعمة الله على المؤمنين بالفتح وتعذيبه للمنافقين والمشركين                     |
| ١٢١    | ١٨ - كشف وفضح المتخلفين وتهديدهم وبيان حقيقة المعذورين                             |
| ١٢٥    | ١٩ - الصلح ذن وعيباً   |
| ١٢٧    | ٢٠ - ملامح الشخصية الإسلامية   |
| ١٣٠    | ٢١ - صلح الحديبية الفتح المبين   |
| ١٣٤    | ٢٢ - عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً                               |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ١٣٨    | ٢٣- زِيَادَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِذْعَانِ                                 |
| ١٣٩    | ٢٤- مَغْنَى فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ                                      |
| ١٤١    | ٢٥- سورة الفتح تبين أسرار الفتح  |
| ١٤٩    | ٢٦- تحقيق الإيمان بالله ﷻ  |
| ١٥٥    | ٢٧- وعدُ الله للمبايعين وحفظه لهم وترتيبه الأحداث لمصلحتهم               |
| ١٥٧    | ٢٨- كلمة وجيزة عن حكمة هذا الصلح   |
| ١٦٠    | ٢٩- حكمة صلح الحديبية والسكينة من الله للمؤمنين                          |
| ١٦٢    | ٣٠- صدق وعد الله لرسوله والمؤمنين  |
| ١٦٤    | ٣١- صورة وضيفة للرسول ﷺ وأصحابه ﷺ  |
| ١٧٢    | ٣٢- عمر ﷺ وحماية التوحيد   |
| ١٧٥    | ٣٣- الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. ٣٤- قصة العقيدة المكافحة        |
| ١٧٦    | المبحث الثاني: الدروس التربوية والأخلاقية:                               |
| ١٧٦    | ١- تيسير الأمور ورفع الحرج. ٢- الأدب المستحب من الإمام علي ﷺ             |
| ١٧٧    | ٣- أسباب عدم قبول الصحابة ﷺ لشروط الصلح في بادئ الأمر                    |
| ١٧٨    | ٤- إيضاح أهم نقطة إشكال  |
| ١٨٠    | ٥- الحكمة في قبول شروط سهيل. ٦- الصبر والاحتمال لمصلحة الإسلام والمسلمين |
| ١٨٢    | ٧- ضبط النفس   |
| ١٨٣    | ٨- الرد على افتراءات المستشرقين  |
| ١٨٥    | ٩- الجرأة في الحق  |
| ١٨٦    | ١٠- الحكمة من حوار عمر بن الخطاب ﷺ ومكانة أبي بكر ﷺ                      |
| ١٨٧    | ١١- تأويل قصة أبي جندل ﷺ   |
| ١٨٨    | ١٢- ما يستفاد من قصة أبي جندل ﷺ  |
| ١٨٩    | ١٣- وُفِّتْ بِأَبِ الْمُودَةِ عَلَى مَصْرَاعِهِ. ١٤- الصلح خير           |
| ١٩١    | ١٥- المنهج الإسلامي في الوفاء بالعهود                                    |
| ١٩٧    | ١٦- درس رائع واختبار قاس   |

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ١٩٩    | ١٧ - حسن التصرف في المواقف الصعبة وتكريم المرأة                               |
| ٢٠٠    | ١٨ - اهتمام المرأة بزوجها. ١٩ - أهمية القدوة العملية وتأثيرها على الآخرين     |
| ٢٠١    | ٢٠ - أسباب تردد الصحابة <small>رضي الله عنهم</small> في تنفيذ الأمر النبوي    |
| ٢٠٢    | ٢١ - دلالات سوق جمل أبي جهل في الهدى. ٢٢ - مُعَايِظَةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ      |
| ٢٠٣    | ٢٣ - تقديم المصلحة العامة   |
| ٢٠٤    | ٢٤ - نظرة على بنود الصلح  |
| ٢٠٥    | ٢٥ - رعاية الله <small>ﷻ</small> للجماعة المؤمنة                              |
| ٢٠٦    | ٢٦ - ولتكون آية للمؤمنين  |
| ٢٠٧    | ٢٧ - الصف الداخلي القوي من خلال صلح الحديبية                                  |
| ٢١٢    | ٢٨ - آثار معاهدة الحديبية في إبراز معالم منهج الرسالة                         |
| ٢١٣    | ٢٩ - مدرسة الحديبية   |
| ٢١٤    | ٣٠ - صلح الحديبية شامة في جبين الدهر  |
| ٢١٦    | ٣١ - بعض فوائد صلح الحديبية لابن عبد الوهاب                                   |
| ٢٢٢    | ٣٢ - ثمرة الغزوة  |
| ٢٢٣    | ٣٣ - كيفية تربية جيل الدعوة   |
| ٢٤٢    | ٣٤ - الشرط الظالم!!   |
| ٢٤٤    | ٣٥ - ثوار العيص، وحكومة المستضعفين في الساحل                                  |
| ٢٤٥    | ٣٦ - المستضعفون الأقوياء  |
| ٢٤٦    | ٣٧ - صروح الكفر والطغيان تنهار أمام عزومات الإيمان                            |
| ٢٤٧    | ٣٨ - مثل رائع لوفاء المسلم وثباته على عقيدته                                  |
| ٢٤٩    | ٣٩ - الوفاء بالعهد يورث القوة، ويمنح البر، ويوافي أفضل النتائج، وأعظم البركات |
| ٢٥٢    | ٤٠ - روائع للثبات على الحق، ونموذج لخذلان الباطل                              |
| ٢٥٣    | ٤١ - أن يكون المسلم صاحب إرادة قوية   |
| ٢٥٨    | ٤٢ - أبو بصير <small>رضي الله عنه</small> وثيقة اتهام!!                       |
| ٢٦٠    | ٤٣ - أبو بصير <small>رضي الله عنه</small> قمة في العزة الإسلامية              |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ٢٦٩    | ٤٤ - ما يستفاد من قصة أبي بصير <small>رضي الله عنه</small>   |
| ٢٧١    | ٤٥ - ما يستفاد من هجرة أم كلثوم بنت عقبة <small>رضي الله عنها</small>  |
| ٢٧٢    | ٤٦ - هجرة المستضعفين   |
| ٢٧٤    | المبحث الثالث: الدروس الفقهية:   |
| ٢٧٤    | ١ - تقرير مبدأ المصالحة  |
| ٢٧٦    | ٢ - مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم   |
| ٢٨١    | ٣ - مبادئ المفاوضات في الإسلام   |
| ٢٨٤    | ٤ - حكم الشروط في عقد الهدنة. ٥ - مقدار المدة التي تجوز مهادنة الكفار عليها  |
| ٢٨٧    | ٦ - تنفيذ المعاهدة ونطاق سريانها   |
| ٢٩٣    | ٧ - فقه التنازلات، أم فقه الموازنات؟   |
| ٢٩٥    | ٨ - يُغْنِي فِي الشُّهُودِ عَلَيْهِ إِذَا عُرِفَ بِاسْمِهِ وَاسْمُ أَبِيهِ عَنْ ذِكْرِ الْجَدِّ  |
| ٢٩٦    | ٩ - الآثار القانونية للمعاهدة  |
| ٣٠٠    | ١٠ - هل تجوز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلماً؟  |
| ٣٠١    | ١١ - صلح الحديبية وأثره في تسليم المطلوبين   |
| ٣٠٤    | ١٢ - حكم الإحصار في العمرة والحج   |
| ٣٠٨    | ١٣ - مُضَاعَفَةُ الصَّلَاةِ بِمَكَّةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْحَرَمِ لَا يُخَصُّ بِهَا الْمَسْجِدُ  |
| ٣٠٩    | ١٤ - الوقوف على رُخص الحديبية  |
| ٣١٠    | ١٥ - الْأَمْرُ الْمَطْلُوقُ عَلَى الْفَوْرِ. ١٦ - مُشَارَكَةُ أُمَّتِهِ لَهُ <small>ﷺ</small> فِي الْأَحْكَامِ إِلَّا مَا خَصَّ الدَّلِيلُ |
| ٣١٠    | ١٧ - المطلق يُجْرَى عَلَى إِطْلَاقِهِ  |
| ٣١١    | ١٨ - إذا عاهد الإمام قومًا فخرجت عليهم طائفة من المسلمين غير متحيزة إلى الإمام، لم يجب على الإمام دفعها عنهم                               |
| ٣١١    | ١٩ - إذا رد الإمام إلى المعاهدين من جاء من قبلهم فأحدث جنائية فيهم، فليس على الإمام ضمان   |
| ٣١١    | ٢٠ - يَسَعُ الْفَرْدُ مَا لَا يَسَعُ الْجَمَاعَةُ  |
| ٣١٣    | ٢١ - امتحان النساء المسلمات المهاجرات من مجتمع مشرك  |



| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٣١٤    | ٢٢ - بيان أن امتناع النبي ﷺ عن رد المهاجرات ليس إخلالاً بالصلح            |
| ٣١٦    | ٢٣ - خُرُوجُ الْبُضْعِ مِنْ مِلْكِ الزَّوْجِ مُتَقَوِّمٌ                  |
| ٣١٦    | ٢٤ - بيان حكم زواج المسلمة بالمشرك والمسلم بالمشركة                       |
| ٣٢١    | المبحث الرابع: الدروس السياسية:   |
| ٣٢١    | ١ - امتلاك القائد القدرة على الحرب والسلام. ٢ - تقرير مبدأ التفاوض        |
| ٣٢٦    | ٣ - تقرير مبدأ الهدنة   |
| ٣٢٨    | ٤ - الأخذ بمبدأ الشورى  |
| ٣٣٠    | ٥ - ليس في السنة افتيات على حق الجماعة في الشورى                          |
| ٣٣٢    | ٦ - اختيار مكان المفاوضات   |
| ٣٣٣    | ٧ - المفاوضات بمهارات متعددة  |
| ٣٣٤    | ٨ - المتغيرات النفسية وأثرها على مفاوضات الحديبية                         |
| ٣٣٥    | ٩ - أثر المتغيرات والأبعاد الثقافية على مفاوضات الحديبية                  |
| ٣٣٦    | ١٠ - إستراتيجية التفاوض التي استخدمت في مفاوضات الحديبية                  |
| ٣٣٩    | ١١ - تأصيل المفاهيم والغايات  |
| ٣٤٤    | ١٢ - حِكْمَةٌ عَالِيَةٌ   |
| ٣٤٥    | ١٣ - معرفة أساس علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات البشرية حرباً ورسلاً |
| ٣٤٥    | ١٤ - مبدأ الاعتراف والتعامل مع العالم الخارجي                             |
| ٣٤٧    | ١٥ - عملية التفاوض  |
| ٣٥٢    | ١٦ - الصياغة والتوثيق للمعاهدات الإسلامية                                 |
| ٣٥٨    | ١٧ - أغراض معاهدة الحديبية  |
| ٣٦٤    | ١٨ - أهداف المفاوضات  |
| ٣٦٥    | ١٩ - أهداف الصلح. ٢٠ - من اتفاقية الصلح إلى اتفاقية السلم                 |
| ٣٦٦    | ٢١ - مفهوم المصالحة في إطار الدولة. ٢٢ - مفهوم القوة في إطار الدولة       |
| ٣٦٩    | ٢٣ - الصلح مع العدو والواقع المعاصر                                       |
| ٣٧٣    | ٢٤ - احترام المعارضة النزيهة التي مبعثها الإسلام                          |

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٣٧٥    | ٢٥- حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي. ٢٦- يجب الحكم على الأمور بروية |
| ٣٧٦    | ٢٧- استشراف أبعاد المعركة. ٢٨- مفهوم القوة والضعف والمسامحة والشدة        |
| ٣٧٦    | ٢٩- وطة الحرب.. ووطاة السلام  |
| ٣٨٢    | ٣٠- الاعتراف الرسمي من الوثنية بدولة الإسلام والمسلمين                    |
| ٣٨٧    | ٣١- استثمار الفرص وتحييد الأعداء  |
| ٣٨٨    | ٣٢- تقرير مبدأ المحالفة   |
| ٣٩٤    | ٣٣- تقرير مبدأ جواز عقد اتفاقيات أمنية متبادلة                            |
| ٣٩٩    | ٣٤- مبدأ مراعاة المقاصد الكلية في السياسة الشرعية                         |
| ٤٠٢    | ٣٥- المقصد الأمني لصلح الحديبية   |
| ٤٠٦    | ٣٦- الثقة بالقيادة الرشيدة. ٣٧- الحديبية... ذلك النصر العظيم              |
| ٤٠٨    | ٣٨- تحليل علمي لصلح الحديبية!!؟   |
| ٤١٢    | ٣٩- تبيين رأي المرأة السياسي  |
| ٤١٣    | ٤٠- القيم الإدارية المستنبطة من صلح الحديبية                              |
| ٤١٨    | ٤١- المهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية                           |
| ٤٢٣    | ٤٢- أهمية الإمارة في الإسلام  |
| ٤٢٤    | ٤٣- اغتنام كل الفرص الممكنة لتسخيرها لصالح الدولة المسلمة                 |
| ٤٢٤    | ٤٤- إصلاح الداخل الإسلامي والدعوة العالمية                                |
| ٤٢٦    | ٤٥- تصدع الموقف القرشي  |
| ٤٣٠    | المبحث الخامس: الدروس العسكرية:   |
| ٤٣٠    | ١- إحكام التدبير. ٢- حرب الدعاية  |
| ٤٣١    | ٣- توخي الهدف   |
| ٤٣٢    | ٤- المحافظة على الغرض   |
| ٤٣٤    | ٥- الضبط  |
| ٤٣٥    | ٦- الإصرار على تحقيق السلام في عهد الحديبية                               |
| ٤٣٧    | ٧- الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ                                     |

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٤٣٩    | ٨- الحياد المسلح  |
| ٤٤١    | ٩- تكوين جماعات الفدائيين. ١٠- أهمية اختيار مكان الانطلاق                       |
| ٤٤٢    | ١١- كيفية التعامل مع الجبهات  |
| ٤٤٨    | المبحث السادس: الدروس الدعوية والإعلامية:                                       |
| ٤٤٨    | ١- مجارة العدو في بعض ما يريد لتحقيق مصالح الدعوة                               |
| ٤٤٨    | ٢- مصالح الدعوة لا تُقاس بمصالحها الآنية بل بها وبالمستقبلية                    |
| ٤٤٩    | ٣- تفويت مقاصد خصوم الدعوة. ٤- سنة الله التي لا تتغير                           |
| ٤٤٩    | ٥- عدم تعمّد الخصام والحرص عليه مع خصوم الدعوة                                  |
| ٤٥٠    | ٦- حذار من الحمية الجاهلية  |
| ٤٥١    | ٧- لا حوار مع أصحاب الأديان إلا على أساس دعوتهم للإسلام                         |
| ٤٥٢    | ٨- توقيع اتفاقية إعلامية  |
| ٤٥٤    | ٩- الابتلاء من معالم الدعوة إلى الله. ١٠- فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ٤٥٥    | ١١- تأثير المشرّكين بالمسلمين. ١٢- اتباع أسلوب الترغيب في الدعوة إلى الله       |
| ٤٥٥    | ١٣- ثناء الله على أصحاب رسول الله ﷺ   |
| ٤٥٦    | ١٤- يَسْعُ الفرد ما لا يَسْعُ الجماعة ولا عضواً فيها                            |
| ٤٥٧    | ١٥- إزالة العوائق من أمام الدعوة الإسلامية                                      |
| ٤٥٨    | ١٦- تمهيد الطريق أمام انتشار الدعوة الإسلامية                                   |
| ٤٦٠    | ١٧- انتشار الدعوة الإسلامية   |
| ٤٦٥    | ١٨- الفقه الحركي للمستضعفين   |
| ٤٦٥    | ١٩- الدروس الإعلامية المستفادة من صلح الحديبية                                  |
| ٤٧٥    | المبحث السابع: العرض القرآني لغزوة الحديبية                                     |
| ٤٧٥    | ١- جو سورة الفتح  |
| ٤٧٩    | ٢- منهج القرآن في عرضه لغزوة الحديبية   |
| ٤٨٨    | ٣- معاهدة الحديبية في سورة الفتح  |
| ٤٩٣    | ٤- كما تحدث القرآن  |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ٥٠٠    | المبحث الثامن: نتائج وآثار صلح الحديبية:                           |
| ٥٠٠    | ١ - مكاسب الصلح العظيمة  |
| ٥٠٣    | ٢ - اعتراف قريش بكيان المسلمين                                     |
| ٥٠٤    | ٣ - تفهّم المشركين لحقيقة الإسلام. ٤ - انشقاق معسكر الشرك          |
| ٥٠٦    | ٥ - تأثر المشركين بواقع المسلمين. ٦ - صلح الحديبية هو الفتح العظيم |
| ٥٠٨    | ٧ - اختتام الإسلام في النفوس                                       |
| ٥٠٩    | ٨ - الانضباط الإسلامي  |
| ٥١١    | ٩ - التفرغ ليهود خيبر والشمال                                      |
| ٥١٢    | ١٠ - نقل المعركة إلى الشام   |
| ٥١٣    | ١١ - دعوة ملوك الشرق الأوسط إلى الإسلام                            |
| ٥١٣    | ١٢ - آثار هدنة الحديبية:   |
| ٥١٤    | أولاً: آثار الهدنة في داخل الجزيرة                                 |
| ٥٢٠    | ثانياً: آثار الهدنة في خارج الجزيرة                                |
| ٥٢٠    | ١٣ - الآثار والمغانم   |
| ٥٢٧    | ١٤ - نتائج غزوة و صلح الحديبية                                     |
| ٥٣٧    | ١٥ - مكاسب المسلمين من صلح الحديبية                                |
| ٥٣٨    | ١٦ - الآثار التي ترتبت على صلح الحديبية                            |
| ٥٤٠    | ١٧ - فائدة صلح الحديبية  |
| ٥٤١    | ١٨ - ثمرات الحديبية  |
| ٥٤٢    | ١٩ - الآثار الإستراتيجية بعيدة المدى لصلح الحديبية                 |
| ٥٤٣    | ٢٠ - النتائج السياسية لصلح الحديبية                                |
| ٥٤٥    | ٢١ - الآثار العملية للصلح  |
| ٥٥١    | مصادر ومراجع غزوة الحديبية   |
| ٥٦١    | فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الثاني من غزوة الحديبية              |
| ٥٧٢    | فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الثاني من غزوة الحديبية              |

## [٢] فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الثاني من غزوة الحديبية

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| ٥      | الباب الثاني: المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية):                     |
| ٧      | الفصل الأول: عرض المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية):                  |
| ٧      | المبحث الأول: صلح الحديبية   |
| ٢٦     | المبحث الثاني: موقف الصحابة <small>رضي الله عنهم</small> من صلح الحديبية           |
| ٣٨     | المبحث الثالث: توثيق صلح الحديبية  |
| ٤٤     | المبحث الرابع: نتائج صلح الحديبية  |
| ٤٩     | المبحث الخامس: الإحلال من الإحرام  |
| ٦٠     | المبحث السادس: العودة إلى المدينة  |
| ٧٧     | المبحث السابع: المستضعفون بعد صلح الحديبية   |
| ٨٩     | المبحث الثامن: المهاجرات إلى الله  |
| ٩٥     | الفصل الثاني: الدروس المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية): |
| ٩٥     | المبحث الأول: الدروس العقائدية   |
| ١٧٦    | المبحث الثاني: الدروس التربوية والأخلاقية  |
| ٢٧٤    | المبحث الثالث: الدروس الفقهية  |
| ٣٢١    | المبحث الرابع: الدروس السياسية   |
| ٤٣٠    | المبحث الخامس: الدروس العسكرية   |
| ٤٤٨    | المبحث السادس: الدروس الدعوية والإعلامية   |
| ٤٧٥    | المبحث السابع: العرض القرآني لغزوة الحديبية  |
| ٥٠٠    | المبحث الثامن: نتائج وآثار صلح الحديبية  |
| ٥٥١    | مصادر ومراجع غزوة الحديبية   |
| ٥٦١    | فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الثاني من غزوة الحديبية                              |
| ٥٧٢    | فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الثاني من غزوة الحديبية                              |